تفسير



الشعراوي

المجلد العاشر

أخبار اليوم

قطاع الثقافة

تفسير

الشعراوي

المجلد العاشر

من الآية ١٥ « سورة يونس » الى الآية ٢٧ « سورة هود »

وبذلك يعلم الإنسان أن الحق سبحانه شاء ذلك ؛ ليعرف كل عبد عِلم الواقع ، لا عِلْم الحصول.

إذن : فذكر كلمة ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ وكلمة ﴿لِنَنظُرَ﴾ فى القرآن معناها علم واقع ، وعلم مشهد ، وعلم حُجّة على العبد ؛ فلا يستطيع أن ينكر ما حدث ، وقوله الحق :

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

هذه الآية تبين لنا أدوات انتظام الحكم الإلهى: رسل جاءوا بالبرهان والبينة ، وأنزل الحديد للقهر ، قال الحق سبحانه :

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

وقرن ذلك بالرسل ، فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ والنصرة لا تكون إلا بقوة ، والقوة تأتى بالحديد [1] الذى يظل حديداً إلى أن تقوم الساعة ، وهو المعدن ذو البأس ، والذى لن يخترعوا ما هو أقوى منه ، وعِلْم الله سبحانه هنا علْم وقوع منكم ، لا تستطيعون إنكاره ؛ لأنه سبحانه لو أخبر خبراً دون واقع منكم ؛ فقد تكذبون ؛ لذلك قال سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ وفى هذا لون من الاحتياط الجميل.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ كأن الله يطلب منكم أن تنصروه ، لكن إياكم أن تفهموا المعنى أنه سبحانه ضعيف ، معاذ الله ، بل هو قوى وعزيز . فهو القائل:

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ .. (١٤)﴾ [التوبة]

---

(١) الحديد : الفلز المعروف تصنع منه الآلات المختلفة النافعة للناس . يقول الحق سبحانه : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى : فيه صلابة وقوة ، وهو وسيلة من وسائل النصر والعمران ، وقد يكون وسيلة للدمار ؛ إذا وضع فى يد من لا ضمير له ولا إيمان عنده .

بل يريد سبحانه أن يكون أعداء الإيمان أذلاء أمامكم ؛ لأنه سبحانه يقدر عليهم .

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ إنما يعنى : أن يكون علم الله بمن ينصر منهجه أمراً غيبياً ؛ حتى لا يقول أحدٌ إن انتصار المنهج جاء صدفة ، بل يريد الحق سبحانه أن يجعل نُصْرة منهجه بالمؤمنين ، حتى ولو قَلّت عدَّتُهم ، وقلّ عددهم .

إذن : قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ .. (١٤) ﴾ [يونس]

أى : نظر واقع ، لا نظر علم .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا[(١)] بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ[(٢)] نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾

نحن نعرف أن الآيات ثلاثة أنواع : آيات كونية ، وهى العجائب التى فى الكون ويسميها الله سبحانه آيات ، فالآية هى عجيبة من العجائب ، سواء

---

(١) الآية : العبرة ، والآية : المعجزة أو الشيء العجيب . والجمع : آيات ، وآى . قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ .. (٥٣) ﴾ [فصلت] ، والآيات هنا : الأدلة الواضحة على وحدانية الله وكمال قدرته وقيوميته . [لسان العرب : مادة (أيا) . . بتصرف] .

(٢) التِّلقاء : مصدر لَقِىَ . يقال : يسرنى تلقاؤك أى : لقاؤك . ويستعمل ظرف مكان بمعنى جهة اللقاء والمقابلة .

فى الذكاء أو الجمال أو الخُلُق ، وقد سَمَّى الحق سبحانه الظواهر الكونية آيات ؛ فقال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧) ﴾ [فصلت]

وقال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٢١) ﴾ [الروم]

وهذه من الآيات الكونية .

وهناك آيات هى الدليل على صدق الرسل - عليهم السلام - فى البلاغ عن الله ، وهى المعجزات ؛ لأنها خالفت ناموس الكون المألوف للناس . فكل شىء له طبيعة ، فإذا خرج عن طبيعته ؛ فهذا يستدعى الانتباه .

مثلما يحكى القرآن عن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - أن أعداءه أخذوه ورموه فى النار فنجّاه الحق سبحانه من النار ؛ فخرج منها سالماً ، ولم يكن المقصود من ذلك أن ينجو إبراهيم من النار ، فلو كان المقصود أن ينجو إبراهيم عليه السلام من النار ؛ لحدثت أمور أخرى ، كألا يمكّنهم الحق - عزّ وجلّ - من أن يمسكوه ، لكنهم أمسكوا به وأشعلوا النار ورموه فيها ، ولو شاء الله تعالى أن يطفئها لفعل ذلك بقليل من المطر ، لكن ذلك لم يحدث ؛ فقد تركهم الله فى غيّهم [1] ، ولأنه واهب النار للإحراق قال سبحانه وتعالى لها :

﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

---

(١) الغَىّ : الضلال . غَوَى غَيّاً وغَوَايةً : أمعن فى الضلال ، قال تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) ﴾ [النجم] وتَغَاوى القوم : تجمعوا وتعاونوا على الشر . واستغواه بالأمانىّ الكاذبة : طلب غَيَّه وأضلَّه . وقال تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة] . [المعجم الوسيط : مادة (غوى) . . بتصرف] .

وهكذا تتجلى أمامهم خيبتهم.

إذن: الآيات تُطلَق على الآيات الكونية، وتطلق على الآيات المعجزات، وتطلق أيضاً على آيات القرآن ما دامت الآيات القرآنية من الله والمعجزات من الله ، وخلق الكون من الله ، فهل هناك آية تصادم آية ؟ لا ؛ لأن الذى خلق الكون وأرسل الرسل بالمعجزات وأنزل القرآن هو إله واحد ، ولو كان الأمر غير ذلك لحدث التصادم بين الآيات ، والحق سبحانه هو القائل:

﴿ .. وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [النساء]

وقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ..(١٥) ﴾ [يونس]

أى: آيات واضحة. ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾

وعرفنا أن الرجاء طلب أمر محبوب ومن الممكن أن يكون واقعاً ، مثلما يرجو إنسان أن يدخل ابنه كلية الطب أو كلية الهندسة. ومقابل الرجاء شىء آخر محبوب ، لكن الإنسان يعلم استحالته ، وهو التمنِّى ، فالمحبوبات - إذن - قسمان: أمور متُمنَّاة وهى فى الأمور المستحيلة، لكن الإنسان يعلن أنه يحبها ، والقسم الثانى أمور نحبها، ومن الممكن أن تقع، وتسمى رجاء.

﴿ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ هم مَن لا يؤمنون ، لا بإله ، ولا ببعث ؛ فقد قالوا:

﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ [1] (٢٤) ﴾ [الجاثية]

---

(١) الدَّهر: الزمان الطويل ، ومدّة الحياة الدنيا. قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) ﴾ [الإنسان] . وقال ﷺ : «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» ومعناه: أن ما أصابك من الدهر ، فالله فاعله وليس الدهر ، فإذا شتمت الدهر ، فكأنك أردت به الله تعالى سبحانه عما يقولون أو يصفون. [لسان العرب: مادة (دهر) - بتصرف].

وقالوا:

﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ .. (٨٢)﴾ [المؤمنون]

وإذا كان الإنسان لا يؤمن بالبعث ؛ فهو لا يؤمن بلقاء الله سبحانه ؛ لأن الذى يؤمن بالبعث يؤمن بلقاء الله ، ويُعدّ نفسه لهذا اللقاء بالعبادة والعمل الصالح ، ولكن الكافرين الذين لا يؤمنون بالبعث سيُفاجَأون بالإله الذى أنكروه ، وسوف تكون المفاجأة صعبة عليهم ؛ ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ [1] بِقِيعَةٍ [2] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .. (٣٩)﴾ [النور]

السراب: هو أن يمشى الإنسان فى خلاء الصحراء ، ويخيل إليه أن هناك ماءً أمامه ، وكلّما مشى ظن أن الماء أمامه ، وما إن يصل إلى المكان يجد أن الماء قد تباعد. وهذه العملية لها علاقة بقضية انعكاس الضوء ، فالضوء ينعكس ؛ ليصور الماء وهو ليس بماء:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩)﴾ [النور]

إنه يُفاجَأ بوجود الله سبحانه الذى لم يكن فى باله ، فهو واحد من الذين لا يرجون لقاء الله ، وهو ممن جاء فيهم القول:

---

(١) السَّراب: ما يُرى فى نصف النهار من اشتداد الحرّ كالماء فى الصحراء يلتصق بالأرض. وهو من خداع البصر. وقد سُمِّى السراب سراباً لأنه يسرب سروباً ، أى: يجرى جرياً ، أى: يتحرك حركة تخدع الرائى من بعيد ؛ فيظنه ماء وهو ليس بماء ، بل خداع ضوئى وبصرى ناتج عن الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه ووجوده فى صحراء قاحلة ؛ فأى حركة من بعيد يظنها ماء ؛ ويجرى إليها ؛ ليفاجأ بعدم وجود شىء.

(٢) القيعة: أرض واسعة مستوية لا تنبت الشجر. قال الفرّاء: القيعة جمع القاع ، والقاع: ما انبسط من الأرض. قال تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦)﴾ [طه]. [اللسان: مادة (قوع).. بتصرف].

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ [١] أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [السجدة]

رغم أن الكون الذى نراه يُحتِّم قضية البعث ؛ لأننا نرى أن لكل شىء دورة ، فالوردة الجميلة الممتلئة بالنضارة تذبل بعد أن تفقد مائيَّتها ، ويضيع منها اللون ، ثم تصير تراباً. وأنت حين تشم الوردة فهذا يعنى أن ما فيها من عطر إنما يتبخر مع المياه التى تخرج منها بخاراً ، ثم تذبل وتتحلل بعد ذلك.

إذن : فللوردة دورة حياة. وأنت إن نظرت إلى أى عنصر من عناصر الحياة مثل المياه سوف تجد أن الكمية الموجودة من الماء ساعة خلق الله السموات والأرض هى بعينها ؛ لم تَزِدْ ولم تنقص. وقد شرحنا ذلك من قبل. وكل شىء تنتفع به له دورة ، والدورة تُسلم لدورة أخرى ، وأنت مستفيد بين هذه الدورات ؛ هدماً وبناءً.

والذين لا يرجون لقاء الله ، ولا يؤمنون بالبعث ، ولا بثواب أو عقاب ، لا يلتفتون إلى الكون الذى يعيشون فيه [٢] ؛ لأن النظر فى الكون وتأمُّل أحواله يُوجب عليهم أن يؤمنوا بأنها دورة من الممكن أن تعود.

وسبحانه القائل :

---

(١) ضللنا فى الأرض : قال أبو منصور : الأصل فى كلام العرب أن يقال : أضللت الشىء إذا غيَّبته ، وأضللت الميت : دفنته. فالضلال من معانيه : الفساد والعصيان ونقيض الهداية والرشاد. ومن معانيه : التغييب والدفن. فكأنهم يقولون : «إذا دُفنَّا وغُيِّبْنَا تحت الأرض.. فهل نحيا من جديد ؟» فيردّ عليهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم]. [لسان العرب : مادة (ضلل) - بتصرف].

(٢) وقد حكى الله تعالى عنهم هذا فقال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف] ويقول سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنبياء].

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ[1] نُّعِيدُهُ .. (١٠٤) ﴾ [الأنبياء]

وهؤلاء الذين لا يرجون لقاء الله يأتى القرآن بما جاء على ألسنتهم: ﴿ ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ..(١٥) ﴾ [يونس]

هم هنا يطلبون طلبين: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ ، ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ .

أى: يطلبون غير القرآن. ولنلحظ أن المتكلم هو الله سبحانه ؛ لذلك فلا تفهم أن القولين متساويان.

﴿ ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ هما طلبان: الطلب الأول: أنهم يطلبون قرآناً غير الذى نزل. والطلب الثانى: أنهم يريدون تبديل آية مكان آية ، وهم قد طلبوا حذف الآيات التى تهزأ بالأصنام ، وكذلك الآيات التى تتوعدهم بسوء المصير[2] .

ويأتى جواب من الله سبحانه على شق واحد مما طلبوه وهو المطلب الثانى ، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ ولم يرد الحق سبحانه على قولهم: ﴿ ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾.

وكان مقياس الجواب أن يقول : « ما يكون لى أن آتى بقرآن غير هذا أو أبدله» ؛ لكنه اكتفى بالرد على المطلب الثانى ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ ؛ لأن الإتيان بقرآن يتطلب تغييراً للكل. ولكن التبديل هو الأمر السهل. وقد نفى

(١) عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال: يأيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) ﴾ [الأنبياء] الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٢٤) بنحوه ، ومسلم (٢٨٦٠) واللفظ لمسلم.

(٢) وهذا يتفق مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٤٥) لهذه الآية. قال: فى قولهم ذلك ثلاثة أوجه:
أحدها: أنهم سألوه أن يحوّل الوعد وعيداً والوعيد وعداً ، والحلال حراماً والحرام حلالاً. قاله ابن جرير الطبرى.
الثانى: سألوه أن يسقط ما فى القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم. قاله ابن عيسى.
الثالث: أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور. قاله الزجاج.

الأسهل ؛ ليسلِّموا أن طلب الأصعب منفى بطبيعته.

وأمر الحق سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾

أي: أن أمر التبديل وارد، لكنه ليس من عند رسول الله ﷺ [1]. بل بأمر من الله سبحانه وتعالى، إنما أمر الإتيان بقرآن غير هذا ليس وارداً.

إذن: فالتبديل وارد شرط ألا يكون من الرسول ﷺ، ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ [2] وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ .. (١٠١)﴾ [النحل]

وهو ما تذكره هذه الآية: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ و﴿تِلْقَاءِ﴾ من «لقاء»؛ فتقول: «لقيت فلاناً»، ويأتي المصدر من جنس الفعل أو حروفه، ويسمون «التلقاء» هنا: الجهة.

والحق سبحانه يقول في آية أخرى:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ [3] .. (٢٢)﴾ [القصص]

---

(١) يقول سبحانه وتعالى عن محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة]، فهذا تأكيد أن محمداً ﷺ لا يستطيع أن يزيد أو ينقص فيما يوحى إليه من عند الله، وإلا لبطش الله به ولقطع نياط قلبه وأماته.

(٢) وهذا هو نسخ التبديل؛ للتيسير على الناس أو لحكم يعلمها الله سبحانه، والتيسير ورفع الحرج هو من مقاصد الشريعة، يقول سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ .. (٧٨)﴾ [الحج] ويقول تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. (١٠٦)﴾ [البقرة] والنسخ في القرآن أنواع:

١- ما نسخ تلاوته وحكمه معاً، قالت عائشة: كان فيما أنزل «عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس معلومات».

٢- ما نسخ حكمه دون تلاوته، وهو قليل جداً في القرآن، وأكثر فيه بعض الناس بغير مقتضًى.

٣- وقسم نسخ شرائع من قبلنا وما كان عليه الأمر في الجاهلية. انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣/ ٥٩ - ٧٧).

(٣) مَدْيَن: اسم قرية شعيب - عليه السلام.

و﴿تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أى: جهة مدين. و«التلقاء» قد تأتى بمعنى اللقاء ؛ لأنك حين تقول : «لقيته» أى : أنا وفلان التقينا فى مكان واحد ، وحين نتوجّه إلى مكان معيّن فنحن نُوجَد فيه. ويظن بعض الناس أن كل لفظ يأتى لمعنيين يحمل تناقضاً ، ونقول: لا ، ليس هناك تناقض ، بل انفكاك جهة ، مثلما قال الحق سبحانه:

﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ[1] الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة]

والشطر معناه: الجهة ؛ ومعناه أيضاً: النصف ، فيقال: «أخذ فلان شطر ماله» ، أى: نصفه ، و«اتجهت شطر كذا» ، أى: إلى جهة كذا.

وهذه معان غير متناقضة ؛ فالإنسان منا ساعة يقف فى أى مكان ؛ يصبح هذا المكان مركزاً لمرائيه ، وما حوله كله محيطاً ينتهى بالأفق.

ويختلف محيط كل إنسان حسب قوة بصره ، ومحيط الرؤية ينتهى حين يُخيَّل لك أن السماء انطبقت على الأرض ، هذا هو الأفق الذى يخصُّك ، فإن كان بصرُك قوياً فأفقك يتّسع ، وإن كان البصر ضعيفاً يضيق الأفق.

ويقال: «فلان ضيِّق الأفق» أى: أن رؤيته محدودة ، وكل إنسان منا إذا وقف فى مكان يصير مركزاً لما يحيطه من مَرَاء ؛ ولذلك يوجد أكثر من مركز ، فالمقابل لك نصف الكون المرئى ، وخلفك نصف الكون المرئى الآخر ، فإذا قيل : إن «الشطر» هو «النصف» ، فالشطر أيضاً هو «الجهة».

---

(١) شَطْر الشىء: ناحيته ، وشَطْر كل شىء: نحْوه وقصْده ، وقصدتُ شَطْرَهُ أى: ناحيته. «وشَطْرَ المسجد الحرام» : نحوه وتلقاءه. قال تعالى: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة]. وشَطْر الشىء: نصفُه ، والجمع: أشْطُر ، وشُطُور. وشَطَرْتُه: جعلته نصفين. وشاطره ماله: ناصَفَه. وفى الحديث: أن سعداً استأذن النبى ﷺ أن يتصدّق بماله كله ، قال: «لا» قال: فالشَّطْر ، قال: «لا» ، قال: الثلث ، فقال. «الثلث ، والثلث كثير». وفى الحديث: «الطُّهور شَطْر الإيمان» أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى مالك الأشعرى (٢٢٣) ؛ لأن الإيمان يظهر بحاشية الباطن ، والطُّهور يظهر بحاشية الظاهر. [لسان العرب : مادة «شَطَرَ» - بتصرف].

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ .

أى: أنه ﷺ لا يأتى بالقرآن من عند نفسه ﷺ ، بل يُوحَى إليه.

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .. (١٥)﴾ [يونس]

أى: أنه ﷺ لو جاء بشىء من عنده ، ففى هذا معصية لله تعالى ، ونعلم أن رسول الله ﷺ لم يُعرف عنه أنه كان شاعراً ، ولا كان كاتباً ، ولا كان خطيباً. وبعد أن نزل الوحى عليه من الله جاء القرآن فى منتهى البلاغة.

وقد نزل الوحى ورسول الله ﷺ فى الأربعين من عمره ولا توجد عبقرية يتأجَّل ظهورها إلى هذه المرحلة من العمر ، ولا يمكن أن يكون النبى ﷺ قد أجَّل عبقريته إلى هذه السِّن ؛ لأنه لم يكن يضمن أن يمتد به العمر.

ويأتى لنا الحق سبحانه بالدليل القاطع على أن رسول الله ﷺ لا يتَّبِع إلا ما يُوحَى إليه فيقول:

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾ [يونس]

ويأتى الأمر بالرَّدِّ من الحق سبحانه على الكافرين:

﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾

وهنا يبلِّغ محمدٌ ﷺ هؤلاء الذين طلبوا تغيير القرآن أو تبديله: لقد عشت طوال عمرى معكم، ولم تكن لى قوة بلاغة أو قوة شعر، أو قوة أدب. فمن له موهبة لا يكتمها إلى أن يبلغ الأربعين، ورأيتم أنه ﷺ لم يجلس إلى معلِّم، بل عندما اتهمتموه وقلتم:

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل]

وفضحكم الحق سبحانه بأن أنزل فى القرآن قوله تعالى:

﴿ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ [١] إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ [٢] وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

ولم يخرج النبى ﷺ من شبه الجزيرة العربية، ولم يقرأ مؤلَّفات أحد. فمن أين جاء القرآن إذن؟

لقد جاء من الله سبحانه، وعليكم أن تعقلوا ذلك، ولا داعى للاتهام بأن القرآن من عند محمد؛ لأنكم لم تجرّبوه خطيباً أو شاعراً، بل كل ما جاء به رسول الله ﷺ، بعد أن نزلت عليه الرسالة، هو بلاغ من عندالله.

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يُنسَب الكمال إلى إنسان فينفيه، فالعادة أن

---

(١) لَحَدَ فى الدين وألْحَدَ والْتحد: مال عنه، وحَادَ، وابتعد. والإلحاد: الجدال والمراء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا .. (٤٠) ﴾ [فصلت] وقال تعالى: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِه .. (١٨٠) ﴾ [الأعراف]. والإلحاد: الظلم والجور. قال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ .. (٢٥) ﴾ [الحج]. والإلحاد فى اللغة: الميل عن القصد. وقوله: ﴿ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل] وأصل الإلحاد: الميل والعُدُول عن الشىء. والملتحَد: الملجأ؛ لأن اللاجىء يميل إليه. [لسان العرب: مادة (لحد) - بتصرف].

(٢) عجم: العُجْم والعَجَم: خلاف العُرْب والعَرَب. ورجل عَجَمىّ وأعجمىّ: غير عربىّ. قال أبو إسحاق: الأعجم: الذى لا يُفصح ولا يُبيِّن كلامه وإن كان عربيّاً. والعجمى هو الذى من جنس العجم أفصح أو لم يُفصح. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) ﴾ [الشعراء].

يسرق شاعر - مثلاً - قصيدة من شاعر آخر ، أو أن ينتحل[1] كاتب مقالة من آخر . لكن رسول الله ﷺ يبلّغكم أن كمال القرآن ليس من عنده، بل هو مجرد مبلّغ له ، وكان يجب أن يتعقّلوا تلك القضية بمقدّماتها ونتائجها ؛ فلا يلقوا لأفكارهم العنان[2] ؛ ليكذبوا ويعاندوا ، فالأمر بسيط جداً[3] .

يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]

إذن : فالمقدمة التي يريد الحق سبحانه وتعالى أن يقنع بها الكافرين أن رسول الله ﷺ قد أرسله الله رسولاً من أنفسهم[4] ، فإن قلت :

﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ .. (١٦٤) ﴾ [آل عمران]

أي : أنه ﷺ من جنس الناس ، لا من جنس الملائكة ، أو ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي : من أمة العرب ، لا من أمة العَجَم ، أو ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي : من قبيلتهم التي يكذّب أصحابُها رسولَ الله ﷺ .

إذن : فحياته ﷺ معروفة معلومة لكم ، لم يَغِبْ عنكم فترة ؛ لتقولوا

---

(١) ينتحل الشيء : ينسبه إلى نفسه . نحله القول : نسبه إليه . ونُحِل الشاعر قصيدة إذا نسبت إليه وهي من قيل غيره . [لسان العرب : مادة نحل] .

(٢) العنان : عنان اللِّجام : السَّيْر الذي تُمسك به الدابة ، والجمع : أعنَّة . والعنان : الحبْل . والمراد هنا : تشبيه الأفكار بالبعير الذي له عقال أو عنان ؛ إذا أرخيته له سار وانطلق كما يشاء ويهوى على غير هدى . والعنان للدَّواب كالعقل للإنسان فإذا فسد العقل ضلّ صاحبه ، وإذا لم يعقل الإنسان أفكاره يضلّ . [لسان العرب : مادة (عنن) - بتصرف] .

(٣) فرسول الله ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت] .

(٤) وفي هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة] .

بُعثَ بعثةً ؛ ليتعلَّم علماً من مكان آخر ، ولم يجلس إلى معلِّم عندكم ولَا إلى معلِّم خارجكم ، ولم يَتْلُ كتاباً ، فإذا كان الأمر كذلك ، فيجب أن تأخذوا من هذا مقدِّمة وتقولوا : فمن أين جاءت له هذه الحكمة فجأة ؟

أنتم تعلمون أن المواهب والعبقريات لا تنشأ فى الأربعينات ، ولكن مخايل العبقرية إنما تنشأ فى نهاية العقد الثانى وأوائل العقد الثالث ، فمن الذى أخّر العبقرية عند رسول الله ﷺ ليقول هذا القول البليغ الذى أعجزكم ، وأنتم أمّة البلاغة وأمة الفصاحة المرتاضون [1] عليها من قديم ، وعجزتم أمام ما جاء به محمد ﷺ ؟

كان يجب أن تقولوا : لم نعرف عنه أنه يعلم شيئاً من هذا ، فإذا حَلّ لكم اللغز وأوضح لكم : أن القرآن ليس من عندى ؛ كان يجب أن تصدقوه ؛ لأنه ﷺ يعزوه إلى خالقه وربه سبحانه . والدليل على أنكم مضطربون فى الحكم أنكم ساعة يقول لكم : القرآن بلاغ عن الله ، تكذِّبونه ، وتقولون : لا ، بل هو من عندك ، فإذا فَترَ عنه الوحى مرّةً قلتم : قلاه [2] ربُّه .

لماذا اقتنعتم بأن له ربّاً يَصلُه بالوحى ويهجره بلا وحى ؟

أنتم - إذن - أنكرتم حالة الوصل بالوحى ، واعترفتم بالإله الخالق عندما غاب عنه الوحى ، وكان يجب أن تنتبهوا وتعودوا إلى عقولكم ؛ لتحكموا على هذه الأشياء ، وقد ذكر الحق سبحانه ذلك الأمر فى كثير من آياته ، يقول سبحانه :

(١) المرتاضون : الذين لهم دُرْبة ، قد ذللت ألسنتهم على الفصاحة والبلاغة .

(٢) قلاه ربه : أبغضه وتركه . ولذلك قال له ربه : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③﴾ [الضحى] .

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ[١] أَيُّهُمْ يَكْفُلُ[٢] مَرْيَمَ (٤٤) ﴾[آل عمران]

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ[٣] إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ ..(٤٤) ﴾ [القصص]

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا[٤] فِي أَهْلِ مَدْيَنَ .. (٤٥) ﴾ [القصص]

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت]

فمن أين جاءت تلك البلاغة ؟ كان يجب أن تأخذوا هذه المقدِّمات ؛ لتحكموا بأنه صادق فى البلاغ عن الله ؛ لذلك يُنهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله : ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

وحين ينبهك الحق سبحانه وتعالى إلى أن تستعمل عقلك ، فهذا دليل على الثقة فى أنك إذا استعملت عقلك ؛ وصلت إلى القضية المرادة . والله

---

(١) أقلامهم : سهامهم ، وقيل : أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة . قال الزجاج : الأقلام هنا : القداح . وهى قداح جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم ، على جهة القُرعة ، وإنما قيل للسهم : القلم ؛ لأنه يُقْلَم ، أى : يُبْرَى . وكلّ ما قطعت منه شيئاً بعد شيء فقد قَلَمْتَه ، من ذلك القلم الذى يكتب به ، وإنما سُمِّى قلماً ؛ لأنه قُلِم مرة بعد مرة ، ومن هذا قيل : قَلَمْتُ أظفارى . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧) ﴾ [لقمان]. [لسان العرب : مادة (قلم) – بتصرف].

(٢) يكفل : يعول ، والكافل : العائل . قال تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ..(٣٧) ﴾ [آل عمران] .

(٣) الغربىّ : الجبل الغربىّ الذى كَلَّم الله سبحانه نبيّه موسى عليه السلام عنده من الشجرة التى هى شرقية على شاطىء الوادى المقدس (طُوَى) . [تفسير ابن كثير : ٣/ ٣٩١ – بتصرف].

(٤) ثاوياً : مقيماً والثواء : الإقامة ، ثويت بالمكان : أقمت فيه . قال تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ..(١٥١) ﴾ [آل عمران] . [لسان العرب : مادة (ثوا) – بتصرف].

سبحانه وتعالى مُنزَّه عن خديعة عباده ، فمن يخدع الإنسان هو من يحاول أن يصيب عقله بالغفلة ، لكن الذى ينبّه العقل هو من يعلم أن دليل الحقيقة المناسبة لما يقول ، يمكن الوصول إليه بالعقل.

وقول الحق سبحانه فى آخر الآية: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ يدلنا على أن القضية التى كذَّبوا فيها رسول الله ﷺ نشأت من عدم استعمال عقولهم ، فلو أنهم استعملوا عقولهم فى استخدام المقدمات المُحسَّة التى يؤمنون بها ويسلمون ؛ لانتهوا إلى القضية الإيمانية التى يقولها رسول الله ﷺ .

ولو أنهم فكّروا وقالوا: محمد نشأ بيننا ولم نعرف له قراءة ، ولا تلاوة كتاب ولا جلوساً إلى معلِّم ، ولم يَغبْ عنا فترة ليتعلَّم ، وظل مدة طويلة إلى سنِّ الأربعين ولم يرتض على قول ولا على بلاغة ولا على بيان ؛ فمن أين جَاءته هذه الدفعة القوية ؟

كان يجب أن يسألوه هو عنها: من أين جاءتك هذه ؟ وما دام قد قال لهم : إنها جاءته من عندالله ، فكان يجب أن يصدِّقوه.

ومهمة العقل دائما مأخوذة من اشتقاقه ، «فالعقل» [1] مأخوذ من «عقال» البعير. وعقال البعير هو الحبل الذى تربط به ساقى الجمل ؛ حتى لا ينهض ويقوم ؛ لنوفِّر له حركته فيما نحب أن يتحرك فيه ، فبدلاً من أن يسير هكذا بدون غرض ، وبدون قصد ، فنحن نربط ساقيه ؛ ليرتاح ولا يتحرك، إلى أن نحتاجه فى حركة.

إذن: فالعقل إنما جاء ؛ ليحكم المَلَكَات ؛ لأن كل مَلَكَة لها نزوع إلى شىء ، فالعين لها مَلَكَة أن ترى كل شىء ، فيقول لها العقل: لا داعى أن

(١) العقل: النُّهى ، ضد الحمق ، وعقل يعقل فهو عاقل. قال ابن الأنبارى: الرجل العاقل هو الجامع لأمره ورأيه ، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه ، وقيل: العاقل هو الذى يحبس نفسه ويردّها عن هواها. والعقل: التثبُّت فى الأمور .

تشاهدى ذلك ؛ لأنه منظر سيؤذيك ، والأذن تحب أن تسمع كل قول ، فيقول لها العقل: لا تسمعى إلى ذلك ؛ حتى لا يضرك [1].

إذن: فالعقل هو الضابط على بقية الجوارح. وكذلك كلمة «الحِكْمة» ، مأخوذة من «الحَكَمة» [2] وهى فى «اللِّجام» الذى يوضع فى فم الفرس؛ حتى لا يجمح ، وتظل حركته محسوبة ؛ فلا يتحرك إلا إلى الاتجاه الذى تريده.

إذن: شاء الحق سبحانه أن يميِّز الإنسان بالعقل والحكمة ؛ ليقيم الموازين لملكات النفس ؛ فخذوا المقدمات المُحَسَّة التى تؤمنون بها وتشهدونها وتسلمونها لرسول الله ﷺ لتستنبطوا أنه جاء بكلامه من عند الله تعالى.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ [3] عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ۝١٧ ﴾

وهنا يوضح القرآن على لسان الرسول ﷺ : أأكذب على الله ؟ إذا كنت لم أكذب عليكم أنتم فى أمورى معكم وفى الأمور التى جرَّبتموها ، أفأكذب على الله ؟! إن الذى يكذب فى أول حياته من المعقول أن يكذب

(١) وقد قال سبحانه: ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۝٣٦ ﴾ [الإسراء].

(٢) حكَمة اللجام: ما أحاط بحَنَكَى الفرس ، سميت بذلك لأنها تمنعه من الجرى الشديد. وقيل: الحكمة حديدة فى اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راكبه. [لسان العرب: مادة (حكم)].

وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «ما من آدمى إلا فى رأسه حكمة بيد ملك ، فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته ، وإذا تكبر قيل للملك: ضع حكمته» أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير (١٢٩٣٩) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/ ٨٢) وقال: إسناده حسن.

(٣) افترى: اختلق. الفرية: الكذب. و« افترى » تفيد المبالغة فى الكذب.

فى الكبَر ، وإذا كنت لم أكذب عليكم أنتم ، فهل أكذب علىالله ؟

وإذا لم أكن قد كذبت وأنا غير ناضج التفكير ، فى طفولتى قبل أن أصل إلى الرجولة ، فأنا الآن لا أستطيع الكذب. فإذا كنتم أنتم تتهموننى بذلك، فأنا لا أظلم نفسى وأتهمها بالكذب ، فتصبحون أنتم المكذبين ؛ لأنكم كذبتمونى فى أن القرآن مبلغ عن الله ، ولو أننى قلت: إنه من عند نفسى لكان من المنطق أن تُكذِّبوا ذلك ؛ لأنه شرف يُدَّعى. ولكن أرفعه إلى غيرى ؛ إلى من هو أعلى منى ومنكم.

وقوله الحق: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أى: لا أحد أظلم ممن افترى على الله سبحانه كذباً ؛ لأن الكاذب إنما يكذب ليدلِّس على من أمامه ، فهل يكذب أحد على من يعلم الأمور على حقيقتها ؟ لا أحد بقادر على ذلك . ومن يكذب على البشر المساوين له يظلمهم ، لكن الأظلم منه هو من يكذب على الله سبحانه.

والافتراء كذب متعمد ، فمن الجائز أن يقول الإنسان قضية يعتقدها ، لكنها ليست واقعاً ، لكنه اعتقد أنها واقعة بإخبار من يثق به ، ثم تبين بعد ذلك أنها غير واقعة ، وهذا كذب صحيح ، لكنه غير متعمد ، أما الافتراء فهو كذب متعمد .

ولذلك حينما قسم علماء اللغة الكلام الخبرى ؛ قسموه إلى : خبر وإنشاء ، والخبر يقال لقائله : صدقت أو كذبت ، فإن كان الكلام يناسب الواقع فهو صدق ، وإن كان الكلام لا يناسب الواقع فهو كذب .

وقوله الحق : ﴿ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ يبين لهم رسول الله ﷺ : إن قلتم إننى ادعيت أن الكلام من عند الله ، وهو ليس من عند الله . فهذا يعنى أن الكلام كذب وهو من عندى أنا ، فما موقف من يكَذب بآيات الله ؟

إن الكذب من عندكم أنتم ، فإن كنتم تكذبوننى وتدَّعون أنى أقول إن هذا من الله ، وهو ليس من الله ، وتتمادون وتُكذِّبون بالآيات وتقولون هى من عندك ، وهى ليست من عندى ، بل من عند الله ؛ فالإثم عليكم .

والكذب إما أن يأتى من ناحية القائل ، وإما من ناحية المستمع ، وأراد الرسول ﷺ عدالة التوزيع فى أكثر من موقع ، مثلما يأتى القول الحق مبيِّناً أدب النبوة :

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ[1] .. (٢٤)﴾ [سبأ]

وليس هناك أدب فى العرض أكثر من هذا ، فيبين أن قضيته ﷺ وقضيتهم لا تلتقيان أبداً ، واحدة منهما صادقة والأخرى كاذبة ، ولكن من الذى يحدد القضية الصادقة من الكاذبة ؟ إنه الحق سبحانه .

وتجده سبحانه يقول على لسان رسوله ﷺ : ﴿أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وفى ذلك طلب لأن يعرضوا الأمر على عقولهم ؛ ليعرفوا أى القضيتين هى الهدى ، وأيهما هى الضلال[2] .

وفى ذلك ارتقاء للمجادلة بالتى هى أحسن من رسول الله ﷺ .

ويقول الحق سبحانه :

---

(١) هذا من باب اللف والنشر ، وهو لون من ألوان البديع فى القرآن ، وتعريفه : « أن يُذكر شيئان أو أشياء ، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويفوِّض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به » (الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٣/ ٢٧٩ ، ٢٨٠) وهو هنا تفصيلى ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] ، فالسكون راجع إلى الليل ، والابتغاء راجع إلى النهار .

(٢) وقد استخدم صحابة رسول الله ﷺ هذا المنهج مع المشركين ، فكانوا يقولون لهم : « والله ما نحن وإياكم على أمر واحد إن أحد الفريقين لمهتد » ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٣٨) من قول قتادة . وهو دعوة لإعمال الفكر والعقل من جانب المشركين .

﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ...(٢٥)﴾ [سبأ]

أى : كل واحد سيُسأل عن عمله ، فجريمتك لن أسأل أنا عنها ، وجريمتى لا تُسأل أنت عنها . ونسب الإجرام لجهته ولم يقل : " قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا نُسأل عما تجرمون " وشاء ذلك ليرتقى فى الجدل ، فاختار الأسلوب الذى يُهذِّب ، لا ليهيِّج الخصم ؛ فيعاند ، وهذا من الحكمة ؛ حتى لا يقول للخصم ما يسبب توتره وعناده فيستمر الجدل بلا طائل .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فإذا كان الظلم من جهتى ؛ فسوف يحاسبني الله عليه ، وإن كان من جهتكم ؛ فاعلموا قول الحق سبحانه : ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ولم يحدد من المجرم ، وترك الحكم للسامع .

كما تقول لإنسان له معك خلاف : سأعرض عليك القضية واحكم أنت ، وساعة تفوضه فى الحكم ؛ فلن يصل إلا إلى ما تريد . ولو لم يكن الأمر كذلك لما عرضت الأمر عليه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ[1] (١٨)﴾

---

(١) قال الجوهرى : الشرك الكفر . وأشرك يشرك إشراكاً فهو مشرك وهم مشركون . وفى الحديث : « الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل » ، قال ابن الأثير : يريد به الرياء فى العمل فكأنه أشرك فى عمله غير الله . وفى الحديث : « من حلف بغير الله فقد أشرك » . [اللسان : مادة (شرك) بتصرف] .

وكلمة ﴿ وَيَعْبُدُونَ﴾ تقتضى وجود عابد ؛ ووجود معبود ؛ ووجود معنى للعبادة . والعابد أدنى حالاً من المعبود ، ومظهر العبادة والعبودية كله طاعة للأمر والانصراف عن المنهى عنه .

هذا هو أصل العبادة ، ووسيلة القرب من الله .

وحتى تكون العبادة فى محلها الصحيح لا بد أن يقر العابد أن المعبود أعلى مرتبة فى الحكم على الأشياء ، أما إن كان الأمر بين متساويين فيسمونه التماساً .

إذن : فهناك آمر ومأمور ، فإن تساويا ؛ فالمأمور يحتاج إلى إقناع ، وأما إن كان فى المسألة حكم سابق بأن الآمر أعلى من المأمور ؛ كالأستاذ بالنسبة للتلميذ ، أو الطبيب بالنسبة للمريض ، ففى هذا الوضع يطيع المأمور الآمر لأنه يفهم الموضوع الذى يأمر فيه .

وكذلك المؤمن ؛ لأن معنى الإيمان أنه آمن بوجود إله قادر له كل صفات الكمال المطلق ؛ فإذا اعتقدت هذا ؛ فالإنسان ينفذ ما يأمر به الله ؛ ليأخذ الرضاء والحب والثواب . وإن لم ينفذ ؛ فسوف ينال غضب المعبود وعقابه .

إذن : فأنت إن فعلت أمره واجتنبت نهيه ؛ نلت الثواب منه ، وإن خالفت ؛ تأخذ عقاباً ؛ لذلك لا بد أن يكون أعلى منك قدرة ، ويكون قادراً على إنفاذ الثواب والعقاب ، والقادر هو الله جل علاه .

أما الأصنام التى كانوا يعبدونها ، فبأى شىء أمرتهم ؟ إنها لم تأمر بشىء ؛ لذلك لا يصلح أن تكون لها عبادة ؛ لأن معنى العبادة يتطلب أمراً ونهياً ، ولم تأمر الأصنام بشىء ولم تنه عن شىء ، بل كان المشركون هم الذين يقترحون الأوامر والنواهى ، وهو أمر لا يليق ؛ لأن المعبود هو الذى عليه أن يحدد أوجه الأوامر والنواهى .

إذن : فمن الحمق [1] أن يعبد أحدٌ الأصنام ؛ لأنها لا تضر من خالفها ، ولا تنفع من عبدها ، فليس لها أمر ولا نهى .

ومن أوقفوا أنفسهم هذا الموقف نسوا أن فى قدرة كل منهم أن ينفع الصنم وأن يضره ، فالواحد منهم يستطيع أن يصنع الصنم ، وأن يصلحه إذا انكسر ، أو يستطيع أن يكسره بأن يلقيه على الأرض . وفى هذه الحالة يكون العابد أقدر من المعبود على الضر وعلى النفع ، وهذا عين التخلف العقلى .

إذن : فمثل هذه العبادة لون من الحمق ، ولو عُرِضَتْ هذه المسألة على العقل ؛ فسوف يرفضها العقل السليم .

وعندما تجادلهم ، وتثبت لهم أن تلك الأصنام لا تضر ولا تنفع ، تجد من يكابر قائلاً : ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ وهم بهذا القول يعترفون أن الله هو الذى ينفع ويضر ، ولكن أما كان يجب أن يتخذوا شفيعاً لهم عند الله ، وأن يكون الشفيع متمتعاً بمكانة ومحبة عند من يشفع عنده [2] ؟

ثم ماذا يقولون فى أن من تُقدم له شفاعة هو الذى ينهى عن اتخاذ الأصنام آلهة وينهى عن عبادتها ؟

وهل هناك شفاعة دون إذن من المشفوع عنده ؟ من أجل ذلك جاء الأمر من الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

---

(١) الحمق : وضع الشىء فى غير موضعه ، والحمق : ضد العقل أو قلة العقل وضعفه . والحميقاء : الخمر ؛ لأنها تعقب شاربها الحمق . والأحمق مأخوذ من انحماق السوق إذا كسدت ، فكأنه فسد عقله حتى كسد . قال ابن الأعرابى : الحمق أصله الكساد . ويقال : الأحمق الكاسد العقل . والحمق أيضاً : الغرور . وانحمق الرجل : ضعف عن الأمر . [اللسان : مادة (حمق)] .

(٢) يقول سبحانه : ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩)﴾ [طه] ، إن ادعاء المشركين أن الأصنام تشفع لهم عند الله - ادعاء باطل ومع بطلانه اعتراف منهم بأن الشفاعة لا تكون إلا من الله سبحانه وشفاعة الله لا تكون إلا لحبيب ومحبوب يعمله فرضاً وفضلاً .

﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَـوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ .. (١٨)﴾
[يونس]

إذن : فمن أين جئتم بهذه القضية ؛ قضية شفاعة الأصنام لكم عند الله ؟ إنها قضية لا وجود لها، وسبحانه لم يبلغكم أن هناك أصناماً تشفع ، وليس هذا وارداً ، فقولكم هذا فيه كذب متعمد وافتراء .

فهو سبحانه الذى خلق السموات وخلق الأرض ، ويعلم كل ما فى الكون ، وقضية شفاعة الأصنام عنده ليست فى علمه ، ولا وجود لها ، بل هى قضية مفتراة ، مُدَّعاة .

وقوله الحق هنا : ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ﴾ مثلها مثل قوله الحق :

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ .. (١٦)﴾ [الحجرات]

ويعنى هذا القول بالرد على من قالوا ويقولون : إن المطلوب هو تشريعات تناسب العصر ، وكلما فسد العصر طالبوا بتشريعات جديدة ، وما داموا هم الذين يشرِّعون ، فكأنهم يرغبون فى تعليم خالقهم كيف يكون الدين ، وفى هذا اجتراء وجهل بقدرة وحكمة مَنْ خلق الكون ، فأحكمه بنظام .

وقوله الحق : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَـوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيه تنزيه له سبحانه ، فهو الخالق لكل شىء ، خالق الملك والملكوت ويعلم كل شىء ، وقضية شفاعة الأصنام إنما هى قضية مفتراة لا وجود لها ؛ لذلك فهى ليست فى علم الله ، والحق سبحانه مُنزَّه أن توجد فى ملكه قضية لها مدلول يقينى ولا يعلمها ، ومُنزَّه جل وعلا عن أن يُشرك به ؛ لأن الشريك إنما يكون ليساعد من يشركه ، ونحن

نرى على سبيل المثال صاحب مال يديره فى تجارة ما ،ولكن ماله لا ينهض بكل مسئوليات التجارة ، فيبحث عن شريك له .

وسبحانه وتعالى قوى وقادر ، ولا يحتاج إلى أحد فى ملكية الكون وإدارته ، ثم ماذا يفعل هؤلاء الشركاء المدَّعون كذباً على الله ؟

إن الحق سبحانه يقول :

﴿قل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا [1] إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء]

وهذا القول الحكيم ينبه المشركين إلى أنه بافتراض جدلى أن لهؤلاء الشركاء قوة وقدرة على التصرف ، فهم لن يفعلوا أى شىء إلا بابتغاء ذى العرش ، أى : بأمره سبحانه وتعالى . وهم حين ظنوا خطأ أن لكل فلك من الأفلاك سيطرة على مجال فى الوجود ، وأن النجوم لها سيطرة على الوجود ، وأن كل برج من الأبراج له سيطرة على الوجود ، فلا بد فى النهاية من الاستئذان من مالك الملك والملكوت .

ومن خيبة من ظنوا مثل هذه الظنون ، ومعهم الفلاسفة الذين أقروا بأن هناك أشياء فى الكون لا يمكن أن يخلقها إنسان ، أو أن يدَّعى لنفسه صناعتها ؛ لأن الجنس البشرى قد طرأ على هذه المخلوقات ، فقد طرأ الإنسان على الشمس والقمر والنجوم والأرض ،ولا بد إذن أن تكون هناك قوة أعلى من الإنسان هى التى خلقت هذه الكائنات. كل هذه الكائنات تحتاج إلى مُوجد ، ولم نجد معامل لصناعة الشمس أو القمر أو الأرض أو وجدنا من ادعَى صناعتها أو خلقها .

ولكن الفلاسفة الذين قبلوا وجود خالق للكون لم يصلوا إلى اسمه

(١) ابتغوا : طلبوا . قال تعالى : ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ .. (٤٨)﴾ [التوبة] [اللسان : مادة (بغى)] .

ولا إلى منهجه ، وقوة الحق سبحانه مطلقة ، ولا يحتاج إلى شريك له .
وإذا أردنا أن نتأمل ولو جزءاً بسيطاً من أثر قوة الله التى وهبها للإنسان ، فلنتأمل صناعة المصباح الكهربى .

وكل منا يعلم أنه لا توجد بذرة نضعها فى الأرض ، فتنبت أشجاراً من المصابيح ، بل استدعت صناعة مصباح الكهرباء جهد العلماء الذين درسوا علم الطاقة ، واستنبطوا من المعادلات إمكان تصور صناعة المصباح الكهربى، وعملوا على تفريغ الهواء من الزجاجة التى يوضع فيها السلك الذى يضىء داخل المصباح ، وهكذا وجدنا أن صناعة مصباح كهربى واحد تحتاج إلى جهد علماء وعمل مصانع ، كل ذلك من أجل إنارة غرفة واحدة لفترة من الزمن . فما بالنا بالشمس التى تضىء الكون كله ، وإذا كان أتفه الأشياء يتطلب كمية هائلة من العلم والبحث والإمكانات الفنية والتطبيقية ، وتطوير للصناعات ، فما بالنا بالشمس التى تضىء نصف الكرة الأرضية كل نصف يوم ، ولا أحد يقدر على إطفائها ، ولا تحتاج إلى صيانة من البشر ، وإذا أردت أن تنسبها فلن تجد إلا الله سبحانه.

وأنت بما تبتكره و تصنعه لا يمكن أن يصرفك عن الله ، والذكى حقاً هو من يجعل ابتكاراته وصناعاته دليلاً على صدق الله فيما أخبر .

وإذا كان الحق سبحانه قد خلق الشمس[1] - ضمن ما خلق-وإذا أشرقت أطفأ الكل مصابيحهم ؛ لأنها هى المصباح الذى يهدى الجميع ، وإذا كان ذلك هو فعل مخلوق واحد لله ، فما بالنا بكل نعمة من سائر مخلوقاته . ونور الشمس إنما يمثل الهداية الحسية التى تحمينا من أن نصطدم بالأشياء فلا تحطمنا ولا نحطمها،فكذلك يضىء لنا الحق سبحانه المعانى والحقائق .

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥) ﴾ [لقمان] ويقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٣٣) ﴾ [الأنبياء] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ..(٤٥) ﴾ [الفرقان] .

وإياك أن تقول : إن الفيلسوف الفلانى جاء بنظرية كذا ؛ فخذوا بها ، بل دع عقلك يعمل ويقيس ما جاء بهذه النظرية على ضوء ما نزل فى كتاب الحق سبحانه ، وإن دخلت النظرية مجال التطبيق ، وثبت أن لها تصديقاً من الكتاب ، فقل : إن الحق سبحانه قد هدى فلاناً إلى اكتشاف سر جديد من أسرار القرآن ؛ لأن الحق يريد منا أن نتعقل الأشياء وأن ندرسها دراسة دقيقة ، بحيث نأخذ طموحات العقل ؛ لتقربنا إلى الله ، لا لتبعدنا عنه ، والعياذ بالله .

وإذا قال الحق سبحانه : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فذلك لأن الشركة تقتضى طلب المعونة ، وطلب المعونة يكون إما من المساوى وإما من الأعلى ، ولا يوجد مساوٍ لله تعالى ، ولا أعلى من الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)﴾

وقد جاءت آية فى سورة البقرة متشابهة مع هذه الآية وإن اختلف الأسلوب ، فقد قال الحق سبحانه فى سورة البقرة : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ[1] .. (٢١٣)﴾ والذين يقرأون القرآن بسطحية وعدم تعمق قد

---

(١) الذين ذهبوا إلى أن الناس كانوا أمة واحدة على الكفر ، فاختلفوا فى عبادة مظاهر القوى ، ثم أدركوا أن القوى الكونية زائلة ؛ فاهتدوا بالعقل إلى الله تعالى . هؤلاء نسوا الميثاق الأول فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢)﴾ [الأعراف] ، ولكن الناس كانوا أمة واحدة على فطرة الإيمان ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ .. (٣٠)﴾ [الروم] ، فاختلفوا بعبادة غير الله ؛ فبعث الله الرسل ، وإلا كان إرسال الرسل عبثاً إذا كان الناس أمة واحدة على الكفر واهتدوا بعقولهم إلى الله سبحانه ، وهذا فهم قاصر .

لا يلتفتون إلى الآيات المشابهة لها فى المعنى العام ، وهذه الآيات توازن بين المعانى فلا تضارب بين آية وأخرى .

ولذلك نجد بين المفكرين العصريين من يقول : إن الناس كانوا كلهم كفاراً ، ثم ارتقى العقل محاولاً اكتشاف أكثر الكائنات قوة ؛ ليعبدوه ، فوجدوا أن الجبل هو الكائن العالى الصلب ؛ فعبدوه . وأناس آخرون قالوا : إن الشمس أقوى الكائنات فعبدوها ، وآخرون عبدوا القمر ، وعبد قوم غيرهم النجوم ، واتخذ بعض آخر آلهة من الشجر ، وكل جماعة نظرت إلى جهة مختلفة تتلمس فيها القوة .

وهم يأخذون من هذا أن الإنسان قد اهتدى إلى ضرورة الدين بعقله ، ثم ظل هذا العقل فى ارتقاء إلى أن وصل إلى التوحيد .

ونرد على أصحاب هذا القول : أنتم بذلك تريدون أن تعزلوا الخلق عن خالقهم ، وكأن الله الذى خلق الخلق وأمدهم بقوام حياتهم المادية قد ضَنَّ عليهم بقوام حياتهم المعنوية ، وليس هذا من المقبول أو المعقول ، فكيف يضمن لهم الحياة المادية ،ولا يضمن لهذه المادية قيمًا تحرسها من الشراسة وتحميها من الفساد والإفساد ؟

وقوله الحق :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾ [البقرة]

لذلك فَهِمَ البعض أن الناس كانوا أمة واحدة فى الكفر ، وحين جاء

النبيون ، اختلف الناس ؛ لأن منهم من آمن ومنهم من ظل على الكفر ، ولكن لو أحسن الذين قالوا مثل هذا القول الاستنباط وحسن الفهم عن الله لوجدوا أن مقصود الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها الآن إنما هو : ما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ؛ فبعث الله النبيين ؛ ليخرجوهم عن الخلاف ويعيدوهم إلى الاتفاق على عهد الإيمان الأول الذى شهدوا فيه بربوبية الحق سبحانه وتعالى [(١)] ؛ لأن الأصل فى المسألة هو الإيمان لا الكفر [(٢)] .

ومن أخذ آية سورة البقرة كدليل على كفر الناس أولاً ، نقول له : اقرأ الآية بأكملها ؛ لتجد قوله الحق : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ .. (٢١٣) ﴾ [البقرة]

وهكذا نرى أن الاختلاف الذى حدث بين الناس جاء فى آية البقرة فى المؤخرة ، بينما جاء الاختلاف فى هذه الآية فى المقدمة ، وهذا دليل على أن الناس كانوا أمة واحدة على الإيمان [(٣)] ، فليس هناك أناس أولى من

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف] .

(٢) وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ٢٥٠) .

(٣) إن تصدير الاختلاف فى آية سورة يونس وتأخيره فى سورة البقرة ، فأول القضية أن الأمة واحدة على دين الله ومنهجه ، والخلاف عارض ؛ لهذا كان الرسل ، أما موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام فى آية الأنعام فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾ [الأنعام] فسيدنا إبراهيم كان فى مرحلة إيمان الهداية ، ثم بالتأمل يصل إلى إيمان الدلالة حتى يصل إلى إيمان اليقين .

أناس عند الخالق سبحانه وتعالى ، ولم يكن عدل الله ليترك أناساً متخبطين فى أمورهم على الكفر ، ويرسل الرسل لأناس آخرين بالهداية ؛ فالناس بالنسبة لله سواء . وما دام الحق سبحانه قد أوجد الخلق من البشر فلا بد أن يُنزل لهم منهجاً ؛ ولذلك حين نقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ [1] مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) ﴾ [آل عمران]

نجد فيه الرد على من يقول إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى الكعبة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يترك الخلق من آدم إلى إبراهيم دون بيت يحجون [2] إليه ، ولكن الحق سبحانه وضع البيت ؛ ليحج إليه الناس من أول آدم إلى أن تقوم الساعة ، والذى وضع البيت ليس من الناس ، بل شاء وضع البيت خالق الناس ، وما فعله سيدنا إبراهيم - عليه السلام - هو رفع القواعد من البيت الحرام .

أى : أنه أقام ارتفاع البيت بعد أن عرف مكان البيت طولاً وعرضاً ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا [3] لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. (٢٦) ﴾ [الحج]

---

(١) بكة : موضع البيت الحرام . ومكة : الحرم كله وتدخل فيه البيوت . وبعض علماء التفسير مثل مجاهد ذهب إلى أن كليهما واحد ، وأن الميم مبدلة من الباء . ثم قيل : بكة مشتقة من البك وهو الازدحام أى : ازدحامهم في موضع طوافهم . والبك أيضاً : دق العنق ، وسميت بذلك لأنها كانت تدق رقاب الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم . بتصرف من تفسير القرطبى (٢/ ١٤٨٦) .

(٢) يحجون إليه : يقصدونه بشد الرحال إليه للعبادة والتعظيم . قال الجرجانى فى كتابه : « التعريفات » (ص ٧٢) : « الحج : القصد إلى الشىء المعظم ، وفى الشرع قصد لبيت الله تعالى بصفة مخصوصة فى وقت مخصوص بشرائط مخصوصة فى أماكن مخصصة » .

(٣) بوأنا له : أنزلناه بمكان البيت الحرام وهديناه إليه . والتبوّء : أن يعلم الرجل الرجل على مكان لينزل به . وبوأنا له : هيأنا له المكان ومكناه منه . قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [يوسف] . [اللسان : مادة (بوأ) - بتصرف] .

وهكذا يَصْدُق قول الحق سبحانه بأن البيت قد وُجد للناس قبل آدم ، وهو للناس إلى أن تقوم الساعة ، وهكذا نعلم أن الحق سبحانه خلق الخلق وأنزل لهم المنهج ، وأن الأصل في الناس هو الإيمان ، لكن الكفر هو الذي طرأ على البشر من بابين : باب الغفلة ، وباب تقليد الآباء .

والدليل على ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلّم عن ميثاق الذر ، قال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ [1] وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

إذن : فالتعصّي عن الحكم الإيماني مدخله بابان : الأول باب الغفلة ، أي : أن تكون قد علمتَ شيئاً ، ولم تجعله دائماً في بؤرة [2] شعورك ؛ لأن عقلك يستقبل المعلومات ، ويستوعبها من مرة واحدة ، إن لم تكن مُشتَّتَ الفكر في أكثر من أمر ، فإن كنت صافي الفكر ومنتبهاً إلى المعلومة التي تَصلُكَ ؛ فإن عقلك يستوعبها من مرة واحدة ، ومن المهم أن يكون الذهن خالَياً لحظة أن تستقبل المعلومة الجديدة .

ولذلك نجد فارقاً بين إنسان وإنسان آخر في حفظ المعلومات ، فواحد يستقبل المعلومة وذهنه خالٍ من أي معلومة غيرها ، فتثبت في بؤرة

---

(١) ذريّة الرجل : ولده ، والجمع : الذريات والذراري . قال تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ .. (٣٤) ﴾ [آل عمران] والذرية مأخوذة من ذَرَأَ الله الخلق ، أي : خلقهم . فالذرية : اسم يجمع نسل الإنسان من ذكر وأنثى ، وأصلها الهمز ولكنهم حذفوه فلم يستعملوها إلا غير مهموزة ؛ وقيل : الذرية أصلها من الذَّرِّ بمعنى : التفريق ؛ لأن الله تعالى ذَرَّهم في الأرض ، أي : فرَّقهم . [اللسان : مادة (ذرر)] .

(٢) بأر الشيء : خبأه وادّخره . ومنه قيل للحفرة : البؤرة . ومنها بؤرة الشعور أي : حفرة ومركز الشعور الذي يحتفظ فيها الإنسان بمعلوماته ومشاعره تجاه الأحداث التي تواجهه . انظر لسان العرب (مادة : بأر) .

الشعور ، بينما يضطر الآخر إلى تكرار قراءة المعلومة إلى أن يخلو ذهنه من غيرها ؛ فتستقر المعلومة فى بؤرة الشعور ، وحين تأتى معلومة أخرى ، فالمعلومة الأولى تنتقل إلى حاشية الشعور إلى حين أن يستدعيها مرة أخرى.

وإذا أراد طالب - على سبيل المثال- أن يستوعب ما يقرأ من معلومات جديدة ، فعليه أن ينفض عن ذهنه كل المشاغل الأخرى [(١)] ؛ ليركِّز فيما يدرس ؛ لأنه إن جلس إلى المذاكرة وباله مشغول بما سوف يأكل فى الغداء ، أو بما حدث بينه وبين أصدقائه ، أو بما سوف يرتدى من ملابس عند الخروج من البيت ، أو بغير ذلك من المشاغل ، هنا سوف يُضطر الطالب أن يعيد قراءة الدرس أكثر من مرة ؛ حتى يصادف الدرسُ جزئية خالية من بؤرة الشعور ؛ فتستقر فيها [(٢)] .

وقد نجد طالباً فى صباح يوم الامتحان وهو يسمع من زملائه أن الامتحان قد يأتى فى الجزء الفلانى من المقرر ؛ فيفتح الكتاب المقرر على هذا الجزء ويقرأه مرة واحدة ؛ فيستقر فى بؤرة الشعور ، ويدخل الامتحان ، ليجد السؤال فى الجزء الذى قرأه مرة واحدة قبل دخوله إلى اللجنة ؛ فيجيب عن السؤال بدقة.

---

(١) ولذلك أرشد العلماء طلاب العلم أن يقللوا علائق الاشتغال بالدنيا ، فإن العلائق - كما يقول الإمام أبو حامد الغزالى - فى إحيائه(كتاب العلم) « شاغلة وصارفة و﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. ٤ ﴾ [الأحزاب] ، ومهما توزعت الفكرة قصرت عن دَرْك الحقائق ؛ ولذلك قيل: «العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك» والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشَّفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه ، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزارع ». قال الزبيدى فى اتحاف السادة المتقين (١/ ٥٠٤) : «لذا كرهوا للمتعلم الاشتغال فى درسين فى علمين مستقلين لئلا تتوزع الفكرة ، والانتقال من فن إلى فن آخر قبل استكمال الأول».

(٢) وأمر تخلية الذهن والفكر من الشواغل والخواطر شىء حَثَّ عليه حديث رسول الله ﷺ بالنسبة للصلاة ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا صلاة بحضرة طعام ، ولا وهو يدافعه الأخبثان» أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٦٠) والأخبثان هما البول والبراز. فكذلك درس العلم يجب على المتعلم أن يعطيه كل ذهنه وتركيزه فلا يشغله عنه شىء.

ولذلك فالتلميذ الذكى هو من يقوم بما يسمِّيه علم النفس «عملية الاستصحاب» ، أى: أن يقرأ الدرس ثم يغلق الكتاب ؛ ليسأل نفسه: «ما الجديد من المعلومات فى تلك الصفحة ؟» ويحاول أن يتذكر ذلك ، ويحاول أن يتعرف حتى على الألفاظ الجديدة التى فى تلك الصفحة ، وما هى الأفكار الجديدة التى صحَّحَتْ له معلومات أو أفكاراً خاطئة كانت موجودة لديه.

وهكذا يستصحب الطالب معلوماته بتركيز وانتباه.

وكذلك الأستاذ المتميز هو من يشرح الدرس ثم يتوقف ؛ ليسأل التلاميذ ؛ ليثير انتباههم ؛ حتى لا ينشغل أحدهم بما هو خارج الدرس ، والأستاذ المتميز هو الذى يلقى درسه بما يستميل التلاميذ ، كما تستميلهم القصة المروية ، وحتى لا تظل المعلومات الدراسية مجرد معلومات جافة.

وبهذا يستمر الذهن بلا غفلة ، والغفلة تأتى إلى القضايا الدينية ؛ لأن فى الإنسان شهوات تصادم الأوامر والنواهى ؛ فيتناسى الإنسان بعض الأوامر وبعض النواهى إلى أن يأتى الران [1] الذى قال عنه الحق سبحانه:

﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾ [المطففين]

ويبين النبى ﷺ ذلك بالحديث الشريف : « نزلت الأمانة فى جذر [2] قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السُّنَّة». ثم يحدثنا ﷺ عن رفع الأمانة فيقول: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة

(١) الرين: الطَّبع والدَّنَس. وهو كالصدأ يغشى القلب. قال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يسوادَّ القلب. بتصرف من لسان العرب (مادة : رين) والرين : الصدأ يعلو السيف فيذهب ببريقه ويستعار للغشاوة تغطى على القلب بسبب الذنوب ، وران الصدأ عليه : غلب عليه وغطَّاه كله . قال تعالى: ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾ [المطففين].

(٢) جَذْر كل شىء: أصله. ومنه هذا الحديث: جَذْر قلوب الرجال ، أى : فى أصلها. (اللسان مادة : جذر).

من قلبه ؛ فيظل أثرها مثل أثر الوكْت[1] »[2] أى : مثل لسعة النار وهكذا تتوالى ؛ حتى يأتى الرَّانُ على القلب .

إذن : فالغفلة تتلصص على النفس الإنسانية ، وكلما غفل الإنسان فى نقطة ، ثم يغفل عن أخرى وهكذا. ولكن من لا يغفل فهو من يتذكر الحكم ، ويطبقه ، ويذوق حلاوته[3]. ومثال هذا: المسلم الذى يشرح الله تعالى قلبه للصلاة ، فإن لم يُصَلِّ يظل مُرْهقاً وفى ضيق.

ولذلك جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأىّ قلب أشْربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تَصِير على قلبين : على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»[4].

إذن: فالغفلة هى أول باب يدخل منه الشيطان ؛ فيبعد الإنسان عن

(١) الوكتة : الأثر فى الشىء ، كالنقطة من غير لونه ، والجمع : وكت. وفى الحديث: «لا يحلف أحد ولو على مثل جناح بعوضة ، إلا كانت وكتة فى قلبه» . ومنه فى حديث حذيفة : « . . ويظل أثرها كأثر الوكت». [اللسان: مادة (وكت)].

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٩٧) ومسلم (٢٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان وهو حديث طويل ، هاتان قطعتان منه .

(٣) هذه الحلاوة تحدث عنها رسول الله ﷺ فقال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة طعم الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار» متفق عليه. أخرجه البخارى (١٦) ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك.

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٤) وأحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٦ ، ٤٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان.
مثل الصفا : الصخرة الملساء العريضة.
مرباداً : أسود مشوباً بغبرة.
كالكوز : كلمة عربية صحيحة لا فارسية وهو كوب بعُروة.
مجخياً : مائلاً ، أى : عن الاستقامة والاعتدال ، فشبه القلب الذى لا يعى خيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء لأن الكوز إذا مال انصب ما فيه. [انظر لسان العرب مادة : جخى].

أحكام الله . وإذا ما غفل الأب ، فالأبناء يُقلِّدون الآباء ، فتأتيهم غفلة ذاتية . وهكذا يكون الغافل أسوة لمن بعده .

ولذلك قال الحق سبحانه عن الأبناء الذين يتبعون غفلة الآباء :
﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا [1] عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة]

وإلْف تقليد الآباء قضية كاذبة ؛ لأننا إن سلسلنا مسألة الإيمان إلى آدم عليه السلام ، وهو الأب الأول لكل البشر ؛ لوجدنا أن آدم عليه السلام قد طبَّق كل مطلوب لله [2] ، فإن قلت : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ فهذا القول يحتم عليك ألا تنحرف عن الإيمان الفطرى ، وإلا كنت من الكاذبين غير المدققين فيما دخل على الإيمان الفطرى من غفلة أو غفلات ، تبعها تقليد دون تمحيص .

والحق سبحانه قد شاء أن تكون كل كلمة فى القرآن لها معنى دقيق مقصود ، فالحق سبحانه يقول على ألسنة الكافرين فى القرآن :﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف]

ولم يقل : «مهتدون» بل قال : «مقتدون» ، والمقتدى من هؤلاء هو من اتخذ أباه قدوة ، لكن المهتدى هو مَنْ ظن أن أباه على حق .

إذن : فالمقتدى هو من لا يهتم بصدق إيمان أبيه ، بل يقلده فقط ، وتقليد الآباء نوعان : تقليد على أنه اقتداء مطلق لا صلة له بالهدى أو الضلال ، وتقليد على أنه هدى صحيح لشرع الله تعالى .

---

(١) ألفينا : وجدنا . يقال : ألفيت الشيء إذا وجدته وصادفته ولقيته . انظر اللسان مادة (لفى) .

(٢) إن آدم عليه السلام طبَّق المطلوب ، أما أكله من الشجرة التى نُهى عنها ، فكان نسياناً ، والنسيان وارد وعارض ؛ لذلك علمه الله كلمات فتاب عليه وهدى ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ..﴿١١٥﴾ ﴾ [طه] وهذا لا ينافى أنه طبق كل المطلوب .

وقد حدث خلاف حول آدم عليه السلام أهو رسول أم نبي فقط [(١)] ؟ فهناك مَنْ قال: إن أول الرسل هو نوح عليه السلام ونقول : وهل من المعقول أن يترك الله الخلق السابقين على نوح عليه السلام دون رسول ؟

إن الحق سبحانه هو القائل: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا [(٢)] فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر]

والذى أشكل على هؤلاء المفسرين الذين قالوا: إن أول رسول هو نوح عليه السلام أنهم قد فكروا تفكيرا سطحياً ، وفهموا أن الرسول يطرأ على المرسل إليهم ، وما دام لم يكن هناك بشر قبل آدم فكيف يكون آدم مبعوثاً برسالة ، ولمن تكون تلك الرسالة؟

ولم يفطن هؤلاء المفسرون إلى أن آدم عليه السلام كان رسولاً وأسوة إلى أبنائه ، فالحق سبحانه قد قال له: ﴿ .. فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ [البقرة]

وسبحانه قد قال لآدم عليه السلام: ﴿ .. فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه]

وما دام الحق سبحانه قد ذكر الهدى ، فهذا ذكر للمنهج ، وهو الذى طبقه سلوكاً يقلده فيه الأبناء. وغفل هؤلاء المفسرون أيضاً عن استقراء قوله الحق: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا [(٣)] ..(٢٧) ﴾ [المائدة]

(١) هناك فرق بين النبى والرسول ، فالنبى هو من نُبِّىءَ وأوحىَ إليه دون أن ينزل عليه كتاب أو يؤمر بتبليغ قومه رسالة معينة ، لذلك كان كل رسول نبياً ، وليس كل نَبى رسولاً .

(٢) خلا: مضى. أى: مضى وأرسل. ويقال : القرون الخالية : الماضية ومنها قوله عز وجل: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ .. (١٣٤) ﴾ [البقرة] ، وقوله عز وجل: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة].

(٣) القربان: ما قُرِّب إلى الله - عز وجل - وتقربت به ، تقول: قربتُ لله قرباناً. وتقرّب إلى الله بشىء ، أى : طلب به القُربة عنده تعالى. قال الليث: القربان ما قربت إلى الله ، تبتغى بذلك قربة ووسيلة. [اللسان : مادة (قرب) - بتصرف].

وابْنَا آدم عليه السلام قد قدَّما القربان إلى الله تعالى. إذن: فهما قد عرفا أن هناك إلهاً.

وحين قال قابيل لأخيه: ﴿لأَقْتُلَنَّكَ (٢٧)﴾ [المائدة]

بعد ما تقبل الله قربان أخيه ولم يتقبل منه. قال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)﴾ [المائدة]

ثم في قول هابيل: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)﴾ [المائدة]

إذن: لو لم يكن آدم عليه السلام رسولاً فمن بلَّغ أبناءه بأن الله يثيب ويعاقب؟

والحق سبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ [١] سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن الله سبحانه - قبل رسالة محمد عليه الصلاة والسلام - كان يعاقب مَن يكذِّب البلاغ عنه وما جاء به السابقون من الرسل، يقول سبحانه:

﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا [٢] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ [٣] وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ [٤] وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

---

(١) وعد الله سبحانه أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين [ابن كثير ٢/ ٤١١].

(٢) الحاصب: ريح صرصر باردة شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل عليهم حصباء الأرض، فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الأرض. [ابن كثير ٣/ ٤١٣].

(٣) عُذِّب بها قوم ثمود، جاءتهم صيحة أصمَّت آذانهم وأخمدت منهم الأصوات والحركات. [ابن كثير ٣/ ٤١٣].

(٤) الخسف: إذهاب الأشياء في الأرض. وخُسف بالرجل: إذا أخذته الأرض وغاب فيها، وقد عُذِّب بهذا قارون. [ابن كثير ٣/ ٤١٣].

إلا أمة محمد ﷺ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال]

أى: أنه سبحانه قد أجَّلَ الجزاء والعقوبة عن أمة محمد ﷺ إلى الآخرة. وهذه الكلمة التى سبقت، أنه سبحانه لا يؤاخذ أمة محمد ﷺ بذنوبهم فى الدنيا، ولكنه يؤخِّر ذلك إلى يوم الجزاء. ويقضى سبحانه فى ذلك اليوم بين من اتبعوا الرسول ﷺ ومن عاندوه، وبطبيعة الحال يكون الحق سبحانه فى جانب من أرسله، لا من عاند رسوله ﷺ.

ويقول سبحانه بعد ذلك:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ[1] أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ (٢٠)﴾

والآية كما عرفنا هى الشىء العجيب، وإما أن تكون آية كونية، أو آية إعجاز، أو آية قرآن تشتمل على الأحكام.

ولماذا لم يصدقوا آيات القرآن، وهى معجزة بالنسبة إليهم؟

نقول: إن استقبال القرآن فَرْع تصديق للرسول ﷺ، وقد حدث اللبس عندهم؛ لأنهم ظنوا أن الآية هى الآيات المحسّة الكونية المشهودة، وما علموا أن الآيات التى سبق بها الرسل إنما جاءت لتناسب أزمان

(١) تستعمل (لولا) أداة عرض وتحضيض، مثل (هلا) وتختص بالدخول على المضارع كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ .. (٤٦)﴾ [النمل] وتدخل على ماض فى تأويل المضارع كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِى إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ .. (١٠)﴾ [المنافقون] أى: لولا تؤخرنى، وتستعمل (لولا) للتوبيخ والتنديم فتختص بالماضى كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ..(١٣)﴾ [النور]، ولها استعمالات أخرى يرجع إليها فى كتب اللغة [القاموس القويم: ٢/ ٢٠٧، ٢٠٨].

رسالاتهم ، ولتناسب مواقعهم من المرسل إليهم.

فقد كان الرسل السابقون لرسول الله ﷺ - وعلى جميع الرسل السلام - قد بُعث كل منهم لأمة محدودة زماناً ومكاناً ؛ ولذلك كانت الآيات التى اصطحبوها آيات حسية ، وكل آية كانت من جنس ما نبغ فيه القوم المبعوث إليهم.

أما رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فهى لعامة الزمان وعامة المكان [1]. فلو جعل الله سبحانه له آية حسية لآمن بها مَنْ شاهدها ، ولَصارَتْ خبراً لمن لم يشاهدها.

ونحن على سبيل المثال كمسلمين لم نصدِّق أن موسى - عليه السلام - قد ضرب البحر فانشق له البحر ؛ إلا لأن القرآن قال ذلك ؛ لأن كل أمر حسى يقع مرة واحدة فمن شاهده آمن به ، ومن لم يره إن حُدِّث به له أن يكذِّب ، وله أن يصدِّق ، ولكنّا صدقنا ؛ لأن القائل هو الحق سبحانه وقد أبلغنا ذلك فى القرآن. وثقتنا فيمن قال هى التى جعلتنا نصدق معجزات الرسل السابقين على رسول الله ﷺ .

وقد يتساءل البعض عن السر فى عدم إرسال معجزات حسية مع رسول الله ﷺ ، فنقول: لقد شاء الله سبحانه أن يرسل الرسول ﷺ بمعجزة باقية إلى أن تقوم الساعة وهى معجزة القرآن. وتتحدث كتب السيرة أن الماء نبع من بين أصابعه ﷺ ، فمن صدَّق صدَّق ، وإن قرأت ولم تصدِّق ذلك ، فاعلم أنك لست المقصود بها ، فقد كان المقصود بها هم المعاصرون

---

(١) وهذا مما خص به الله رسوله ﷺ وأمته ، ويدل عليه حديث رسول الله ﷺ : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة» من حديث جابر بن عبد الله. أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١).

لها ، وقد جاءت لتربيب الإيمان فى القوم المعاصرين ؛ لأنهم كانوا فى حاجة إلى شَدِّ أزْرِهم الإيمانى ، وحدَّثتنا كتب السيرة أيضًا عن حفنة الطعام التى أكل منها عدد كبير من الرجال ، ومن صدَّق الرواية ؛ فليصدِّقها ، ومَن لم يصدِّقها ، فهذه الآية لم تأتِ له ، لكنها جاءت للمعاصرين له ﷺ .

وهذا لا يمنع أن يكون للرسول ﷺ معجزات حسية كباقى إخوانه من الرسل علينا أن نؤمن بها بالثقة فيمن أخبر بها .

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وإن دخلت «لولا»[1] على جملة اسمية ، فالمقصود بها عدم شىء لوجود شىء ، كقول إنسان لآخر: لولا زيد عندك لأتيتك ، وبذلك ينعدم ذهابه إلى فلان لوجود زيد عنده. وهكذا تكون «لولا» حرف امتناع لوجود ، وكذلك كلمة «لوما» إن وجدتها تدخل على جملة اسمية فاعرف أنها امتناع شىء ، لوجود شىء وإن دخلت «لولا» على جملة فعلية فاعلم أنها حثٌّ وتحضيض.

وهم هنا قد قالوا: ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ وكأنهم لا يعترفون بالقرآن ، وطلبوا آية حسية ؛ لذلك نجد الحق سبحانه يقول فى موقع آخر بالقرآن الكريم: ﴿لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ (٤٨)﴾ [القصص]

وهذا تأكيد أنهم طلبوا الآية الحسية ؛ لأنهم علموا بالآيات الحسية للرسل السابقين على رسول الله ﷺ ، ولكن قولهم هذا كان تشبثاً بالكفر

---

(١) «لولا» حرف شرط لا يعمل ، ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط وجملة الشرط اسمية (مبتدأ وخبر) ويحذف الخبر وجوباً إذا كان كوناً عاماً وإذا وليها مضمر يكون ضمير رفع منفصلاً مثل : ﴿لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ .. (٣١)﴾ [سبأ] وجملة الجواب فعلية وتقترن باللام إذا كانت مثبتة فى الغالب وتتجرد منها إذا كانت منفية . قال تعالى :﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا .. (٢١)﴾ [النور] وقد يحذف الجواب إذا دل عليه دليل كقوله تعالى : ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠)﴾ [النور] القاموس القويم جـ ٢/ ٢٠٧

رغم أنهم شهدوا رسول الله ﷺ في كل أحواله ، وقد حدثت الآيات الحسية ورآها مَنْ آمن به ، وزاد تمسكهم بالإيمان.

والذين طلبوا أن يأتي لهم محمد ﷺ بمعجزة حسية ، كمعجزة موسى عليه السلام ، نسوا أن موسى عليه السلام قد بُعث إلى قوم محدودين هم بنو إسرائيل.

أما محمد ﷺ فقد بُعث إلى الناس كافة ؛ لذلك كان لا بد أن تكون معجزته متجدّدة العطاءات ، وتحمل المنهج المناسب لكل زمان ومكان. أما المعجزة الحسية فهي تنقضي بانقضاء زمانها ومكانها.

أو هم طلبوا الآيات التي اقترحوها مثل قولهم: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا [1] (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا [2] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا [3] (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ [4] أَوْ تَرْقَىٰ [5] فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ .. (٩٣)﴾ [الإسراء]

إذن: فهم قد طلبوا آيات اقترحوها بأنفسهم ، والآيات لا تكون باقتراح المرسل إليهم ، بل بتفضُّل المُرْسِل.

---

(١) الينبوع: العين الجارية والجدول الكثير الماء ، والجمع ينابيع. (اللسان: مادة نبع).

(٢) كسَفاً: جمع كسْفة وهي القطعة ، والمراد: العذاب. قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. (٩)﴾ [سبأ]. [اللسان: مادة (كسف)].

(٣) القبيل: الجماعة من أي شيء.

(٤) زخرف: نقش وزينة وتمويه بالذهب. والزخرف: الذهب في غيره. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ..(٢٤)﴾ [يونس]. [اللسان: مادة (زخرف)]

(٥) ترقى: تَصْعَد ، والرقيّ: الصعود. وفي الحديث: «كنت رقَّاءً على الجبال» أي: صعَّاداً عليها ، وفعّال للمبالغة. قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧)﴾ [القيامة].

ولقائل أن يقول: ولماذا لم يُرسِل الحق سبحانه لهم آية حسية معجزة كما قالوا؟

فنقول: إن الحق سبحانه قد قال: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩)﴾ [الإسراء]

وعلى ذلك يكون قولهم بطلب الآيات مدحوضاً [١]؛ لأن الحق سبحانه قد أرسل الآيات من قبل وكذَّب بها الأولون، أو هم طلبوا آيات اقترحوها، ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم: ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وفى هذا إقرار منهم بأن لمحمد ﷺ رباً، وهو ﷺ يُبلِّغ عنه، فكيف - إذن - يُنكرون أنه رسول؟!

ونعلم أنهم قالوا من قبل: «إن رب محمد قد قلاه [٢]» حين فتر [٣] الوحى عنه ﷺ، ولكن الحق سبحانه ردّ عليهم:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى]

إذن: هم قد ناقضوا أنفسهم، ففى الوصل منعوا وأنكروا أن يكون له ربٌّ، وفى الهجر سلّموا بأن له ربّاً، وهذا تناقض فى الشيء الواحد، وهو لون من التناقض يؤدى إلى اضطراب الحكم، واضطراب الحكم يدل على يقظة الهوى [٤].

---

(١) الدحض: الدفع والبطلان. ومنه قوله تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ..(١٦)﴾ [الشورى] أى: باطلة.

(٢) قلاه: أبغضه وتركه وتخلى عنه، عن جندب البجلي قال: أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون: قد وُدِّع محمد. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٩٧) والترمذى فى سننه (٣٣٤٥) وقال: حديث حسن صحيح. وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٥٢٢) من الطريق الذى أخرجه مسلم والترمذى إلى جندب بلفظ: «فقال المشركون: ودع محمداً ربُّه».

(٣) فتر الوحي: انقطع.

(٤) أى: أنه يُحَكِّمُ هواه فى كل تصرفاته ومنازع تفكيره، أى: يتخذ هواه إلهاً له، يأتمر بأمره، وينتهى بنهيه؛ لهذا يحدث التناقض. ويقول سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)﴾ [الجاثية].

ثم يقول الحق سبحانه رداً على طلبهم للآية الحسية : ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ وهكذا يُعلِّم الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ جواباً احتياطياً ، فمن الممكن أن يُنزل الحق سبحانه الآية الحسية ، ومن الممكن ألا ينزلها ، فرسول الله ﷺ لا يحكم على ربه ؛ لأن الغيب أمر يخصه سبحانه ، إن شاء جعل ما في الغيب مشهداً ، وإن شاء جعل الغيب غيباً مطلقاً ، وليس عليكم إلا الانتظار ، ويعلن رسول الله ﷺ أنه معهم من المنتظرين ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠)﴾ [يونس]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا[1] يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) ﴾

والرسول ﷺ حين ضاق ذرعاً بالكافرين من صناديد قريش دعا عليهم أن يهديهم الحق بسنين الجدب كالسنين التي أصابت مصر واستطاع سيدنا يوسف عليه السلام أن يدبر أمرها ، فسلط الحق سبحانه على قريش الجدب والقحط[2] ، ثم جاء لهم بالرحمة من بعد ذلك . وكان من المفروض أن يرجعوا إلى الله ، وأن يؤمنوا برسالة رسوله ﷺ ، بعد أن علموا أن ما

---

(١) المقصود بالرسل هنا : الحفظة من الملائكة . قال تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾ [الانفطار] .

(٢) الجدب : نقيض الخصْب . أي : الجفاف وانقطاع المطر . وفي حديث الاستسقاء : «هلكت المواشي وأجدبت البلاد» ، أي : قحطتْ وغَلَت الأسعار . [اللسان : مادة (جدب)] .

القحط : احتباس المطر ، والقحط : الجدب ؛ لأنه من أثره . وفي حديث الاستسقاء : «قحط المطر واحمرّ الشجر» هو من ذلك . وقد يشتق القحط لكل ما قلّ خيره ، والأصل للمطر . والقحط في كل شيء قلة خيره . [اللسان : مادة (قحط)] .

مسَّهم من القحط ومن الجدب كان بسبب دعوة الرسول ﷺ: «اللهم اجعلها عليهم سنين كَسِنِيِّ يوسف» [١].

وانتهت السنوات السبع وجاءت لهم الرحمة ممثلة فى المطر ، ولم يلتفتوا إلى ضرورة شكر الله والإيمان برسوله ﷺ، ولكنهم ظلوا يبحثون عن أسباب المطر ، فمنهم من قال: لقد جاء مطرنا نتيجة لنوْء [٢] كذا ، ولأن الرياح هبَّت على مناطق كذا ، وفعلوا ذلك دون التفات لانتهاء دعوة رسول الله ﷺ ، مثلهم مَثَل مَنْ جلس يبحث فى أسباب النصر فى الحرب ، وجعلوا أسبابها مادية فى العُدَّة والعتاد [٣]. ولا أحد ينكر أهمية الاستعداد للقتال وجدواه ، ولكن يبقى توفيق الله سبحانه وتعالى فوق كل اعتبار ؛ لأن المؤمنين بالله الذين استعدوا للقتال ودخلوا المعارك وجدوا المعجزات تتجلى بنصر الله ؛ لأن الحق سبحانه ينصر مَنْ ينصره.

أما الذين يحصرون أسباب النصر فى الاستعداد القتالى فقط ، فالمقاتلون الذين خاضوا الحرب بعد التدريب الجاد ، يعلمون أن التدريب وحده لا يصنع روح المقاتل ، بل تصقل [٤] روحه رغبته فى القتال ونَيْل الشهادة ودخول الجنة.

---

(١) عن أبى هريرة أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة يقول: «اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف..» الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١).

(٢) ناء ينوء نوأ من باب قال يقول أى: نهض. ومنه النوء للمطر وجمعه أنواء. المصباح (٢/ ١٥١).

(٣) العتاد: العُدَّة ، والجمع: أعتدة وعُتُد. قال الليث: العتاد: الشىء الذى تعدّه لأمر ما وتهيّئه له. وفى حديث صفته ﷺ: «لكل حال عنده عتاد» أى: ما يصلح لكل ما يقع من الأمور. والمراد هنا بالعتاد: الأسلحة وآلات الحرب. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلاً وَأَغْلالاً وَسَعِيراً (٤)﴾ [الإنسان]. [اللسان: مادة (عتد)].

(٤) الصقل: الجلاء والشَّحْذ ، والمراد: الحمية الدينية والتعبئة النفسية والمعنوية للمقاتلين. [اللسان: مادة (صقل) – بتصرف].

إذن : فلمدد السماء مدخل ، وَمن رأى من المقاتلين آية مخالفة لنواميس الكون ، فليعلم علم اليقين أن يد الله كانت فوق أيدى المؤمنين المقاتلين. ومن يدعى أن أى نصر هو نتيجة للحضارة ، يجد الرد عليه من المقاتلين أنفسهم بأن الحضارة بلا إيمان هى مجرد تقدم مادة هش[1] لا يصنع نصراً[2] ، والنصر لا يكون بالمادة وحدها ، وقد أمرنا الله بحسن الاستعداد المادى ، ولكن النصر يكون بالإيمان فوق المادة.

ولذلك نجد مَنْ خاضوا حربنا المنتصرة فى العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ يعلمون أن مدد الله كان معهم بعد أن أحسنوا الاستعداد ، ولا أحد من المقاتلين يصدق أن الاستعداد المادى وحده يمكن أن يكفى للنصر ، إنه ضرورة ، ولكن بالإيمان وحسن استخدام السلاح يكون النصر ؛ ولذلك لا يصدق المقاتلون من ينسب النصر للمادة وحدها ، وينسحب عدم التصديق على كل ما يقوله من ينكر دور الإيمان فى الانتصار.

وهكذا نجد أن مَنْ يجرد النصر من قيمة الإيمان إنما يخدم الإيمان ؛ لأن إنكار الإيمان يقلل من قيمة الرأى المادى. وهكذا ينصر الله دينه حتى يثبته فى قلوب جنده ، ويقلل من قيمة ومكانة مَنْ ينكرون قيمة الإيمان.

ومثال هذا فى تاريخ الإسلام أن اليهود الذين كانوا يستفتحون على أهل المدينة من الأوس والخزرج بأن رسولاً سوف يظهر ، وأنهم - أى : اليهود - سيتبعونه[3] ، وسوف يقتلون العرب من الأوس والخزرج قَتْل عاد وإرم.

(١) الهشّ والهشيش من كل شيء : ما فيه رخاوة ولين ، والمراد : الضعف.

(٢) يقول تعالى : ﴿ .. وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) ﴾ [آل عمران] .

(٣) وقد حكى الله سبحانه هذا لنا فى قرآنه ، فقال عن اليهود : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة] . وعن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق .

ولما جاء وقت ظهور محمد بن عبد الله ﷺ بمكة ، أسرعت الأوس والخزرج إلى الإيمان به ، وقالوا : إنه النبى الذى تهددنا به يهود ، فَلْنسبق إليه حتى لا يسبقونا .

هكذا كانت كلمة اليهود هى دافع الأوس والخزرج إلى الإيمان .

إذن : فالله ينصر دينه بالفاجر [1] ، رغم ظن الفاجر أنه يكيد للدين .

وكذلك حين جاءت لهم الرحمة بعد القحط أرجفوا [2] وظلوا يحللون سبب سقوط المطر بأسباب علمية محدودة بالمادة ، لا بالإيمان الذى فوق المادة .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ [3] فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١)﴾ [يونس]

---

(١) وقد ورد بهذا حديث رسول الله ﷺ ، فعن أبى هريرة قال : شهدنا مع رسول الله ﷺ حُنيناً . فقال لرجل ممن يُدْعَى بالإسلام «هذا من أهل النار» فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً فأصابته جراحة . فقيل : يا رسول الله ، الرجل الذى قلت له آنفاً «إنه من أهل النار» فإنه قاتل اليوم قتالاً شديداً . وقد مات فقال النبى ﷺ : « إلى النار» فكاد بعض المسلمين أن يرتاب . فبينما هم على ذلك إذ قيل : إنه لم يمت ولكن به جراحاً شديداً فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه ، فأخبر النبى ﷺ بذلك فقال : « الله أكبر أشهد أنى عبد الله ورسوله» ثم أمر بلالاً فنادى فى الناس «إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» . حديث صحيح ، متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٦٢) ومسلم (١١١) .

(٢) أرجفوا : اضطربوا اضطراباً شديداً . (اللسان مادة : رجف) .

(٣) المكر : احتيال فى خفية . قال تعالى : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠)﴾ [النمل] . قال أهل العلم بالتأويل : المكر من الله تعالى جزاء سُمِّى باسم مكر المجازى كما قال تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى] فالثانية ليست بسيئة فى الحقيقة ، ولكنها سميت سيئة لازدواج الكلام ، وكذلك قوله تعالى : ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ .. (١٩٤)﴾[البقرة] فالأول ظلم والثانى ليس بظلم ، ولكنه سُمِّى باسم الذنب ليُعلَم أنه عقاب عليه وجزاء به . قال ابن الأثير : مكر الله إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه . [اللسان : مادة (مكر)] .

والمكر: هو الكلام الملتوى الذى لا يريد أن يعترف برحمة الله ، والادعاء بأن نوء كذا هو السبب فى سقوط المطر ، وبرج كذا هو السبب فى سقوط المطر.

وقوله الحق: ﴿مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ والمكر هو الكيد الخفى ، والمقصود به هنا محاولة الالتفاف ؛ لتجريد العجائب من صنع الله لها ، وحتى العلم وقوانينه فهو هبة من الله ، والحق هو القادر على أن يوقف الأسباب وأن يفعل ما يريد وأن يخرق القوانين ، فهو سبحانه رب القوانين ، فلا تنسبوا أى خبر إلا له سبحانه ؛ حتى لا نضل ضلال الفلاسفة الذين قالوا بأن الله موجود ، وهو الذى خلق الكون وخلق النواميس ؛ لتحكم الكون بقوانين.

ونقول: لو خلق الحق سبحانه القوانين والنواميس وتركها تتحكم لما شَذَّ شيء عن تلك القوانين ، فالمعجزات مع الرسل - على سبيل المثال - كانت خروجاً عن القوانين . وأبقى الله فى يده التحكُّم فى القوانين ، صحيح أنه سبحانه قد أطلقها ، ولكنه ظل قيُّومًا عليها، فيعطل القانون متى شاء ويبرزه متى شاء ويُوجِّه كيفما شاء .

والمكر كما نعلم مأخوذ من التفاف أغصان الشجرة كالضفيرة ، فلا تتعرف على منبت ورقة الشجر ومن أى غصن خرجت ، فقد اختلطت منابت الأوراق ؛ حتى صارت خفية عليك ، وأخذ من ذلك الكيد الخفىّ ، وأنت قد تكيد لمساويك ، لكنك لن تقدر على أن تكيد لمن هو أعلى منك ، فإن كنتم تمكرون فإن الله أسرع مكراً ، والحق سبحانه يقول: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ ، وهذه اسمها «مشاكلة التعبير» [1] .

---

(١) المشاكلة: مصطلح بلاغى جاء فى القرآن كثيراً ، وهو يعنى: ذكر الشيء بلفظ غيره ، لوقوعه فى صحبته تحقيقاً أو تقديراً. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ..﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران] فإن إطلاق المكر فى جانب البارىء تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه . (الإتقان فى علوم القرآن: ٣ / ٢٨١).

أى : عليك أن تـأخذ ذلك فى مقابله فى ذات الفاعـل والفعل ، ولكن لاتأخـذ من هذا القـول اسـمـاً لله ، فـإياك أن تقـول : إن الله - سـبحـانه وتعالى- مـاكر ؛ لأن المكر كيد خفىٌّ تفعله أنت مع مسـاويك ، ولكنك لن تسـتطيع ذلك مـع من هـو مُطَّـلع على كـيـدك ، ولا تـطّلع أنت على مـا يشـاء لك.

وانظر إلى أى جماعة تكيد لأى أمر ، وستجد من بينهم من يبلغ عنهم السلطات ، وأجهزة الأمن ، فإذا كان كيد البشر للبشر مفضوحاً بمن يشى منهم بـالآخرين ، بل هناك من البشر غـير الكائدين من يستطيع بنظرته أن يستنبط ويستكشف من يكيدون له.

وهنـاك من الأجـهـزة المعـاصـرة مـا تسـتطيع تسـجـيل مكالمات الناس والتنصُّت [1] عليهم ؛ وكل ذلك مكر من البشر للبشر ، فما بالنا إن كـاد الله لأحد ، وليس هناك أحد مع الله - سبحانه وتعـالى - ليبـلغنـا بكـيـده ، ولا أحد يستطيع أن يتجسَّس عليه ؟!

مكر الله سبحانه - إذن - أقوى من أى مكر بشرى ؛ لأن مكر البشر قد يُهدَم من بعض الماكرين أو من التجسس عليهم ، لكن إذا كـاد الله لهم ، أيعلمون من كيده شيئاً ؟ طبعاً لا يعلمون.

وكلمة ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ تلفتك إلى أن هناك اثنين يتنافسان فى سباق ، وحين تقـول : فلان أسرع من فلان ، فـمعنى ذلك : أن كلاًّ منهما يحاول الوصول إلى نفس الغاية ، لكن هناك واحداً أسرع من الآخر فى الوصول إلى الغاية.

ومكركم البشرى هو أمر حادث ، لكن الله - سبحانه - أزلى الوجود ،

---

(١) التَّنَصُّت : المراد به : التجسس. وأنْصَتَ الرجل إنصاتاً : استمع باهتمام. قال تعالى : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا .. (٢٠٤)﴾ [الأعراف]. [اللسان : مادة (نصت) - بتصرف].

يعلم كل شىء قبل أن يقع ، ويرتِّب كل أمر قبل أن يحدث ؛ لذلك فهو الأسرع فى الرد على مكركم ، إن مكرتم.

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا [1] لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ و«إذا» الأولى ظرف ، أما إذا الثانية فهى « إذا الفجائية » مثلما تقول : خرجت فإذا الأسد بالباب.

وهم حين أنزل الحق لهم الأمطار رحمة منه، فهم لا يهدأون ويستمتعون ويذوقون رحمة الله تعالى بهم من الماء الذى جاءهم من بعد الجدب ، بل دبروا المكر فجأة ، فيأتى قول الحق سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾.

وهكذا ترى أن ما يبطل كيد الماكرين من البشر ، يكون بإحدى تلك الوسائل : إما أن يكون بوشاية من أحد الماكرين ، وإما أن يكون بقوة التخابر من الغير ، وإما أن يكون من رسل العلىّ القدير وهم الملائكة الذين يكتبون كل ما يفعله البشر ، فسبحانه القائل: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَاتِبِينَ ⑪ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⑫﴾. [الانفطار]

واقرأ أيضاً قول الحق سبحانه : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ⑭﴾. [الإسراء]

---

(١) « إذا » تأتى لمعنيين : شرطية ، وفجائية . وإذا الشرطية : اسم شرط للزمن المستقبل فتختص بالدخول على الجملة الفعلية ، وتعرب ، وتدخل أحياناً على الأسماء المرفوعة ، فيكون ما بعدها فاعلاً لفعل محذوف يفسره الفعل الذى بعده مثل قوله تعالى : ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⑪﴾ [التكوير] ، وقد تكون « إذا» للمفاجأة وتختص بالجمل الإسمية كقوله تعالى : ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ⑳﴾ [طه] ، وقد اجتمعت الشرطية والفجائية فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ㉕﴾ [الروم] . وكما فى الآية : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا .. ㉑﴾ [يونس] .

وجاء الحق سبحانه بكل ما سبق ؛ لأنه سبحانه قد شاء أن يعطى لقريش فرصة التراجع فى عنادها للرسول ﷺ ، هذا العناد الذى قالوا فيه : إنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ، وهذا قول مغلوط ؛ لأن الآباء فى الأصل كانوا مؤمنين ، ولكن جاءهم الضلال كأمر طارىء ، والأصنام التى عبدوها طارئة عليهم من الروم ، جاء بها إنسان ممن ساحوا فى بلاد الروم هو «عمرو بن لحىّ»[1] ، فإن رجعتُم إلى الإيمان بعد عنادكم ؛ فهذا هو الطريق المستقيم الذى كان عليه آباؤكم بالفطرة والميثاق الأول .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

وهذه الآية الكريمة جاءت مرحلة من مراحل إخبار الله سبحانه وتعالى عن المعاندين لدعوة الإسلام ، التى بدأها الحق سبحانه بأنه قد رحمهم فأجّل لهم استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر ، ولو أنه أجابهم إلى ما دَعَوْا به على أنفسهم من الشر فى قولهم : ﴿ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ..﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال]

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١ / ٧٧) أن عمرو بن لحىّ خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق ، رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنماً ، فأسير به إلى أرض العرب ، فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له هُبَل ، فقدم به مكة ، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

لقضى أمرهم . فمن رحمة الله تعالى أنه لم يُجِبْهم إلى دعائهم.

وإذا كان الله سبحانه قد أجَّل استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر رحمة بهم ، فيجب أن يعرفوا أن تأجيل استجابتهم بدعاء الخير رحمة بهم أيضاً ؛ لأنهم قد يدعون بالشر وهم يظنون أنهم يدعون بالخير ، وبعد ذلك دلَّل على كذبهم فى دعائهم على أنفسهم بالشر بأنهم إذا مسَّهم ضرٌّ دعوا الله تعالى مضطجعين [1] وقاعدين وقائمين.

فلو كانوا يحبون الشر لأنفسهم ؛ لظلوا على ما هم فيه من البلاء إلى أن يقضى الله تعالى فيهم أمراً.

ثم عرض سبحانه قضية أخرى ، وهى أنه سبحانه إذا مسهم بضر ؛ ليعتبروا ، جاء الله سبحانه برحمته ؛ لينقذهم من هذا الضر . فياليتهم شكروا نعمة الله تعالى فى الرحمة من بعد الضر ، ولكنهم مرُّوا كأن لم يدعوا الله سبحانه إلى ضر مسَّهم.

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، يصور لنا الحق سبحانه وضعاً آخر ، هو وضع السير فى البر والبحر ، فيقول: ﴿هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .. (٢٢)﴾. [يونس]

وكلمة ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ تدل على أن الذى يسيِّر هو الله ، ولكن فى القرآن آيات تثبت أن السير يُنسب إلى البشر حين يقول: ﴿قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ .. (٦٩)﴾. [النمل]

---

(١) الاضطجاع : الاستلقاء ووضع الجنب إلى الأرض . قال ابن المظفر : كانت هذه الطاء تاء فى الأصل ، ولكنه قبح عندهم أن يقولوا (اضتجع) فأبدلوا التاءَ طاءً . قال تعالى : ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا .. (١٦)﴾ [السجدة]. [اللسان : مادة (ضجع)] .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِه..(٢٩)﴾. [القصص]

وهو سبحانه يقول: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ..(١٨)﴾. [سبأ]

فكأن هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها قد نسبت التسيير إلى الله سبحانه ، وبعض الآيات الأخرى نسبت التسيير إلى النفس الإنسانية ، ونقول لمن توهموا أن فى ذلك تعارضاً :

لو أنكم فطنتم إلى تعريف الفاعل عند النحاة [1] وكيف يرفعونه ؛ لعرفتم أن تحقق أى فعل إنما يعود إلى مشيئة الله سبحانه ، فحين نقول: «نجح فلان» فهل هو الذى نجح ، أم أن الذى سمح له بالنجاح غيره ؟ إن الممتحن والمصحِّح هما من سمحا له بالنجاح ؛ تقديراً لإجاباته التى تدل على بذَل المجهود فى الاستذكار.

وكذلك نقول: «مات فلان» ، فهل فلان فعل الموت بنفسه ؟ خصوصاً ونحن نعرب «مات» كفعل ماض ، ونعرب كلمة (فلان) «فاعل» أو نقول: إن الموت قد وقع عليه و اتَّصفً به ؛ لأن تعريف الفاعل : هو الذى يفعل الفعل ، أو يتّصف به.

وإذا أردنا أن ننسب الأشياء إلى مباشرتها السببية ؛ قلنا: «سار الإنسان».

وإذا أردنا أن نؤرِّخ لسير الإنسان بالأسباب ، وترحَّلنا به إلى الماضى ؛ لوجدنا أن الذى سيَّره هو الله تعالى.

وكل أسباب الوجود إنْ نظرتَ إليها مباشرة ؛ وجدتها منسوبة إلى من هو فاعل لها ؛ لكنك إذا تتبَّعتها أسباباً ؛ وجدتّها تنتسب إلى الله سبحانه.

---

(١) لأن تعريف الفاعل عند النحاة هو : كل اسم مرفوع سبقه فعل متعد أو لازم ، وهذا الاسم هو الذى فعل الفعل أو قام به أو اتصف به ، مثل : قرأ محمد الكتاب ، ونجح محمد ، وأثمرت الشجرة .

فمثلاً : إذا سُئلت : مَنْ صنع الكرسى ؟ تجيب : النجار . وإنْ سألت النجار : من أين أتيت بالخشب ؟ سيجيبك : من التاجر . وسيقول لك التاجر أنه استورده من بلاد الغابات ، وهكذا.

إذن : إذا أردت أن تسلسل كل حركة فى الوجود ؛ لا بد أن تنتهى إلى الله تعالى[1] .

وحين قال الحق سبحانه : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ[2] وَسَارَ بِأَهْلِهِ.. (٢٩)﴾ [القصص]

نفهم من ذلك أن موسى - عليه السلام - قد سُيِّر بأهله ؛ لأن التسيير فى كل مقوماته من الله تعالى.

والمثال الآخر : نحن نقرأ فى القرآن قوله الحق : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣)﴾ [النجم]

فهو سبحانه الذى خلق الضحك ، وخلق البكاء.

فنجد من يقول : كيف يقول الله سبحانه إنه خلق الضحك والبكاء وهو الذى يقول فى القرآن : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. (٨٢)﴾ [التوبة]

ونقول : أنت إن نظرت إلى القائم بالضحك ، فهو الإنسان الذى ضحك ، وإن نظرت إلى من خلق غريزة الضحك فى الإنسان ؛ تجده الله سبحانه.

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ.. (٢)﴾ [الرعد] ويقول سبحانه : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ .. (١٢٣)﴾ [هود] .

(٢) وذلك أن شعيباً قال لموسى : ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ .. (٢٧)﴾ [القصص] . فقال له موسى : ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)﴾ [القصص] ، وقد ثبت فى الحديث أن موسى عليه السلام قضى الأجل الأتم والأكمل وهو عشر سنين (ابن كثير : ٣/ ٣٨٤ - ٣٨٧).

وغريزة الضحك موجودة باتفاق شامل لكل أجناس الوجود ، وكذلك البكاء فلا يوجد ضحك عربى ، وضحك انجليزى ، ولا يوجد بكاء فرنسى ، أو بكاء روسى.

إذن : فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الضحك والبكاء.

وقد صدق قوله الحق: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النجم]

لكن الضاحك والباكى يقوم به الوصف. وكذلك قوله الحق: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. ﴿١٧﴾ ﴾. [الأنفال]

فقد شاء الحق سبحانه أن يمكن رسوله ﷺ بالبشرية أن يرمى الحصى ، ولكن إيصال الحصى لكل فرد فى الجيش المقابل له، فتلك إرادة الله [1].

إذن: فقول الحق سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ . لا يتعارض مع أنهم هم الذين يسيرون ، وأنت إذا علّلت السير فى الأرض أو فى البحر ؛ ستجد أن السير هو انتقال السائر من مكان إلى مكان ، وهو يحدِّد غاية السير بعقله ، والأرض أو البحر الذى يسير فى أى منهما بأقدامه أو بالسيارة أو بالمركب ، هذا العقل خلقه الله تعالى ، والأرض كذلك ، والبحر أيضاً ، كلها مخلوقات خلقها الله سبحانه وتعالى. وأنت حين تحرِّك ساقيك ؛ لتسير ، لا تعرف كيف بدأت السير ولا كَمْ عضلة تحركت فى جسدك ، فالذى أخضع كل طاقات جسمك لمراد عقلك هو الله تعالى .

إذن: فكل أمر مرجعه إلى الله سبحانه.

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما: رفع رسول الله ﷺ يديه يعنى يوم بدر فقال: «يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً» فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين. أخرجه أبو نعيم (ص ٤٠٤) والبيهقى (٣/ ٧٩) كلاهما فى دلائل النبوة ، وذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٩٤).

وهنا ملحظ فى السير فى البر والبحر ، فكلاهما مختلف ، فالإنسان ساعة يسير فى الأرض على اليابسة ، قد تنقطع به السبل ، ويمكنه أن يستصرخ[١] أحداً من المارة، أو ينتظر إلى أن يمر عليه بعض المارة؛ ليعاونه.

أما المرور فى البحر ؛ فلا توجد به سابلة أو سالكة[٢] كثيرة ؛ حتى يمكن للإنسان أن يستصرخهم.

إذن : فالمرور فى البحر أدق من المرور فى البر ؛ ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول عن السير فى البحر : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس]

وهكذا لا نجد أن فى الآية نفسها حديثاً عن السير فى البر ؛ لأن الحق سبحانه ما دام قد تكلم عن إزالة الخطر للمضطر فى البحر ، فهذا يتضمن إزالته عمن يسير فى البر من باب أولى . وإذا ما جاء الدليل الأقوى ، فهو لا بد أن ينضوى[٣] فيه الدليل الأقل .

ومثال هذا قول الحق سبحانه:

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا .. ﴿١٥﴾ ﴾. [الأحقاف]

وجاءت كل الحيثيات بعد ذلك للأم ، ولم يأت بأى حيثية للأب ،

---

(١) يستصرخ : يصرخ طالباً النجدة . والصرخة : الصيحة الشديدة عند الفزع أو المصيبة . قال تعالى : ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [القصص] . وقال : ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [يس] . والصريخ : المغيث . [اللسان : مادة (صرخ) . . بتصرف].

(٢) سبيل سابلة : طريق مسلوكة . والسابلة : أبناء السبيل المختلفون على الطرقات فى حوائجهم ، والجمع : السوابل . والسلوك : مصدر سلك طريقاً ومن يسلكون طريقاً فهم سالكة . قال تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [طه] . [اللسان : مادة (سبل) ، (سلك)] .

(٣)ضَوَى إليه : انضم ولجأ . وينضوى فى الشىء : يدخل فيه ويندرج تحته . [اللسان : مادة (ضوا) . بتصرف].

فيقول : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ [١] ثَلاثُونَ شَهْرًا (١٥)﴾ [الأحقاف]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأن حيثية الأم مبنية على الضعف ، فيريد أن يرقق قلب ابنها عليها ، فالأب رجل ، قد يقدر على الكدح فى الدنيا ، كما أن فضل الأب على الولد يدركه الولد ، لكن فضل أمه عليه وهو فى بطنها ؛ لا يعيه ، وفى طفولته الأولى لا يعى أيضاً هذا الفضل . ولكنه يعى من بعد ذلك أن والده يحضر له كل مستلزمات حياته ، من مأكل وملبس ، ويبقى دور الأم فى نظر الطفل ماضياً خافتاً .

إذن : فحيثية الأم هى المطلوبة ؛ لأن تعبها فى الحمل والإرضاع لم يكن مُدْركاً من الطفل .

وكذلك هنا فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، ترك الحق سبحانه حيثية البر وأبان بالتفصيل حيثية البحر :

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ [٢] (٢٢)﴾ [يونس]

---

(١) الفصال : الفطام . والمعنى : أن مدى حمل المرأة إلى منتهى الوقت الذى يُفصل فيه الولد عن رضاعها ثلاثون شهراً ، وفصلت المرأة ولدها أى : فطمته . وقال تعالى : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. (١٤)﴾ [لقمان]. وقال تعالى : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ .. (٢٣٣)﴾ [البقرة] . [اللسان : مادة (فصل) - بتصرف]. وقد استنبط العلماء من هذا أن أقل مدة للحمل هى ستة أشهر ، وقد حدث أن امرأة رفع أمرها إلى على بن أبى طالب وأنها حملت ستة أشهر واتهمها زوجها بالزنا ، وبرَّأها على استدلالاً بالجمع بين هذه الآيات . وهو مذهب الجمهور [فقه السنة : ٣/ ٣٦٧].

(٢) الفلك : السفينة للمذكر والمؤنث والواحد والجمع ، قال تعالى : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩)﴾ [الشعراء] جعله مفرداً ومذكراً ، أى : المركب ؛ وقال : ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ .. (١٤)﴾ [النحل] جعل الفلك جمعاً ووصفه بقوله : (مَوَاخِرَ) أى : السفن . القاموس القويم (٢/ ٨٩) .

وكلمة (الفـلك) تـأتى مرة مفـردة ، وتـأتى مـرة جمعاً ، والوزن واحد فى الحـالتين ومثال هذا أنه حين أراد الله سبحانه أن ينجى نـوحاً عليه السـلام ، وأن يغـرق الكافـرين به ، قـال لسـيدنا نوح : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٣٧)﴾ . [هود]

إذن : هى تطلق على المفرد ، وعلى الجمع ، ولها نظائر فى اللغة فى كلتا الحـالتين ، فهى فى الإفراد تكون مثل : قُفْل ، وقُـرْط . وعند الجمع تكون مثل : أسْد .

والحق سبحانه وتعالى يصف الريح هنا بأنها طيبة ، والقرآن الكريم من طبيعة أسلوبه حين يتكلم عن الريح بلفظ الإفراد يكون المقصود بها هو العذاب ، مثل قوله الحق : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا .. (٢٥)﴾ . [الأحقاف]

وإن تكلم عنها بلفظ الجمع فهى للرحمة ، وسبحانه القائل :

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ [1] .. (٢٢)﴾ . [الحجر]

ويقول سبحانه أيضًا :

﴿وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ .. (٥٧)﴾ . [الأعراف]

---

(١) لواقح : حوامل ؛ لأنها تحمل الماء والسحاب وتقلّبه وتصرّفه ، ثم تستدره ، فهى تلقح السحاب بالماء فيدر ماء وينزل المطر وتلقح الشجر فتعطى نتاجها . [لسان العرب : مادة : (لقح)] وابن كثير (٥٤٩/٢).

والرياح هنا جاءت فى صيغة الجمع ، وعلّة وجود ريح للشر [١] ، ورياح للخير ، يمكنك أن تستشفها من النظر إلى الوجود كله ؛ هذا النظر يوضح لك أن الهواء له مراحل ، فهواء الرُّخَاء هو الذى يمر خفيفاً ، مثل النسيم العليل ، وأحياناً يتوقف الهواء فلا تمر نسمة واحدة ، ولكننا نتنفس الهواء الساكن الساخن أثناء حرارة الجو ، ثم يشتد الهواء أحياناً ؛ فيصير رياحاً قوية بعض الشىء ، ثم يتحول إلى أعاصير.

والهواء - كما نعلم - هو المقوِّم الأساسى لكل كائن حى ، ولكل كائن ثابت غير حى ، فإذا كان الهواء هو المقوم الأساسى للنفس الإنسانية ، فالعمارات الضخمة - مثل ناطحات السحاب - لا تثبت بمكانها إلا نتيجة توازن تيارات الهواء حولها ، وإن حدث تفريغ للهواء تجاه جانب من جوانبها ؛ فالعمارة تنهار.

إذن: فالذى يحقق التوازن فى الكون كله هو الهواء.

ولذلك نجد القرآن الكريم قد فصّل أمر الرياح وأوضح مهمتها ، وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ وكأنه سبحانه يتكلم هنا عن السفن الشراعية التى تسير بالهواء المتجمِّع فى أشرعتها. وإذا كان التقدم فى صناعة السفن قد تعدَّى الشراع ، وانتقل إلى البخار ، ثم الكهرباء ، فإن كلمة الحق سبحانه: ﴿رِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ تستوعب كل مراحل الارتقاء ، خصوصاً وأن كلمة «الريح» قد وردت فى القرآن الكريم بمعنى القوة أيا كانت: من هواء ، أو محرك يسير بأية طاقة. وسبحانه

---

(١) ومن الريح ما يسخره الله ويجعله ريح خير ، مثل قوله تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦)﴾[ص] والريح الرخاء هى: الريح اللينة السريعة التى لا تزعزع شيئاً من مكانه. انظر [اللسان مادة (رخو)].

القائل: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ[1] .. ﴿٤٦﴾﴾. [الأنفال]

وهكذا نفهم أن معنى الريح ينصرف إلى القوة. وأيضاً كلمة «الريح» تنسجم مع كل تيسيرات البحر.

وقوله الحق: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ هذا القول الكريم يضم ثلاثة وقائع: الوجود فى الفُلْك، وجرى الفُلْك بريح طيبة، ثم فرحهم بذلك؛ هذه ثلاثة أشياء جاءت فى فعل الشرط، ثم يأتى جواب الشرط وفيه ثلاثة أشياء أيضاً:

أولها: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ وثانيها: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ وثالثها: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾.

أما الريح العاصف: فهى المدمرة، ويقال: فلان يعصف بكذا، وفى القرآن: ﴿كَعَصْفٍ[2] مَّأْكُولٍ ..﴿٥﴾﴾. [الفيل]

إذن: ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ هى الريح المدمِّرة المغرقة. وقوله الحق: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾.

فالموج يأتى من أسفل، والريح تأتى من أعلى، وترفع الريح الموج فيدخل الموج إلى المركب، ونعلم أنهم يقيسون ارتفاع الموج كل يوم حسب

(١) أى: قوتكم، فالريح هنا معناها القوة وذهاب الريح أى: ذهاب القوة والهيبة، فالقوة هى التوازن فى الحياة، إن استعملت بأخلاق عادت على الإنسانية بالخير والسلام، أما إذا تجردت من الأخلاق أصبحت طغياناً وفساداً فى الأرض وفيما حكاه التاريخ ونشاهده فى دنيا الواقع لأكبر دليل. وقد تطلق على الرائحة، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ.. ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف]، وهذا يخدم معنى القوة أيضاً، فإن من ذهبت رائحته من الوجود، فهذا دليل على ذهاب قوته.

(٢) العصف المأكول: التبن. والعصف له معنيان:
- أنه جعل أصحاب الفيل كورق أخذ ما فيه من الحَبّ وبقى هو لا حَبّ فيه.
- أو أراد أنه جعلهم كعصف قد أكلته البهائم. [اللسان (مادة: عصف)].

قوة الريح ، فحين تكون الريح خفيفة ؛ يظهر سطح مياه البحر مجعّداً [١] ، وحين تكون الريح ساكنة ؛ فأنت لا تجد صفحة المياه مجعدة ، بل مبسوطة ، وقد جاءتهم الريح عاصفاً فيزداد عنف الموج ، ويتحقق نتيجة لذلك الظن بأنهم قد أحيط بهم.

ومعنى الإحاطة هو عدم وجود منفذ للفرار ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يتكلم عن الكافرين بقوله : ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ..(١٩) ﴾ . [البقرة]

أي: ليس هناك منفذ يفلتون منه.

ولحظة ظنهم أنه قد أحيط بهم ؛ لا يسلمون أنفسهم لهذه الحالة ؛ بدعوى الاعتزاز بأنفسهم غريزياً ، بل يتجهون إلى الله بالدعاء ، هذا الإله الذى أنكروه ، لكنهم لحظة الخطر لا يكذب أحد على نفسه أو يخدعها [٢] .

ولذلك نجد سيدنا جعفر الصادق يجيب على سائل سأله: أهناك دليل على وجود الصانع الأعلى ؟ فيقول سيدنا جعفر: ما عملك ؟ فيجيب السائل: تاجر أبحر فى البحر. فسأله سيدنا جعفر: أوَ لم يحدث لك فيه حال ؟ قال الرجل : بل حدث . فسأل سيدنا جعفر :ما هو ؟ قال: حملت بضائعى فى سفينة ، فهبت الريح وعلا الموج وغرقت السفينة وتعلقت بلوح من الخشب. قال سيدنا جعفر: ألم يخطر على بالك أن تفزع إلى شىء ؟ قال الرجل: نعم. قال سيدنا جعفر: هذا الصانع الأعلى.

وكذلك لجأ هؤلاء الذين كفروا بالله إلى الله تعالى حين عصفت بهم الريح ، وعلا عليهم الموج ، وظنوا أنهم قد أحيط بهم ويقول الحق سبحانه

---

(١) المراد بتجعُّد سطح الماء: التموجات التى تبدو على سطح المياه إذا هبّ عليها الهواء.

(٢) لأن فطرة الميثاق الأول تستجيب للإنسان عند الحاجة وعند إيضاح الحقيقة يقول الحق : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥) ﴾ [لقمان] ، فهذا القول نابع من الفطرة التى غابت عنهم فى زحمة العناد ، ويظهر ذلك جلياً عند حدوث الأخطار .

وتعالى عنهم - وهم فى مثل هذه الحالة : ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهذا يعنى أنهم لم يدعوه فقط ، بل دَعَوْه بإخلاص وأقروا بوحدانيته ، وألاّ شريك له أبداً ؛ لأنهم يعلمون أن مثل هذا الشريك لن ينفعهم أبداً.

ثم يجىء الحق سبحانه بصيغة دعائهم : ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فهل وَفَّوْا بالعهد؟ لا ؛ لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك:

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

وبعد أن أنجاهم الحق سبحانه مباشرة تأتى «إذا» الفجائية لتوضح لنا أنهم لم ينتظروا إلى أن يستردوا أنفاسهم ، أو تمر فترة زمنية بينهم وبين الدعاء ، وتحقق نتيجة الضراعة ، لا ، بل بغوا [1] - على الفور - فى الأرض ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

والبغى: هو تجاوز الحدّ فى الظلم وهو إفساد ؛ لأن الإنسان إذا ما أخرج أى شىء عن صلاحه ، يقال: «بغى عليه» ، فإن حفرت طريقاً مُمهّداً ؛ فهذا إفساد ، وإنْ ألقيت بنفاية [2] فى بئر يشرب منه الناس ؛ فهذا إفساد وبغى ، وأى شىء قائم على الصلاح فتخرجه عن مهمته وتطرأ عليه بما يفسده ؛ فهذا بغى.

(١) البَغْى : الظلم والفساد والكِبْر والاستطالة على الناس والإيذاء والجور وأصل البغى : مجاوزة الحدّ. قال تعالى : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الأَرْضِ .. ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى] . وقال: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى .. ﴿٩﴾﴾ [الحجرات] . [اللسان : مادة (بغى) - بتصرف] .

(٢) نفاية الشىء : بقيته وأردؤه . والنفاية : ما نفيته من الشىء لرداءته . والمراد بالنفاية هنا : الفضلات وكل ما من شأنه تلويث الشىء وإفساده . [اللسان : مادة (نفى) . بتصرف].

والبغى : أعلى مراتب الظلم ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ .. (٧٦) ﴾. [القصص]

ويعطينا رسول الله ﷺ صورة البغى الممثّلة فى الاعتداء بالفساد على الأمر الصالح ، فيقول ﷺ: «أسرع الخير ثواباً: البِرّ وصلة الرحم ، وأسرع الشر عقوبة: البغى وقطيعة الرحم»(١).

والحق سبحانه لا يؤخر عقاب البغى وقطيعة الرحم إلى الآخرة ، بل يعاقب عليهما فى الدنيا ؛ حتى يتوازن المجتمع ؛ لأنك إن رأيت ظالماً يحيا فى رضاً ورخاء ثم يموت بخير ، فكل مَنْ يراه ويعلم ظلمه ولم يجد له عقاباً فى الدنيا ، سوف يستشرى فى الظلم.

ولذلك تجد أن عقاب الله تعالى لمثل هذا الظالم فى الدنيا وأن يُرِى الناس نهايته السيئة ، وحين يرى الناس ذلك يتعظون ؛ فلا يظلمون ، وهذا ما يحقق التوازن فى المجتمع.

وإلا فلو ترك الله سبحانه الأمر لجزاء الآخرة ؛ لشقى المجتمع بمن لا يؤمنون بالآخرة ويحترفون البغى ؛ ولذلك يرى الناس عذابهم فى الدنيا ، ثم يكون لهم موقعهم من النار فى الآخرة.

ويقول ﷺ محذراً: «لا تَبْغِ ، ولا تَكُنْ باغياً »(٢).

فالباغى إنما يصنع خللاً فى توازن المجتمع . والذى يبغى إنما يأخذ حق الغير ، ليستمتع بناتج من غير كدِّه وعمله ، ويتحوّل إلى إنسان يحترف

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢١٢) وابن عدى فى الكامل (٤/ ٧٠) ط . دار الفكر ، والذهبى فى ميزان الاعتدال (ت ٣٨٣١) من حديث عائشة ، كلاهما فى ترجمة صالح بن موسى الطلحى ، وهو كوفى ضعيف. وقال ابن عدى: لا يتعمد الكذب . وسياق نص الحديث يؤخذ به .
(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٢/ ٣٣٨) عن أبى بكرة ، وقال: صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه. وأقره الذهبى.

فرض الإتاوات [١] على الناس ، ويكسل عن أى عمل غير ذلك. وأنت ترى ذلك فى أبسط المواقع والأحياء ، حين يحترف بعض ممن يغترون بقوتهم الجسدية ، وقد تحولوا إلى (فتوات) [٢] يستأجرهم البعض لإيذاء الآخرين ، والواحد من هؤلاء إنما احترف الأكل من غير بذل جهد فى عمل شريف.

والبغى - إذن - هو عمل مَنْ يفسد على الناس حركة الحياة ؛ لأن من يقع عليهم ظلم البغى ، إنما يزهدون فى الكَدِّ والعمل الشريف الطاهر. وإذا ما زهد الناس فى الكَدِّ والعمل الشريف ؛ تعطلت حركة الحياة ، وتعطلت مصالح البشر ، بل إن مصالح الظالم نفسها تتعطل ؛ ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ..(٢٣)﴾ . [يونس]

ولقائل أن يسأل: وهل هناك بَغْى بحق ؟

أقول: نعم ؛ لأن البغى اعتداء على الصالح بإفساد. وأنت ساعة ترى إنساناً يفسد الشيء الصالح ، فتسأله: لماذا تفعل ذلك ؛ وقد يجيبك بأن غرضه هو الإصلاح ، ويُعدِّد لك أسباباً لهذا البغى ، فهذا بغى بحق ، أما إن كان بغياً بدون سبب شرعى فهذا هو البغى ، بل قمته.

ومثال البغى بحق ، أقول: ألم يَسْتَولِ النبى ﷺ على أرض «بنى قريظة» ، وأحرق زرعهم وقطع الأشجار فى أراضيهم ، وهدم دورهم؟ أليس فى ذلك اعتداء على الصالح ؟

---

(١) إتاوات: جمع إتاوة وهى قدر من المال يُدْفع غصباً وإجباراً - بدون وجه حق - إلى ذوى السطوة والتسلُّط. وهى تشبه المكوس.

(٢) هذا لفظ يستعمله الناس لكل إنسان منحرف ليتخذ من قوته تهديداً للأمن والسطو على ممتلكات الناس وتخويف الناس. وفى لغة العرب: الْفَتِيّ: هو الشاب القوى والفتى: العبد ، وجمعه على القلة فتية. وفى الكثرة فتيان ، والأمة: فتاة ، وَجمعها فتيات. والفتوة عرفت عند العرب بأهل النجدة والعون والاحتساب ، ولكن هذه الكلمة أطلقت على كل منحرف ومحترف الإفساد.

لقد فعل رسول الله ﷺ ذلك ؛ لأنه ردّ على عدوان أقسى من ذلك .

وهكذا نرى أن هناك بغياً بحق ، وبغياً بغير حق. ولذلك يسمي الله جزاء السيئة سيئة مثلها [(١)] ، ويقول سبحانه : ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ (١٩٤)﴾ [البقرة]

ويسميه الحق سبحانه «اعتداء» رغم أنه ليس اعتداء، بل ردّ الاعتداء .

ويطلقها الحق سبحانه وتعالى قضية تظل إلى الأبد بعد ما تقدم ، فيقول : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٢٣)﴾ [يونس]

وهنا يبين الله سبحانه وتعالى وكأنه يخاطب الباغى : يا مَنْ تريد أن تأخذ حق غيرك ، اعلم أن قصارى [(٢)] ما يعطيك أخذ هذا الحق هو بعض من متاع الدنيا ، ثم تجازى من بعد ذلك بنار أبدية [(٣)] .

وأنت إنْ قارنت زمن المتعة المغتصبة الناتجة عن البغى بزمن العقاب عليها ؛ لوجدت أن المتعة رخيصة هينة بالنسبة إلى العقاب الذى سوف تناله عليها ولا تأخذ عمرك فى الدنيا قياساً على عمر الدنيا نفسها ؛ لأن الحق سبحانه قد يشاء أن يجعل عمر الدنيا عشرين مليوناً من السنوات ، لكن عمرك فيها محدود .

---

(١) وذلك فى نحو قوله تعالى ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ..(٤٠)﴾ [الشورى] . وهذا من قبيل المشاكلة ، وهو مصطلح بلاغى مؤداه ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، فالجزاء هنا حق لا يوصف بأنه سيئة ، ولكنه سمى هكذا لمشاكلته لما معه . انظر (الإتقان فى علوم القرآن ٣ / ٢٨١).

(٢) قصارى الشىء : آخره وغايته وهى من معنى القصر ، أى : الحبس ؛ لأنك إذا بلغت الغاية حَبَسَتْك . [اللسان : مادة (قصر) - بتصرف].

(٣) ومن أمثلة الغصب والبغى بغير الحق ما رواه ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله ، أىّ الظلم أعظم؟ قال : ذراع من الأرض ينتقصها المرء المسلم من حق أخيه ، فليس حصاة من الأرض يأخذها أحد إلا طوّقها يوم القيامة إلى قعر الأرض ، ولا يعلم قعرها إلا الذى خلقها . أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٩٦) والطبرانى فى معجمه الكبير (١٠ / ٢٦٦) . قال الهيثمى فى المجمع (٤/ ١٧٤) : «إسناد أحمد حسن».

فاربأوا [1] على أنفسكم وافهموا أن متاع الدنيا قليل ، إن كان هذا المتاع نتيجة ظلمكم لأنفسكم ؛ لأن نتيجة هذا الظلم إنما تقع عليكم ؛ لأن مقتضى ما يعطيكم هذا الظلم من المتعة والنعمة هو أمر محدود بحياتكم فى الدنيا ، وحياتكم فيها محدودة ، ولا يظن الواحد أن عمره هو عمر البشرية فى الدنيا ، ولكن ليقسْ كل واحد منكم عمره فى الدنيا وهو محدود.

ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ..(٧٧)﴾ [النساء]

وهنا يؤكد الحق سبحانه : ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم (٢٣)﴾ [يونس]

وقد يتمثل جزاء البغى فى أن يشاء الحق سبحانه ألا يموت الظالم إلا بعد أن يرى مظلومه فى خير مما أخذ منه ؛ ولذلك أقول دائمًا: لو علم الظالم ما ادخره الله للمظلوم منَّ الخير ؛ لضنَّ عليه بالظلم.

وعلى فرض أن الظالم يتمتع بظلمه وهو من متاع الدنيا القليل ، نجد الحق سبحانه يقول: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ..(٢٣)﴾ [يونس]

وحين نرجع إلى الله تعالى فلا ظلم أبداً ؛ لأن أحدكم لن يظلم أو يُظلم فكل منكم سوف يَلْقى ما ينبئه به الله سبحانه إنْ ثواباً أو عقاباً ؛ مصداقاً لقوله الحق: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم [2] بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)﴾ . [يونس]

وقد جاء الخبر عن نبأ الجزاء من قبل أن يقع ؛ ليعلم الجميع أن لكل فعلٍ

---

(١) اربأوا على أنفسكم: حافظوا عليها وأبعدوها عن كل ما من شأنه أن يجلب لها العذاب فى الآخرة. وفى الحديث: «مثلى ومثلكم كرجل ذهب يربأ أهله» أى: يحفظهم من عدوِّهم. [اللسان مادة (ربأ)].

(٢) الأنباء: الأخبار الهامة . قال الحق: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا .. (١٠١)﴾ [الأعراف] وقال: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ .. (٦٧)﴾ [الأنعام] . أى: لكل خبر عام وقت أو مكان يقع فيه فى المستقبل أو فى الماضى . ونبأه مثل أنبأه . والتضعيف يفيد المبالغة والتكرار. قال الحق: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ.. (١٤)﴾ [المائدة] - القاموس القويم جـ ٢ صـ ٢٥٠ ، ٢٥١

مقابلاً من ثواب أو عقاب ، كما أن فى ذكر النبأ مقدَّماً تقريعاً لمن يظلمون أنفسهم بالبغى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا(1) وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) ﴾

والماء الذى ينزل من السماء ، هو الماء الصالح للرى وللسقى ؛ لأن المياه الموجودة فى الوجود ، هى مخازن للحياة ، وغالباً ما تكون مالحة ، كمياه البحار والمحيطات ، وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ لحمايتها من العفن والفساد ، ثم تتم عملية تقطير المياه بأشعة الشمس التى تحوّل الماء إلى بخار ، ويتجمع البخار كسحاب ، ثم يسقط ماء عَذْباً مقطراً صالحاً للشرب والرّى .

---

(١) الزخرفة : الزينة . قال ابن سيده : الزخرف : الذهب ، هذا الأصل ، ثم سُمّى كل مموَّه مزوَّر به . وبيت مزخرف . وزخرف البيت : زيَّنه وأكمله . وفى الحديث : أن النبى ﷺ لم يدخل الكعبة حتى أمر بالزخرف فنُحِّىَ . وقوله تعالى : ﴿إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا .. (٢٤) ﴾ [يونس] المراد بالزخرف هنا : زينة الحياة الدنيا ومتاعها الزائل الذى يخدع بريقه أعين الغافلين عن الآخرة وما فيها من نعيم مقيم . [اللسان : مادة (زخرف) - بتصرف] . وقال القرطبى : زخرفها ، أى : حُسنها وزينتها . والزخرف : كمال حسن الشىء ومنه قيل للذهب زخرف (تفسير القرطبى : ٤/ ٣٢٥٤) . وقال ابن كثير : زخرفها ، أى : زينتها الفانية . وازيّنت ، أى : حَسُنت بما خرج فى رُباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان (تفسير ابن كثير : ٢ / ٤١٣) .

والحق سبحانه يقول هنا: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ (٢٤)﴾ [يونس]

والاختلاط: اجتماع شيئين أو أشياء على هيئة الانفصال بحيث يمكن أن تعزل هذا عن ذاك ، فإن خلطت بعضاً من حبات الفول مع بعض من حبّات الترمس ؛ فأنت تستطيع أن تفصل أيا منهما عن الأخرى ، ولكن هناك لوناً آخر من جمع الأشياء على هيئة المزج ، مثلما تعصر ليمونة على ماء محلّى بالسكر ، وهذا ينتج عنه ذوبان كل جزىء من الليمون والسكر فى جزيئات الماء.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ وقد يُفهم من ذلك أن الماء والنبات قد اختلطا معاً ، لكن النبات - كما نعلم - ككائن حى مخلوق من الماء مصداقاً لقول الحق سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠)﴾ [الأنبياء]

وهنا لا بد أن نلتفت إلى الفارق بين «باء» الخلط ، و«باء» السببية [1] فالباء هنا فى هذه الآية هى باء السببية ، وبذلك يكون المعنى: فاختلط بسببه نبات الأرض. وأنت ترى بعد سقوط المطر على الأرض أن المياه تغطى الأرض ، ثم تجد بعد ذلك بأيام أو أسابيع ، أن سطح الأرض مغطى بالزروع ، وكلها مختلطة متشابكة ، وكلما تشابكت الزروع مع بعضها فهذا دليل على أن الرى موجود والخصوبة فى هذه الأرض عالية، وهذا نتيجة تفاعل الماء مع التربة.

---

(١) الباء: حرف يجر الاسم الظاهر والمضمر ، ويقع أصلياً أو زائداً ، ويؤدى عدّة معان ، أشهرها خمسة عشر ، هى: الإلصاق ، والاستعانة ، والسببية ، والتعدية ، والظرفية ، والعوض ، والمصاحبة ، والتبعيض ، والمجاوزة ، والاستعلاء ، والتوكيد ، وأن تكون بمعنى كلمة (بدل) ، وأن تكون بمعنى كلمة (إلى) . انظر تفصيل ذلك فى النحو الوافى (٢/ ٤٩٠ - ٤٩٧).

أما إن كانت الأرض غير خصبة ، فأنت تجد نَبْتة فى منطقة من الأرض ، وأخرى متباعدة عنها ، وهذا ما يطلق عليه أهل الريف المصرى أثناء زراعة الذرة - على سبيل المثال : «الذرة تفلس» أى: أن كل عود من أعواد الذرة يتباعد عن الآخر نتيجة عدم خصوبة الأرض.

إذن: فخصوبة الأرض لها أساس هام فى الإنبات والماء موجود لإذابة عناصر الغذاء للنبات ، فتنتشر بها جذور النبات.

وإن سمحتْ لك الظروف بزيارة المراكز العلمية للزراعة فى «طوكيو» أو «كاليفورنيا» ؛ فلسوف ترى أنهم يزرعون النباتات على خيوط رفيعة ؛ تُسقى بالماء الذى يحتوى على عناصر الغذاء اللازمة للإنبات ؛ لأنهم وجدوا أن أى نبات يأخذ من الأرض المواد اللازمة لإنباته بما لا يتجاوز خمسة فى المائة من وزنه ، ويأخذ من الهواء خمسة وتسعين فى المائة من وزنه .

إذن: فالمطر النازل من السماء خلال الهواء هو الذى يذيب عناصر الأرض ؛ ليمتصها النبات.

والحق سبحانه وتعالى هنا أراد أن يضرب لنا المثل ، والمثل: هو قول شُبِّه مَضْربُهُ بمَوْلده ،أى : شىء نريد أن نمثله بشىء ، ولا بد أن يكون الشىء الممثَّل بهِ معلوَماً ، والشىء المأخوذ كمثلٍ هو الذى نريد أن نوضح صورته ؛ ولذلك لا يصح أن نمثل مجهولاً بمجهول ، وإنما نمثل مجهولاً بمعلوم.

وتجد من يقول لك: ألا تعرف فلاناً ؟ فتقول: لا أعرفه ، فيرد عليك صاحبك: إنه مثل فلان فى الشكل. وهكذا عرَّفْتَ المجهول بمعلوم.

وبعض من الذين يحاولون الاعتراض على القرآن ، دخلوا من هذه الناحية ، وقالوا: إذا كان الشىء مجهولاً ونريد أن نعرِّف به ، ألا نعرِّفه

بمعلوم ؟ فما بال الله - سبحانه وتعالى - يقول في شجرة الزقوم [(١)] : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا [(٢)] كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات]

ما بال الله سبحانه يبين شجرة الزقوم ، وهي شجرة في النار لا نعرفها ، فيعرِّفها للمؤمنين به بأن طلعها يشبه رءوس الشياطين ، وبذلك يكون سبحانه قد مثَّل مجهولاً بمجهول. والذين قالوا ذلك فاتهم أن الذي يتكلم هو الله تعالى. وقد أراد الحق سبحانه أن يُمثِّل لنا شجرة الزقوم بشيء بشع معلوم لنا ، والبشع المعلوم هو الشيطان.

وشاء الحق سبحانه ألا يحدد البشاعة ؛ حتى لا ينقضي التشبيه ؛ لأن الشيء قد يكون بشعاً في نظرك ، وغير بشع في نظر غيرك. ويريد الله سبحانه أن يبشع طلع شجرة الزقوم ؛ فاختار الشيء المتفق على بشاعته ، وهو رءوس الشياطين ، وليتصور كل إنسان صورة الشيطان ، بما ينفر منه ويقبِّحه ، وهكذا تتجلَّى عظمة الحق سبحانه في أن جعل شكل الشيطان مبهماً [(٣)] .

وأما المثل الذي نحن بصدده هنا وهو تشبيه الحياة الدنيا بأنها كالماء الذي أنزله الحق سبحانه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، والحياة الدنيا نحن ندرك بعضها ، وكلٌّ منا يدرك فترة منها ، ولم يدرك أولها ، وقد لايدرك آخرها ، فجاء الحق سبحانه بمثل يراه كل واحد منا ، وهو الزرع

---

(١) شجرة الزقوم هي الشجرة الملعونة في القرآن، قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ .. (٦٠) ﴾ [الإسراء] وأخبر الله تعالى في كتابه الكريم أنها تخرج في أصل الجحيم. وثمرها هو الزقوم وهو طعام أهل النار. [اللسان : مادة (زقم) - بتصرف].

(٢) الطلع : غلاف يشبه الكوز ، ينفتح عن حَبٍّ منضود ، فيه مادة إخصاب النخلة [المعجم الوسيط : مادة (طلع)].

(٣) مبهماً : خافياً. واستبهم الأمر إذا استغلق. والمبهم سمي كذلك لأنه أبهم عن البيان فلم يُجعل عليه دليل. ومنه قيل لما لا ينطق «بَهِيمة» [اللسان : مادة (بهم)].

الذى يرتوى بالمطر ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع لنا صورة الدنيا فى مثل معروف لنا جميعاً ، وندركه جميعاً ؛ فندرك ما سبق ،وما يلحق ، فكلّ شىء يأخذ حظه فى الازدهار ، والجمال ، ثم ينتهى ، كذلك الدنيا .

يقول الحق سبحانه :

﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس]

والزخرف: هو الشىء الجميل المستميل للنفس وتُسرُّ به حينما تراه ، وتتزين الدنيا بالألوان المتنوعة فى تنسيق بديع ، ثم يصبح كل ذلك حصيداً [1] وهذا ما نراه فى حياتنا ، وهكذا جمع الله سبحانه وتعالى مثل الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها بالصورة المرئية لكل إنسان ، حتى لا يخدع إنسان بزخرف الدنيا ولا بزينتها .

والحق سبحانه هو القائل:

﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا [2] ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا [3] ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا [4] ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا

---

(١) حصيداً : محصودة مقطوعة لا شىء فيها ، قال أبو عبيدة : الحصيد : المستأصل . [تفسير القرطبى ٤ / ٣٢٥٤] .

(٢) قال الحسن البصرى : القضب : العلف الذى تأكله الدواب [تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٧٢ - بتصرف] .

(٣) حدائق غُلباً ، أى : بساتين . وقيل : هى نخل غلاظ كرام . وقيل : هى الشجر الذى يُستظل به . [تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٧٢] .

(٤) قال ابن عباس : الأب ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس . وقيل : هو الحشيش للبهائم وقيل : الأب الكلأ . [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٧٢ ، ٤٧٣] .

جَاءَتِ الصَّاخَّةُ [1] (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾. [عبس]

إذن: فالدنيا بكل جمالها الذى تراه إنما تذوى [2] ، وما تراه من بديع ألوانها إنما يذبل ، ومهما ازدانت الدنيا فهى إلى زوال ، فإياك أن تبغى ؛ لأن البغى فيه متاع الدنيا ، والدنيا كلها إلى زوال ؛ كزوال الروض التى ينزل عليها المطر ؛ فتنبت الأرض الأزهار ، ثم يذوى كل ذلك.

وقد قال الحق سبحانه:

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ [3] (٢٠)﴾. [القلم]

إذن: فالدنيا بهذا الشكل وعلى هذا الحال.

---

(١) الصاخة: قال ابن عباس: هى اسم من أسماء يوم القيامة عظَّمه الله وحذَّر منه. وقال البغوى: الصاخة يعنى: صيحة يوم القيامة، سُمِّيت بذلك؛ لأنها تصخ الأسماع، أى: تبالغ فى إسماعها حتى تكاد تصمها. [تفسير ابن كثير: ٤ / ٤٧٣].

(٢) تذوى: تذبل. ذوى النبات: أصابه الحر والعطش فَذَبُلَ وضعف. وذوى عود النبات: يبس. [اللسان: مادة (ذوى)].

(٣) هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجميلة، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ أى: اختبرناهم ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وهى البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أى: حلفوا فيما بينهم ليَجُذُّن ثمرها (يجمعونه) ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل؛ ليتوفر ثمرها عليهم، ولا يتصدقوا منه بشىء. ﴿وَلا يَسْتَثْنُونَ﴾ أى: فيما حلفوا به، ولهذا حَنَّثهم الله فى أيمانهم، فقال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أى: أصابتها آفة سماوية ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ قال ابن عباس: أى: كالليل الأسود. وقال الثورى والسدى: أى: هشيماً يبساً. [تفسير ابن كثير: ٤ / ٤٠٦].

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ (٢٤) ﴾ [يونس]

والأرض تتزين بأمر ربها ، والحق سبحانه ينسب الإدراكات إلى ما لا نعرف أن له عقلاً أو إرادة . ألم يقل الحق سبحانه فى قصة العبد الصالح : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ [1] .. (٧٧) ﴾ . [الكهف]

فهل يملك الجدار إرادة أن ينقضَّ ؟ ولو حققنا الأمر جيداً ؛ لوجدنا أن الحق سبحانه جعل لكل كائن فى الوجود حياة تناسبه ، وله إرادة تناسبه ، وله انفعال يناسبه . وقد ضرب الحق سبحانه لنا فى ذلك صوراً شتّى ، فنجد أن الشىء الذى يعزُّ على عقولنا أن تفهمه يبرز لنا ببيان من الله تعالى .

ومثال هذا : معرفة الهدهد فى قصة سليمان عليه السلام بالتوحيد ، وكيف أخبر هذا الهدهد سيدنا سليمان عليه السلام بحكاية مملكة سبأ حيث يسجد الناس هناك للشمس من دون الله ، فكأن الهدهد قد علم مَنْ يستحق السجود له إذ قال : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ [2] فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٥) ﴾ . [النمل]

ومن كان يظن أن الهدهد ، وهو طائر ، يكون على هذه البصيرة بالعقائد على أصفى ما تكون؟ لأن الحق سبحانه أراد أن يبيّن لنا أن هذا

---

(١) يريد أن ينقض : الانقضاض السقوط بسرعة وإضافة إرادة الانقضاض إلى الجدار مجاز عن قرب سقوطه ، وذلك على التشبيه بحال منْ يريد الفعل ، وفى كتاب الله قوله : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ .. (١٥٤) ﴾ [الأعراف] وقوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ .. (٢١) ﴾ [محمد] [تفسير سورة الكهف للشيخ محمد محمد المدنى - بتصرف] .

(٢) الخبء : ما خُبِئ . والخبء الذى فى السملوات هو المطر ، والخبء الذى فى الأرض هو النبات . وقيل : الخبء كل ما غاب ، فيكون المعنى : يعلم الغيب فى السملوات والأرض . [اللسان : مادة (خبأ)] .

الطائر لا هوى له يفسد عقيدته ، وأن أهواءنا هى التى تفسد العقائد ، ومَنْ أعطاه الله سبحانه البدائل هو الذى يفسد الاختيار ما دام لا يحرس الاختيار بالإيمان ، وأن يختار فى ضوء منهج الله تعالى.

ونحن نرى أن ما دون الإنسان من طائر أو حيوان لا يفسد شيئاً ؛ لأن غريزته تقوده ، فلا نجد حيواناً يأكل فوق طاقته ، لكننا نجد إنساناً يصيب نفسه بالتخمة [(١)] ، ولا نجد حماراً يقفز فوق قناة من الماء لا يقدر عليها ، بل نراه وهو يتراجع عنها ، ولكنا نجد إنساناً يشمر عن ساعديه [(٢)] ؛ ليقفز فوق قناة مياه ؛ فيقع فيها [(٣)] .

إذن: فنحن بأهوائنا التى تسيطر على غرائزنا نوقع أنفسنا فيما يضرنا ، ما لم نحرس أنفسنا بمنهج الله سبحانه وتعالى. ونجد فى مثال الهدهد صفاءً عقدياً فى التوحيد كأصفى ما يكون المتصوِّفة ، ويأتى بما يهمه ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ لأن الخبء هو رزق الهدهد ، فهو لا يأكل من الشىء الظاهر على سطح الأرض ، بل يضرب بمنقاره الأرض ؛ ليأتى لنفسه بما يطعمه .

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً آخر بالنملة التى قالت: ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ .

[النمل]

---

(١) التخمة: الذى يصيب الإنسان من الطعام إذا استوخمه أى: استثقله. وقد تطلق «التخمة» على كثرة الطعام والمبالغة فى الأكل والشرب حتى يثقل على الجسم هضم الطعام ؛ فيصاب الإنسان بالوخم والثقل وعدم القدرة على الحركة. [اللسان: مادة وخم].

(٢) الساعد: ملتقى الزندين من عند المرفق إلى الرسغ. والساعد: ساعد الذراع ، وهو ما بين الزندين والمرفق ، سُمِّى ساعداً لمساعدته الكَفّ . وجمع الساعد: سواعد. [اللسان: مادة (سعد)] .

(٣) وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب].

وهذه دقة عدالة من هذه النملة ، فإنها لم تقل : إن سليمان وجنوده سيحطمون أخواتها من النمل ظلمًا لهم ، بل قالت : ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ لأنكم لا تظهرون تحت أرجلهم.

إذن : كل كائن فى الوجود له حياة تناسبه ، ولكن الآفة أننا نريد أن نتصور الحياة فى كل كائن ، كتصورها فى الكائن الأعلى وهو الإنسان.

ولا بد لنا أن نعلم أن النبات له حياة تناسبه ، والحيوان له حياة تناسبه ، والجماد له حياة تناسبه ، وكل شىء فى الحياة له لون من الحياة المناسبة له.

وقد أوضحنا من قبل أن الحق سبحانه قد قال : ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ .. (٤٢)﴾. [الأنفال]

والهلاك مقابل للحياة ، والحياة مقابلة للموت ، والهلاك يساوى الموت. والحق سبحانه يصور الحالة يوم القيامة فيقول : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ..(٨٨)﴾. [القصص]

إذن : فالجماد هالك ، ولكنه يتمتع بلون من الحياة لا نعرفه ، وكذلك كل كائن له حياة تناسبه ، والآفة أن الإنسان يريد أن يعرِّف الحياة التى فى الجماد كالحياة فى الإنسان.

وانظر إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله الحق : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا(٢٤)﴾ [يونس]

وقد جاء هذا القول من قبل أن يتقدم العلم ويثبت أن الأرض تشبه الكرة ، وأنها تدور ، وأن كل ليل يقابله نهار ، وكذلك جاء قول الحق

سبحانه: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى .. ﴿٩٨﴾ ﴾. [الأعراف]

إذن: فأمر الله سبحانه يتحقق حين يشاء، وهو أمر واحد عند من يكونون فى ضحى أو فى ليل.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا [1] كَأَن لَّمْ تَغْنَ [2] بِالأَمْسِ ﴿٢٤﴾ ﴾. [يونس]

أى: كأنها لم يكن لها وجود.

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس]

فإذا كانت الدنيا كلها مثل عملية الزرع فى الأرض الذى ينمو ويزدهر ويزدان، ثم ينتهى، ألا يجب أن ننتبه إلى أن كل زخرف إلى زوال؛ وعلينا ألا نفتتن بزينة الدنيا ومتاعها فى شىء، وأن نحرص على ألا نبغى فى الأرض؛ لأن البغى متاع الحياة الدنيا، وهى إلى زوال[3].

ونجد القرآن يأتى بذكر التفصيل للآيات، ويتبع ذلك بأن هذا التفصيل لقوم « يتفكرون »، أو «يتذكرون»، أو « يعقلون»، أو «يتدبرون».

وكل هذه عمليات تتناول المعلوم الواحد فى مراحل متعددة، فالتعقُّل:

(١) الحصيد والحصد: الزرع المحصود بعد ما يحصد، والمراد بالحصيد هنا: تشبيه وتصوير إهلاك الله للأرض فى نهاية الدنيا بما يحدث عند حصد النبات من اقتلاعه وتقطيعه. [اللسان: مادة (حصد) - بتصرف].

(٢) ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ أى: لم تكن عامرة، والمغانى فى اللغة: المنازل التى يعمرها الناس. وقال قتادة: كأن لم تنعم. وقرأ قتادة (يغن) بالياء، يذهب به إلى الزخرف، يعنى: فكما يهلك الزرع هكذا، كذلك الدنيا. [تفسير القرطبى: ٤/ ٣٢٥٤].

(٣) يقول الله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن].

هو أن تأتى بالمقدمات ؛ لتستنبط ولترى إلى أى نتائج تصل . والتذكُّر يعنى: ألا تنسى وألا تغفل عن الأمر الهام . والتفكُّر: هو أن تُعْمِل الفكر. والفارق بين الفكر والعقل هو أن العقل أداة التفكُّر . والتدبُّر [1]: هو ألا تنظر إلى ظواهر الأشياء ، بل إلى المعطيات الخفية فى أى أمر .

والحق سبحانه يقول: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ..(٨٢) ﴾. [النساء]

أى: اجعل بصيرتك تمحِّص البدايات والنهايات ؛ لتعرف أن المرجع والمصير إلى الله تعالى. والعاقل هو مَنْ يعدّ نفسه للقاء الله سبحانه ، وقد يرهق نفسه فى الدنيا الفانية ؛ ليستريح فى الآخرة.

وإذا نظرنا إلى الدنيا والآخرة من خلال معادلة تجارية ، سنجد أن الآخرة لا بد وأن ترجح كفتها ؛ لأن عمر الإنسان فى الدنيا مظنون ، ولا يعرف فرد هل يحيا فى الدنيا عاماً أو عشرة أو سبعين أو مائة عام.

ومهما طالت الدنيا مع كل الخَلْق فهى منتهية ، والنعيم فيها على قدر إمكاناتك البشرية وعلى قدر تصورك للنعيم ، أما الآخرة فهى بلا نهاية ، وأمر الإنسان فيها متيقَّن ، والنعيم فيها على قدر عطاءات الله تعالى ومراده سبحانه للنعيم . فإن قارنت هذا بذاك وقارنت الدنيا بالآخرة لرجحتْ كفّة الآخرة.

لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ [2] لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾. [العنكبوت]

---

(١) التدبر فى الأمر. التفكر فيه وأن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته ، وفلان ما يدرى قبال الأمر من دباره ، أى: أوّله من آخره. ويقال: إن فلاناً لو استقبل من أمره ما استدبره لهُدِىَ لوجهة أمره ، أى: لو علم فى بدء أمره ما علمه فى آخره لاسترشد لأمره. قال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩) ﴾ [ص]. [اللسان: مادة (دبر) - بتصرف].

(٢) ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ .. (٦٤) ﴾ [العنكبوت] أى: هى الحياة الدائمة التى لا زوال لها ولا انقضاء ، بل هى مستمرة أبد الآباد. [تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٢١].

وفى قوله سبحانه: ﴿لَهِىَ الْحَيَوَانُ﴾ . مبالغة فى كونها حياة لا فناء فيها. فاتبع منهج الله سبحانه ؛ ليأخذك هذا المنهج إلى دار السلام والسلامة من الآفات. واضمن لنفسك الخروج من دار الفناء والأغيار ، وَضَعْ يدك فى يد من يدعوك إلى دار السلام.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ السَّلَٰمِ (١) وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

ودار السلام: هى الآخرة التى تختلف عن دار الدنيا المليئة بالمتاعب ، هذه الدنيا التى تزهو وتتزخرف ، وتنتهى إلى حطيم ؛ لذلك يدعو الله تعالى إلى دار أخرى ، هى دار السلام ؛ لأن من المنغِّصات على أهل الدنيا ، أن الواحد منهم قد يأخذ حظه جاهاً ، ومالاً ، وصحة ، وعافية ، ولكن فى ظل أرق من أمرين: الأول هو الخوف من أن يفوته هذا النعيم وهو حى ، والثانى أن يفوت هو النعيم.

أما الآخرة فالإنسان يحيا فيها فى نعيم مقيم ؛ ولذلك يقول الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ﴾ .

وهذه الآخرة لن يشاغب فيها أحدٌ الآخر ، ولن تجد من يأكل عرق غيره

---

(١) دار السلام هى الجنة ؛ لأنها دار الأمان والسلامة من كل سوء يقول الحق: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ .. ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام] وسلم تأتى لمعان منها: ألقى السلام وانقاد وأذعن ، وسلمه الله: أنجاه. وسلمه الأمانة أوصلها لصاحبها ، وأداها فهى مُسلَّمة ، يقول الحق: ﴿مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا .. ﴿٧١﴾﴾ [البقرة] وأسلم قلبه: أخلص. وأسلم: دخل فى دين الإسلام ، يقول الحق: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة] القاموس القويم جـ ٢ صـ ٣٢٥

مثلما يحدث فى الدنيا [1] ، وإذا كنا نعيش فى الدنيا بأسباب الله ، فنحن فى الآخرة نعيش بالله سبحانه وتعالى، فكل ما يخطر على بالك تجده .

فإذا كانت الأسباب تتنوع فى الدنيا وتختلف قدرات الناس فيها مع أخذهم بالأسباب ، فإنهم فى الآخرة يعيشون مع عطاء الله سبحانه دون جهد أو أسباب ؛ لأن دار السلام هى دار الله تعالى ، فالله تعالى هو السلام.

ولله المثلى الأعلى ، فأنت إذا دعاك ولى أمرك إلى داره ، فهو يُعدّ لدعوتك على قدره هو ، وبما يناسب مقامه ، فما بالك حين يدعوك خالقك سبحانه وقد اتبعت منهجه. إنه سبحانه هو القائل:

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ [2] (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِى ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ [3] (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾. [يس]

وهذا السلام ليس من البشر ؛ لأن من البشر من يعطيك السلام وهو يُكِنُّ لك غير السلام ، أو قد يعطيك السلام وهو يريد بك السلام ، ولكنه

(١) وفى هذا يقول رب العزة عن أهل الجنة : ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا (٢٦) ﴾ [الواقعة] . فهم لا يسمعون فيها كلاماً عبثاً أو فيه تبح ، بل قولهم لبعضهم سلاماً سلاماً ، أى : تسليمهم على بعضهم ، فهى دار السلام .

(٢) ﴿فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ : مرفّهون ناعمون بنعيم الجنة . قال تعالى : ﴿ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ .. (١٨) ﴾ [الطور] . [اللسان : مادة (فكه) - بتصرف].

(٣) ﴿عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ قال المفسرون : الأرائك : السُّرُر فى الحجال ، وقيل : هى الفُرُش . وقيل : الأريكة : سرير منجَّد مزين فى قُبَّة أو بيت . وقيل : الأريكة : هو كل ما اتكىء عليه من سرير أو فراش أو منصة . قال تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ .. (٣١) ﴾ [الكهف] . [اللسان : مادة (أرك) - بتصرف].

من الأغيار [1] ؛ فيتغير فلا يقدر أن يعطيك هذا السلام ، لكن إذا ما جاء السلام من الله تعالى ، فهو سلام من رب لا يعجزه شيء ، ولا يُعوزه شيء ، ولا تلحقه أغيار ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم .. (٢٤) ﴾ . [الرعد]

والملائكة حين يقولون ذلك إنما أخذوا سلامهم من باطن سلام الله تعالى ، وحتى أصحاب الأعراف [2] الذين لم يدخلوا الجنة ، ويرون أهل الجنة وأهل النار ، هؤلاء يلقون السلام على أهل الجنة . وهكذا يحيا أهل الجنة فى سلام شامل ومحيط ومطمئن ؛ لأن الداعى هو الله سبحانه ، ولا أحد يجبره على أن ينقض سلامه .

ودعوة الله سبحانه هى منهجه الذى أرسل به الرسل ؛ ليحكم به حركة الحياة حركة إيمانية ، يتعايش فيها الناس تعايشاً على وَفْق منهج الله تعالى ، بما يجعل هذه الدنيا مثل الجنة ، ولكن الذى يرهق الناس فى الدنيا أن بعض الناس يعطلون جزئية أو جزئيات من منهج [3] الله سبحانه .

وأنت إذا رأيت مجتمعاً فيه لون من الشقاء فى أى جهة ؛ فاعلمْ أن جزءاً من منهج الله تعالىٰ قد عُطِّل .

---

(١) فالسلام عند أهل الأغيار يتغير حسب المصالح ، أما سلام الله فلا يلحقه التغيير ولا التبديل ، لأن وعده الحق ، وقوله الصدق ، وهو السلام ، ومنه السلام .

(٢) أصحاب الأعراف هم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيقفون بين الجنة والنار يوم القيامة ، ينظرون إلى أهل هذه وأهل تلك ، ينتظرون عفو الله عنهم ، وفيهم قال سبحانه : ﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاً بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾ [الأعراف] .

(٣) منهج الله تعالى : طريقه وشريعته ، قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا (٤٨) ﴾ [المائدة] . فقد وضع منهجاً للروح سمواً ، وللقلب حباً ، وللنفس سكينة وللعقل فكراً وتأملاً وللجسم حركة . ومنهج هذه الطاقات يوجد مجتمع الربوبية بعقيدة توحده ، وعباده تحبه وتخشاه ومعاملات بأخلاق فإذا اختلت طاقة من هذه الطاقات بسبب نسيانه أو غفلة تعطل المسير فى المنهج نحو الله جل علاه .

ولو أن الناس قد ساروا على منهج الله سبحانه وتعالى ؛ لما كان بالوجود عورة واحدة ؛ فالذى يُظهر عورات الوجود هو غفلة بعض الناس عن منهج الله سبحانه.

وأنت إنْ رأيت فقراء لا يجدون ما يأكلونه ؛ فاعلمْ أن هناك مَنْ عطَّل منهج الله تعالى ، إما من الفقراء أنفسهم ، الذين استمرأ [(1)] بعضهم الكسل ، وإما أن الأغنياء قد ضنوا برعاية حق الله تعالى فى هؤلاء الفقراء ؛ وبذلك يتعطل منهج الله سبحانه.

أما إذا سيطر منهج الله تعالى على الحياة ؛ لصارت الحياة مثل الجنة.

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ونعلم أن الهداية نوعان: هداية الدلالة بالمنهج ، فمن أخذ المنهج سهَّل الله تعالى له طريق الصراط المستقيم ؛ وبذلك انتقل العبد من مرحلة الهداية بالدلالة إلى الهداية بالمعونة ، وحين تقوم القيامة يهديهم الله سبحانه بالنور إلى الجنة: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ..(٩)﴾. [يونس]

إذن: فمن أخذ هداية الله بالدلالة وهى المنهج ، واتبع هذا المنهج ؛ فالحق سبحانه يجعل له نوراً يسعى بين يديه: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ .. (٨)﴾. [التحريم]

والحق سبحانه يقول: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ (٢٥)﴾ [يونس]

لأن كل شىء فى هذا الكون لا يخرج عن مشيئته سبحانه ، فالقوانين لا تحكمه ، بل هو الذى يحكم كل شىء.

وإذا كان الله قد بيّن من شاء هدايته ، فهو أيضاً قد بيّن لنا من شاء إضلاله بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾. [التوبة]

---

(١) استمرأ: استحسن الشىء واعتاده. [اللسان: مادة (مرأ) - بتصرف].

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾. [التوبة]

إذن: فقد بيّن الحق سبحانه لنا من الذين يهديهم إلى الجنة ومن الذين لا يهديهم، فلا يقولن أحد: وما ذنب الكافرين والفاسقين[1]؟ لأن الحق سبحانه قد بين منهجه، فمن أخذ به؛ جعل له نوراً يسعى بين يديه، ويدخله الجنة.

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)﴾

وكلمة ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ مثلها مثل قولنا: «امرأة فُضْلى» ونقول أيضاً: امرأة كبرى، وهى أفعل تفضيل، أى: مبالغة فى الفضل[2].

والمقصود بقوله سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ أى: بالغوا فى أداء الحسنات، والحسنة كما نعلم بعشرة أمثالها، وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فما هذه الزيادة؟

نقول: هى عطاء زائد فى الحسنات، فهناك «كادر» للجزاء بالحسنات، يبدأ بعشرة أمثال الحسنة ويصل إلى سبعمائة ضعف، أما السيئة

---

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦)﴾ [طه].

(٢) أفعل التفضيل: اسم مشتق على وزن (أفعل) يدل غالباً على أن شيئين اشتركا فى معنى، وزاد أحدهما فيه على الآخر. مثل (أحسن - أفضل - أكبر) فى مثل قولنا: نعيم الآخرة أحسن وأفضل وأكبر من متاع الدنيا. وعند التأنيث تصاغ الكلمة على وزن (فُعْلَى) مثل: (حُسنَى - فُضْلَى - كُبْرَى). انظر تفصيل ذلك فى (النحو الوافى: ٣/ ٣٩٤ - ٤١٥).

فبواحدة [١]. وهذا «الكادر» لا يحدد فضل الله تعالى ، بل الحق سبحانه يزيد من فضله مَنْ يشاء .

ولذلك يجب ألا نفرق بين عدل الله سبحانه فى أن الشىء يساوى الشىء ، وفضل الله تعالى فى أن يجزى على الشىء الحسن بأضعاف أضعاف ما نتصور .

والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا . . (٥٨) ﴾ [يونس]

وقال قوم من العارفين بالله : إن الزيادة المقصودة هى فى العشرة الأمثال والسبعمائة ضعف ، والفضل هو ما فوق ذلك .

وهكذا تتعدد مراتب الجزاء : فهناك العشرة الأمثال ، والسبعمائة ضعف ، والحسنى ، والزيادة عن الحسنى ، وقد قال رسول الله ﷺ فى ذلك : «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم . فيقولون : ألم تُبيِّض وجوهنا ؟ ألم تُدخلنا الجنة وتُنجِّنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» [٢] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أى : لا يغطى وجوههم غبار ، وهو سبحانه القائل : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ . [القيامة]

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل : «إذا همَّ عبدى بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة ، فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه ، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢٨) والبخارى فى صحيحه (٦٤٩١) بلفظ آخر عن ابن عباس .

(٢) أخرجه مسلم (١٨١) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٢) والترمذى فى سننه (٢٥٥٢) من حديث صهيب الرومى .

وهو سبحانه القائل : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ[1] ﴿٤١﴾ ﴾. [عبس]

وترهقها: أي: تغطيها ، وقترة تعني: الغبار ، وهي مأخوذة من القُتار وهو الهواء الذي يمتلىء بدخان الدُّهْن المحترق من اللحم المشوي ، وقد تكون رائحته أخّاذة ويسيل لها اللعاب ، ولكن مَنْ يوضع على وجهه هذا القتار يصنع له طبقة سوداء.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس]

لأنهم اتقوا الله سبحانه وأحبوا منهجه.

ويقول الحق سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ .. ﴿١٠٦﴾ ﴾

[آل عمران]

فليس المقصود هو لون الوجه في الدنيا ؛ لأنك قد تجد إنساناً أسود اللون لكنه بالإيمان قد أشرق وجهه ، وأحاطت ملامحه هالة من البهاء. وهناك من هو أبيض الوجه ولكنه من فرط معصية الله صار وجهه بلا نور.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

[يونس]

أي: أنهم ملازمون للجنة ملازمة الصاحب لصاحبه ، أو «أصحاب الجنة» أي: مَنْ يملكونها.

يقول الحق سبحانه بعد ذلك:

---

(١) القتر: جمع القترة ، وهي الغَبَرة. وفي التهذيب: القترة غبرة يعلوها سواد كالدخان ، والقُتَار: ريح القدر ، وقد يكون من الشِّواء والعظم المحترق ، وريح اللحم المشويّ. وفي حديث جابر ، رضي الله عنه. لا تؤذ جارك بقُتار قدرك. [اللسان : مادة (قتر)].

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

وما دام الحق سبحانه قد جاء بمن دعاهم إلى دار السلام وأعطاهم الجنة جزاء للعمل الحسن ، فذكر مقابل الشيء يجعله ألصق بالذهن ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. ﴿٨٢﴾ ﴾ . [التوبة]

وأيضاً من أمثلة المقابلة [1] في القرآن قوله الحق : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار]

إذن : فمجيء المقابل للشيء إنما يرسّخه في الذهن ؛ ولأن الحق سبحانه قد تكلم عن الدعوة إلى دار السلام ، ومن دخل هذه الدعوة ؛ فله الجنة خالداً فيها ، لا يرهق وجهه قتر ولا ذلة ، كان لا بد أن يأتي بالمقابل ، وأن يبشّع رفض الدعوة لدار السلام ، ويحسّن الأمر عند من يقبلون الدعوة .

ولا بد - إذن - أن يفرح المؤمن ؛ لأنه لن يكون من أهل النار ، ولا بد أيضاً أن يخرج بعض من الذين ضلّوا عن الغفلة ؛ ليهربوا من مصير النار ، ويتحولوا إلى الإيمان .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [يونس]

---

(١) المقابلة نوع من أنواع المطابقة أو الطباق ، ويقصد بها الجمع بين متضادين في الجملة ، فالمقابلة هي أن يُذكر لفظان فأكثر ، ثم أضدادهما على الترتيب . ومن أمثلتها أيضاً قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف] . انظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣/ ٢٨٤ - ٢٨٧).

ونحن نعلم أن الكسب إنما يكون فى الأمر الفطرى ويناسب الطاعات ؛ لأن الطاعة أمر مناسب وملائم للفطرة ، فلا أحد يستحى أن يصلّى ، أو يتصدق ، أو يصوم ، أو يحج ، لكن من الناس من يستحى أن يُعرف عنه أنه كاذب ، أو مُرَاب ، أو شارب خمر .

والإنسان حين يرتكب السيئة يمر بتفاعلات متضاربة ؛ فالذى يسرق من دولاب والده وهو نائم ، تجده يتسلل على أطراف أصابعه ويكون حذراً من أن يرتطم بشىء يفضح أمره ، كذلك الذى ينظر إلى محارم غيره .

كل هذا يدل على أن ارتكاب الشىء المخالف فيه افتعال ، أى : يحتاج إلى اكتساب ، ولكن الكارثة أن يستمر الإنسان فى ارتكاب المعاصى حتى تصير دُرْبة ، ويسهل اعتياده عليها ؛ فيمارس المعصية باحتراف ؛ فتتحول من اكتساب إلى كسب .

أو أن يصل الفاسق من هؤلاء إلى مرتبة من الاستقرار على الانحلال ؛ فيروى ما يفعله من معاص وآثام بفخر ، كأن يقول : « لقد سهرنا بالأمس سهرة تخلب العقل ، وفعلْنا كذا وكذا » ، ويروى ذلك ، وكأنه قد كسب تلك السهرة بما فيها من معاص وآثام .

ومن رحمة الله سبحانه بالخلق أنه يجازى مرتكب السيئة بسيئة مثلها ، فيقول سبحانه : ﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ ، وتتجلى أيضاً رحمة الحق سبحانه وتعالى حين يعطى من لا يرتكب السيئة مرتبة ؛ فيصير ضمن من قال عنهم الحق سبحانه : ﴿لَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ لكن الذين لم يهتدوا منهم من يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أى : لن يجيرهم أحد عند الله تعالى ، ولن يقول أحد لله سبحانه : لا تعذِّبْهم .

أو أن (لا عاصم لهم) بمعنى : أن الله تعالى لن يأمر بعد ذلك بألاّ يُعذَّبوا .

ولا يقتصر أمرهم على ذلك فقط ، بل يقول الحق سبحانه : ﴿كأنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أى : كأن قطعاً من الليل المظلم قد غطت وجوههم ، ويكون مأواهم النار ﴿أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خالِدُونَ﴾ .

هذا هو حال الذين كذَّبوا بآيات الله تعالى وكذبوا الرسل ، وتأبَّوا عن دعوة الله سبحانه وتعالى إلى دار السلام واتبعوا أهواءهم واتخذوا شركاء من دون الله تعالى .

وشاء الحق سبحانه أن يُجلِّى لنا ذلك كله فى الدنيا ؛ حتى يكون الكون كله على بصيرة بما يحدث له فى الآخرة ؛ لأنه نتيجة حتمية لما حدث من هؤلاء فى الدنيا .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

والحشر : هو أخذ الناس من أمكنة متعددة إلى مكان واحد ، وستقذف هذه الأمكنة المتعددة مَنْ فيها مِنَ الكَفَرة ؛ ليصيروا فى المكان الذى شاءه الله سبحانه لهم .

وكلما اقترب الناس من هذا المكان ؛ ازدحموا ، وذلك شأن الدائرة

بمحيطها ، والمحيطات الداخلة فيها إلى أن تلتقى فى المركز ، فأنت إذا نظرت إلى محيط واسع فى دائرة ، وأخذت بعد ذلك الأفراد من هذا المحيط الواسع ؛ لتلتقى بهم فى المركز ؛ فلا شك أنك كلما اقتربت من المركز ؛ فالدوائر تضيق ، ويحدث الحشر .

فكأننا سنكون مزدحمين ازدحاماً شديداً ، ولهذا الازدحام متاعب ، ولكن الناس سيكونون فى شغل عنه بما هم فيه من أهوال يوم القيامة [1] .

وقوله الحق : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ تفيد الجمع المؤكد لحالات الذين لم يستجيبوا لمنهج الله تعالى ، ولا لدعوة الله سبحانه لهم لدار السلام ، وكذبوا رسلهم ، واتخذوا من دون الله تعالى أنداداً ، فيجمع الله سبحانه المُتَّخِذَ أنداداً [2] ، والمُتَّخَذَ نداً ، ويواجههم ؛ لتكون الفضيحة تامة وعامة ، بين عابد عبد باطلاً ، ومعبود لم يطلب من عابده أن يعبده ، أو معبود طلب من عابده أن يعبده .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ .. (٢٨) ﴾ [يونس]

وهكذا يتلاقى من عَبَدَ الملائكة مع الملائكة ، ويتلاقى من عَبَدَ رسولاً وجعله إلهاً ، ومن عبد صنماً ، أو عبد شمساً ، أو عبد قمراً ، أو جنّاً

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرلاً » قلت : يا رسول الله ، النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض . قال ﷺ : « يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٥٩) والبخارى (٦٥٢٧) فهول يوم القيامة هول شديد ، حتى إن الناس يتمنون أن ينتهى يوم الحساب حتى ولو كان مصيرهم إلى النار .

(٢) الند : المثل والنظير ، والجمع أنداد . قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله أنداداً ..(٣٠) ﴾ [إبراهيم] أى : أضداداً وأشباهاً . وقال تعالى : ﴿ ومن النّاس من يتّخذ من دُون الله أنداداً يُحبُّونهم كحُبّ الله (١٦٥) ﴾ [البقرة] [اللسان : مادة (ندد)] .

أو شيطاناً من شياطين الإنس أو شياطين الجن .

إذن : فالمعبودون متعددون ، وكل معبود من هؤلاء له حكم فى ذلك الحشر ، وستكون المواجهة علنية مكشوفة .

فإذا نظرنا إلى العابد الذى اتخذ إلهاً باطلاً سواء أكان من الملائكة أو رسولاً أرسل إليهم ؛ ليأخذهم إلى عبادة إله واحد - هو الله سبحانه وتعالى - ففتنوا فى الرسول وعبدوه ، أو عبدوا أشياء لا علم لها بمن يعبدها : كالأصنام ، والشمس ، والقمر ، والأشجار .

أما المعبود الذى له علم ، وله دعوة إلى أن يعبده غيره ، فهو يتركز فى شياطين الإنس ، وشياطين الجن ، وإبليس .

أما الملائكة فإن الله - سبحانه وتعالى - يواجههم بمن عبدهم ، فيسألهم : أأنتم وعدتم هؤلاء ؛ ليتخذوكم آلهة ، فيقولون : سبحانك أنت ولينا ، ويتبرأون من هؤلاء الناس ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿إِذْ تبرأ الذين اتُّبِعُوا من الَّذينَ اتَّبَعُوا .. (١٦٦)﴾ [البقرة]

والملائكة لا علم لهم بمن اتخذهم آلهة ، وإذا انتقلنا إلى البشر وعلى قمتهم الرسل عليهم السلام ، فيأتى سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ، ويقول الحق سبحانه له : ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ .. (١١٦)﴾ [المائدة]

فيقول سيدنا عيسى عليه السلام ما جاء على لسانه فى القرآن الكريم : ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ .. (١١٦)﴾ [المائدة]

فكأن هؤلاء قد عبدوا من لا علم له بهذا التأليه ، ولم يَدْعُ إليه .

والأصنام كذلك ليس لها علم بمن ادَّعى ألوهيتها ، ولكن الذى له علم بتلك الدعوة هو إبليس ، ذلك أنه حينما عز عليه أنه عاص لله ، أغوى آدم ، ثم تاب آدم عليه السلام وقَبِل الله سبحانه وتعالى توبته ، أما إبليس فلم يتب عليه الحق سبحانه ؛ لأنه رد حكم المولى - عز وجل - بالسجود لآدم ، واستكبر ، وظن نفسه أعلى مكانة [1] . أما آدم عليه السلام فلم يرد الحكم على الله تعالى .

يقول الحق سبحانه :

﴿ ولقدْ خلقْناكُمْ ثُمَّ صوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا للْملائكَة اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبليس لمْ يكُن مّن السَّاجدين (١١) قَالَ مَا منَعكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خيرٌ مّنْهُ خلقْتنى من نَّارٍ وخَلَقْتَهُ من طينٍ (١٢) ﴾ [الأعراف]

ومن ذلك نأخذ مبدأ إيمانياً موجزه أن الذين لا يقدرون على أنفسهم فى إخضاعها لمنهج الله تعالى ، فمن الخير لهم أن يقولوا : إن منهج الله سبحانه هو الصدق ، وحكمه سبحانه هو الحق ، ولكننا لم نستطع أن نُخضِعَ أنفسنا للحكم ؛ وبذلك يخرجون من دائرة رد الأمر على الآمر ، وبإمكانهم أن يتوبوا بنية عدم العودة إلى المعصية .

إذن : فالمخاصمة والمحاجّة [2] موجهة من إبليس لذرية آدم ، فقد أقسم

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ؛ اعتزل الشيطان يبكى يقول : يا ويله ، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار» أخرجه مسلم فى صحيحه (٨١) .

(٢) المحاجّة : المغالبة والجدال . والحُجَّة : الدليل والبرهان . وحَجَّه وحَاجَّه : غلبه على حُجَّته . قال تعالى : ﴿ فإن حاجُّوك فقُل أسلمتُ وجْهي لله ..(٢٠) ﴾ [آل عمران] قال الأزهرى : إنما سميت الحُجّة حُجّة ؛ لأنها تُحجّ ، أى : تُقصَد لأن القصد لها وإليها ؛ وكذلك مَحَجَّة الطريق هى المقصد والمسلك [اللسان : مادة (حجج)] .

إبليس بعزة الله سبحانه أن يُغوى كل أبناء آدم إلا الذين استخلصهم الله لعبادته سبحانه وتعالى ؛ فقد علمَ إبليس أنه غير قادر على إغوائهم[1] .

وهكذا تكون عزة الله سبحانه هى التى تمكِّن إبليس - وذريته من الشياطين - من غواية أو عدم غواية خلق الله سبحانه وتعالى .

والشياطين هم الجن العُصَاة ؛ لأننا نعلم أن الجن جنس يقابل جنس البشر ، ومن الجن من هو صالح طائع ، ومنهم من هو عاص ، ويُسمّى شيطاناً ، ويخدم إبليس فى إغواء البشر ، فيتسلَّط على الإنسانَ فيما يعلم أنها نقطة ضعف فيه .

فمن يحب المال يدخل الشيطان إليه من ناحية المال ، ومن يحب الجمال يدخل له الشيطان من ناحية الجمال ، ومن يحب الجاه يجد الشيطان وهو يزيِّن له الوصول إلى الجاه بأية وسيلة تتنافى مع الأخلاق الكريمة ومنهج الله عز وجل .

وكل إنسان له نقطة ضعف فى حياته يعرفها الشيطان ويتسلل منها إليه ، وقد يُجنِّد إبليس وذريته أناساً من البشر يعملون بهدف إغواء الإنسان لإفساده .

فهناك - إذن - ثلاثة يطلبون أن ينصرف الناس عن منهج الله تعالى ودعوة الحق ؛ وهؤلاء الثلاثة هم : إبليس ، والعاصون من الجن (أى : الشياطين) ، ثم البشر الذين يشاركون إبليس فى الإغواء ، وهم شياطين الإنس الذين يعملون أعمالاً تناهض منهج الرسل .

---

(١) قال سبحانه عن إبليس : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] ، وهؤلاء المخلَصون هم عباد الرحمن الذين ذكر الله أوصافهم فى سورة الفرقان أيات (٦٣ - ٧٤) ، وعن أبى سعيد الخدرى فى حديث أن إبليس قال : «يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم. فقال الله تعالى : وعزتى وجلالى ولا أزال أغفر لهم ما استغفرونى» أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٩) والحاكم فى مستدركه (٤/ ٢٦١) وصححه وأقره الذهبى .

وهل يكون الحوار - يوم القيامة - بين الملائكة ومَنْ عَبَدُوهم منَ البشر؟ وهل يكون الحوار بين الأصنام والذين عبدوها دون علمها ؟ وهل يكون الحوار بين عيسى عليه السلام ومن اتخذوه إلهاً دون علمه ؟

ها نحن نجد عارفاً بالله يقول على لسان الأصنام :

«عَبَدُونا ونحن أعْبَدُ لله   منَ القائمينَ بالأسْحَار [1]»

لأن الحق سبحانه هو القائل : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

ويكمل العارف بالله :

«اتَّخَذُوا صَمْتَنَا علينا دليلاً   فَغَدَوْنا لَهُم وَقُودَ النَار»

والحق سبحانه هو القائل : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٢٤)﴾ [البقرة]

ويتابع العارف بالله :

«قَدْ تَجَنَّوا جهلاً كما تَجَنَّوا   على ابنِ مَرْيم والحَوَارِى [2]»

فما موقف الله سبحانه من هؤلاء وأولئك ؟ فنقول:

إن للمُغَالِي جَزَاءهُ ، والمُغَالَى   فيه تُنْجِيه رحمةُ الغَفَّار».

وهكذا وَضُحَ موقف كل من يعبد غير الله سبحانه أو يشرك به ، هؤلاء

---

(١) الأسحار : جمع السَّحَر وهو آخر الليل قبيل الصبح . لسان العرب (مادة سحر) . والقائمون بالأسحار هم المتعبدون المتهجدون بالليل .

(٢) أى : الحواريون وهم أصحاب عيسى عليه السلام وأنصاره ، الذين خلصوا من كل عيب ، كالدقيق الأبيض الذى ينقى من اللباب . (اللسان : مادة حور) .

الذين يشملهم قول الحق سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ..(٢٨)﴾[(١)] [يونس]

وهكذا يُحشَر مَنْ عبدوا الأصنام أو الكواكب أو أشركوا بالله ، وكذلك شياطين الجن والإنس ، الجميع سيحشرون فى الموقف يوم الحشر ، وليتذكر الجميع فى الدنيا أن فى الحشر ستُكشَفُ الأمور ويُفضح فيه كل إنسان أشرك مع الله غيره ، سبحانه ، وستحدث المواجهة مع مَنْ أشركه بالعبادة مع الله سبحانه دون علْم من الملائكة أو الرسل أو الكواكب أو الحجارة بأمر هؤلاء ، ويأتيهمَ جميعاً أمر الحق سبحانه : ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ ..(٢٨)﴾ [يونس]

وحين تسمع الأمر : «مكانك» فهو يعنى : «الزمْ مكانك» وهى لا تُقال للتحية ، بل تحمل التهديد والوعيد ، وانتظار نتيجة موقف لن يكون فى صالح من تُقال له ، ونعرف أن الملائكة ، والرسل ، والكواكب ، والحجارة ليس لها علم بأمر هؤلاء الذين عبدوهم.

إذن : فالذين ينطبق عليهم هذا الأمر هم هؤلاء المشركون الذين ظنوا أن بإمكانهم الإفلاتَ من الحساب ، لكنهم يسمعون الأمر ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ ، فهل يعنى ذلك أنهم سوف يأتون مع الملائكة ومَنْ عُبد من الرسل والكواكب والحجارة فى موكب واحد ؟ لا ؛ لأن هؤلاء العبيد اتفقوا على موقف باطل ،ويشاء الحق سبحانه أن يفصل بين الحق والباطل.

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨)﴾[(٢)] [يونس]

---

(١) نحشرهم : نجمعهم للحساب. ومنه يوم المَحْشَر. والحَشْر : جمع الناس يوم القيامة. قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ..(٢٠٣)﴾ [البقرة].

(٢) زيَّلنا بينهم : فَرَّقْنا بينهم. والتَّزايل : التباين. قال تعالى : ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾ [الفتح] [اللسان : مادة (ز ى ل)].

أى : جعل من المشركين فريقاً ، وجعل من الذين عُبِدُوا دون علمهم فريقاً آخر ، وأعلن فريقُ مَنْ عُبِدوا دون علمهم : ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ .. (٢٨)﴾ [يونس]

أى : ما كنتم تعبدوننا بعلمنا.

وانظروا إلى الموقف المُخْزى لمن عبدوا غير الله سبحانه ، أو أشركوا به ، إن الواحد منهم قد عبد معبوداً دون أن يدرى به المعبود ، مع أن الأصل فى العبادة هو التزام العابد بأمر المعبود ، وهذه المسألة تَصْدُق على الملائكة وسيدنا عيسى عليه السلام ، وتصدق أيضًا على الكواكب والأحجار ؛ لأن الحق سبحانه الذى يُنطق أبعاض الإنسان يوم القيامة ؛ لتشهد على صاحبها ، قادر على أن يُنْطق الأحجار.

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ويَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت]

ونجد الصنم يوم القيامة وهو يلعن مَنْ عبده ، تماماً مثلما يتبرأ الجلد من صاحبه إنْ عصى الله تعالى ، فالحق سبحانه يقول : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

ولكن لا تترك عقلك يتخيل كيفية تكلُّم الصنم ، فأنت آمنت أن جوارح الإنسان من يد ورجل وجلد ستنطق يوم القيامة ، فهل تعقَّلت كيف تنطق اليد ، وكيف ينطق الجلد ، وكيف تنطق الرِّجْل فى الآخرة ، أنت تؤمن بخبر الآخرة فلا تنظر إلى معطيات أمور الآخرة بقوانين الدنيا ؛ لأن كل

شىء يتبدّل فى الآخرة ، ألم تخبرك السنة أنك ستأكل فى الجنة ، ولا تُخْرِج فضلات [(١)] ؟

وهذا أمر غير منطقىّ - بقوانين الدنيا - ولكننا نؤمن به ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يخبرنا بأشياء سوف تحدث فى الجنة ، لو قسْناها بعقولنا على ما نعرف فى الدنيا لوقفت أمامها عاجزة ، لكن القلب المؤمن يعقل أمور القيامة والآخرة على أساس أنها غيب ، والمقاييس تختلف فيها ؛ لأن الإنسان مظروف [(٢)] بين السماء والأرض. وللدنيا أرض وسماء ، وللآخرة أيضاً أرض وسماء ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَاتُ.. (٤٨)﴾ [إبراهيم]

إذن : فكل شىء يتبدّل يوم القيامة ، فإذا حُدِّثْتَ أن الأصنام تنطق مستنكرة أن تُعبَد من دون الله تعالى ، وأن الملائكة تلعن من عبدوها من دون الله سبحانه ، فلا تتعجب.

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

إذن : فالكائنات التى عُبِدتْ من دون الله تعالى تعلن رفضها لمسألة عبادتها ، فإذا كان الطير - ممثلاً فى الهدهد - قد أعلن من قبل اندهاشه

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبى ﷺ يقول : «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولايتمخطون. قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء أو رشح كرشح المسك ، يُلْهَمُون التسبيح والتحميد». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٣٥) ، وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٦٤).

(٢) أى : أن الإنسان محل لظروف الزمان والمكان ، بين أرض الدنيا وسمائها وأرض الآخرة وسمائها ، تختلف بينهما قوانين الحياة فى كل منهما.

من أن بعضاً من البشر قد عبد غير الله تعالى [(١)] .

واستدل الهدهد - على قدرة الحق سبحانه - بما يخصُّه هو من الرزق ، حيث يعلم أن الحق سبحانه قد علَمَ الخبء فى السموات والأرض ، إذا كان الهدهد قد عرف ذلك فالاستنكار أمر منطقى من غيره من المخلوقات ، سواء أكانت من الملائكة ، أو من عيسى عليه السلام ، أو من الأصنام والأشجار والكواكب .

ولذلك نجد الحق سبحانه يضرب المثال بسؤاله للملائكة : ﴿أَهَـٰؤُلاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ..﴿٤٠﴾﴾ [سبأ]

فيجيب الملائكةُ بقولهم : ﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ .. ﴿٤١﴾﴾ [سبأ]

والحق سبحانه وتعالى يعرض هذه المواقف فى سُوَر القرآن الكريم عرضاً منثوراً [(٢)] مكرراً بما لا يدع للغفلة أن تصيب الإنسان ، فمثلاً يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم [(٣)] مِّنَ الإِنسِ ..﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام]

ويقول على ألسنة من اتخذوا الشياطين أولياء :

﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا .. ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام]

---

(١) وذلك فى قصة الهدهد مع سليمان : ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل].

(٢) المنثور : الشىء يُلْقى متفرقاً هنا وهناك كالحَبِّ وغيره . [اللسان : مادة نثر].

(٣) أى : أضللتم منهم كثيراً وأكثرتم من إغوائهم وإضلالهم.

وقولهم هذا يتضمن الحديث عن ذواتهم والحديث عن الجن.

ولسائل أن يسأل : وكيف يأخذ الجن كثيراً من الإنس؟

ونقول : إن الحق سبحانه قد خلق الجن على هيئة تختلف عن هيئة الإنس ، فجعل للجن خواصّاً تختلف عن خواصِّ الإنس ، ومن هذه الخواص ما قال عنه الحق سبحانه : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ[1] مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. (٢٧)﴾ [الأعراف]

وأعطى الحق سبحانه للجن قوة أكثر مما أعطى للإنس ، وأعطاهم القدرة على النفاذ من السواتر الحديدية والجدران وغيرها ، وهذا أمر منطقى مع أصل تكوين الجن ، فالجن مخلوق من النار ، والإنسان مخلوق من الطين. وهناك اختلاف بين طبيعة كل من النار والطين ، فما يخرج من الطين قارٌّ[2] ، أى : لا يشع ، وما يخرج من النار له إشعاع وحرارة.

بمعنى : أنك لو كنت تجلس فى حجرة ، وخلف ظهرك فى الحجرة الأخرى نار موقدة ؛ فالساتر - أيا كان - سوف يحمل لك بعضاً من حرارة النار ، إلا لو كان عازلاً للحرارة.

أما لو كانت هناك تفاحة - وهى مخلوقة من الطين - موجودة فى الحجرة الأخرى ، فلن ينفذ طعمها أو رائحتها إليك.

إذن : فالنار لها قانونها ، والطين له قانونه. وقانون المادة المخلوقة من الطين لا ينتقل إلا إذا نَقَلْتَ الجِرْم[3] إلى المكان الذى توجد فيه.

---

(١) القَبيل : الجماعة من الناس يكونون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتّى ، كالعرب ، والروم ، والزنج ، وقد يكونون من نحو واحد ، وربما كان القبيل من أب واحد كالقبيلة. وكل جيل من الجن والناس قبيل. قال تعالى : ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢)﴾ [الإسراء]. [اللسان : مادة (قبل)].

(٢) قار : أى : مستقر فى مكانه لا ينتقل منه شىء إلا إذا نقلته أنت. يقال : فلان قارٌّ ، أى : ساكن ثابت. (اللسان : مادة قرر).

(٣) الجِرْم : الجسم. والجمع (الأجرام).

ونلمح هذه المسألة التقنينية فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام حين علم أن ملكة سبأ تسير فى الطريق إليه لتعلن إسلامها ، وأراد سيدنا سليمان عليه السلام أن يأتى لها بعرشها من مكانه قبل أن تصل.

فقال لمن هو فى مجلسه : ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ..﴿٣٨﴾﴾ [النمل]

وهذا يدل على أنه كان فى مجلسه أجناس مختلفة ، ولكل جنس منهم قدرات مختلفة عن قدرات الجنس الآخر ، ونقل العرش من اليمن إلى مكان سيدنا سليمان عليه السلام يحتاج إلى زمن وإلى قوة ، فلو أنهم كانوا متساوين فى قدراتهم ما قال : ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى .. ﴿٣٨﴾﴾ [النمل]

فكان أول من تقدم لتنفيذ ما أراده سليمان عفريت من الجن - لا جنّاً عادياً ، فمن الجن من هو خائب قليل الذكاء ، ومنهم من هو ذكى ، فهم وإن كانوا من جنس واحد فهم متفاوتون أيضًا ، وكان عفريت الجن هو أول من تكلم ، وقال : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. ﴿٣٩﴾﴾ [النمل]

ولكن مقام سليمان قد يستمر ساعة أو بضع ساعات [1] ، والمتكلم هو عفريت من الجن الذى يعلم أن له صفات أقوى من صفات الإنس. أما الإنس العادى - ممن كان حاضراً مجلس سليمان- فلم يتكلم ؛ لأن المطلوب ليس فى قدرته ، أما الذى تكلم من الإنس فهو مَنْ عنده علم من الكتاب ، فقال : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ [2] .. ﴿٤٠﴾﴾ [النمل]

ولم يأخذ الأمر شيئاً من الزمن ؛ لذلك عبَّر القرآن التعبير السريع بعد ذلك ، فقال : ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى ..﴿٤٠﴾﴾[النمل]

(١) كان سليمان عليه السلام يجلس للقضاء بين الناس فى مظالمهم من أول النهار إلى أن تزول الشمس.

(٢) الطرف : طرف العين ، وهو أيضاً إطباق الجفن على الجفن. (اللسان : مادة طرف).

إذن : فللجن قوة على أشياء لا يقوى عليها الإنس [1] ، ولم يأخذ الجنِّى خواصَّه فى الخفة والقدرة ومهارة اختزال الزمن بذات تكوينه ، ولكن بإرادة المكوِّن سبحانه ؛ ولذلك شاء الحق أن يُذكِّر الجن أنهم قد أخذوا تلك الخصوصيات بمشيئته سبحانه ، والحق هو القادر على أن يجعل الإنس وهو الأدنى قدرة ، قادراً على تسخير الجن ؛ ولذلك يحاول الإنس أن يأخذ من تسخير الجن قوة له فيقوى على نظيره من الإنس.

ولكن الحق سبحانه أصدر الحكم على مَنْ يحاول ذلك بأن تسخير الجن يزيد رَهَقاً [2].

واقرأوا قول الحق سبحانه :

﴿ واتَّبعُوا ما تتْلُو الشَّياطينُ علَىٰ مُلْك سُلَيْمَانَ وَمَا كفر سُلَيْمَانُ ولـٰكنَّ الشَّياطين كفرُوا يُعلِّمُون النَّاس السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ علَى الْمَلَكَيْنِ ببَابِلَ هارُوت ومارُوت وَمَا يُعلِّمان منْ أَحدٍ حتَّىٰ يقُولا إنَّما نحْنُ فتْنةٌ فلا تكْفُرْ ..(١٠٢) ﴾ [البقرة]

إذن : فتعليم الجن السحر للإنس دليل على تفوق قدرات الجن وتميزها عن قدرات الإنس.

---

(١) يقول الإمام : إن للجن قوة بحسب تكوينه النارى تفوق قوة الإنسان ، ثم يفيض علينا أن الإنسان بمنهج الله له قوة مددية من الله إذا عايش المنهج ، وفهم أسرار الكتاب ، يتجلَّى ذلك فى أن الشيطان قال لسليمان : ﴿ قال عفريتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتيك به قبْلَ أَن تقُوم من مَّقامك وإنِّي عليْه لقويٌّ أمينٌ (٣٩) قال الَّذى عندهُ علْمٌ مِّن الْكتاب أنا آتيك به قبْل أن يرْتدَّ إليْك طرْفُك فلمَّا رآهُ مُسْتقرًّا عندهُ قال هـٰذا من فضْل ربِّى ليبْلُونى أأشْكُرُ أمْ أكْفُرُ ومن شكر فإنَّما يشْكُرُ لنفْسه ومن كفر فإنَّ ربِّى غنىٌّ كريمٌ (٤٠) ﴾ [النمل] إذن : الواصل بالله أقوى من الكل ، هذا من حيث العطاء الإلهى ، أما من حيث التكوين فالإنسان من طين ، والطين ليس كالنار .

(٢) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وأنَّهُ كان رجالٌ مِّن الإنس يعُوذُون برجالٍ مِّن الْجنِّ فزادُوهُمْ رهقًا (٦) ﴾ [الجن] أى : ذلة وضعفاً. قال السدى : كان الرجل يخرج بأهله فيأتى الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أضر أنا فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى. ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٢٨).

ولكن الملكين هاروت وماروت [1] حينما عَلَّمَا الإنسان السحر حذّراه أولاً من أن يأخذ من ذلك فرصة زائدة تطغيه على بنى جنسه ويظلم بها ، إنما الأمر كله اختبار ، فإن تعلَّمته فذلك لتقىَ نفسك من الشر لا لتوقعه بغيرك ، ثم إنك - أيها الإنسان - من الأغيار قد تضمن نفسك وقت التحمُّل ، ولكن ماذا عن وقت الأداء ؟

مثلما يأتى لك إنسان ليُودعَ عندك ألفاً من الجنيهات كأمانة ، ولكن أتظل على الأمانة ، أم أنك قد تنكر المال أصلاً حين يطالبك به صاحبه ، أو قد تمر بك أزمة مالية فتتصرف بهذا المال ؟

ولذلك تجد الذكى هو مَنْ يقول لمودع هذا المال : «احفظْ عليك مالك ، لأنى من الأغيار» .

وتلك هى القضية الإيمانية الأصيلة فى الكون كله ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ [2] عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

والأمانة هى ما يكون فى ذمة المؤتمن ، ولا حجة للمؤتمن عنده إلا ذمته ، ولا شهود عليه ، ولا يوجد إيصال بتلك الأمانة ، بل هى وديعة لا توثيق فيها ؛ إلا ذمة المؤتمن ، قد يقرُّ بها ، وقد يُنكرها .

---

(١) هاروت وماروت ملكان من السماء ، أنزلا إلى الأرض ، وقيل إنهما لم تعجبهما أحكام بنى آدم فى العباد ، فأهبطا ليحكما بين الناس ، وكانا يعلمان الناس السحر ، فأخذ عليهما أن لا يعلمان أحداً حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر .

(٢) اختلف العلماء فى تفسير الأمانة فى الآية ، ولكن أجمع قول فيها أنها الطاعة بالاختيار ، قال ابن عباس : هى الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها ، فقال لآدم : إنى قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال : يا رب وما فيها؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحمَّلها . انظر ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٢٢) .

وعلى ذلك فحقٌّ المؤتمن عند المؤتَمَن خاضعٌ لخيار المؤتَمَن ؛ ولذلك وجدنا السماء والأرض والجبال قالت : يا رب لا نريد أن نُدخلَ أنفسنا في هذه التجربة ، افعل بنا ما شئت واجعلْنا مقهورين ولا اختيار لنا ، ولا نريد تحمُّل الأمانة .

أما الإنسان فقد ميَّزه الله بالعقل ، وقدرة الاختيار بين البدائل ؛ لذلك قَبِلَ الإنسان حَمْل الأمانة ، وحين جاء وقت الأداء لم يجد نفسه أميناً على الأشياء مثلما ظَنَّ في نفسه وقت التحمُّل .

وكذلك الذين يتعلمون السحر ، يقول الواحد منهم لنفسه : سوف أتعلمه لأدفع الضُّرَّ عن نفسي ، ونقول له : أنت لا تضمن نفسك ؛ لأنك من الأغيار ، فقد يغضبك أو يثير أعصابك إنسان ؛ فتستخدم السحر فتصيب نفسك بالرَّهق .

إذن : فحين قال الله سبحانه : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ .. (١٢٨)﴾ [الأنعام]

أي : أخذتم من الإنس كثيراً بأن أعطيتموهم سلاحاً يحقق لهم فرصة وقوة على غيرهم من البشر .

وقد ذكر الحق - سبحانه وتعالى - لنا أن بعض البشر الذين استجابوا للجن قالوا : ﴿اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ .. (١٢٨)﴾ [الأنعام]

واستمتاع الإنس بالجن مصدره أن الإنس يأخذ قوة فوق غيره من البشر ، واستمتاع الجن بالإنس مصدره أنه سوف يُعين هذا الإنسان على معصيته ؛ تطبيقاً لقَسَم إبليس اللعين : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ[1] أَجْمَعِينَ .. (٨٢)﴾ [ص]

---

(١) الإغواء : الإضلال. قال تعالى : ﴿فأغويناكم إنَّا كنَّا غاوين (٣٢)﴾ [الصافات]. [اللسان : مادة (غوى)].

ولكن هذا الاستمتاع فى النهاية لا يعطى أمراً زائداً عن المقدور لكل جنس ؛ ولذلك تجد أن كل مَنْ يعمل بالسحر وتسخير الجن إنما يعانى ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ..(٦) ﴾ [الجن]

وأنت تجد رزق الذى يقوم بالسحر أو تسخير الجن يأتى من يد مَنْ لا يعلم السحر ، ولو كان فى تعلُّم ذلك ميزة فوق البشر ؛ لجعل رزقه من مصدر آخر غير من لا يعلمون السحر أو تسخير الجن .

وأنت حين ترى الواحد من هؤلاء ، تجد على ملامحه غَبَرَةً ، وفى ذريته آفة أو عيباً ، فمنهم مَنْ هو أعور أو أكتع [1] أو أعرج ؛ لأنه أراد أن يأخذ فرصة فى الحياة أكثر من غيره من البشر ؛ بواسطة الجن ، وهذه الفرصة تزيده رهقاً ؛ ولذلك فليلزم كل إنسان أدبه وقدره الذى شاءه الله - سبحانه وتعالى - له ؛ فلا يفكر فى أخذ فرصة تزيد من رهقه .

ونحن نرى فى البشر مَنْ يستخدم صاحب القوة الجسدية أو قدرة تصويب السلاح ؛ ليُرهب غيره ، وقد ينجح فى ذلك مرة أو أكثر ، ثم ينقلب هذا (الفتوَّة) أو ذلك القاتل المأجور على مَنْ استأجره .

إذن : فلا بد أن يحترم كل إنسان قَدَر الله - سبحانه وتعالى - فى نفسه ، وألاَّ يأخذ فرصة من جنس آخر ؛ يظن أنها تزيده فى دنياه شيئاً ، لكنها فى الواقع ستزيده تعباً وتزيده رهقاً .

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - يقول عنهم : ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ [2] ..(١٢٨) ﴾ [الأنعام]

---

(١) الأكتع : مَنْ رجعت أصابعه إلى كَفِّه ، وظهرت مفاصل أصول أصابعه . و«أكتع» يجيء فى التوكيد إتباعاً ، فيقال : جاء الجيش أجمعَ أكتعَ . [المعجم الوسيط : مادة (كتع)] .

(٢) المثوى : مكان الإقامة والاستقرار . والجمع : المثاوى . قال تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) ﴾ [آل عمران] [اللسان : مادة (ثوى)] .

وهكذا نرى أن مصير الاستمتاع بقوة الجن هو النار للإنس الذى استخدم الجن ، وللجن الذى أغوى الإنس .

ثم يعرض لنا الحق - سبحانه وتعالى - قضية أخرى فى هذه المسألة ؛ فيقول سبحانه : ﴿ الأَخِلاَّءُ [1] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

والأخلاء : هم الجماعة التى يجمع أفرادها صحبة ومودَّة ، ويتخلّل كل منهم حياة الآخر . وأنت تجد الناس صنفين :

أناساً اتخذوا الخُلَّة [2] فى الله تعالى ، فيذهبون إلى المساجد ، ويستذكرون العلم ، ولا يأكلون إلا من حلال ، ويقرأون القرآن ، وإن همَّ واحد منهم بمعصية وجد من صديقه ما يردّه عن المعصية ، ويحجّون إلى بيت الله الحرام ، ويعتمرون ، وتدور حياتهم فى إطار حديث المصطفى ﷺ : «رجلان تحابّا فى الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه » [3] وهذا لون من الخُلَّة .

واللون الآخر يضم أناساً يساعد بعضهم البعض على المعصية ، ويشربون الخمر ، ويلعبون الميسر ، ويفعلون كل المعاصى ، فإذا جاء يوم القيامة يقابلون حكم الله تعالى : ﴿ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ .. (٢٥٤) ﴾ [البقرة]

فلا خُلَّة إلا خُلَّة اللقاء فى الله تعالى ، فإذا التقى الأخلاء فى الله تعالى فرحوا ببعضهم ؛ لأن كلاًّ منهم حمى أخاه من معصية ، أما من كانوا

(١) الأخلاّء : جمع (خليل) وهو الصديق . قال تعالى : ﴿ واتَّخذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيم خليلاً .(١٢٥) ﴾ [النساء] . وقال تعالى - حكاية عن الكافرين يوم القيامة : ﴿ يا ويْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خليلاً (٢٨) ﴾ [الفرقان] . [اللسان : مادة (خ ل ل)].

(٢) الخُلَّة : الصداقة والمحبة . والخِلُّ : الوُدُّ والصديق . [اللسان : مادة (خ ل ل)].

(٣) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه مُعلّق فى المساجد ، ورجلان تحابَّا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) والبخارى فى صحيحه (٦٦٠) .

يجتمعون فى الدنيا على المعصية ، فكل منهم يلعن الآخر ، ويصدق حكم الله سبحانه وتعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

ولذلك نجد الحوار بين الذين استضعفوا والذين استكبروا ، ونجد الحق سبحانه وتعالى يأتى لنا بهذا الحوار فى القرآن : ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [إبراهيم]

فيرد الآخرون : ﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا [1] أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ [2] .. (٢١) ﴾ [إبراهيم]

وبعد ذلك يأتى اعتراف الشيطان الذى يقول عنه الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ [3] إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ [4] .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) الجزع : نقيض الصبر . قال تعالى عن الإنسان : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) ﴾ [المعارج] . [اللسان : مادة (جزع)] .

(٢) محيص : مَهْرَب . قال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) ﴾ [النساء] . [اللسان : مادة (حيص)] .

(٣) السلطان : سلطان القهر فى قهرهم على اتباعه . ويطلق السلطان أيضاً على الحجة والبرهان . يقول تعالى عن سليمان وهو يهدد الهدهد : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) ﴾ [النمل] .

(٤) مصرخكم : مغيثكم . والصريخ : المغيث . وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ .. (١٨) ﴾ [القصص] . وقال تعالى : ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) ﴾ [يس] . [اللسان : مادة (صرخ)] .

وهذا الحوار هو الذى يكشف لنا ما سوف يحدث يوم القيامة ، ونجد الحق سبحانه يقول :

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ .. (١٦)﴾ [الحشر]

هذه كلها لقطات من مشاهد يوم القيامة ، جاءت فى خواطرنا ونحن نتناول قول الحق سبحانه : ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩)﴾ [يونس]

هكذا يعلن كل مَنْ عُبد من الملائكة أو الرسل أو الأصنام ، وبذلك تتم فضيحة الذين عبدوهم من دون الله سبحانه ويأخذون طريقهم إلى النار .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول : ﴿احْشُرُوا[1] الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢)﴾ [الصافات]

ولننتبه هنا إلى أن الأزواج متقدمون فى الإغواء والتوجيه إلى الشر ، قبل الأعداء ؛ لأن الزوج أو الزوجة قد يكون هو الشيطان الملازم الذى يُهيِّىء الانحراف إلى ما يريد[2] .

ونجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤)﴾ [الصافات]

ومثلها مثل قوله سبحانه : ﴿مَكَانَكُمْ﴾ نفهم من ذلك أنهم كانوا معاً فى الدنيا وهى دار الاختيار ، وهم الآن فى دار جبرية الاقتدار ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

---

(١) احشروا : اجمعوا. و الحشر : جمع الخلائق يوم القيامة للحساب. [اللسان : مادة (حشر)].

(٢) يقول سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ .. (١٤)﴾ [التغابن].

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨)﴾ [الصافات]

أى: كنتم تستعملون قوتكم ؛ لتجعلونا نتبعكم ، فلا يظنن ظانٌّ أنها قوة البطش فقط ، أو قوة التذليل ، بل المقصود بذلك أىّ قوة ، حتى وإن كانت قوة الإغواء.

إذن: فالمواقف مفضوحة ، وهذا لون ومقدمة من ألوان العذاب ؛ ليبين الله - سبحانه وتعالى - صدقه فى قوله: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ[1] (٦٧)﴾ [الزخرف]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليبين لنا كيف يختار الإنسان خليله فى الدنيا ، فلا يختار الخليل الذى يزيِّن الخطأ والمعصية ، بل يختار الذى يعينه على الطاعة.

ويذكر الحق سبحانه موقفاً من مواقف يوم القيامة فيقول سبحانه:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ[2] نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ [فصلت]

هكذا يكون حال الذين ضلُّوا يوم القيامة، يتبرأون ممن أوقفهم هذا الموقف بل يطلبون من أضلهم لإيقاع العذاب بهم بأنفسهم ؛ لذلك يقول الحق

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «لو أن رجلين تحابا فى الله ، أحدهما بالمشرق ، والآخر بالمغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة يقول : هذا الذى أحببته فىَّ» ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٣٤) وعزاه للحافظ ابن عساكر.

(٢) عن على بن أبى طالب أن ﴿اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا .. (٢٩)﴾ [فصلت] فى الآية المقصود بهما : إبليس أول من عصى الله جحوداً لأمره ، وابن آدم الذى قتل أخاه فكان أول من سن ارتكاب الكبائر والمعاصى فى الأرض. ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٩٨).

سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا[1] عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩)﴾ [يونس]

هكذا يتبرأ الملائكة والرسول الذى عُبدَ، وحتى الأصنام، من الذين عَبَدُوهم فى الدنيا.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:[2]

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾

وقول الحق سبحانه: ﴿هُنَالِكَ﴾ يعنى: فى هذا الوقت، أو فى هذا المكان. والزمان والمكان هما ظَرْفَا الحدث؛ لأن كل فعل يلزم له زمان ومكان، فإن كان الزمان هو الغالب، فيأتى ظرف الزمان، وإذا كان المكان هو الغالب فيأتى ظرف المكان.

وجاءت ﴿هُنَالِكَ﴾ أيضاً فى قصة سيدنا زكريا عليه السلام، إذ يقول الحق سبحانه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. (٣٨)﴾ [آل عمران]

أى: فى ذلك الوقت الذى قالت فيه مريم - رضى الله عنها - قولةً أدَّت بها قضية اعتقادية إيمانية لكفيلها، وهو سيدنا زكريا عليه السلام وهو الذى يأتى لها بالطعام، وشاء لها الحق - سبحانه وتعالى - أن تعلِّمه هى. يقول

(١) إنْ كُنَّا: أى: ما كنا. فإنْ هنا للنفى، وتدخل على الجملة الاسمية نحو قوله تعالى: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ... (٢٠)﴾ [الملك] وتدخل على الجملة الفعلية نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ .. (١٠٧)﴾ [التوبة].

(٢) ﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ .. (٣٠)﴾ [يونس]: تذوق جزاء ما عملت وقدَّمت. وقيل: تختبر. وقيل: تتبع، أى: تتبع كل نفس ما قدّمت فى الدنيا. وقرأ حمزة والكسائى «تتلو» أى: تقرأ كل نفس كتابها الذى كُتب عليها. [تفسير القرطبى ٤/ ٣٢٦١] وابن كثير [٢/ ٤١٦].

سبحانه : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

والرزق ما به انتفع ، وكان زكريا - عليه السلام - يكفلها بكل شيء تحتاجه ، لكنه فوجيء بوجود رزق لم يَأت هو به ؛ بدليل أنه قال : ﴿ أَنَّىٰ [1] لَكِ هَـٰذَا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

وهذه ملحظية ويقظة الكفيل حين يجد مكفوله يتمتع بما لم يأت به . وهذه هى قضية «من أين لك هذا ؟» ، وهى قضية الكفيل العام للمجتمع حين يرى واحداً يتمتع بما لا تؤهله له حركته فى الحياة ، وبذلك يُكتشف مختلس الانتفاع بما يخص الغير دون أن يَعرف كافله ، ولو أن كافله أصرَّ على معرفة من أين تأتى مصادر دخله ؛ لَحَمَى المجتمع من الفساد .

وانظر إلى جواب مريم عليها السلام على قول زكريا عليه السلام الذى ذكره رب العزة سبحانه : ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا .. (٣٧)﴾ [آل عمران]

قالت مريم : ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ..(٣٧) ﴾ [آل عمران]

ثم تعلِّل الجواب : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [2] ..(٣٧) ﴾ [آل عمران]

قالت ذلك ؛ لأنه وجد عندها أشياء لا توجد فى مثل هذا الوقت من

---

(١) أنّى لك هذا؟ : كيف ومن أين لك هذا ؟

(٢) لله في عطائه رزق بحساب ، ورزق بغير حساب ، فرزق الحساب بقدر ما تقدمه من خير وعمل صالح ، يُقاس العطاء بمقياس العدل الإلهى . أما الرزق الذى بغير حساب فهو رزق الذين وهبوا كلياتهم إلى الكل المطلق ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ [الأنعام] . إذن : فكون الرزق هنا بلا حدٍّ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)﴾ [البقرة] لأن الإمام العارف قال : من دخل على الله بحساب أعطاه بحساب ، ومن دخل عليه بغير حساب أعطاه بغير حساب .

السنة ، فعجَبُ سيدنا زكريا عليه السلام - إذن - كان من أمرين اثنين : شيء لم يأت هو به ، وشيء مخالف للفترة التي هو فيها ، كأنْ وجد عندها عنباً في زمن غير أوانه ، أو وجد برتقالاً في غير أوانه [1] ، وسؤاله كان دليل يقظة الكفيل ، وإجابتها كانت قضية إيمانية عقدية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ..(٣٧)﴾ [آل عمران]

وما دام ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ - سبحانه وتعالى - ما طرح حسابك أنت للأشياء في ضوء هذه القضية .

ولكن هل غفل سيدنا زكريا - عليه السلام - عن قضية الإيمان بأن الله تعالى يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ؟

فنقول: لا ، لم يغفل عنها ، ولكنها لم تكن في بؤرة شعوره حينئذ ؛ فجاءت بها قولة السيدة مريم لتذكر بهذه القضية ، وهنا تذكَّر زكريا نفسه ، كرجل بلغ من الكبر عتياً [2] ، وامرأته عاقر ، وما دام الله سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب ، فليس من الضروري أن يكون شاباً أو تكون زوجته صغيرة لينجب ، فجاء الحق معبراً عن خاطر زكريا في قوله :

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. (٣٨)﴾ [آل عمران]

أي: في هذا الوقت أو ذلك المكان ، أو في الاثنين معاً زماناً ومكاناً ، وهنا جاءته الإجابة من ربه سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ..(٩)﴾ [مريم]

---

(١) ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا .. (٣٧)﴾ [آل عمران] قال مجاهد وعكرمة وآخرون : يعني : وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف . وهذا فيه دلالة على كرامات الأولياء [تفسير ابن كثير : ١/ ٣٦٠].

(٢) عَتَا الشيخ عتياً وعِتياً وعُتياً : كَبِرَ وأسنَّ. [اللسان : مادة (عتى)].

وقد جاء الحق سبحانه بهذه القضية ليمنع أيَّ ظانٍّ من أن يسيء الظن بعفة مريم عليها السلام ؛ لأنها في موقف اللجوء فأنطقها الحق بقوله :

﴿ يرزقُ من يشاءُ بغيرِ حسابٍ .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

وما دام الرزق بغير حساب وفي غير وقته وغير مكانه وبلا سبب وبغير علم كافلها ، فعند ذلك تحقق اللجوء إلى الله بالقبول الحسن الذي دعت به امرأة عمران :

﴿ وإنِّي أُعيذُهَا بكَ وذُرِّيَّتَهَا منَ الشَّيْطَانِ الرَّجيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حسنٍ[1] وأَنْبَتها نباتًا حسنًا وكَفَّلَهَا زكريَّا ..(٣٧) ﴾ [آل عمران]

ويطبقها زكريا عليه السلام على نفسه ، ثم تتعرض هي لها ،حين يبشِّرها الحق سبحانه بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم - عليهما السلام .

فهي ستلد من غير أن يمسسها ذكر ، وهي تعلم أن الأسباب جارية في أنه لا يوجد تناسل إلا بوجود ذكر وأنثى ، وشاء الحق سبحانه أن يقدِّر لها أن تلد دون هذه العملية ، فجاء سبحانه بتلك المقدمة على لسانها ﴿ إنَّ اللَّهَ يرْزُقُ من يشاءُ بغيْرِ حسَابٍ ..(٣٧) ﴾ [آل عمران]

وحين تساءلت: ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يكُونُ لِي ولَدٌ ولَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ .. (٤٧) ﴾ [آل عمران]

جاءتها الإجابة بأن اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، يقول سبحانه : ﴿ إنَ الله يُبشِّرُك بِكلمةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمسِيحُ عِيسَى ابْنُ مريمَ ..(٤٥) ﴾[آل عمران]

فبيقظتها الإيمانية فطنت إلى أن هذا الطفل سينسب إلى أمه ؛ فعرفت أن

---

(١) تقبّل الشيء وقبوله دليل على أخذ الشيء برضا ، فأنت قد تأخذ بكُرْه أو على مضض ، أما أن تتقبل ذلك يعني الأخذ بقبول ورضا . أما القبول الحسن فهو زيادة في الرضا .

أباه ملغى ؛ وأدركت أن هذا الولد لن يأتى نتيجة زواج ولو فيما بعد ، وبذلك كان عليها أن تعود إلى القضية الإيمانية التى ذكرتها : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران]

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه : ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ .. (٣٠)﴾ [يونس]

أى : فى ذلك الوقت تُختبر كل نفس ، وترى هل الجزاء طيب أم لا؟ فإن كانت قد عملت الشر ؛ فستجد الجزاء شَرّاً .

إذن : فالإنسان وقت النتائج يختبر نفسه بما كان منه.

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ[1] الْحَقِّ .. (٣٠)﴾ [يونس]

وكأنهم كانوا فى الدنيا عند مولًى آخر غير الإله الحقّ سبحانه ، والمولى غير الحق هو الشريك أو الشركاء الذين اتخذهم بعض الناس مَوالىَ لهم ، وهنا فى اليوم الآخر يُردُّون إلى الإله الحق والمولى الحق سبحانه.

وكلمة «رُدُّوا إلى كذا» لا تدل على أنهم كانوا مع الضِّدِّ ، وجاءوا له ، بل تدل على أنهم كانوا معه أولاً ، ثم ذهبوا إلى الضِّدِّ ، ثم رُدُّوا إليه ثانياً ، مثل قول الحق سبحانه عن موسى عليه السلام :

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ .. (١٣)﴾ [القصص]

فدلَّت على أنه كان مع أمه ، ثم فارقها ، ثم رُدّ إليها.

وقول الحق سبحانه هنا : ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ[2] الْحَقِّ .. (٣٠)﴾ [يونس]

---

(١) المولى : النصير والولىّ الذى يلى عليك أمرك ، ولا يليك إلا من هو قريب منك ، وهو الناصر والمعين الذى تفزع إليه فى شدائدك.

(٢) قال تعالى هنا : ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ .. (٣٠)﴾ [يونس] فأثبت أن الله هو مولاهم الحق ، وقال فى آية أخرى : ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ ..(١١)﴾ [محمد]. فهو سبحانه ليس مولى لهم فى النصرة والمعونة ، بل هو مولى لهم فى الرزق وإدرار النعم.

أي: أنهم كانوا مع الله أولاً ، ثم أخذهم الشركاء ، وفي هذا اليوم الآخر يرجعون لربهم سبحانه.

والإنسان يكون مع ربّه أولاً بالفطرة التكوينية المؤمنة ، ثم يتجه به أبواه إلى المجوسية أو أيّ ديانة أخرى تحمل الشرك بالله تعالى [1] ، وهم في ظل تلك الديانات المشركة ، كانوا عند مولًى وسيِّد وآمر ومشرِّع ، لكنه مَوْلًى غير حق ؛ لأن الحق هو الثابت الذي لا تدركه الأغيار.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ..(٣٠)﴾ [يونس]

أي: عرفت كل نفس ما فعلت ، ويُعرف كل إنسان بفضيحته في جزئيات ذاته ، وكذلك الفضيحة العامة لكل إنسان أشرك بالله سبحانه.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾ [يونس]

أي: أن الآلهة التي عبدوها لا تتعرف إلى أمكنتهم ومواقعهم ، وأنهم في خطر ؛ فتأخذ بأيديهم ؛ لأن هذه الآلهة لا علم لها بهم ، ولو أن هذه الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله - سبحانه - على شيء من الحق ؛ ووجدوهم في مأزق ؛ لكان يجب أن يدافعوا عنهم ، لكنهم لم يعرفوا أماكنهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ..(٣٠)﴾ [يونس]

أي: ما كانوا يكذبونه كذباً متعمداً.

وبعد أن كشف - سبحانه - المسألة وما سوف يحدث في الآخرة ،

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم قال: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ.. (٣٠)﴾ [الروم]. متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٧٥) ومسلم (٢٦٥٨).

وخوَّفهم وبشَّع لهم ما سوف ينتظرهم من مصير إنْ ظلوا على الكفر ؛ لعلَّهم يرتدعون [١] ، ويتذكرون ضرورة العودة إلى عبادة الإله الحق سبحانه ، يأتي الحق سبحانه وتعالى بما يعيد إليهم رُشْدَ الإيمان فى نفوسهم ، فيقول :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ [٢] فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

أى : أن الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : اسألهم هذا السؤال ، ولا يسأل هذا السؤال إلا مَنْ يثق فى أن المسئول لو أدار فى ذهنه كل الأجوبة ، فلن يجد جواباً غير ما عند السائل .

ومثال ذلك من حياتنا - والله المثل الأعلى - إن جاء لك من يقول : أبى يهملنى ، فتمسك به ، وتسأله : من جاء لك بهذه الملابس وذلك القلم ويُطعمك ويُعلِّمك ؟ سيقول لك : أبى .

وأنت لا تسأله هذا السؤال إلا وأنت واثق أنه لو أدار كل الأجوبة فلن يجد جواباً إلا الذى تتوقعه منه ، فليس عنده إجابة أخرى ؛ لأنك لو كنت تعرف أنه سوف يجيبك إجابة مختلفة لما سألته فكأنك ارتضيت حكمه هو فى المسألة .

(١) الارتداع : الكف عن الشيء . وترادع القوم : ردع بعضهم بعضاً ، فزجروهم وكفوهم عن المعاصى وإيذاء الناس . [وانظر : لسان العرب - مادة ردع] .

(٢) فى الآية منطق الفطرة بالتوحيد ، فالكافر إذا سئل عن خلق الكون ، وعن تدبير الأمر ، وعن عجائب الآيات لا يجد جواباً إلا أن يقول بدافع الفطرة : الخالق هو الله ، والمدبر هو الله .

والحق سبحانه وتعالى قال فى بداية هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ﴾ كما أنزل عليه مثيلاتها مما بُدىء بقوله سبحانه: ﴿قُلْ﴾ مثل قوله سبحانه:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الصمد]

وهذا ما اقتضاه خطاب الحق سبحانه دائماً للخَلْق، ويختلف عن خطاب الخَلْق للخَلْق، فحين تقول لابنك: «اذهب إلى عمِّك، وقُلْ له كذا». فالابن يذهب إلى العمِّ ويقول له منطوق رسالة الأب، دون أن يقول له: «قُلْ»، أما خطاب الحق سبحانه للخلق، فقد شاء سبحانه أن يبلِّغنا به رسوله ﷺ كما نزل ﴿قُلْ﴾ فالرسول ﷺ أمين فى البلاغ عن الله تعالى، لا يترك كلمة واحدة من الوحى دون أن يبلِّغها للبشر، وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذى أمره، فهو يبلغ ما أُمِرَ، حتى لا يحرم آذان خلق الله تعالى من كل لفظ صدر عن الله سبحانه.

وكذلك أمر الحق - سبحانه - هنا لرسوله ﷺ بأن يقول: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. ㉛﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن الرزق هو ما يُنتفع به، والانتفاع الأول مُقوِّم حياة، والثانى تَرَفٌ أو كماليات حياة، والرزق الذى هو أصل الحياة هو ماء ينزل من السماء، ونبات يخرج من الأرض[1].

وهكذا قال الحق سبحانه السؤال والإجابة معروفة مقدَّماً، فلم يَقُلْ لرسوله ﷺ: «أجبْ أنت» بل ترك لهم أن يجيبوا بأنفسهم.

وكذلك جاء الحق سبحانه بسؤال آخر: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. ㉛﴾ [يونس]

---

(١) وهذا الرزق هو ما ذكره رب العزة فى قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ㉔ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ㉕ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ㉖ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ㉗ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ㉘ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ㉙ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ㉚ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ㉛ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ㉜﴾ [عبس].

والسمع والبصر هما السيدان لملَكَات الإدراك ؛ لأن إدراك المعلومات[1] له وسائل متعددة ، إنْ أردتَ أنْ تُدرك رائحة ؛ فبأنفك ، وإنْ أردتَ أنْ تدرك نعومة ؛ فبلمسك وببشرتك ، وإنْ أردتَ أن تدرك مذاق شيء فبلسانك ، وإنْ أردت أن تتكلم فبأجهزة الكلام وعمدتها اللسان ، وإنْ أردتَ أن تسمع فبأذنك .

وكذلك تتجلَّى لك المرائى[2] بعينيك ، ثم تأتى إدراكات متعددة من الحواس ؛ لتُكوِّن أشياء نسميها الخميرة ، توجد منها القضية العقلية الأخيرة ، فالطفل أمام النار يجد منظرها جميلاً جذاباً ، لكن ما إن يلمسها حتى تلسعه ؛ فلا يقرب منها أبداً من بعد ذلك ؛ لأنه اختبرها بحواسه فارتكزت لديه القضية العقلية وهى أن هذه نار محرقة ، واستقر هذا لديه يقيناً .

وهكذا تكون الإدراكات الحسية إدراكات متعددة تصنع خميرة فى النفس تتكون منها الإدراكات المعنوية .

إذن : فوسائل العلم للكائن الحى هى الحواس ، وهذه الحواس تعطى العقل معطيات تنغرز فيه لتستقر من بعد ذلك فى الوجدان ؛ فتصبح عقائد .

إذن : فمراحل الإدراك هى : إدراك حسىٌّ ، وتفكُّر عقلىٌّ ، فانتهاء عَقَدىٌّ ؛ ولذلك نسمِّى الدين عقيدة .

أى : أنك عقدت الشىء فى يقينك بصورة لا تحلُّه بعدها من جديد لتحلّله ، فهذا يُسمى عقيدة .

---

(١) الإدراك يعطى الوجدان ، والوجدان يعطى الاختيار ، والاختيار يعطى الفكر والتأمل ، وعن طريق الفكر المتأمل يكون توحيد الله .

(٢) رأى يرى فهو راء ، وما يقع عليه البصر فهو مرئىّ ، والجمع : مَرَائى .

ولذلك حينما أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يقصَّ علينا مراحل الإدراك فى النفس الإنسانية ؛ ليربى الإنسان معلوماته ، قال الحق سبحانه :

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون (٧٨) ﴾ [النحل]

لذلك يقال : «كما ولدته أمه» ، أى : لم يُعْطَ القدرة على استخدام حواسه بعد ، ثم يجعل له الحق سبحانه الحواس ، ويجعله قادراً على استخدامها .

ولم يذكر بقية الحواس ، بل جاء بالسيدين ، وهما السمع والبصر ؛ لأن آيات الكون تحتاج إلى الرؤية ، وإبلاغ الرسل يحتاج للسماع ، وهما أهم آلتين فى البلاغ ، فأنت ترى بالعين آيات الكون ومعجزات الرسل ، وتسمع البلاغ بمنهج الله سبحانه وتعالى من الرسل .

وقد لفتنا الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - إلى العجائب فقال : « اعجبوا لهذا الإنسان ، ينظر بشحمٍ ، ويتكلم بلَحْمٍ ، ويسمع بعظمٍ ، ويتنفس من خَرْمٍ» [1] .

فالصوت يطرق عظمة الأذن ، ويرنّ على طبلتها ، ونرى بشحمة [2] العين ، وننطق بلحمة اللسان .

وأضاف البعض : «ونشمّ بغضروف ، ونلمس بجلد ، ونفكر بعجين» . فالإنسان يولد وكأن مخه قطعة من العجين التى تعمل فى استقبال المعلومات من الكون وتخزينها فيه ، وهى التى ستكون ركيزة لتشكيل الفؤاد من بعد ذلك .

---

(١) ذكره الشريف الرضى فى كتابه «نهج البلاغة» (٤/ ٤) طبعة مؤسسة الأعلمى للمطبوعات - بيروت .

(٢) شحمة العين : مُقلتها ، وقيل : حدقتها أو ما تحت الحدقة . أما شحمة الأذن فهو ما لان من أسفلها ، وهو مُعَلَّق القُرط . [اللسان : مادة (شحم)] .

وجاء قول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بوسيلتين من وسائل الإدراك ، وترك بقية الوسائل الثلاث الأخرى الظاهرة ، مع أن العلم الحديث حين تكلم عن وظائف الأعضاء ، احتاط للأمر وقرر أن هذه الحواس هى الحواس الخمس الظاهرة .

وهذا يعنى أن هناك حواسّاً أخرى غير هذه سيكشف عنها ، وهى حواس لم يكن القدماء يعرفونها ، مثل حاسة البَيْنَ بَيْنَ ، التى نفرق بها بين أنواع الأقمشة والأوراق وغيرها ، وكثافة هذا النوع من ذاك ، وهذه الحاسة توجد بين لمستين من إصبعين متقاربين [1] .

وكذلك حاسة العَضَل التى تزن ثقل الأشياء ، وتعرف حين تحمل ثقلاً ما مدى الإجهاد الذى يسببه لك ، وهل يختلف عن إجهاد حَمْل ثقلٍ آخر .

وحين نظر العلماء فى معانى الألفاظ قالوا : «النظائر حين تخالف فلا بد من علّة للمخالفة» فالسمع آلة إدراك ، والبصر آلة إدراك ، فلماذا قال الحق سبحانه فى آلة الإدراك «السمع» ، وقال فى الآلة الثانية «الإبصار» ؟ ، ولماذا جاء السمع بالإفراد ، وجاء الإبصار بالجمع ، ولم يأتْ بالاثنين على وتيرة [2] واحدة ؟

فنقول : إن المتكلم هو الله تعالى ، وكل كلمة منه لها حكمة وموضوعة بميزان ، وأنت حين تسمع ، تسمع أى صوت قادم من أى مكان ، لكنك بالعين ترى من جهة واحدة ، فإنْ أردتَ أن ترى ما على يمينك فأنت تتجه

(١) وهذا غير حاسة اللمس التى ندرك بها نعومة أو خشونة هذا القماش أو ذاك ، فهذا يُدرك بحاسة اللمس وعادة يكون هذا بإمرار كفِّ اليد على القماش ، أما إدراك (تخانة) هذا القماش أو ذاك فيكون بإدراكه بهذه الحاسة .

(٢) الوتيرة : الطريقة . مأخوذة من التواتر أى : التتابع ، وجَرَتِ الأشياء على وتيرة واحدة : أى : بنفس الصفة والطريقة . [اللسان : مادة (وتر)] .

بعينيك إلى اليمين ، وإنْ أردت أن ترى ما خلفك ، فأنت تغيِّر من وقفتك ، فالأذن تسمع بدون عمل منك ، لكن البصر يحتاج إلى عمليات متعددة ؛ لترى ما تريد.

وأيضاً فالسمع لا اختيار لك فيه ، فأنت لا تستطيع أن تحجب أذنك عن سماع شيء ، أما الإبصار فأنت تتحكم فيه بالحركة أو بإغلاق العين.

وجاء الحق - سبحانه وتعالى - بالسمع أولاً ؛ لأن الأذن هي أول وسيلة إدراك تؤدى مهمتها في الإنسان ، أما العين فلا تبدأ في أداء مهمتها إلا من بعد ثلاثة أيام إلى عشرة أيام غالباً.

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿**أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٣١)**﴾ [يونس]

والحق سبحانه يملكها ؛ لأنه خالقها وهو القادر على أن يصونها ، وهو القادر سبحانه على أن يُعَطِّلها ، وقد أعطانا الحق مثالاً لهذا في القرآن فقال عن أصحاب الكهف : ﴿**فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١)**﴾ [الكهف]

فَعَطَّل الله سبحانه أسماعهم بأن ضرب على آذانهم ، فذهبوا في نوم استمر ثلاثة قرون من الزمن وازدادوا تسعاً.

كيف حدث هذا ؟ . . إن أقصى ما ينامه الإنسان العادي هو يوم وليلة ، ولذلك عندما بعثهم الله تساءلوا فيما بينهم : ﴿**قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (١٩)**﴾ [الكهف]

ولكن هيئتهم لم تكن تدل على هذا ، فإن شعورهم قد طالت جداً ، بل إن لونها الأسود قد تبدل وأصبحوا شيبًا وكهولاً ، ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ **لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا .. (١٨)**﴾ [الكهف]

ونلحظ هنا ملحظاً يجب الانتباه إليه ، ففى هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه : ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٣١)﴾ [يونس]

بينما يقول فى آية أخرى فى سورة السجدة : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأبصار .. (٩)﴾ [السجدة]

ولا بد أن نتنبه إلى الفارق بين «الخَلْق» و«الجَعْل» ، و«المُلْك» ، فالخلق قد عرفنا أمره ، وملكية كل شىء لله - تعالى - أمر مُلْزِمٌ فى العقيدة ، ومعروف ، أما «الجَعْل» ، فهو توجيه ما خلق إلى مهمته.

فأنت تجعل الطين إبريقاً ، والقماش جلباباً ، هذا على المستوى البشرى ، أما الحق سبحانه وتعالى فقد خلق المادة أولاً ، ثم جعل من المادة سمعاً وبصراً ، وزاد من بعد ذلك ﴿أَمَّن يَمْلِكُ﴾ ، فمن خَلَق هو الله تعالى ، ومن جَعَلَ هو الله تعالى ، ومن مَلَكَ هو الله تعالى .

وهو سبحانه ينبهنا إلى ذلك ، فالأشياء النافعة لابن آدم يخلقها الله سبحانه ، ويجعلها ، ثم يُملِّكها له.

أما ذات الإنسان وأبعاضه من سمع وبصر وغيرهما وإن كانت قد خُلقت فى الإنسان ، وجُعلت له للانتفاع بها ، ولكنها ستظل مِلْكاً لله ، يبقيها على حالها ، أو يخطفها أو يصيبها بآفة ، أو يعطلها [1].

إذن : فهى خُلقت لله ، وجُعلت من الله ، وتظل مملوكة لله ، ويُصيِّرها كيف يشاء ، فدقات القلب والحب والكراهية والأمور اللاإرادية التى تعمل لصالح الإنسان هى مملكة الله .

(١) يقول سبحانه : ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [البقرة].

والحق سبحانه - على سبيل المثال - جعل لكلِّ حيوان جلداً ؛ ننتفع به وندبغه إلا جلدين اثنين : جلد الإنسان وجلد الخنزير ، وقد حُرِّم استخدام جلد الإنسان ؛ لكرامته عند خالقه ، وحُرِّم استخدام جلد الخنزير ؛ ليدُلَّ على حرمته ونجاسته .

وعلينا أن ننتبه إلى أن الحق سبحانه قد خَلَقَ وجَعَلَ ومَلَكَ ، ودليل ملكية الحق - سبحانه وتعالى - أنه حَرَّم الجنة على المُنتحر [1] ؛ لأنه لا يأخذ الحياة إلا واهبُ الحياة ، فأنت أيها الإنسان لستَ ملْكَ نفسك . ولا عذر لأحد ما دام قد وصله هذا البلاغ ، وعليه أن يستوعبه أما من لا يستوعب ؛ فيلقى مصيره .

لذلك فإنه سبحانه هو الذى رزق ، وهو - سبحانه - الذى يملك .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .. (٣١)﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن لكل كائن فى الوجود حياة تناسبه ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨)﴾ [القصص]

وما دام كل شىء سيأتى له وقت يهلك فيه ، فمعنى ذلك أن لكل شىء حياة ، إلا أن حياتنا نحن فى ظاهر الأمر عبارة عن الحس والحركة ، والإنسان يأكل الخضروات والخبز والفاكهة ، ومن هذه المأكولات وغيرها يكوِّن الجسمُ الحيوانات المنوية فى الرجل ، والبويضات فى المرأة ، ومنهما يأتى الإنسان ، وكذلك يخرج الكتكوت من البيضة المخصَّبة ؛ لأن البيضة

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن شرب سماً فقتل نفسه فهو يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٧٧٨) ومسلم (١٠٩) واللفظ لمسلم .

غير المخصبة لا تُخرِج كتكوتاً ؛ فهى بدون حياة ؛ ولذلك لا يتكون منها جنين ، فهناك فرق بين قابلية الحياة ، وبين الحياة نفسها .

وكذلك نواة التمرة ، إذا ما ألقيتْ دون أن توضع فى الأرض ، فلن تكون نخلة أبداً ، ولكن إذا ما زُرعتْ فى الأرض ، ووجدت لها البيئة المناسبة ؛ خرجَتْ نخلة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ..(٣١) ﴾ [يونس]

والتدبير هو عملية الإدارة لأى شىء ؛ حتى يؤدى مهمته ، وبالله من يُدير قلبك ؟ ومن يدير حركة أمعائك ؟ لتستخلص من الطعام ما يفيدك ، ثم تخرج ما لا يفيدك .

إياك أن تقول : إننى أنا الذى أدير ذلك؟ ونقول : كنت طفلاً فى مرحلة الطفولة ، فهل كنت تدير حركة قلبك أو أمعائك ؟ ومَنْ الذى يدير حركة رئتيك ؟ إن الذى يديرها هو خالقها ؛ لذلك اطمئنوا على حركة أجهزتكم التى لا دخل لكم فيها ؛ لأن الذى خلقها فيكم قيُّوم لا تأخذه سنة[1] ولا نوم ، ولا يؤوده حفظ ذلك[2] .

ويجيب مَنْ يسألهم الرسول ﷺ على كل تلك الأسئلة - بأمر الله تعالى- الإجابة التى حددها الله سبحانه سلفاً ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ .. (٣١) ﴾ [يونس]

إذن : أما كان يجب أن نرهف الآذان ، ونُعْمل الأبصار ؛ لنرى قدرة الله سبحانه الذى وهب لنا كل تلك النعم من رزق ، وسمع ، وبصر ، وإحياء ، وإماتة ، وإحياء من ميت ، وتدبير الأمر كله ؟

---

(١) السنة : النعاس من غير نوم . وقيل : السنة نعاس يبدأ فى الرأس ، فإذا صار إلى القلب فهو نوم . [اللسان مادة : وسن] .

(٢) لا يؤوده حفظ السموات والأرض : أى : لا يعجزه سبحانه ولا يثقل عليه . يقال : آده الأمر : بلغ منه المجهود والمشقة . [اللسان مادة : أود] .

أما كان يجب أن نقول: يا مَنْ خَلَقْتَنَا ماذا تنتظر منَّا ؛ لنعمِّر الكون الذى أوجدتنا فيه ؟ فكيف - إذن - يتجه البعض بالعبَادة لغير الله تعالى ؛ لشمس أو قمر ، أو ملائكة ، أو نبىّ ، أو صنم ؟ كيف ذلك والعبادة معناها إطاعة العابد للمعبود فيما يأمر به ؟ وهل هناك إله بغير منهج يأمر به عباده ، ومن عبد الشمس هل كَلَّفته بشىء ؟ . . لا .

إذن: يتساوى عندها مَنْ عبدها ، ومَنْ لم يعبدها ، وفى هذا نقض لألوهية كل معبود غير الله تعالى.

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ ..(٣١)﴾ [يونس]

فما دام الله سبحانه هو الذى خلق كل ذلك ، وأنزل منهجاً ، فعليكم أن تجعلوا بينكم وبينه وقاية ؛ تحميكم من صفات الجلال ، وتقرّبكم من آثار صفات الجمال [1] وأن تسمعوا إلى البلاغ من الرسل عليهم السلام ، وإلى مطلوباته سبحانه.

وما دام كل إنسان سيجيب عن أسئلة هذه الآية ، ويعترف أن الخالق سبحانه والمالك هو الله تعالى ، فعلى الإنسان أن يقى نفسه النار.

والعجيب أن الجميع يجيب بأن الله سبحانه هو الذى خَلَق ، فالحق سبحانه يقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧)﴾ [الزخرف]

ويقول أيضاً: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ..(٢٥)﴾ [لقمان]

وما دام الله تعالى هو الذى خلق ، ورزق ، ودبَّر الأمر ، فكيف تتركون عبادته وتتجهون لعبادة غيره ؟

---

(١) صفات الجمال هى صفات الرحمة والمغفرة والرضا ، أما صفات الجلال فهى صفات القهر والعلو وكونه سبحانه هو العزيز . فعلى العبد أن يهرب من آثار صفات الجلال ليذوق حلاوة آثار صفات الجمال ؛ ليدخل فى عباد الله المتقين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ[1] ﴿٣٢﴾ ﴾

وقد جاء قول الحق سبحانه : ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ إشارة منه إلى ما ذكره قَبْلاً من الرزق ، وملكية السمع والأبصار ، وقدرة إخراج الحيّ من الميت ، وإخراج الميت من الحى ، وتدبير الأمر .

إذن : فقوله سبحانه : ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى أشياء ونعم كثيرة ومتعددة أشار إليها بلفظ واحد ؛ لأنها كلها صادرة من إله واحد .

﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس]

ولا يوجد فى الكون حقَّان[2] ، بل يوجد حق واحد ، وما عداه هو الضلال ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس]

إذن : أنتم إنْ وجَّهتم الأمر بالربوبية إلى غيره ؛ تكونون قد ضللتم الطريق ، فالضلال أن يكون لك غاية تريد أن تصل إليها ، فتتجه إلى طريق لا يوصِّل إليها . فإن صُرفتم من الإله الحق فأنتم تصلون إلى الضلال .

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بما يبين أنه لا يوجد إلا الحق أو الضلال ، فيقول سبحانه : ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس]

---

(١) فأنى تُصرفون : أى : كيف تصرفون عقولكم إلى عبادة ما لا يرزق ولا يُحيى ولا يميت . [تفسير القرطبى ٤/٣٢٦٧].

(٢) الحق واحد لا بمنظور الفكر البشرى ولكنه بمنهج الحق ذاته ؛ لأن حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق خلافاً للسفسطائية ، وخلافاً لمن يعتقدون أن الباطل حق ، والحق باطل فليس الحق خاضعاً لتخريف العقول ، وتخريف الفكر بغية المخالفة والمغالطة .

أى: أنكم إن انصرفتم عن الحق - سبحانه وتعالى - فإلى الضلال ، والحقُّ واحد ثابت لا يتغيَّر.

ومَنْ عبد الملائكة أو الكواكب أو النجوم ؛ أو بعض رسل الله - عليهم السلام - أو صنماً من الأصنام ؛ فقد هوى إلى الضلال .

وإن كنتم تريدون أن نجادلكم عقلياً ، فَلْنقرأ معاً قول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

قوله : ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من رزق الله تعالى للبشر جميعاً، ومن ملْك السمع والبصر ، ومن تدبير الأمر كله ، ومن إخراج الحىّ من الميت ، وإخراج الميت من الحى ، ذلك هو الإله الحق سبحانه ، وقد ثبت ذلك بسؤاله سبحانه وتعالى هذا السؤال الذى علم مُقدَّماً ألا إجابة له إلا بالاعتراف به إلهاً حقاً : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ .

ومثل هذه القضية تماماً قَوْلُ الحق سبحانه: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يونس]

لأنهم أساءوا الفهم فى الوحدانية ، وفى العقيدة ، واستحقوا أن يُعذَّبوا ؛ لأنهم صرفوا الحق إلى غير صاحب الحق.

وقد كان هذا خطاباً للموجودين فى زمن النبى ﷺ ، لكن بعضهم آمن بالله تعالى ؛ ولذلك فالعذاب إنما يحُلّ على مَنْ لم يؤمن.

وهذا القول متحقق فيمَنْ سبق فى علم الله سبحانه أنهم لا يؤمنون ،

وكذلك حقَّتْ كلمة ربك على هؤلاء الذين فسقوا ولا ينتهون عن فسقهم وكفرهم ، وإصرارهم على الانحراف بالعبودية لغير الله الأعلى والرَّبِّ الحق سبحانه وتعالى.

والدليل على العلم الأزليّ لله سبحانه ما نقرأه في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ۝٦﴾[1] [البقرة]

إذن: معلوم لله تعالى مَنْ يؤمن ومَنْ لا يؤمن ، ومَنْ يستمر ويُصرّ على كفره ؛ هو الذى يَلْقَى العذاب ، بعلم الله تعالى فيه أنه لن يؤمن.

ثم يذكر الحق بعد ذلك ما يمكن أن يُجادَلَ به الكافرون بمنطق أحوالهم ، ففى ذوات نفوس غير المؤمنين بإله توجد نزعة فطرية لفعل الخير ، وتوجيه غيرهم إليه ، وهو موجود حتى فى الأمم غير المؤمنة ، فكل قوم يُوجِّهون إلى الخير بحسب معتقداتهم ، فنجد بين الشعوب غير المؤمنة بإله حكماء وأطباء وعلماء ، وهؤلاء يوجهون الناس إلى بعض الخير الذى يرونه.

ونجد الطفل الصغير يكتسب المعتقدات والعادات والاتجاهات من والديه ، ومما يسمعه من توجيهاتهم ، فتجده يبتعد عن النار مثلاً أو الكهرباء ؛ لأنه ترسخت فى ذهنه توجيهات ونصائح غيره ؛ بل إنه يتعلم كيف يتعامل مع هذه الأشياء دون أن تصيبه بالضرر.

إذن: يوجد توجيه من الخلق إلى الخلق لجهات الخير ، ألا نجد فى الدول غير المؤمنة بإله مَنْ يرشد الناس إلى الطرق التى يمكن أن يسيروا فيها

(١) فى الآية إشارة إلى مجتمع النفاق ومجتمع النفاق يعيش بين مجتمعين : المجتمع الإيمانى مصداقاً لقوله تعالى : ﴿أولئك علىٰ هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ۝٥﴾ [البقرة] ، والمجتمع الكافر مصداقاً لقوله تعالى : ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ۝٣٩﴾[النور] ، ومجتمع النفاق أخطر من مجتمع الكفر ، فالكفر معلن وأنا مستيقظ له ، أما النفاق فهو خداع .

باتجاهين ، والطرق التى عليهم أن يسيروا فيها باتجاه واحد ؟

ألا يوجد مَنْ يدل الناس على المنحنيات الخطرة على الطرق ، وكذلك يوجّههم إلى ضرورة خفض سرعة السيارات أمام مدارس الأطفال ؟

نعم ، يوجد فى البلاد غير المؤمنة مَنْ يفعل ذلك .

إذن : فالتفكير فى الخير لصالح الأمم أمر طبيعى غريزى موجود فى كل المجتمعات ، وإذا كان التوجيه للخير يحدث من الإنسان المساوى للإنسان ، ألا يكون الله سبحانه هو الأحق بالتوجيه إلى الخير ، وهو سبحانه الذى خلق الإنسان ، وخلق له ما يقيم حياته على الأرض ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ[1] ﴿٣٤﴾ ﴾

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يسألهم : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [يونس]

ومعنى أن الله يسأل القوم هذا السؤال أنه لا بد أن تكون الإجابة كما أرادها هو سبحانه . وإنْ قال قائل : وكيف يأمنهم على مثل هذا الجواب ، ألم يكن من الجائز أن ينسبوا هذا إلى غير الله ؟

---

(١) الإفك : الكذب والإثم . أنّى تؤفكون : كيف تكذبون ؟! [اللسان : مادة (أفك)] والإفك أخطر من الكذب ، حيث إن الإفك فى افتراء متخيل ومبالغة باهتة لها التأثير المضر على المجتمعات والأفراد ؛ ولذلك يقول الحق : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [النور] ، ولم يقل بالكذب مع أنه كذب ، ولكنه عبر بالإفك ؛ لأن فيه افتراء على كرامات الناس وقيم المجتمع .

نقول: إن هذا السؤال لا يُطرح إلا وطارحه يعلم أن له إجابة واحدة ، فلن يجد المسئول إجابة إلا أن يقول: إن الذى يفعل ذلك هو الله سبحانه ولا يمكن أن يقولوا: إن الصنم يفعل ذلك ؛ لأنهم يعلمون أنهم هم الذين صنعوا الأصنام ، ولا قدرة لها على مثل هذا الفعل.

فالإجابة معلومة سلفاً: إن الله سبحانه وتعالى وحده هو القادر على ذلك ، وهذا يوضح أن الباطل لجلج والحق أبلج [1] ، وللحق صَوْلة [2] ؛ فأنت ساعة تنطق بكلمة الحق فى أمر ما ، تجدها قد فعلت فعْلها فيمن هو على الباطل ، ويأخذ وقتاً طويلاً إلى أن يجد كلاماً يرد به ما قلته ، بل يحدث له انبهار واندهاش ، وتنقطع حجته [3] .

ولذلك لم يَقُل الحق سبحانه هنا مثلما قال من قبل: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ .. (٣١)﴾ [يونس]

بل قال : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. (٣٤)﴾ [يونس]

وجاء بها الحق سبحانه هكذا ؛ لأنهم حينما سُئلوا هذا السؤال بهرهم الحق وغلب ألسنتهم وخواطرهم ؛ فلم يستطيعوا قول أى شىء.

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - نجد وكيل النيابة يضيّق الخناق على المتهم بأسئلة متعددة إلى أن يوجه له سؤالاً ينبهر المتهم من فرط دقته وليس له إلا إجابة واحدة تتأبى طباعه ألا يجيب عنه ، فيجيب المتهم معترفاً .

---

(١) اللجلجة: اختلاط الأصوات. قال أبو زيد: يقال: «الحق أبلج، والباطل لجلج»، والأبلج: المضىء المستقيم. أما اللجلج فهو المختلط المُعْوَجّ والمتردد غير المستقر. [اللسان: مادة (لجج) - بتصرف].

(٢) الصولة: الوثْبة والقوة على إزهاق الباطل.

(٣) وذلك مثلما حدث من إبراهيم عليه السلام مع النمرود، وقد قصَّه الله عز وجل فى قرآنه: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] ، فبهت ، أى: فوجىء بالحجة ومنطقها فتحيَّر فى جوابه ولم يجد رداً.

والإنسان - كما خلقه الله تعالى - صالح لأن يؤمن ، وصالح لأن يكفر ، فإرادته هنا تتدخل ، لكن أبعاضه مؤمنة عابدة مسبحة ، فاللسان الذى قد ينطق الكفر ، هو فى الحقيقة مؤمن مُسبِّحٌ ، حامد ، شاكر ، لكن إرادة الإنسان التى شاءها الله - سبحانه - متميزة بالاختيار قد تختار الكفر - والعياذ بالله - فينطق اللسان بالكفر .

وقد تأتمر اليد بأمر صاحبها ؛ فتمتد لتسرق ، أو تسعى الأقدام - مثلاً - إلى محل احتساء الخمر ، ولكن هل هذه الفاعلات راضية عن تلك الأفعال ؟

لا ، إنها غير راضية [1] ، إنما هى خاضعة لإرادة الفاعل .

وحين يسأل السؤال : من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ فاللسان بفطرية تكوينه المؤمنة يريد أن يتكلم ؛ لكنه لا يملك إرادة الكلام ، فيبين الحق سبحانه للنبى ﷺ أن يجيب نيابة عن الأبعاض المؤمنة ، فيقول سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ وهو بذلك يؤكد الصيغة ، ويكفى أن يقول محمد ﷺ هذا القول مُبلِّغاً عن ربه ، وينال هذا القول شرف العندية : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

والإفك : هو الكذب المتعمَّد ، وهو الافتراء ، وهناك فارق بين الكذب غير المتعمد والكذب المتعمد ، فالكذب غير المتعمد هو من ينقل ما بلغه عن غيره حسبما فهم واعتقد ، وهو لون من ألوان الكذب لا يصادف الحق ، ويتراجع عنه صاحبه إن عرف الحق .

أما الافتراء فهو الكذب المتعمد ، أى : أن يعلم الإنسان الحقيقة

---

(١) بدليل أنها ستأتى يوم القيامة وتصبح هى الشاهدة على الإنسان ، يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور] .

ويقلبها [1] ؛ ولذلك نجد العلماء قد وقفوا هنا وقفة ؛ فمنهم من قال : هناك صدق ، وهناك كذب ، لكن علماء آخرين قالوا : لا ، إن هناك واسطة بين الصدق والكذب .

ومثال ذلك : أن يدخل ابنٌ على أبيه ، بعد أن سمع هذا الابن من الناس أن هناك حريقاً فى بيت فلان ، فيقول الابن لوالده : هناك حريق فى بيت فلان ؛ فيذهب الأب ليعاين الأمر ، فإن وجد حريقاً فقول الابن صدق ، وإن لم يكن هناك حريق فالخبر كاذب ، ولكن ناقل الخبر نقله حسبما سمع .

إذن : فهناك فَرْق بين صدق الخبر وصدق المُخْبر ، فمرة يَصْدُق الخبر ويصدُق المخبر ، ومرة يصدُق الخبر ولا يصدُق المخبِر ، ومرة يصدق المخبر ولا يصدق الخبر .

فهُنا أربعة مواقف ، والذين قالوا إن هناك واسطة بين الصدق والكذب هم مَنْ قالوا : إن الصدق يقتضى مطابقة بين الواقع والخبر . أما الكذب فهو ألا يطابق الواقع الخبر .

لذلك يجب أن نفرِّق بين صدق الخبر فى ذاته ، وصدق المخبر ؛ بأنه يقول ما يعتقد . أما صدق الخبر فهو أن يكون هو الواقع .

وقول الحق سبحانه : ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أى : فكيف تقلبون الحقائق ؛ لأنكم تعرفون الواقع وتكذبونه كذباً متعمداً ؟

وكلنا نعلم قول الحق سبحانه : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ [2] (٥٣)﴾ [النجم]

---

(١) المؤتفكة : البلدة التى ائتُفكت بأهلها أى : انقلبت . والائتفاك : الانقلاب . [اللسان : مادة (أفك)] .
وقال ابن كثير : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣)﴾ [النجم] : يعنى مدائن قوم لوط قلبها الله - تعالى - عليهم ، فجعل عاليها سافلها . [تفسير ابن كثير : ٤/٢٥٩ - بتصرف] .

(٢) وهو الذى قصده رسول الله ﷺ فى قوله : «إياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٠٧) والبخارى فى صحيحه (٦٠٩٤) .

والمؤتفكة: هى القرى التى كُفئت أعلاها إلى أسفلها، كذلك الكذّاب يقلب الحقيقة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

وهـذا أمر للرسول ﷺ بأن يسألهم سؤالاً جديداً، لا إجابة له إلا ما يفرضه الواقع، والواقع يؤكد أن الهداية لا تكون إلا للحق؛ لأن كل كائن مخلوق لغاية، فلا شىء يُخلق عبثاً(١).

ونحن بقُدرتنا المحدودة نصنع (الميكرفون) و(التليفزيون) أو الثلاجة أو السرير وغيرها، كلٌّ منها له غاية، وكل له قوانين صيانته الخاصة به، والذى يحدِّد الغاية من هذا المصنوع أو ذاك هو صانعه، ويضع لها قوانين صيانتها؛ لتؤدّى غايتها، فالغاية من أى شىء توجد قبل الشىء نفسه؛ ليوجد الشىء على مقتضى الغاية منه.

وآفة العالم الآن أنهم يعلمون أن الله سبحانه خلق الإنسان، ولكنهم يصنعون من عندهم قوانين لصيانة الإنسان وحركة الإنسان، وهذا غباء وغفلة من الذين يفعلون ذلك، كان عليهم أن يتركوا أمر صيانة الإنسان للقوانين التى وضعها خالق الإنسان سبحانه.

---

(١) يقول تعالى فى سورة المؤمنون: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون]
وقال سبحانه فى الذاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات] فللخلق غاية وحكمة وهى العبادة بمعناها المطلق أى: الطاعة.

فالحق سبحانه وتعالى قد حدد الغاية من خَلْق الإنسان وحدّد قوانين صيانته ، والشر الموجود حالياً بسبب الجهل بغاية الإنسان ، والعدول عن المنهج الذى يجب أن يسير عليه الإنسان ، فقال الحق سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ .. (٣٥) ﴾ .

أى : هل من هؤلاء الشركاء مَنْ يهدى الإنسان إلى غايته ؟ هل قالت الشمس - مثلاً - غايتها ؟ هل قالت الملائكة غايتها ؟ هل قالت الأشجار أو الأحجار أو الرسل الذين عبدتموهم شيئاً غير مراد الله تعالى ؟

إنهم آلهة لا يعرفون الغاية من العابد لهم ، ولا يعرفون الطريق الموصل إلى تلك الغاية .

ولذلك يأتى القول الفصل :﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ .. (٣٥) ﴾ .

فالله هداك أيها الإنسان إلى الحق فى كل حركة تتحركها بالمنهج الذى أنزله الله سبحانه مكتملاً على رسوله ﷺ من بدء « لا إله إلا الله » إلى إماطة الأذى عن الطريق [1] ، وهو منهج مستوعب مستوفٍ لكل حركات الإنسان .

وجاءت الإجابة من الله تعالى على لسان رسوله ﷺ ؛ لأنهم انبهروا بالسؤال وتلجلجوا ولم يوجد عند أى منهم قدرة على المعارضة ، فالغاية من خلق الإنسان وغيره يوجزها قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات]

والعبادة ليست أركان الإسلام فقط، بل هى عمارة الكون كبنيان حىّ

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة. فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان». أخرجه البخارى فى صحيحه (٩)، ومسلم فى صحيحه (٣٥).

للإسلام ، والذى حدد الغاية هو الخالق سبحانه ، وهو سبحانه الذى يحدد طريق الوصول إليها .

ونحن حين نرغب فى الوصول إلى مكان فى الصحراء مثلاً ، إنما نحدد أولاً المكان ، ونختار طريق الوصول ، فإن كان الطريق المستقيم مليئاً بالعقبات والجبال ، فإنك ستضطر للانحراف عن هذا الطريق وصولاً إلى غايتك ، فهذا الطريق المعوج هو الطريق المستقيم ؛ لأنه الطريق الذى يجنبنا العقبات .

ومثال ذلك : السيول التى تنزل على هضاب الحبشة ، فاختارت لنفسها المجرى السهل فكان نهر النيل ، فلا أحد قد حفر النيل مثلما حفرنا الرياحات أو قناة السويس ، بل نزل السيل واختار لنفسه الطريق السهل فسار فيه بين التعاريج والرمال والصخور .

ولذلك أنت تجد كل ما لا دخل للبشر به قد يتعرج لينفذ ، أما ما صنعه البشر فلا يستطيع ذلك .

وكل خلق لا بد له من غاية ؛ لذلك نجد سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام يقول : ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الشعراء]

فمن خلق هو الذى يحدد الغاية ؛ لأن هذه الغاية توجد عنده أولاً ليخلق ، وتتجلى الدقة فى قول القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فلم يقل : الذى خلقنى يهدينى ، بل قال :﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ مما يدل على أن هذه القضية ستخالَف ، وبعد أن يخلق الإنسان سيقوم بعض الناس - حماية لمصالحهم - بوضع طريق أخرى تخالف الغاية ؛ فتوصل إلى الضلال .

أما الحق سبحانه فقد أنزل القرآن فيه الهداية الحقة ، فالذى خلق هو

الذى يقتن ، ولذلك يذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام :
﴿ والَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الشعراء]

وبهذا القول وصل سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى أن الذى رزق الآباء قدرة استنباط الرزق مطعماً ومشرباً هو الله سبحانه .

وذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء]

فالإماتة والإحياء هما من الحق سبحانه ، فلا أحد يسأل عمن يملك الإماتة والإحياء ، أما عن شفاء المرض فقال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ[1] ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء]

فأنت قد تذهب إلى الطبيب وتظن أنه هو الذى يشفيك ؛ بل هو يعالج ، ولكن الله هو الذى يشفى .

وهكذا نعلم أن قول سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الشعراء]

هو كلام منطقى ؛ لأن خالق الشيء هو الذى يهدى إلى الغاية من الشيء ؛ فالغاية أولاً ، ثم الخلق ، ثم توضيح الطريق الموصل إلى تلك الغاية ، فإذا خولف فى شيء من ذلك فلا صلاح لكون أبداً .

وتجد فى القرآن على لسان سيدنا موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه]

---

(١) عن أبى رمثة رضى الله عنه قال : انطلقت مع أبى نحو النبى ﷺ ، فإذا هو ذو وفرة ، بها ردع حناء وعليه بردان أخضران فقال له أبى : أرنى هذا الذى بظهرك فإنى رجل طبيب . قال : « الله الطبيب ، بل أنت رجل رفيق ، طبيبها الذى خلقها » .

فما دام الحق سبحانه قد خلق فهو يهدى إلى السبيل الموصل إلى الغاية ، ويقول القرآن أيضاً : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ① الَّذِى خَلَقَ فَسوَّىٰ ② وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ[1] ③﴾ [الأعلى]

وهكذا يتأكد لنا أنه ما دامت هناك غاية ، فلا بد من وجود طريق يهدينا إليه من خَلَقَنَا .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ .. ㉟﴾ لأنه سبحانه هو الذى خلق ؛ ولذلك فمن المنطقى أن يأتى بعد ذلك التساؤل : ﴿ أَفَمَن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّى إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ .. ㉟﴾ ؟

وسبب وجود اللام فى قوله : ﴿يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ هو النظرة إلى الغاية ، وسبب وجود : ﴿إِلَى الْحَقِّ﴾ هو لفت الانتباه إلى أن الوصول إلى الغاية يقتضى طريقاً ، فأراد الحق سبحانه فى آية واحدة أن يجمع التعبيرين معاً .

ونحن نعلم أن هذه الآية قد نزلت فى الذين اتخذوا لله شركاء ، فهم يعترفون بالله تعالى ولكنهم يشركون به غيره ، فالله سبحانه وتعالى تفرَّد بالألوهية بربوبيته للخلق ؛ لأنه خلق من عَدَم ، ورزق من عُدْم ، وخَلَق لنا وسائل العلم ودبَّر لنا الأمر ، وأخرج الحى من الميت ، وأخرج الميت من الحى ، وهدى للحق .

فأين - إذن - هؤلاء الشركاء الذين اتخذتموهم مع الله تعالى ؟ وهل صنع واحد منهم أو كُلُّهم مجتمعين شيئاً واحداً من تلك الأشياء[2] ؟

---

(١) ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ .. ②﴾ [الأعلى] أى : خلق الخليقة وسَوَّى كل مخلوق فى أحسن الهيئات . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ .. ③ ﴾ [الأعلى] . قال مجاهد : هدى الإنسان للشقاوة والسعادة وهدى الأنعام لمراتعها . [تفسير ابن كثير : ٤/ ٥٠٠].

(٢) ويقول سبحانه فى سورة الروم : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ㊵ ﴾ [الروم] .

لذلك قال سبحانه : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ .. (٣٥) ﴾ [يونس]

إذن : فالذى يهدى هو الذى خلق ، وهؤلاء الذين أشركوا اعترفوا بالله خالقاً بشهاداتهم حين قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف]

إذن : فالذين أشركوا قد ارتكبوا الإثم العظيم ، وهؤلاء الشركاء إما أن يكونوا من الملائكة ، أو من الأنبياء والرسل الذين فُتن بهم بعض الناس ، وهناك من اتخذ وسائط أخرى مثل : الشمس والقمر والنجوم ؛ وهذه أشياء عُلوية ، وبعض الناس اتخذوا وسائط سفلية كالأشجار والأحجار ، فهل أى شىء من كل ذلك يهدى إلى الحق ؟ وما منهج أى منهم إذن ؟ وكيف بلّغوكم به ؟

إن كل هؤلاء يعلمون أن أيّاً منهم لا يستطيع أن يَهدى ، بل هو يُهْدَى من الله سبحانه وتعالى ، فمن أين قلتم إن الملائكة ستهديكم؟ أو من أين جاء الذين فُتنوا برسولهم واتخذوه إلهاً ؟ ومن أين جاء هذا الرسول بمنهجه ؟

إن كل كائن لا يَهدى إلا بعد أن يُهدى من الله أولاً ، وإن كانت الأشياء - المتخذة شركاء - لا هداية لها ، ولا منهج ، ولا عقل ، ولا تفكير ، كالشمس والقمر والنجوم فى العلويات ، والأشجار والأحجار فى السفليات ، فماذا قالت هذه الأشياء ؟ إنها لم تقل شيئاً .

وهكذا لا يستقيم أمر اتخاذهم شركاء مع الله ، حتى الملائكة ، فالله هو الذى يختار منهم المَلَكَ الذى يُبلِّغ عن الله سبحانه ، وكذلك الرسل عليهم السلام : ﴿ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ .. (٣٥) ﴾ [يونس]

﴿ لاَّ يَهِدِّى ﴾ تقرأ هكذا ، وللغة فيها عملية تخفيف جَرْس لسلامة نطقها واستقامة اللغة العربية ، فنحن نعرف أن ﴿يَهِدِّى﴾ يعنى : يهتدى . . أصلها يهتدى . . ويهتدى فيها هاء ساكنة وتاء ودال وياء . . وفيها تقارب لمخارج الحروف ، وهذا التقارب يجعل المعنى غائماً ، والنطق ثقيلاً ، فتقوم اللغة بعملية إبدال وإدغام ، وتخلّص من التقاء الساكنين فتصل إلى مسامعنا كما أنزلها الله تعالى لسلامة النطق وجمال المعنى ؛ لأن القرآن أدَّب اللغة بكلام السماء ؛ لتكون خالدة اللفظ والمعنى . فإذا كنتم على طريق هداية ، فالأصل فى الهداية هو الله تعالى .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . . (٣٥) ﴾ [يونس]

أى : ماذا أصاب عقولكم لتحكموا هذا الحكم ؛ فتشركوا بالله ما لا منهج له ، أو له منهج ولكنه موصول بالله تعالى جاء ليبلغه لهم ؟

وساعة تسمع ﴿كَيْفَ﴾ فهى للاستفسار عن عملية عجيبة ما كان - فى عُرْف العاقل - أن تحدث . كأن تقول : « كيف ضربت أباك ؟ » أو « كيف سببت أمك ؟» ، وهذا كله من الأمور التى تأباها الفطرة ويأباه الطبع والدين .

وقوله سبحانه : ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ كأنه أمر عجيب ما كان يصح أن يحدث ؛ لأن الحق سبحانه وحده هو الإله ، والحق هو الشىء الثابت الذى لايتغَّير غاية وطريقاً . والله سبحانه وحده هو الذى حدد لنا الغاية والطريق الموصل إليها ، وهو سبحانه القائل : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ . .(٢٥) ﴾ [يونس]

والمنهج هو الطريق الذى يوصل إلى دار السلام من آفة الأغيار [1] ؛

(١) أى : أن أحوال الدنيا تتغير وتتبدل ولا تثبت على حال واحدة .

لأن الدنيا كلها أغيار ، فأنت قد تكون قوياً ثم تضعف أو صحيحاً فيصيبك المرض ، أو غنياً فتفتقر ، أو مبصراً فيضيع منك بصرك ، أو تكون صحيح الأذن سميعاً فتصير أصم بعد ذلك [1] .

إذن : فهى دنيا أغيار ، وهَبْ أن إنساناً أخذ من دنياه كل نصيبه عافية وأمناً وسلامةً وغنًى وكل شيء ؛ سنجده فى قلق من جهتين : الجهة الأولى أنه يخاف أن يفارقه كل هذا النعيم ، أو يخاف أن يترك هو هذا النعيم ، هذا ما نراه فى حياتنا .

إذن : فالدنيا بما فيها من أغيار لا أمان لها ؛ لنفهم أن كل عطاءات المخلوق إنما هى هبة من الخالق سبحانه وتعالى ؛ لأنها لو كانت من ذاتك لاستطعت الحفاظ عليها ، ولكنها هبَاتٌ من الحق الأعلى سبحانه .

والأمر الموهوب قد يصبح مسلوباً .

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا .. ﴿٣٦﴾ ﴾ يفيد أن بعضهم كان يتبع يقيناً ؛ لأن مقابل الظن [2] هو اليقين ، فالنسب التى تحدث

---

(١) ولأن الدنيا دنيا أغيار أوصى رسول الله ﷺ رجلاً وهو يعظه : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤/ ٣٠٦) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس ، وأقره الذهبى .

(٢) الظن كما أنه شكٌ فإنه أيضاً يقين إلا أنه ليس بيقين عيان ، إنما هو يقين تدبُّر ، فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا علم ، وهو يكون اسماً ومصدراً ، وجمع الظن : ظنون . قال تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الأحزاب] [لسان العرب : مادة (ظنن)] .

بين الأشياء تربط بين الموضوع والمحمول ، أو المحكوم والمحكوم عليه ، وهى نسب ذكرناها من قبل ، ونذكّر بها ، فهناك شىء أنت تجزم به، وشىء لا تجزم به . وما تجزم به وتُدلّل عليه هو علم يقين ، أما ما لا تستطيع التدليل عليه فليس علم يقين ، بل تقليد ، كأن يقول الطفل :
﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① ﴾ [الإخلاص]

وهذا حق ، لكن الطفل لا يستطيع أن يدلل عليه أو أن يقال شىء ومن يقوله جازم به ، وهو غير واقع ؛ فذلك هو الجهل .

والعلم هو القضية المجزوم بها ، وهى واقعة وعليها دليل ، على عكس الجهل الذى هو قضية مجزوم بها وليس عليها دليل .

والظن هو تساوى نسبتين فى الإيجاب والسلب ، بحيث لا تستطيع أن تجزم بأى منهما ؛ لأنه إن رجحت كفة كانت قضية مرجوحة ، والقضية المرجوحة هى شك أو ظن أو وهم . فالظن هو ترجيح النسب على بعضها . والشك هو تساوى الكفتين .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا .. ㊱ ﴾ يبين لنا أن الذين كانوا يعارضون رسول الله ﷺ فعلوا ذلك إما عناداً - رغم علمهم بصدق ما يبلغ عنه ، وإما أنهم يعاندون عن غير علم ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ .. ㊴ ﴾ [يونس]

وكان الواحد منهم إذا تمعَّن فى البلاغ عن الله تعالى والأدلة عليه ، يعلن الإيمان ، لكن منهم من تمعن فى الأدلة وظل على عناده ، والذين اتبعوا الظن إنما اتبعوا ما لا يغنى من الحق شيئاً .

لذلك يبيّن لهم الحق سبحانه أنه عليم بخفايا نفوسهم ، ويعلم إن كان

إنكارهم للإيمان نابعاً من العناد أو من العجز عن استيعاب قضية الإيمان ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ..(٣٦) ﴾ [يونس]

إذن : فقد علم الله سبحانه أزلاً أن بعضهم فى خبايا نفوسهم يوقنون بقيمة الإيمان ، لكنهم يجحدونها ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى عليم ، ولا يخفى عليه أنهم كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وبعضهم لم يفهم قيمة الإيمان ، ومن علم منهم قيمة الإيمان جحدها ، عناداً واستكباراً .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل]

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٧) ﴾

وحين تستمع للقرآن وما فيه من سر الأعداد والإخبار بالمغيبات التى لا تخضع لمنطق الزمان ، ولا لمنطق المكان ، فالفطرة السليمة توقن أن هذا القرآن لا يمكن أن يُفتَرى ، بل لا بد أن قائله ومُنزِّله عليم خبير ؛ لأن القرآن جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب السابقة .

أى : أن ما به دائماً هو أمام الناس ، أو مواجه لهم ، وهو كتاب مصدِّق للكتب السابقة من قبل تحريفها كالتوراة والإنجيل والزبور [1] ، وهى الكتب التى سبقت القرآن نزولاً ، لا واقعاً ، فجاء القرآن مصدِّقاً لها .

أى : هى تصدقه ، وهو يصدقها من قبل تحريفها ، وهى الكتب التى بشَّرت بمحمد ﷺ رسولاً ، مثلما جاء فى القرآن عن تصديق عيسى عليه السلام بمجىء محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. ⟨٦⟩ ﴾ [الصف]

فلما جاء أحمد (محمد ﷺ) ونزل عليه القرآن صدَّق الإنجيل فى قوله هذا ، وما جاء فى القرآن من عقائد أصيلة هى عقائد جاءت بها كل الكتب السماوية ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ⟨١٦٣⟩ ﴾ [النساء]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. ⟨١٣⟩ ﴾ [الشورى]

إذن : فهناك أصول جاءت بها كل الكتب السماوية ، وهناك كذلك أخبار أخبرت عن حدوثها الكتب السماوية ، وأبلغنا رسول الله ﷺ بالقرآن وفيه تلك الأخبار ، فمن أين جاء محمد ﷺ بتلك العقائد الصحيحة ،

---

(١) الزبور : هو كتاب داود عليه السلام . وأصله : كل كتاب مزبور أى : مكتوب . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا .. ⟨٥٥⟩ ﴾ [الإسراء] .

وتلك الأخبار الموجودة فى الكتب السابقة ، وهو ﷺ لم يكن من أهل الكتاب ، ولا عَلِمَ منهم شيئاً [(١)] ؟

إذن : فعندما يقول محمد ﷺ ما جاء ذكره فى الكتب السابقة على القرآن ، فهذه الكتب مصدقة لما جاء به محمد ﷺ ؛ لأن هذه الأخبار قد وقعت ، وهذا تأكيد لصدقه ؛ لأنه بشهادة أهل زمانه لم يجلس إلى معلِّم ، ولم يقرأ كتاباً ، وتاريخه وسيرته معروفة ؛ لأنه من أنفسكم ، ولم يُعْلَم عنه أنه قد زاول كلاماً بليغاً ، أو خطب فى قوم قبل الرسالة ، أو قال شعراً .

وبعد ذلك فوجىء هو - كما فوجئتم أنتم - بمجىء هذا البيان الرائع ، فمن أين جاء به ؟

أنتم تقولون إنه هو الذى جاء به ، لكنه ﷺ ينسب الرفعة لصاحبها ، ويعلن أنه ﷺ مُبلِّغ فقط ، فيقول ما أمره الله به أن يقوله : ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

ويحضُّ القرآن الكريم النبىَّ ﷺ أن يسألهم : هل لاحظوا على كلماته - من قبلُ - البلاغةَ والفصاحةَ أو الشعرَ ؟!

ولننظر فى «ماكُنَّات» [(٢)] القرآن الكريم ، وهى الآيات التى يقول فيها الحق سبحانه : ﴿وَمَا كُنتَ﴾ مثل قوله سبحانه :

---

(١) وفى هذا يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)﴾ [العنكبوت] .

(٢) « ماكُنَّات » القرآن هى الآيات التى وردت فيها لفظة : ﴿مَا كُنتَ﴾ ، وهذا فى إحدى عشرة آية هى : [آل عمران : ٤٤] ، [هود : ٤٩] ، [يوسف : ١٠٣] ، [القصص : ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٨٦] ، [العنكبوت : ٤٨] ، [الشورى : ٥٢] .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ[1] أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. (٤٤) ﴾ [آل عمران]

وهذا أمر ثابت فى الأخبار .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾ [القصص]

والوحى إلى موسى - عليه السلام - والمكان الذى نزل فيه ذلك الوحى أمر ثابت فى الأخبار .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ[2] تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) ﴾ [القصص]

وكثير من هذه الآيات تجعل محمداً ﷺ وكأنه يسأل المعاصرين له : كيف أخبرت بوقائع وأخبار لم أكن موجوداً فى زمانها أو مكانها ؟

لا بد - إذن - أن الله الحق - سبحانه - هو الذى أخبرنى بما وافق ما عندكم من أخبار .

وبعد ذلك جاء القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ .. (٩٧) ﴾ [البقرة]

أى : أنه الكتاب الذى يضم صدق كل حدث قادم ؛ لأن القرآن خرق حُجُبَ وحُجُزَ الماضى والمستقبل .

ونحن نعلم أن الأشياء الغيبية تحدث بسببين ؛ الأول : أن يتكلم عن

(١) الأقلام هنا : القداح ، وهى قداح جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم على جهة القرعة ، وإنما قيل للقدح : القلم لأنه يُقلم أى : يُبرى . [اللسان مادة : قلم] .

(٢) ثاوياً : مقيماً ، ومدين : قرية شعيب عليه السلام .

شيء سبق الزمان الذى نزل فيه ، فهو يتكلم فى الماضى الذى لم يكن رسول الله ﷺ من أهل الاطلاع والتعلم ليعرفه ويعلمه .

وكذلك خرق القرآن الكريم حجب الحاضر الذى عاصر نزوله ، هذا الحاضر الذى قد يكون محجوباً بالمكان .

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - فقد يحدث حادث فى الإسكندرية فى نفس الوقت الذى تكون أنت فيه موجوداً بالقاهرة ، وأنت لا تعلم هذا الحدث ؛ لأنه محجوب عنك ببعد المكان ، وحاجز المكان يتمثل - غالباً - فى الأمور الحاضرة ، أما أمور المستقبل فهى محجوبة عنا بالزمان والمكان معاً .

وحين يخبرنا القرآن الكريم بحدث ماض لم يشهده رسول الله ﷺ ، ولم يتعلمه ، ولم يقرأ عنه ؛ إذن : فالقرآن إنما يخرق أمامنا حجاب الزمن الماضى . وإذا أخبر القرآن بحدث حاضر فى غير مكان نزوله على سيدنا رسول الله ﷺ ، فهذا خرق لحجاب المكان مثل قول الحق سبحانه :

﴿ ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول .. ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

وحين سمع المنافقون والكفار هذا القول الكريم ، لم ينكروا أنهم قالوا فى أنفسهم ما جاء به القرآن ، وهكذا خرق القرآن حاجز المكان فى أنفسهم هم .

إذن : فأخبار الغيب فى القرآن إما خَرْقٌ لزمان ماضٍ أو خرق لزمان الحال ، وإما خرق لزمان ومكان الاستقبال .

ونحن نعلم أن القرآن كان ينزل والمسلمون ضعاف ، لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ولا أحد يجير على أحد ، ويتجه النبى ﷺ إلى الطائف

ليعرض الإسلام على أهلها ، لعلَّه يلتمس لهم مجيراً من أهل الطائف ؛ ولكنه ﷺ لا يجد إلا الإيذاء والإعراض [١] ، ويوصى بعضاً من صحابته أن يهاجروا إلى الحبشة [٢] .

وفى ظل كل هذه الأزمات ، ينزل قول القرآن : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ .. (٤٥) ﴾ [القمر]

حتى إن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يتساءل : أىُّ جمع هذا الذى يهزم ، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ ثم تأتى غزوة بدر ويشهد عمر هزيمة وفرار مقاتلى قريش ؛ فيرى رأى العين صدق ما جاء به الوحى من قبل [٣] .

وهكذا تأكد الجميع أن القرآن الكريم غير مُفترىً ، فكيف يُتَّهم رسول الله ﷺ أنه افتراه ؟

---

(١) كان هذا بعد وفاة عمه أبى طالب ، الذى كان مدافعاً عنه ، حامياً له من أذى المشركين ، ولكن أهل الطائف قعدوا له ﷺ صفين على طريقه ، وجعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا ضربوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه . [دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٤١٥] . عند ذلك قال رسول الله ﷺ : « اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى » . منحه الله الإسراء فوق العقل البشرى ، والمعراج فوق الفوق ؛ وذلك لحمايته له ورعايته لدينه .

(٢) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ ، وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله ﷺ فى منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل إليه شىء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٣٠١) وأورده ابن هشام فى السيرة بنحوه (١/ ٣٢١) .

(٣) عن عكرمة قال : لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يُهزم ؟ أى : أىّ جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] فعرفت تأويلها يومئذ . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٢٦٦) وعزاه لابن أبى حاتم .

وإذا كان هذا القرآن مفترىً ، فلماذا لا تفترون مثله ؟ وفيكم الشعراء والبلغاء والخطباء ؟! ولم يقل محمد ﷺ أنه بليغ أو خطيب أو شاعر ، ولم يطلب القرآن الكريم منهم أن يأتوا بواحد مثل محمد ﷺ ، لا صلة له بالبلاغة أو الفصاحة ، بل يطلب منهم أن يأتوا بالفصحاء كلهم ، ويدعوهم أن يقولوا مثل آية واحدة من القرآن .

وإن قالوا : إن ما جاء به هو السحر ، وإن محمداً ساحر قد سحر العبيد والضعاف ، وأدخلهم فى الإسلام ، فلماذا لم يسحركم محمد ؟

إن بقاءكم من غير سحر يدل على أن إطلاقكم كلمة السحر على ما جاء به دعوى كاذبة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ..(٣٧) ﴾ [يونس]

فالقرآن قد جاء فيه تفصيل كل الأحكام الصالحة إلى قيام الساعة ، أما الكتب السابقة على القرآن فكانت تضم الأحكام المناسبة لزمانها ، ولأمكنة نزولها .

وهو كتاب ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أى : لا شك فيه ، يكشف الكفار ، ويفضح ارتيابهم وكذبهم ، فَهُمْ قد اعترفوا بعظمة القرآن وقالوا : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ..(٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : فهم قد عرفوا أن القرآن لا عيب فيه ، ولا ريب ، حتى من الكافرين به .

ويأتى الرد على قولهم بالافتراء ، فى قول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

وقد سبق هذا المجيء بالتحدى أسبابُ عجزهم عن النجاح فى التحدى ؛ لأن الآية السابقة تقرر أن الكتب السماوية السابقة تُصَدِّق نزول القرآن الكريم ، وبينها وبين القرآن تصديق متبادل .

فهم مهزومون فيه قبل أن ينزل .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس]

وقد جاء التحدى مرة بالكتاب فى قول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء]

ولم يستطيعوا ، فنزلت درجة التحدى ؛ وطالبهم أن يأتوا : ﴿ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [هود]

فلم يستطيعوا الإتيان بعشر سور ، فطالبهم أن يأتوا بسورة تقترب - ولو من بعيد - من أسلوب القرآن ، فلم يستطيعوا ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة]

فكيف - إذن - من بعد كل ذلك يدَّعون أن محمداً ﷺ قد افترى القرآن ، وهو ﷺ لم تكن له صلة بالأساليب البلاغية أو الفصاحة ؟!

لقد دعاكم أن تأتوا بكل الفصحاء والبلغاء ليفتروا ، ولو سورة من مثله ، ووضع شرطاً فقال : ﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس]

لأن الله سبحانه وتعالى هو القادر الوحيد على أن يُنزل قرآناً ؛ لذلك دعاهم رسول الله ﷺ أن يدعوا الشركاء ؛ وذلك حتى لا يقول الكفار بعضهم من أهل اللجاجة [1] : سندعو الله ؛ ولذلك يأتي القرآن بالاستثناء ﴿ وادعوا من استطعتم مّن دُونِ اللَّهِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ..(٣٨) ﴾ . وهم بطبيعة الحال غير صادقين فى هذا التحدى .

والله - سبحانه وتعالى - حين يرسل رسولاً إلى قوم ؛ليعلِّمهم منهجه فى حركة الحياة ، إنما يريد سبحانه أن تؤدى حركة الحياة إلى الغاية المطلوبة من الإنسان الخليفة فى الأرض ؛ ولذلك يأتى الرسول من جنس المرسل إليهم ؛ ليكون أسوة لهم ؛ لأن الرسول إن جاء مَلَكاً لما صحَّت الأسوة ، بل لا بد أن يكون بشراً [2] .

والحق سبحانه لا يرسل أى رسول إلا ومعه بينة ودليل صدق على أنه رسول يبلِّغ عن الله تعالى .

والبينة لا بد أن تكون من جنس نبوغ [3] القوم ، فلا يأتى لهم بمعجزة فى شىء لم يعرفوه ولم يألفوه ؛ حتى لا يقولوا : لو تعلمنا هذا لجئنا بمثل ما جاء .

وقد جاء القرآن ليثبت عجزهم عما نبغوا فيه من صناعة الكلام ؛ شعراً ونثراً وخطابة .

وكان القرآن هو معجزة رسول الله ﷺ فى قوم فصحاء يعقدون للشعر

---

(١) اللجاجة : التمادى فى الجدال والمراء .

(٢) لذلك قال رب العزة : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء] فالرسول يكون من جنس من أرسل إليهم ، ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام] .

(٣) النبوغ : الإجادة والبراعة فى علم أو فن معين . [المعجم الوسيط] .

أسواقاً ، ويعلِّقون الفائز من هذا الشعر على جدران الكعبة شهرة له وشهادة به .

إذن : فهم أصحاب دراية بصناعة الكلام ، وجاءت المعجزة مع الرسول ﷺ من جنس ما نبغوا فيه ؛ لتتحداهم . والتحدى يستدعى استجماع قوة الخصم؛ ليرد على هذا المتحدى ، فإذا عجز مع التحدى، يصير العجز ملزماً .

وقد تحدى الحق سبحانه العرب جميعاً بالقرآن كله : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً[1] (٨٨)﴾ [الإسراء]

فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله ، فتدرَّج القرآن معهم فى التحدى فطلب منهم ما هو أقل من ذلك ، وهو أن يأتوا بعشر سور مثله فى قوله تعالى : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ..(١٣)﴾ [هود]

ثم تحداهم بالإتيان بمثل سورة من القرآن .

وعند التأمل نجد أن الأسلوب الذى جاء بطلب سورة كان على لونين : فمرة يقول : ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ .. (٣٨)﴾ [يونس]

ومرة يقول : ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ .. (٢٣)﴾ [البقرة]

وكل من اللونين بليغ فى موضعه فـ ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ .. (٣٨)﴾ تبين أن المثلية هنا محققة ، أى : مثل ما جاء من سور القرآن . وقوله : ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ .. (٢٣)﴾ [البقرة]

---

(١) الظهير : المعين والمساعد . قال تعالى : ﴿فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ .. (٨٦)﴾ [القصص] . وذهب بعض العلماء إلى أن التحدى كان مقصوداً به الإنس فقط دون الجن ، لأن الجن ليسوا من أهل اللسان العربى ، وإنما ذكرهم الله فى الآية تعظيماً لإعجاز القرآن ، لأن عجزهما معاً عن أن يأتوا بمثله دليل على أن الفريق الواحد منهم أعجز . [انظر : البرهان فى علوم القرآن - للزركشى ٢/ ١١١] .

أي : سورة من مثل محمد - ﷺ - في أنه لم يجلس إلى معلم ، ولم يقرأ ، ولا عُرف عنه أنه تكلم بالبلاغة في أي فترة من مراحل حياته قبل الرسالة[1] .

وقال الحق سبحانه : ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

إذن : ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ .. (٢٣)﴾ [البقرة]

أي : مثل محمد ﷺ الذي لم يتعلم وكان أمياً ، ولكن لماذا يأتي هذا اللون من التحدي ؟

لأنهم قالوا عن القرآن :

﴿أَسَاطِيرُ[2] الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا[3] فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥)﴾ [الفرقان]

بل واتهموه في قمة غفلتهم أنه يتعلم من رجل كان بمكة ، فيلفتهم القرآن إلى أن الرجل - الذي قالوا إنه معلم للرسول ﷺ - كان أعجمياً غير عربي ، يقول الحق سبحانه : ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ[4] إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ..(١٠٣)﴾ [النحل]

---

(١) وفي تفسير هذه الآية قول ثالث ذكره القرطبي في تفسيره (١/ ٢٧٧) فقال : « ﴿مِّن مِّثْلِهِ .. (٢٣)﴾ [البقرة] أي : من مثل التوراة والإنجيل . فالمعنى : فأتوا بسورة من كتاب مثله فإنها تصدِّق ما فيه » وكل من هذه الأقوال صواب ومحتمل .

(٢) الأساطير : جمع أسطورة . أي : مما سَطَّره الأولون وكتبوه . والأساطير أيضاً : الأباطيل ، وأحاديث باطلة لا أصل لها قد سطرها وألفها الأولون . [لسان العرب مادة : سطر] .

(٣) اكتتبها : طلب من النساخ نسخها له .

(٤) يلحدون إليه : يميلون إليه . واختلف المفسرون في تسمية هذا الرجل الذي قال المشركون أن محمداً ﷺ تعلم منه ، وليس المهم البحث عن اسمه . بل المهم أنه أعجمي فكيف يعلم محمداً ﷺ هذا القرآن العربي .

ويزيد الحق سبحانه أن يصنفهم ، فيقول بعد ذلك :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

وهذا الصنف من الناس الذين ﴿ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ ، وهم من أخذتهم المفاجأة حين حُدِّثوا بشيء لا يعرفونه ، والناس أعداء ما جهلوا ؛ فكذبوا ما جاء به رسول الله ﷺ من القرآن قبل أن يتبينوا جمال الأداء فيه ، ونسق القيم العالية ، وإذا ما سنحت لهم فرصة يتبينون فيها جمال الأداء ، ودقة الإعجاز فهم يتجهون إلى الإيمان .

ومثال ذلك : عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقد كان كافراً ثم علم أن أخته وزوجها قد أسلما ؛ فذهب إليها في منزلها وضربها ، فأسال دمها ، وسيل الدم من أخت بضربة أخيها مثير لعاطفة الحنان ، وهذا ما حدث مع عمر ؛ فهدأت موجة عناده ، فاستقبل القرآن بروح لا عناد فيها ؛ فذهب فآمن برسول الله ﷺ [1] ، وكان من قبل ذلك ممن : ﴿ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ أى : لم يعرفوا مراميه ، وبمجرد أن سمعوا عن رسالته ﷺ فجأة ، اتهموه بالكذب والعياذ بالله .

ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا [2] .. ﴿١٦﴾ ﴾ [محمد]

(١) حديث إسلام عمر بن الخطاب ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٣٤٣ - ٣٤٦) .

(٢) آنفاً : من قبل ، وقد نزلت هذه الآية في المنافقين كانوا يستمعون كلام رسول الله ﷺ فإذا خرجوا من عنده سألوا أصحاب رسول الله ﷺ استهزاءً وإعلاماً أنهم لم يلتفتوا إلى ما قال : ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. ﴿١٦﴾ ﴾ [محمد] أى : ماذا قال سالفاً وسابقاً ؟ . [اللسان : مادة (أ ن ف) - بتصرف] .

وهذا يدل على أنهم لم يفهموا ما نزل على رسول الله ﷺ من القرآن ، وتأتي الإجابة من الحق سبحانه وتعالى : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤)﴾ [فصلت]

إذن : فالقرآن هدى لمن تتفتح قلوبهم للإيمان ، أما القلوب المليئة بالبغض لقائله وللإسلام ؛ فهؤلاء لا يمكن أن يصح حكمهم .

وإن أراد أي منهم حكماً صحيحاً فليُخرجْ من قلبه ما يناقض ما يسمع ، ثم عليه أن يستقبل الأمرين ؛ ولسوف يدخل قلبه الأقوى حجة ، وهو الإسلام.

إذن : فمن امتلأ قلبه بعقيدة كاذبة ؛ لا يمكن له أن يهتدي .

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. (٣٩)﴾ [يونس]

والتأويل[2] هو ما يرجع الشيء إليه ، وهذا يوضح لنا أن هناك أقضية من القرآن لم يأت تفسيرها بعد ، ستفسرها الأحداث ، وقد يقول القرآن الكريم قضية غيبية ، ثم يأتي الزمن ليؤكد هذه القضية ، هنا نعرف أن تأويلها قد جاء .

وهؤلاء القوم قد كَذَّبوا من قبل أن يأتي لهم التأويل ، وكان عدم مجيء التأويل هو السبب في تأخر بيان الحق في المسألة لتأخر زمنه .

وعلى سبيل المثال ، ها هو ذا عمار بن ياسر صاحب رسول الله ﷺ حين قامت المعركة بين معاوية بن أبي سفيان والإمام علي - رضي الله عنه - وَقَاتَلَ عمَّار في صف عليّ ، وقُتل . هنا تنبه الصحابة إلى تأويل

---

(١) الوقر : ضعف السمع . وقيل : الصمم . [اللسان : مادة (وقر)] .

(٢) التأويل والمعنى والتفسير واحد . وأصله ما يؤول إليه الشيء ؛ ويقول تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ .. (٥٣)﴾ [الأعراف] أي : أنهم ينتظرون تحقق العذاب ووقوعه .

حديث من رسول الله ﷺ حيث قال : « ويح عمار .. تقتله الفئة الباغية »[1].

وهكذا جاء تأويل حديث رسول الله ﷺ عندما تحقق فى الواقع ، وكان هذا سبباً فى انصراف بعض الصحابة عن جيش معاوية .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. (٣٩) ﴾ [يونس]

أى : أن التأويل لم يظهر لهم بعد .

ومن أدوات النفى : « لم» مثل قولنا : « لم يَجِىءْ فلان » ، ونقول أيضاً : « لما يجىء فلانٍ » ، والنفى فى الأولى جزم غير متصل بالحاضر ، كأنه لم يأت بالأمس .

أما النفى بـ « لما» فيعنى أن المجىء مُنْتف إلى ساعة الكلام ، أى : الحاضر ، وقد يأتى من بعد ذلك ؛ لأن « لما» تفيد النفى ، وتفيد توقُّع الإثبات .

والحق سبحانه يقول : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

وهؤلاء القوم من الأعراب قالوا : ﴿ آمَنَّا ﴾ رغم أنهم راءوا المسلمين وقلدوهم زيفاً ونفاقاً[2] ، ولم يكن الإيمان قد دخل قلوبهم بعد ، وحين سمعوا قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٤٧) ومسلم فى صحيحه (٢٩١٥) بنحوه عن أبى سعيد الخدرى ، وتمامه أنه عند بناء المسجد النبوى قال أبو سعيد : « كنا نحمل لبنة لبنة ، وعمار لبنتين لبنتين . فرآه النبى ﷺ ، فينفض التراب عنه ويقول : ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » .

(٢) ذهب البخارى إلى أن هؤلاء الأعراب كانوا منافقين ، وقد استدرك بعض العلماء هذا عليه فقالوا : إنهم كانوا مسلمين ولكنهم أول ما دخلوا فى دين الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يكن الإيمان قد تمكن فى قلوبهم بعد . انظر تفسير ابن كثير (٢١٨/٤ ، ٢١٩) .

قالوا : الحمد لله ؛ لأن معنى ذلك أن الإيمان سوف يدخل قلوبهم .

وكذلك قول الحق سبحانه : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران]

فحين سمعوا ذلك قالوا : إذن : وثقنا أنه سيأتى علم الله سبحانه بنا كمجاهدين وصابرين .

وهكذا نعرف أن ﴿لَمَّا﴾ تعنى أن المنفى بها متوقع الحدوث . والتأويل كما نعلم هو مرجع الشيء .

وقد جاء فى القرآن الكثير من الأخبار لم تكن وقت ذكرها بالقرآن متوقعة ، أو مظنة أن توجد . وحين وُجدت ولا دخل لبشر فى وجودها ، فهذا يعنى أن قائل هذا الكلام قد أخذه عَمَّن يقدر على أن يوجد ، مثلما جاء فى خبر انتصار الروم على الفرس رغم هزيمة الروم .

قال الحق سبحانه :

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ[1] سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ .. ﴿٥﴾﴾ [الروم]

جاء هذا الخبر وانتظر المسلمون تأويله ، وقد جاء تأويله طبقاً لما أخبر القرآن .

أو أن التأويل سيأتى فى الآخرة ، ومايؤول الأمر فى التكذيب سيعلمونه من بعد ذلك .

---

(١) البضع : ما دون العشر ، وأدنى الأرض : بين أذرعات وبصرى فى الشام ، وهى أقرب بلاد الشام إلى الجزيرة العربية . [تفسير ابن كثير : ٣/ ٤٢٢ - ٤٢٤] .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ .. (٥٣) ﴾ [الأعراف]

هم ينتظرون ما يؤول إليه القرآن وما يؤولون إليه ، إن كان فى الدنيا فنصر أهل القرآن ، وإن كان فى الآخرة ، فهذا قول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ..(٥٣) ﴾ [الأعراف]

هذا هو التأويل الذى كذَّبه البعض من قبل .

إذن : فالتأويل إما أن يكون لمن بقى من الكفار فيرى ما أخبر به القرآن وقد جاء على وفق ما أخبر به نبىٌّ لا يملك أن يتحكم فى مصائر الأشياء ، وتأتى على وفق ما قال .

فكأن محمداً ﷺ كان يجازف بأن يقول كلاماً لا يتحقق ؛ فينصرف عنه الذين آمنوا به ، ولكنه ﷺ لم يقل إلا ما هو واثق ومطمئن من وقوعه ؛ لأن الخبر به جاء من لدن عليم خبير .

وإما أن التأويل - أيضاً - يأتى فى الآخرة .

وهنا قال الحق سبحانه : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. (٣٩) ﴾ [يونس]

والحق سبحانه هنا يلفت رسوله ﷺ إلى أن ما حدث معه قد حدث مع رسل من قبله ، فقال سبحانه فى نفس الآية : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) ﴾ [يونس]

أى : انظر لموكب الرسل كلهم من بدء إرسال الرسل ، هل أرسل الله رسولاً ونصر الكافرين به عليه ؟ . . لا ، لقد كانت الغلبة دائماً لرسل الحق عز وجل مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي . . (٢١) ﴾ [المجادلة]

وعرفنا ما حدث للظالمين ، فمنهم من أغرقه الله ، ومنهم من خسف به الأرض ، ومنهم من أخذه بالصيحة[1] .

إذن : فالتأويل واضح فى كل مواكب الرسل التى سبقت رسالة محمد ﷺ ، وإذا كان كل قوم من الظالمين قد نالوا ما يناسب رسالة رسولهم ، فسينال القوم الظالمين الكافرين برسالة محمد ﷺ ما يناسب عمومية رسالته ﷺ .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ . . (٣٩) ﴾ لا بد لنا أن نعرف معنى الظلم ، إنه نقل الحق لغير صاحبه ، والحقوق تختلف فى مكانتها ، فهناك حق أعلى ، وحق أوسط ، وحق أدنى .

فإذا جئت للحق الأدنى فى أن تنقل الألوهية لغير الله سبحانه وتعالى فهذا قمة الظلم ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[2] . . (١٣) ﴾ [لقمان]

لأن فى هذا نقل الألوهية من الله سبحانه إلى غيره ، ويا ليت غيره كان

---

(١) قال تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت] . والحاصب : هى ريح شديدة البرد والهبوب تحمل حصباء الأرض فتلقيها على الناس وتقتلعهم من الأرض وقد عذب الله بها قوم «عاد» . أما الصيحة فقد عوقب بها قوم ثمود ، وعوقب قارون بالخسف ، أما فرعون وجنوده فقد عوقبوا بالغرق .

(٢) العظمة للقيمة المنحرفة انحطاط ، وللقيمة السوية رفعة .

صاحب دعوة بينه وبين الله تعالى ، لا ، فليس ذلك المنقول له الألوهية بصاحب دعوة ، بل تطوَّع الظالم من نفسه بذلك ، واتخذ من دون الله شريكاً لله ، وفى هذا تطوع بالظلم بغير مُدَّع .

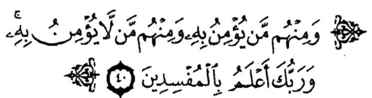
وهَبْ أن الله تعالى قال : لا إله إلا أنا ، فإما أن القضية صحيحة ، وإما أنها غير ذلك ، فإن افترض أحد - معاذ الله - عدم صحتها ، فالإله الثانى كان يجب أن يعلن عن نفسه ، ولا يترك غيره يسمع له ويعلن عنه ، وإلا كان إلهاً أصمَّ غافلاً ، ولكن أحداً لم يعلن ألوهيته غير الله سبحانه ؛ لذلك تثبت الألوهية الواحدة للإله الحق سبحانه وتعالى .

وقد بيَّن لنا الحق سبحانه : لا إله إلا أنا ، أنا الخالق ، أنا الرازق . ولم يصدر عن أحد آخر دعوى بأنه صاحب تلك الأعمال ، إذن : فقد صَحَّت الدعوى فى أنه لا إله إلا الله .

والدرجة التالية فى الظلم هى الظلم فى الأحكام ، فإذا حكم أحد بحلٍّ الربا فهذا ظلم فى قضية كبيرة ، ولكن إن حكم قاض على مدين بأن يردَّ الدَّين فقط فهذا عدل ؛ وكذلك القاضى الذى يظلم فى أحكامه إنما ينقل حقوق الناس إلى غيرهم .

إذن : فالظلم يأخذ درجات حسب الشىء الذى وقع فيه الظلم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :



والكلام هنا فى الذين كـذَّبوا ، فكيف يقسِّم الله المكذبين - وهم

بتكذيبهم لا يؤمنون - إلى قسمين : قسم يؤمن ، وقسم لا يؤمن ؟

ونحن نعلم أن الإيمان عمل قلوب ، لا عمل حواس ، فنحن لا نطَّلع على القلوب ، والحق سبحانه يعلم مَنْ مِنْ هؤلاء المكذبين يخفى إيمانه فى قلبه .

إذن : فمن هؤلاء من يقول بالتكذيب بلسانه ويخفى الإيمان فى قلبه ، ومنهم من يوافق تكذيبه بلسانه فراغُ قلبه من الإيمان ، ومن الذين قالوا : إن هذا القرآن افتراء إنما يؤمن بقلبه أن محمداً رسول من الله ، وصادق فى البلاغ عن الله ، ولكن العناد والمكابرة والحقد يدفعونه إلى أن يعلن عدم الإيمان .

وكذلك منهم قسم آخر لا يؤمن ويعلن ذلك .

إذن : فالمقسم ليس هو الإيمان الصادر عن القلب والمعبَّر عنه باللسان ، ولكن المُقسَّم هو إيمان بالقلب غير مُعبَّر عنه ، ولم يصل إلى مرتبة الإقرار باللسان .

والذى جعل إيمان بعضهم محصوراً فى القلب غير مُعبَّر عنه باللسان هو الحقد والحسد والكراهية وعدم القدرة على حكم النفس على مطلوب المنهج .

وبعض العرب حين أعلن لهم رسول الله ﷺ أن يقولوا : لا إله إلا الله ؛ فيضمن لهم السيادة على الدنيا كلها [1] . ورفضوا أن يقولوا الكلمة ؛ لأنهم يعلمون أنها ليست كلمة تقال ، بل فهموا مضمون ومطلوب

(١) فقد قال له عمه أبو طالب : يا ابن أخى ما تريد من قومك؟ قال : إنى أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب ، وتؤدى إليهم العجم الجزية . قال : كلمة واحدة ؟ قال : كلمة واحدة . قال : «يا عم يقولوا : لا إله إلا الله» أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٢٧) والترمذى فى سننه (٣٢٣٢) وقال : حديث حسن .

الكلمة، وعرفوا أن «لا إله إلا الله» تعنى: المساواة بين البشر، وهم يكرهون ألاَّ تكون لهم السيادة والسيطرة فى أقوامهم.

وهذا يدل أيضاً على أن الحق سبحانه قد شاء أن يبدأ الإسلام فى مكة، حيث الأمة التى تعلن رأيها واضحاً؛ ولذلك نجد أن النفاق لم ينشأ إلا فى «المدينة»، أما فى مكة، فهم قوم منسجمون مع أنفسهم، فهم حين أعلنوا الكفر لم يعانوا من تشتت الملَكَات، لكن المنافقين فى المدينة وغيرها هم الذين كانوا يعانون من تشتت الملكات، ومنهم من كان يلعب على الطرفين، فيقول بلسانه ما ليس فى قلبه.

ولذلك يُعزِّى الحق رسوله الكريم ﷺ ويُسَرِّى [1] عنه ويبين له: إياك أن تحزن لأنهم يكذبونك؛ لأنك محبوب عندهم وموقَّر، فيقول الحق سبحانه: ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ** .. (٣٣) ﴾ [الأنعام]

أى: أنك يا محمد مُنزَّه عن الكذب؟

ويقول الحق سبحانه: ﴿ **وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** [2] .. (٣٣) ﴾ [الأنعام].

أى: أنه سبحانه يحملها عن رسوله ﷺ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أن رسوله أمين عند قومه، وهم فى أثناء معركتهم معه، نجد الواحد منهم يستأمنه على أشيائه النفيسة [3].

والذين آمنوا برسالته ﷺ ولم يعلنوا إيمانهم، والذين لم يؤمنوا، هؤلاء

---

(١) يُسرِّى عنه: يكشف عنه الهم والحزن. [اللسان: مادة: (سرى)]

(٢) الجحود: نقيض الإقرار، قال الجوهرى: الجحود الإنكار مع العلم. قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل] [اللسان: مادة (جحد)].

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٤٨٥) نقلاً عن ابن إسحاق ثم قال: «وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يُعلم من صدقه وأمانته ﷺ».

وأولئك أمرهم موكول إلى الله تعالى ؛ ليلقوا حسابهم عند الخالق سبحانه ؛ لأنه سبحانه الأعلم بمن كذَّب عناداً، ومن كذَّب إنكاراً.

والحق سبحانه هو الذى يُعذِّب ويُعاقب، وكل إنسان منهم سوف يأخذ على قَدْر منزلته من الفساد ؛ لذلك يُنهِى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ..(٤٠)﴾ [يونس]

والمفسد كما نعلم هو الذى يأتى إلى الشىء الصالح فيصيبه بالعطب [1] ؛ لأن العالَم مخلوقٌ قبل تدخُّل الإنسان - على هيئة صالحة، وصنعة الله سبحانه وتعالى - لم يدخل فيها الفساد إلا بفعل الإنسان المختار، وصنعة الله تؤدى مهمتها كما ينبغى لها.

وأنت أيها الإنسان إن أردت أن يستقيم لك كل أمر في الوجود، فانظر إلى الكون الأعلى الذى لا دخل لك فيه، وستجد كل ما فيه مستقيماً مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ [2] (٩)﴾ [الرحمن]

أى: أتقنوا أداء مسئولية ما فى أيديكم وأحسنوه كما أحسن الله سبحانه ما خلق لكم بعيداً عن أياديكم، والمطلوب من الإنسان - إذن - أن يترك الصالح على صلاحه، إن لم يستطع أن يزيده صلاحاً؛ حتى لا يدخل فى دائرة المفسدين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) العطب: الفساد والهلاك.

(٢) تطغوا: من الطغيان، بمعنى الظلم، أى: اعدلوا فى جميع أموركم وزنوا الأمور والأشياء بميزان العدل، ولا يظلم بعضكم بعضاً. والقسط: العدل. [اللسان: مادة (قسط) .. بتصرف].

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) ﴾

وهذه آية تضع الاطمئنان في قلب رسول الله ﷺ فلم يَقُل الله سبحانه: «إذا كذَّبوك» بل قال: ﴿إِن كَذَّبُوكَ ..(٤١)﴾ وشاء الحق سبحانه أن يأتي بالتكذيب في مقام الشك، وأتبع ذلك بقوله للنبي ﷺ: ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ .. (٤١)﴾ أي: أبْلغْهم: أنا لا أريد أن أحْملكم على ما أعمل أنا، إنما أريد لكم الخير في أن تعملوا الخير، فإن لم تعملوا الخير؛ فهذا لن يؤثر في حصيلتي من عملي.

وبذلك يتضح لنا أن الرسول ﷺ لا يُجازَى على عدد المؤمنين به، بل بأداء البلاغ كما شاءه الله سبحانه[1].

وقد شاء الحق سبحانه أن ينقل محمد ﷺ الخير إلى أمته، فإن ظلوا على الشر؛ فهذا الشر لن يناله لأن خير البلاغ بالمنهج يعطيه ﷺ خيراً، لأنه يطبِّقه على نفسه، وشر الذين لا يتبعونه إنما يعود عليهم؛ لأن الذين يتأبون على الاستجابة لأي داعٍ إنما يظنون أن الداعي سوف يستفيد[2].

والبلاغ عن الله، إنما يطبقه الرسول ﷺ منهجاً وسلوكاً

(١) ومما يدل على هذا أن نوحاً مكث في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ورغم هذا قال عنه رب العزة: ﴿وما آمن معهُ إلاَّ قليلٌ ..(٤٠)﴾ [هود] واختلفوا في عدة من آمن معه بين عشرة أنفس، وثمانين نفساً من بينهم أبناؤه. انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥).

(٢) ولذلك كان نوح يقول لقومه: ﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله ..(٢٩)﴾ [هود]، وهود يقول لقومه عاد: ﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون (٥١)﴾ [هود] وهكذا قال صالح لقومه ثمود: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين (١٤٥)﴾ [الشعراء]، ولوط لقومه: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين (١٦٤)﴾ [الشعراء]، وشعيب لقومه أهل مدين: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين (١٨٠)﴾ [الشعراء].

ويُجازَى عليه [1].

فلا يجوز الخلط فى تلك المسائل ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ .. (٤١)﴾ .

ثم يقول الحق سبحانه على لسان رسوله ﷺ : ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وأنا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ..(٤١)﴾ [يونس]

وكلمة ﴿بَرِيءٌ﴾ تفيد أن هناك ذنباً، وهذا القول الحق فيه مجاراة للخصوم، وشاء الحق سبحانه أن يُعلِّم رسوله ﷺ والمؤمنين أدب الحوار والمناقشة ، فيقول : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾ [سبأ]

أى : أننا - الرسول ومعه المؤمنون - وأنتم أيها الكافرون إما على هدى ، أو فى ضلال. والرسول ﷺ موقن أنه على هدى وأن الكافرين على الضلال، ولكنه يجاريهم ؛ عدالة منه ﷺ ومجاراة لهم.

كذلك يعلِّمه ربه سبحانه أن يقول: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا .. (٢٥)﴾ [سبأ]

أى : أنه يبين لهم: هَبُوا أنِّى أجرمتُ فأنتم لن تُسألوا عن إجرامى، ومن أدب الرسول ﷺ شاء له الحق سبحانه أن يقول: ﴿وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ]

ولم يقل: «ولا نُسأل عما تُجرمون» . وكذلك شاء الحق سبحانه أن تأتى هنا فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وأنا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ..(٤١)﴾ [يونس]

---

(١) فالرسول مكلف ببلاغ ما أرسل به، لا يزيد فيه ولا ينقص ، ولذلك يقول رب العزة عن نبيه ﷺ : ﴿ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل (٤٤) لأخذنا منه باليمين (٤٥) ثم لقطعنا منه الوتين (٤٦) فما منكم من أحد عنه حاجزين (٤٧)﴾ [الحاقة].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وكلمة « مَنْ » تطلق وقد يراد بها المفرد ، وقد يراد بها المفردة ، وقد يراد بها المثنى ، وقد يراد بها الجمع ، ومرة يطابق اللفظ فيقول سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ..﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنعام]

ومرة يقصد المعنى فيقول : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ ..﴿٤٢﴾ ﴾ [يونس]

لأن ﴿مَّن﴾ صالحة للموقعين.

والسماع كما نعلم هو استقبال الأذن للصوت ، فإن كان صوتاً مُبْهماً كأصوات الحيوانات أو أصوات الأعواد ، فهذه الأصوات لا تفيد إلا ما تفيده النغمة في الجسم من هزة أو ارتجاج.

وإما أن يكون الصوت له معنى تواضُعيٌّ ، كاللغات المختلفة التي يتخاطب بها الناس في البلدان المختلفة ، فإن تكلمتَ بالإنجليزية في بلد يتكلم أهله بهذه اللغة فهموك وفهمت عنهم . هذا هو معنى التواضع في اللغة ، أي : أن المتكلم والسامع على درجة واحدة من الاتفاق على اللغة.

والنبي ﷺ عربي يتحدث بلسان عربي مبين لقوم من العرب ، فما العائق عن السمع إذن ؟

إن العائق عن السمع نفض الأذن لما يأتي من جهة الخصم ، والسماع - كما نعلم - هو استشراف المخاطب إلى ما يفهم من المتكلم ، فإن لم يوجد عند المخاطب استشراف إلى أن يسمع ، فالكلام يُقال ولا يصل.

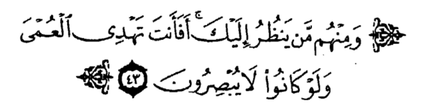
إذن: لا بد للسامع من حالة الاستشراف إلى فهم ما يقوله المتكلم. وكما يقول المثل: «أذن من طين وأخرى من عجين» . أو كما تقول المزحة أن واحداً مال على أذن صديق له وقال: «أريد أن أقول لك سراً» فاقترب الصديق مستشرفاً سماع السر، فقال الرجل: «أريد مائة جنيه كقرض» ؛ فقال الصديق: «كأنى لم أسمع هذا السر».

إذن: فالكلام ليس مجرد صوت يصل إلى الأذن، لكن لا بد من استشراف نفسى للتلقى. وهم لا يملكون هذا الاستشراف؛ لذلك قال الحق سبحانه: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ .. (٤٢)﴾ أى: كأن سمعهم لا يسمع.

ومثال ذلك : أننا نجد المدرس الذى يشرح الدرس للتلاميذ ، وبين التلاميذ من يستشرف السمع ؛ ولذلك يفهم الدرس ، أما الذى لا يستشرف فكأنه لم يسمع الدرس.

وهم قد فاتوا الصُّمَّ ؛ لأن الأصم قد يفهم بالحركة أو الإشارة أو لغة العين، ولكن هؤلاء لا يسمعون ولا يعقلون ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ ..(٤٢)﴾ [يونس]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:



والرؤى أيضاً تحتاج إلى استشراف، وأن يُقْبل المرء على ما يريد أن يراه، وأحياناً لا يكون الرائى مستشرفاً؛ لأن قلبه غير متجه للرؤية.

وسُئِل واحد: إنك تقول: من رأى فلاناً الصالح[١] يَهْده الله. فردَّ عليه السامع متسائلاً: كيف تقول ذلك؟! فردَّ القائل: لقد رأى أبو جهل خيراً من هذا، ومع ذلك ظل كافراً. فردَّ السامع: إن أبا جهل لم يَرَ محمداً رسول الله ﷺ، ولكنه رأى يتيم أبى طالب[٢].

وهكذا شرح الرجل أن أبا جهل لم ينظر إلى محمد ﷺ على أنه رسول؛ لأنه لو نظر إليه بهذا الإدراك لتسللت إليه سكينة الإيمان وهَيبة الخشوع وجلال الورع.

ونحن قد نلقى رجلاً صالحاً فى بشرته أُدْمة[٣] أو سواد، وصلاحه يضيء حوله، وله أَسْر[٤] من التقوى، وجاذبية الورع.

ولو أن أبا جهل رأى محمداً ﷺ على أنه رسول لتغيَّر أمره.

وها هو «فضالة»[٥] يحكى عن لحظة أراد فيها أن يقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما اقترب منه؛ قال له رسول الله ﷺ: ماذا كنت تحدِّث به نفسك؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله. قال: فضحك النبى ﷺ، ثم قال: استغفرِ الله، ثم وضع يده على صدر فضالة.

وساعة سمع فضالة هذا، ورأى محمداً ﷺ وهو يقول ذلك القول، قال: ما كان أبغض إلىَّ من وجهه، ولكنى أقبلت عليه فما كان أحَبَّ

---

(١) إن رؤية الصالحين فيها جذب إيمانى؛ لأن الرائى يرى نور الإيمان يناديه، فيلاقيه، ويلتقى به. أما رؤية أبى جهل فهى رؤيا انقطاع إيمانى؛ لأن استقباله للإيمان مقطوع، فلم ير نوراً، ولم يحس به، وإنما كانت رؤيته من خلال الحقد الذى جعله لا يرى فى رسول الله ﷺ إلا يتيماً لابن أبى طالب، وذلك بخلاف موقف فضالة الذى أحس بالنور فأحبه.

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٣٢) أن المشركين قالوا: ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبى طالب.

(٣) الأدمة فى الناس: السمرة الشديدة، وقيل: هى من أدمة الأرض، وهو لونها، وبه سمى آدم أبو البشر - عليه السلام. [اللسان: مادة(أدم)].

(٤) الأَسْر: السَّمْت الذى يستولى على مشاعر المحيطين به.

(٥) هو: فضالة بن عمير بن الملوح الليثى.

إلىَّ في الأرض كلها من وجهه[1].

هذا هو السماع ، وهذا هو البصر ، وكلاهما - السمع والبصر - أكرم المتعلقات وأشرفها ؛ لأن السمع هو وسيلة الاستماع لبلاغ الله عنه ، والإنسان قبل أن يقرأ لا بد له من أن يكون قد سمع .

والمقصود هنا بالعمى في قول الحق سبحانه: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ هو عمى البصيرة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

كلمة «الله» هي اسم عَلَم على واجب الوجود المتصف بكل صفات الكمال التي عرفناها في أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين ، وإن كان لله تعالى كمالات لا تتناهى ؛ لأن الأسماء أو الصفات التي يحملها التسعة والتسعون اسماً لا تكفي كل كمالات الله سبحانه ، فكمالاته سبحانه لا تتناهى.

ولذلك قال النبي ﷺ :

«أسألك بكل اسم سمَّيت به نفسك ، أو علَّمته أحداً من خَلْقك ، أو استأثرت به في علْم الغيب عندك»[2].

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٤/ ٤١٧) بلفظ : « والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خَلْق الله شيء أحب إليَّ منه » .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٩١ ، ٤٥٢) والحاكم في مستدركه (١/ ٥٠٩) من حديث ابن مسعود وصححه على شرط مسلم إنْ سَلِم من الإرسال .

وإن سأل سائل: ولماذا يستأثر الله سبحانه ببعض من أسمائه فى علم الغيب ؟

أقول: حتى يجعل لنا الله سبحانه فى الآخرة مزيداً من الكمالات التى لم نكن نعرفها ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يفتح على رسوله ﷺ «من محامده وحُسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله»[1].

وهذا بعض من فيض لا ينفد من آفاق اسم عَلَم على واجب الوجود ، وصفات علم واجب الوجود ، والتسعة والتسعون اسماً التى نعلمها[2] هى اللازمة لحياتنا الدنيا ، ولكننا سنجد فى الآخرة صفات كمال أخرى ، وكلمة «الله» هى الجامعة لكل هذه الأسماء ، ما عرفناها ؛ وما لم نعرفها.

والإنسان منا حين يُقبل على عمل ، فهذا العمل يتطلب تكاتُفَ صفات متعددة ، يحتاج إلى قدرة ، وعلم ، وحكمة ، ولُطْف ، ورحمة ، وغير ذلك من الصفات ، فإن قلت: باسم القوىّ ؛ فأنت تحتاج إلى القوة ، وإن قلت: باسم القادر ؛ فأنت تحتاج إلى القدرة ، وإن قلت: باسم الحليم ؛ فأنت تحتاج إلى الحلْم ، وإن قلت: باسم الحكيم ؛ فأنت تحتاج إلى الحكمة ، وإن قلت: «بسم الله» فهى تكفيك فى كل هذا وغيره أيضاً ؛

---

(١) وذلك فى يوم القيامة فى مقام شفاعة رسول الله ﷺ بعد تأخر إخوانه من الأنبياء عنها ، وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - « أن رسول الله ﷺ يأتى تحت العرش فيقع ساجداً ، ثم يفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله . ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع ، فيرفع الرسول ﷺ رأسه ويقول : يا رب أمتى ، أمتى » . من حديث طويل أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٢) ، ومسلم فى صحيحه (١٩٤) .

(٢) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٣٩٢) ومسلم (٢٦٧٧) وقد ورد ذكر أسماء الله الحسنى بالتفصيل فى رواية أخرى عن أبى هريرة أخرجها الترمذى فى سننه (٣٥٠٧) وابن ماجه (٣٨٦١) وطريق الترمذى أصح .

ولذلك يكون بدء الأعمال [١] بـ «بسم الله» ، فإذا احتجت إلى قدرة وجدتها ، وإن احتجت إلى غِنىً وجدته ، وإن احتجت إلى بَسْط [٢] وجدته.

وكل صفات الكمال أوجزها الحق سبحانه لنا في أن نقول: «بسم الله» . وحين تبدأ عملك باسم الله ؛ فأنت تُقرُّ بأن كل حَوْل [٣] لك موهوب من الله ، والأشياء التي تنفعل لك ،إنما تنفعل باسم الله ، وكل شيء إنما يسخر لك باسم الله ، وهو القائل:

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ [يس]

ولو لم يذلِّل الله لنا الأنعام والأشياء لتنفعل لنا ما استطعنا أن نملكها ، بدليل أن الله تعالى قد ترك أشياء لم يذللها لنا حتى نتعلَّم أننا لا نستطيع ذلك ، لا بعلْمنا ، ولا بقُدْرتنا ، إنما الحق سبحانه هو الذي يُذلِّل.

فأنت ترى الطفل في الريف وهو يسحب الجمل ، ويأمره بالرقود ؛ فيرقد ، ويأمره بالقيام ؛ فيقوم. أما إن رأينا ثعباناً فالكثير منا يجري ليهرب ، ولا يواجهه إلا من له دُرْبة على قتله. والبرغوث الصغير الضئيل قد يأتي ليلدغك ليلاً ، فلا تعرف كيف تصطاده ؛ لأن الله لم يذلِّله لك.

وكذلك الثمرة على الشجرة إذا قطفتها قبل نضجها تكون غير

---

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣٥٩) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كل كلام - أو أمر - ذي بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر - أو قال: أقطع».

(٢) أي: أن يبسط في رزقك ، فهو سبحانه الباسط. يقول سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٢٦)﴾ [الرعد].

(٣) الحول: القوة ، والحيلة والقدرة على تسيير أمورك في الحياة.

مستساغة ، أما إن قطفتها بعد نضجها فأنت تستمتع بطعمها ، ثم تأخذ منها البذرة لتعيد زراعتها ، وتضمن بقاء النوع ، بل إن الثمرة تسقط من على الشجرة حين تنضج وكأنها تنادى من يأكلها.

وكذلك الإنسان حين يبلغ ، أى: يصبح قادراً على أن ينجب غيره ، فيكلّفه الله بعد ذلك بالتكاليف الإيمانية ؛ لأنه لو كلّفه قبل ذلك [1] ثم طرأتْ عليه مشاكل المراهقة ؛ فقد لا يستطيع أن يتحمل التكليف .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يخلق من عدم ، وأن يربِّى حتى يكتمل الإنسان ، ثم حدَّد التكليف من لحظة البلوغ ، ووضع شرط اكتمال العقل والرشد ، وألا توجد آفة أو جنون.

ولا أقوى من الله سبحانه يمكن أن يُكلِّف لتفعل غير ما يريد الله ؛ لذلك شاء الحق سبحانه أن يكتمل للإنسان الرشد ساعة التكليف ، أما المجنون فلم يكلفه الله سبحانه ، وكذلك يسقط التكليف عن المُكْرَه ؛ لأن التكليف فى مضمونه هو اختيار بين البدائل ، وهذه منتهى العدالة فى التشريع.

وأنت حين تستقبل التكليف عليك ألا تنظر إلى ما تأخذه منك العبادات ، لأنها لا تأخذ من حريتك ، بل تحترم أنت حرية الآخرين ، ويحترمون هم حريتك ، فإن حرَّم عليك أن تسرق ، فهو سبحانه قد حماك بأن حرَّم على جميع الخلق أن يسرقوا منك [2] .

---

(١) لما استطاع القيام بما كلف به لأنه ليس بالغاً ؛ ولذلك كان التكليف مصاحباً للبلوغ ؛ ليكون هناك توازن تربوى يروض النفس إلى مرادات الله ، ولو قام الصبى بالتكاليف فله ثواب .

(٢) عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » أخرجه مسلم فى صحيحه (٤١) فجعل رسول الله ﷺ السلامة من الإيذاء سواء باللسان أو اليد علامة على حسن إسلام العبد .

إذن: فالقيد قد جاء لصالحك.

وهَبْ أنك أطلقت يدك فى الناس، فماذا تصنع لو أطلقوا هم أياديهم فيما تملك ؟

وحين حرَّم عليك التكليف أن تنظر إلى محارم غيرك ، فهو قد حرم على الغير أن ينظروا إلى محارمك .

وحين أمرك أن تزكِّى ، فهو قد أخذ منك ؛ ليعطى الفقير من المال الذى استخلفك الله فيه.

فلا تنظر إلى ما أخذ منك، بل انظر إلى ما قد يعود عليك إن أصابك القدر بالفقر ، والشىء الذى تستشعر أنه يؤخذ منك فالله سبحانه يعطيك الثواب أضعافاً كثيرة [1] .

وبعد ذلك انظر إلى حركة الحياة ، وانظرْ إلى ما حَرَّم الله تعالى عليك من أشياء ، وما حَلَّل لك غير ذلك؛ فستجد المباح لك أكثر مما منعك عنه.

إذن: فالتكليف لصالحك .

ثم بعد كل ذلك: أيعود شىء مما تصنع من تكاليف على الحق سبحانه ؟ لا .

أيعطيه صفة غير موجودة ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه قد خلقنا بكل صفات كماله ، وليس فى عملنا ما يزيده شيئاً.

---

(١) يقول الله - عز وجل - فى كتابه الكريم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) ﴾ [النساء] . وقد قال عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) ﴾ [المؤمنون] - ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ .. (١٠٣) ﴾ [التوبة] - ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾ [المعارج] .

إذن: فمن المصلحة أن تطبّق التكاليف لأنها تعود عليك أنت بالخير.

وانظر - مثلاً - إلى الفلاح فى الحقل، إنه يحرث الأرض، وينقل السماد، ويبذر، ويروى ويتعب، وبعد ذلك يستريح فى انتظار الثمار.

وأنت حين تنفِّذ تكاليف الحق[1] سبحانه فأنت تجد العائد، وأنت ترى فى حياتك أن الفلاح الكسول يصاب بحسرة يوم الحصاد، فما بالنا بحساب الآخرة.

والفلاح الذى يأخذ من مخزنه إردبّاً؛ ليزرعه، وهو فى هذه الحالة لا ينقص مخزنه؛ لأنه سيعود بعد فترة بخمسة عشر إردبّاً.

وهكذا من ينفِّذ التكاليف يعود عليه كل خير؛ ولذلك أقول: انظر فى استقبالات منهج الله تعالى فيما تعطيه، لا فيما تأخذه.

وهكذا ترى أنه لا ظلم؛ لأننا صنعة الله، فهل رأيتم صانعاً يفسد صنعته؟

إذن: فالصانع الأعلى لا يظلم صنعته ولا يفسدها أبداً، بل يُحسِّنها ويعطيها الجمال والرونق[2]؛ لذلك يقول الحق سبحانه:

---

(١) تكاليف الحق سبحانه هى أوامره ونواهيه، يكلف بها الله من آمن به، ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام]

(٢) وفى هذا يقول رب العزة: ﴿الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧)﴾ [السجدة] ويقول فى آية أخرى: ﴿اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ .. (٦٤)﴾ [غافر].

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس]

أى: أن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ، ومن الظلم جَحْد الحق ، وهذا هو الظلم الأعلى ، ومن الظلم أن يعطى الإنسان نفسه شهوة عاجلة ؛ ليذوق من بعد ذلك عذاباً آجلاً ، وهو بذلك يحرم نفسه من النعيم المقيم ، وهو حين يظلم نفسه يكون قد افتقد القدرة على قياس عمره فى الدنيا ، فالعمر مهما طال قصير ، وما دام الشىء له نهاية فهو قصير.

والحق سبحانه وتعالى حين يخاطب الناس ، فهو قد نصب لهم آيات باقية إلى أن تقوم الساعة ، وكلهم شركاء فيها ، وهى الآيات الكونية [1] ، وبعد ذلك خَصَّ كل رسول بآية ومعجزة ، وأنزل منهجاً بـ «افعل» و«لا تفعل» ، وبيَّن فى آيات الكتاب ما المطلوب فعله ، وما المطلوب أن نمتنع عنه [2] ، وترك لك بقية الأمور مباحة.

والمثال الذى أضربه دائماً: هو التلميذ الذى يرسب آخر العام ، هذا التلميذ لم تظلمه المدرسة ، بدليل أن غيره قد نجح ؛ لذلك لا يصح أن يقال: إن المدرسة أسقطت فلاناً ، ولكن الصحيح أن نقول: إن فلاناً قد أسقط نفسه ، وأن زميله قد أنجح نفسه ، ودور المدرسة فى ذلك هو إعلان النتيجة.

---

(١) قد جعل الله فى الكون آيات خاطب بها الله كل الناس ليتفكروا فيها وليصلوا بها إلى أن لهذا الكون خالقاً واحداً ، وقد جمعها الله فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة]

(٢) وذلك فى نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام].

ومن الظلم أيضاً أن يستكثر الظالم نعمة عند المظلوم ، فيريد أن يأخذها منه ، ولا يمكن أن يكون الحق سبحانه وتعالى ظالماً يستكثر نعَم عباده ؛ لأنه مُنزَّه عن ذلك ؛ فضلاً عن أن خَلْقه ليس عندهم نعَم يريدها هو ، فهو الذى أعطاها لهم ؛ ولذلك لا يأتى منه سبحانه أى ظلم ، وإنْ جاء الظلم فهو من الإنسان لنفسه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا[1] إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

فهذه الدنيا التى يتلهف عليها الإنسان ، ويأخذ حظه فيها ، وقد ينسى الآخرة ، فإذا ما قامت القيامة فأنت تشعر كأنك لم تمكث فى الدنيا إلا ساعة ، والساعة هى الساعة الجامعة التى تقوم فيها القيامة ، ولكن الساعة في الدنيا هى جزء من الوقت ، ونحن نعلم أن اليوم مقسَّم لأربع وعشرين ساعة ، وأيضاً تُطلق الساعة على تلك الآلة التى تُعلَّق على الحائط أو يضعها الإنسان على يده ، وهى تشير إلى التوقيت.

والتوقيت ثابت - بمقدار الساعة والدقيقة والثانية - منذ آدم عليه السلام وإلى من سوف يأتون بعدنا ، ولكن التوقيت يختلف من مكان إلى آخر ، فتشير الساعة فى القاهرة - مثلاً - إلى الثانية ظهراً ، وتكون فى نيويورك السابعة صباحاً ، وتشير فى بلد آخر إلى الثالثة بعد منتصف الليل ، ولا تتوحد الساعة بالنسبة لكل الخلق إلا يوم القيامة .

---

(١) لبث : مكث .

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ..(٥٥)﴾ [الروم]

وهم - إذن - يُفاجَأون أن دنياهم الطويلة والعريضة كلها مرَّتْ وكأنها مجرد ساعة [1]، وهكذا يكتشفون قصَر ما عاشوا من وقت ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل إنهم لم ينتفعوا بها أيضاً فهى مدة من الزمن لم تكن لها قيمة.

والحق سبحانه يقول:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾ [الأحقاف]

أى: أن الدنيا تمر عليهم فى لهو ولعب ومشاغل ، ولم يأخذوا الحياة بالجد اللائق بها [2] ؛ فضاعت منهم وكأنها ساعة.

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ ..(٤٥)﴾ [يونس]

ويوم الحشر ينقسم الناس قسمين: قسم مَنْ كانوا يتعارفون على البر ، وقسم مَنْ كانوا يتعارفون على الإثم ، فالذين تعارفوا فى الحياة الدنيا على

(١) الساعة : أصلها جزء من الزمن غير محدد يلاحظ فيه القلة ، قال تعالى : ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم] أى : مدة قليلة ، وقوله : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)﴾ [الأعراف] أى : لا يتأخرون لحظة ، والساعة يوم القيامة قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. (٥٥)﴾ [الروم] أى : القيامة.

(٢) ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩)﴾ [الإسراء] ، فالسعى للآخرة لا بد أن يكون بالنسبة إلى عِظَم هذا اليوم الأخير.

البر يفرحون ببعضهم البعض ، وأما الذين تعارفوا فى الحياة الدنيا على الإثم فهم يتنافرون بالعداء ، والحق سبحانه هو القائل: ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

وكذلك قال فى الذين تعارفوا على الإثم:

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا .. (١٦٦) ﴾ [البقرة]

هم سيتعارفون على بعضهم البعض ، ولكن هذه المعرفة لا تدوم ، بل تنقلب إلى نكران ، فالواحد منهم لا يريد أن يرى مَنْ كان سبباً فى أن يؤول إلى هذا المصير ، وتعارفهم سيكون تعارف تعنيف.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ .. (٤٥) ﴾ [يونس]

وساعة تسمع كلمة «خسر» فاعرف أن الأمر يتعلق بتجارة ما ، والخسارة[1] تعنى : أن يفقد الإنسان المتاجر إما جزءاً من رأس المال ، أو رأس المال كله.

ومراحل التجارة - كما نعرف - إما كسب يزيد رأس المال المتاجَر فيه ، وإما ألاَّ يكسب التاجر ولا يخسر ؛ لكنه يشعر بأن ثمن عمله ووقته فى هذه التجارة قد ضاع ، وكل ذلك يحدث فى الصفقات.

(١) خسر : أى خسر الرجل فى تجارته خسراً وخساراً وخسارة وخسراناً ، غبن فيها ولم يربح وأصابه النقص . وخسر الرجل : ضل . فهو خاسر ، وهو خسير ، قال تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ..(٣١) ﴾ [الأنعام] . وخسر نفسه : أهلكها بالضلال ، وقوله تعالى : ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ..(١١) ﴾ [الحج] .

ومن الفعل اللازم قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) ﴾ [النساء] ، وقد يأتى متعدياً ، ومثله قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ..(١٥) ﴾ [الزمر] [القاموس القويم] .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يصف العملية الإيمانية فى الدنيا بقوله:

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) ﴾ [الصف]

ويقول سبحانه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً[1] لَّن تَبُورَ (٢٩) ﴾ [فاطر]

والتجارة تعتمد على أنك لا تُقبل على عقد صفقة إلا إذا غلب على ظنك أن هذه الصفقة سوف تأتى لك بأكثر مما دفعت فيها.

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصفقات الخاسرة:

﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾ [البقرة]

ويقول أيضاً:

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. (١١) ﴾ [الجمعة]

---

(١) تجر من باب نصر - تجراً وتجارة: باع واشترى طلباً للربح، وتطلق التجارة على المال الذى يتجر فيه التاجر - وتطلق التجارة مجازاً على العمل الذى يترتب عليه خير، كأن الثواب ربح، وكأن الحرمان منه خسارة، قال تعالى: ﴿ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة]، التجارة هى المتجر فيه، وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) ﴾ [فاطر] هى الأعمال الصالحة، وقوله: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف]، هى التجارة بالمعنى المجازى أى العمل الصالح. [القاموس القويم]

وشاء الحق سبحانه أن يجعل معنى التجارة واضحاً ومعبِّراً عن كثير من المواقف ؛ لأن التجارة تمثِّل جماع كل حركة الحياة ؛ فهذا يتحرك فى ميدان ؛ لينفع نفسه ، وينفع غيره ، وغيره يعمل فى ميدان آخر ؛ فينفع نفسه ، وينفع غيره.

وبهذا يتحقق نفع الإنسان من حركة نفسه وحركة غيره ، وهو يستفيد من حركة غيره أكثر مما يستفيد من حركته هو ، ومن مصلحة أى إنسان أن يحسِّن كل إنسان حركته ؛ فيرتاح هو ؛ لأن ما سوف يصل إليه من حركة الناس سيكون جيد الإتقان.

والتجارة تحمل أيضاً الوساطة بين المنتج والمستهلك .

ولذلك حين أراد الله سبحانه أن نستجيب لأذان الجمعة قال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ⑨ ﴾ [الجمعة]

ولم يقل الله سبحانه: اتركوا الزراعة أو اتركوا الصناعة ، أو اتركوا التدريس ، بل اختار من كل حركات الحياة حركة البيع ؛ لأن فيه تجارة ، والتجارة هى الجامعة لكل حركات الحياة.

والتاجر وسيط بين منتج ومستهلك وتقتضى التجارة شراءً وبيعاً ، والشراء يدفع فيه التاجر ثمناً ، أما فى البيع فهو يأخذ الثمن ، والغاية من كل شىء أن يتموَّل الإنسان .

لذلك فالبيع أفضل عند التاجر من الشراء ، فأنت قد تشترى شيئاً وأنت كاره له ، لاحتياجك إليه ، ولكنك عند بيع البضاعة تشعر بالسعادة والإشراق ، ولأن الشراء فيه أخذ ، والبيع فيه عطاء ، والعطاء يرضى النفس دائماً ؛ لأن ثمرة الصفقة تأتيك فى لحظتها.

وإن كنت مزارعاً فأنت تُعدّ الأرض ، وتحرثها ، وتبذر البذور ، وترويها ، وتُشَذِّب النبات ، وتنتظر إلى أن ينضج الزرع ، وكذلك تقضى الكثير من الوقت فى إتقان الصنعة إن كنت صانعاً ، لكن البيع فى التجارة يأتى لك بالكسب سريعاً ، فكأن ضَرْبَ المثل فى التجارة ، جاء من أصول التجارة بالبيع ولم يأتِ بالشراء.

إذن : لا بد أن نعتبر أن دخولك فى صفقة الإيمان تجارة ، تأخذ منها أكثر من رأسمالك ، وتربح ، أما إن تركت بعضاً من الدِّين ؛ فأنت تخسر بمقدار ما تركت ، بل وأضعاف ما تركت.

وأنت فى أية صفقة قد تعوِّض ما خسرت فيما بعد ، وإن استمرت الخسارة فإن أثرها لا يتجاوز الدنيا ، ويمكن أن تربح بعدها ، وإذا لم تربح ، فسيضيع عليك تعبك فقط ؛ ولأن الدنيا محدودة الزمن ؛ فخسارتها محتملة ، أما الخسارة فى الزمان غير الموقوت - الزمن الدائم - فهى خسارة كبيرة ؛ لأن الآخرة ليس فيها أغيار كالدنيا ، وأنت فى الآخرة إما فى جنة ذات نعيم مقيم ، وفى هذا ربح وكسب كبير ، وإما إلى نار ، وهذه هى الخسارة الحقيقية.

والخسران الحقيقى أن يكذِّب الإنسان ، لا بنعيم الله فقط ، ولكن بلقاء الله أيضاً.

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ..(٤٥) ﴾ [يونس]

أى : أن الله سبحانه لم يكن فى بالهم ، وهم حين تقوم الساعة يجدون الله - سبحانه وتعالى - أمامهم.

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ [١] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً .. (٣٩) ﴾ [النور]

والسراب كما نعلم يراه السائر فى الصحراء ، وهو عبارة عن انعكاس للضوء ؛ فيظن أن أمامه ماء ، ولكن إن سار إليه الإنسان لم يجده ماء ، وهكذا شبَّه الحق سبحانه عمل الكافر بمن يسير فى صحراء شاسعة ، ويرى السراب ؛ فيظنه ماءً ، لكنه سراب ، ما إن يصل إليه حتى ينطبق عليه قول الحق سبحانه :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

أى : أنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه وتعالى ، فيوفيه الله حسابه .

ولذلك فالذى يكفر بالله ويعمل ما يفيد البشر ، فإنه يأخذ حسابه ممن عمل له ، ولا يُحسب له ذلك فى الآخرة ، وتجد الناس يُكرّمونه ، ويقيمون له التماثيل أو يمنحونه الجوائز وينطبق عليه قول الرسول ﷺ :

«فعلتَ ليقال ، وقد قيل» [٢] .

---

(١) السراب : ما يُرى فى نصف النهار من اشتداد الحر كالماء فى الصحراء يلتصق بالأرض . وهو من خداع البصر . وقد سُمِّى السراب سراباً لأنه يسرب سروباً ، أى : يجرى جرياً ، أى : يتحرك حركة تخدع الرائى من بعيد ؛ فيظنه ماء وهو ليس بماء ، بل خداع ضوئى وبصرى ناتج عن الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه ووجوده فى صحراء قاحلة ؛ فأى حركة من بعيد يظنها ماء ؛ ويجرى إليها ؛ ليفاجأ بعدم وجود شىء . [اللسان : مادة (س ر ب) بتصرف] .

والقيعة : أرض واسعة مستوية لا تنبت الشجر . قال الفرّاء : القيعة جمع القاع ، والقاع : ما انبسط من الأرض . قال تعالى : ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) ﴾ [طه] . [اللسان : مادة (ق و ع) بتصرف] .

(٢) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلّمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء . فقد قيل . ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقى فى النار . . » . الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) والنسائى فى سننه (٦/ ٢٣) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .

وهنا يقول الحق سبحانه عن الذين كَذّبوا بلقاء الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [يونس]

أي : لم يكونوا سائرين على المنهج الذى وضعه لهم خالقهم سبحانه ؛ هذا المنهج الذى يمثّل قانون الصيانة لصنعة الله تعالى ، وقد خلق الله سبحانه الإنسان لمهمة ، والله سبحانه يصون الإنسان بالمنهج من أجل أن يؤدى هذه المهمة .

والهداية هى الطريق الذى إن سار فيه الإنسان فهو يؤدى به إلى تحقيق المهمة المطلوبة منه ؛ لأن الحق سبحانه قد جعله الخليفة فى الأرض .

ومن لا يؤمن برب المنهج سبحانه وتعالى ولا يطبق المنهج فهو إلى الخسران المبين ، أي : الخسران المحيط .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وقول الحق سبحانه : ﴿وَإِمَّا﴾ مكونة من «إن» و«ما» مدغومتين ، وهنا يبين لنا الحق سبحانه أنه يعد الذين كذبوا رسوله ﷺ بالعذاب والهوان والعقاب والفضيحة .

أي : يا محمد ، إما أن ترى ما قلناه فيهم من خذلان وهوان ، وإما أن نتوفينَّك قبل أن ترى هذا فى الدنيا ، ولكنك ستراه فى الآخرة حين تشاهدهم فى الهوان الأبدى الذى يصيبهم فى اليوم الآخر .

وفى هذا تسرية لرسول الله ﷺ .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ .. (٤٦) ﴾ أى : أن نريك ما وعدناهم من الخذلان والهوان فى هذه الحياة ، وإن لم تره فى الحياة الدنيا فلسوف ترى هوانهم فى الآخرة ، حيث المرجع إلى الله تعالى ؛ لأنه سبحانه سيصيبهم فى أنفسهم بأشياء فوق الهوان الذى يُرى فى الناس ؛ كحسرة فى النفس ، وكبْت للأسى حين يرون نصر المؤمنين .

أما الذى يُرى فهو الأمر الظاهر ، أى : الخذلان ، والهزيمة ، والأسى ، والقتل ، وأخْذ الأموال ، وسَبْى النساء والأولاد ، أو غير ذلك مما سوف تراه فيهم - بعد أن تفيض روحك إلى خالقها - فسوف ترى فيهم ما وعدك الله به .

وأنت لن تحتاج إلى شهادة من أحد عليهم ، لأنه سبحانه : ﴿ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) ﴾ .

وكفاك الله سبحانه شهيداً : ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) ﴾ [النساء]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ(١) وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾

---

(١) قسَطَ يقسط - كضرب - قسطاً وقسوطاً ، وقسط يقسط قسطاً كنصر : ظلم أو عدل ، من الأضداد ، وتفهم بالقرائن ، واستعمله القرآن بمعنى ظلم فى قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) ﴾ [الجن] وأقسط : عدل وأزال الظلم ، واستعمله القرآن بمعنى العدل فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ .. (٢٩) ﴾ [الأعراف] . والقسطاس : الميزان والعدل . « القاموس القويم » .

والحق سبحانه لا يظلم أحداً ، ولا يعذب قوماً إلا بعد أن يكفروا بالرسول الذى أرسله إليهم ، وهو سبحانه القائل :

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا [1] فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾ [فاطر]

وهو سبحانه القائل أيضاً :

﴿لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١)﴾ [الأنعام]

فلا تجريم ولا عقوبة إلا بنص وببيان لتجريم هذا الفعل أو ذاك ، بإرسال الرسل ؛ حتى لا يحتج أحد بأنه لم يصل إليه شىء يحاسب بمقتضاه .

والحق سبحانه هنا يبيِّن أن لكل أمة رسولاً يتعهدها بأمور المنهج .

وقد خلق الحق سبحانه كل الخلق ، وكانوا موحِّدين منذ ذرية آدم - عليه السلام - ثم اقتضت الأحداث أن يتباعدوا ، وانتشروا فى الأرض ، وصارت الالتقاءات بعيدة ، وكذلك المواصلات ، وتعددت الآفات بتعدد البيئات .

ولكن إذا تقاربت الالتقاءات ، وصارت المواصلات سهلة ، فما يحدث فى الشرق تراه فى لحظتها وأنت فى الغرب ، فهذا يعنى توحُّد الآفات أو تكاد تكون واحدة ؛ لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم ﷺ ، أما فى الأزمنة القديمة ، فقد كانت أزمنة انعزالية ، تحيا كل جماعة بعيدة عن الأخرى ؛ ولذلك كان لا بد من رسول لكل جماعة ؛ ليعالج داءات البيئة ، أمَا وقد التقت البيئات ، فالرسول الخاتم يعالج كل الداءات [2] .

---

(١) خلا : مضى وسلف . ومنه قوله تعالى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾ [الحاقة] أى : الماضية .

(٢) وذلك لأن رسالة الإسلام هى جماع القيم لكل دين سابق ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣)﴾ [الشورى] .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾ [يونس]

وقد حكى التاريخ لنا ذلك ، فكل رسول جاء آمن به البعض ، وكفر به البعض الآخر ، والذين آمنوا به انتصروا ، ومَنْ كفروا به هُزِمُوا.

أو أن الآية عامة ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ أي: تُنادى كل أمة يوم القيامة باسم رسولها ، يا أمة محمد ﷺ ، ويا أمة موسى ، ويا أمة عيسى . . . إلخ.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلاءِ شَهِيدًا [1] (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢) ﴾ [النساء]

إذن: فالحق سبحانه هنا يبيِّن أن لكل أمة رسولاً جاءها بالبلاغ عن الله ، وقد آمن به مَنْ آمن ، وكفر به مَنْ كفر ، وما دام الإيمان قد حدث - وكذلك الكفر - فلا بد من القضاء بين المؤمنين والكافرين.

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليَّ» فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل. قال: «نعم ، إني أحب أن أسمعه من غيري» فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلاءِ شَهِيدًا (٤١) ﴾[النساء] فقال ﷺ : «حسبك الآن» فإذا عيناه تذرفان. أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠٥٠) وأحمد في مسنده (٣٨٠/١).

واللغة تقول : الشهيد صيغة مبالغة في الشاهد ، والشهيد من أسماء الله الحسنى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) ﴾ [النساء] وقوله : ﴿ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة] أي شاهد . والشهيد من قتل في سبيل الله ، والشهادة : خبر قاطع ، والشاهد اسم فاعل وجمعه شهد وشهود . [القاموس القويم] .

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يونس]

وما دام فى الأمر قضاء ، فلا بد أن المؤمن يَعتبر الكافر منازعاً له ، وأن الكافر يَعتبر المؤمن منازعاً له ، ويصير الأمر قضية تتطلب الحكم ؛ لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يونس]

أى: يُقضى بينهم بالعدل ، فالمؤمنون يتقصَّى الحق سبحانه حسناتهم ويزيدها لهم ، أما الكافرون فلا توجد لهم حسنات ؛ لأنهم كفروا بالله الحق ؛ فيوردهم النار ، وهم قد أبلغهم رسول الله ﷺ أنه سيأتى يوم يُسألون فيه عن كل شىء ، فاستبعدوا ذلك وقالوا:

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الصافات]

لقد تعجبوا من البعث وأنكروه ، لكنهم يجدونه حتماً وصدقاً.

ويشاء الحق سبحانه أن يُدخل عليهم هذه المسألة دخولاً إيمانياً ، فيقول:

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ ..﴿١٥﴾ ﴾ [ق]

فأنتم إذا متُّم وتحلَّلتم فى التراب ، أيعجز الله سبحانه أن يخلقكم من جديد ؟ لا ؛ إنه سبحانه القائل:

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ق]

أى: أنه سبحانه يأمر العناصر الخاصة بكل إنسان أن تتجمَّع كلها ، وليس هذا بعسير على الله الذى خلقهم أولاً.

وهم قد كَذَّبوا واستنكروا واستهزأوا بمجيء يوم القيامة والبعث ، وبلغ استهزاؤهم أن استعجلوا [١] هذا اليوم ، وهذا دليل جهلهم ، وكان على الواحد منهم أن يفر من هول ذلك اليوم.

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك على ألسنتهم:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

هذا الإنكار والتكذيب والاستهزاء هو منطق المشركين والملحدين [٢] فى كل زمان ومكان ، وفى العصر القريب قاله الشيوعيون عندما قاموا بثورتهم الكاذبة ، وذبحوا الطبقة العليا فى المجتمع بدعوى رفع الظلم عن الفقراء .

وإذا ما كانوا قد آمنوا بضرورة الثواب والعقاب ، فمن الذى يحكم ذلك ؟ هل الظالم يحكم على ظالم ، فتكون النتيجة أن الظالم سيهلك بالظالم ، وقد حدث ، فأين الشيوعيون الآن ؟

لماذا لم يلتفتوا إلى أن لهذا الكون خالقاً يعاقب من ظلموا من قبل ، أو من يظلمون من بعد ؟

إنهم لم يلتفتوا ؛ لأنهم اتخذوا المادة إلهاً ، وقالوا : لا إله ، والحياة مادة ، فأين هم الآن ؟

وإن كنتم قد تملّكتم فى المعاصرين لكم ، وادعيتم أنكم نشرتم العدل بينهم ، فماذا عن الذين سبقوا ، والذين لحقوا ؟

---

(١) وقد قال رب العزة عنهم: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ..﴿٤٧﴾ ﴾ [الحج] ، ويقول سبحانه فى آية أخرى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ..﴿٥٣﴾ ﴾ [العنكبوت].

(٢) الملحدون: جمع ملحد ، وهو الطاعن فى الدين ، المائل عنه. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ..﴿٤٠﴾ ﴾ [فصلت]. [المعجم الوسيط : مادة (لحد)].

هم - إذن - لم يلتفتوا إلى أن الله سبحانه وتعالى قد شاء ألا يموت ظالم إلا بعد أن ينتقم الله منه [١].

وهم لم يلتفتوا إلى أن وراء هذه الدار داراً أخرى يجازَى فيها المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته.

وكان المنطق يقتضى أن يؤمن هؤلاء بأن لهذا الكون إلهاً عادلاً، ولابد أن يجىء اليوم الذى يجازى فيه كل إنسان بما عمل، ولكنهم سخروا مثل سخرية الذين كفروا من قبلهم، وجاء خبرهم فى قول الله سبحانه على ألسنتهم: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) ﴾ [يونس]

ولكن وعد الله حق، ووعد الله قادم، ومحمد ﷺ رسول من الله، يبلغ ما جاء من عند الله تعالى، فرسول الله ﷺ لا يملك لنفسه شيئاً.

ولذلك يقول القرآن بعد ذلك:

﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) ﴾

والرسول ﷺ يبرِّىء نفسه من كل حَوْل وطَوْل [٢]، ويعلن ما أمره الحق

---

(١) يقول الحق: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) ﴾ [إبراهيم]، ويقول الرسول ﷺ: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته».

(٢) الحَوْل: الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف فى الأمور.
والطول: الفضل والغنى واليسر. قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم .. (٢٥) ﴾ [النساء]. [المعجم الوسيط].

سبحانه أن يعلنه ، فهو ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ؛ لأن النفع أو الضر بيد خالقه سبحانه ، وهو سبحانه وتعالى خالقكم ، وكل أمر هو بمشيئته سبحانه .

وهذه الآية جاءت رداً على سؤالهم الذى أورده الحق سبحانه فى الآية السابقة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) ﴾ [يونس]

لقد تساءلوا بسخرية عن هذا الوعد بالعذاب ، وكأنهم استبطأوا نزول العذاب تهكُّماً ، وهذا يدل على أن قول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾ [يونس]

هذه الآية لم تنزل ليوم القيامة ، بل نزلت لتوضح موقف مَنْ كفروا برسول الله ﷺ والذين قالوا بعد ذلك :

﴿ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) ﴾ [يونس]

وهذا يعنى أنهم قالوا هذا القول قبل أن تقوم القيامة ، والآية التى توضح أن لكل أمة رسولاً تؤيدها آيات كثيرة ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) ﴾ [الأنعام]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً .. (١٣٤) ﴾ [طه]

وكل ذلك يؤيد أن الرسول المرسل إلى الأمة هو الرسول الذى جاء بمنهج الله تعالى ؛ فآمن به قوم ، وكذَّب به آخرون ، وقضى الله بين المؤمنين والكافرين بأن خذل الكافرين ونصر المؤمنين.

وإن استبطأ الكافرون الخذلان فلسوف يرونه ؛ ولذلك أمر الحق سبحانه رسوله ﷺ :

﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا .. (٤٩) ﴾ [يونس]

أى : أنكم إن كنتم تسألون محمداً ﷺ عن الضر والنفع ، فهو ﷺ مبلِّغ عن الله تعالى ، ولا يملك لنفسه ضَرّاً ولا نفعاً ، فضلاً عن أن يملك لهم هم ضَرّاً أو نفعاً ، وكل هذا الأمر بيد الله تعالى ، ولكل أمة أجلٌ [1] ينزل بالذين كفروا فيها بالعذاب ، ويقع فيها القول الفصل.

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ..(٤٩) ﴾ [يونس]

يفيد أن مشيئة الله هى الفاصلة ، ويدل على أن النبى والناس لا يملكون لأنفسهم الضر أو النفع ؛ لأن الإنسان خُلق على هيئة القَسْر [2] فى أمور ، وعلى هيئة الاختيار فى أمور أخرى ، والاختيار هو فى الأمور التكليفية

(١) الأجل – مدة الشيء ، وغاية الوقت ووقت الحياة ، أو وقت الدين أو وقت العمل . والأجل نفس الوقت الذى أجل له الأمر : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ ..(٢٩) ﴾ [القصص] أى : أتم المدة المحددة له ، وأجَّل الشيء : حدد له أجلاً مستقبلاً : ﴿ لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) ﴾ [المرسلات] أى : حد الموت أو الهرم وقوله : ﴿ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ..(٢) ﴾ [الأنعام] الأول : هو مدة البقاء فى الدنيا ، والثانى : هو مدة البقاء فى القبور إلى يوم القيامة ، أو مدة الحياة الآخرة ، وقوله : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ..(٢٣٤) ﴾ [البقرة] . أى : نهاية مدة العدة . والآجل ضد العاجل ، والآجلة ضد العاجلة . [القاموس القويم] .

(٢) القسر : القهر والإجبار .

مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾
[الكهف]

وأنت حُـرٌّ فى أن تطيع أو أن تعـصى ، وكل ذلك داخل فى نطاق اختيارك ، وإن صنع الإنسان طاعة ، فهو يصنع لنفسه نفعاً ، وإن صنع معصية ، صنع لنفسه ضَرّاً.

إذن: فهناك فى الأمور الاختيارية ضر ونفع .

ومثال ذلك: من ينتحر بأن يشنق نفسه ، فهو يأتى لنفسه بالضر ، وقد ينقذه أقاربه ، وذلك بمشيئة الله سبحانه.

إذن: ففى الأمور الاختيارية يملك الإنسان - بمشيئة الله - الضر أو النفع لنفسه ، والله سبحانه يبين لنا أن لكل أمة أجلاً ، فلا تحددوا أنتم آجال الأمم ؛ لأن آجالهم - استئصالاً ، أو عذاباً -هى من عند الله سبحانه وتعالى.

والعباد دائماً يعجلون ، والله لا يعجل بعجلة العباد ، حتى تبلغ الأمور ما أراد سبحانه ، فالله تعالى مُنزَّه أن يكون موظفاً عند الخلق ، بل هو الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

وهو سبحانه القائل:

﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِى فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧)﴾ [الأنبياء]

وهو سبحانه القائل:

﴿وَيَدْعُ الإنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً[1] (١١)﴾
[الإسراء]

(١) عَجُولاً: صيغة مبالغة تفيد التعجّل فى الأمور. واستعجل الأمر طلبه عاجلاً سريعاً ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ..(١١)﴾ [يونس] والعاجل: السريع ضد الآجل، والعاجلة الدنيا ، والآجلة الآخرة ، يقول الحق: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠)﴾ [القيامة] . أى: الدنيا، وعجل الأمر طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة ، وعجل الأمر سبقه . قال الحق سبحانه: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنْ بَعْدِى أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ..(١٥٠)﴾ [الأعراف] .

إذن: فالحق سبحانه يؤخِّر مراداته رحمة بالخَلْق ، وإذا جاء الأجل فهو لا يتأخر عن ميعاده ، ولا يتقدم عن ميعاده.

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩)﴾ [يونس]

وقوله سبحانه : ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ليست من مدخلية جواب الشرط الذى جاء بعد ﴿إِذَا[1] جَاءَ أَجَلُهُمْ .. (٤٩)﴾ [يونس]

لأن الجواب هو : ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾.

فهم لا يستقدمون قبل أن يحين الأجل.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ (٥٠)﴾

وهذا رَدٌّ شاف على استعجالهم للعذاب ، فإن جاءكم العذاب فَلْنَرَ ماذا سيكون موقفكم ؟

وهُمْ باستعجالهم العذاب يبرهنون على غبائهم فى السؤال عن وقوع العذاب.

وقول الحق سبحانه: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ . أى: أخبرونى عما سوف يحدث لكم.

---

(١) إذا : تأتى لمعنيين شرطية وفجائية . إذا الشرطية : اسم شرط للزمن المستقبل ، فتختص بالدخول على الجملة الفعلية ، وتعرب إذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه ، قال تعالى : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ .. (٥٤)﴾ [الأنعام] ، وتدخل أحياناً على الأسماء المرفوعة ، فيكون المرفوع بعدها فاعلاً لفعل محذوف يفسره الفعل الذى بعده مثل : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١)﴾ [الانشقاق] أى : إذا انشقت السماء ، وإذا تكون حرفاً للمفاجأة ، وتخفض بالجملة الإسمية ، قال تعالى : ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠)﴾ [طه] « القاموس القويم ».

وشاء الحق سبحانه أن يأتى أمر العذاب هنا مبهماً من جهة الزمان فقال سبحانه:

﴿ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا ..(٥٠) ﴾ [يونس]

والبيات مقصود به الليل؛ لأن الليل محل البيتوتة، والنهار محل الظهور.

والزمن اليومى مقسوم لقسمين: ليل، ونهار.

وشاء الحق سبحانه إبهام اليوم والوقت، فإن جاء ليلاً، فالإنسان فى ذلك الوقت يكون غافلاً نائماً فى الغالب، وإن جاء نهاراً، فالإنسان فى النهار مشغول بحركة الحياة.

والحق سبحانه يقول فى موضع آخر:

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا [1] بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) ﴾ [الأعراف]

ويقول سبحانه:

﴿ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) ﴾ [الأعراف]

ولو نظرت إلى الواقع لوجدت أن العذاب يأتى فى الليل وفى النهار معاً؛ لأن هناك بلاداً يكون الوقت فيها ليلاً، وفى ذات الوقت يكون الزمن نهاراً فى بلاد أخرى.

وإذا جاء العذاب بغتة، وحاولوا إعلان الإيمان، فلن ينفعهم هذا

---

(١) بأسنا: عذابنا والبأس القوة، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]، أى: قوة وصلابة، وقوله تعالى: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ..(٨٤) ﴾ [النساء] شدتهم وقوتهم فيصدهم عنكم، وقوله الحق: ﴿ وَحِينَ الْبَأْسِ ..(١٧٧) ﴾ [البقرة]، أى: وقت الحرب الشديدة، وقول الحق: ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ.. (٨١) ﴾ [النحل]، أى: شدتكم وقوتكم فى الحرب، فتحفظكم الدروع من أخطار الحرب. والبأساء: الفقر والشدة، ويقول الحق: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ .. (١٧٧) ﴾ [البقرة] فى وقت الفقر والحاجة.

الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يقول فيمن يتخذ هذا الموقف :

﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس]

فإن جاءكم العذاب الآن لما استقلتم منه ؛ لأنه لن ينفعكم إعلان الإيمان ، ولن يقبل الله منكم ، وبذلك يصيبكم عذاب فى الدنيا ، بالإضافة إلى عذاب الآخرة ، وهذا الاستعجال منكم للعذاب يضاعف لكم العذاب مرتين ، فى الدنيا ، ثم العذاب الممتد فى الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ﴾

أى : إذا ما وقع العذاب فهل ستؤمنون؟

إن إعلان إيمانكم فى هذا الوقت لن يفيدكم ، وسيكون عذابكم بلا مقابل .

إذن : فاستعجالكم للعذاب لن يفيدكم على أى وضع ؛ لأن الإيمان لحظة وقوع العذاب لا يفيد .

ومثال ذلك : فرعون[1] حين جاءه الغرق ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ الَّذِى

---

(١) وذلك أن فرعون خرج فى جيش كبير يقدر بمائة ألف ولحق بموسى عند حافة البحر وقت شروق الشمس ، فأوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ [الشعراء] ، ثم يقول سبحانه : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس]

وعن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « لما أغرق الله فرعون قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل . قال جبريل : يا محمد فلو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر (أى : طين البحر) فأدسه فى فيه (أى : فمه) مخافة أن تدركه الرحمة » أخرجه الترمذى فى سننه و قال : حديث حسن . وانظر تفسيرى ابن كثير (٢/ ٤٣٠) والقرطبى (٤/ ٣٣٠٥) .

آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ..(٩٠)﴾ [يونس]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ[1] هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢)﴾

وهذا إخبار عن العذاب القادم لمن كفروا ويلقونه فى اليوم الآخر ، فهم بكفرهم قد ظلموا أنفسهم فى الدنيا ، وسيلقون العذاب فى الآخرة ، وهو ﴿عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أى: عذاب لا ينتهى .

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ .

أى: أن الحق سبحانه لم يظلمهم ، فقد بلغهم برسالة الإيمان عن طريق رسول ذى معجزة ، ومعه منهج مفصَّل مؤيَّد ، وأمهلهم مدة طويلة ، ولم يستفيدوا منها ؛ لأنهم لم يؤمنوا.

إذن: فسيلقون عذاب الخلد ، وقد جاء سبحانه هنا بخبر عذاب الخلد ؛ لأن عذاب الدنيا موقوت ، فيه خزى وهوان ، لكن محدوديته فى الحياة يجعله عذاباً قليلاً بالقياس إلى عذاب الآخرة المؤبد.

وجاء الحق سبحانه بأمر عذاب الخلد كأمر من كسبهم ، والكسب زيادة عن الأصل ، فمن يتاجر بعشرة جنيهات ، قد يكسب خمسة جنيهات.

وهنا سؤال: هل الذى يرتكب معصية يكسب زيادة عن الأصل؟

نعم ؛ لأن الله سبحانه حرَّم عليه أمراً ، وحلله هو لنفسه ، فهو يأخذ

(١) الخلد: الدوام ، والمراد أنه عذاب دائم. [اللسان : مادة (خ ل د)].

زيادة فى التحليل ، وينقص من التحريم وهو يظن أنه قد كسب [١] بمفهومه الوهمى الذى زين له مراد النفس الأمارة ، وهذا يعنى أنه ينظر إلى واقع اللذة فى ذاتها ، ولا ينظر إلى تبعات [٢] تلك اللذة ، وهو يظن أنه قد كسب ، رغم أنه خاسر فى حقيقة الأمر.

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي [٣] وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ [٤] (٥٣) ﴾

وهم قد قالوا من قبل: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ.. (٤٨)﴾ [يونس]

وهم هنا قد عادوا للتساؤل. ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ أى: يطلبون منك النبأ. والنبأ هو الخبر المتعلق بشىء عظيم ، وهم يطلبون الخبر منك يا رسول الله ويتساءلون: أهو حق ؟

وكلمة «حق» هنا لها معطيات كثيرة ؛ لأن ﴿هُوَ﴾ يمكن أن تعود على أصل الدين قرآناً ؛ ونبوة ، وتشريعاً ، وهى كلمة تحمل التصديق بأن القرآن حق ، والتشريع حق ، والنبوة لمحمد ﷺ حق ، والقيامة والبعث حق ، والكلام عن العذاب فى الدنيا بخذلانهم ونصرة المؤمنين عليهم حق.

---

(١) قال الله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ..(٢٨٦)﴾ [البقرة] فالذى يحلل الحرام وأدخله على نفسه عليه أن يتحمل التبعات المترتبة على هذا ، فله بعمله الصالح الكسب ، وعليه بعمله السىء جزاء ما اكتسب.

(٢) تبعة الشىء: نتيجته وعاقبته وما يترتب عليه من أثر. [المعجم الوسيط: مادة (ت ب ع)].

(٣) إى: نعم. حرف جواب.

(٤) أى: أنكم لن تُعجزوا الله عن أن يعيدكم بعد موتكم وأن يحشركم وأن يعذبكم بما كنتم تكسبون.

إذن: فقولهم: ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ[1] أَحَقٌّ هُوَ .. (٥٣) ﴾ لها أكثر من مرجع، كأنهم سألوا: هل القرآن الذى جئت به حق ؟

وهل النبوة التى تدَّعيها حق ؟

وهل الشرائع - التى تقول: إن الله أنزلها كمنهج يحكم حركة الإنسان - حق ؟

وهل القيامة والبعث حق؟

وهل العذاب فى الدنيا حق؟

إنها كلمة شاملة يمكن أن تؤول إلى أكثر من معنى.

ويأتى الجواب من الله تعالى:

﴿ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ .. (٥٣) ﴾ [يونس]

وأنت حين يستفهم منك أحد قائلاً: هل زيد موجود؟ فأنت تقول: نعم موجود. ولا تقول له: والله إن زيداً موجود؛ لأنك لن تؤكد الكلام لمن يسألك؛ لأنه لا ينكر وجود زيد.

إذن: فأنت لن تؤكد إجابةً ما إلا إذا كان هناك فى السؤال شبهة إنكار.

إذن: فأنت تستدل من قول الحق سبحانه:

---

(١) النبأ: الخبر، أو الخبر ذو الشأن، قال تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) ﴾ [النبأ] وهذا النبأ هو البعث. وأنبأه بالشيء ونبأه به: أخبر به، وأنبأ يتعدى لمفعول به واحد، مثل قوله تعالى: ﴿ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ .. (٣٣) ﴾ [البقرة]، ويتعدى لمفعولين مثل: ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا .. (٣) ﴾ [التحريم]، وقد يتعدى بحرف الجر (عن) كقوله: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) ﴾ [الحجر] أى: حدثهم. واستنبأه: طلب أن ينبئه كقوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ .. (٥٣) ﴾ [يونس].

﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ..(٥٣)﴾ على أن سؤالهم يحمل معانى الإنكار والاستهزاء ؛ ولذلك جاء الجواب بـ «إى»[1] وهو حرف جواب يعنى : «نعم» ، وتأتى «إى» دائماً مع القسم.

ولكل حرف من حروف الجواب مقام ، فهناك «بلى» وهى تأتى فى جواب سؤال منفى ، فى مثل قوله تعالى :

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ..(١٧٢)﴾ [الأعراف]

وقول الحق سبحانه هنا : ﴿إِي وَرَبِّي .. (٥٣)﴾ [يونس]

تعنى : نعم وأقسم بربى إنه لحق. وأنت لا تُقسم على شىء إلا إذا كان السائل عنده شبهة إنكار ، وتأتى بـ «إن» لمزيد من هذا التأكيد.

ومثال ذلك فى قوله سبحانه :

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ[2] إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا[3] بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤)﴾ [يس]

وماذا كان رد من بُعث إليهم الثلاثة؟

﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥)﴾ [يس]

هكذا كان إنكار المكذبين للرسل الثلاثة شديداً. فقال لهم الرسل :

---

(١) إى : حرف جواب ، مثل نعم . ويقع بعد القسم كقوله تعالى : ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ..(٥٣)﴾ [يونس] .

(٢) قيل : هى أنطاكية ، بين سوريا وتركيا وقد تكون قرية أخرى ، وكان ملكها يعبد الأصنام ، فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل فكذَّبهم. من تفسير ابن كثير (٣/٥٦٨) بتصرف.

(٣) عزَّزنا : أيَّدنا وقوَّينا.

﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) ﴾ [يس]

فكان قولهم هذا مناسباً لإنكار الكافرين الشديد.

إذن: فالتأكيد فى أسلوب المسئول إنما يأتى على مقدار الإنكار ، فإن لم يكن هناك إنكار ؛ فلا يحتاج الأمر إلى تأكيد.

أما إذا صادف الكلام إنكاراً قليلاً ، فالتأكيد يأتى مرة واحدة .

وإن صادف الكلام لجاجة فى الإنكار جاء التأكيد مرتين .

أما إذا ما صادف الكلام تبجُّحاً فى الإنكار فالتأكيد يأتى ثلاث مرات .

وقد علَّم الحق سبحانه رسوله ﷺ هنا أن يرد على استنبائهم بأن يقول لهم: ﴿ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ ..(٥٣) ﴾ [يونس]

وهنا يقسم الرسول ﷺ بالرب ؛ لأن الرب هو من كلَّفه ، ثم يؤكد ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ لأن سؤالهم تضمَّن الإنكار والاستهزاء.

وما دام قد قال: ﴿إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ فهم إن لم يؤمنوا فسوف يلقون العذاب ؛ لأنه ليس هناك مَنْجًى من الله تعالى ، ولن تُعْجِزوا الله هرباً ، ولن تعجزوه شفاعة من أحد ، ولن تعجزوه بيعاً ، ولن تعجزوه خُلَّة تتقدم لتشفع لكم.

ثم يأتى قوله سبحانه فى نهاية الآية :

﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) ﴾ [يونس]

وقد أراد الحق سبحانه أن يفسر لمحة من الإعجاز ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى من الممكن أن يقبل شفاعة الشافعين ، ومن الممكن أن يقبل

الفداء [١] ؛ ولذلك جاء الإيضاح فى الآية التالية ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ [٢] لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) ﴾

وساعة يأتى العذاب فالإنسان يرغب فى الفرار منه ، ولو بالافتداء.

وانظر كيف يحاول الإنسان أن يتخلص من كل ما يملك افتداء لنفسه ، حتى ولو كان يملك كل ما فى السموات وما فى الأرض [٣].

ولكن هل يتأتى لأحد - غير الله سبحانه - أن يملك السموات والأرض؟

طبعاً لا.

إذن : فالشر لا يتأتّى. وهَبْ أنه تأتّى ، فلن يصلح الافتداء بملك ما فى السموات وما فى الأرض ؛ لأن الإنسان الظالم فى الدنيا قد أخذ حق الغير ، وهذا الغير قد كسب بطريق مشروع ما أخذه الظالم منه ، والظالم إنما يأخذ ثمرة عمل غيره ، ولو صحّ ذلك لتحوّل البعض إلى مغتصبين لحقوق الغير ، ولأخذوا عرق وكدح غيرهم ، ولتعطلت حركة الحياة.

---

(١) الفداء : ما يقدم من مال ونحوه لتخليص المفدى. قال تعالى : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات]. [المعجم الوسيط : مادة (ف د ى)].

(٢) ندم على ما فعل يندم ندماً وندامة ، من باب فرح : أسف وتحسر وتمنى أنه لم يفعله ، قال تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ .. (٥٤) ﴾ [يونس] ونادم اسم فاعل قال الحق : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ .. (٣١) ﴾ [المائدة]

(٣) يقول سبحانه : ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) ﴾ [المعارج].

ولذلك إن لم يردع الله - سبحانه وتعالى - الظالم فى الدنيا قبل الآخرة لاستشرى الظلم ، وإذا استشرى الظلم فى مجتمع ، فالبطالة تنتشر فيه ، ويحاول كل إنسان أن يأخذ من دم وعرق غيره ، وبهذا يختلّ ميزان العدل وتفسد حركة الحياة كلها.

وهَبْ أن الظالم أخذ مُلْك الدنيا كلها ، وأراد أن يفتدى به نفسه ساعة يأتى العذاب ، ويفاجأ بأن كسبه من حرام لا يُقْبَل فداءً ، أليس هذا هو الخسران الكبير؟ وهذه ظاهرة موجودة فى دنيا الناس.

وهَبْ أن واحداً ارتشى أو اختلس أو سرق ، ويفاجئه القانون ليمسكه من تلابيبه [1] فيقول: خذوا ما عندى واتركونى. ولن يقبل القائمون على القانون ذلك. وإن كان مثل هذا التنازل يحدث فى (الجمارك) فنرى من يتنازل عن البضائع المهربة مقابل الإفراج عنه ، هذا ما يحدث فى الدنيا ، لكنه لن يحدث فى الآخرة.

وفى سورة البقرة يقول الحق سبحانه:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ [2] وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة]

وقال الحق سبحانه فى آية أخرى:

---

(١) التلابيب: مجامع ثياب الرجل. والتلبيب: هو جمع الثوب الذى يلبسه عند صدره ونحْره ، وجرّه. [اللسان مادة لبب].

(٢) العدل: الفدية المماثلة ، قال تعالى: ﴿وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ..﴿٤٨﴾﴾ [البقرة] أى: لا ينجيها من العذاب دفع فدية مماثلة ولا تقبل منها. وعدل الشىء وعدّله أقامه وسواه ، قال الحق: ﴿الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ [الانفطار] وعدل المشرك بربه: جعل له مساوياً. قال تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ..﴿١﴾﴾ [الأنعام] وما كان ينبغى أن يعدلوا غيره ، فليس كمثله شىء ، ومثلها قوله: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل] أى: يجعلون له شريكاً مساوياً. وأما قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الأعراف] أى: يحكمون بالعدل [القاموس القويم].

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) ﴾ [البقرة]

وقال بعض المشككين أن الآيتين متشابهتان ، ولم يلتفتوا إلى أن كل آية تختلف عن الأخرى فى التقديم للعدل ، والتأخير للشفاعة.

والبلاغة الحقَّة تتجلَّى فى الآيتين ؛ لأن القارىء لصَدْر كل آية منهما ، والفاهم للمَلَكة اللغوية العربية يعرف أن عَجُز كل آية يناسب صدرها.

ومن يقرأ قول الحق سبحانه:

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ .. (٤٨) ﴾ [البقرة]

يرى أنه أمام نفسين: النفس [1] الأولى هى التى تقدِّم الشفاعة ، والنفس الثانية هى المشفوع لها. والشفاعة هنا لا تُقبل من النفس الأولى الشافعة ، وكذلك لا يُقبل العدل .

وفى الآية الثانية لا تُقبل الشفاعة ولا العدل من النفس المشفوع لها ، فهى تحاول أن تقدم العدل أولاً ، ثم حين لا ينفعها تأتى بالشفيع.

وهكذا جاء التقديم والتأخير فى الآيتين مناسباً للموقف فى كل منهما.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ .. (٥٤) ﴾ [يونس]

وفى هذا القول تعذُّر مِلْك النفس الواحدة لكل ما فى الأرض ، ولو افترضنا أن هذه النفس ملكته فلن تستطيع الافتداء به ؛ وتكون النتيجة هى ما يقوله الحق سبحانه:

---

(١) فالآية الأولى تتحدث عن عدم القبول من النفس الشافعة ، والآية الثانية تتحدث عن عدم قبول العدل أولاً والشفاعة ثانياً من النفس المشفوع لها ، هذا ما يفهم من مرادات الشيخ رضى الله عنه .

﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ..﴿٥٤﴾ ﴾ [يونس]

أى: أخفوا الحسرة التى تأتى إلى النفس، وليس لها ظاهر من انزعاج لفظى أو حركى.

إن كلاً منهم يكتم هَمَّه فى قلبه ؛ لأنه ساعة يرى العذاب ينبهر ويُصعَق ويُبهَت [1] من هول العذاب، فتجمد دماؤه، ولا يستطيع حتى أن يصرخ، وهو بذلك إنما يكبت ألمه فى نفسه ؛ لأن هول الموقف يجمِّد كل دم فى عروقهم، ويخرس ألسنتهم، ولا يستطيع أن ينطق ؛ لأنه يعجز عن التعبير الحركى من الصراخ أو الألم.

ونحن نعلم أن التعبير الحركى لون من التنفيس البدنى، وحين لا يستطيعه الإنسان، فهو يتألم أكثر.

هم - إذن - يُسرُّون الندامة حين يرون العذاب المفزع المفجع، والكلام هنا عن الظالمين، وهم على الرغم من ظلمهم، فالحق سبحانه يقول:

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ [2] وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يونس]

وهؤلاء رغم كفرهم واستحقاقهم للعذاب يلقون العدل من الله، فَهَبْ أن كافراً بالله بمنأى عن الدين ظلم كافراً آخر، أيقف الله سبحانه من هذه المسألة موقفاً محايداً ؟

لا ؛ لأن حق خَلْق الله سبحانه - الكافر المظلوم - يقتضى أن يقتص الله سبحانه له من أخيه الكافر الظالم ؛ لأن الظالم الكافر، إنما ظلم مخلوقاً لله، حتى وإن كان هذا المظلوم كافراً .

ولذلك يقضى الله بينهم بالحق، أى: يخفِّف عن المظلوم بعضاً من

(١) يبهت: أى: يتملكه هول ما يحدث ؛ فينقطع عن الكلام أو غيره.
(٢) القسط: المراد به هنا العدل.

العذاب بقدر ما يثقله على الظالم .

هذا هو معنى ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ لأنها تتطلب قضاء ، أى: عدم تحيز ، وتتطلب الفصل بين خصومتين .

ويترتب على هذا القضاء حكم ؛ لذلك يبين لنا الحق سبحانه أنهم - وإن كانوا كافرين به - إلا أنه إن وقع من أحدهم ظلم على الآخر ، فالحق رب الجميع وخالق الجميع ، كما أعطاهم بقانون الربوبية كل خير مثلما أعطى المؤمنين ، فهو سبحانه الذى أعطى الشمس ، والماء ، والهواء ، وكل وسائل الرزق والقُوت لكل الناس - مؤمنهم ، وكافرهم - فإذا ما حدث ظلم بين متدينين بدين واحد ، أو غير متدينين ، فلا بد أن يقضى فيه الحق سبحانه بالفصل والحكم بالعدل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ(١) حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

و«ألا» فى اللغة يقال عنها «أداة تنبيه» وهى تنبه السامع أن المتكلم سيقول بعدها كلاماً فى غاية الأهمية ، والمتكلم - كما نعلم - يملك زمام لسانه ، بحكم وضعه كمتكلم ، لكن السامع يكون فى وضع المُفاجَأ .

وقد يتكلم متكلم بما دار فى ذهنه ليبرزه على لسانه للمخاطب ، ولكن المخاطب يفاجأ ، وإلى أن ينتبه قد تفوته كلمة أو اثنتان مما يقوله المتكلم .

(١) وعده شيئاً يعده وعداً وعدة : أخبره أنه سيحققه له أو سيعطيه إياه ، يتعدى لمفعولين ، وقد يحذف أحد المفعولين للعلم به ، قال الحق : ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ .. ﴿٩٥﴾﴾ [النساء] كلا : مفعول به أول مقدم ، والحسنى مفعول به ثان . أى : أخبرهم الله أنه سيعطيهم أحسن الدرجات ، والوعد يأتى للخير كثيراً ، وللشر أحياناً كما فى قوله : ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ .. ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة] أى : ينذركم ويخوفكم بالشر ، والفعل متعدّ لمفعولين «كم» مفعول أول ، والفقر مفعول ثان . [القاموس القويم - بتصرف] .

والله سبحانه وتعالى يريد ألاَّ يفوت السامع لقوله أى كلمة ، فأتى بأداة تنبيه تنبه إلى الخبر القادم بعدها ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٥٥) ﴾ [يونس]

هكذا شاء الحق سبحانه أن تأتى أداة التنبيه سابقة للقضية الكلية ، وهى أنه سبحانه مالك كل شىء ، فهو الذى خلق الكون ، وخلق الإنسان الخليفة ، وسخَّر الكون للإنسان الخليفة ، وأمر الأسباب أن تخضع لمسببات عمل العامل ؛ فكل من يجتهد ويأتى بالأسباب ؛ فهى تعطيه ، سواء أكان مؤمناً أو كافراً.

وإذا خدمت الأسبابُ الإنسانَ ، وكان هذا الإنسان غافلاً عن ربه أو عن الإيمان به ، ويظن أن الأسباب قد دانت له بقوته ، ويفتن بتلك الأسباب ، ويقول مثلما قال قارون:

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ [1] عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. (٧٨) ﴾ [القصص]

فالذى نسى مسبِّب الأسباب ، وارتبط بالأسباب مباشرة ، فهو ينال العذاب ، إن لم يكن فى الدنيا ففى الآخرة ؛ فكأن الحق سبحانه ينبههم: تَنبَّهوا أيها الجاهلون ، وافهموا هذه القضية الكبرى: ﴿ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٥٥) ﴾ [يونس]

فإياك أيها الإنسان أن تغترَّ بالأسباب ، أو أنك بأسبابك أخذت غير ما يريده الله لك ، فهو سبحانه الذى أعطاك وقدَّر لك ، وكل الأسباب

---

(١) وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص]. وقارون هو ابن عم موسى عليه السلام ، أعطاه الله من الأموال المودعة فى الخزائن حتى أن مفاتيحها لا تستطيع الجماعة من الناس حملها لكثرتها وثقلها ، فأهلكه الله ببغيه وفرحه بماله وتعظمه على الناس ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. (٧٨) ﴾ [القصص] فكان جزاؤه : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) ﴾ [القصص] .

تتفاعل لك بعطاء وتقدير من الله عز وجل.

وفى أغيار الكون الدليل على ذلك ، ففكرك الذى تخطط به قد تصيبه آفة الجنون ، والجوارح مثل اليد أو القدم أو اللسان أو العين أو الأذن قد تُصاب أىٌّ منها بمرض ؛ فلا تعرف كيف تتصرف.

وكل ما تأتى فيه الأغيار ؛ فهو ليس من ذاتك ، وكل ما تملكه موهوب لك من مسبِّب الأسباب.

فإياك أن تنظر إلى الأسباب ، وتنسى المسبِّب ؛ لأن لله ملك الأشياء التى تحوزها والأدوات التى تحوز بها ؛ بدليل أنه سبحانه حين يشاء يسلبها منك ، فتنبه أيها الغافل ، وإياك أن تظن أن الأسباب هى الفاعلة ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يخلق الأسباب ؛ ثم يشاء ألا تأتى بنتائجها ، كمن يضع بذور القطن - مثلاً - ويحرث الأرض ، ويرويها فى مواعيدها ، ثم تأتى دودة القطن لتأكل المحصول.

إذن: فمردٌّ كل مملوك إلى الله تعالى.

واعلمْ أن هناك مِلْكاً ، وأن هناك مُلْكاً ، والمِلْك [1] هو ما تملكه ؛

---

(١) الملك : فى الأعيان والمحسوسات حقيقة ، وفى المعانى مجاز ، فمن الملك الحقيقى قال تعالى : ﴿إنى وجدتُ امرأةً تملكُهُم .. (٢٣)﴾ [النمل] ، ومن المجاز قوله : ﴿أمَّن يملكُ السَّمعَ والأبصارَ .. (٣١)﴾ [يونس].

ومالك اسم فاعل ، وجمعه مالكون ، قال الحق : ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ .. (٧١)﴾ [يس] ومملوك اسم مفعول كقوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً .. (٧٥)﴾ [النحل] والملك مصدر ، قال تعالى : ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا .. (٨٧)﴾ [طه] أى : بإرادتنا واختيارنا . والملك مصدر بمعنى السلطان ، قال تعالى : ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ .. (١٠٢)﴾ [البقرة] أى : على عهد ملك سليمان . والملك : الحاكم ، قال تعالى : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي .. (٥٤)﴾ [يوسف] هو فرعون ، وقرىء ملك يوم الدين ، ومالك يوم الدين . والملك والمالك والمليك من أسماء الله الحسنى ، والملكوت : الملك العظيم ، وهو لله خاصة ، قال الحق : ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ .. (٨٣)﴾ [يس] والملك واحد الملائكة «القاموس القويم - بتصرف» .

جلباباً ؛ أو بيتاً ، أو حماراً ، إلى غير ذلك ، أما المُلْك فهو أن تملك من له مِلْك ، وتسيطر عليه ، فالقمة - إذن - فى المُلْك .

وانظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ ..(٢٦) ﴾ [آل عمران]

إذن : فالمُلك فى الدنيا كله لله سبحانه .

وكلمة «ألا» جاءت فى أول الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - لتنبِّه الغافل عن الحق ؛ لأن الأسباب استجابت له وأعطته النتائج ، فاغترَّ بها ، فيجعل الله سبحانه الأسباب تختلف فى بعض الأشياء ؛ ليظل الإنسان مربوطاً بالمسبِّب .

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ..(٥٥) ﴾ [يونس]

والوعد إن كان فى خير فهو بشارة بخير يقع ، وإن كان بِشَرٍّ فهو إنذار بشرّ يقع ؛ ويغلب عليه كلمة «الوعيد» .

إذن : ففى غالب الأمر تأتى كلمة «وعد» للاثنين : الخير والشر ، أما كلمة «وعيد» فلا تأتى إلا فى الشر .

والوعد : هو إخبارٌ بشيء سيحدث من الذى يملك أن يُحْدث الشيء .

وإنفاذ الوعد له عناصر : أولها الفاعل ، وثانيها المفعول ، وثالثها الزمان ، ورابعها المكان ، ثم السبب .

والحدث يحتاج إلى قدرة ، فإن قلت : «آتيك غداً فى المكان الفلانى لأكلمك فى موضوع كذا» فماذا تملك أنت من عناصر هذا الحدث ؛ إنك

لا تضمن حياتك إلى الغد ، ولا يملك سامعك حياته ، وكذلك المكان الذى تحدد فيه اللقاء قد يصيبه ما يدمِّره ، والموضوع الذى تريد أن تتحدث فيه ، قد يأتى لك خاطر ألا تتحدث فيه من قبل أن يتم اللقاء .

وهَبْ أن كل العناصر اجتمعت ، فماذا تملك أنت أو غيرك من عناصر الوعد ؟ لا شىء أبداً .

ولذلك يعلِّم الله سبحانه خَلْقه الأدب فى إعطاء الوعود ، التى لا يملكونها ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلا تَقُولَنَّ (١) لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف]

وحين تقدِّم المشيئة فإن حدث لك ما يمنع إنفاذ الوعد فلن تكون كذاباً .

وهكذا يعلّمنا ربنا صيانة أخبارنا عن الكذب ، وجعلنا نتكلم فى نطاق قُدراتنا ، وقُدراتنا لا يوجد فيها عنصر من عناصر الحدث ، لكن إذا قال الله سبحانه ، ووعد ، فلا رادّ لما وعد به سبحانه ؛ لأنه منزَّه عن أن يُخْلف الميعاد ؛ لأن عناصر كل الأحداث تخضع لمشيئته سبحانه ، ولا تتأبّى عليه (٢) ، ووعده حق وثابت .

أما أنت فتتحكم فيك الأغيار التى يُجريها الحق سبحانه عليك .

---

(١) ذكر محمد بن إسحاق أن كفار قريش بعثوا وفداً منهم إلى أحبار اليهود يسألونه عن صفة الرسول ﷺ قائلين لهم : إنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فأوصى اليهود كفار قريش بسؤال محمد ﷺ عن ثلاثة أمور ، منها : «سلوه عن فتية فى الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب» فسألوه فقال رسول الله ﷺ : «أخبركم غداً عما سألتم عنه» ولم يستثن - أى : لم يقل : إن شاء الله ، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يوحى إليه فى ذلك شىء فنزلت هذه الآية . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٧١).

(٢) التأبى : هو الامتناع وعدم الانصياع . والإباء : أشد الامتناع . [اللسان : مادة أبى].

وهَبْ أنك أردت أن تبنى بيتاً ، وقلت للمهندس المواصفات الخاصة التى تريدها فى هذا البيت ، لكن المهندس لم يستطع أن يشترى من الأسواق بعضاً من المواد التى حددتها أنت ، فأنت - إذن - قد أردت ما لا يملك المهندس تصرُّفاً فيه .

لكن الأمر يختلف بالنسبة للخالق الأعلى سبحانه ؛ فهو الذى يملك كل شىء ، وهو حين يَعد يصير وَعْدُه محتَّم النفاذ ، ولكن الكافرين ينكرون ذلك ؛ ولذلك قال الله سبحانه :

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٥) ﴾ [يونس]

أى : أنهم لا يعلمون هذه الحقيقة ، فقد سبق أن قالوا :

﴿ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ .. (٤٨) ﴾ [يونس]

أو أن ﴿ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ تعنى : أن الإنسان يجب ألاَّ يضع نفسه فى موعد دون أن يقدِّم المشيئة ؛ لأنه لا يملك من عناصر أى وعد إلا ما يشاؤه الله تعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) ﴾

ونحن نعلم أن حركة الحياة ، والمِلْك والمُلْك ، هى فروع من الأحياء ، وهو سبحانه حَىٌّ ؛ لأنه مالك الأصل ، وهو القادر على أن يميت ، وكل ما يصدر عن الحياة يسلبه[1] الله سبحانه بالموت ، فهو

(١) سلبه الشىء ويسلبه من باب نصر سلباً : فزَّعه منه قهراً أو اختلسه ، يقول الحق : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج] أى : ينزع منهم شيئاً ، وهو فعل يتعدى لمفعولين «القاموس القويم» .

مالك الأشياء ، والأسباب التي تُنتج الأشياء ، ولا يفوته شيء من وعد ولا وعيد ، ونحن نحيا بمشيئته سبحانه ، ونموت بمشيئته سبحانه ، فلن نفلت منه .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فمن لا يعتبر بأمر الأحياء ؛ عليه أن يرتدع بخوف الرجعة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

والخطاب هنا للناس جميعاً ؛ لأن الحق سبحانه حين يخاطب المؤمنين بقوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة]

فهذا خطاب لمن آمن بالمنهج .

والحق سبحانه وتعالى يخاطب الناس كافّةً بأصول العقائد ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ .. ﴿١﴾﴾ [النساء]

أما المؤمنون فسبحانه يكلّفهم بخطابه إليهم ، من مثل قول الحق سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ .. ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة]

ومثل قول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ [١] فِي الْقَتْلَى .. (١٧٨) ﴾
[البقرة]

أي: أن خطابه سبحانه للمؤمنين يكون دائماً في الأحكام التي يخاطب بها المؤمنين، أما في أصول العقائد والإيمان الأعلى بالواجد الموجِد، فهذا يكون خطاباً للناس كافة.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ .. (٥٧) ﴾ [يونس]

والآية هنا تصوِّر الموعظة وكأنها قد تجسَّدت وصار لها مجيء، رغم أن الموعظة هي كلمات، وأراد الله تعالى بذلك أن يعطي للموعظة صورة الحركة التي تؤثِّر وتحضُّ على الإيمان.

والموعظة [٢] هي الوصية بالخير والبعد عن الشر بلَفْظ مؤثِّر، ويقال: فلان واعظ متميز، أي: أن كلامه مستميل وأسلوبه مؤثر وجميل، والموعوظ دائماً أضعف من الواعظ، وتكون نفس الموعوظ ثقيلة، فلا تتقبل الموعظة بيسر إلا ممن يجيد التأثير بجمال الكلمة وصدق الأداء [٣]؛

---

(١) القصاص: هو توقيع العقاب على من قتل أو جرح غيره بمثل ما قتل أو جرح، وهي شريعة جاءت التوراة بها وأقرّتها شريعة الإسلام، قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ .. (٤٥) ﴾ [المائدة].

(٢) وَعَظَه يعظه وعظاً وعظة: نصحه بالطاعة والعمل الصالح، وأرشده إلى الخير. قال تعالى مصوراً عناد الكافرين: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) ﴾ [الشعراء] فهم لعنادهم يتساوى عندهم الأمران. والموعظة ما يوعظ به من قول أو فعل كقوله تعالى: ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) ﴾ [البقرة] وقال: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]، والموعظة لها مقدمات بلاغية من منطلق إيماني. مادة وعظ بتصرف. من «القاموس القويم».

(٣) وقد كان رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة والمثل الأعلى في الموعظة الحكيمة، فعن العرباض بن سارية قال: قام فينا رسول الله ﷺ، ذات يوم، فوعظنا موعظة بليغة، وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون..» الحديث أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٢) والترمذي (٢٦٧٦) وأحمد في مسنده (٤/١٢٦، ١٢٧).

لأن الموعوظ قد يقول في نفسه: لقد رأيتني في محل دونك وتريد أن ترفعني، وأنت أعلى مني. فإذا قدَّر الواعظ هذا الظرف في الموعوظ فهو يستميل نفسه.

ولنتذكر الحكمة التي تقول: «النصح ثقيل، فلا تجعلوه جَدَلاً، ولا ترسلوه جَبَلاً، واستعيروا له خفَّة البيان»؛ وذلك لتستميل أذن السامع إليك فتأتي له بالأسلوب الجميلَ المقنع الممتع الذي يعجبه، وتلمس في نفسه صميم ما ترغب أن يصل إليه.

والموعظة تختلف عن الوصية؛ لأن الوصية عادة لا تتأتى إلا في خلاصة حكمة الأشياء، وهَبْ أن إنساناً مريضاً وله أولاد، وحضرته الوفاة، فيقوم بكتابة وَصيَّته، ويوصيهم بعيون [1] المسائل.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ .. ﴾ (٥٧) [يونس]

والموعظة إما أن تسمعها أو ترفضها، ولأنها موعظة قادمة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فلا بد من الالتفات والانتباه، وملاحظة أن الحق سبحانه قد اختص الموعظة بأنها من الرب، لا من الإله؛ لأن الإله يريدك عابداً، لكن الرب هو المربِّي والكفيل، وإن كفرت به.

وهذه الموعظة قادمة من الرب، أي: أنها من كمالات التربية، ونحن نعلم أن متعلقات الربوبية تتوزع ما بين قسمين: القسم الأول هو مقوِّمات الحياة التي يعطيها الحق سبحانه من قُوت ورزق - وهذه المقومات للمؤمن، وللكافر - والقسم الآخر هو مقومات القيم التي ترسم منهج حركة الحياة، وهذه للمؤمن فقط.

---

(١) عيون المسائل: أي: أصولها، والمهم منها، وعين كل شيء: خياره. [اللسان: مادة (عين)].

إذن: فالموعظة هي نوع من التربية جاءت من ربكم المأمون عليكم ؛ لأنه هو الذى خَلَق من عَدَم وأمَدّ من عُدْم ، ولم يختص بنعمة الربوبية المؤمنين فقط ، بل شملت نعمته كل الخلق.

إذن: فالموعظة تجيء ممن يُعطى ولا ينتظر منك شيئاً ، فهو سبحانه مُنزَّه عن الغرض ؛ لأنه لن ينال شَيئاً منك [1] فأنت لا تقدر على شيء مع قدرته سبحانه.

والموعظة القادمة بالمنهج تخصُّ العقلاء الراشدين ؛ لأن حركة العاقل الراشد تمر على عقله أولاً ، ويختار بين البدائل ، أما حركة المجنون فهى غير مرتَّبة ولا منسَّقة ، ولا تمر على عقله ؛ لأن عقله مختل الإدراك وفاقد للقدرة على الاختيار بين البدائل.

ولكن لماذا يُفسد العاقل الاختيار بين البدائل [2] ؟

إن الذى يفسد حركة اختيار العاقل هو الهوى ، والهوى إنما ينشأ مما فى النفس والقلب ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِى الصُّدُورِ .. (٥٧) ﴾ [يونس]

---

(١) وقد أعطانا القرآن مثالاً لهذا عن الهدى الذى يذبحه الحجيج ، فيقول سبحانه: ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) ﴾ . [الحج].

(٢) بدل الشيء غيَّره ، وبدل الكلام : غيره وحرفه ، قال تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) ﴾ [البقرة] أى : غيروه بكلام آخر ، ويقول الحق : ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) ﴾ [النمل] أى : عمل الخير والحسن بعد عمل السوء ، وأبدله الشيء من الشيء ، وأبدل الشيء بالشيء جعله بدلاً منه ، وتبدل الشيء بالشيء ومن الشيء جعله بدلاً منه ، كقوله تعالى : ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً (٥٢) ﴾ [الأحزاب] .

أي : أنه سبحانه قد أنزل عليكم ما يشفى صدوركم من غلّ يؤثر فى أحكامكم ، وحقد ، وحسد ، ومكر ، ويُنقّى باطن الإنسانَ ؛ لأن أى حركة من حركات الإنسان لها نبع وجدانى ، ولا بد أن يُشفى النبع الوجدانى ؛ ليصحّ ؛ حتى تخرج الحركات من الجوارح وهى نابعة من وجدان طاهر مُصفّى وسليم ؛ وبذلك تكون الحركات الصادرة من الإنسان سليمة [١] .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) ﴾ [يونس]

وجاءت كلمة «الشفاء» أولاً ؛لتبيِّن أن الهداية الحقَّة إلى الطريق المستقيم تقتضى أن تُخْرِج ما فى قلبه من أهواء ، ثم تدلّه إلى المنهج المستقيم.

وإن سأل سائل عن الفارق بين الشفاء والرحمة ؟ نجيب: إن الشفاء هو إخراج لما يُمْرِض الصدور ، أما الرحمة فهى اتّباع الهداية بما لا يأتى بالمرض مرة أخرى ، واقرأ إن شئت قول الحق سبحانه:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ..(٨٢) ﴾ [الإسراء]

وهكذا يتبيَّن لنا أثر الموعظة: شفاء ، وهدى ، ورحمة ، إنها تعالج ليس ظواهر المرض فقط ، ولكن تعالج جذور المرض.

إذن: فشفاء الصدور يجب أن يتم أولاً ؛ لذلك نجد الطبيب الماهر هو من لا ينظر إلى ظواهر المرض فقط ليعالجها ، ولكنه يبحث عما خلف تلك الظواهر ، على عكس الطبيب غير المدرَّب العَجُول الذى يعالج الظواهر دون علاج جذور المرض.

---

(١) عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب» أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩).

ومثال ذلك : طبيب الأمراض الجلدية غير الماهر حين يرى بثوراً ؛ فهو يعالجها بما يطمسها ويزيلها مؤقَّتاً ، لكنها تعود بعد قليل ، أما الطبيب المدرَّب الفاهم فهو يعالج الأسباب التى تُنتج البثور ، ويزيلها بالعلاج الفعَّال ؛ فيقضى على أسباب ظهورها .

وفى القرآن الكريم نجد قصة ابتلاء سيدنا أيوب عليه السلام ، فقد قال له الحق سبحانه :

﴿ارْكُضْ [1] بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢)﴾ [ص]

أى : اضربْ برجلك ذلك المكان يخرجْ لك منه ماء بارد ، تغتسل منه ؛ فيزيل الأعراض الظاهرة ، وتشرب منه ليعالج أصل الداء .

إذن : فالموعظة وكأنها تجسَّدت ، فجاءت من ربكم - المأمون عليكم - شفاءً حتى تعالج المواجيد [2] التى تصدر عنها الأفعال ، وتصبح مواجيد سليمة مستقيمة ، لا تحلُّل فيها ، وهدى إلى الطريق الموصِّل إلى الغاية الحقَّة ، ورحمة إن اتبعها الإنسان لا يُصَابُ بأىِّ داء ، وهذه الموعظة تؤدى إلى العمل المقبول عند الله سبحانه .

ولكن إنْ صحَّتْ لك الأربعة النابعة من الموعظة : الشفاء ، والهدى ،

---

(١) ابتلى الله سبحانه عبده ونبيه أيوب - عليه السلام - بالمرض فى جسده وفقد ماله وأولاده . واستمر هذا البلاء مدة ثمانى عشرة سنة عاشها صابراً على قضاء الله ، ولم يبق معه إلا زوجته التى اضطرت للعمل فى خدمة الناس حتى توفر لنفسها ولزوجها الطعام ، ولما دعا أيوب ربه : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)﴾ [الأنبياء] استجاب الله له وأزال عنه الضر إذ قال له : ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢)﴾ [ص] لقد أمره الله أن يقوم ويركض الأرض برجله ففعل ، فأنبع الله فى الأرض عيناً وأمره أن يغتسل منها ، فأذهب جميع ما كان فى بدنه من الأذى ، ثم أمره أن يضرب الأرض فى مكان آخر ففعل فأنبع الله له عيناً أخرى وأمره أن يشرب منها ؛ فأذهبت جميع ما كان فى باطنه من السوء ، وتكاملت له العافية ظاهراً وباطناً . [ذكرها ابن كثير فى تفسيره ٤/ ٣٩ ، ٤٠] وقال عنه سبحانه : ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ..(٤٤)﴾ [ص] .

(٢) المواجيد : المقصود بها أعمال القلب التى إن استقامت استقامت الجوارح .

والرحمة ، والعمل الصالح ، فإيّاك أن تفرح بذلك ؛ ففوق كل ذلك فضل الله عليك ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

وأنت وكل المؤمنين مهما عملوا فى تطبيق منهج الله ، فكلُّنا بعباداتنا لن نؤدى حَقَّ النعم الموجودة عندنا قبل أن نُكَلَّف ، وعلينا أن نتدبَّر قول رسول الله ﷺ : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أنْ يتغمَّدنى [١] الله برحمته [٢] » .

إذن : فإن افتخر إنسان بطاعته لله ، فهذه الطاعة تعود على العبد فى دنياه ، وهو لن يؤدى بطاعته حق كل النعم التى أسبغها الله عليه .

ومثال ذلك : إن العبد لا يُكلَّف إلا عند البلوغ ، أى : فى سنّ الخامسة عشرة تقريباً ، فإن نظر إلى النعم التى أسبغها الله تعالى عليه حتى وصل إلى هذه السِّنِّ ، فهو لن يحصيها [٣] ، فما بالنا بالنعم التى تغمرنا فى كل العمر ، وحين يجازينا الحق فى الآخرة ، فهو لا يجازينا بالعدل ، بل يعاملنا بالفضل .

إذن : إياك أن تقول : أنا تصدَّقتُ بكذا ، أو صلّيت كذا ؛ حتى لا تورثك استجابتك لمنهج الله غروراً بعملك التعبُّدىّ ، وتذكَّر القول

---

(١) تغمَّده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد : قوله «يتغمدنى» : يُلبسنى ويتغشَّانى ويسترنى . [لسان العرب : مادة (غ م د)] .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة .

(٣) وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا .. ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل] وقد أفرد سبحانه النعمة هنا ؛ لأن كل نعمة من نعم الله عليك وإن اعتبرتها واحدة فى نظرك فهى مشتملة على نعم لا تحصى ولا تُعَدُّ ، فما بالك بالنعم مجتمعة .

المأثور : « رُبَّ معصية أورثتْ ذُلاً وانكساراً ، خيرٌ من طاعة أورثتْ عزاً واستكباراً » .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

إن تمتع الإنسان فى الحياة بالمُلْك والمِلْك ، فكل ذلك يحتاج إلى استبقاء الحياة بالرزق الذى يهبُنَا الحق سبحانه إيّاه ، وكذلك استبقاء النوع بالتزاوج بين الذكر والأنثى .

ولكن الرزق الذى يستبقى الحياة لا بُدَّ أن يكون حلالاً ؛ لذلك حدَّد لنا الحق سبحانه وتعالى المحرَّمات فلا تقربها ، وأنت عليك بالالتزام بما حدَّده الله ، فلا تدخل أنت على ما حلّل الله لتحرِّمَه [(١)] ؛ لأن الحق سبحانه حدَّد لك من الطعام ما يستبقى حياتك ويعطيك وقوداً لحركة الحياة ، فعاملْ نفسك كما تعامل الآلة التى تصنعها ، فأنت تعطى كل آلة الوقود المناسب لها لتؤدى مهمتها ، كذلك جعل الله سبحانه لك المواصفات التى تنفعك وتستفيد منها وتؤدى حركات الحياة بالطاقة التى يمدّك بها ما حَلّله الله لك .

وكذلك حرَّم الله عليك ما يَضُرُّك .

وإياك أن تقول : ما دامت هذه الأشياء تضرّنى فلماذا خلقها الله ؛ لأن عليك أن تعرف أن هناك فارقاً بين رزق مباشر ، ورزق غير مباشر ، وكل

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ .. ﴿١١٥﴾ ﴾ [النحل].

ما فى الكون هو رزق ، ولكنه ينقسم إلى رزق مباشر تستفيد منه فوراً ، وهناك رزق غير مباشر .

ومثال ذلك : النار ، فأنت لا تأكل النار ، لكنها تُنضِج لك الطعام .

إذن : فهناك شئ مخلوق لمهمة تساعد فى إنتاج ما يفيدك .

والحق سبحانه قد حلّل لك - على سبيل المثال - لحم الضأن والماعز ، والإبل والبقر وغيرها ، وحرَّم عليك لحم الخنزير [1] ، فلا تسألْ : لماذا خلق الله الخنزيرَ ؛ لأنه خَلَقه لمهمة أخرى ، فهو يلملم قاذورات الوجود ويأكلها ، فهذا رزق غير مباشرٌ ، فاتركه للمهمة التى أراده الله لها .

وبعض الناس قد حرَّم على نفسه أشياء حلَّلها الله تعالى [2] ، وهم بذلك يُضيِّقون على أنفسهم ، ويظن البعض أنه حين يحلّل ما حرَّم الله أنه يوسِّع على نفسه ، فيأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يقول :

﴿ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ .. (٥٩) ﴾ [يونس]

أى : أخبرونى ما أنزل الله لكم من رزق ، وهو كل ما تنتفعون به ، إما مباشرةً ، وإمَا بالوسائط ، فكيف تتدخلون بالتحليل والتحريم ، رغم أن الذى أنـزل الرزق قد بيَّن لكم الحلال و الحرام ؟!

وكلمة ﴿أَنزَلَ﴾ تفيد أن الرزق كله قادم من أعلى [3] ، وكل ما ترونه

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴾ [المائدة] .

(٢) يقول الحق سبحانه عن يعقوب عليه السلام : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) ﴾ [آل عمران] .

(٣) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) ﴾ [الذاريات] فنزول المطر من السماء هو رزق ينزله الله سبحانه ، فتحيا به الأرض الميتة فتنبت الزرع فيأكل منه كل كائن حى على الأرض من إنسان أو حيوان ، ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ .. (٢٤) ﴾ [يونس] .

حولكم هو رزق ، تنتفعون به مباشرة ، أو بشكل غير مباشر ، فالمال الذى تُشترى به أغلب الأرزاق لا يأكله الإنسان ، بل يشترى به ما يأكله .

وكلمة ﴿أنزلَ﴾ تعنى : أوْجَدَ ، وخلق منْ أعلى ، وما دام كل شىء قد وُجد بمشيئة مَنْ هو أعلى من كل الوجود ، فكل شىء لصالحك مباشرة أو بوسائط .

ولا تأخذ كلمة ﴿أنزلَ﴾ من جهة العلوّ الحسية ، بل خُذها من جهة العلوِّ المعنوية ، فالمطر - مثلاً - ينزل من أعلى حسيّاً ، ويختلط بالأرض فيأخذ النبات غذاءه منها ، والرزق بالمطر ومن الأرض مُقدَّر ممّن خَلَق ، وهو الأعلى سبحانه .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ[1] ..(٢٥)﴾ [الحديد]

نعم ، فقد أنزل الحق سبحانه منهجه على الرسل عليهم السلام لتصلح حياة الناس ، وأنزل الحديد أيضاً ، هذا الذى نستخرجه من الجبال ومن الأرض .

إذن : فالمراد هنا بالإنزال ، أى : الإيجاد ممن هو أعلى منك لصالحك أيها الإنسان .

وما دام الحق سبحانه هو الذى أنزل الرزق ، وبيَّن الحلال والحرام ، فلماذا تُدخلون أنوفكم فى الحلال والحرام ، وتجعلون بعض الحلال حراماً ،

---

(١) البيِّنات : الآيات الواضحة . والقسط هنا : العدل . والبأس : القوة . [لسان العرب] .

وبعض الحرام أو كُلَّ الحرام حلالاً ؟ لماذا لا تتركون الجَعْل لمن خَلَق وهو سبحانه أدْرى بمصلحتكم ؟

﴿ قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ .. (٥٩) ﴾ [يونس]

أي : هل أعطاكم الله سبحانه تفويضاً في جَعْلِ الحلال حراماً ، والحرام حلالاً ؟ ﴿ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) ﴾ أي : على الله تتعمدون الكذب .

وقد جاء الحق سبحانه بالحلال والحرام ليبيِّن لنا مدى قُبح السلوك في تحريم ما أحلّ الله ، وتحليل ما حرَّم الله .

ويشير الحق سبحانه - في إجمال هذه الآية - إلى آيات أخرى فَصَّلت الحرام ، وسبق أن تناولناها بخواطرنا ، مثل قوله تعالى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٠٣) ﴾ [المائدة]

والبَحيرة - كما ذكرنا - هي الناقة التي أنجبتْ خمس بُطون آخرها ذَكَر ، وكانوا يشقُّون أذنها ، ويعلنون أنها قامت بواجبها ويتركونها سائمة [١] غير مملوكة ، لا يركبها أحد ، ولا يحمل عليها أحد أيَّ حمْل ، ولا يحلبها أحد ، ولا يجزّ صوفها أحد ، ثم يذبحها خُدَّام الآلهَة التي كانوا يعبدونها ، وسَمَّوها «بَحيرة» [٢] ؛ لأنهم كانوا يشقون آذانها علامةً على أنها أدَّتْ مهمتها .

---

(١) السائمة : الغنم والماشية ترعى حيث شاءت . والسائم : الذاهب على وجهه حيث يشاء . [اللسان مادة سوم] .

(٢) وسبب التسمية بالبحيرة هو أن شق أذنها يكون شقاً واسعاً فأشبه البحر في سعته . (بتصرف من أحكام القرآن للجصاص ٦٠٨/٢) ؛ وفي تحديد المقصود بالبحيرة - هل هي الناقة التي ولدت خمسة أبطن أم بنتها التي ولدت في آخر بطن ؟ - اختلاف . انظر في هذا تفسير ابن كثير (١٠٧/٢ ، ١٠٨) وكذا أحكام القرآن للجصاص ، ولذلك قيل في بعض الأقوال أن السائبة هي أم البحيرة .

أما السائبة فهى غير المربوطة ؛ لأن الربط يفيد الملكية ، وكان الواحد منهم إذا شفى من مرض أو أراد شيئاً[1] وَهَبَ أن يجعل ناقةً لخدَّام الأصنام ، واسمها سائبة ، وهى أيضاً لا تُركب ، ولا تُحلب ، ولا يُحمل عليها ، ولا أحد يتعرَّض لها .

والوصيلة : هى الأنثى تلدها الناقة فى بطن واحدة مع ذكر ، فيقولون : «وَصَلَتْ أخاها » ؛ فلا يذبحونه للأصنام من أجل أخته.

﴿ولا حَامٍ﴾ والحام : هو الفَحْل الذى يحمى ظهر نفسه بإنجاب عشرة أبْطُن ، فلا يركبه أحد بعد ذلك ، ولا يُحْمَل عليه ، ويترك لخدَّام الأصنام .

هذه هى الأنعام المحلَّلة التى حرَّموها على أنفسهم ، بينما يأكلها خُدَّام الأصنام ، وفى ذكر عدم تحريم تلك الأنعام رأفة بهم .

وهناك أيضاً قول الحق سبحانه :

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤)﴾

[الأنعام]

إذن : فقد حَرَّموا بعضاً مما أحلّ الله لهم ، وقالوا ما أورده القرآن :

---

(١) كان الرجل فى الجاهلية إذا قدم من سفر بعيد ، أو برىء من علّة ، أو نجَّته دابةٌ من مشقة أو حرب قال : ناقتى سائبة أى : تسيب فلا ينتفع بظهرها ، ولا تُحلأ عن ماء ، ولا تمنع من كلأ ، ولا تركب . [ذكره ابن منظور فى اللسان مادة (سيب)] .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ [(١)] مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ [(٢)] وَهَـٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) ﴾ [الأنعام]

وأجمل الحق سبحانه كل ذلك فى قوله الحق :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) ﴾ [يونس]

وهكذا تدخَّلوا فى تحريم بعض الحلال وحلَّلوا بعضاً من الحرام ، وفى هذا تعدٍّ ما كان يجب أن يقترفوه [(٣)] ؛ لأن الحق سبحانه هو خالقهم ، وهو خالق أرزاقهم ، وفى هذا كذب متعمَّد على الله سبحانه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠) ﴾

وهذه الآية توضح أن كل أمر بحساب ، فالذين يفترون على الله الكذب سيجدون حسابهم يوم القيامة عسيراً ، فالحق سبحانه منزّه عن الغفلة ، ولو ظنوا أنه لا توجد آخرة ولن يوجد حساب ؛ فهم يخطئون الظن .

---

(١) ذرأ : خلق . والحرث : هو الزرع والثمار .

(٢) بزعمهم ، أى : بقولهم الكذب . [لسان العرب] .

(٣) وقد أجمل الحق سبحانه المحرمات من المطاعم فى قوله : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) ﴾ [الأنعام] .

ولو استحضروا ما أعدَّه الله لهم من العذاب والنكال [1] يوم القيامة لما فعلوا ذلك ، ولكنهم كالظَّان بأن الله - سبحانه وتعالى - غافل عن أفعالهم ، وكأنها أفعال لا حساب عليها ، ولا كتابة لها ، ولا رقيب يحسبها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ ۝٦٠ ﴾ [يونس]

إن الله سبحانه متفضِّل على كل خَلْقه - وأنتم [2] منهم - بأشياء كثيرة ؛ فلم تحرمون أنفسكم من هذا الفضل ؟! ولو شكرتم الله تعالى على هذا التفضل لزاد من عطائكم ، لكنكم تنسون الشكر .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ [3] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ



(١) النكال : إيقاع العقوبة والعذاب على وجه يجعل من يفعل هذا الفعل عبرة لغيره ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨ ﴾ [المائدة] .

(٢) المقصود بهم أهل مكة ، يقول الحق سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ۝٦٧ ﴾ [العنكبوت] ، وقال أيضاً : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ۝٥٧ ﴾ [القصص] .

(٣) تفيضون فيه : أى : تندفعون فيه وتنبسطون فى ذكره . ما يعزب : لا يبعد ، ولا يغيب عن علمه سبحانه . [لسان العرب] .

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ ، أى: ما تكون يا محمد فى شأن . والشأن: هو الحال العظيم المتميز الذى يطرأ على الأمر.

ونحن فى حياتنا اليومية نقول: ما شأنك اليوم أو ما حالك؟ وهنا يجيب السامع بالشىء الهام الذى حدث له أو فعله ، ويتناسى التافه من الأمور.

ولذلك يصف الله تعالى نفسه فيقول :

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩)﴾ [الرحمن]

أى: لا تظنوا أن ربنا - سبحانه وتعالى - خلق النواميس والقوانين ، وقال لها: اعملى أنتِ ، لا فهو سبحانه كل يوم فى شأن.

ولذلك حين سئل أحد العلماء[١]: ما شأن ربك الآن ؛ وقد صَحَّ أن القلم قد جَفَّ ؟ فقال: «أمور يبديها ولا يبتديها».

أى: أنه سبحانه قد رسم كل شىء ، وجعل له زماناً ليظهر ، فهو سبحانه قيُّوم ، أى: مُبَالغ فى القيام على مصالحكم ؛ ولذلك يطمئننا سبحانه - وقد جعل الليل لِنومنا وراحتنا - بأنه سبحانه قيوم لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم ، وهو يراعينا.

فالحديث فى الآية التى نحن بصددها موجَّه لرسول الله ﷺ :

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ..(٦١)﴾ [يونس]

وشأن رسول الله ﷺ الذى يهتم به ليس المأكل ولا المشرب ، إنما المهم بالنسبة له هو بلاغ الرسالة بالمنهج بـ «افعل و«لا تفعل».

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ ..(٦١)﴾ [يونس]

(١) هو: الحسين بن الفضل ، وذلك أن عبد الله بن طاهر دعاه ليفسر له ثلاث آيات أشكلت عليه ، منها هذه الآية ، فقال: إنها شئون يبديها لا شئون يبتديها. ذكره القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٥٦٧).

و«منه» هنا بمعنى اللام ، أى : ما تتلو له [1] ، وتعنى تأبيداً لآيات القرآن .

وهناك فى موضع آخر من القرآن يقول الحق سبحانه :

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ [2] أُغْرِقُوا ..(٢٥)﴾ [نوح]

أى : أغرقوا لأجْل خطيئاتهم .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نفهم ما تكون فى شأن وما تتلو لأجل هذا الشأن من قرآن ، فالنبى ﷺ فى شأن هام هو الرسالة ، ويتلو من القرآن تأبيداً لهذا الشأن وهو البلاغ بالمنهج .

ويدخل فى هذا الشأن ما فُوِّض رسول الله ﷺ فيه حسب قول الحق سبحانه :

﴿وَمَا آتَاكُمُ [3] الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا.. (٧)﴾ [الحشر]

ومثال ذلك : تحديد كيفية الصلاة وعدد ركعات كل صلاة ، وكذلك نصَاب [4] الزكاة ، وهذه أمور لم يأت بها القرآن تفصيلاً ، ولكن جاءت بها الأحاديث النبوية .

إذن : فهناك تفويض من الحق للرسول ﷺ ليكتمل البلاغ بمنهج الله ، بنصوص القرآن ، وبتفويض الله تعالى له أن يشرِّع .

---

(١) ما تتلو له : أى : لهذا الشأن . وهذا يتوافق مع ما ذكره الفراء والزجاج أن الهاء فى «منه» تعود على الشأن ، أى : تحدث شأناً ، فيتلى من أجله القرآن ، فيعلم كيف حكمه . ذكره القرطبى فى تفسيره (٣٢٨٣/٤) .

(٢) هم قوم نوح عليه السلام .

(٣) آتاكم : أمركم .

(٤) نصاب الزكاة : هو المقدار الذى إذا بلغه مال المسلم أو ماشيته أو تجارته وجبت فيه الزكاة ، بالمقادير التى حددتها السنة .

إذن: فكل شأن رسول الله ﷺ إما بلاغ عن الله بالنص القرآنى، وإما تطبيق فعلىّ للنص القرآنى بالحديث النبوى، وبالأسوة التى تركها لنا ﷺ فى سُنَّته.

والحُجَّة على الحُكم - أى حُكم - يأتى بها القرآن، فإن كانت الأحكام غير صادرة من الله مباشرة، فيكفى فيها أنها صدرت عن رسول الله ﷺ بتفويض من الله تعالى ليشرِّع.

وبذلك نردُّ على المنافقين الذين إذا حُدِّثوا بشىء من حديث رسول الله ﷺ قالوا: «بيننا وبينكم كتاب الله»[1]، وهدفهم أن يردُّوا حديث رسول الله ﷺ - فعْلاً، أو قولاً، أو إقراراً.

ثم ينقل الحق سبحانه الخطاب من المفرد إلى الجماعة فيقول جَلَّ شأنه:

﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا .. (٦١) ﴾ [يونس]

وفى هذا انتقال للسامعين للقرآن، المبلَّغ إليهم هذا المنهج، فكل عمل إنما يشهده الحق سبحانه.

والعمل هو مجموع الأحداث التى تصدر عن الإنسان، فكل حدث يصدر من الإنسان - ولو بنيَّة القلب - يسمَّى عملاً؛ لأن عمل القلوب هو النية. ولكن إذا صدر الحدَث من اللسان كان قولاً، وإذا صدر الحدث من بقية الجوارح كان فعلاً.

وهكذا ينقسم العمل إلى قسمين: قول، وفعل.

---

(١) عن المقدام بن معد يكرب أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك الرجل يتكىء على أريكته يُحدَّث بحديثى فيقول: بينى وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما كان فيه حراماً حرمناه، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله». أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٣٢) والترمذى (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢) والدارقطنى (٤/ ٢٨٦) فى سننهم، واللفظ للدارقطنى.

وقد اختُصَّ حدث اللسان باسم القول ؛ لأن أصل مستندات التكليف كلها قولية .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أى : تسرعون إلى العمل بنشاط وحيوية وإقبال مما يدل على حسن الاستجابة للمنهج فور أن يبلِّغه الرسول ﷺ .

والإقبال على العمل التكليفى بهذا الشوق ، وتلك اللهفة ، وحسن الاستقبال ، وإخلاص الأداء ، كل هذه المعانى يؤول إليها قول الحق سبحانه : ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ كما يفيض ماء الإناء إذا امتلأ لينزل . أى : أن تقبلوا على أعمال التكليف بسرعة وانصباب وانسكاب .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم[1] مِّنْ عَرَفَاتٍ .. (١٩٨)﴾ [البقرة]

أى : شَرَعْتُم[2] فى الذهاب مسرعين ؛ لأنكم أدَّيتم نُسُكاً أخذتم منه طاقة ، وتقبلون بها على نُسُك ثانٍ .

إذن : فالحق سبحانه يشهد كل عمل منكم ، لكن ماذا عن النيَّات وما يُبيَّت فيها من خواطر؟

ها هو الحق سبحانه يخبرنا أن كل شىء مهما صغر واختفى فهو معلوم ومحسوب .

يقول الحق سبحانه :

---

(١) يسن الإفاضة من عرفة بعد غروب الشمس ، ولكن بالسكينة رفقاً بالناس ؛ لأن هذا اليوم يتزاحم فيه الناس ويدفع بعضهم بعضاً ؛ ولذلك سميت إفاضة . انظر فقه السنة (٥١٨/١) وقد ثبت عنه ﷺ أنه كان يضم إليه زمام ناقته «حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ، ويقول بيده اليمنى : أيها الناس السكينة السكينة » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله .

(٢) شرعت فى الأمر : بدأته ودخلت فيه .

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ [يونس]

أى: أن كل أمورك ، وأمور الخلق ، والمخلوقات كلها معلومة لله تعالى ، ومكتوبة فى كتاب مبين واضح ، فلا أحد بقادر على أن يختلس حركة قلب ، أو يختلس حركة ضمير ،وكلمة «يعزب» تعنى: يغيب ويختفى.

والحق سبحانه يخبرنا أنه لا يضيع عنده جزاء أى عمل أو نية مهما بلغ العمل أو النية أدنى درجة من القلَّة.

ولم يوجد عند العرب ما يضرب به المثل على الوزن القليل إلا الذَّرَّة ، وهى النملة الدقيقة الصغيرة جداً ، ثم أطلقت الذرة على الهَبَاء الشائع فى الجو ، ويمكنك أن ترى هذا الهَبَاء إن جلست فى حجرة مظلمة مغلقة ، ثم دخلها شعاع من ضوء ، هنا ترى هذا الضوء وهو يمر من الثقب وكأنه سهم ، وترى مكوِّنات هذا السهم من ذرات الهباء المتحركة الموجودة فى الجو ، تلك الذرات التى لا تراها وأنت فى الضوء فقط أو فى الظلام فقط ، ولكن التناقض بين الضوء والظلام يُبرزها.

وأنت لا تدرك الشىء ولا تحسه لأمرين: إما لتناهيه فى الصغر ، وإما لتناهيه فى الكبر ؛ فلا تحيط به ، وحين تقدم العلم التطبيقى اخترعوا المَجَاهر التى تُكبِّر الشىء المتناهى فى الصغر آلاف ، أو ملايين المرات.

وأنت لو وضعت جلدك تحت عدسة المجهر فسترى فجوات وكأنها آبار لم تكن تراها أو تحسها من قبل ؛ لأنها بلغت من الدقة والصِّغر بحيث

لا تستطيع عيناك أن تدركها ، فإن رأيتها بالمجهر كَبُرَت فترى فجوات وتعاريج وعُلُواً وانخفاضاً - مهما كان الجلد الذى تراه تحت المجهر ناعماً.

وكذلك أنت لا تقدر على إدراك الشىء الضخم ، وقد تفصل بينك وبين الشىء الكبير مسافة ؛ فتراه أصغر من حجمه ، وكلما ابتعد صَغُرَ ، فأنت إذا رأيت - مثلاً - رجلاً طويلاً على مسافة كبيرة ، فأنت تراه وكأنه طفل صغير ، وكلما اقتربت منه زاد طوله فى عينيك.

إذن: لا الضخامة ولا البُعد ، ولا القلّة تمنع من علم الحق سبحانه لأى شىء.

وقد خاطب الحق سبحانه العرب بأصغر ما عرفوه ، وهو الذرة ، أى: النملة الصغيرة.

وأنت إذا وطأتَ نملة فى أرض رملية فهى لا تموت ، بل تدخل فى فجوات الرمل ، وتجد لنفسها طريقاً إلى سطح الأرض مرة أخرى.

قد بيَّن الحق سبحانه هذه المسألة حين تحدَّث عن سليمان - عليه السلام - فى وادى النمل ، فقال تعالى:

﴿ .. قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [النمل]

لأنهم لا يرونهم ؛ لحجمهم المتناهى فى الصغر .

وهكذا يعطينا الحق سبحانه بياناً عن كل أمة فى الحياة ، وأن من بينهم جنوداً يحرسون بيقظة ، فالنملة قامت بإنذار قومها من سليمان وجنوده ،

لأنهم لن يروا النمل الصغير [١].

إذن: الذَّرُّ إما أن يكون النمل الصغير ، وإما أن يكون الذرَّات الهبائية.

وأراد الله سبحانه أن يضرب لنا مثلاً بإحاطة علمه فى أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة.

ويعزب ، أى: يغيب ، ويقال: «هذا البئر ماؤه عازب» ، أى: قادم من عمق بعيد ، ويحتاج استخراجه إلى دَلْوٍ وحبال طويلة.

ونسمِّى الرجل الذى يبعد عن أهله «عَزَب».

وقول الحق سبحانه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾. أى: لا يبعد ولا يغيب عنه أصغر شىء ولا أكبر شىء.

يقول سبحانه ذلك ؛ ليطمئننا أن كل خاطرة من خواطر الإنسان إنما يشهدها الله ، ويَعْلَمُها ، وهو المُجَازِى عليها.

وإن استطاع إنسان أن يُعمِّى على قضاء الأرض ، فلن يستطيع أن يُعمِّى على قضاء السماء [٢].

ومسألة الذرَّة والصغر يقول عنها الحق سبحانه:

---

(١) قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧﴾[النمل] وسار سليمان بموكبه العظيم هذا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ .. ۝١٨﴾[النمل] أى: مَرُّوا على وادى النمل فقالت نملة لإخوانها: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ۝١٨﴾[النمل] فهى خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم ، ففهم ذلك سليمان: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ۝١٩﴾[النمل]. أى: ألهمنى أن أشكر نعمك التى أنعمت بها علىَّ من تعليمى منطق الطير والحيوان وعلى والدىّ بالإسلام لك. [ابن كثير: ٣/ ٣٥٧ - ٣٥٩].

(٢) عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلىَّ ، وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو مما أسمع منه ، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له به قطعة من النار» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٦٨٠) ومسلم (١٧١٣).

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة]

هذا للمتساوى فى الثقل والوزن ، أما إن كان أصغر من الذرة ، فقد ذكره الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها فقال :

﴿ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس]

وعلى زمن نزول القرآن الكريم لم يكن أحد يعرف أن هناك ما هو أصغر من الذرة ، وكنا جميعاً حتى ما قبل الحرب العالمية الأولى لا نعلم أن هناك شيئاً أصغر من الذرة ، وكان العلماء يعتقدون أن الذرة هى الجزء الذى لا يتجزأ ؛ لأنها أصغر ما يقع عليه البصر ، فضرب الله مثلاً بالأقل فى زمن نزول القرآن.

ولما تقدم العلم بعد الحرب العالمية الأولى واخترعت ألمانيا آلةً لتحطيم الذرة قيل عنها : إنها آلة تحطيم الجوهر الفرد. أى: الشىء الذى لا ينقسم ، وهذه الآلة مكونة من اسطوانتين مثل اسطوانتى عَصَّارة القصب ، والمسافة بين الاسطوانتين لا تكاد تُرَى ، وحين حَطَّمت ألمانيا ما قيل عنه «الجوهر الفرد» تحول إلى ما هو أقل منه ، وتفتَّتت الذرّة.

وقد جعل الحق سبحانه المقياس فى الصغر هو الذرة.

وحين اخترعت ألمانيا تلك الآلة توجَسّ المتصلون بالدين وخافوا أن يقال : إن الحق سبحانه لم يذكر ما هو أقل من الذرة ، ولكنهم التفتوا إلى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، فقرأوا قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس]

و﴿مَا يَعْزُبُ﴾ أى: لا يبعد أو يغيب ﴿عَن رَّبِّكَ﴾ أى: عن علمه ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾. أى: وزن ذَرَّة.

وقديماً قلنا: إن البعض يقول: إن «من» قد تكون حرفاً زائداً فى اللغة، كقولنا: «ما جاءنى مِنْ رجل» وتعرب كلمة «من»: حرف جر زائد، و«رجل»: فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة التى منع من ظهورها اشتغال المحلِّ وهو «اللام» بحركة حرف الجر الزائد.

ولكن فى كلام الله لا يوجد حرف زائد[1]، فـ «مِنْ» فى قوله: ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾. أى: من بداية ما يقال له «مثقال».

ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ..(٣)﴾ [سبأ]

وكلمة ﴿وَرَبِّي﴾ مُقْسَمٌ به، وحرف «الواو» هو حرف الجر، ولم يأت هنا بالشهادة، وجاء بالغيب، ولم يأت بعلم الغيب فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها.

وعالم الشهادة، تعنى: أنه عَالِمٌ بكل ما يشهد، ويظن البشر أنها غير مُحَاط بها لعظمتها؛ أو لأن الله غيب فلا يرى إلا الغيب، لكن الحق سبحانه يرى ويعلم الغيب والشهادة.

---

(١) «حرف الجر الزائد» مصطلح نحوى يقصد به النحاة الزيادة اللفظية فى الكلام. والحق أن حروف الجر «الزائدة» تلك ليست بزائدة لأن لها وظيفة بلاغية. فكلمة «من» فى جملة «ما جاءنى من رجل» تفيد تأكيد معنى النفى. وهناك مثال آخر كثيراً ما يذكره فضيلة الشيخ فى مقولاته، بضرب هذه الأمثلة؛ لأن الحرف ما دام موظفاً فلا يكون زائداً. فيقول: «ما معى مال» و«ما معى من مال». فكلمة «من» فى الجملة الأخيرة تفيد تأكيد نفى وجود أىِّ مال مع المتكلم، وهذا التأكيد ليس موجوداً فى جملة «ما معى مال».

لقد قال الحق كلمة «مثقال ذرة» ثلاث مرات :

مرة حين قال سبحانه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ..۝٧ ﴾ [الزلزلة]

ومرة حين قال هنا :

﴿ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ..۝٦١ ﴾ [يونس]

وجاء بـ «من» هنا ليبين أنه لا يغيب عن الله تعالى من بداية ما يقال له «مثقال» .

وقال الحق سبحانه فى موضع آخر :

﴿ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ..۝٣ ﴾ [سبأ]

وجاء بالسموات أولاً ، وجاء فى الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - بالأرض أولاً ، وهو فى الآيتين يتكلم عن علمه للغيب [1] ، فيأتى بمثقال الذرة ويقدِّم السماء ويأتى بها مفردة ، ثم يأتى بما هو أقل من الذرة ويقدِّم الأرض .

وهذا كله من إعجاز أساليب القرآن التى أراد البعض من المستشرقين أن يعترضوا عليها ، وكانت جميع اعتراضاتهم نتيجة لعجزهم عن امتلاك مَلَكة الأداء البيانى .

وإنْ عرضنا الرد على تساؤلاتهم نجد أن الحق سبحانه قَدَّم الأرض فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ لأنه سبحانه يتكلم عن أهل الأرض :

---

(١) غاب الشىء يغيب غيباً ، استتر عن العين أو عن علم الإنسان فى المعنوى . والغيبة : اسم مرة من غابه ، أى : ذكره فى غيبته بالسوء كاغتابه ، قال الحق : ﴿ وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا .. ۝١٢ ﴾ [الحجرات] والغيبة : اسم هيئة منه . والغيب مصدر ويسمى به من غاب واستتر ، يقول الحق : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. ۝٣ ﴾ [البقرة] كالجنة والنار والملائكة والجن ، وجمعه غيوب . يقول الحق : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ۝١٠٩ ﴾ [المائدة] .

﴿ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ .. (٦١) ﴾[يونس]

وجاء أيضاً بالسماء ، وهى السماء الدنيا التى يراها أهل الأرض.

أما الآية الأخرى فهو سبحانه يقول :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ..(٣) ﴾ [سبأ]

والكلام هنا عن الساعة ، وعلمها عند الله تعالى ، ولم تنزل من السموات إلى السماء الدنيا حتى تقول للمكلَّفين فى الأرض : قوموا ها هى الساعة.

ولذلك جاء الحديث هنا عن السموات أولاً ؛ لأن علم الساعة عند ربِّى ، ولن ينزل إلا بمشيئته سبحانه .

وهكذا جاء كل أسلوب لا بإجمال المعنى ، ولكن بدقة جزئياته ، فتكلم فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، وآية سبأ عن العلم والذرَّة ، والسماء والأرض ، وكل آية جاءت الكلمات فيها بتقديم أو تأخير يناسب مجالها.

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ[1] (٦١) ﴾ [يونس]

ولنا أن نلتفت إلى أن الاستثناء هنا لا يُخْرِج ما قبله ، بل كل شىء

(١) بان الشىء يبين بياناً ظهر واتضح ، فهو بيّن وهى بينة . أى : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين والبينة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة .
يقول الحق سبحانه : ﴿ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. (٢١١) ﴾ [البقرة] والبينة تستعمل بمعنى الحجة والبرهان ، وقوله : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ [المائدة] أى : موضح للحق اسم فاعل من أبان المتعدى ، وقوله : ﴿ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) ﴾ [الزخرف] أى : غير مظهر [حرف ب من : القاموس القويم].

مكتوب فى الكتاب المبين ، ونحن فى الدنيا نجد الإنسان إن كان له دَين عند آخر فهو يحتفظ بالوثائق المكتوبة التى تُسجِّل ما له وما عليه. ولكن ، أيحتفظ الحق سبحانه بأعمالنا ونيَّاتنا مكتوبة كحجة له ، أم حجة لنا ؟

إنه سبحانه يعلم أزلاً كل أعمالنا ، ولكنه يُسجِّل لنا بالواقع تلك الأعمال والنيات ؛ لنعلم عن أنفسنا ماذا فعلنا ؛ لتنقطع حجة من أساء إذا وقع به العقاب.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

وجاءت هذه الآية بعد كلامه الحق عن نفسه سبحانه بأنه عالم الغيب ، ولا يخفى عليه شيء ، وشاء الله سبحانه بذلك أن يعلّمنا أنه قد يفيض على بعض خلقه فيوضات الإمداد على قَدْر رياضات المرتاضين ، فَهَبْ أن الله قد امتن عليك بنفحة ، فإياك أن تقول إنها من عندك ، بل هى من عند عالم الغيب سبحانه الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء.

وعلى ذلك فلا يقال : إن فلاناً قد عَلم غيباً لأنه ولىٌّ لله ، بل لنقل : «إن فلاناً مُعَلَّمُ غَيْب» ؛ لأن الغيب هو ما غاب عن الناس ، وما يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فهو ليس غيباً مطلقاً.

ومثال ذلك : الرجل الذى سُرق منه شيء ، هو لا يعرف أين يوجد الشيء الذى سُرق منه ، ولكن اللص يعرف ، وكذلك من ساعد اللص وأخفاه وأخفى له المسروقات ، كل هؤلاء يعلمون ، وأيضاً الجن الذين كانوا فى نفس مكان السرقة يعلمون ، وهذا ليس غيباً مطلقاً.

وأيضاً أسرار الكون التى كانت غيباً موقوتاً ، مثل جاذبية الأرض ، والسالب والموجب فى الكهرباء ، وتلقيح الرياح للسحاب [1] لينزل الماء ، كل ذلك كان غيباً فى زمن ما ، ثم شاء الحق سبحانه فحدَّد لكل أمرٍ منها ميعادَ كشفٍ ؛ فصارت أموراً مشهورة .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليعمل الإنسان ويجتهد ليكشف أسرار الكون.

ومن العجيب أن الباحث قد يعمل من أجل كشف معين ، فيصادف كشفاً آخر ؛ لأن الله تعالى قد أذن لذلك الكشف الذى كان غيباً أن يولد ، وإن لم يبحث عنه أهل الأرض.

ومن اكتشف «البنسلين» رأى العفن الأخضر حول بعض المواد العضوية فبحث عن أسرار ذلك ، واكتشف «البنسلين» .

و«أرشميدس» الذى اكتشف قانون الطفو ، واستفادت منه صناعات السفن والغواصات ، وكل ما يسير فى البحر ، وقد تم اكتشاف قانون الطفو صدفة.

إذن: ففى الكون غيب قد يصير مَشْهَداً ، إما بمقدِّمات يتابعها خَلْقُ الله بالبحث ، وإما أن تأتى صدفة فى أثناء أى بحث عن شىء آخر.

ومثال ذلك: عصر البخار الذى بدأ من رجل رأى إناء مُغَطّى يغلى فيه الماء ، فظل غطاء الإناء يرتفع ليُخرج بعضاً من البخار ، وانتبه الرجل إلى

---

(١) يقول سبحانه: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) ﴾ [الحجر] والرياح لواقح أى : أنها تحمل حبوب اللقاح التى تلقح بها النبات والشجر ، أو أنها تستدر السحب لينزل منها الماء . [بتصرف من اللسان].

أن البخار يمكن أن يتحول إلى طاقة تجرّ العربات التى تسير على عَجَل ، وهكذا جاء عصر البخار.

إذن: فميلاد بعض من أسرار الكون كان تنبيهاً من الله تعالى لأحد عباده لكى يتأمل ؛ ليكتشف سراً من تلك الأسرار[1].

وأغلب أسرار الكون تم اكتشافها صدفة ، لنفهم أن عطاء الله بميلادها - دون مقدمات من الخَلْق - أكثر مما وُصِل إليه بالعطاء من مقدمات الخلق.

ولذلك تجد التعبير الأدائى فى القرآن عن لونَى الغيب ، تعبيراً دقيقاً لنفهم أن هناك غيباً عن الخلق جميعاً وليست له مقدمات ، ولا يشاء الله سبحانه له ميلاداً ، واستأثر الله بعلمه ؛ فلا يعلمه إلا هو سبحانه.

يقول الحق سبحانه:

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ..(٢٥٥) ﴾ [البقرة]

هذا هو الغيب الذى يكشفه الله سبحانه لهم ، إما بالمقدمات ، أو بالصدفة ، وقد نسب المشيئة له سبحانه ، والإحاطة من البشر ، وهذا هو غيب الابتكارات.

أما الغيب الآخر الذى لا يعلمه أحد إلا هو سبحانه ولا يُجَلِّيه إلا الرسول ﷺ ، فيقول الحق عنه:

(١) من الغيب ما يصير مشاهداً عند الإذن بميلاده بأمر الله سبحانه ، إما بمقدمات أو بغير مقدمات رحمةً للبشرية ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل] ، وهناك غيب لله لا يظهره لأحد إلا من ارتضى من رسول .

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ[1] عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ..(٢٧)﴾ [الجن]

إذن: فالحق سبحانه يفيض من غيبه الذاتى على بعض خَلْقه ، والقرآن الكريم فيه الكثير من الغيب ، وأفاضه الله تعالى على رسوله ﷺ ، وتحققت الأحداث كما جاءت فى القرآن.

والحق سبحانه يهب بعضاً من خلقه بعضاً من فيوضاته ، وقد أعطى الله سبحانه رسوله ﷺ بعضاً من الهبَات وحدَّد من يعطيه بعضاً من الغيب :

﴿إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ..(٢٧)﴾ [الجن]

وهى ليست للحصر ؛ لأن الرسول ﷺ أسوة[2] ،وقال فيه الحق سبحانه:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)﴾ [الأحزاب]

ومن يعمل بعمل الرسول ﷺ ويقتدى به ؛ يهبه الله تعالى هبةً يراها الناس فيعرفون أن مَنْ يتّبع الرسول ﷺ كقدوة يعطيه الله سبحانه الهبات النورانية ، ولكن هذه الهبَة ليست وظيفة ، وليست (دُكّاناً) للغيب ، بل هى منْ عطاءات الله تعالى.

---

(١) ظهر الشىء يظهر ظهوراً من باب فتح بمعنى تبين ، وبرز بعد الخفاء ، قال الحق : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .. (٣٣)﴾ [الأعراف] وظهر على خصمه غلبه ، يقول الحق : ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ..(٢٠)﴾ [الكهف] أى : إن ينتصروا عليكم يقتلوكم رمياً بالحجارة ، وأظهر الرجل على عدوه نصره عليه حتى تمكّن منه ، ومنه قوله تعالى : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ..(٣٣)﴾ [التوبة] أى : لينصره على جميع الأديان (حرف الظاء - القاموس القويم) .

(٢) الأسوة: القدوة . [لسان العرب: مادة (أ س ى)] . أى: الاقتداء بفعل الغير واتخاذه مثلاً يحتذى ، سواء أكان فى الخير أو فى الشر ، وشاع استخدامها فى الخير .

وانظر إلى دقة القرآن حين يقول:

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ[1] .. (٥٩) ﴾ [الأنعام]

أي: أنه سبحانه لم يُعْطِ مفتاح الغيب لأحد، والوليّ من أولياء الله إنما يأخذ الهبة منه سبحانه، لكن مفتاح الغيب هو عند الله وحده.

وعندما نتأمل قول الحق سبحانه:

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ [يونس]

نجد أن كلمة «وليّ» من وَلِيَهُ، يليه، أي: قريبٌ منه، وهو أول مَفزَع يفزع إليه إن جاءه أمر يحتاجُ فيه إلى معاونة من غيره، وإن احتاج إلى نصرة فهو ينصره، وخيره يفيض على مَنْ والاه.

ومَنْ يقْرُب عالماً يأخذ بعضاً من العلم، ومَنْ يقرب قوياً يأخذ بعضاً من القوة، ومَنْ يقرب غنياً، إن احتاج، فالغني يعطيه ولو قَرْضاً.

إذن: فالوليّ هو القريب الناصر المُعين المُوالي.

وتطلق «الولي» مرةً لله سبحانه، وقد قال القرآن:

﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ[2] .. (٩) ﴾ [الشورى]

---

(١) قال الزجاج: جاء في التفسير أنه عنى قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤) ﴾ [لقمان]. قال: فمن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن؛ لأنه قد خالفه. [لسان العرب: مادة (ف ت ح)].

(٢) تقول اللغة: الولي: هو القريب بالنسب أو بالمحبة أو بالطاعة، أو الولي الصديق، وهو ضد العدو، والولي: المطر بعد المطر والولي من يلي أمر إنسان، ويقوم على شئونه، كالوكيل، ويجمع على أولياء، وأولياء الله هم المؤمنون المتقون، يقول الحق: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) ﴾ [يونس] والولي: من تولاه الله بالرعاية، وتولى هو منهج الله بالسلوك للهداية، ولذلك يقول سبحانه: ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) ﴾ [يونس] (حرف الواو - القاموس القويم).

لأنه سبحانه القريب من كل خَلْقه ، عكس الخَلْق الذين يقتربون من بعضهم أو يتباعدون حسب إمكاناتهم ، أما الله سبحانه وتعالى فهو الوليّ المُطلَق ، فقُربه منْ خَلْقٍ لا يبعده عن خَلق ، ولا يشغله شيء عن شيء ، فهو الوليّ الحقُّ ، وهو سبحانه يقول:

﴿هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ..(٤٤)﴾ [الكهف]

فمن يحتاج إلى الولاية الحقَّة فَليلجأ إلى الله ، وهو سبحانه يُفيض على الأوفياء لمنهجه من الولاية.

ونجد التعبير القرآني الدقيق :

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ..(٢٥٧)﴾ [البقرة]

فهو سبحانه يقرب من عباده المؤمنين ، والمؤمنون يقربون من الله تعالى في قول الحق سبحانه :

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ .. (٦٢)﴾ [يونس]

إذن: فالولاية المطلقة لله ، وإنْ قُيِّدت بشيء مضاف ومضاف إليه ، فهي مرة تكون من المؤمنين لله ، ومرة تكون من الله للمؤمنين.

والحق سبحانه لا تحكمه قوانين ؛ فبطَلاقة قُدرته سبحانه إذا رأى في إنسان ما خَصْلة من خير ، فيكرمه أولاً ، فيصير هذا العبد طائعاً من بعد ذلك.

وتسمع من يقول: إن فلاناً قد خُطف من المعصية أي: أنه كان عاصياً ، ثم أحب الله تعالى خَصْلة خير فيه ، فهداه.

ومثال ذلك: الرجل الذي سقى كلباً ، بل احتال ليسقيه بأن ملأ خُفَّه

بالماء من البئر ليروى ظمأ الكلب ؛ فغفر الله - سبحانه وتعالى - له سيئاته[١].

هذا الرجل لم يكن ليروى الكلب نفاقاً للكلب ، ولكن لأن الرجل شعر بالعطف على كائن ذى كبد رطبة.

إذن: فليست المسائل عند الله تعالى آلية أو ميكانيكية ، بل طلاقة قُدرته سبحانه تقدّر كل موقف كما قدَّرتْ اختلاف الخَلْق ، ولذلك قال سبحانه:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ[٢] وَأَلْوَانِكُمْ ..(٢٢) ﴾ [الروم]

فليس عند الله تعالى قالب يضع فيه الخلق ، بل سبحانه يخلق الطويل والقصير والسمين والرفيع والأشقر والزنجى ، وهذا بعضٌ من طلاقة قدرته سبحانه ، وبرحمته سبحانه قرب من خَلْقه الذين آمنوا أولاً ، وقربه سبحانه منهم : ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ..(٢٥٧) ﴾ [البقرة]

فمن يتبع المنهج يأخذ النور ، فإذا علم الله سبحانه عمله بمنهجه فهو سبحانه يُقرّبه قُرْباً أكثر فيعطيه هبةً اصطفائية يراها الذين حوله وقد يقتدون به.

والحق سبحانه يريد من المؤمن الأدب مع خَلْق الله ، فإذا علم سيئةً عن إنسان فعليه أن يسترها ؛ لأن الحق سبحانه يحب السَّتْر ويحب من يَستر.

---

(١) وذلك أن أبا هريرة روى أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر ، فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه(بفمه) فسقى الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له». قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : « فى كل ذات كبد رطبة أجر » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٤٤) .

(٢) اختلاف الألسنة : اختلاف اللغات.

وأنت قد تكره إنساناً تعلم عنه سيئةً ما ، وقد تكره كل حسنة من حسناته ، فيريد الله ألاّ يحرمك من حسنات مَنْ له سيئة فيسترها عنك لتأخذ بعضاً من حسناته ، ويأمرك الحق ألاّ تحتقر هذا المسيء ؛ لأنه قد يتمتع بخَصْلة خير واحدة ، فيكرمه الله سبحانه من أجلها أولاً ، ثم يطيعه هذا العبد ثانياً.

والحق سبحانه يقول فى الحديث القدسى:

« يا ابن آدم أنا لك محبٌّ فبحقّى عليك كن لى مُحبّاً ».

ويقول الله سبحانه فى حديث قدسى:

« أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإنْ ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم».

وفى هذا القول يضع مسئولية القُرب من الله فى يد الخَلْق ، ويضيف الحق سبحانه:

«وإنْ تقرَّب إلىَّ شبراً تقرّبتُ إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلىَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة»[1].

ومن يريد أن يأتيه الله هرولة فليذهب إلى الله ماشياً .

إذن : فالإيمان بالله يسلِّم المؤمن مفتاح القرب من الله .

ومن يكن من أصحاب الخُلُق الملتزمين بالمنهج يُقرِّبْه الله منه أكثر وأكثر.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) عن أبى هريرة. والذراع من الإنسان من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى. والذراع من المقاييس ، ومن أشهر أنواعه الذراع الهاشمية وهى ٣٢ إصبعاً أو ٦٤ سنتيمتراً. [المعجم الوسيط : ذرع]. والباع : مسافة ما بين الكفين إذا انبسطت الذراعان يميناً وشمالاً، والمراد: المبالغة فى الاتساع [المعجم الوسيط : ب و ع] . والهرولة: الإسراع.

إذن: فمن الناس مَنْ يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، ويدق على باب الحق ، فينفتح له الباب ، ومن الناس مَنْ يصل بكرامة الله أولاً إلى طاعة الله ثانياً.

ولله المثل الأعلى : أنت كواحد من البشر قد يدق بابك إنسانٌ يحتاج إلى لقمة أو صدقة فتعطيه ، وهناك إنسان آخر تحب أنت أن تعطيه ، وعندما تعطيه يطيعك من منطلق الإحسان إليه، فما بالنا بعطاء الحق لعباده ؟

إذن: فمنهم مَنْ يصل بكرامة الله إلى طاعة الله ، ومنهم من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، وحين يصل الإنسان إلى القرب من الله ، ويقرب الله من العبد ، هنا يكون العبد فى معية الله ، وتفيض عليه هذه المعية كثيراً.

وقد قال أبو العلاء المعرى [1] لمحبوبته:

أنت الحبيبُ ولكنى أعوذ بـهِ ... من أن أكون حبيباً غير محبوبِ

أى: أنه يستعيذ بالله من أن يكون محباً لمن يرفض حبّه ، ولكن محبة الله تختلف عن محبة البشر ، وسبحانه لا يعامل محبيه كذلك ، فأنت حين تحب الله يقرّبك أكثر وأكثر ، ويسمَّى ذلك « المصافاة » ، فإذا أفاض الله سبحانه على بعض خَلْقه هبات من الكرامات فعلى العباد الذين اختصهم الحق سبحانه بذلك أن يُحَسنوا الأدب مع الله ، وألا يتبجَّح واحد منهم متفاخراً بعطاء الله سبحانه له.

فالمباهاة بالكرامات تضيعها ، ويسلبها الحق سبحانه من الذى يتبجَّح بها

(١) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان، شاعر فيلسوف، ولد ٣٦٣ هـ ومات فى معرَّة النعمان (٤٤٩ هـ) عن ٨٧ عاماً، عمى فى الرابعة من عمره، قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. ولما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه. [الأعلام للزركلى (١/ ١٥٧)].

ويتفاخر ويتباهى ، فمن تظاهر بالكرامة ليس له كرامة .

إذن: فالحق سبحانه يريد أن يكون العبد دائماً فى معيّته ، وهو سبحانه الذى بدأ وبيَّن بالآية الواضحة أنه سبحانه ولىّ المؤمنين ؛ ولذلك سيخرجهم من الظلمات إلى النور[1] . فقال:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ..(٢٥٧)﴾ [البقرة]

ونحن نعلم أنه سبحانه يأتى بالمحسَّات ليبيِّن المعنويات ؛ لأن إلْفَ الإنسان أولاً بالمحسَّات ، وهى أقرب إلى تقريب المراد ، فحين يضرب الحق سبحانه لنا المثل بالكفر والإيمان ، يصف الكفر بالظلمة ، والإيمان بالنور ، إنما يريد الحق أن يجعل لك المراد واضحاً موصولاً بمفهومك.

وإذا كنا نتجنَّب معاطب الظلمات الحسية ، أليس الأجدر بنا - أيضاً - أن نتجنب معاطب الظلمات المعنوية ، إن الظلمة الحسية تستر الأشياء فلا نرى الأشياء ، وقد نرتطم بأضعف شىء فنحطِّمه أو نصطدم بأقوى شىء فيحطمنا.

إذن: فَحَجْب المرائى يسبِّب الكوارث ، أما حين يأتى النور ؛ فهو يبيِّن ملامح الأشياء فتسير على هُدىً وأنت مطمئن.

وهَبْ أنك فى مكان مظلم ويوجد شىء آخر فى مكان منير ، فأنت فى الظلمة ترى مَنْ يوجد فى النور ، وهذه مسألة لم يفطن لتفسيرها علماء

---

(١) يقول الحق : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣)﴾ [الأحزاب] فقد عبر القرآن بالظلمات ، والمراد بها الكفر ، وبالنور والمراد به الإيمان ، وهذه هى بلاغة الإعجاز فى كتاب الله .

ما قبل الإسلام ، حيث كانوا يظنون أن الرؤية إنما تحدث من انتقال شعاع من عين الرائى إلى المرئىّ ، حتى جاء «الحسن بن الهيثم» العالم الإسلامى واكتشف قوانين الضوء ، وكشف خطأ ما سبقه من نظريات ، وحدَّد أن المرئىّ هو الذى يصدر منه شعاع إلى الرائى ، وإذا ما كان المرئى فى ظُلمة فلن يراه أحد ، ولو كان هناك شعاع يخرج من الرائى ؛ لرأى الإنسان فىّ الظلام.

إذن : أول ولاية من الله للمؤمنين أنه سبحانه يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والظلمة المعنوية أقوى من الظلمة الحسية ، وكذلك النور المعنوى أقوى من النور الحسّى ، فعالَمُ القيم قد يكون أقوى من عالم الحس ؛ لأن الجبر فى عالم الحسّ يمكن أن يحدث ، أما فى عالم القيم فهو أمر شاق ؛ ولذلك قال الشاعر :

جراحاتُ السنان [1] لها التئامُ ولا يلتامُ ما جَرَحَ اللسانُ

ويقول الحق سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ [يونس]

و«ألا» كما أوضحنا من قبل أداة تنبيه من المتكلّم للمخاطب حتى لا تفوته كلمة واحدة مما يجىء فى الخطاب.

وقوله سبحانه : ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ .. (٦٢) ﴾ . أى : لا خوف عليهم من غيرهم ﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ أى : أن الحزن لن يأتى منهم ، والخوف يكون من توقع شىء ضار لم يقع حتى الآن ، ولكنه قد

(١) السنان : السهام والرماح. وجراحاتها : آثار الجروح نتيجة الإصابة بها. والالتئام : هو اندمال هذه الجروح. [انظر لسان العرب] .

يحدث فى المستقبل.

وفى حياتنا اليومية نجد الأب يمسك بيد ابنه فى الزحام خوفاً عليه ، وقد ترى وليّاً من أولياء الله وقد أصيب ابنه فى حادث أو مات الابن ، تجد الولىّ فى ثبات لأنه يعلم حكمة الله فى قضائه ، فلا تتطوع أنت بالخوف عليه.

إذن : فالخوف يأتى من المستقبل ، وهو أمر مرتقب ، أما الحزن فهو إحساس يحدث على شىء فات.

والحق سبحانه يقول :

﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا [1] عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ..(٢٣)﴾ [الحديد]

والحزن على ما فات عبث ؛ لأن ما فات لا يعود.

وأولياء الله تعالى لا خوف عليهم ؛ لأنهم دائماً بصدد معرفة حكمة الله ، ومَنْ لا يعرف حكمة الله تعالى فى الأشياء قد يقول : «إن فلاناً هذا مسكين» ؛ لأنك لا تعرف ماذا جرى له.

وأما الحزن فهو مشاعر قلبية يريد الله من المؤمن أن تمر على باله.

وقد قال ﷺ حين افتقد ابنه : «وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» ولكنه حزن الوَرَع الذى يتجلَّى فى قوله ﷺ :

«إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا » [2].

(١) الأسى : الحزن الشديد . وتمام الآية : ﴿وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. (٢٣)﴾ [الحديد] بل عليه أن يكون متوازناً، فلا يحزن على شىء فاته، ولا يفرح بشىء جاءه قد يذهب بعد حين.

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك.

ويبيّن الله سبحانه لنا شروط الولاية فيقول:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) ﴾

والإيمان هو الأمر الاعتقادى الأول الذى يُبنى عليه كل عمل ، ويقتضى تنفيذ منهج الله ، الأمر فى الأمر ، والنهى فى النهى، والإباحة فى الإباحة .

والتقوى - كما علمنا - هى اتقاء صفات الجلال فى الله تعالى ، وأيضاً اتقاء النار ، وزاد رسول الله ﷺ فى صفات من تصدر عنه التقوى ؛ لأنها مراحل ، فقال ﷺ يصف المتقين:

«هم قوم تحابُّوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لَعلَى نور» [١].

وقد سُئل عمر - رضى الله عنه - عن المتقين فقال: « الواحد منهم يزيدك النظر إليه قُرباً من الله». وكأنه-رضى الله عنه - يشرح لنا قول الحق سبحانه:

﴿ سِيمَاهُمْ [٢] فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ..(٢٩) ﴾ [الفتح]

وساعة ترى المتقى لله تُسَرُّ وتفرح به ، ولا تعرف مصدر هذا السرور إلا حين يقال لك: إنه ملتزم بتقوى الله ، وهذا السرور يلفتك إلى أن تقلده ؛ لأن رؤياه تذكِّرك بالخشوع [٣] ، والخضوع [٤] ، والسكينة ، ورقَّة

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٣٥٢٧) من حديث عمر بن الخطاب، وتمامه: «إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى» قالوا: يا رسول الله، تخبرنا: من هم؟ قال: «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» وقرأ هذه الآية: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ [يونس].

(٢) سيماهم: علامات التقوى والإيمان ، وهو ذلك النور فى وجوههم.

(٣) خَشَع (خشوعًا) إذا خضع ، وخَشَعَ فى صلاته ودعائه . وقيل : بقلبه على ذلك ، وهو مأخوذ من (خَشَعَتْ) الأرض إذا سكنت واطمأنت [المصباح المنير] .

(٤) وخضع لغريمه (يخضع) خضوعاً : ذَلَّ واستكان فهو خاضع وأخضعه الفقر : أذله . والخضوع قريب من الخشوع إلا أن الخشوع أكثر ما يستعمل فى الصوت ومنه : ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ .. (١٠٨) ﴾ [طه] والخضوع فى الأعناق ومنه قول الفرزدق : خضع الرقاب نواكس الأبصار . [المصباح المنير]

السَّمْت ، وانبساط الأسارير.

والواحد من هؤلاء ينظر إلى الكون ولا يجد فى هذا الكون أى خَلَل، بل يرى كل شىء فى موضعه تماماً، ولا يرى أى قُبح فى الوجود، وحتى حين يصادف القبح، فهو يقول: إن هذا القبح يبيِّن لنا الحُسْن، ولولا وجود الباطل ومتاعبه لما عشق الناسُ الحقّ، وهكذا يصير الباطل من جنود الحق.

إن وجود الشرّ يدفع الناس إلى الخير ؛ ولذلك يقال: كُنْ جميلاً فى دينك تَرَ الوجود جميلاً ؛ لأنك حين ترى الأشياء وتقبل قدر الله فيها ، هنا يفيض الله عليك بهبات من الفيض الأعلى، وكلما تقرَّبت إلى الله زاد اقتراب الله سبحانه منك ، ويفيض عليك من الحكمة وأسرار الخلق[1] .

ومثال ذلك: العبد الصالح الذى آتاه الله من عنده رحمة وعلَّمه من لدنه علماً ، هذا العبد يعلّم موسى عليه السلام[2] ، فحين قارن بين خَرْق العبد الصالح لسفينة سليمة ، ولم يكن يعلم أن هناك حاكماً ظالماً يأخذ كل سفينة غَصْباً ؛ ولذلك ناقش موسى العبد الصالح ، وتساءل: كيف تخرق سفينة سليمة؟ وهنا بيَّن له العبد الصالح أن الملك الظالم حين يجد السفينة مخروقة فلن يأخذها ، وهى سفينة يملكها مساكين[3] .

وحين قَتل العبدُ الصالح غلاماً ، كان هذا الفعل فى نظر سيدنا موسى

(١) ويقول رسول الله ﷺ : « ما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحبّ إلىّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد فى مسنده (٦/ ٢٥٦) عن أبى هريرة .

(٢) قال سبحانه عن موسى وفتاه فى لقائهما بالخضر عليه السلام: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۝ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف].

(٣) وذلك أن موسى استنكر عليه فعله هذا فقال: ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ [الكهف] فكان رده عليه فيما بعد: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف].

جريمة ، ولم يعلم سيدنا موسى ما علمه العبد الصالح أن هذا الولد سوف يسيء إلى أهله ، وأمر الله العبد الصالح بقتله قبل البلوغ حتى لا يفتن أهله [(١)] ، وسوف يدخل هذا الولد الجنة ويصير من دعاميص [(٢)] الجنة .

ويقال : إن من يموت من قبل البلوغ ليس له مسكن محدّد فى الجنة ، بل يذهب حيث يشاء ؛ فهو كالطفل الصغير الذى يدخل قصراً ، ولا يطيق البقاء فى مكان واحد ، بل يذهب هنا وهناك ، وقد يذهب إلى حيث سيدنا محمد ﷺ أو أبو بكر الصديق ، أو عند أى صحابى جليل .

وأيضاً حين دخل سيدنا موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح إلى قرية واستطعما أهلها فرفضوا أن يطعموهما - وطلب الطعام . هو أصدق ألوان السؤال - فأبى أهل القرية أن يطعموهما ، وهذا دليل الخسَّة واللؤم ؛ فأقام العبد الصالح الجدار الآيل للسقوط فى تلك القرية .

ولم يكن سيدنا موسى - عليه السلام - قد علم ما علمه العبدُ الصالح من أن رجلاً صالحاً قد مات وترك لأولاده كنزاً تحت هذا الجدار ، وبناه بناية موقوتة بزمن بلوغ الأبناء لسن الرشد ؛ فيقع الجدار ليجد الأبناء ما ترك لهم والدهم من كنز ، ولا يجرؤ أهل القرية اللئام على السطو عليه [(٣)] .

---

(١) قال موسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الكهف] فنبأه الخضر بتأويل ما لم يستطع فهمه أ . استيعابه فقال له : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف] .

(٢) دعاميص : هم صغار الأطفال ، فسر بالدويبة التى تكون فى مستنقع الماء ، قال : والدُّعْموص : الدخَّال فى الأمور ، أى : أنهم سَيَّاحون فى الجنة دَخَّالون فى منازلها ، لا يُمنعون من موضع ، كما أن الصبيان فى الدنيا لا يُمنعون من الدخول على الحُرَم ، ولا يحتجب منهم أحد . [لسان العرب : مادة (دع م ص)] .

(٣) وهذا أمر ذكره رب العزة فى كتابه فقال عن موسى والخضر : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الكهف] . فقال له الخضر فيما بعد : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف] .

إذن : هذه هباتٌ من فيض الحق سبحانه على عباده الصالحين ، وهو سبحانه وتعالى يجعل مَثَل هؤلاء العباد كالصوارى المنصوبة التى تهدى الناس ، أو كالفنار الذى يهدى السفن فى الظلمة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾

والبُشرى [1] : من البشْر والبشارة والتبشير ، وكلها مأخوذة من البشرة ، وهى الجلد ؛ لأن أى انفعال فى باطن النفس الإنسانية إنما ينضح على البشرة ، فإذا جئت للإنسان بأمر سارٍّ تجد أثر هذا السرور على أساريره ، وإن جئت للإنسان بخبر سيِّىء تجد الكدر وقد ظهر على بشرته ، فالبشرة هى أول منفعل بالأحداث السارة أو المؤلمة .

وحين يقال : «بشرى» فهذا يعنى كلاماً إذا سمعه السامع يظهر على بشرته إشراق وسرور ؛ لأنه كلام مبشِّر بخير .

وحين سئل رسول الله ﷺ عن البشرى ، قال : « إنها الرؤية الصالحة تُرى للمؤمن أو يراها »، وقال ﷺ : « إنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» [2] .

---

(١) بشرَ بكذا ، ويبشر ، مثل : فرح ، وزناً ومعنىً ، وهو الاستبشار ، والمصدر : البشور واسم الفاعل من المخفف : بشير ، وهو البشير فى الخير أكثر من الشر ، والبشر . والبُشْرَى : فُعْلَى من ذلك ، والبشارة إذا أطلقت اختصت بالخير . والبشْر : طلاقة الوجه . والبَشْرة : ظاهر الجلد . وبين البشرى بمعنى السرور ، والبشرة ظاهر الجلد تفاعلٌ يظهر مرئياً فى السرور وغيره . [المصباح المنير - بتصرف] .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٩٨٣) ومسلم (٢٢٦٤) عن أنس بن مالك أنه ﷺ قال : «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» .

وقد أوحى للنبى ﷺ بالرؤيا ستة أشهر ، وأوحى إليه فى اليقظة ثلاثة وعشرين عاماً ، فإذا نسبت الستة أشهر إلى الثلاثة والعشرين عاماً ، تجد أن الستة أشهر تمثل جزءاً من ستة وأربعين جزءاً.

والرؤيا ليست هى الحُلْم ؛ لأن الرؤيا هى شىء لم يشغل عقلك نهاراً ، وليس للشيطان فيه دخل.

والمثل العامى يقول: «الجوعان يحلم بسوق العيش» فإن كان ما يراه الإنسان فى أثناء النوم له علاقة بأمر يشغله ، فهذا هو الحلم ، وليس الرؤيا ، وإن كان ما يراه الإنسان فى أثناء النوم شيئاً يخالف منهج الله ، فهذه قذفة من الشيطان [١].

إذن: فهناك فارق بين الرؤيا والحلم ، وأضغاث الأحلام [٢].

البشرى - إذن - هى الرؤيا الصالحة ، أو هى المقدمات التى تُشْعِر خَلْق الله بهم فتتجه قلوب الناس إلى هؤلاء الأولياء ، وقد تجد واحداً أحبه الله تعالى فى السماء ، فيقول الله سبحانه وتعالى لجبريل عليه السلام: « إنى أحب فلاناً فأحِبَّهْ. قال: فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماء فيقول: إن الله يَحب فلاناً فأحِبُّوه ، فيحبه أهل السماء. قال: ثم يُوضع له القبول فى الأرض [٣]» .

(١) ونحو ذلك رواه جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال لأعرابىّ جاءه فقال: إنى حلمت أن رأسى قطع فأنا أتبعه، فزجره النبى ﷺ وقال: « لا تُخْبِرْ بتلعُّب الشيطان بك فى المنام» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٦٨).

(٢) أضغاث الأحلام: الرؤيا التى لا يمكن تأويلها لاختلاطها والتباسها ، والضغث: الحلم الذى لا تأويل له ولا خير فيه ، وفي التنزيل العزيز: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ..(٤٤)﴾ [يوسف] أى: رؤياك أخلاط ليست برؤيا بينة ، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤)﴾ [يوسف] أى: ليس للرؤيا المختلطة عندنا تأويل. [لسان العرب: مادة (ض غ ث)]. وهم قالوا هذا لعجزهم عن تأويلها ، ولكن يوسف فسرها للملك، فلا تكون أضغاث أحلام

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٠٩) ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبى هريرة. واللفظ لمسلم، وتمامه عنده «وإذا أبغَض عبداً دعا جبريل فيقول: إنى أبغض فلاناً فأبغضه. قال: فيبغضه جبريل. ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه. قال: فيبغضونه. ثم توضع له البغضاء فى الأرض».

وساعة تراه مكتوباً له القبول ، فالكل يُجمعون على أن فى رؤيتهم لهذا المحبوب من السماء سَمْتاً طيباً ، وهذه هى البشرى.

أو أن البشرى تأتى لحظة أن يأتى مَلَكُ الموت ، فيُلْقى عليه السلام ، ويشعر أن الموت مسألة طبيعية ، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾ [النحل]

أو ساعة يبيضُّ الوجه حين يأخذ الإنسان من هؤلاء كتابه بيمينه ، وهذه بشرى فى الدنيا وفى الآخرة.

والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.. (٣١)﴾ [فصلت]

إذن: فهؤلاء الأولياء [(١)] يتلقون من فيوضات [(٢)] الله عليهم بواسطة الملائكة ويتميزون عن غيرهم ؛ لأن الواحد منهم قد يفرض على نفسه نوافل فوق الفروض ؛ لأن الفروض هى أقل القليل فى التكاليف.

وقد يرى واحد منهم أن القيام بالفروض لا يتناسب مع حبه لله تعالى ؛

---

(١) هؤلاء الأولياء الذين تخلَّوا عن المعاصى وتحلَّوا بالطاعات فتجلَّى سبحانه عليهم بالفيوضات ومن هذا الفيض القبول والرؤيا الصالحة.

(٢) من عطاءات القبول باقى الآيات فى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)﴾ [فصلت] وهناك عطاءات وإمدادات لا نعلمها ، الله يعلمها ، وهو علام الغيوب.

فيزيد من جنسها على ما فرض الله ، ويصلّى - بدلاً من خمسة فروض - عشرة أخرى نوافل ، أو يصوم مع رمضان شهراً أو اثنين ، أو يصوم يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع.

وهذا دليل على أنه وجد أن الفروض قليلة بالنسبة لدرجة حبه لله تعالى ، وأن الله تعالى يستحق أكثر من ذلك ، وهذا معناه أن مثل هذا العبد قد دخل فى مقام الود [١] مع الله تعالى ، وهنا يفيض الله سبحانه وتعالى عليه بما يشاء ، وينال من رضوان الله ما جاء فى الحديث القدسى:

«من عادى لى وليّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرَّب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجْلَهُ التى يمشى عليها ، وإن سألنى لأعطينَّه ، ولئن استعاذنى لأعيذنَّه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته» [٢].

وهكذا تختلف المقاييس بين عبد يحب الله تعالى ويؤدى فوق ما عليه ، وعبد آخر يقوم بالتكاليف وحدها.

ويُنهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله:

﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)﴾ [يونس]

---

(١) وَدَّ : أحبَّ . والاسم : المودة . وودود ، أى : مُحبٌّ ، يستوى فيه الذكر والأنثى . [المصباح المنير] .

(٢) المساءة : نقيض المسرَّة ، وأصلها : مسوأة ، علَى مفعلة ، ولهذا ترد الواو فى الجمع فيقال : هى (المساوى) لكن استعمل الجمع مخففًا ، وبَدَتْ مساويه أى : نقائصه ، والسوءة : العورة ، والجمع : سوءات ، وسمّيت سوأة لأنها بانكشافها تسوء صاحبها . [المصباح المنير].
والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد فى مسنده (٦/ ٢٥٦) عن أبى هريرة .

وما دام الحق سبحانه قد قال: ﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ..﴾ فلن تجد أحداً قادراً على ذلك، كما أن الخلق مقهورون كلهم يوم القيامة؛ ومَنْ كان يبيح له الله تعالى أن يملك شيئاً فى الدنيا لم يعد مالكاً لشىء، بدليل أن الكل سيسمع قول الحق سبحانه:

﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

وما دام الحق سبحانه قد وعد ببشرى الدنيا وبشرى الآخرة، فلا تبديل لما حكم به الله، فلا شىء يتأبَّى على حكم الله تعالى، والوعد بالبُشريات فى الدنيا وفى الآخرة فوز عظيم مؤكد.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥)﴾

تجىء هذه الآية بعد أن بيَّن لنا الله سبحانه وتعالى اعتراضات الكفار، وإيذاءهم لرسول الله ﷺ وتكذيبهم له وقولهم فيه ما قالوه، وفيما قالوه ما أحزنه ﷺ؛ لذلك طلب منه الحق سبحانه ألاَّ ينفعل لما قالوه انفعال الحزين، فقد قالوا: ساحر، وكاذب، ومُفْتَر، ومجنون، وقد نفى عنه الحق سبحانه كل ما قالوه، فلو كان محمد ﷺ ساحراً فلماذا لم يسحرهم هم أيضاً، وهل للمسحور إرادة مع الساحر؟!

إذن: كَذَّبَ قولَهم فى أنه ﷺ سحر عبيدَهم وأولادَهم.

وقالوا: مجنون، ولم يكن فى سلوكه ﷺ أدنى أثر من جنون، وفنَّد أقوالهم هذه بقوله سبحانه:

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ[١] (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

فالمجنون لا يكون على خُلُق عظيم أبداً .

وحين قالوا : إنه افترى القرآن ، تحداهم أن يأتوا بسورة من مثل ما قال[٢] ، وعجزوا عن ذلك رغم أنهم مرتاضون[٣] للشعر والأدب والبيان .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ .. (٦٥)﴾ لأن أقوالهم لا حصيلة لها من الوقوف أمام الدعوة ؛ لأن ﴿.. الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. (٦٥)﴾والعزة هى القوة ، والغلبة ، ويقال: هذا الشىء عزيز ، أى: لا يوجد مثله ، وهو سبحانه العزيز المُطْلَق ؛ لأنه لا إله إلا هو لا يُغلَب ولا يُقهَر .

وتلحظ حين تقرأ هذه الآية وجود حرف «الميم» فوق كلمة ﴿قَوْلُهُمْ﴾[٤] وتعنى : ضرورة الوقف هنا.

---

(١) مَنّ عليه بالعتق وغيره (مَنّا) من باب قتل . وامتن عليه به : أنعم عليه به . والاسم المِنَّة ، والجمع (مِنن) والمُنّة بالضم : القوة ، وهى من الأضداد . ومننت عليه : أى : عددت له ما فعلت له من الصنائع . وفى هذا تكدير وتعيير تنكسر منه القلوب . لهذا نهى الشارع عنه فى قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾ [البقرة] . ومننت الشىء أيضاً إذا قطعته فهو ممنون . والمنّ : شىء يسقط من السماء . فيجنى . [المصباح - بتصرف] .

(٢) وذلك قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)﴾ [يونس] .

(٣) مرتاضون للشعر : أى : لهم دُرْبة على قول الشعر ونَظْمه .

(٤) وهذا هو الوقف اللازم ، ومثله قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ .. (٣٦)﴾ [الأنعام] .

ولسائل أن يقول:

كيف يلزم الوقف هنا مع أن القرآن الكريم مبنىٌّ على الوصل ؛ وآخر حرف فى كل سورة تجده مُنوَّناً ، وليس فى القرآن ما يُلزِم الوقف للقارىء ؟

وأقول رَدّاً على هذا التساؤل: إن العلماء حين لاحظوا ضعف مَلَكة اللغة ؛ جاءوا بهذا الوقف ليتفهم القارىء - الذى لا علم له بالبيان العربى - كيف يقرأ هذه الآية ، فهَبْ أن واحداً لا يملك فطنة الأداء ، فينسب ﴿.. إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ..(٦٥)﴾ إلى ﴿وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ..(٦٥)﴾ . ويخطىء الفهم ، ويظن - معاذ الله - أن العزة لله هى أمر يُحزِن النبى ﷺ ؛ لذلك جاء العلماء بالوقف هنا لندقِّق القراءة ونُحْسِن الفهم.

ولذلك علينا أن نقرأ ﴿.. وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ .. (٦٥)﴾ ثم نتوقف قبل أن نتابع القراءة ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. (٦٥)﴾ ؛وبهذا نفهم المعنى : يجب ألاَّ تحزن يا محمد ؛ لأن أقوالهم لن تغيِّر فى مجرى حتمية انتصارك عليهم.

ويريد الحق سبحانه هنا أن يطمئن رسوله ﷺ فى أمر محدد ، هو أنه ﷺ مهمته هى البلاغ فقط ، وليس عليه أن يُلزمهم بالإيمان برسالته والتسليم لمنهجه .

وبيّن له الحق سبحانه : أنهم إذا ما صدُّوا بعد بلاغك ، فلا تحزن مما يقولون ؛ فأقوالهم لا يقوم عليها دليل ، ولا تنهض لها حُجَّة ، وقد جاء فيهم قول الحق سبحانه :

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا[1] أَنفُسُهُمْ ..(١٤)﴾ [النمل]

---

(١) الجحود: الإنكار رغم العلم. واستيقن الأمر: علمه على سبيل اليقين. [لسان العرب: مادة (ى ق ن)].

وأقوالهم لن تقف في سبيل دعوتك ، وسيُتمُّ الله نوره ، ولا يوجد أعز من الله سبحانه وتعالى ، ولن يجير أحد على الله أحداً ، فهو سبحانه يُجير ولا يُجار عليه .

وإذا كانت العزة هي القهر والغلبة ، وقد تكون عزة حُجّة ، وقد تكون عزة حلْف ، وقد تكون عزة حكمة ، وكل واحد من خلق الله سبحانه قد توجد له عزة مجال ما أو محيط ما ، لكن العزة لله سبحانه شاملة مطلقة في كل محيط وفي كل مجال ، شاملة لكل شيء وأي شيء.

ولماذا لم يأت الحق سبحانه بأسلوب القَصْر [1] في هذه الآية ؟

أي: أن تأتي الصفة للموصوف وتنفيها عما عداه ؛ كأن نقول: «لزيد مالٌ ليس لغيره». وإذا قدمنا الجار والمجرور - وهو المتعلّق - فنقول: «لفلان كذا» ، وهذا يعني أن غير فلان ليس له كذا.

وإنْ قلنا: «فلان له كذا» فيصح أن نقول: «ولفلان كذا ، ولفلان كذا ، ولفلان كذا».

أما إذا قلت: «لفلان كذا» فمعناها: امتناع أن يكون لغير فلان شيء من مثل ما قلت.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿ ..إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ..(٦٥) ﴾ وجاء بالتأكيد ولم يأت لها بأسلوب القصر الذي يعطي العزة لله سبحانه وينفيها عن غيره ؛ لأنه لا يوجد لهذه الآية مناهض ، وهو كلام ابتدائي يخبر به الله سبحانه خبراً كونياً بأن العزة لله جميعاً .

---

(١) أسلوب القصر (أو الحصر) : هو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص، وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه. وينقسم إلى: قصر الموصوف على الصفة، وقصر الصفة على الموصوف؛ وكل منهما إما حقيقي وإما مجازي. [الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي - ٣/ ١٤٩].

وما دام الحق سبحانه هو الذى يقول ذلك - وهو خالق الخلق - فلن تأتى قضية كونية تناقضها ، ولو وجدت - معاذ الله - قضية كونية تناقضها ، فالآية لن تكون صادقة . وهذا لم ولن يحدث أبداً مع آيات الحق سبحانه ؛ لأنه هو خالق الكون ، وهو مُنزل الآيات ؛ فلا يمكن أن يحدث تناقض أبداً بين الكون وكلام خالق الكون سبحانه وتعالى .

وقد حدث أن ادعى بعضهم [1] العزة لنفسه وقالوا :

﴿ ..لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ..(٨) ﴾ [المنافقون]

وكان مغزى قولهم هو ادعاء العزة لأنفسهم ، وادعاء الذلة للمؤمنين .

إذن : فالعزة قد ادُّعيت ، وما دامت قد ادعيت فلماذا لم تأت بأسلوب القصر ؟

نقول : لا ، لقد شاء الحق سبحانه أن يقول :

﴿ ..وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ..(٨) ﴾ [المنافقون]

فالعزة لله لا تتعداه ، ولكنه سبحانه شاء أن تكون عزة رسوله ﷺ وعزة المؤمنين من باطن عزة الله تعالى .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ ..إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا.. ﴾ أى : فى كل ألوانها هى لله سبحانه وتعالى ، إن كانت عزة حكمة فهو الحكيم ، وإنْ كانت عزة القبض على الأمور فهو

---

(١) هو عبد الله بن أبىّ رأس النفاق فى المدينة ، وكان ذلك فى غزوة بنى المصطلق فى شهر شعبان فى السنة السادسة من الهجرة ، وذلك أنه وصف محمداً وصحبه فقال : « قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول : سَمِّن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم » . أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/ ٢٩٠ ، ٢٩١) .

العزيز ، وإن كانت عزة الحلْم فهو الحليم ، وإنْ كانت عزة الغضب والانتقام فهو المنتقم الجبّار ، وكلُّ ألوان العزة لله تعالى:

﴿ . . هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يونس]

وما دامت العزة هى الغلبة والقهر ، فالله سبحانه يسمع من يستحق أن يُقهر منه ، وما دام الأمر فيه قول فهو يجىء بالسمع ، وإنْ كان فيه فعل ، فهو يأتى بصفة العليم ، فهو السميع لما يُقال والعليم بما يُفعل.

ونحن نعلم أن المنهىَّ عنه هنا هو: ﴿ وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ . . ﴿٦٥﴾ ﴾ [يونس]

لذلك كان المناسب أن يقال : ﴿هُوَ السَّمِيعُ . .﴾ أولاً.

ويريد الحق سبحانه أن يدلِّل على هذه القضية دلالة كونية فى آيات الله تعالى فى الكون ، وليس فى الوجود أو الكون مَنْ يقف أمامه سبحانه ؛ لذلك لا بد أن نلحظ أن قانون «العزة لله جميعاً» محكوم بأن لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض.

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ[1] ﴿٦٦﴾ ﴾

فالحق سبحانه – إذن – لن يَخرج كائنٌ مَنْ كان عن ملكه.

وساعة تجد الحق سبحانه يبيِّن الشىء وضده ، فهو يأتى بالقانون والإطار

(١) يخرصون: يتبعون ظنونهم وكذبهم وإفكهم [تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢٤)].

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ..(٢٨٤)﴾ [البقرة]

ومثال ذلك: حين تبع قوم فرعون موسى - عليه السلام - وقومه ، قال أصحاب موسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء]

قالوا ذلك ؛ لأنهم رأوا البحر أمامهم ، فشاء الحق سبحانه أن يبيِّن لهم أن البحر لن يعوق مشيئته سبحانه ، ولم ينفلت البحر من قوة الله تعالى ؛ لأن لله ما فى السموات وما فى الأرض ، والبحر منها ؛ لذلك انفلق البحر ، فكان كل فِرْقٍ كالطود العظيم [1] .

فلا شيء يخرج عن مُلكه سبحانه تعالى ؛ولذلك يأتى الحق سبحانه بالنقيض ، فبعد أن جعل الحق سبحانه لهم مسلكاً فى البحر ، وكل فِرْق كالطود العظيم ، ويظل البحر مفلوقاً فيدخل قوم فرعون فيه .

والحق سبحانه يقول لموسى عليه السلام :﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤)﴾ [الدخان]

فيأمر الحق سبحانه البحر أن يعود كما كان ؛ فيغرق قوم فرعون بعد أن أنجى الله - سبحانه وتعالى - موسى - عليه السلام - ومن معه ، فأهلك وأنجى بالشيء الواحد ؛ لأنه سبحانه له ما فى السموات وما فى الأرض ، وليبيِّن الحق سبحانه لنا أنه لا شيء فى كون الله تعالى يقوم مقام عزته سبحانه أبداً.

---

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)﴾ [الشعراء] .

والفِرْق: الفلق أو الجزء منه . والطود: الجبل الكبير . [ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٣٦)]، و[لسان العرب : مادة (ف ر ق)].

وهناك مثال آخر: حين يقول نوح - عليه السلام - لابنه:

﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا..(٤٢)﴾ [هود]

فيردّ الابن قائلاً:

﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ [1]..(٤٣)﴾ [هود]

وهذا كلام صحيح من ناحية أن الجبل يعلو مستواه عن مستوى المياه، ولكن ابن نوح نسى أن لله تعالى جندياً آخر هو الموج؛ فكان من المغرَقين.

صحيح أن ابن نوح فطن إلى أن السفينة سوف تستوى على «الجودى» [2]، وأن من يركبها لن يغرق، وكذلك من يأوى إلى الجبل العالى، لكنه لم يفطن إلى الموج الذى حال بينه وبين الجبل؛ فكان من المغرقين.

إذن: فكل كائن هو مؤتمر بأمر من الله تعالى، وما دامت العزة لله جميعاً فمصداقها أن لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض، وليس هناك كائن فى الوجود يتأبّى على أن يكون جندياً من جنود الحق سبحانه، فيكون جندياً للإهلاك، وجندياً للنجاة فى نفس الوقت [3].

وقول الحق سبحانه هنا: (ألا) نعلم منه أن (ألا) أداة تنبيه للسامع فلا يؤخذ على غرَّة، ولا تفوته حكمة من حكم الكلام، وينتبه إلى أن

---

(١) يقول رب العزة سبحانه: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣)﴾ [هود] لقد اعتقد ابن نوح بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رءوس الجبال، وأنه لو تعلق فى رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق. [تفسير ابن كثير ٢/٤٤٦].

(٢) الجودى: قال مجاهد: هو جبل بالجزيرة، وهو الذى رست عليه سفينة نوح - عليه السلام. [تفسير ابن كثير ٢/٤٤٦]. وقيل: إنه جبل أرارات فى شرق تركيا بالأناضول.

(٣) يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)﴾ [الفتح] ويقول أيضاً: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ..(٣١)﴾ [المدثر].

هناك خطاباً عليه أن يجمع عقله كله ليحسن استقبال ما فى هذا الخطاب.

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ .. (٦٦) ﴾ [يونس]

ولقائل أن يقول: هناك كثير من الكائنات غير العاقلة ، وقوله هنا ﴿مَن﴾ مقصود به الكائنات العاقلة ؟

ولنا أن نتساءل للرَّدِّ على هذا القائل :

وهل هناك أى شىء فى الوجود لا يفهم عن الله ؟

طبعاً لا ، والله سبحانه وتعالى هو القائل عن الأرض :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾ [الزلزلة]

إذن: فكل الكائنات فى عُرف الاستقبال عن الله سبحانه سواء بـ «مَنْ» أو بـ «ما» ، وكل من فى الوجود يفهم عن الله .

ونلحظ أن الحق سبحانه يأتى مرة بالقول: ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا .. (٨٣) ﴾ [آل عمران]

ومرة يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ .. (٦٦) ﴾ [يونس]

كما جاء فى هذه الآية التى نحن بصددها الآن .

شاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأن هناك جنساً فى الوجود يوجد فى السماء ويوجد فى الأرض ، وهم الملائكة المُدَبِّرَات[1] أمْراً ، هؤلاء هم المقصودون بأن لله ما فى السموات والأرض .

---

(١) المدبِّرات أمراً : هى الملائكة تُدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض بأمر ربها - عز وجل .

ولله سبحانه وتعالى أيضاً جنس فى السموات لا يوجد فى الأرض وهم الملائكة المهيمون [1] العالين ، وليس لهم وجود على الأرض ، كما أن لله تعالى جنوداً فى الأرض ليس لهم وجود فى السماء ، فإن لاحظنا الملائكة المدبرات أمراً ، نجد أن قول الحق سبحانه :

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٨٤) ﴾ [البقرة]

مناسب لها .

وإن لاحظنا أن لله ملائكة مهيمين فى السماء ، وجنوداً فى الأرض لا علاقة لهم بالسماء يكون مناسباً لذلك قول الحق سبحانه :

﴿ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ .. (٦٦) ﴾ [يونس]

وما دام كل شىء فى الكون مملوكاً لله تعالى فلا شىء يخرج عن مراده سبحانه ، فلا يوجد مثلاً غار يدخله كائن فراراً من الله ؛ لأنه سبحانه قادر على أن يسد الغار ، وإن شاء الله سبحانه أن يساعد من دخل الغار فهو تعالى يعمى بصر من يرقب الغار [2] .

إذن : فلن يجير [3] شىء على الله تعالى ، وستظل له صفة العزة

(١) المهيمون : الذين يهيمون فى عبادة الله وطاعته ، فمن الملائكة من لا شغل لهم إلا العبادة فتجد منهم القائمين فلا يركعون ، والركع فلا يسجدون ، والسجود فلا يرفعون . وهناك الملائكة الكروبيون ، وهم أقرب الملائكة لحملة العرش الثمانية ، قال عنهم سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. (٧) ﴾ [غافر] .

(٢) استجار به : طلب حمايته . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ .. (٦) ﴾ [التوبة] وأجاره : تكفل بحمايته . قال تعالى : ﴿ ..وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ .. (٨٨) ﴾ [المؤمنون] أى : أنه يتكفَّل بحمايته من يلجأ إليه ولا يستطيع أحد أن يجير من يُريد الله عقابه . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٣) هذا إشارة إلى ما حدث فى هجرة الرسول ﷺ ومعه أبو بكر من مكة إلى المدينة عندما دخلوا الغار وأثبت الله على بابه شجرة وأوجد حمامتين ترقدان على البيض ، وعنكبوتاً كبيراً قد سد باب الغار بخيوط علاها تراب وكأنه تراب السنين .

لا يخدشها خادش من وجود الله فى الكون.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ.. (٦٦)﴾ [يونس]

ومعنى اتباعهم شركاء كأن هناك شركاء، رغم أن الأصل والحقيقة ألاَّ شركاء له سبحانه.

إذن: فهم يتبعون غير شيء؛ والدليل على ذلك موجود فى طى القضية، فهم يعبدونهم من دون الله تعالى، ومعنى العبادة أن يطاع أمر وينهى نهى، وما يعبدونه من أشياء لا أوامر لها ولا نواهى؛ فليس هناك منهج جاءوا به.

إذن: فلا ألوهية لهم.

إذن: فالأصل ألا شركاء لله تعالى، ولو كان له شركاء لأنزلوا منهجاً ولأوجدوا أوامر، وكان لهم نواه؛ لأن الذى يقول: «اعبدنى» إنما يحدد طريقة وأسلوب العبادة. وهاتوا واحداً من الذين تتبعونهم وتدعون لهم يكون له منهج، ولن يستطيعوا ذلك، والحق سبحانه هو القائل:

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء]

أى: أننا لو افترضنا أن هناك آلهة ولها مظهر قوة كالشمس التى تضيء والقمر الذى ينير، والمطر الذى ينزل من السماء، والملائكة التى تدبِّر الأمر، لو صدَّقنا أن كل هؤلاء آلهة، فهم سيبحثون عن الإله الواحد الأحد؛ ليأخذوا منه القوة التى ظننتم أنها لهم.

ولذلك يقـول الحق سـبحانه :

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ [المؤمنون]

إذ لو كان هذا الأمر صحيحاً لكانت هناك ولايات إلهية .

ولذلك قـال الحـق سـبحانه :

﴿أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ .. (٥٧)﴾ [الإسراء]

و هم قالوا إنهم يعبدون الملائكة ، وعليهم أن يعلموا أن الملائكة نفسها تعبد الله سبحانه وتعالى ، وما دام لا يوجد شركاء لله لتتبعوهم ؛ إذن : فأنتم تتبعون الظن .

لذلك جاء قول الحق سبحانه :

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ [1] وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ [2] (٦٦)﴾ [يونس]

ونحن نـجـد الذين أولعـوا بأن يُـوجـدوا فى القـرآن ظاهر تعـارض ليشكِّـكوا فيه ، قـالوا : إن هذه الآية مثالٌ على ذلك ؛ فيقولون : فى بداية الآية يقول : ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ .. (٦٦)﴾ [يونس]

فينفى أن المشركين يتبعـون شركاء لله ، ثم يأتى فى آخر الآية فيقول إنهم يتَّبعون الظن والخرص ، ففى أولها ينفى الاتباع ، وفى آخرها يثبته .

---

(١) الظن : ما يحصل فى النفس عن أمارة ، فهو شك راجح وفعله من أفعال الرجحان ، من باب نصر . والظن مصدر ، والظن : اسم لهذا الخاطر الذى يحصل فى النفس . قال تعالى : ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨)﴾ [النجم] وجمعه : ظنون ، ويستعمل الظن بمعنى اليقين مجازاً كقوله تعالى : ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠)﴾ [الحاقة] بمعنى تيقّنت . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٢) الخرص : الكذب والقول بغير علم . وقال تعالى : ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠)﴾ [الذاريات] قال الزجاج : أى : الكذابون . [لسان العرب : مادة (خ ر ص) - بتصرف] .

وهذا جهل ممن قال بهذا وادعى أن هناك تناقضاً فى الآية ، فالله سبحانه ينفى أن يكون ما يدعوه هؤلاء المشركون شركاء لله فى ملكه ، فللّه من فى السموات ومن فى الأرض ، ولكنه يثبت أنهم يتّبعون الظن والخرص والتخمين.

ونقول: ما هو الظن؟ وما هو الخرص؟

إن الظن حكم بالراجح كما أوضحنا من قبل فى النسب من أن هناك نسبة إنْ لم تكن موجودة فهى مشكوك فيها ، أو نسبة راجحة ، أو أن نسبة يتساوى فيها الشك مع الإثبات ، فإنْ كان الشك مساوياً للإثبات فهذا هو الشك. وإن رجحت ، فهذا هو الظن . أما المرجوح فنسميه وهماً.

الظن - إذن - حكم بالراجح. والخَرْص: هو التخمين ، والقول بلا قاعدة أو دليل.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦)﴾ [يونس]

والقرآن حين يوجه خطاباً فهو يأتى بالخطاب المستوعب لكل ممكن ، وهو سبحانه حكم عليهم هنا أنهم يتّبعون الظن والخرص.

ونحن نعلم أن الكافرين قسمان: قسم يُعْلم حقيقة الشيء ، ولكنه يغيّر الحقيقة إلى إفك [1] وإلى خَرْص ، وقسم آخر لا يعرف حقيقة الشيء ، بل يستمع إلى من يعتقد أنه يعرف .

---

(١) أفكَ ، يَأفَك ويأفك - من باب « فرح» و« ضرب» : كذب وافترى باطلاً والإفك بكسر الهمزة : الكذب : وأفاك صيغة مبالغة أى : كثير الكذب . قال تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧)﴾ [الجاثية] . [القاموس القويم] بتصرف .

إذن: فهناك مُتَّبِع - بكسر الباء - وهناك مُتَّبَع - بفتح الباء - المُتَّبَع - بفتح الباء - يعلم أن ما يقوله هو كلام ملتو، يشوه الحقيقة ويزينها، أما المتّبِع - بكسر الباء - فيظن أنه يتبع أناساً عاقلين أمناء فأخذ كلامهم بتصديق.

إذن: فالمتبع (بكسر الباء) يكون الظن من ناحيته، أما المتبع (بفتح الباء) فيكون الخَرْص والكذب والافتراء من ناحيته؛ ولذلك يقول لنا الحق سبحانه:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨)﴾
[البقرة]

هؤلاء - إذن - يصدِّقون ما يقال لهم؛ لأنهم أميُّون، والكلام الذى يقال لهم راجح، وهم لو فكروا بعقولهم لما انتهوا إلى أنه كلام راجح.

أما الآخرون فيقول فيهم الحق سبحانه:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ..(٧٩)﴾
[البقرة]

وهؤلاء هم الذين يأتى منهم الخَرْص والإفك وقول الزور والبهتان[1].

إذن: فالكفار إن كانوا من الأميين فهم من أهل الظن، وينطبق عليهم قول الحق سبحانه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ..(٦٦)﴾.

وإن كانوا من القادة والرؤساء فهؤلاء هم من ينطبق عليهم قول الحق سبحانه: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦)﴾.

(١) البهتان: الافتراء والكذب. قال تعالى: ﴿وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ .. (١٢)﴾ [الممتحنة] [لسان العرب: مادة (ب هـ ت)].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

وشاء الحق سبحانه بعد أن بيَّن الإيمان والمؤمنين ، وما يمكن أن يدَّعيه الكافرون فى نبيٍّ الرسالة ، وبعد أن بيَّن المنهج ، ها هو سبحانه يأتى بالكلام عن آياته سبحانه فى الكون تأييداً للمطلوب بالموجود.

فالمطلوب أن نؤمن برسول يبلِّغ منهجاً عن الله ؛ ليكون هذا المنهج نافعاً لنا ، وإنْ أراد أحد دليلاً على ذلك فلينظر إلى الآيات التى وجدت للإنسان من قبل أن يُكلَّف ، أهى فى مصلحته أم فى غير مصلحته؟

ومادامت الآيات الموجودة فى الكون - والمسخَّرة للإنسان - تفيد الإنسان فى حياته ، فلماذا لا يشكر من أعطاه كل تلك النعم ، وقد أعطى الحق - سبحانه وتعالى - الإنسان من قبل التكليف الكثير من النعم ، وفور أن يصل إلى البلوغ يصير مكلَّفاً.

إذن : فالله سبحانه لم يكلِّف أحداً إلا بعد أن غمره بالنعم النافعة له باعتقاد من العبد ، وصدق من الواقع.

فإذا ما جاء لك التكليف ، فَقِسْ ما طُلب منك على ما وُجد لك ، فإذا كنت تعتقد أن الآيات الكونيَة التى سبقَت التكليف نافعة لكَ قبل أن يطلب منك «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ؛ فَخُذْ منها صدقاً واقعاً يؤيد صدق ما طُلب منك تكليفاً ، فكما نفعك فى الأولى ، فالحق سبحانه

سينفعك باتباعك التكليف ، واستقبلْ حركة الحياة على ضوء هذا التكليف ؛ لتسعد[(١)].

ونحن نعلم أن الأصل فى الإنسان أن يرتاح أولاً ليتحرك ، ثم يتعب ، ثم يرتاح ؛ ولذلك نجد التكاليف قد جاءت على نفس المنوال ، فقد أراحك الحق سبحانه إلى سن البلوغ وأخذت نعم الله تعالى وتمتعت بها إلى سن البلوغ ، ارتحت اختياراً ، وارتحت فى مراداتك ، ثم تجىء «افعل» و«لا تفعل» لتلتزم بما يُصْلِح لك كل أحوالك.

وإذا كان التكليف سيأخذ منك بعضاً من الجهد ، فهناك فاصل زمنى للراحة ، وأنت فى حياتك تجد وقتاً للراحة ، ووقتاً للحركة ، والراحة تجعلك تسعى بنشاط إلى الحركة ، والحركة تأخذ منك الجهد الذى تحب أن ترتاح بعده.

إذن : فالحركة تحتاج للراحة ، والراحة تحتاج للحركة .

وجاء الحق سبحانه إلى الفترة الزمنية المسماة «اليوم» ، فبيَّن لنا أنه كما قسَّم الوجود الإنسانى إلى مرحلتين :

الأولى : هى ما قبل البلوغ ولا تكليف فيها .

والثانية : هى ما بعد البلوغ وفيها التكليف .

فقد قسَّم الله سبحانه أيضاً «اليوم» إلى وقت للراحة ووقت للحركة ، فقال تعالى : ﴿**هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ..** (٦٧)﴾ [يونس]

---

(١) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١)﴾ [فصلت] .

فكما خلق الحق سبحانه لنا اليوم وفيه وقت للراحة ، ووقت للحركة ، كذلك شرع الحق سبحانه منهج الدين ؛ لتستقيم حركة الحياة ؛ لأن الإنسان - الخليفة في الأرض - لا بد أن يتحرك ، ولا بد أن تكون حركته على مقتضى «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ، وما لم يَرِدْ فيه «افعل» و«لا تفعل» فهو مباح ؛ إن شاء فعله ، وإن شاء لم يفعله[1] .

وكل فعل ، وكل نهى يتطلب حركة ، وإياك أن تتصور أن النهى لا يتطلب حركة ؛ لأنك تتحرك فى أمر ما ثم يأتيك قرار التوقف ، وقد تتوهم أن التوقف لا يحتاج إلى حركة ؛ لأنه سلبك ملكة القيام بما تعمل ، ولكنك تنسى أن هناك حركة داخلية ، وهى الدوافع التى كانت تلح عليك أن تقوم بما تشتهيه نفسك ولا يواكب منهج الله ، وأنت تكبت تلك الدوافع وتكبح جماحها[2] ؛ لأن الله سبحانه قد أمرك بذلك .

وما دامت هناك حركة فلا بد أن يأتى منها تعب ؛ لذلك جعل الله تعالى لك حقاً فى الراحة .

وكذلك عُمْر الإنسان ، لم يكلِّف الله - تعالى - الإنسان إلا بعد البلوغ ، وترك له الفترة الأولى من عمره دون تكليف منه وحساب ، لكنه سبحانه لم يقطع عنه التكليف فى تلك المرحلة بتاتاً ، وإنما منع حسابه على ما «يفعل» أو «لا يفعل» ، وترك مسئولية التدريب على التكليف للأب مثلاً ، فالأب يقول لابنه : «لا تكذبْ» فإن كذب ؛ فالأب يعاقبه ، وهكذا يكون الأمر من الوالد ، والنهى للولد والأمر والنهى يتطلب ثواباً أو عقاباً .

---

(١) لأن كلمة (افعل) يندرج تحتها الأمر من الله ورسوله ﷺ فى الواجبات والفرائض والسنن والمندوبات والمستحبات . وكلمة (لا تفعل) يندرج تحتها النهى من الله ورسوله ﷺ وذلك فى الحرام والمكروه . أما غير ذلك فهو مباح .

(٢) تكبح جماحها : تمنعها عن المعاصى . مأخوذة من كبح الدابة أى : جذبها إليه باللجام ، وضرب فاها به ؛ كى تقف ولا تجرى . [لسان العرب : مادة (ك ب ح)] .

ويبيِّن لنا رسول الله ﷺ هذا الأمر فيقول: «مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين »[(١)].

والذى يأمر هنا الابن بالصلاة هو الأب ، وهو أيضاً الذى يعاقب على ترك الصلاة ، وهو الذى يثيب ابنه إن أراد أن يجعل الصلاة محبوبة للابن ، وأن يجعل للابن أنساً بالعبادة.

وحين يكلِّف الأب ابنه بالصلاة ، فالابن يطيع ؛ لأن الأب هو الذى يقضى حاجات الابن ، ويحقق له مصالحه ، والابن يعلم أن والده لن يكلفه إلا بما يحقق تلك المصالح ، وهو يفعل ذلك ؛ لأنه يحبه ؛ لذلك جعل رسول الله ﷺ الأمر والنهى من النافع للابن ؛ لتوجد حيثية قبول فى النفس.

وما إن يأت البلوغ فيكون التكليف من الله والأمر من الله ، والثواب والعقاب منه سبحانه.

إذن: فالأمر والنهى قبل البلوغ يأتيان من الأب ؛ ليتعود الإنسان استقبال الأمر والنهى من ربه ورب أبيه.

وإذا كانت الحياة والسير فيها على ضوء منهج الله تعالى يقتضى حركة فى «افعل»و «لا تفعل» فلا بد أن يحتاج الإنسان إلى راحة من الحركة ؛ لذلك يبيِّن لنا الله سبحانه أنه جعل فى «اليوم» ليلاً ونهاراً ، ولكلٍّ مهمة ، فإياك أن تضع مهمة شىء مكان شىء آخر ؛حتى لا ترتبك الأمور ، ولكن الظروف قد تضطرك إلى ذلك ، فهناك من يسهر للحراسة ، وهناك من يسهر للعمل فى المخابز ، أو إعداد طعام الإفطار للناس ؛ ولذلك فهناك احتياط قدرى ، فقال الحق سبحانه فى آية ثانية:

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٨٧) وأبو داود فى سننه (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. واللفظ لأحمد.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [الروم]

لأن الحق سبحانه قد علم أزلاً أن هناك مصالح لا يمكن إلا أن تكون ليلاً ، فالذى يعمل ليلاً يرتاح نهاراً ، ولو أن الآية جاءت عمومية ؛ لقلنا لمن ينام (١) بالنهار : لا ، ليس هذا وقت السكن والراحة .

ولكن شاء الحق سبحانه أن يضع الاحتياطىَّ القدرىَّ ؛ ليرتاح من يتصل عمله بالليل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ .. (٦٧) ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن هناك فارقاً بين «الخَلْق» ، و«الجَعْل» ، و«المُلْك» ، والمثال على الخلق : أنه سبحانه خَلَق الزمن ، ثم جاء لهذا الزمن ليجعل منه ليلاً ونهاراً (٢) .

إذن : فالجعل هو توجيه شىء مخلوق لمهمة .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - وهو مُنزَّه عن أى تشبيه أو مثل :

تجد صانع الفخَّار وهو يمسك بالطين ؛ ليجعل منه إبريقاً ، فهو يصنع الطين أولاً بأن يخلط الماء بالتراب ويعجنهما معاً ، ثم يجعل من الطين

---

(١) نام فلان نومًا : اضطجع أو نَعَسَ وإليه سكن واطمأن ووثق به ومن حاجته غفل عنها ولم يهتم بها وأنامه : أرقده ، ونوَّم فلان : أرقده . والتناوم التظاهر بالنوم . واستنام : نام واطمأن . والنوم من آيات الله ؛ لأنه راحة وسكن ، والراحة مع السكن تعطى قوة الحركة والثبات فى التفكير والتركيز . [المعجم الوجيز - بتصرف] .

(٢) يقول سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [القصص] .

إبريقاً أو أصُصَ زرع أو زهرية ورد ، وهو بذلك إنما يحوِّل مخلوقاً إلى شيء له مهمة.

والزمن كله لله سبحانه ، جعل منه قسم الليل ، وقسم النهار ، مثلما خلق الإنسان ، ووجَّه جزءاً منه ؛ ليجعله سمعاً ، وجزءاً آخر ؛ ليجعله بصراً ، وجزءاً آخر ؛ ليصير مخاً ، وجزءاً آخر ؛ ليكون رئة ، كل ذلك مأخوذ مما خلقه الحق سبحانه.

أي : أنه سبحانه جعل أشياء مما خلق أصلاً ؛ لتؤدى مهمة للمخلوق.

وفى حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد من يغزل من القطن خيوطاً ، وهناك من ينسج من تلك الخيوط قماشاً ، وبعد ذلك نجد من يأخذ هذا القماش ؛ ليجعل منه جلباباً أو بنطلوناً أو قميصاً أو لحافاً.

إذن : فالجعل هو أخذ من شيء مخلوق لمهمة. والخلق قد يترتب عليه ملْك ، والجعل أيضاً قد يترتب عليه ملْك ؛ فمن عمل قِدْراً من الطين هو مَالكه ، ومن جعل من الطين إبريقاً إنمَا يملكه.

وهكذا نجد الخَلْق والجَعْل قد يترتب عليهما ملكية ما ، لكن الملكية المنسحبة بعد الخلق والجعل تجعلك تنتفع بالأشياء وقد لا تملكها ؛ لذلك نجد قول الحق سبحانه :

﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٣١)﴾ [يونس]

والحق سبحانه خلق لنا الأنعام ، وذلَّلها لنا ، وملَّكها لنا ، وإذا قال الحق سبحانه : «ملْك» فملكيته سبحانه لا تنتهى لأحد أبداً سواء من الخلق أو الجعل ، بل يظَل مملوكاً ؛ ولذلك قلنا : إن نقل الأعضاء هو تحكُّم فيما لا يملكه المخلوق ، بل يملكه الخالق سبحانه وتعالى.

يذكر الحق سبحانه الليل والنهار فيقول:

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا .. ﴿٦٧﴾﴾ [يونس]

وكان مقتضى الكلام أن يقول:

جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتتحركوا .

وشاء سبحانه أن يأتى هنا بالأداء القرآنى المعجز فقال: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ .

فهل النهار هو الذى يُبصر أم نحن؟

هل النهار مُبصِر أم مُبصَر فيه؟

وقديمًا لم يكونوا قد وصلوا إلى الحقيقة العلمية التى وصلنا إليها الآن ، فقد كانوا يعتقدون أن الضوء [1] يخرج من العين إلى المرئى فتراه ، إلى أن جاء «الحسن بن الهيثم» العالم العربى المسلم ، وأوضح بالتجربة أن الضوء إنما ينعكس من المرئى إلى العين ، بدليل أن المرئى إن كان فى النور وأنت فى الظلام ، فأنت تراه ، وإذا كان الأمر بالعكس فأنت لا تراه.

إذن: فقد سبق القرآن كل النظريات ، وبيَّن لنا أن النهار إنما يأتى بالضوء فينعكس الضوء من الكائنات والموجودات إلى العين فتراه.

إذن: فالنهار هو المبصر ؛ لأنه جاء بالضوء اللازم لانعكاس هذا الضوء من المرائى إلى العيون.

ونحن نجد القرآن حين يتعرض لليل والنهار يقول:

---

(١) الضَّوء - بفتح الضاد والضُّوء - بضمها والضياء ، والضِّوَاء : النور الذى ينتشر من الأجسام المضيئة ، وقد يُخص الضوء لما كان صادراً من شىء مضىء بنفسه كضوء الشمس ، وقد يُخصص بالنور لما كان مستمداً من ضوء ، كنور القمر . قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ..﴿٥﴾﴾ [يونس] . [القاموس القويم] بتصرف .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ..(٣٧) ﴾ [فصلت]

ويقول :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا [1] آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ..(١٢) ﴾ [الإسراء]

وهى مبصرة كما أثبت الحسن بن الهيثم العالم المسلم ، وإن كانت فى ظاهر الأمر مُبْصَرٌ فيها .

ويعطى لنا الحق سبحانه تجربة حية مع موسى عليه السلام ، وذلك فى قوله سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾ [طه]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليتعرف موسى بالتجربة على ما سوف يحدث من عصاه أمام فرعون ، ثم أمام السحرة ، ثقة منه سبحانه أن موسى حين يراها تنقلب إلى حية أمام عينيه لأول وهلة سوف يفزع ؛ فيطمئنه الحق سبحانه بقوله :

﴿ ..خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ [2] (٢١) ﴾ [طه]

وكانت المرة الأولى لتحوُّل العصا إلى حية ، هى تجربة للاستعداد ؛ حتى لا يجزع موسى - عليه السلام - أو يخاف لحظة أن يمر بالتجربة العملية ، وحتى يقبل على تقديم المعجزة وهو واثق تمام الثقة أمام فرعون .

---

(١) جعل الله لليل آية وهى القمر ، وجعل للنهار آية وهى الشمس ، وجعل آية النهار مبصرة أى : منيرة تنير الكون كله ، أما القمر فقد محا آيته وهو سواد القمر الذى فيه . بتصرف من تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧) .

(٢) أى : سنعيدها كما كانت (عصا) .

ثم قال الحق سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ [1] .. (١٢) ﴾ [النمل]

والجيب : هو المكان الذى تنفذ منه الرقبة فى الجلباب ويسمى (القبة) ، فلا يظن أحد أن الجيب المقصود هنا هو مكان وضع النقود ؛ لأن مكان وضع النقود قديماً كان يوجد من داخل الجلباب ، مثل جيب (الصديرى) الذى يرتديه أهل الريف ، وقد سُمِّى الجيب الذى نضع فيه النقود جيباً ؛ لأن اليد لا تذهب إلى الجيب إلا إذا دخلت فى الفتحة التى تخرج منها الرقبة.

وقد قال الحق سبحانه لموسى - عليه السلام:

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ..(١٢) ﴾ [النمل]

ويخبره الحق سبحانه:

﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ..(١٣) ﴾ [النمل]

هكذا كانت الآيات مبصرة [2] وكأنها تقول للعين: أبصرينى.

---

(١) الجيب : النحر والصدر . قال تعالى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ .. (٣١) ﴾ [النور].

(٢) بَصُرَ به : رآه ببصره ، فهو بصير ، وبَصُرَ بالأمر : عَلمه كأنه رآه ببصره . وقوله : ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ .. (١١) ﴾ [القصص] أى : رأته من أحد جوانب البيت . وأبصر : رأى . قال تعالى : ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) ﴾ [الصافات] أى : انظر وترقَّبْ . وأبصره : جعله يُبصر ، وجعله يعلم علم من يبصر . قال تعالى : ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) ﴾ [الصافات] . والبصير : من أسماء الله الحسنى ، والبصير : مَنْ له عينان يُبصر بهما ، ضد الأعمى . قال تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ..(٥٠) ﴾ [الأنعام] والبصيرة : نور القلب والحجة الواضحة ومن المجاز قولهم : نهار مبصر ، أى : مضىء . قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ..(٦٧) ﴾ [يونس] ، وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢) ﴾ [الإسراء] وقوله : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً .. (٥٩) ﴾ [الإسراء] أى : معجزة واضحة . وقوله : ﴿ ..إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) ﴾ [الأعراف] أى : عارفون الحق . [القاموس القويم - بتصرف] .

وهنا فى الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - يقول الحق سبحانه:

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ..(٦٧) ﴾ [يونس]

ولم يقل: لتتحركوا فيه، بل جاء بما يضمن سلامة الحركة، فقال سبحانه: ﴿مُبْصِرًا﴾ لأن الضوء الذى ينعكس على الأشياء هو الذى يحفظ للإنسان سلامة الحركة.

ولكن البعض من الناس فى زماننا يستخدمون نعمة الكهرباء فى الإسراف فى السهر، وحين يأتى الليل يسهرون حتى الصباح أمام جهاز (التليفزيون) أو (الڤيديو) أو فى غير ذلك من أمور الترفيه، ثم ينامون فى النهار، وينسون أن الليل للرقود، والنهار للعمل. وقد ثبت أن للضوء أثراً على الأجسام، فالضوء يؤثر فى الكائن الحى، وقد سبق النبى ﷺ ذلك الاكتشاف بزمان طويل وقال:

«أطفئوا المصابيح إذا رقدتم» [1]؛ وذلك حتى لا ينشغل الجسم بإشعاعات الضوء التى تتسبب فى تفاعلات كيماوية فى الجسم.

لذلك أقول دائماً: خذوا الحضارة بقواعد التحضير لها؛ لأننا يجب أن نتيح للفلاح أن يذهب إلى حقله والعامل إلى مصنعه؛ لأن السهر ضار، وإذا ادَّعى الإنسان أنه هو الذى تحضَّر، فليحترم قيمة العمل الذى يصنع الحضارة؛ لأن الآلة التى يسهر لمراقبتها ومشاهدتها هى إنتاج أناس يلتزمون بقواعد الحضارة، واحترام قيمة العمل فى النهار، وقيمة الترفيه فى الوقت المخصص.

نحن نسىء استخدام أدوات الحضارة، فالزمن الذى وفَّرته الثلاجة للزوجة؛ حتى لا تقف فى المطبخ نصف النهار لتعد الطعام، وصارت

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٢٤) وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٨٨) عن جابر بن عبد الله، واللفظ للبخارى.

تطهو وجبات ثلاثة أيام وتحفظها فى الثلاجة ، وتستخدم الغسالة الكهربائية فتنهى الغسيل فى ساعة من الزمن ، لكن بقية الوقت يضيع أمام (التليفزيون) ولا تلتفت إلى تربية الأبناء.

وهكذا يسىء البعض استخدام الآلات المتحضرة ، وفى هذه الإساءة نوع من التخلف ، فإذا أخذنا الحضارة بمنطقية فهذا هو التحضر.

وعلى سبيل المثال: أقول لمن يركب سيارة: إياك أن تسرع بها فى طريق متربة حتى لا يثور الغبار ويملأ صدور الناس بالحساسية.

وإياك أن تهمل صيانة سيارتك حتى لا يفسد الموتور ؛ ويخرج العادم الضار بصحة الناس والبيئة ، فلا يسافر الإنسان فى الطريق المتربة أو بسيارة غير جيدة الصيانة ؛ فيصيب صدور الناس بالمرض ، ويصيب الزروع ويفسد الهواء.

ويجب ألاَّ نأخذ الحضارة بتلصص ، إنما علينا أن نرتقى إلى مدارجها بصيانة أساليبها ؛ لأن من لا يأخذ الحضارة بقواعدها هو من يتخلف رغم تقدُّم الآلة ، فتصير الآلة أكثر تحضُّراً منه.

إذن: فإن أخذنا كل أمر بمهمته فنحن نحقق الراحة لأنفسنا ولغيرنا.

ولذلك قلنا فى تفسير قول الحق سبحانه:

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) ﴾ [الليل]

وإن بدا للإنسان أن هناك تعارضاً بين غشيان الليل (أى: تغطيته للمرئيات) وتجلِّى النهار (أى: كشف المرئيات) فهذا ليس تعارضاً ، بل هو التكامل ؛ لأن حركة النهار تتولد من الليل ، وراحة الليل تتولد من النهار.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ③﴾ [الليل]

وهذا الخلق للذكر والأنثى هو للتكامل ، لا للتناقض ، هكذا جاء الحق سبحانه بنوعين :

الأول: هو الزمن ليلاً ونهاراً .

والثانى: هو الإنسان ذكراً وأنثى .

ويقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ[1] ④﴾ [الليل]

أى : أن حركتكم هى الموصِّلة إلى غايتكم ، والحركات شتى (أى : مختلفة) ، سواء فى الليل أو النهار أو للذكر أو للأنثى ، فإن خلطنا الحركة وعبثنا بأنظمة الحياة ؛ فالحياة ترتبك ، ونعانى من مرارة التجربة إلى أن تتعقد الأمور ، فنبحث لها عن حلول .

وقد نادينا أن تعمل المرأة نصف الوقت لتعطى البيت بعضاً من الوقت ، أو أن تعتنى بالبيت إن كان لها ما يكفيها من دخل ، أو كان لزوجها ما يكفى لحياة الأسرة ، ولكن أحداً لم يلتفت إلىٰ ذلك إلا بعد مرارة التجارب .

وهناك مثال آخر : فى قول البعض أن الليل فى تلك البلاد المتحضِّرة لا ينتهى وأنت تجد السهر هناك حتى الصباح ، وعندما أسمع مثل هذا القول أقول : إن هذا ليس فى مصلحة سكان تلك البلاد ؛ لأن الليل يجب أن يكون سباتاً لتأتى الحركة المنتجة فى النهار .

---

(١) شت الجميع يشتُّ شتّا ، وشتاتاً : تفرق فهو شتيت ، وهم شتى وأمر شتٌّ متفرق وجمعه أشتات . قال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا .. ⑥①﴾ [النور] أى : متفرقين . وقوله : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④﴾ [الليل] أى : متنوع منه الحسن ومنه السيء وقوله : ﴿.. أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ⑤③﴾ [طه] مختلفة الطعم والنوع ، وقوله : ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ .. ①④﴾ [الحشر] أى : متفرقة . [القاموس القويم - بتصرف] .

إذن: فالآفة أن تنقل مهمة نوع إلى مهمة نوع آخر ، سواء أكان فى الزمان أو فى الإنسان ، واقرأ جيداً قول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④ ﴾ [الليل]

فكل فرد من أفراد الكون له مهمة وله سعى يختلف عن سعى الآخرين.

وهنا فى الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - يُنهى الحق سبحانه الآية فيقول :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ⑥٧ ﴾ [يونس]

ولقائل أن يقول: لم يقل «إن فى ذلك لآيات لقوم يبصرون» .

ونقول: لننتبه إلى أن الحق سبحانه حين يتكلم عن زمان فهو يبيِّن فى هذا الزمان مهمته ، وهو القائل فى صدر الآية ووسطها :

﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ..⑥٧ ﴾ [يونس]

فالعلَّة فى هذه الآية هى سكون الليل ، لا حركة النهار ، والعين فى الليل لا تؤدى مهمتها ، بل السمع هو الذى يؤدى مهمته .

والحق سبحانه هو القائل:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا [1] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ⑦١ ﴾ [القصص]

أى: أن أحداً لن يستطيع الحركة فى مثل هذا الليل السرمدى ولا أحد سيتبيَّن شيئاً .

(١) السرمد: دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمد: طويل . قال الزجَّاج: السرمد الدائم . [لسان العرب: مادة (س ر م د)].

والحق سبحانه هو القائل:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص]

إذن: فقد جاء الحق سبحانه فى آية الليل بالسمع[(١)] ، وجاء فى آية النهار بالأبصار ، وبعد أن تكلم الله سبحانه عن مجال الحركة بالنهار والراحة فى الليل ، يأتى الكلام عن الينبوع الذى يجب أن تَصْدُرَ عنه الحركة أو السكون ، وهو ضرورة الامتثال لأمر إله واحد حتى لا تصطدم حركتك بأمر إله آخر يقول ما يناقض حركة الإله الأول.

وكما تتحرك فى النهار ، وترتاح فى الليل لا بد أن تكون حركتك صادرة عن أمر واحد ، هذا الأمر الواحد صادر من الآمر الواحد ، وهو الله تعالى الذى تعبده بلا شريك ، ومن يقول بغير ذلك إنما يربك حركة الحياة.

والله سبحانه يقول:

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ ..﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون]

ولذلك يقول الله سبحانه بعد ذلك:

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

(١) وهنا يلفتنا فضيلة الشيخ إلى الإعجاز القرآنى فى أسراره ، حيث وضع الحاسة فى مكان وظيفتها التى تستطيع الأداء فيه ، فجعل الإبصار للنهار لأنه مكانه ، وجعل السمع لليل حيث إن البصر لا يؤدى مهمته ، وإنما المهمة هنا تخص السمع ، وهذا كمال الأدب وجلال الأسرار فى كتاب الله بلاغة بيان ، ومعنى يرقى.

ونفس نص الآية الكريمة يكذِّبهم فيما يدَّعونه .

ومثال ذلك: أنك حين تقول: «اتخذ فلان بيتاً» أى: أن فلاناً له ذاتية سابقة على اتخاذه للبيت ، وبها اتخذ البيت ، فإذا قيل : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا .. (٦٨) ﴾ [يونس]

فهذا اعتراف منهم بكمال الله تعالى وذاتيته قبل أن يتخذ الولد.

وهم قد اختلفوا فى أمر هذا الولد ، فمنهم من قال: إن الملائكة هن بنات الله وكذَّبهم الحق سبحانه فى ذلك ، ومنهم من قال: عزير ابن الله وهم اليهود [١] وقد كذَّبهم الله سبحانه فى ذلك ، وطائفة من المسيحيين قالوا: إن المسيح ابن الله [٢] ، وكذَّبهم الحق سبحانه فى ذلك [٣] .

ثم ما الداعى أن يتخذ الله الولد؟

هل استنفد قوته حتى يساعده الولد ؟!

وهل يمكن أن يضعف سبحانه - معاذ الله - فيمتد بقوة الولد أو يعتمد عليه؟!

مثلما يقال حين يواجه شيخٌ شاباً ، ويعتدى الشاب على الشيخ ، فيقال للشاب: احذر ؛ إن لهذا الشيخ ولداً أقوى منك ؛ فيرتدع الشاب ، أو أن يقول الشيخ للشاب: إن أبنائى يفوقونك فى القوة ، وفى هذا اعتداد بالأولاد.

ويريد الحق سبحانه أن يغفل كل هذه الدعاوى ولتكون حركة الحياة متماسكة متلازمة ، لا متعارضة ولا متناقضة ؛ لذلك ينبغى أن يكون

---

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ .. (٣٠) ﴾ [التوبة].

(٢) يقول الله عز وجل: ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ .. (٣٠) ﴾ [التوبة].

(٣) يقول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) ﴾ [التوبة].

المحرِّك إلهاً واحداً تصدر منه كل الأوامر ، فلا تعارض فى تلك الأوامر ؛ لأن الأوامر إن صدرت عن متعدد فحركة الحياة تتصادم بما يبدد الطاقة ويفسد الصالح .

ولذلك لا بد أن يكون الأمر صادراً من آمر واحد يُسْلِّم له كل أمر ، وهذا الإله منزَّه عن كل ما تعرفه من الأغيار ، فله تنزيه فى ذاته ؛ فلا ذات تشبه ذاته ، ومنزَّه فى صفاته ؛ فلا صفة تشبه صفته ، ومنزَّه فى أفعاله ؛ فلا فعل يشبه فعله [1] .

وحتى نضمن هذه المسألة لا بد أن يكون الإله واحداً ، ولكن بعضاً من القوم جعلوا لله شركاء ، ومن لم يجعل له شريكاً ، توهَّم أن له ابناً وولداً .

ونقول لهم :

إن كلمتكم : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا .. (٦٨) ﴾ ترد عليكم ؛ لأن معنى اتخاذ الولد أن الألوهية وُجِدَتْ أولاً مستقلة ، وبهذه الألوهية اتخذ الولد .

ومن المشركين من قال : إن الملائكة بنات الله .

فردَّ عليهم الحق سبحانه :

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ [2] (٢٢) ﴾ [النجم]

والكمال كله لله سبحانه فهو كمال ذاتى ؛ ولذلك يأتى فى وسط الآية ويقول تعالى :

---

(١) وذلك مصداق لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ [الشورى] ، فهو سبحانه لا مثل له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله .

(٢) ضاز فى الحكم : أى : جار . وقسمة ضيزى وضوزى أى : جائرة ليس فيها حق ولا عدل . [لسان العرب : مادة (ض ى ز) - بتصرف] .

﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِىُّ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [يونس]

وسبحانه تعنى: التنزيه ، وهو الغنى أى: المستغنى عن مُعين كما تستعينون أنتم بأبنائكم ، وهو دائم الوجود ؛ فلا يحتاج إلى ابن مثل البشر ، وهم أحداث تبدأ وتنتهى ؛ لذلك يحبون أن يكون لهم أبناء كما يقول الشاعر:

* ابنى يا أنا بعد ما أَقْضَى *

ويقال: «من لا ولد له لا ذكْر له» ، كأن الإنسان لما علم أنه يموت لا محالة أراد أن يستمر فى الحيَاة فى ولده.

ولذلك حين يأتى الولد للإنسان يشعر الإنسان بالسرور والسعادة ، والجاهل هو من يحزن حين تلد له زوجته بنتاً ؛ لأن البنت لن تحمل الاسم لمن بعدها ، أما الولد والحفيد فيحملان اسم الجد ، فيشعر الجد أنه ضمن الذِّكْر فى جيلين.

إذن: فاتخاذ الولد إما استعانة وإما اعتداد ، والحق سبحانه غنىٌّ عن الاستعانة ، وغنى عن الاعتداد ؛ لأنك تعتد بمن هو أقوى منك ، وليس هناك أقوى من الله تعالى ، وهو سبحانه لا يحتاج لامتداد ؛ لأنه هو الأول وهو الآخر ، وعلى ذلك ففكرة اتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى لا تصح على أى لون من ألوانها.

ولذلك يقول الحق سبحانه مرادفاً لتلك الفكرة : ﴿سُبْحَانَهُ[1]﴾ لأنها تقطع كل احتمالات ما سبقها ، ويُتْبِعِ ذلك بقوله: ﴿هُوَ الْغَنِىُّ﴾ لأنه

---

(١) سَبَح يَسْبَحُ من باب فتح : سَبْحا ، وسباحة : عام ومرَّ فى الماء . ومن المجاز سبح الجواد ، أى جرى كأنه يسبح فى الماء ، ومن المجاز سبحت النجوم ، أى: سارت فى أفلاكها . قال تعالى : ﴿ .. كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء] وعوملت معاملة العقلاء لانتظامها فى سيرها . وسبِّح اسم ربك : نزِّه اسمه عن كل نقص وصفه بكل كمال أو قل : سبحان الله ومعناها أنزه الله تنزيهاً عن النقص وأصفه بالكمال ، وهو منصوب على المصدرية ، ومصدر نائب عن فعله . [القاموس القويم - بتصرف]

غنى عن اتخاذ الولد ، وغنى عن كل شيء ، وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له ، والتنزيه: ارتفاع بالـمُنَزَّه عن مشاركة شيءٍ له - فى الذات أو الأفعال.

وإذا ورد شيء هو لله وصفٌ ولخَلْقه وصفٌ ، فإياك أن تأخذ هذه الصفة مثل تلك الصفة .

فإن قابلت غنياً من البشر ، فالغنى فى البشر عَرَضٌ ، أما غنى الله تعالى ففى ذاته سبحانه.

وأنت حى[1] والله سبحانه حى ، ولكن أحياتك كحياته؟ لا ؛ لأن حياته سبحانه لم يسبقها عدم ، وحياتك سبقها عدم ، وحياته سبحانه لا يلحقها عدم ، وأنت يلحق حياتك العدم.

والله موجود وأنت موجود ، لكن وجوده سبحانه وجود ذاتىٌّ ، ووجودك وجود عَرَضِىٌّ.

وإذا قال الحق سبحانه:

إن له - سبحانه وتعالى - يداً ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ..(١٠)﴾ [الفتح]

فلا يمكن أن تكون يد الله سبحانه مثل يدك ؛ لأن ذاته سبحانه ليست كذاتك ، وصفاته سبحانه ليست كصفاتك ، وهو سبحانه القادر الأعلى ، ولا يمكن أن يكون مقدوراً لأحد.

ولذلك حين يتجلَّى الله سبحانه لخلقه ، فسوف يتجلى بالصورة التى

(١) حَيِىَ يَحْيا ، كرضى يرضى وحىّ بالإدغام يحيا حياة وحيواناً ضد مات فهو حى ، وهو خاص بكل ذى روح ، ويطلق مجازاً على الأرض . قال تعالى : ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ..(٩)﴾ [فاطر] ويستعار أيضاً لمعنى الصلاح والإيمان ، قال تعالى : ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ..(١٢٢)﴾ [الأنعام] والحى من أسماء الله الحسنى ، قال تعالى : ﴿اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ ..(٢٥٥)﴾ [البقرة] والحياة الدنيا تقابلها الحياة الآخرة ، قال تعالى : ﴿.. وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥)﴾ [آل عمران] والمحيا : مصدر ميمى بمعنى الحياة ، قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ [الأنعام] أى : حياتى وموتى .

تختلف عن كل خيال العبد ، وهذه الصورة تختلف من عبد إلى آخر ، ولو كانت الصورة التى يتجلى بها الله سبحانه مقدوراً عليها لكان معنى ذلك أن هناك ذهناً بشرياً قد قدر على الإحاطة بها. وما خطر ببالك فالله سبحانه بخلاف ذلك ؛ لأن ما خطر بالبال مقدور عليه لأنه خاطر ، والله سبحانه لا ينقلب أبداً إلى مقدور عليه.

وأنت حين تأتى بمسألة فى الحساب أو الهندسة - مثلاً - وتعطيها لتلميذ ويقوم بحلها ، فمعنى ذلك أن عقله قد قدر عليها ، أما إن جئت لتلميذ فى المرحلة الإعدادية - مثلاً - بمسألة هندسية مقررة على طلبة كلية الهندسة ؛ فعقله لن يقدر عليها.

إذن: لو أن الإنسان قد أدرك شيئاً عن الله غير ما قاله الله لانقلب الإله إلى مقدور عليه ، والحق سبحانه مُنَزَّه عن ذلك ؛ لأنه القادر الأعلى الذى لا ينقلب أبداً إلى مقدور.

لذلك يعلِّمنا الحق سبحانه أن نقول تنزيهاً لله تعالى كلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ، وهو التنزيه الواجب عن كل شىء يخطر ببال الإنسان عن الله تعالى ، وهذه السبحانية أو هذا التنزيه هو صفة ذاتية فى الله تعالى ، قبل أن يوجد شىء ، وبعد أن خَلَق الخَلْق ، فعلى كل المخلوقات تنزيهه ، وبدأ الخلق فى التسبيح.

والتسبيح فعل مستمر لا ينقطع ولا ينقضى ؛ لذلك تجد استدلالات القرآن فى السور التنزيهية [1] تؤكد ذلك ، فيقول الحق سبحانه:

---

(١) فتجد التسبيح فى الماضى : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾ [الحديد] وفى المضارع : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [التغابن] وفى الأمر : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى] وفى المصدر سبحانه ، وبهذا نلاحظ أن الماضى يسبحه ، والمستقبل يسبحه والحال يذكره ، والكون مع الزمن فى تسبيح مستمر : ﴿.. وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾ [الإسراء] .

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ..① ﴾ [الإسراء]

وإياك أن تظن أن محمداً ﷺ قد سرى بقرار من نفسه ، بل الذى أسرى به هو الحق سبحانه ، فلا تظن أن المسافة يمكن أن تمنع مشيئة الحق المطلقة ، ولا المكان ، ولا الزمن ؛ لأن الفعل منسوب لله تعالى ، ولا يمكن أن نقيس فعلاً منسوباً لله تعالى بقياس الزمان أو المكان ، أو حسب قانون الحركة النسبية ؛ لأن الحق سبحانه له طلاقة القدرة ، وأنت بشر مجرد حادث محدود الزمان والمكان.

وأنت إذا سرْت من هنا إلى الإسكندرية - مثلاً - على قدميك فستقطع المسافة فى أسابيع ، وإن امتطيت دابة فقد تأخذ فى الوصول إلى الإسكندرية أياماً ، وإن ركبت سيارة فسوف تقطع المسافة فى ساعتين ، وإن ركبت صاروخاً ، فستصل خلال دقائق.

أى: أنك كلما زادت قوة أداة الوصول قَلَّ زمن الوصول ، وهذا موجز نظرية الحركة ، وإذا كان الذى أسرى هو الله سبحانه ، وهو قوة القوى ؛ لذلك لا يمكن أن يقاس بالنسبة لمشيئة قوة أخرى ، أو أن يقاس الأمر ببُعْد أو قُرْب المكان أو كيفية الزمان الذى تعرفه.

وإياك أن تفهم أن إسراء الله تعالى مثل إسرائك ؛ لأن الفعل إنما يأخذ قوته من الفاعل ، وما دام الفاعل هو الله سبحانه فلا أحد بقادر أن يَحُدَّ أفعاله بزمن.

وقد استهل الحق سبحانه سورة الإسراء بالسبحانية وآياتها الأولى تتكلم فى أدق شىء تكلم فيه رسول الله ﷺ عن ذاته بأنه قد أسْرِىَ به ، وبذلك

أثبت بحادث الإسراء حقيقة المعراج ، وأن الناموس [١] قد خُرق له ، وحدَّثنا عما نعلم لنصدِّق حديثه عما لا نعلم ، وحتى نقيس ما لا نعلم على ما نعلم ، فيتأكد لنا صدقه ﷺ في حديثه عما لا نعلم.

كلمة «سبحانه» -إذن - هي للتنزيه ، وهي لله تعالى أزلاً قبل أن يَخلق الخَلق ، فقد شهد سبحانه لذاته أنه إله واحد ، ثم شهدت الملائكة ، ويتكرر التسبيح من كل المخلوقات التي أوجدها الله سبحانه.

وأنت تجد سور القرآن الكريم التي جاء فيها التسبيح مؤكدة أنه سبحانه مُنزَّه ، وله التسبيح من قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق ؛ ليسبِّحوا ، ففي سورة الحديد يقول سبحانه:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ..(١)﴾ [الحديد]

ويقول سبحانه في سورة الحشر:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ..(١)﴾ [الحشر]

فهل سبَّح كل من في السموات ومن في الأرض مرة واحدة وانتهى الأمر؟ لا ؛ لأن الله سبحانه يقول:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ .. (١)﴾ [الجمعة]

ويقول سبحانه في سورة التغابن:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾ [التغابن]

---

(١) نواميس الكون: الأسرار التي أودعها الله - سبحانه وتعالى - في الكون، من قوانين تنظم حركة أجزائه ومكوناته.

إذن: فالسبحانية لله أزلاً ، وسبَّح ويسبِّح الخَلْق وكل الوجود بعد أن خلقه الله سبحانه ، سموات وأرض وما فيهما ومن فيهما ، وما بقى إلا أنت أيها الإنسان فسبِّحْ باسم ربك الأعلى.

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه:

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ..(٦٨) ﴾ [يونس]

وعلة التسبيح والتنزيه عن أن يكون له ولد تأتى فى قوله تعالى: ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ ؛ لأن اتخاذ الولد إنما يكون عن حاجة ، إما استعانة ، وإما اعتماداً ، وإما اعتداداً ، وإما امتداداً ، وكل هذه أمور باطلة بالنسبة له سبحانه ، وهو الحق الأعلى ، وهو سبحانه القائل فى آية أخرى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) ﴾ [البقرة]

والقنوت [1] معناه: الإقرار بالعبودية لله تعالى والخضوع له وإطاعته.

ويقول سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يونس]

و«إنْ» قد تأتى للنفى فى مثل قول الحق سبحانه:

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ..(٢) ﴾ [المجادلة]

وفى قول الحق سبحانه هنا:

(١) قنت يقنتُ كنصَرَ - ذل وخضع ليده ، وقنت المؤمن بالله : أطاعه وأقر له بالعبودية ، وقنت فى صلاته خشع واطمأن ، وقنت دعا وأطال الدعاء ، والقنوت الطاعة والدعاء . قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] وقوله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) ﴾ [البقرة] أى : خاضعون معترفون بألوهيته مطيعون - [القاموس القويم - بتصرف]

﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا ..(٦٨) ﴾ [يونس]

أى: ليس عندكم حُجَّة تدل على أن الله تعالى اتخذ ولداً.

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يونس]

أى: أنكم لا تملكون إعلاماً من الله تعالى بذلك، فلا إعلام عن الله إلا من الله، وليس لأحد أن يُعْلِم عن ربه، فهو سبحانه من يُعْلِم عن نفسه.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) ﴾

والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن الإيمان وثمرته ونهايته يأتى بالفَلاَح كنتيجة لذلك الإيمان، فهو سبحانه القائل:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا [1] (٩) ﴾ [الشمس]

وهو سبحانه القائل:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) ﴾ [المؤمنون]

ويقول أيضاً:

﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

وكلها من مادة «الفلاح» وهى مأخوذة من الأمر الحسى المتصل بحياة الكائن الحى، فمقومات وجود الكائن الحى: نَفَس، وماء، وطعام،

---

(١) زكاها: طهرها وبرأها من أقذار البدن والنفس.

والتنفس يأتى من الهواء الذى يحيط بالأرض ، والماء ينزل من السماء أو يُستنبط مما تسرب فى باطن الأرض . والطعام يأتى من الأرض ، وكل ما أصله من الأرض يُستخرج بالفلاحة .

لذلك نقول : إن الفلاَحة هى السبب الاستبقائى للحياة ، فكما يُفْلِح الإنسان الأرض ، ويشَقها ويبذر فيها البذور ، ثم يرويها ، ثم تنضج وتخرج الثمرة ، ويقال : أفلح ، أى : أنتجت زراعته نتاجاً طيباً .

وشاء الحق سبحانه أن يسمِّى الحصيلة الإيمانية الطيبة بالفلاح .

وبيَّن لنا رسول الله ﷺ أن الدنيا مزرعة الآخرة ، فإن كنت تريد ثمرة فابذل الجهد .

وإياك والظن أن الدين حينما يأخذ منك شيئاً فى الدنيا أنه يُنْقِص ما عندك ، لا ، بل هو يُنمِّى لك ما عندك [1] .

والمثل الذى أضربه دائماً - ولله المثل الأعلى - نجد الفَلاَّح حين يزرع فداناً بالقمح ، فهو يأخذ من مخزنه إردباً ؛ ليستخدمه كبذور فى الأرض ، ولو كانت امرأته حمقاء لا تعرف أصول الزراعة ستقول له : «أنت أخذت من القمح ، وكيف تترك عيالك وأنت تنقصهم من قوتهم ؟ »

هذه المرأة لا تعلم أنه أخذ إردبَّ القمح المُخَزَّن ؛ ليعود به بعد الحصاد عشرة أو خمسة عشر إردباً من القمح .

كذلك مطلوب الله سبحانه فى الدنيا قد يبدو وكأنه ينقصك أشياء ، لكنه يعطيك ثمار الآخرة ويزيدها .

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦) ﴾ [النحل] وقوله : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ .. (٦٠) ﴾ [الأنفال] وقوله : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. (١٦٠) ﴾ [الأنعام] وقوله : ﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ .. (١٧) ﴾ [التغابن]

إذن: فالفلاح مادة مأخوذة من فلح الأرض وشقها وزرعها لتأخذ الثمرة.

وكما أنك تأخذ حظك من الثمار على قدر حظك من التعب ومن العمل، فذلك أمر الآخرة وأمر الدنيا.

ومثال ذلك: الفلاح الذى يحرث الأرض، ويحمل للأرض السماد على المطية [1]، ثم يستيقظ مبكراً فى مواعيد الرى، تجد هذا الفلاح فى حالة من الانشراح والفرح فى يوم الحصاد، وأمره يختلف عمن يهمل الأرض ويقضى الوقت على المقهى، ويسهر الليل أمام التليفزيون، ويأتى يوم الحصاد ليحزن على محصوله الذى لم يحسن زراعته.

وقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ [2] (٦٩) ﴾ [يونس]

أى: هؤلاء الذين يقولون عن الله تعالى أو فى الله تعالى بغير علم من الله، هم الذين لا يفلحون.

وأوضحت من قبل أن كل ما يتعلق بالله تعالى لا يُعْلَم عنه إلا عن طريق الله. لكن ما الذى يحملهم على الافتراء؟

نعم، إن كل حركة فى الحياة لا بد أن يكون الدافع إليها نفعاً، وتختلف النظرة إلى النفع وما يترتب عليه، فالطالب الكسول المتسكع فى الشوارع، الرافض للتعلم، نجده راسباً غير موفق فى مستقبله، أما التلميذ الحريص على علومه، فهو من يحصل على المكانة اللائقة به فى المجتمع، والتلميذ الأول كان محدود الأفق ولم ير امتداد النفع وضخامته، بل قصر النفع على لذة عاجلة مُضحِّياً بخير آجل.

---

(١) المطية: الدابة، وهى الناقة التى يُركَب مطاها أى: ظهرها. وجمعها: مطايا. [لسان العرب: مادة (م ط ى)].

(٢) يفترون الكذب: يكذبون، أو يقولون بغير علم. لا يفلحون: لا يفوزون ولا ينتصرون. قال تعالى: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) ﴾ [طه].

والذى جعل هؤلاء يفترون على الله الكذب هو انهيار الذات ، فكل ذات لها وجود ولها مكانة ، فإذا ما انهارت المكانة ، أحس الإنسان أنه بلا قيمة فى مجتمعه.

والمثل الذى ضربته من قبل بحَلاَّق الصحة فى القرية ، وكان يعالج الجميع ، ثم تَخرَّجَ أحد شباب القرية فى كلية الطب وافتتح بها عيادة ، فإن كان حلاق الصحة عاقلاً ، فهو يذهب إلى الطبيب ليعمل فى عيادته ممرضاً ، أو (تمرجياً) ، أما إن أخذته العزة بالإثم ، فهو يعاند ويكابر ، ولكنه لن يقدر على دفع عِلْم الطبيب.

وكذلك عصابة الكفر ورؤساء الضلال حينما يُفاجَأون بمَقْدم رسول من الله ، فهم يظنون أنه سوف يأخذ السيادة [(١)] لنفسه ، رغم أن أىَ رسول من رسل الله تعالى - عليه السلام - إنما يعطى السيادة لصاحبها ، ألا وهو الحق الأعلى سبحانه.

وحين يأخذ منهم السيادة التى كانت تضمن لهم المكانة والوجاهة والشأن والعظمة ، فهم يصابون بالانهيار العصبى ، ويحاولون مقاومة الرسول دفاعاً عن السلطة الزمنية.

ومثال ذلك : هو مَقْدمُ النبى ﷺ إلى المدينة ، وكان البعض يعمل على تنصيب عبد الله بن أبىّ ليكون مَلكاً [(٢)] ؛ ولذلك قاوم الرجل الإسلام ،

(١) وهذا مخالف لمنطق الرسول ﷺ ومفهوم الدعوة ، حيث عرض عليه الكفار المال والملك والسلطان والجاه ، فاختار رب الكل ، وقال قولته التى سجلها الزمن وحفظتها العقول الواعية : « والله ولو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته » أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٦٦) .

(٢) أورد ابن إسحاق فى السيرة أن قوم عبد الله بن أبى كانوا «قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملِّكوه عليهم، فجاءهم الله برسوله وهم على ذلك، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مُصراً على نفاق وضغن» سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٦) .

وحين لم يستطع آمن نفاقاً ، وظل على عدائه للإسلام ، رغم أنه لو أحسن الإسلام واقترب من رسول الله ﷺ لنال أضعاف ما كان سيأخذه لو صار ملكاً.

وهكذا قادة الضلال وأئمة الكفر ، هم مشفقون على أنفسهم وخائفون على السلطة الزمنية ؛ لأن الرسول حينما يجيء إنما يُسوِّى بين الناس ؛ لذلك يقفون ضد الدعوة حفاظاً على السلطة الزمنية.

ولذلك يقول الحق سبحانه عن سبب افترائهم الكذب :

﴿ مَتَٰعٞ[1] فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝٧٠ ﴾

ويعزُّ - إذن - على قادة الكفر وأئمة الضلال أن يسلبهم الرياسة والسيادة داعٍ جديد إلى الله سبحانه وتعالى ، ويخافون أن يأخذ الداعى الجديدُ لله الأمر منهم جميعاً ، لا إلى ذاته ، ولكن إلى مراد ربه.

ولو كان الداعى إلى الله تعالى يأخذ السلطة الزمنية لذاته ؛ لقلنا : ذاتٌ أمام ذات ، ولكنه ﷺ أوضح أنه يعود - حتى فيما يخصه - إلى الله سبحانه وتعالى.

ويكشف لنا الحق سبحانه الكسب القليل الذى يدافعون عنه أنه :

(١) المتاع : التمتع ، وهو كل ما ينتفع به ويرغب فى اقتنائه ، كالطعام ، وأثاث البيت ، والسلعة ، والأداة ، والمال [المعجم الوسيط] والمراد أن الله سبحانه وتعالى يترك الكفار يتمتعون بمتاع الدنيا الزائل - لأن الدنيا كلها لا تساوى عند الله سبحانه جناح بعوضة - ولكنه سيعاقبهم على كفرهم بالعذاب الشديد فى الآخرة ويحرمهم من نعيم الجنة . ويقصد بالمتاع أيضاً الزوجة الصالحة مصداقاً لقول رسول الله ﷺ «الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة ».

أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الرضاع - باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة ، حديث (٥٩) عن عبد الله بن عمرو ، وعند أبى نعيم فى حلية الأولياء (٣/ ٣١٠) زيادة « إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته» .

﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ..(٧٠)﴾ ؛ لأن كُـلاً منهم يحب أن يقنع نفسه ، بحُمْق تقدير المنفعة ، وكلمة «الدنيا» لا بد أن منها حقيقة الشيء المنسوبة إليه.

والأسماء - كما نعلم - هي سمات مسميات ، فحين تقول: إن فلاناً طويل ، فأنت تعطيه سمة الطول.

وحين تقول: «دنيا» فهي من «الدُّنُوِّ» أو « الدناءة» .

وإن اعتبرت الدنو هو طريق موصل إلى القمة ، فهذا أمر مقبول ؛ لأن الدرجة الأولى في الوصول إلى الأعلى هي الدنو ، وتلتزم بمنهج الله تعالى فتصعد عُلواً وارتفاعاً إلى الآخرة.

إذن: فمن يصف الدنيا بالدناءة على إطلاقها نقول له: لا ، بل هي دنيا بشرط أن تأخذها طريقاً إلى الأعلى ، ولكن من لا يتخذها كذلك فهو من يجعل مكانته هي الدنيئة ، أما من يتخذها طريقاً إلى العلو فهو الذي أفلح باتِّباع منهج الله تعالى.

إذن: فالدنيا ليست من الدناءة ؛ لأن الدين ليس موضوعه الآخرة ، بل موضوعه هو الدنيا ، ومنهج الدين يلزمك بـ «افعل» و «لا تفعل» في الدنيا ، والآخرة هي دار الجزاء ، والجزاء على الشيء ليس عين موضوعه ، وأنت تستطيع أن تجعل الدنيا مفيدة لك إنْ جعلتها مزرعة للآخرة.

وإياك أن تعمل على أساس أن الدنيا [1] عمرها ملايين السنين ؛ لأنه لا يعنيك كعائش في الدنيا إن طال عمرها أم قَصُرَ ، بل يعنيك في الدنيا مقدار مُكْثك فيها ، وعمرك فيها مظنون ، بل وزمن الدنيا كله

---

(١) وقد وصف لنا رب العزة سبحانه الدنيا فقال : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ..(٧٧)﴾ [النساء] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾ [يونس]

مظنون ، وهناك من يموت وعمره ستة أشهر ، وهناك من يموت وعمره مائة سنة ، وكلٌ يتمتع بقدر ما يعيش ، ثم يرجع إلى الله سبحانه وتعالى .

وهؤلاء الذين ضَلُّوا وقالوا على الله سبحانه افتراء ، هؤلاء لن يفلتوا من الله ؛ لأن مرجعهم إليه سبحانه ككل خَلْقه ، وهؤلاء المُضِلُّون لم يلتفتوا إلى عاقبة الأمر ، ولا إلى من بيده عاقبة الأمر ، ولم يرتدعوا .

ولكن من نظر إلى عاقبة الأمر وأحسن فى الدنيا فمرجعه إلى حسن الثواب والجنة ، ومن لم ينظر إلى عاقبة الأمر وافترى على الله - سبحانه وتعالى - الكذب فالمآب والمآل [1] إلى العذاب مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾ [يونس]

ودرجة العذاب تختلف باختلاف المعذِّب ، فإن كان المعذِّب ضعيفاً ، فتعذيبه يكون ضعيفاً ، وان كان المعذِّب متوسط القوة ؛ فتعذيبه يكون متوسطاً ، أما إن كان المعذِّب هو قوة القوى فلا بد أن يكون عذابه شديداً ، وهو سبحانه الحق القائل :

﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [2] (١٠٢) ﴾ [هود]

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن مبدأ تنزيه الألوهية عن اتخاذ الولد ، فهو سبحانه الغنىُّ الذى له ما فى السموات والأرض ، وبيَّن لنا سبحانه أننا يجب أن نأخذ المنهج من مصدر واحد وهو الرسل المبلِّغون عن الله تعالى ، شاء الحق سبحانه أن يكلمنا عن موكب الرسالات ؛ لأن الكلام حين يكون كلاماً نظرياً ليس له واقع يسنده ، فقد تنسحب النظرية عليه .

أما إن كان للكلام واقع فى الكون يؤيد الكلام النظرى ، فهذا دليل على صحة الكلام النظرى ؛ ولذلك فنحن حين نحب أن نضخِّم مسألة من

---

(١) المآب والمآل : المرجع والمصير .

(٢) أليم : صيغة مبالغة من الألم ، وشديد : صيغة مبالغة من الشدة ، أى : شديد الألم .

المسائل فى داء اجتماعى ، نحاول أن نصنع منه رواية ، أى : أمراً لم يحدث حقيقة ، ولكننا نتخيل أنه حقيقة ؛ لنبيِّن الأمر النظرى فى واقع متخيَّل .

ويقص علينا الحق سبحانه فى القرآن قصصاً من الموكب الرسالى ؛ ليبيِّن للكفار : أنكم لن تستطيعوا الوقوف أمام هذه الدعوة ، وأمامكم سجل التاريخ ، وأحداث الرسل مع أممهم ؛ المؤيدين بالمؤمنين ؛ والكفار المعاندين والمعارضين ، فإن كان قوم من السابقين قد انتصروا على رسولهم ، فللكفار الحق فى أن يكون لهم أمل فى الانتصار على رسول الله ﷺ [(١)] .

ولا بد أن يكون هذا الكلام موجهاً إلى أناس لهم علم ببعض أحداث الموكب الرسالى . ولكن قد يكون علم هذا قد بهت ؛ لأن الزمان قد طال عليه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ [(٢)] ﴿٧١﴾ ﴾

---

(١) وقد جاءت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تحث الكافرين وغيرهم على النظر فى عاقبة المكذبين والمجرمين ، نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام] . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النمل] .

(٢) كبر : عظم وشق عليكم . مقامى : إقامتى بينكم . تذكيرى بآيات الله : دعوتى إياكم إلى الإيمان بالله تعالى . فعزمتم على قتالى وطردى ، فبالله آمنت ، وبه وثقت ، وعليه اعتمدت وتوكلت . فأجمعوا أمركم : اعزموا على ما تعزمون عليه وادعوا شركاءكم . غمة : ملتبساً مبهماً ، أى : كونوا جميعاً يداً واحدة ضدى ، واقضوا إلىَّ : أى : امضوا إلى ما فى أنفسكم وافرغوا منه . ولا تُنظرون : لا تؤخرون ولا تمهلون . وشدة إيمان نوح - عليه السلام - بالله تعالى وثقته فى نصرته إياه هى التى دعته لأن يتحدى قومه الكافرين هذا التحدى ؛ فكان نصر الله له ، والغرق والهلاك لأعدائه بالطوفان . [مختصر تفسير الطبرى - بتصرف] .

ولقائل أن يقول: ولماذا جاء الله سبحانه هنا بخبر نوح - عليه السلام - ولم يأت بخبر آدم -عليه السلام - أو إدريس - عليه السلام - وهُمَا من الرسل السابقين على نوح عليه السلام ؟

ومن هنا جاءت الشبهة فى أن آدم لم يكن رسولاً ؛ لأن البعض قد ظن أن الرسول يجب أن يحمل رسالته إلى جماعة موجودة من البشر ، ولم يفطن هؤلاء البعض إلى أن الرسول إنما يُرْسَل لنفسه أولاً .

وإذا كان آدم - عليه السلام - أول الخلق فهو مُرسَل لنفسه ، ثم يبلِّغ من سوف يأتى بعده من أبنائه .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى التجربة لآدم - عليه السلام - فى الجنة ، فكان هناك أمر ، وكان هناك نهى هو ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة]

وحَذَّره من الشيطان [١] ، ثم وقع آدم عليه السلام فى إغواء الشيطان ، وأنزله الله تعالى إلى الأرض واجتباه [٢] ، وتاب عليه ، ومعه تجربته ، فإن خالف أمر ربه فسوف يقع عليه العقاب ، وحذره من اتباع الشيطان حتى لا يخرج عن طاعة الله تعالى .

---

(١) الشيطان : كل عاد متمرد من الإنس والجن ، والشيطان من الجن مخلوق حيث خلق من النار ، وهو عدو للإنسان يغريه بالشر إلا من حفظه الله بإيمانه يقول الحق : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) ﴾ [الحجر] أى : حفظ السماء من عبث الشياطين وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا .. (٦) ﴾ [فاطر] وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ .. (١١٢) ﴾ [الأنعام] [القاموس القويم - بتصرف]

(٢) اجتباه: اصطفاه واختاره، ومصداقه قوله تعالى عن آدم: ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) ﴾ [طه].

إذن: فقد أعطاه الحق سبحانه المنهج ، وأمره أن يباشر مهمته فى الأرض ؛ فى نفسه أولاً ، ثم يبلغه لمن بعده.

وكما علَّمه الحق سبحانه الأسماء كلها ، علَّم آدم الأسماء لأبنائه فتكلموا: وكما نقل إليهم آدم الأسماء نقل لهم المنهج ، وقد علمه الحق سبحانه الأسماء ؛ ليعمر الدنيا ، وعلَّمه المنهج ؛ ليحسن العمل فى الدنيا ؛ ليصل إلى حسن جزاء الآخرة.

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ﴾ [طه]

ويتبعها الحق سبحانه بقوله تعالى:

﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ ..(١٢٢) ﴾ [طه]

ومعنى الاجتباء : هو الاصطفاء بالرسالة لنفسه أولاً ، ثم لمن بعده بعد ذلك ، والحق سبحانه هو القائل:

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى .. (٣٨) ﴾ [البقرة]

والهدى: هو المنهج المنزَّل على آدم عليه السلام ، والرسالة ليست إلا بلاغ منهج وهدى من الله سبحانه للخلق.

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

فالسابقون لنوح - عليه السلام - هم من أبلغهم آدم عليه السلام ، والدليل هو ما جاء من خبر ابنى آدم فى قول الحق سبحانه:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا [١] .. (٢٧) ﴾ [المائدة]

وهما قد قدَّما القربان إلى الله تعالى.

إذن: فخبر الألوهية موجود عند ابنى آدم بدليل قول الحق سبحانه:

﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) ﴾ [المائدة]

إذن: فهم قد أقروا بوجود الله تعالى، وأيضا عرفوا النهى؛ لأنه فى إحدى الآيتين قال:

﴿ لَئِن بَسَطتَ [٢] إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) ﴾ [المائدة]

إذن: فالذين جاءوا بعد آدم - عليه السلام - عرفوا الإله الواحد، وعلموا المنهج.

إذن: فالذين يقولون: إن آدم - عليه السلام - لم يكن رسولاً، نقول لهم: افهموا عن الله جيداً، كان يجب أن تقولوا: هذه مسألة لا نفهم فيها، وكان عليهم أن يسألوا أهل الذِّكْر ليفهموا عنهم أن آدم - عليه السلام - رسول، وأن من أولاده قابيل وهابيل، وقد تكلما فى التقوى.

أما لماذا جاء الحق سبحانه هنا بالحديث عن نوح، عليه السلام، فلنا أن نعلم أن آدم عليه السلام هو الإنسان الأول، وأنه قد نقل لأولاده المنهج

(١) القربان: هو ما يتقرب به العبد إلى الله أو إلى الآلهة المزعومة، وقد كان أحد أبناء آدم صاحب غنم، فقرب أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها طيبة بها نفسه، أما الآخر فكان صاحب حرث فقرب أشر حرثه غير طيبة بها نفسه، فتقبل الله قربان صاحب الغنم الذى قدم أفضل ما عنده طيبة بها نفسه. انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢).

(٢) بسطت: مددت.

المُبلِّغ له ، ودلَّهم على ما ينفعهم ، ثم طال الزمن ونشأت الغفلة ، فجاء إدريس عليه السلام ، ثم تبعته الغفلة ، إلى أن جاء نوح عليه السلام .

وهنا يأتى لنا الحق سبحانه بخبر نوح - عليه السلام - فى قوله :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ .. (٧١) ﴾ [يونس]

والنبأ : هو الخبر الهام الذى يلفت الذهن ، وهو الأمر الظاهر الواضح .

والحق سبحانه يقول :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) ﴾ [النبأ]

إذن : فالنبأ هو الخبر الهام المُلْفت ، وقد جاء هنا خبر نوح - عليه السلام - الذى يُبلِّغ قومه أى : يخاطبهم ، وهو قد شهد لنفسه أنه رسول يبلِّغ منهجاً .

وكلمة ﴿ قَوْمِ ﴾ لا تطلق فى اللغة إلا على الرجال [1] ، يوضح القرآن ذلك فى قول الحق سبحانه :

﴿ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ..(١١) ﴾ [الحجرات]

إذن : فالقوم هم الرجال ، والمرأة إنما يُبنى أمرها على الستر ، والحركة فى الدنيا للرجل ، وقد شرحنا ذلك فى حديث الحق سبحانه لآدم - عليه السلام - عن إبليس ، فقال تعالى :

---

(١) القوم : جماعة من الرجال ليس معهم نساء ، ويستعمل لفظ القوم فيشمل الأمة كلها رجالاً ونساء ، مثل قوم نوح وقوم إبراهيم . قال ابن منظور فى اللسان (مادة قوم) : «ربما دخل النساء فيه على سبيل التبع ؛ لأن قوم كل نبى رجال ونساء» .

﴿إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ١١٧﴾ [طه]

ولأن الخطاب لآدم فقد قال الحق سبحانه: ﴿فَتَشْقَىٰ ١١٧﴾ [طه]

ولم يقل: فتشقيا؛ مما يدل على أن المرأة لا شأن لها بالأعمال التى خارج البيت والتى تتطلب مشقة، فالمرأة تقرُّ[1] فى البيت؛ لتحتضن الأبناء، وتُهيِّىء السكن للرجل بما فيها من حنان وعاطفة وقرار واستقرار.

أما القيام والحركة فللرجل.

والحق سبحانه يقول:

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ١١٧﴾ [طه]

إذن: فالكدح للرجل ومتطلبه القيام لا القعود.

ثم يقول الحق سبحانه على لسان نوح - عليه السلام:

﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي .. ٧١﴾ [يونس]

وهنا يُحنِّن نوح قومه بإضافات التحنن، أى: جاء بالإضافة التى تُشْعِر المخاطبين بأنه منهم وهم منه، وأنه لا يمكن أن يغشهم فهم أهله، مثل قول النائب الذى يخطب فى أهل دائرته الانتخابية: «أهلى وعشيرتى وناخبىّ» وكلها اسمها إضافة تحنن.

وكذلك مثل قول لقمان لابنه:

﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾ [لقمان]

---

(١) القر فى البيت: الاستقرار فيه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ٣٣﴾ [الأحزاب].

وقوله:

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ [1] فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان]

وقوله:

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ ..﴿١٧﴾﴾ [لقمان]

وهذه إضافات التحنن وفيها إيناس للسامع أن يقرب ويستجيب للحق.

﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي ..﴿٧١﴾﴾ [يونس]

و«الكاف والباء والراء» تأتي لمعنيين:

الأول: كبر السن، وهي: كبر يكبر.

والثاني: العظمة والتعظيم، إلا أن التعظيم يأتي ليبيِّن أنه أمر صعب على النفس، مثل قول الحق سبحانه:

﴿..كَبُرَتْ [2] كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الكهف]

أي: أن هذه الكلمة التي خرجت من أقوالهم أمر صعب وشاق، وهي قولهم:

---

(١) مثقال حبة من خردل: زنة حبة من خردل. والخردل: نبات عشبي ينبت في الحقول وعلى حواشي الطرق، تستعمل بزوره في الطب، ومنه بزور يتبل بها الطعام. الواحدة خردلة. ويضرب به المثل في الصِّغر، فيقال: ما عندي خردلة من كذا. [المعجم الوسيط: مادة (خ ر د ل)].

(٢) ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ..﴿٥﴾﴾ [الكهف] أي: أن قول الكفار بأن لله - سبحانه وتعالى عما يقولون - ولداً، قول فيه خطأ كبير؛ لأن الله سبحانه منزه عن الصاحبة والأولاد، وعن الشركاء والأنداد. قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم]. وقال سبحانه: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس] من إثبات الولد له، والولد يقتضي المجانسة والمشابهة، والله تعالى لا يجانس شيئاً، ولا يشابه شيئاً.

﴿ . .قالوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾ [الكهف]

وهذه الكلمة إنما تعظم على المؤمن ، وهى مسألة صعبة لا يمكن قبولها فلا يوجد مؤمن قادر على أن يقبل ادعاء خلق من خلق الله تعالى أن له سبحانه ولداً.

ومرة تكون العظمة من جهة أخرى ، مثل قول الحق سبحانه:

﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ . . ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

أى: عَظُم على المشركين ، وصَعُب على أنفسهم ، وشَقَّ عليهم ما تدعوهم إليه من أن الإله هو واحد أحد ، ولا سلطان إلا له سبحانه.

وهكذا ، إن كانت الكلمة مناقضة للإيمان فهى تكبر عند المؤمنين ، وإن كانت الكلمة تدعو الكافرين إلى الإيمان فهى تشق عليهم.

وهنا يأتى على لسان سيدنا نوح عليه السلام:

﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي[1] . . ﴿٧١﴾ ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن سيدنا نوحاً - عليه السلام - مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً.

---

(١) المقام : مصدر ميمى بمعنى القيام واسم مكان القيام الحسى ، ويطلق مجازاً على المكانة والمنزلة الأدبية ، وقوله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى . . ﴿١٢٥﴾ ﴾ [البقرة] أى : مكان قيامه المسجد الحرام . وقوله : ﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الشعراء] أى : موطن فيه خيرات . وقوله : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الصافات] أى : منزلة معلومة . وقوله : ﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ . . ﴿٧١﴾ ﴾ [يونس] أى : قيامى بالدعوة إلى الله وتذكيركم بآياته ، ومقام هنا مصدر ميمى .
والمقام (بالضم) مصدر ميمى من أقام الرباعى المزيد بالهمزة بمعنى الإقامة . واسم مكان واسم زمان . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : لا إقامة لكم فى أمن مع المجاهدين فارجعوا إلى بيوتكم . . [القاموس القويم - بتصرف] .

أى: أن حياته طالت كثيراً بين قومه ، كما أن تقريعه للكافرين جعله ثقيلاً عليهم.

أو أن: ﴿ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى .. (٧١) ﴾ [يونس]

تعنى: أنه حمَّلهم ما لا يطيقون ؛ لأن نوحاً - عليه السلام - أراد أن يُخرجهم عما ألفوا من عبادة الأصنام ، فشقَّ عليهم ذلك.

إذن: فمبدأ عبادة الإله الواحد يصعب عليهم.

أو أن الأصل فى الواعظ أو المبلِّغ أن يكون على مستوى القيام وهم قعود ، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يتكلم مع الحواريين وهو واقف ، والوقوف إشعار بأن مجهود الهدى يقع على سيدنا عيسى - عليه السلام - بينما يقعد الحواريون ليستمعوا له فى راحة.

إذن: فقول الحق سبحانه:

﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى .. (٧١) ﴾ [يونس]

أى: إن صعب عليكم ما أدعوكم اليه.

ويصح أن نأخذها من ناحية طول الوعظ والتكرار فى ألف سنة إلا خمسين عاماً ، أو أن مقامى كبر عليكم ، بمعنى: أننا انقسمنا إلى قسمين ؛ لأن المنهج الذى أدعو إليه لا يعجبكم ، وكنت أحب أن نكون قسماً واحداً.

وها هو ذا سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه ، وأرضاه - حين أحس أن الخلافة تقتضى أن يسمِّى من يَخْلُفُهُ من بعده ، قال له بعض الناس: لماذا لا تولى علينا عبد الله بن عمر ، فقال ابن الخطاب: بحسب

آل خطاب أن يُسأل منهم عن أمة محمد ﷺ رجل واحد. ثم أضاف: أعلم أنكم مَلَلْتُم حُكْمى ؛ لأنى شديد[1] عليكم .

إذن: فقد أحس نوح - عليه السلام - أنه انقسم هو وقومه إلى قسمين: هو قد أخذ جانب الله سبحانه الذى يدعو إلى عبادته ، وهم أخذوا جانب الأصنام التى ألفوا عبادتها.

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح - عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ..(٧١) ﴾ [يونس]

أى: أننى لن أتنازل عن دعوتى ، ونلحظ أنك إن قلت: «توكَّلتُ على الله» فقد يعنى هذا أنك قد تقول: وعلى فلان ، وفلان ، وفلان ، لكنك إن قلت: ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ..(٧١) ﴾ [يونس]

فأنت قد قصرت توكُّلك على الله فقط .

وهكذا واجه نوح - عليه السلام - قومه ، ورصيده فى ذلك هو الاعتماد والتوكل على من أرسله سبحانه ، ويحاول أن يهديهم ، لكنهم لم يستجيبوا ، وقال لهم:

﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً .. (٧١) ﴾ [يونس]

ومعنى جمع الأمر : (أى: جمع شتات الآراء كلها فى رأى واحد) ، أى: اتفقوا يا قوم على رأى واحد ، وأنتم لن تضرونى. وجمع أمر الأجيال التى ظل سيدنا نوح - عليه السلام - يحاول هدايتها تحتاج إلى جهد ؛ لأن الجيل العقلى ينقسم إلى عشرين سنة .

(١) فسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يردها مُلْكاً وإنما أرادها للرأى والشورى ليضرب المثل للأجيال أن الأمر فى حياة الاستقرار للشورى مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ .. (٣٨) ﴾ [الشورى] ولكنه أجاب جواباً ذكياً يحمل ما يريده ، وما يراد منه .

وقد ظل سيدنا نوح - عليه السلام - يدعو القوم بعدد ما عاش فيهم ، أى : ألف سنة إلى خمسين ، فكم جيل - إذن - ظل نوح يعالجه ؟

إنها أجيال متعددة ، ومع ذلك لم يظفر إلا بقدر قليل من المؤمنين [(١)] بحمْل سفينة واحدة ، ومعهم الحيوانات أيضاً ، فضلاً عن أن ابنه خرج - أيضاً - مع القوم الكافرين ، وناداه نوح - عليه السلام - ليركب معه وأن يؤمن ، فرفض ، وآثر أن يظل فى جانب الكفر ، بما فيه من فناء للقوم الكافرين ، وظن أنه قادر على أن يأوى إلى جبل يعصمه من الطوفان ، ولم ينظر ابن نوح إلى جندى آخر من جنود الله سبحانه يقف عقبة فى سبيل الوصول إلى الجبل ، وهو الموج .

إذن : فقول نوح عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .. (٧١) ﴾ [يونس]

له رصيد إيمانى ضمنى ، فلا يوجد مجير على الله من خلق الله ؛ لأن الخلق كله - جماده ونباته وحيوانه - إنما ينصاع لأمر الله تعالى فى نصرة نوح - عليه السلام - ولن يتخلف شىء .

هكذا كان توكُّل نوح - عليه السلام - على الله تعالى بما فى هذا التوكل من الرصيد الإيمانى المتمثل فى :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٢٠) ﴾ [المائدة]

و﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (٢٨٤) ﴾ [البقرة]

---

(١) ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) ﴾ [هود] فعن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم ، وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفساً ، وقيل : كانوا عشرة . وقيل غير ذلك . وأيّاً كان عددهم فهو قليل جداً بالنسبة لمدة مكث نوح فيهم .

ولن يخرج شيء عن ملكه سبحانه.

ومن العجيب أنه لم يخرج عن مراد الله في «كن» إلا الإنسان المختار، لم يخرج بطبيعة تكوينه، ولكن الحق سبحانه وهبه من عنده أن يكون مختاراً، ولو لم يهبه الله تعالى أن يكون مختاراً لما استطاع أن يقف، ولكان كل البشر من جنود الحق.

وقد قال نوح - عليه السلام -:

﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ[1].. (٧١)﴾ [يونس]

والإنسان حين يهمه أمر من الأمور يظل متردداً بين خواطر شتى، ويحاول أن يرى ميزات كل خاطر، ويختار أفضلها، وإذا ما جمع الإنسان خواطره كلها في خاطر واحد، فهذا يعني استقراره على رأي واحد، وجمع أمره عليه.

أما إذا كان الأمر متعدد الناس، فكل واحد منهم له رأي، فإن اجتمعوا وقرروا الاتفاق على رأي واحد، فهذا جمعٌ للأمر.

والاتفاق على رأي واحد إنما يختلف باختلاف هويّة المجتمعين، فإن كانوا أهل خير فهم ينزلون بالشر، وإن كانوا أهل شر فهم يصعدون بالشر.

ومثال ذلك: أبناء يعقوب - عليه السلام - حينما حدث بينهم وبين أخيهم من الحسد لمكانة يوسف - عليه السلام - فقالوا:

---

(١) كلمة «شركاءكم» هنا منصوبة على أنها:
١- مفعول به لفعل مضمر تقديره: وادعوا شركاءكم.
٢- مفعول معه، أي: أجمعوا أمركم مع شركائكم.
٣- معطوف على أمركم، فتكون أجمعوا بمعنى العزم على فعل الشيء وكذلك جمع الشركاء.
وفي ضبط «شركاءكم» تفصيل انظره في تفسير القرطبي (٤/ ٣٢٩٠).

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ [١] لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ..(٩)﴾[يوسف]

أى: أن الاقتراح بقتل يوسف هدفه ألا يلتفت وجه يعقوب وقلبه إلى أحد سواهم ، وأتبعوا اقتراحهم بقتل يوسف باقتراح التوبة ، فقالوا لبعضهم البعض:

﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ [٢] (٩)﴾ [يوسف]

وهم قد ظنوا أن التوبة إن نفَّذوا القتل ستصبح مقبولة.

وهذا الشر البادى فى حديثهم لم يقبله بعضهم فى بادىء الأمر ؛ لأنهم أبناء نبوّة ، وما يزالون هم الأسباط [٣] ، لا يصعد فيهم الشر ، بل ينزل ، فقال واحد منهم: لا تقتلوه بل ﴿اطْرَحُوهُ أَرْضًا ..(٩)﴾ [يوسف]

أى: أنه خفَّف المسألة من القتل إلى الطرح أرضاً ، وهذه أول درجة فى نزول الأخيار عن الشر الأول ، وأيضاً تنازلوا عن الشر الثانى ، وهو طرحه أرضاً ؛ حتى لا يأكله حيوان مفترس ، وجاء اقتراح :﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ [٤] إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)﴾ [يوسف]

ثم أجمعوا أمرهم أخيراً حتى نزل الشر مرة أخرى لاحتمال ورود النجاة.

---

(١) يخل: فعل مجزوم لأنه جواب الأمر، معناه: يخلص ويصفو. [تفسير القرطبى: (٤/ ٣٤٥٢)].

(٢) قوماً صالحين: أى: تائبين. وقيل: ﴿صَالِحِينَ﴾ أى: يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل. [تفسير القرطبى (٤/ ٣٤٥٢)].

(٣) الأسباط فى بنى إسرائيل بمنزلة القبائل فى بنى إسماعيل، فالأسباط هم بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً. ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط. انظر تفسير ابن كثير (١/ ١٨٧).

(٤) غيابة، أى: مكان مظلم من الجب. والجب: البئر. أى: ألقوه فى موضع مظلم من الجب؛ حتى لا يلحقه نظر الناظرين. قيل: هو بئر بيت المقدس، وقيل: هو بالأردن، قاله وهب بن منبه. وسميت البئر جباً لأنها قطعت فى الأرض قطعاً. والسيارة: الجمع الذين يسيرون فى الطريق للسفر، وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاج إلى حمله إلى موضع بعيد؛ ويحصل المقصود، فإن من يلتقطه من السيارة يحمله إلى موضع بعيد، وكان هذا وجهاً فى التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم؛ فربما لا يأذن لهم أبوهم، وربما يطلع على قصدهم. [تفسير القرطبى: ٤/ ٣٤٥٣ ، ٣٤٥٤)].

إذن: فالأخيار حين يجتمعون على شر لا بد أن ينزل.

ومثال ذلك: رجل طيب رأى ابنه وهو يُضرَب من آخر، فيفكر للحظة في أن يضرب غريم ابنه بطلقة من (مسدس)، ثم يستبدل هذه الفكرة بفكرة الاكتفاء بضربه ضرباً مبرحاً بالعصا، ثم يتنازل عن ذلك بأن يفكر في صفعه صفعتين، ثم يتنازل عن فكرة الصفع ويفكر في توبيخه، ثم يتنازل عن فكرة التوبيخ ويكتفي بالشكوى لوالده، وهكذا ينزل الشر عند أهل الخير.

أما إن كان الرجل من أهل الشر، فهو يبدأ بفكرة الشكوى لوالد من ضرب ابنه، ثم يرفضها ليصعد شره إلى فكرة أن يصفعه هو، ثم لا ترضيه فكرة الصفع، فيفكر في أن يضربه ضرباً شديداً، ولا ترضيه هذه الفكرة، فيقول لنفسه: «سأطلق عليه الرصاص». وهكذا يتصاعد الشر من أهل الشر.

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا نوح عليه السلام:

﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ..(٧١)﴾ [يونس]

أي: اجتمعوا والزموا رأياً واحداً تحرصون على تنفيذه أنتم وشركاؤكم، وهو ينصحهم رغم أنهم أعداؤه، وكان عليه أن يحرص على اختلافهم، ولكن لأنه واثق من توكله على ربه؛ فهو يعلم أنهم مهما فعلوا فلن يقدروا عليه، ولن ينتصروا على دعوته إلا بالإقدام على إهلاك أنفسهم.

أو أنه مثلما يقول العامة: «أعلى ما في خيولكم اركبوه» أي: أنه يهددهم، ولا يفعل ذلك إلا إذا كان له رصيد من قوة التوكل على الله تعالى.

ولا يكتفي بذلك بل يضيف:

﴿ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً [1] .. (٧١) ﴾ [يونس]

والغمة: منها الغمام، ومنها الإغماء، أي: فقد الوعى وسَتْر العقل، أى: أنه قال لهم: لا تتعبوا أنفسكم بتبادل الهمسات فيما بينكم، بل افعلوا ما يحلو لكم، ولا تحاولوا ستر ما سوف تفعلون.

إن عليكم أن تجتمعوا على رأى واحد أنتم وشركاؤكم الذين تعتمدون عليهم، وتعبدونهم، أو شركاؤكم فى الكفر، ولم يأبَهْ نوح - عليه السلام - بتقوية العصبية المضادة له؛ لأنه متوكل على الله فقط.

لذلك يقول: ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١)﴾ [يونس]

أى: أنه يُحفِّزهم على الاجتماع على أمر واحد ومعهم شركاؤهم - سواء من الأصنام التى عبدوها أو من أقرانهم فى الكفر - وأن يصمموا على المضىّ فى تنفيذ ما اتفقوا عليه.

و«قضى» أى: حكم حكماً، لكن الحكم على شىء لا يعنى الاستمرار بحيث ينفذ، فقد يُقضَى على إنسان بحكم؛ ويوقف التنفيذ.

لكن قوله: ﴿اقْضُوا إِلَيَّ﴾ يعنى: أصدروا حكمكم وسيروا إلى تنفيذ ما قضيتم به .

ثم يقول: ﴿وَلا تُنظِرُونِ﴾ أى: لا تمهلونى فى تنفيذ ما حكمتم به علىَّ.

والمتأمل للآية الكريمة يجد فيها تحدياً كبيراً، فهو أولاً يطلب أن يجتمعوا على أمر واحد، هم وشركاؤهم، ثم لا يكون على هذا الأمر

(١) غُمَّة وغُمّ سواء، ومعناه: التغطية، من قولهم: غم الهلال إذا استتر، أى: ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً تتمكنون فيه مما شئتم، ليس كمن يخفى أمره فلا يقدر على ما يريد. وهذا دليل على ثقة نوح عليه السلام من ربه سبحانه، ونصره إياه على قومه الكافرين. [تفسير القرطبى: ٤/ ٣٢٩٠].

غُمَّة [١] ، ثم اقضوا إلىَّ ما اتفقتم عليه من حكم ونفِّذوه ولا تؤجلوه ، فهل هناك تحدٍّ للخصم أكثر من ذلك ؟

لقد كانوا خصوماً معاندين ، ظل نوح - عليه السلام - يترفق إليهم ويتحنن لهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وصبر عليهم كل هذا الوقت ، ولا بد - إذن - من حدوث فاصل قوى ، ولهذا كان الترقِّى فى التحدى ، فدعاهم إلى جمع الأمر ومعهم الشركاء ، ثم بإصدار حكمهم عليه وعدم الإبطاء فى تنفيذه ، كان هذا هو التحدى الذى أخذ يترقى إلى أن وصل إلى قبول تنفيذ الحكم .

والنفسية العربية - على سبيل المثال - حين سامحت ، وصبرت ، وصفحت فى أمر لا علاقة له بمنهج الله ، بل بأمر يخص خلافاً على الأرض ، تجد الشاعر العربى يقول عن «بنى ذُهْل» الذين أتعبوا قوم الشاعر كثيراً ، ولكن قومه صفحوا عنهم ؛ يقول الشاعر [٢] :

صَفَحْنا عن بنى ذُهْلٍ ... وقلنا : القومُ إخوانُ
عسى الأيامُ أنْ يرجعـ ... ـنَ قوماً كالذى كانوا
فلما صَرَّحَ الشرُّ ... فأمْسَى وهو عريانُ
ولم يبقَ سوى العدوا ... ن دنَّاهم كما دانوا
مَشَيْنا مشْيَةَ الليث ... غَدَا والليثُ غضبانُ

(١) غم الشىء يغمه - كنصر - غماً : أخفاه وغطاه وستره وغمه الأمر : كربه وأحزنه ، قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء] والغمة : التباس الأمر وعدم وضوحه ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً .. (٧١) ﴾ [يونس] وقال : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ .. (١٦٠) ﴾ [الأعراف]

(٢) هو شهل بن شيبان ويلقب بالفِنْد الزِّمَّانى ، توفى نحو ٧٠ ق هـ ، من بنى بكر بن وائل . شاعر جاهلى سمى الفند لعظم خلقته تشبيهاً بالقطعة من الجبل وهى الفند . (الأعلام للزركلى ٣/ ١٧٩) .

بضرب فيه توهينٌ وتخضيعٌ[1] وإقرانُ
وطعنٍ كفم الزقّ[2] غدا والزقّ ملآنُ
وفى الشرّ نجاةٌ حيـ ـن لا ينجيكَ إحسانُ
وبعضُ الحلمِ عند الجهـ ـلِ للذلّة إذعانُ[3]

إذن: فالمناجزة بين نوح - عليه السلام - وقومه اقتضت التشديد ، لعل بشريتهم تلين ، ولعل جبروتهم يلين ، ولعلهم يعلنون الإيمان بالله تعالى ، ولكنهم لم يرتدعوا.

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح بعد ذلك:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ[4] فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ[5] أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ[6] ﴿٧٢﴾﴾

أى: إن توليتم عن دعوتى لعبادة الإله الحق ، فأنا لا أدعوكم إلى مثيل لكم هو أنا ، بل أدعوكم إلى من هو فوقى وفوقكم ، فأنا لا أريد أن أستولى على السلطة الزمنية منكم ، ولا أبحث عن جاه ، فالجاه كله لله تعالى.

---

(١) التخضيع: تقطيع اللحم.
(٢) الزق: الإناء.
(٣) أورد هذه الأبيات أبو على القالى فى الأمالى (١/ ٣٠٩ ، ٣١٠) ، وهى من بحر الهزج.
(٤) ﴿توليتم﴾ : أعرضتم عما جئتكم به ﴿فما سألتكم من أجر﴾ أى: فليس ذلك لأنى سألتكم أجراً؛ فيثقل عليكم مكافأتى. [تفسير القرطبى (٤/ ٣٢٩١)].
(٥) إنْ - هنا - نافية بمعنى (ما) أى: ما أجرى إلا على الله - سبحانه وتعالى.
(٦) ﴿المسلمين﴾ أى: الموحدين لله تعالى. [تفسير القرطبى (٤/ ٣٢٩١)].

والله لا يحتاج إلى جاه منكم لأن جاهه سبحانه ذاتى فيه ، ولكن لنمنع جبروتكم وتجبُّركم ؛ لتعيشوا على ضوء المنهج الحق ؛ لتكون حياتكم صالحة ، وكل ذلك لمصلحتكم.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ .. (٧٢)﴾ فهل يُمَالىء[1] نوح - عليه السلام - أعداءه.

إن الإنسان يُمَالىء العدو ؛ لأنه يخاف أن يوقع به شراً ، ونوح عليه السلام لا يخافهم ؛ لأنه يعتمد على الله تعالى وحده ، بل هو يدلُّهم على مواطن القوة فيهم ، وهو يعلم أن قوتهم محدودة ، وأن شرهم مهما بلغ فهو غير نافذ ، وقد لا يكون منهم شر على الإطلاق ، فهل هناك نفعٌ سيعود على نوح - عليه السلام - ويُمنَع عنه ؟

لا ؛ لأنه يعلن أنه لا يأخذ أجراً على دعوته.

هم - إذن - لا يقدرون على ضُرِّه ، ولا يقدرون على نفعه ، وهو لا يريد منهم نفعاً ؛ لأن مركزه بإيمانه بالله الذى أرسله مركزٌ قوىٌّ.

وهو لا يسألهم أجراً ، وكلمة «أجر»[2] تعنى : ثمن المنفعة ، والأثمان تكون عادة فى المعاوضات ، إما أن تكون ثمناً للأعيان والذوات ، وإما أن تكون ثمناً للمنفعة.

ومثال ذلك: أن إنساناً يرغب فى شراء «شقة» فى بيت فيذهب إلى رجل يملك بيتاً ، ويطلب منه أن يبيع له عدداً من الأسهم بقيمة الشقة.

---

(١) يمالىء : يعاون ويساعد. قال أبو عبيد : يقال للقوم إذا تتابعوا برأيهم على أمر : قد تمالؤوا عليه. [لسان العرب : مادة (م ل أ)].

(٢) الأجر : الجزاء على العمل، والجمع : أجور. والأجر: الثواب؛ وقد أجره الله يأجُره ويأجِره أجراً وآجره . أى: أعطاه الثواب. [لسان العرب: مادة (أ ج ر)].

وهناك اخر يريد أن يستأجر شقة فيذهب إلى صاحب البيت ؛ ليدفع له قيمة إيجار شقة فى البيت ، أى: يدفع له قيمة الانتفاع بالشقة ، والأجر لا يُدفع إلا لطلب منفعة مُلحَّة.

وكان على نوح - عليه السلام - أن يطلب منهم أجراً ؛ لأنه يهديهم إلى الحق ، هذا فى أصول التقييم للأشياء ؛ لأنه يقدِّم لهم نفعاً أساسياً ، لكنه يعلن أنه لا يطلب أجراً وكأنه يقول: إن عملى كان يجب أن يكون له أجر ؛ لأن منفعته تعود عليكم ، وكان من الواجب أن آخذ أجراً عليه.

ولكن نوحاً - عليه السلام - تنازل عن الأجر منهم ؛ لأنه أراد الأجر الأعلى ، فلو أخذ منهم ؛ فلسوف يأخذ على قدر إمكاناتهم ، ولكن الأجر من الله تعالى هو على قدر إمكانات الله سبحانه وتعالى ، وفارق بين إمكانات المحدود العطاء وهو البشر ، ومن له قدرة عطاء لا نهاية لها وهو الله سبحانه وتعالى .

وهنا يقول: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ..(٧٢)﴾ [يونس]

فهذا التولِّى والإعراض لا يضرُّنى ولا ينفعنى ؛ لأنكم لا تملكون لى ضُرّاً ولا تملكون لى نفعاً ؛ لأنى لن آخذ منكم أجراً.

ومن العجيب أن كل مواكب الرسل - عليهم السلام - حين يخاطبون أقوامهم يخاطبونهم بهذه العبارة :

﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. (٨٦)﴾ [ص]

إلا فى قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وقصة موسى عليه السلام ، فعن قصة سيدنا إبراهيم يأتى قول الحق سبحانه:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ[1] ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الشعراء]

ولم يأت الحق سبحانه فيها بشيء عن عدم السؤال عن الأجر.

وأيضًا في قصة سيدنا موسى - عليه السلام - قال الحق سبحانه:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الشعراء]

وهنا أيضاً لا نجد قولاً لموسى - عليه السلام - في عدم السؤال عن الأجر.

أما هنا في قصة نوح - عليه السلام - فنجد قول الحق سبحانه:

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس]

وكذلك جاء نفس المعنى في قصة هود عليه السلام، حيث يقول الحق سبحانه:

---

(١) العكوف على الشيء هو الإقامة والاستمرار عليه، أي: أنهم مقيمون مستمرون على عبادة الأصنام [تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٧)].

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) ﴾ [الشعراء]

وجاء نفس المعنى أيضاً فى قوم ثمود ، إذ قال الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) ﴾ [الشعراء]

وكذلك جاء نفس القول على لسان لوط عليه السلام ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) ﴾ [الشعراء]

ونفس القول جاء على لسان شعيب عليه السلام فى قول الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ [١] الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) ﴾ [الشعراء]

إذن : فغالبية الموكب الرسالى يأتى على ألسنتهم الكلام عن الأجر :

---

(١) أصحاب الأيكة : هم أهل مدين - على الصحيح - وكان نبى الله شعيب ، عليه السلام ، من أنفسهم ، وإنما لم يقل سبحانه هنا : أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، وهى شجرة كانوا يعبدونها . [ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٤٥)].

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ..(١٦٤) ﴾ [الشعراء]

فكأن الرسل عليهم السلام يقولون للبشر الذين أرسلوا إليهم: لو أنكم فطنتم إلى حقيقة الأمر لكان من الواجب أن يكون لنا أجر على ما نقدمه لكم من منفعة ، لكنَّا لا نريد منكم أنتم أجراً ، إنما سنأخذ أجرنا من ربٍّ العالمين ؛ لأن المنفعة التى نقدمها لكم لا يستطيع بشر أن يقوِّمها ، وإنما القادر على تقييمها هو واضع المنهج - سبحانه - ومُنزله على رسله.

وها هو القرآن الكريم يأتى على لسان رسول الله محمد ﷺ ، ويقول:

﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ..(٢٣) ﴾ [الشورى]

أما لماذا لم تأت مسألة الأجر على لسان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - فنحن نعلم أن إبراهيم عليه السلام أول ما دعا ؛ دعا عمه ، وكان للعم حظ تربية إبراهيم ، وله على سيدنا إبراهيم حق الأبوة.

وكذلك سيدنا موسى عليه السلام ، فقد دعا فرعون ، وفرعون هو الذى قام بتربية موسى ، وكانت زوجة فرعون تريده قرة عين لها ولزوجها ، حتى إن فرعون فيما بعد قد ذكَّره بذلك ، وقال:

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ [1] فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) ﴾ [الشعراء]

أما هنا فى دعوة سيدنا نوح - عليه السلام - فيأتى قول القرآن على لسان نوح بما يوضِّح الأمر لقوم نوح:

فإن توليتم فلا حزن لى ، ولا جزع ؛ لأنكم لن تصيبونى بضُرٍّ ، ولن تمنعوا عنى منفعة ؛ لأنكم لم تسألونى أن آتى لكم بالهدى لآخذ أجرى منكم ، ولكن الحق سبحانه هو الذى بعثنى ، وهو الذى سيعطينى أجرى ،

(١) لبثت: عشت ومكثت بيننا.

وقد أمرني سبحانه أن أكون من المسلمين له حَقّاً وصدقاً.

وفي حياتنا نجد أن صديقاً يرسل إلى صديقه عاملاً من عنده ليصلح شيئاً، فهو يأخذ الأجر من المرسل، لا من المرسل إليه، وهذا أمر منطقي وطبيعي.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ[1] وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ[2] وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣)﴾

وكأن الأمر الذي وقع من الحق سبحانه نتيجة عدائهم للإيمان كان من الممكن أن يشمله؛ لأنه لا يقال: نجَّيتُك من كذا إلا إذا كان الأمر الذي نجيتك منه، توشك أن تقع فيه، وكان هذا بالفعل هو الحال مع الطوفان، فالحق سبحانه يقول:

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ[3] (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا .. (١٢)﴾ [القمر]

---

(١) الفلك: السفينة.

(٢) خلفَه يخلفه من باب نصر: جاء بعده فصار مكانه - خَلَفاً وخلافةً وخلفه خلفاً: صار خَلْفَه قال تعالى: ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي .. (١٥٠)﴾ [الأعراف] والخلف: القرن من الناس بعد القرن، أي الجيل بعد الجيل، والخلف الولد الصالح أو غير الصالح. قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ .. (١٦٩)﴾ [الأعراف] والخَلَف بالفتح: البعض والبدل والولد الصالح أو الولد غير الصالح. والخليفة من يخلف غيره، أو ينوب عنه، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠)﴾ [البقرة]، وخليفة جمعها خلفاء وخلائف يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .. (٦٩)﴾ [الأعراف] وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ .. (١٦٥)﴾ [الأنعام]. [القاموس القويم - بتصرف].

(٣) ماء منهمر: مطر غزير.

ومن المتوقع أن تشرب الأرض ماء المطر ، لكن الذى حدث أن المطر انهمر من السماء والأرض أيضاً تفجَّرتْ بالماء ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر]

أى: أن ذلك الأمر كان مقدَّراً ؛ حتى لا يقولن أحد: إن هذه المسألة ظاهرة طبيعية.

لا إنه أمر مُقدَّر ، وقد كانت السفينة موجودة بصناعة من نوح عليه السلام ؛ لأن الحق سبحانه قد أمره بذلك فى قوله تعالى فى سورة هود:

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. ﴿٣٧﴾﴾ [هود]

ويقول الحق سبحانه فى الآية التى بعدها:

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ [1] مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود]

ويركب نوح - عليه السلام - السفينة ، ويركب معه من آمن بالله تعالى ، وما حملوا معهم من الطير والحيوان من كُلٍّ نوع اثنين ذكراً وأنثى.

وقول الحق سبحانه:

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ .. ﴿٧٣﴾﴾ [يونس]

يوحى أن الذى صعد إلى السفينة هم العقلاء من البشر ، فكيف نفهم مسألة صعود الحيوانات والطيور إلى السفينة ؟

---

(١) ملأ : جماعة .

نقول: إن الأصل في وجود هذه الحيوانات وتلك الطيور أنها مُسخَّرة لخدمة الإنسان ، وكان لا بد أن توجد في السفينة ؛ لأنها ككائنات مسخّرة تسبِّح الله [١] ، وتعبد الحق سبحانه ، فكيف يكون علمها فوق علم العقلاء الذين كفر بعضهم ، ثم أليس من الكائنات المسخَّرة ذلك الغراب الذي علَّم «قابيل» كيف يواري سوأة أخيه [٢]؟! إنه طائر ، لكنه علم ما لم يعلمه الإنسان !

والحق سبحانه هو القائل:

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ..(٣١)﴾ [المائدة]

ثم يقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصددها الآن:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣)﴾ [يونس]

وكلمة «الفُلْك» من الألفاظ التي تطلق على المفرد، وتطلق على الجماعة.

وقول الحق سبحانه: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ نعلم منه أن الفعل من الله تعالى ، وهو سبحانه حين يتحدث عن أي فعل له ، فالكلام عن الفعل يأتي مثل قوله سبحانه:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ [٣] وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]

---

(١) يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)﴾ [الإسراء].

(٢) يواري سوأة أخيه: يخفي جسد أخيه «هابيل» الذي قتله أخوه بغير حق. أي: يدفنه.

(٣) الذِّكْر: القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)﴾ [النحل].

ولكنه حين يتحدث عن ذاته ، فهو يأتى بكلمة تؤكد الوحدانية وتكون بضمير الإفراد مثل: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ .. ⑭﴾ [طه]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ ..⑦③﴾ [يونس]

كلمة «أنجى» للتعددية ، وكلمة «نَجَّى» تدل على أن هناك معالجة شديدة للإنجاء ، وعلى أن الفعل يتكرر.

وقول الحق سبحانه:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ[1] .. ⑦③﴾ [يونس]

تعنى: أن الخليفة هو من يجىء بعد سابق ، وكلمة «الخليفة» تأتى مرة للأعلى ، مثل الحال هنا حيث جعل الصالح خليفة للصالح ، فبعد أن أنجى الله سبحانه العناصر المؤمنة فى السفينة ، أغرق الباقين.

إذن: فالصالحون على ظهر السفينة أنجبوا الصالحين من بعدهم.

ومرة تأتى كلمة «الخليفة» للأقل ، مثل قول الحق سبحانه:

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ..⑤⑨﴾ [مريم]

فهنا تكون كلمة الخليفة موحية بالمكانة الأقل ، وهناك معيار وضعه الحق سبحانه لتقييم الخليفة ، هو قول الحق سبحانه:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ⑭﴾ [يونس]

---

(١) خلائف: جمع خليفة وهو الذى يخلف من سبقه. وتجمع أيضاً على «خلفاء». قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .. ⑥⑨﴾ [الأعراف].

ولأن الإنسان مخيَّر بين الإيمان والكفر ، فسوف يَلْقَى مكانته على ضوء ما يختار.

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا .. (٥٥) ﴾ [النور]

إذن : فالخليفة إما أن يكون خليفة لصالحٍ ، وإما أن يكون صالحاً يَخْلُفُ فاسداً.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (٧٣) ﴾ [يونس]

والآيات - كما قلنا من قبل - إما آيات الاعتبار التي تهدي إلى الإيمان بالقوة الخالقة ، وهي آيات الكون كلها ، فكل شيء في الكون يدلُّكَ على أن هذا الكون مخلوق على هيئة ولغاية ، بدليل أن الأشياء في هذا الكون تنتظم انتظاماً حكيماً.

وإذا أردت أن تعرف دقة هذا الخلق ، فانظر إلى ما ليدك فيه دَخْلٌ ، وما ليس ليدك فيه دخل ؛ ستجد كل ما ليس ليدك فيه دخل على درجة هائلة من الاستقامة ، والحق سبحانه يقول :

﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ[1] يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

---

(١) الفَلَك : المدار يسبح فيه الجِرْم السماوي. والجمع : أفلاك. [المعجم الوسيط : مادة (ف ل ك)].

أما ما ليدك فيه دخل ، فاختيارنا حين يتدخل فهو قد يفسد الأشياء .

وهكذا رأينا أن الآيات الكونية تلفت إلى وجود الخالق سبحانه وهى مناط الاستدلال العقلى على وجود الإله ، أو أن الآيات هى الأمور العجيبة التى جاءت على أيدى الرسل - عليهم السلام - لتقنع الناس بأنهم صادقون فى البلاغ عن الله سبحانه وتعالى .

ثم هناك آيات القرآن الكريم التى يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران]

وهى الآيات التى تحمل المنهج .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [يونس]

فهو يعلّمنا أنه أغرق من كذَّبوا بالآيات الكونية ولم يلتفتوا إلى بديع صنعه سبحانه ، وحكمة تكوين هذه الآيات ، وترتيبها ورتابتها [1] ، وهم أيضاً كذَّبوا الآيات المعجزات ، وكذلك كذَّبوا بآيات الأحكام التى جاءت بها رسلهم .

ويُنهى الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بقوله :

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ [2] ﴿٧٣﴾ ﴾ [يونس]

والخطاب هنا لكل من يتأتّى منه النظر ، وأولهم سيدنا محمد ﷺ ،

---

(١) رتابتها : أى : سيرها على نظام واحد لا يتخلف ، يقول الحق سبحانه : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس] .

(٢) عاقبة : عقاب وجزاء ونهاية . المنذرين : اسم مفعول يشير إلى من وقع عليهم الإنذار ، وهم قوم نوح الذين أنذرهم نبيهم ، فلم يؤمنوا ؛ فاستحقوا العقاب والعذاب .

وهو أول مُخاطَب بالقرآن.

وأنت حين تقول: «انظر» ؛ فأنت تُلْفت إلى أمر حسِّى ، إن وجَّهت نظرك نحوه جاء الإشعاع من المنظور إليه ، ليرسم أبعاد الشىء ؛ فتراه.

والكلام هنا عن أمور غائبة ، فهى أحداث حسية وقعت مرة واحدة ثم صارت خبراً ، فإن أخبرك بها مخبر فيكون تصديقك بها على مقدار الثقة فيه.

فمن رأى عصا موسى - عليه السلام - وهى تلقف الحبال التى ألقاها السحرة ؛ آمن بها ، مثلما آمن من شاهد النار عاجزة عن إحراق إبراهيم عليه السلام ، ومن رأى عيسى عليه السلام وهو يُشفى الأكْمَهَ والأبْرص [1] ويُحيى الموتى بإذن الله تعالى ، فقد آمن بما رأى ، أما من لم ير تلك المعجزات فإيمانه يتوقف على قدر توثيقه لمن أخبر ، فإن كان المخبر بذلك هو الله سبحانه وفى القرآن الكريم فإيماننا بتلك المعجزات هو أمر حتمى ؛ لأننا آمنا بصدق المبلِّغ عن الله تعالى.

ونحن نفهم أن الرسالات السابقة على رسالة محمد ﷺ ، كانت رسالات موقوتة زماناً ومكاناً ، لكن الإسلام جاء لينتظم الناس الموجَّه إليهم منذ أن أرسل الله رسوله محمداً ﷺ إلى أن تقوم الساعة.

لذلك جاء القرآن آيات باقيات إلى أن تقوم الساعة ، وهذا هو السبب فى أن القرآن قد جاء معجزة عقلية دائمة يستطيع كل من يدعو إلى منهج رسول الله ﷺ أن يقول: محمد رسول من عند الله تعالى ، وتلك هى معجزته.

وساعة يقول الحق سبحانه: ﴿فَانظُرْ﴾ فمثلها مثل قول الحق سبحانه

---

(١) الكمه: العَمَى الذى يولد به الإنسان. أما البَرَص فهو: مرض جلدى عبارة عن بقع بيضاء تكون فى الجسد. انظر اللسان.

وتعالى لرسوله ﷺ:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ [1] ①﴾ [الفيل]

وحادثة الفيل قد حدثت فى العام الذى ولد فيه رسول الله ﷺ ، وبطبيعة الحال فسيدنا رسول الله ﷺ لم ير حادثة الفيل ، ولكن الذين رأوها هم الذين كانوا يعيشون وقتها ، وهذا ما يلفتنا إلى فارق الأداء ، فعيونك قد ترى أمراً ، وأذنك قد تسمع خبراً ، ولكن من الجائز أن تخدعك حواسك ، أما الخبر القادم من الله تعالى ، وإن كان غائباً عنك الآن وغير مسموع لك فخذه على أنه أقوى من رؤية العين.

ولقائل أن يقول: لماذا لم يقل الحق : «ألم تعلم» وجاء بالقول:

﴿أَلَمْ تَرَ..①﴾ ؟ [الفيل]

وأقول: ليدلنا الله سبحانه على أن العلم المأخوذ من الله تعالى عن أمر غيبى عليك أن تتلقاه بالقبول أكثر من تلقيك لرأى العين.

إذن: ﴿فَانظُرْ﴾ تعنى: اعلمْ الأمر وكأنه مُجسَّم أمامك ؛ لأنك مؤمن بالله تعالى وكأنك تراه ، ومُبلِّغك عن الله سبحانه هو رسول تؤمن برسالته ، وكل خبر قادم من الله تعالى ورسوله ﷺ لا يمكن أن يتسرب إليه الشك ، ولكن الشك لا يمكن أن يتسرب إلى المخبر الصادق أبداً.

ولقائل أن يقول: ولماذا لم يقل الحق: «فانظر كيف كان عاقبة الكافرين» بدلاً من قول الحق سبحانه:

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ⑦③ ﴾ ؟ [يونس]

(١) أصحاب الفيل، هم جيش «أبرهة» الحبشى حين قدموا لهدم الكعبة، فمزقهم الله شر ممزق وأرسل عليهم طيوراً من السماء ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم الله كعصف مأكول. ووافق ذلك قبل مولد النبى ﷺ بخمس وخمسين ليلة ، فهو لم ير الحادث بعينيه، ولكن إخبار الله له أمر لا يحتمل إلا الصدق، فكأنه قد رآه بعينيه فعلاً.

وهنا نقول:

إن الحق سبحانه وتعالى قد بيَّن أنه لن يعذِّب قبل أن يُنْذِر [1]، فهو قد أنذر أولاً، ولم يأخذ القوم على جهلهم.

«فانظر» - كما نعلم - هى خطاب لرسول الله ﷺ، وخطاب رسول الله ﷺ يشمل أمته أيضاً، وجاء هذا الخبر تسلية لرسول الله ﷺ، فإن صادف من قومك يا محمد ما صادف قوم نوح - عليه السلام - فاعلمْ أن عاقبتهم ستكون كعاقبة قوم نوح.

وفى هذا تحذير وتخويف للمناوئين لرسول الله ﷺ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ [2] فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ [3] عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

---

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر] ويقول: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء] النذير والإنذار وجمعه نذر، قال تعالى: ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [المائدة].

والنذير هنا: هو الرسول المنذر بالعذاب. والنذر اسم مصدر بمعنى الإنذار كقوله تعالى: ﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ ﴾[المرسلات] وقوله: ﴿ .. وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس] يحتمل أنها الإنذارات. أو المنذرون من الرسل جمع نذير، وقوله: ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحقاف]، والمراد بالنذر هم الرسل المنذرون.

(٢) بالبينات: أى: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به. [ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٢٦)].

(٣) الطبع: هو الختم على القلب، ولكنه لا يُمحَى ولا يُفك أبداً. أما الختم فقد يفك، وقد تكون له مدة معلومة، وقد يقبل مع التوبة الخالصة. وبكلا الأمرين ورد القرآن: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [النحل]. وقال سبحانه: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ .. ﴿٧﴾ ﴾ [البقرة].

وكلمة «بعث» هنا تستحق التأمل ، فالبعث إنما يكون لشىء كان موجوداً ثم انتهى ، فيبعثه الله تعالى .

وكلمة ﴿بَعَثْنَا﴾ هذه تلفتنا إلى أن الحق سبحانه أول ما خلق الخلق أعطى المنهج لآدم عليه السلام ، وأبلغه آدم لأبنائه ، وكل طمس أو تغيير من البشر للمنهج [1] هو إماتة للمنهج .

وحين يرسل الحق سبحانه رسولاً ، فهو لا ينشىء منهجاً ، بل يبعث ما كان موجوداً ، ليذكّر الفطرة السليمة .

وهذا هو الفرق بين أثر كلمة «البعث» عن كلمة «الإرسال» ، فكلمة البعث تشعرك بوجود شىء ، ثم انتهاء الشىء ، ثم بعث ذلك الشىء من جديد ، ومثله مثل البعث فى يوم القيامة ، فالبشر كانوا يعيشون وسيظلون فى تناسل وحياة وموت إلى يوم البعث ، ثم يموت كل الخلق ليبعثوا للحساب .

ولم يكن من المعقول أن يخلق الله سبحانه البشر ، ويجعل لهم الخلافة فى الأرض ، ثم يتركهم دون منهج ؛ وما دامت الغفلة قد طرأت عليهم من بعد آدم - عليه السلام - جاء البعث للمنهج على ألسنة الرسل [2] المبلّغين عن الله تعالى .

---

(١) نَهَج الطريق من باب فتح ، نهجاً : سلكه . ونهج الطريق له : أوضحه ، والنهج والمنهج والمنهاج : الطريق الواضح والمذهب حسياً ومعنوياً ، قال تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة] أى : مذهباً أو طريقة أو ديناً ، فهو هنا معنوى .

(٢) الرسالة : اسم لما يُرسل منقولة عن المصدر ، ورسالة الرسول ما أمر بتبليغه عن الله للناس ، ودعوته الناس إلى ما أوحى إليه . والرسول : المرسل . والرسول مصدر بمعنى الرسالة ، وإذا وصف بالمصدر فلا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع . قال الزمخشرى : الرسول يكون بمعنى المرسل ، وبمعنى الرسالة فجعله القرآن فى سورة طه بمعنى المرسل ، فلم يكن بُدٌّ من تثنيته . يقول الحق : ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ..﴿٤٧﴾﴾ [طه] أما فى آية الشعراء فبمعنى الرسالة ، فجازت التسوية فيه إذا وصف به بين المفرد والمثنى ، فلهذا قال : ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء] وأرسل تأتى لمجرد البعث والإطلاق مثل : ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف] (الزمخشرى - بتصرف) .

وبعد نوح - عليه السلام - بعث الحق سبحانه رسلاً ، وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ .. (٧٤) ﴾ [يونس]

أى : من بعد نوح ، فمسألة نوح - عليه السلام - هنا تعنى مقدمة الرَّكْب الرسالى ؛ لأن نوحاً عليه السلام قد قالوا عنه إنه رسول عامٌّ للناس جميعاً أيضاً ، مثله مثل محمد ﷺ ، وهو لم يُبعث رسولاً عامّاً للناس جميعاً ، بل كان صعوده إلى السفينة هو الذى جعله رسولاً لكل الناس ؛ لأن سكان الأرض أيامها كانوا قلّة .

والحق سبحانه قد أخذ الكافرين بذنبهم وأنجى المؤمنين من الطوفان ، وكان الناس قسمين : مؤمنين ، وكافرين ، وقد صعد المؤمنون إلى السفينة ، وأغرق الحق سبحانه الكافرين .

وهكذا صار نوح - عليه السلام - رسولاً عامّاً بخصوصية من بقوا وهم المرسَل إليهم بخصوصية الزمان والمكان [1] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ .. (٧٤) ﴾ [يونس]

فهل قَصَّ الله تعالى كل أخبار الرسل عليهم السلام؟ لا ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ .. (٧٨) ﴾ [غافر]

---

(١) أما رسالة محمد ﷺ فهى لعامة الزمان والمكان ، وهذا مما خصَّ به الله رسوله ﷺ وأمته ، ويدل عليه حديث رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فَلْيُصلِّ ، وأحلت لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله .

وجاء الحق عز وجل بقصص أولى العزم منهم [١] ، مثلما قال سبحانه :

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ [٢] (١٤٧) ﴾ [الصافات]

فمن أرسله الله تعالى إلى من هم أقل من مائة ألف ، فقد لا يأتى ذكره ، ونحن نعلم أن الرسول إنما كان يأتى للأمة المنعزلة ؛ لأن العالم كان على طريقة الانعزال ، فنحن مثلاً منذ ألف عام لم نكن نعلم بوجود قارة أمريكا ، بل ولم نعلم كل القارات والبلاد إلا بعد المسح الجوى فى العصر الحديث ، وقد توجد مناطق فى العالم نعرفها كصورة ولا نعرفها كواقع .

ونحن نعلم أن ذرية آدم - عليه السلام - كانت تعيش على الأرض ، ثم انساحت [٣] فى الأرض ؛ لأن الأقوات التى كانت تكفى ذرية آدم على عهده ، لم تعد تكفى بعدما اتسعت الذرية ، فضاق الرزق فى رقعة الأرض التى كانوا عليها ، وانساح بعضهم إلى بقية الأرض .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً [٤] .. (١٠٠) ﴾ [النساء]

---

(١) أولو العزم من الرسل هم : محمد ﷺ ، وإبراهيم ، ونوح ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام . قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ .. (٣٥) ﴾ [الأحقاف] .

(٢) هو يونس - عليه السلام - أنجاه الله سبحانه وتعالى من بطن الحوت ثم أرسله إلى قومه وهم أهل «نينوى» بجهة الموصل ، وكان عددهم مائة ألف أو يزيد على المائة ألف - على اختلاف بين المفسرين . [تفسير الجلالين ص ٣٩٦] و[تفسير ابن كثير (٤/ ٢٢)] ، و[صفوة التفاسير للصابونى (٣/ ٢٤)] . . بتصرف .

(٣) انساح : من السياحة وهى الذهاب فى الأرض ، أو الهجرة من مكان إلى مكان . [لسان العرب : مادة (س ى ح)] .

(٤) مراغماً كثيراً : المراغمة الهجران والتباعد . والمراد : أنه يجد أماكن كثيرة تصلح لأن يهاجر إليها ليعيش فيها . [اللسان - بتصرف] .

وسعة : أى : بعيداً عن تضييق المشركين ، وقيل : سعة ، أى : كثرة فى الرزق . [مختصر تفسير الطبرى] بتصرف .

وهكذا انتقل بعض من ذرية آدم - عليه السلام - إلى مواقع الغيث [(١)] ، فالهجرة تكون إلى مواقع المياه ؛ لأنها أصل الحياة.

ويلاحظ مؤرِّخو الحضارات أن بعض الحضارات نشأت على جوانب الأنهار والوديان ، أما البداوة فكانت تتفرق في الصحارى ، مثلهم مثل العرب ، وكانوا في الأصل يسكنون عند سد مأرب ، وبعد أن تهدم السد وأغرق الأرض ، خاف الناس من الفيضان ؛ لأن العَدُوَّين اللذين لم يقدر عليهما البشر هما النار والماء.

وحين رأى الناس اندفاع الماء ذهبوا إلى الصحارى ، وحفروا الآبار التي أخذوا منها الماء على قَدْر حاجتهم ؛ لأنهم عرفوا أنهم ليسوا في قوة المواجهة مع الماء.

وهكذا صارت الانعزالات بين القبائل العربية ، ومثلها كانت في بقية الأرض ؛ ولذلك اختلفت الداعات باختلاف الأمم ؛ ولذلك بعث الحق سبحانه إلى كل أمة نذيراً ، وهو سبحانه القائل:

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ [(٢)] ..﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر]

وقصَّ علينا الله سبحانه قصص بعضهم ، ولم يقصص قصص البعض الآخر.

يقول الحق سبحانه :

---

(١) الغيث : المطر .

(٢) إن : نافية بمعنى (ما) . أي : ما من أمة إلا أرسل الله إليهم من ينذرهم. خلا : مضى وسبق. قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الرعد].

نذير : صيغة مبالغة من الإنذار ، أي : كثير الإنذار لهم بعذاب الله إذا لم يؤمنوا به . قال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ..﴿١٩﴾ ﴾ [المائدة].

﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ..(٧٨)﴾ [غافر]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ ..(٧٤)﴾ [يونس]

فهل هؤلاء هم الرسل الذين لم يذكرهم الله ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه أرسل بعد ذلك هوداً إلى قوم عاد ، وصالحاً إلى ثمود ، وشعيباً إلى مدين ، ولم يأت بذكر هؤلاء هنا ، بل جاء بعد نوح - عليه السلام - بخبر موسى عليه السلام ، وكأنه شاء سبحانه هنا أن يأتي لنا بخبر عيون الرسالات [1].

وما دام الحق سبحانه قد أرسل رسلاً إلى قوم ، فكل قوم كان لهم رسول ، وكل رسول بعثه الله تعالى إلى قومه.

وكلمة «قوم» [2] في الآية جمع مضاف ، والرسل جمع ، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً ، مثلما نقول: هَيَّا اركبوا سياراتكم ، والخطاب لكم جميعاً ، ويعنى: أن يركب كل واحد منكم سيارته.

وجاء كل رسول إلى قومه بالبينات ، أي: بالآيات الواضحات الدالة على صدق بلاغهم عن الله تعالى.

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية:

---

(١) عيون الرسالات: أكبرها وأهمها ذكرها تفصيلاً ، وذكر غيرها إجمالاً .

(٢) القوم : جماعة الرجال ليس معهم نساء . قال تعالى : ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ .. (١١)﴾ [الحجرات] ، ثم قال : ﴿وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ .. (١١)﴾[الحجرات] فدلَّ على أن المقصود بالقوم هنا الرجال فقط ، ويستعمل لفظ القوم فيشمل الأمة كلها رجالاً ونساء ، مثل قوم نوح وقوم إبراهيم . [القاموس القويم] وانظر [لسان العرب مادة : قوم] .

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)﴾ [يونس]

أى: أن الناس جميعهم لو آمنوا لانقطع الموكب الرسالى ، فموكب إيمان كل البشر لم يستمر ، بل جاءت الغفلة [١] ،وطبع الله تعالى على قلوب المعتدين . والطبع - كما نعلم - هو الختم .

ومعنى ذلك أن القلب المختوم لا يُخرج ما بداخله ، ولا يُدخل إليه ما هو خارجه ؛ فما دام البعض قد عشق الكفر فقد طبع الله سبحانه على هذه القلوب ألاّ يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، والطبع هنا منسوب لله تعالى .

وبعض الذين يتلمَّسون ثغرات فى منهج الله تعالى يقولون : إن سبب كفرهم هو أن الله هو الذى طبع على قلوبهم .

ونقول : التفتوا إلى أنه سبحانه بيَّن أنه قد طبع على قلوب المعتدين ، فالاعتداء قد وقع منهم أولاً ، ومعنى الاعتداء أنهم لم ينظروا فى آيات الله تعالى ، وكفروا بما نزل إليهم من منهج ، فهم أصحاب السبب فى الطبع على القلوب بالاعتداء والإعراض .

وجاء الطبع لتصميمهم على ما عشقوه وألفوه ، والحق سبحانه وتعالى هو القائل فى الحديث القدسى :

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك» [٢] .

ولله المثل الأعلى ، فأنت تقول لمن يَسْدر [٣] فى غَيِّه : ما دمت تعشق ذلك الأمر فاشبع به .

---

(١) الغفلة : سهو يعترى الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ..(٢٢)﴾ [ق] ، أى : غافلاً عن إدراك القيامة وغافلاً عن أحداث ما بعد الموت . [القاموس القويم]

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٥) وابن ماجه فى سننه (٤٢٠٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) السادر فى غيه : الممعن فى ضلاله المستمر عليه لا يهتم لشىء ولا يبالى ما صنع . [اللسان مادة : سدر] .

ومَثَل هؤلاء الذين طبع الله سبحانه وتعالى على قلوبهم ، مثل الذين كذَّبوا من قبل وكانوا معتدين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ[1] بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

وكل من موسى وهارون - عليهما السلام - رسول ، وقد أخذ البعث لهما مراحل ، والأصل فيها أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ [طه]

وقال الحق سبحانه وتعالى لموسى - عليه السلام:

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [طه]

ثم سأل موسى - عليه السلام - ربه سبحانه وتعالى أن يشدَّ عَضُدَه بأخيه ، فقال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [طه]

لأن موسى - عليه السلام - أراد أن يفقه قوله ، وقد رجى موسى ربه سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً[2] مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ ﴾ [طه]

---

(١) ملئه : قومه . وقيل : هم أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم الذين يُرجع إلى قولهم . [اللسان ، مادة : ملأ].

(٢) العقدة : تطلق على رتة اللسان وصعوبة النطق ، قال تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ ﴾ [طه] .

وبعد ذلك جاء تكليف هارون بالرسالة مع موسى عليه السلام.

وقال الحق سبحانه: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ[1] ﴿٢٤﴾﴾ [طه]

فالأصل - إذن - كانت رسالة موسى - عليه السلام - ثم ضم الله سبحانه هارون إلى موسى إجابة لسؤال موسى، والدليل على ذلك أن الآيات كلها المبعوثة فى تلك الرسالة كانت بيد موسى، وحين يكون موسى هو الرسول، وينضم إليه هارون، لا بد - إذن- أن يصبح هارون رسولاً.

ولذلك نجد القرآن معبِّراً عن هذا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ .. ﴿٤٧﴾﴾ [طه]

أى: أنهما رسولان من الله.

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه:

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء]

فهما الاثنان مبعوثان فى مهمة واحدة، وليس لكل منهما رسالة منفصلة، بل رسالتهما واحدة لم تتعدد، وإن تعدد المرسل فكانا موسى وهارون.

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يوفد ملك أو رئيس وفداً إلى ملك آخر، فيقولون: نحن رسل الملك فلان.

وفى رسالة موسى وهارون نجد الأمر البارز فى إلقاء الآيات كان لموسى. ولكن هارون له أيضاً أصالة رسالية؛ لذلك قال الحق سبحانه:

﴿إِنَّا رَسُولَا .. ﴿٤٧﴾﴾ [طه]

---

(١) طغى: تجاوز الحد. ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾﴾ [الفجر] أى: ظلموا وتجاوزوا الحد فى العصيان. وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة].

ذلك أن فرعون كان متعالياً سَمْجاً [1] رَذْل [2] الخُلُق ، فإن تكلم هارون ليشد أزر [3] أخيه ، فقد يقول الفرعون: وما دخلك أنت؟

ولكن حين يدخل عليه الاثنان ، ويعلنان أنهما رسولان ، فإن رد فرعون هارون ، فكأنه يرد موسى أيضاً .

أقول ذلك حتى نغلق الباب على من يريد أن يتورك [4] القرآن متسائلاً: ما معنى أن يقول القرآن مرة «رسول» ومرة «رسولا» ؟

وفى هذا ردٌّ كافٍ على هؤلاء المتورّكين.

ويقول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا ..(٧٥) ﴾ [يونس]

والملأ: هم أشراف القوم ، ووجوهه وأعيانه والمقرَّبون من صاحب السيادة العليا ، ويقال لهم : «ملأ» ؛ لأنهم هم الذين يملأون العيون ؛ أى: لا ترى العيون غيرهم.

وفرعون - كما نعلم - لم يصبح فرعوناً إلا بالملأ ؛ لأنهم هم الذين نصَّبوه عليهم ، وكان «هامان» مثلاً يدعم فكرة الفرعون ، وكان الكهنة يؤكدون أن الفرعون إله .

---

(١) سَمُجَ الشيء: قَبُحَ. والسَّمْجُ والسَّميج: الذى لا خير فيه [لسان العرب: مادة (س م ج)- بتصرف].

(٢) الرَّذْل والرَّذيل: الدون من الناس، وقيل: هو الخسيس. وقيل: هو الردىء من كل شىء. [لسان العرب: مادة (ر ذ ل)].

(٣) الأَزْر : القوة والشدة ، وأَزَرَه وآزره : أعانه وساعده . [لسان العرب : مادة (أزر)] .

(٤) التوريك: إضافة الذنب أو النقص إلى الشىء، وحمله عليه على غير الحقيقة، وتحمل معنى إسقاط عيبه على غيره [انظر: لسان العرب - مادة : ورك] والمراد أنهم يُحمِّلون القرآن تناقضاتهم.

ولكل فرعون ملأ يصنعونه ، والمثل الشعبى فى مصر يقول: «قالوا لفرعون من فَرْعَنك ، قال : لم أجد أحداً يردّنى».

أى: أنه لم يجد أحداً يقول له: تَعقَّلْ . ولو وجد من يقول له ذلك لما تفرعن.

والآيات [1] التى بعث بها الله سبحانه إلى فرعون وملئه مع موسى وهارون من المعجزات الدالة على صدق نبوة موسى وهارون - عليهما السلام ، وفيها ما يُلْفت إلى صدق البلاغ عن الله .

أو أن الآيات هى المنهج الذى يثبت وجود الخالق الأعلى ، لكن فرعون وملأه استكبروا. والاستكبار: هو طلب الكبر ، مثلها مثل «استخرج» أى: طلب الإخراج ، ومثل «استفهم» أى: طلب الفهم. ومن يطلب الكبر إنما يفتعل ذلك ؛ لأنه يعلم أن مقوماته لا تعطيه هذا الكبر.

وينهى الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ .. وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) ﴾ [يونس]

وشرُّ الإجرام هو ما يتعدى إلى النفس ، فقد يكون من المقبول أن يتعدى إجرام الإنسان إلى أعدائه ، أما أن يتعدى الإجرام إلى النفس فهذا أمر لا مندوحة [2] له ، وإجرام فرعون وملئه أودى بهم إلى جهنم خالدين مخلدين فيها ملعونين ، وفى عذاب عظيم ومهين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) ﴾ [الإسراء] والآيات التى أرسل بها موسى عليه السلام هى : العصا ، وإخراج يده بيضاء من غير سوء ، وسنىّ الجدب ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

(٢) المندوحة : اتساع الأمر. والمراد: أن فعلهم هذا لا سبب معقول له، ولا مبرر. [لسان العرب: مادة (ن د ح) بتصرف].

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ[1] مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

وقد جاءهم الحق على لسان الرسل - عليهم السلام - وعلى كل إنسان أن يفهم أنه حين يستقبل من الرسول رسالة الحق ، فليفهم أنها رسالة ليست ذاتية الفكر من الرسول ، بل قد أرسله بها الله الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

ولذلك فالمتأبِّى[2] على الرسول ، لا يتأبَّى على مساوٍ له ؛ لأن الرسول هو مُبلِّغ عن الله تعالى ، والله سبحانه هو الذى بعثه ، ويجب على الإنسان أن يعرف قدر البلاغ القادم من الله الحق ؛ لأنه سبحانه هو الحق الأعلى ، وهو الذى خلق كل شيء بالحق : سماء مخلوقة بالحق ، وأرض مخلوقة بالحق ، وشمس تجرى بالحق ، ومطر ينزل بالحق ، وكل شيء ثابت ومتحرك بقوانين أرادها الحق سبحانه .

ولو سيطر الإنسان - دون منهج - على قوانين الكائنات لأفسدها ؛ لأن الفساد إنما يتأتى مما للإنسان دخل فيه ، ويدخل إليه بدون منهج الله .

والفساد إنما يجيء من ناحية اختيار الإنسان للبدائل التى لا يخضع فيها لمنهج الله تعالى .

ولذلك إن أردتم أن تستقيم حياتكم استقامة الكائنات العليا التى لا دخل لكم فيها ، فامتثلوا لمنهج الحق وميزانه ؛ لأنه سبحانه هو القائل :

---

(١) اللام فى كلمة «لسحر» للتوكيد . والمعنى : أن ما جئت به ما هو إلا سحر قوى ظاهر ، والسحر هو كل أمر يخفى سببه ، ويتخيَّل على غير حقيقته بالتمويه والخداع ، قال تعالى عن سحرة فرعون : ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه] .

(٢) التأبي : الرفض والكراهية . [اللسان : مادة (أ ب ى)] .

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ [١] (٨) ﴾
[الرحمن]

أى: إن كنتم تريدون أن تعتدل أموركم ، وتنضبط انضباط الكائنات الأخرى فلتكن إرادة الاختيار المخلوقة لكم خاضعة لمنهج الله تعالى ، وتسير فى إطار هذا المنهج الربانى.

وحين نتأمل قول الحق سبحانه:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا .. (٧٦) ﴾ [يونس]

نجد فى هذا القول توجيهاً إلى أن الحق لم يأت من ذوات الرسل ؛ فهذه الذوات لا دخل لها فى الموضوع ، وإياك أن تهاجم رسالة حق جاءتك من إنسان لا تحبه ، بل ناقش الحق فى ذاته ، ولا تدخل فى متاهة البحث عمَّن جاء بهذا الحق ، وانظر إلى من كفروا بمحمد رسول الله ﷺ، فَهُمْ من قالوا:

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ [٢] .. (٣١) ﴾ [الزخرف]

وهم بذلك قد أدخلوا النازل عليه القرآن فى الحكم ، مع أن العقل كان يقتضى أن ينظروا إلى القرآن [٣] فى ذاته ، وأن يأخذوا الحكمة من أى وعاء خرجت .

وعليك أنت أن تستفيد من هذا الأمر ، وخُذ الحكمة من أى قائل لها ،

(١) لأن اعتدال الموازين ثبات للحق ، وإذا ثبت الحق وأخذ طريقه استقامت موازين الحياة ، وعند استقامتها لا نجد محروماً ولا مظلوماً .

(٢) القريتان هما: مكة والطائف. واختلفت الأقوال فى تحديد هذين الرجلين، فقيل: إنهما الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفى. وقيل: إنهما عمير بن عمرو بن مسعود، وعتبة بن ربيعة، وقيل: ابن عبد ياليل. والمقصود أنه رجل كبير من أى البلدتين كان. انظر ابن كثير (٤/ ١٢٧).

(٣) وقد نقلت لنا كتب السيرة أن الوليد بن المغيرة قال فى وصف القرآن : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته » سيرة ابن هشام (١/ ٢٧٠) فرغم قوله فى القرآن ومدحه فيه ، إلا أنه مسايرة لقومه ، وحفاظاً على مكانته بينهم جحد القرآن واتهم محمداً ﷺ بالسحر .

ولا تنظر إلى من جاءت الحكمة منه، فإن كنت تكرهه فأنت ترفض أن تأخذ الحكمة منه، وإن كنت تحبه أخذتها. لا، إن عليك أن تأخذ الحكمة ما دامت قد جاءت بالحق؛ لأنك إن لم تأخذها أضعت نفسك [1].

والحق هو الشيء الثابت، وإن ظهر في بعض الأحيان أن هناك من طمس الحق، وأن الباطل تغلّب عليه، فهذا يعنى ظهور المفاسد؛ فيصرخ الناس طالبين الحق.

وانتشار المفاسد هو الذى يجعل الناس تستدعى الحق، وتتحمس له؛ لأن الباطل حين يَعَضُّ الناس، تجدهم يتجهون إلى الحق ليتمسكوا به.

والحق سبحانه هو القائل:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا [2] رَّابِيًا [3] وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً [4] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ [5] (١٧)﴾ [الرعد]

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحقُّ بها». أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٨٧) وابن ماجه فى سننه (٤١٦٩). قال الترمذى: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل، يُضعَّف فى الحديث من قِبَل حفظه.

(٢) الزبد: هو ما يعلو ماء البحر إذا هاج موجه. وبحر مُزْبِد، أى: مائج يقذف بالزَّبد. وزبد الماء: طفاوته وقذاه. والجمع: أزباد. [لسان العرب: مادة (ز ب د)].

(٣) رابياً: مرتفعاً؛ لأنه يكون أعلى سطح الماء. [اللسان: مادة (ر ب ى)].

(٤) جفاء السيل: هو ما يقذفه من الزبد والوسخ ونحوهما. [اللسان: مادة (ج ف ى)].

(٥) المثل: الصفة العجيبة يشبَّه بها غيرها. فالأمثال تصور المعانى بصورة الأشخاص، لأنها أثبت فى الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس. وأمثال القرآن قسمان:
– قسم ظاهر مصرح به، مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (١٧)﴾ [البقرة]
– قسم كامن، مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾ [الفرقان] وهو يؤدى معنى مثل «خير الأمور أوساطها». [انظر: الإتقان فى علوم القرآن ٤/ ٤١].

والحق سبحانه هنا يضرب المثل النازل كسيل من السماء على الجبال ، فيأخذ كل واد أسفل الجبال على قدر احتماله ، ويرتوى الناس ، وترتوى الأرض ، لكنّ السيل فى أثناء نزوله على الجبال إنما يحمل بعضاً من الطمى ، والقش ، ويستقر الطمى فى أرض الأودية ؛ لتستفيد منه ، أما القش والقاذورات فتطفو على سطح الماء ، وتسمى تلك الأشياء الطافية زَبَداً ، وساعة تضعها فى النار ، فهى تصدر أصواتاً تسمى (الطشطشة).

ومثال ذلك: حين نوقد النار ؛ لنصهر الحديد ، نجد الخبث هو الذى يطفو ، ويبقى الحديد النقى فى القاع.

هذا الزبد الذى يوجد فوق الماء ينزاح على الجوانب ، ومثال ذلك: ما نراه على شواطىء البحر حين يقذف الموج بقاذورات على الشاطىء ، هذه القاذورات التى ألقتها البواخر ، فيلفظها البحر بالموج ، وهذا الزبد يذهب جُفاءً ، أما ما ينفع الناس فيبقى فى الأرض ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد]

إذن : فالله سبحانه يترك للباطل مجالاً ، ولكن لا يسلم له الحق ، بل يترك الباطل ؛ ليحفز غيرة الناس على الحق ، فإن لم يغاروا على الحق غار هو عليه[1] .

وهنا يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يونس]

ولأنهم كانوا مشهورين بالسحر ؛ ظنوا أن الآيات التى جاءت مع موسى - عليه السلام - هى السحر المبين ، أى : السحر الظاهر الواضح .

(١) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « ليس أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك مدح نفسه ، وليس أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٦٠) ، والبخارى فى صحيحه (٤٦٣٤) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

وفى هذه الآية ما يوضح رد سيدنا موسى عليه السلام :

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [يونس]

والذين يتوركون على القرآن يقولون : كيف يأتى القرآن ليؤكد أنهم قالوا إن هذا لسحر مبين ، ثم يأتى فى الآية التى بعدها ليقول إنهم قالوا متسائلين : أسحرٌ هذا ؟

وفَهم هؤلاء الذين يتوركون على القرآن أن كلمة ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ من كلماتهم ، ولكن هذا هو قول موسى عليه السلام ، وكأن موسى عليه السلام قد تساءل ؛ ليعيدوا النظر فى حكمهم : هل ما جاء به سحر ؟ وهذا استفهام استنكارى ، وأريد به أن يؤكد أن هذا ليس بسحر ، ولكن جاء بصيغة التساؤل ؛ لأنه واثق أن الإجابة الأمينة ستقول : إن ما جاء به ليس سحراً.

ولو جاء كلام موسى - عليه السلام - كمجرد خَبَر لكان يحتمل الصدق ، ويحتمل الكذب ، لكنه جاء بصيغة الاستفسار ؛ لأن المكذِّب له سيجيب بلجلجة [1] .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - أنت حين تذهب لشراء قماش ، فيقول لك البائع : إنه صوف خالص ونقى ، فتمسك بعود كبريت وتشعل

(١) اللجلجة والتلجلج : التردد فى الكلام ، والاختلاط والاضطراب فيه . ولذلك قيل : « الحق أبلج ، والباطل لجلج » . أى : أن الحق واضح قوى ظاهر ، أما الباطل فهو ضعيف مضطرب لا ثبات له . [لسان العرب : مادة (ل ج ج) - بتصرف] .

النار فى خيط من القماش ، فإن احترق الصوف كما يحترق البلاستيك أو القماش الصناعى ، فأنت تقول للبائع : وهل هذا صوف نقى يا رجل ؟ وهنا لن يجيب البائع إلا بالموافقة ، أو بصمت العاجز عن حجب الحقيقة .

إذن : أنت إن طرحت الأمر باستفهام إنكارى فهذا أبلغ من أن تقوله كخبر مجرد ؛ لأن السامع لك لا بد أن يجيب .

وقول الحق سبحانه وتعالى على لسان موسى عليه السلام :

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ .. (٧٧) ﴾ [يونس]

يفيد ضرورة النظر إلى الحق مجرداً عمَّن جاء به .

ولذلك لم يقل موسى عليه السلام : أتقولون للحق لما جئناكم به : إنه سحر مبين ؟

إن القول الحكيم الوارد فى الآية الكريمة هو تأكيد على ضرورة النظر إلى الحق مجرداً عمّن جاء به .

وينهى الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ .. أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) ﴾ [يونس]

إذن : فسيدنا موسى - عليه السلام - قد أصدر الحكم بأن السحر لا ينفع ، ولكن الآيات التى جاء بها من الحق سبحانه قد أفلحت ، فقد ابتلعت عصاه - التى صارت حية - كل ما ألقوه من حبالهم ؛ وكل ما صنعوه من سحر[1] .

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) ﴾ [الأعراف] .

وأراد الحق سبحانه لعصا موسى أن تكون آية معجزة [١] من جنس ما نبغ فيه القوم .

فالله سبحانه حين يرسل معجزةً إلى قوم ؛ يجعلها من جنس ما نبغوا فيه ؛ لتكون المعجزة تحدياً فى المجال الذى لهم به خبرة ودربة [٢] ودراية ؛ فأنت لن تتحدى رجلاً لا علم له بالهندسة ؛ ليبنى لك عمارة ، ولكنك تتحدى مهندساً أن يبنى لك هرماً ؛ لأن العلوم المعاصرة لم تتوصل إلى بعض ما اكتشفه القدماء ولم يسجلوه فى أوراقهم ، أو لم يعثر على كشف يوضح كيف فرَّغوا الهواء بين كل حجر وآخر فتماسكت الحجارة .

وقول الحق سبحانه وتعالى هنا :

﴿ .. وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) ﴾ [يونس]

يبين لنا أن الفلاح مأخوذ من العملية الحسية التى يقوم بها الفلاح من جهد فى حرث الأرض ووضع البذور ، ورى الأرض وانتظار الثمرة بعد بذل كل ذلك الجهد .

والفلاح أيضاً مأخوذ من فلح الحديد ، أى : شق الحديد ، ككتل أو كقطع ، ولا يصلح إلا إذا أخذ الحديد الشكل المناسب للاستعمال .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ.. (٧٧) ﴾ [يونس]

هو لَفْتٌ لنا أن السحر نوع من التخييل ، وليس حقيقةً واقعةً .

ولذلك قال الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن :

---

(١) المعجزة هى : الأمر الخارق للعادة يُجريها الله على يد النبى أو الرسول تأييداً له وتصديقاً لرسالته ، كمعجزات موسى وعيسى عليهما السلام انقلاب العصا حية وانفلاق البحر وإبراء الأكمه والأبرص . وخصَّ ﷺ بمعجزة القرآن الخالدة ، وله ﷺ معجزات حسية كنبوع الماء من بين يديه ﷺ .

(٢) دربة : عادة وخبرة أو تدريب .

﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ..(١١٦) ﴾ [الأعراف]

وقال الحق سبحانه أيضاً :

﴿ ..فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه]

إذن : فالسحر هو تخييل فقط [١] وليس تغييراً للحقيقة .

ولأن معجزة موسى - عليه السلام - تحدَّت كل القدرات [٢] ؛ لذلك أعلن فرعون التعبئة العامة بين كل من له علاقة بالسحر ، الذى هم متفوقون فيه ، أو حتى من لهم شبهة معرفة بالسحر [٣] .

ولأن السحر مجرد تخييل ، وجدنا السحرة حين اجتمعوا وألقوا حبالهم وعصيهم ، ثم ألقى موسى عصاه ، فإذا بعصاه قد تحولت إلى حية تلقف [٤] ما صنعوا ، وهنا ماذا فعل السحرة ؟

يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة طه :

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) ﴾ [طه]

لأن الساحر يرى ما يفعله على حقيقته ، وهم خيَّلوا لأعين الناس ، لكنهم يرون حبالهم مجرد حبال أو عصيهم مجرد عصى .

---

(١) سحر قوم فرعون هو من نوع سحر التخييل والأخذ بالعيون ، ومبناه على أن البصر قد يخطىء ويشتغل بالشىء المعين دون غيره ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ..(١١٦) ﴾ [الأعراف] . وقال تعالى : ﴿ .. يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه] .

(٢) السحر : هو التأثير الشديد ، فإن كان من المخلوق فهو تخيل وحيل ، وإن كان من الخالق فهو إعجاز وتغيير ماهية الشىء بقدرته سبحانه ؛ ولذلك انتصر موسى - عليه السلام - على السحرة ؛ لأن الله سبحانه أعانه عليهم بقدرته التى لا راد لها .

(٣) وذلك أن فرعون من مكره جعل الملأ من حوله هم الذين يصعّدون المواجهة مع موسى بأن قال لهم : ﴿ .. إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) ﴾ [الشعراء] . فكان ردّهم عليه أن قالوا له : ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) ﴾ [الشعراء] .

(٤) اللقف : سرعة الأخذ والتناول . [اللسان : مادة (ل ق ف)] .

أما عصا موسى - عليه السلام - فلم تكن تخييلاً ، بل وجدها السحرة حية حقيقية ، ولقفت بالفعل ما صنعوا ؛ ولذلك خرُّوا [١] ساجدين ، وأعلنوا الإيمان برب موسى وهارون .

هم - إذن - لم يعلنوا الأيمان بموسى وهارون ، بل أعلنوا الإيمان :

﴿ بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ..(٧٠) ﴾ [طه]

لأنهم عرفوا بالتجربة أن ما ألقاه موسى ليس سحراً ، بل هو مِنْ فعل خالق أعلى .

وكان ثبات موسى - عليه السلام - فى تلك اللحظة نابعاً من التدريب الذى تلقَّاه من ربه ، فقد سأله الحق سبحانه :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ [٢] عَلَيْهَا وَأَهُشُّ [٣] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ..(١٨) ﴾ [طه]

وقد أجمل موسى وفصَّل فى الرد على الحق سبحانه ؛ إيناساً وإطالة للأنس بالله تعالى ، وحين رأى أنه أطال الإيناس أوجز وقال بأدب :

﴿ ..وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ [٤] أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه]

إذن : فقد أدركته أولاً شهوة الأنس بالله تعالى ، وأدرك ثانياً أدب التخاطب مع الله تعالى ، ودرَّبه الحق سبحانه على مسألة العصا حين أمره

(١) خر : سقط ووقع . والمراد أنهم أسرعوا بالسجود لله رب العالمين .

(٢) أتوكأ عليها : أتحمل وأعتمد وأستند عليها . [اللسان : مادة (و ك أ) - بتصرف] .

(٣) ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ..(١٨) ﴾ [طه] أى : أهز بها الشجر لتتساقط أوراقه لترعاه غنمى . نقله ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٤٥) .

(٤) مآرب أخرى : أى : مصالح وحاجات ومنافع أخرى غير ذلك .

أولاً أن يلقيها ، فصارت أمامه حية تسعى ، ولو كانت من جنس السحر لما أوجس[1] منها خيفة ولرآها مجرد عصا .

إذن : فالفرق بين معجزة موسى وسحرة فرعون، أن سحرة فرعون سحروا أعين الناس وخُيِّل إلى الناس من سحرهم أن عصيَّهم وحبالهم تسعى ، لكن معجزة موسى - عليه السلام - فى إلقاء العصا ، عرفوا هم بالتجربة أن تلك العصا قد تغيرت حقيقتها .

والعصا -كما نعلم -أصلها فرع من شجرة،وكان باستطاعة الحق سبحانه وتعالى أن يجعلها تتحول إلى شجرة مثمرة ، لكنها كانت ستظل نباتاً .

وشاء الحق سبحانه أن ينقلها إلى المرتبة الأعلى من النبات ؛ وهى المرحلة الحيوانية ، فصارت حية تلقف كل ما ألقاه السحرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا[2] عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا[3] ٱلْكِبْرِيَآءُ[4] فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

---

(١) أوجس : أى: وقع فى نفسه وقلبه الخوف والفزع . [انظر اللسان مادة وجس] وقد وقع هذا الخوف لاثنين من الأنبياء ذكرهما القرآن : الأول إبراهيم عليه السلام عندما جاءته الملائكة فى صورة بشر ليبشروه بإسحاق ويعقوب ، وقد ذكر هذا فى القرآن مرتين: الأولى فى سورة هود: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾ [هود] . أما الثانية ففى سورة الذاريات آية ٢٨ .

أما النبى الثانى فهو موسى عليه السلام : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ [طه] .

(٢) لتلفتنا : لتثنينا وتبعدنا عن آلهة الآباء والأجداد .

(٣) لكما : أى : لموسى وهارون عليهما السلام .

(٤) الكبرياء : العظمة والرياسة . [ابن كثير ٢/ ٤٢٦] .

وهنا نجد سحرة فرعون ينسبون مجيء معجزة تحول العصا إلى حية، ينسبونها لموسى - عليه السلام - رغم أن موسى عليه السلام قد نسب مجيء المعجزة إلى الله تعالى .

وكان واجب المرسل إليه - فرعون وملئه - أن ينظر إلى ما جاء به الرسول ، لا إلى شخصية الرسول [1] .

ولو قال فرعون لموسى : « جيءَ بك» لكان معنى ذلك أن فرعون يعلن الإيمان بأن هناك إلهاً أعلى ، ولكن فرعون لم يؤمن لحظتها ؛ لذلك جاء قوله : ﴿أَجِئْتَنَا﴾ فنسب المجيء على لسان فرعون لموسى عليه السلام .

ولماذا المجيء ؟

يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه :

﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ..(٧٨)﴾ [يونس]

والالتفات هو تحويل الوجه عن شيء مواجه له ، وما دام الإنسان بصدد شيء ؛ فكل نظره واتجاهه يكون إليه ، وكان قوم فرعون على فساد وضلال ، وليس أمامهم إلا ذلك الفساد وذلك الضلال .

وجاء موسى عليه السلام ؛ ليصرف وجوههم عن ذلك الفساد والضلال ، فقالوا :

﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ..(٧٨)﴾ [يونس]

(١) فمما قاله فرعون عن موسى يطعن في شخصيته ما حكاه رب العزة في قوله تعالى : ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢)﴾ [الزخرف] وذلك أن موسى كان لسانه لا ينطلق بالكلام ، وقد عبر عن ذلك في دعائه : ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨)﴾ [طه] .

وهكذا يكشفون حقيقة موقفهم ، فقد كانوا يقلدون آباءهم ، والتقليد يريح المقلِّد ، فلا يُعْمِل عقله أو فكره فى شىء ليقتنع به ، ويبنى عليه سلوكه [(١)] .

والمثل العامى يصور هذا الموقف بعمق شديد حين يقول : « مثل الأطرش فى الزفة » أى : أن فاقد السمع لا يسمع ما يقال من أى جمهرة ، بل يسير مع الناس حيث تسير ، ولا يعرف له اتجاهاً .

والمقلِّد إنما يعطل فكره ، ولا يختار بين البدائل ، ولا يميز الصواب ليفعله ، ولا يعرف الخطأ فيتجنَّبه .

وفرعون وملؤه كانوا على ضلال ، هو نفس ضلال الآباء ، والضلال لا يكلف الإنسان تعب التفكير ومشقة الاختيار ، بل قد يحقق شهوات عاجلة .

أما تمييز الصواب من الخطأ واتباع منهج السماء ، فهو يحجب الشهوة ، ويلزم الإنسان بعدم الانفلات عكس الضلال الذى يطيل أمد [(٢)] الشهوة .

إذن : فالمقلد بين حالتين :

الحالة الأولى: أنه لا يُعْمِل عقله ، بل يفعل مثل من سبقوه ، أو مثل من يحيا بينهم .

---

(١) وهذا التقليد نهى عنه رسول الله ﷺ فى حديثه ، فعن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : « لا تكونوا إمعة ، تقولون : إن أحسن الناس أحسنًا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٠٠٧) وقال : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٢) أمد الشهوة : غايتها . والأمد : منتهى الأجل . وقد وردت هذه اللفظة ثلاث مرات فى القرآن ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَدًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الجن] أى : زماناً بعيداً . وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ..﴿٣٠﴾ ﴾ [آل عمران] أى : فى غاية البعد . وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الكهف] أى : مدة وزماناً .

والحالة الثانية: أنه رأى أن ما يفعله الناس لا يلزمه بتكليف ، ولكن الرسول الذى يأتى إنما يلزمه بمنهج ، فلا يكسب - على سبيل المثال - إلا من حلال ، ولا يفعل منكراً ، ولا يذم أحداً ، وهكذا يقيد المنهج حركته ، لكن إن اتبع حركة آبائه الضالين ، فالحركة تتسع ناحية الشهوات.

ولذلك أقول دائماً: إن مسألة التقليد هذه يجب أن تلفت إلى قانون التربية ، فالنشء ما دام لم يصل إلى البلوغ فأنت تلاحظ أنه بلا ذاتية ويقلد الآباء ، لكن فور أن تتكون له ذاتية يبدأ فى التمرد ، وقد يقول للآباء: أنتم لكم تقاليد قديمة لا تصلح لهذا الزمان ، لكن إن تشرَّب النشء القيم الدينية الصحيحة ؛ فسيمتثل لقانون الحق ، ويحجز نفسه عن الشهوات.

ونحن نجد أبناء الأسر التى لا تتبع منهج الله فى تربية الأبناء وهم يعانون من أبنائهم حين يتسلط عليهم أقران[1] السوء ، فيتجهون إلى ما يوسع دائرة الشهوات من إدمان وغير ذلك من المفاسد .

لكن أبناء الأسر الملتزمة يراعون منهج الله تعالى ؛ فلا يقلدون أحداً من أهل السوء ؛ لأن ضمير الواحد منهم قد عرف التمييز بين الخطأ والصواب.

ثم إن تقليد الآباء قد يجعل الأبناء مجرد نسخ مكررة من آبائهم ، أما تدريب وتربية الأبناء على إعمال العقل فى كل الأمور ، فهذه هى التنشئة التى تتطور بها المجتمعات إلى الأفضل إن اتبع الآباء منهج الله تعالى ، وتتكون ذاتية الابن على ضوء منهج الحق سبحانه ، فلا يتمرد الابن متجهاً إلى الشر ، بل قد يتمرد إلى تطوير الصالح ليزيده صلاحاً.

التقليد - إذن - يحتاج إلى بحث دقيق ؛ لأن الإنسان الذى سوف تقلده ، لن يكون مسئولاً عنك ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل:

---

(١) أقران : جمع قرن (بكسر القاف وتسكين الراء) وهو النظير والمثيل . والمراد بأقران السوء : أصدقاء السوء ورفقاء الشر والرذائل . [لسان العرب : مادة (ق ر ن) - بتصرف] .

﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. (٣٣) ﴾ [لقمان]

إذن: فأمر الابن يجب أن يكون نابعاً من ذاته ، وكذلك أمر الأب ، وعلى كل إنسان أن يُعْمِل عقله بين البدائل[1] .

ولذلك تجد القرآن الكريم يقول على ألسنة مَنْ قلَّدوا الآباء:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا[2] عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠) ﴾ [البقرة]

ثم يرد عليهم الحق سبحانه:

﴿ ..أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة]

فإذا كانت المسألة مسألة تقليد ، فلماذا يتعلم الابن ؟ ولماذا لا ينام الأبناء على الأرض ولا يشترون أسرَّة ؟ ولماذا ينجذبون إلى التطور فى الأشياء والأدوات التى تسهِّل الحياة ؟

فالتقليد هو إلغاء العقل والفكر ، وفى إلغائهما إلغاء التطور والتقدم نحو الأفضل .

إذن : فالقرآن يحثنا على أن نستخدم العقل ؛ لنختار بين البدائل ، وإذا كان المنهج قد جاء من السماء ، فَلْتَهْتد بما جاء لك ممن هو فوقك ، وهذا الاهتداء المختار هو السُّمو نحو الحياة الفاضلة .

---

(١) البدائل : ما يصلح لأن يختار منه الإنسان ، فهى مواضع الاختيار فى التكليف ، فله أن يختار بين الإيمان والكفر ، الطاعة والمعصية ، قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾ [الشمس] .

(٢) ألفينا : وجدنا . ألفى الشىء وجده. قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) ﴾ [الصافات]، وقال : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ..(٢٥) ﴾ [يوسف] أى : وجداه .

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا [1] مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ..(١٠٤) ﴾ [المائدة]

أى: أنهم أعلنوا أنهم فى غير حاجة للمنهج السماوى فَردَّ عليهم القرآن:

﴿ ..أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة]

وهكذا نجد أن القرآن قد جاء بموقفين فى آيتين مختلفتين عن المقلّدين:

الآية الأولى: هى التى يقول فيها الحق سبحانه وتعالى:

﴿ .. بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة]

والآية الثانية: هى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ ..حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة]

وهم فى هذه الآية أعلنوا الاكتفاء بما كان عليه آباؤهم.

وهناك فارق بين الآيتين، فالعاقل غير من لا يعلم؛ لأن العاقل قادر على الاستنباط، ولكن من لا يعلم فهو يأخذ من استنباط غيره.

(١) حسبنا: يكفينا. وهناك فارق بين قولة الكافرين المقلدين لآبائهم هنا، وبين قول المؤمنين لهذه الكلمة: ﴿ حَسْبُنَا ﴾، فالمؤمنون قالوا: ﴿ ..حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران]، وقالوا: ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ..(٥٩) ﴾ [التوبة]، فالمؤمنون اكتفوا بما جاءهم عن الله وأوكلوا الأمر إلى الله رغم معاداة الآباء لهم ورغم أن موقفهم هذا سيضرهم فى دنياهم وقد يقطع أرزاقهم، فهم قد نظروا إلى الآخرة، أما الكافرون فإنهم يعيشون دنياهم بكل ما فيها من ملذات وشهوات.

إذن: فالذين اكتفوا بما عند آبائهم ، وقالوا:

﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ..(١٠٤) ﴾ [المائدة]

هؤلاء هم الذين غالوا فى الاعتزاز بما كان عند آبائهم ؛ لذلك جاء فى آبائهم القول بأنهم لا يعلمون .

أى : ليس لهم فكر ولا علم على الإطلاق ، بل يعيشون فى ظلمات من الجهل.

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه:

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ .. (٧٨) ﴾ [يونس]

أى: هل جئت لتصرفنا ، وتحوِّل وجوهنا أو وجهتنا أو طريقنا وتأخذنا عن وجهة آبائنا الذين نقلدهم؛ لتأخذ أنت وأخوك الكبرياء فى الأرض؟

وهكذا يتضح أنهم يعتقدون أن الكبرياء الذى لهم فى الأرض قد تحقق لهم بتقليدهم آباءهم ، وهم يحبون الحفاظ عليه ، والأمر هنا يشمل نقطتين:

الأولى: هى تَرْكُ ما وجدوا عليه الآباء.

والثانية: هى الكبرياء [1] والعظمة فى الأرض.

ومثال ذلك: حين يقول مقاتل لآخر: « ارْمِ سيفك » وهى تختلف عن قوله: «هات سيفك »، فَرَمْىُ السيف تجريد من القوة ، لكن أخذ السيف يعنى إضافة سيف آخر إلى ما يملكه المقاتل الذى أمر بذلك.

---

(١) الكبرياء : العظمة والملك . وهى عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ، ولا يوصف بها إلا الله تعالى . قال صاحب « القاموس القويم» : هى العظمة والتجبّر والسلطان والسيطرة ، وهى فى حق الله سبحانه العظمة الحق ، والسلطان القوى ، والسيطرة الكاملة » بتصرف .

وهم هنا وجدوا في دعوة موسى عليه السلام مصيبة مركبة.

الأولى: هي ترك عقيدة الآباء.

والثانية: هي سلب الكبرياء، أي: السلطة الزمنية والجاه والسيادة والعظمة والائتمار[1]، والمصالح المقضية، فكل واحد من بطانة[2] الفرعون يأخذ حظه حسب اقترابه من الفرعون.

ولذلك أعلنوا عدم الإيمان، وقالوا ما يُنهى به الحق سبحانه الآية الكريمة التي نحن بصددها:

﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس]

أي: أن قوم فرعون والملأ أقرُّوا بما حرصوا عليه من مكاسب الدنيا والكبرياء فيها، ورفضوا الإيمان بما جاء به موسى وهارون- عليهما السلام.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

وكان فرعون يعلم تقدُّم السحرة في دولته، ويكفي أنه شخصياً خَيَّل للناس أنه إله، وجاء أمره أن يأتي أعوانه بالسحرة، وفور أن قال الأمر جيء بالسحرة.

وأورد الحق سبحانه في الآية التي بعد ذلك:

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾

---

(١) الائتمار: التشاور في الأمر والتواصي به. ويسمي التشاور ائتماراً لأن المتشاورين يقبل بعضهم أمر بعض. ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ .. ﴿٢٠﴾﴾ [القصص]. [القاموس القويم. وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٣].

(٢) بطانة الرجل: خاصته. [لسان العرب: مادة (ب ط ن)].

وكأن المسافة بين نطق فرعون بالأمر وبين تنفيذ الأمر هى أضيق مسافة وقتية ، وذلك حتى نفهم أن أمر صاحب السلطان لا يحتمل من الناس التأجيل أو التباطؤ فى التنفيذ.

والقرآن حينما يعالج أمراً من الأمور فهو يعطى صورة دقيقة للواقع ، ولا يأتى بأشياء تفسد الصورة.

يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) ﴾ [يونس]

وفى هذه الآية تلخيص للموقف كله ، فحين علم السحرة أن فرعون يحتاجهم فى ورطة [١] تتعلق بالحكم ، فهذه مسألة صعبة وقاسية ، وعليهم أن يسرعوا إليه.

ولم يأت الحق سبحانه هنا بالتفصيل الكامل لذلك الموقف؛ لأن القصة تأتى بنقاطها المختلفة فى مواضع أخرى من القرآن ، وكل آية توضح النقطة التى تأتى بذكرها [٢].

لذلك لم يقل الحق سبحانه هنا: إن أعوان فرعون نادوا فى المدائن [٣] ليأتى السحرة ، مثلما جاء فى مواضع أخرى من القرآن [٤].

---

(١) الورطة : الوحل تقع فيه الغنم فلا تقدر على التخلص منه . يقال : تورطت الغنم إذا وقعت فى ورطة ، ثم صار مثلاً لكل شدة وقع فيها الإنسان . وتورط فلان فى الأمر ، واستورط فيه : إذا ارتبك فيه ، فلم يسهل له المخرج منه . [لسان العرب : مادة (و ر ط)] .

(٢) وهذه ميزة القصص القرآنى فى الإشارة إلى قصصه عدا قصة يوسف عليه السلام .

(٣) المدائن : جمع مدينة ، وهى القرى الكبيرة . وقد ورد هذا الجمع فى القرآن خاصاً بقصة موسى ثلاث مرات ، أما المفرد منه فقد جاء ١٤ مرة منها ٤ مرات خاصة بمدينة الرسول ﷺ [التوبة : ١٠١ ، ١٢٠] [الأحزاب : ٦٠] [المنافقون : ٨] .

(٤) وذلك فى قوله تعالى عن سحرة فرعون : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) ﴾ [الأعراف] ، وقال تعالى : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) ﴾ [الشعراء] .

ولم يقل لنا إن السحرة أرادوا أن يستفيدوا من هذه المسألة ، وقالوا للفرعون [١] :

﴿ .. إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) ﴾ [الأعراف]

ووَضْع مثل هذا الشرط يوضح لنا طبيعة العلاقات فى ذلك المجتمع ، فطلبهم للأجر ، يعنى أن عملهم مع الفرعون من قبل ذلك كان تسخيراً وبدون أجر ، ولما جاءتهم الفرصة ورأوا الفرعون فى أزمة؛ طالبوا بالأجر.

ووعدهم فرعون بالأجر ، وكذلك وعدهم أن يكونوا مقرَّبين [٢] ؛ لأنهم لو انتصروا بالسحر على معجزة موسى؛ ففى ذلك العمل محافظة وصيانة للمُلْك ، ولا بد أن يصبحوا من البطانة المستفيدة ، ووعدهم الفرعون بذلك شحذاً لهمتهم ليبادروا بإبطال معجزة موسى؛ ليستقر عرش الفرعون.

وشاء الحق سبحانه الإجمال هنا فى هذه الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - وجاء ببقية اللقطات فى المواضع الأخرى من القرآن.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) ﴾ [يونس]

---

(١) فرعنة : الفرعنة الكبر والتجبر ، وفرعون الذى ذكر فى كتاب الله ترك صَرْفه فى قول بعضهم ؛ لأنه لا سميَّ له وكإبليس فيمن أخذه من أبلسه . وقال ابن سيده : إن فرعون عَلَم أعجمى ، ولذلك لم يصرف . الجوهرى : فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر، وكل عات فرعون ، والعتاة الفراعنة ، وقد تفرعن ، وهو ذو فرعنة أى دهاءً وتكبراً . وقيل : الفرعون بلغة القبط : التمساح (لسان العرب) وقيل فى القاموس القويم : فرعون لقب يسمى به كل ملك فى مصر فى الزمن القديم ، وفرعون موسى هو منفتاح ، وقيل رمسيس الثانى . والعبرة بالأحداث لا بذات فرعون ، قال تعالى : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) ﴾ [طه] والله أعلم.

(٢) وذلك أن السحرة عندما طلبوا الأجر بقولهم : ﴿ .. إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) ﴾ [الأعراف] قال فرعون : ﴿ .. نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) ﴾ [الأعراف] فزادهم القرب منه فوق الأجر ؛ لذلك جاء عقابه لهم شديداً بعدما اتبعوا موسى ؛ لأن ما وعدهم به كان عظيماً ، فجاء العقاب على قدره .

وألقى السحرة عصيِّهم وحبالهم.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

ونحن نعلم أن الحق سبحانه هنا شاء الإجمال ، ولكنه بيَّن بالتفصيل ما حدث ، فى آية أخرى ، قال فيها سبحانه عن السحرة:

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأعراف]

ونحن نعلم أن المواجهة تقتضى من كل خصم أن يدخل بالرعب على خصمه؛ ليضعف معنوياته.

وهنا أوضح لهم موسى - عليه السلام - أن ما أتوا به هو سحر ومجرد تخييل.

وقد أعلم الحق سبحانه نبيه موسى - عليه السلام - أن عصاه ستصير حية حقيقية ، بينما ستكون عصيهم وحبالهم مجرد تخييل [1] للعيون.

وقال لهم موسى - عليه السلام - حكم الله تعالى فى ذلك التخييل :

﴿ .. مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [يونس]

---

(١) والخيال ما تشبَّه لك فى اليقظة أو فى النوم من صورة . والظل : ما يتصوره ذهنك من شىء - والخيال إحدى قوى العقل التى يتخيل بها الأشياء ، ويتصورها .
قال تعالى : ﴿ .. يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه] أى : تشبه له ، ويصور له بسبب سحرهم أنها تسعى كالحيات ، والحقيقة أنها ليست حيَّات ، ولكنه توهُّم وتخيُّل (القاموس القويم) .

وهكذا جاء القول الفصل الذى أنهى الأمر وأصدر الحكم فيما فعل فرعون ومَلَؤُه [١] والسحرة ، فكل أعمالهم كانت تفسد فى الأرض ، ولولا ذلك لما بعث الله سبحانه إليهم رسولاً مؤيَّداً بمعجزة من صنف ما برعوا فيه ، فهم كانوا قد برعوا فى السحر ، فأرسل إليهم الحق سبحانه معجزة حقيقية تلتهم ما صنعوا ، فإن كانوا قد برعوا فى التخييل ، فالله سبحانه خلق الأكوان بكلمة «كُنْ» وهو سبحانه يخلق حقائق لا تخييلات.

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ [٢] وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

فالمسألة التى يشاؤها سبحانه تتحقق بكلمة «كن» فيكون الشيء.

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس]

و«كن فيكون» عبارة طويلة بعض الشيء عند وقوع المطلوب ، ولكن لا توجد عبارة أقصر منها عند البشر ؛ لأن الكاف والنون لهما زمن ، وما يشاؤه الله سبحانه لا يحتاج منه إلى زمن ، والمراد من الأمر «كن» أن الشيء يوجد قبل كلمة «كن» ؛ لأن كل موجود إنما يتحقق ويبرز بإرادة الله تعالى.

ويريد الحق سبحانه هنا أن يبيِّن لنا أن الحق إنما يأتى على ألسنة الرسل ، ومعجزاتهم دليل على رسالتهم ؛ ليضع أنوف المجرمين فى الرَّغام [٣] ،

(١) ملؤه: آل فرعون ومن يرجع إليهم.
(٢) يحق: يثبت ويظهر. بكلماته: بمواعيده [تفسير الجلالين : ص ١٨٦].
(٣) الرغام: التراب. والمراد: إذلالهم وعقابهم على عصيانهم وإجرامهم.

وليريح العالم من إضلالهم ومن مفاسدهم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ[1] مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ[2] أَن يَفْتِنَهُمْ[3] وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ[4] وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ[5] ﴿٨٣﴾ ﴾

وإذا كان السحرة - وهم عُدَّة فرعون وعتاده لمواجهة موسى - أعلنوا الإيمان ، فعاقبهم الفرعون وقال:

﴿ آمنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [طه]

فهذا يدل على أن فكرة الألوهية كانت ما تزال مسيطرة على عقله ؛ ولذلك خاف الناس من إعلان الإيمان ؛ ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس]

وكلمة «ذرية» تفيد الصغار الذين لم تلمسهم خميرة من الفساد الذى كان منتشراً ، كما أن الصغار يتمتعون بطاقة من النقاء ، ويعيشون فى خُلُوٍّ من المشاكل ، ولم يصلوا إلى مرتبة السيادة التى يُحْرَصُ عليها ، ومع ذلك فهم قد آمنوا :

---

(١) ذرية: طائفة (جماعة) من أولاد قوم فرعون [تفسير الجلالين ص ١٨٦]. وقيل: من بنى إسرائيل [مختصر تفسير الطبرى: ص ٢٣٩].

(٢) ملئهم: آل فرعون والمقربون منه والموافقون له.

(٣) يفتنهم: يصرفهم عن دينهم بتعذيبه لهم.

(٤) عال فى الأرض: جبار مستكبر. والمراد بالأرض هنا أرض مصر.

(٥) المسرفين: المتجاوزين الحد بادعاء الربوبية. [تفسير الجلالين: ص ١٨٦].

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ [1] مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ .. (٨٣)﴾ [يونس]

وكلمة ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ﴾ تفيد الاستعلاء، مثل قولنا: «على الفرس» أو «على الكرسى» ويكون المستعلى فى هذه الحالة متمكّناً من «المستعلى عليه»؛ ومن يستعلى إنما يركب المستعلى، ويحمل المستعلى العبء.

ولكن من استعمالات «على» أنها تأتى بمعنى «مع».

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ..(٨)﴾ [الإنسان]

أى: يطعمون الطعام مع حبه.

وحين يأتى الحق سبحانه بحرف مقام حرف آخر فلا بد من علة لذلك.

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ..(٧١)﴾ [طه]

جاء الحق سبحانه بالحرف «فى» بدلاً من «على»؛ ليدل على أن عملية الصلب ستكون تصليباً قوياً، بحيث تدخل أجزاء المصلوب فى المصلوب فيه.

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى:

---

(١) الخوف هو الفزع لتوقع حدوث مكروه، أو فوت أمر محبوب، والخوف ضد الأمن، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش] وقال: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨٢)﴾ [البقرة] أى: فزع لتوقعه ظلم الموصى وجوره خوَّفه جعله يخاف. قال تعالى: ﴿..وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)﴾ [الإسراء] وخوفه فلاناً أى: جعله يخافه يتعدى لمفعولين قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ .. (١٧٥)﴾ [آل عمران].

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ..(٨) ﴾ [الإنسان]

فكأنهم هم المستعلون على الحب؛ ليذهب بهم حيث يريدون .

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ .. (٨٣) ﴾ [يونس]

أى: أنهم فوق الخوف يسير بهم إلى دهاليز توقُّع الآلام [1] .

وهم هنا آمنوا : ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ..(٨٣) ﴾ [يونس]

والكلام هنا من الحق الأعلى سبحانه يبيِّن لنا أن الخوف ليس من فرعون؛ لأن فرعون إنما يمارس التخويف بمن حوله ، فمثلهم مثل زُوَّار الفجر فى أى دولة لا تقيم وزناً لكرامة الإنسان .

وفرعون فى وضعه ومكانته لا يباشر التعذيب بنفسه، بل يقوم به زبانيته.

والإشارة هنا تدل على الخوف من شيعة فرعون وملئهم.

وقال الحق سبحانه هنا: ﴿ يَفْتِنَهُمْ ﴾ ، ولم يقل: «يفتنوهم»؛ ليدلنا على ملحظ أن الزبانية لا يصنعون التعذيب لشهوة عندهم ، بل يمارسون التعذيب لشهوة عند الفرعون.

---

(١) من معانى الحرف (على): الاستعلاء؛ وهو أكثر معانيه استعمالاً، نحو قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٢٥٣) ﴾ [البقرة]. والظرفية؛ نحو قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ..(١٥) ﴾ [القصص] أى: فى حين غفلة. والمصاحبة؛ نحو قوله تعالى: ﴿ .. وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ (٦) ﴾ [الرعد] أى: مع ظلمهم؛ ونحو قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) ﴾ [الإنسان]. أى: مع حبهم للمال. ومن معانيها أيضاً: أن تكون بمعنى (من) نحو قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) ﴾ [المطففين] أى: من الناس. ومن معانى (على) أيضاً: المجاوزة، والتعليل، والإضراب، وأن تكون بمعنى الباء. انظر تفصيل ذلك فى [النحو الوافى: (٢/ ٥٠٩ - ٥١٢)].

وهكذا جاء الضمير مرة جمعاً ، ومرة مفرداً؛ ليكون كل لفظ فى القرآن جاذباً لمعناه.

وحين أراد المفسرون أن يوضحوا معنى (ذرية) قالوا [1] : إن المقصود بها امرأة فرعون (آسية) ، وخازن فرعون ، وامرأة الخازن ، وماشطة فرعون ، ومَنْ آمن منْ قوم موسى - عليه السلام - وكتم إيمانه.

كل هؤلاء منعتهم خشية عذاب فرعون من إعلان الإيمان برسالة موسى؛ لأن فرعون كان جَبَّاراً فى الأرض، مدّعياً للألوهية ، وإذا ما رأى فرعون إنساناً يخدش ادعاءه للألوهية ؛ فلا بد أن يبطش به بطشة فاتكة.

لذلك كانوا على خوف من هذا البطش ، فقد سبق وأن ذبح فرعون - بواسطة زبانيته - أبناء بنى إسرائيل واستحيا نساءهم [2] ، وهم خافوا من هؤلاء الزبانية الذين نفَّذوا ما أراده فرعون.

ولذلك جاء الضمير مرة تعبيراً عن الجمع فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَلَئِهِمْ .. (٨٣) ﴾ [يونس]

وجاء الضمير مفرداً معبراً عن فرعون الآمر فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿ أَن يَفْتِنَهُمْ ..(٨٣) ﴾ [يونس]

---

(١) هذا قول ابن عباس ، ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٩٦) وعلى هذا يكون الضمير فى ﴿قَوْمِهِ﴾ عائداً على فرعون. وقد ذكر القرطبى قولاً آخر - ونسبه للفراء - يجعل الضمير يحتمل عوده على موسى وفرعون فى نفس الوقت، باعتبار أن الذرية أقوام آباؤهم من القبط أى: آل فرعون وأمهاتهم من بنى إسرائيل.

(٢) استحياء النساء: أى : تركهم أحياء. وقد كان بنو إسرائيل واقعين تحت الإيذاء والاستضعاف من قبل أن يأتيهم موسى، فبطش فرعون بهم كان مستمراً، ولذلك قالوا لموسى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ..(١٢٩)﴾ [الأعراف] ، وقد قال سبحانه عن فترة إيذاء فرعون لبنى إسرائيل قبل مجيء موسى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)﴾ [القصص].

فهم خافوا أن يفتنهم فرعون بالتعذيب الذى يقوم به أعوانه.

والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ .. وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس]

والمسرف: هو الذى يتجاوز الحدود. وهو قد تجاوز فى إسرافه وادَّعى الألوهية.

وقد قال الحق سبحانه ما جاء على لسان فرعون:

﴿ ..أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات]

وقال الحق سبحانه أيضاً:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى..﴿٣٨﴾ ﴾[القصص]

وعلا فرعون فى الأرض علوَّ طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين.

وقال الحق سبحانه على لسان فرعون:

﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ [1] وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى ..﴿٥١﴾ ﴾[الزخرف]

إذن: فقد كان فرعون مسرفاً أشد الإسراف.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

---

(١) المصر: البلد العظيم، قال تعالى: ﴿ اهْبِطُوا مِصْراً.. ﴿٦١﴾ ﴾ [البقرة] أى: بلداً عظيماً كبيراً.
ومصر بغير تنوين هى بلادنا العزيزة، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف] [القاموس القويم].

وهنا شرطان ، فى قوله تعالى :

﴿ إن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّه . . (٨٤) ﴾ [يونس]

وجاء جواب هذا الشرط فى قوله سبحانه :

﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا . . (٨٤) ﴾ [يونس]

ثم جاء بشرط آخر هو : ﴿ إن كُنتُم مُّسْلِمِينَ . . (٨٤) ﴾ [يونس]

وهكذا جاء الشرط الأول وجوابه ، ثم جاء شرط آخر ، وهذا الشرط الآخر هو الشرط الأول وهو الإسلام لله ؛ لأن الإيمان بالله يقتضى الإسلام وأن يكونوا مسلمين .

ومثال ذلك فى حياتنا : حين يريد ناظر إحدى المدارس أن يعاقب تلميذاً خالف أوامر المدرسة ونظمها ، ويستعطف التلميذ الناظر ، فيرد الناظر على هذا الاستعطاف بقوله : «إن جئت يوم السبت القادم قَبِلتك فى المدرسة إن كان معك ولىُّ أمرك؛ ومجىء ولى الأمر هنا مرتبط بالموعد الذى حدده الناظر لعودة التلميذ لصفوف الدراسة ، وهكذا نجد أن الشرط الآخر مرتبط بالشرط الأول .

وهنا يتجلَّى ذلك فى قول الحق سبحانه :

﴿ . . إن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إن كُنتُم مُّسْلِمِينَ[1] (٨٤) ﴾ [يونس]

والإيمان - كما نعلم - عملية وجدانية قلبية ، والإسلام عملية ظاهرية ، فمرة ينفذ الفرد تعاليم الإسلام[2] ، وقد ينفك مرة أخرى من

---

(١) لأنه لا إيمان موصول إلا بالإسلام ، ولا إسلام واصل إلا بالإيمان ، فبينهما تلازم حقيقى لبلوغ المراد .

(٢) الإسلام هو الانقياد لله تعالى ولما جاء به الرسول ﷺ من الشرائع والأحكام ، فهو الانقياد الظاهرى لجميع أحكام الإسلام أما الإيمان فهو اعتقاد القلب وتصديقه الجازم الذى لا يدخله شك ، قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا . . (١٤) ﴾ [الحجرات] .

تنفيذ التعاليم رغم إيمانه بالله ، ومرة تجد واحداً ينفذ تعاليم الإسلام نفاقاً من غير رصيد من إيمان.

ولذلك تجد الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ..(٢٥)﴾ [البقرة]

ونجده سبحانه يبيِّن هذا الأمر بتحديد قاطع فى قوله تعالى:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا ..(١٤)﴾ [الحجرات]

والإيمان عملية قلبية ؛ لذلك يأتى الأمر الإلهى:

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ .. (١٤)﴾ [الحجرات]

أى: أنكم تؤدون فروض الإسلام الظاهرية ، لكن الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ..(٨٤)﴾ [يونس]

وهكذا نرى أن التوكل مطلوب الإيمان ، وأن يُسلم الإنسان زمامه فى كل أمر إلى مَنْ آمن به؛ ولذلك لا ينفع الإيمان إلا بالإسلام ، فإن كنتم مسلمين مع إيمانكم فتوكلوا على الله تعالى .

لكن إن كنتم قد آمنتم فقط ولم تسلموا الزمام لله فى التكاليف إلى الله فى «افعل» و «لا تفعل» ، فهذا التوكل لا يصلح.

وهكذا يتأكد لنا ما قلناه من قبل من أنك إذا رأيت أسلوباً فيه شرط تقدم ، وجاء جواب بعد الشرط ، ثم جاء شرط آخر ، فاعلم أن الشرط

الأخير هو المقدَّم ؛ لأنه شرط فى الشرط الأول [1] ، وبالمثل هنا فإن التوكل لن ينشأ إلا بالإسلام مع الإيمان.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً [2] لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ [3] ﴿٨٥﴾ ﴾

أى : أنهم استجابوا لدعوة موسى - عليه السلام - بمجرد قولهم : ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ .

وإذا تقدم الجار على المجرور فمعنى ذلك قَصْر وحَصْر الأمر ، وهنا قصر وحصر التوكل على الله تعالى ، ولا توكل على سواه.

ويأتى بعد ذلك دعاؤهم :

﴿ .. رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [يونس]

والفتنة : اختبار ، وهى - كما قلنا من قبل - ليست مذمومة فى ذاتها ، بل المذموم أن تكون النتيجة فى غير صالح من يمر بالفتنة.

ويقال : فتنت الذهب ، أى : صهرت الذهب ، واستخلصته من كل

(١) يجوز أن تتوالى أداتان - أو أكثر - من أدوات الشرط ، باتصال مباشر ، أو غير مباشر . والتوالى مع الاتصال المباشر يكون الاعتبار فيه للأداة الأولى ؛ فهى وحدها التى تحتاج لشرط وجواب . أما التوالى مع الاتصال غير المباشر فتكون لكل أداة جملتها الفعلية الشرطية التى تليها مباشرة ، وتفصل بينها وبين الأداة الشرطية التى بعدها وتحتاج كل أداة بعد هذا إلى جملة جوابية تخضع لعدة أحكام ، منها أنه إذا كان التوالى بغير عطف فالجواب للأداة الأولى وحدها ما لم تقم قرينة تعين غيرها . أما باقى الأدوات التالية فجواب أى منها محذوف لدلالة جواب الأداة الأولى عليه . . انظر تفصيل ذلك فى [النحو الوافى : ٤/ ٤٨٩ ، ٤٩٠].

(٢) فتنة : موضع عذاب . [كلمات القرآن : للشيخ حسنين محمد مخلوف].

(٣) لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين : أى : لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق ؛ فيفتتنوا بنا . [تفسير الجلالين : ص ١٨٦].

الشوائب ، ونحن نعلم أن صُنَّاع الذهب يخلطونه بعناصر أخرى ؛ ليكون متماسكاً ؛ لأن الذهب غير المخلوط بعناصر أخرى لا يتماسك.

والفتنة التى قالوا فيها:

﴿ ..رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [يونس]

هى فتنة الخوف من أن يرتد بعضهم عن الإيمان لو انتصر عليهم فرعون وعذَّبهم ، وكأنهم يقولون: يا رب لا تسلّط علينا فرعون بعذاب شديد.

هذا إن كانوا مفتونين ، فماذا إن كانوا هم الفاتنين؟

إنهم فى هذه الحالة لو لم يتبعوا الدين التتبع الحقيقى لما علم فرعون وآله أن هؤلاء الذين أعلنوا الإيمان هم مسلمون بحق ، وهم لو انحرفوا عن الدين لقال عنهم آل فرعون: إنهم ليسوا أهل إيمان حقيقى.

ونجد سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وهو أبو الأنبياء وله قدره العظيم فى النبوة ، يقول:

﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ..﴿٥﴾ ﴾ [الممتحنة]

ودعوة إبراهيم عليه السلام تعلمنا ضرورة التمسك بتعاليم الدين؛ حتى لا ينظر أحد إلى المسلم أو المؤمن ويقول: هذا هو من يعلن الإيمان ويتصرف عكس تعاليم دينه.

ولذلك كان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يؤدى الأوامر بأكثر مما يطلب منه ، ويقول فيه الحق سبحانه:

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ [1] ..﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة]

أى: أنه كان يتم كل عمل بنية وإتقان؛ لأنه أسوة [2] ، فلم يقم بعمل

(١) ابتلى: اختبر. بكلمات: بأوامر ونواه كلّفه الله بها.

(٢) أسوة: قدوة حسنة.

إيمانى بمظهر سطحى.

إذن: فإن كانوا هم المفتونين ، فهم يدفعون الفتنة عن أنفسهم ، وإن كانوا هم الفاتنين ؛ فعليهم التمسك بتعاليم الدين ؛ حتى لا يتهمهم أحد بالتقصير فى أمور دينهم ، فيزداد الكافرون كفراً وضلالاً.

وجاء قول الحق سبحانه:

﴿ ..رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) ﴾ [يونس]

ليدل على انشغالهم بأمر الدين ، فاتنين أو مفتونين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) ﴾

وهنا توضح الآية الكريمة أنهم إن كانوا مشغولين بأمر الغير من الكافرين فهذا يعنى أنهم طمعوا فى إيمان العدو؛ لعل هذا العدو يعود إلى رشد الإيمان.

ورسول الله ﷺ يقول: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» [1].

وهم أرادوا إيمان العدو رغم أنه ظالم.

وهكذا يعلّم الحق - سبحانه وتعالى - الخلق أنه من حُمْق العداوة أن يدعو الإنسان على عدوِّه بالشر؛ لأن الذى يتعبك من عدوك هو شرُّه ، ومن صالحك أن تدعو له بالخير ؛ لأن هذا الخير سيتعدى إليك .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ : « والذى نفسى بيده ، لايؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال: لأخيه - ما يحب لنفسه » .

وعلى المؤمن أن يدعو لعدوٍّ بالهداية ، لأنه حين يهتدى ؛ فلسوف يتعدَّى النفع إليك ، وهذه من مميزات الإيمان أن نفعه يتعدَّى إلى الغَيْر.

وهم حين دعوا ألاَّ يجعلهم الله فتنةً للقوم الظالمين ، فإن ذلك يوضِّح لنا أن الظلم درجاتٌ ، وأن فرعون وملأه كانوا فى قمة الظلم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ ..إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

فقمة الظلم أن تأخذ حَقَّ الغير وتعطيه لغير صاحب الحق. وفرعون وملؤه أشركوا بالله - سبحانه وتعالى - فظن فرعون أنه إله ، وصدَّقه من حوله .

فقمة الظلم هو الشرك بالله سبحانه ، ثم بعد ذلك يتنزل إلى الظلم فى الكبائر ، ثم فى الصغائر .

وقولهم فى دعائهم للحق سبحانه :

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يونس]

أى : اجعلنا بنجوةٍ [1] من هؤلاء .

وكان الذى يخيف الأقدمين هو سيول المياه ، حين تتدفَّق ، ولا ينجو إلا مَنْ كان فى ربوةٍ عالية - والنجوة هى المكان المرتفع - وهذا هو أصل كلمة "النجاة" .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسانهم :

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يونس]

(١) النجوة : المرتفع من الأرض . ويقال : هو بنجوة من هذا الأمر : أى : بعيد عنه برىء سالم . [المعجم الوسيط : مادة (ن ج و)].

والرحمة هى الوقاية من أن يجيء الداء.

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

والشفاء إذا وُجد الدَّاء ، والرحمة هى ألاَّ يجيء الداء .

وأراد الحق سبحانه أن يكرم - بعد ذلك - موسى عليه السلام وقومه فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا[1] لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾

وأوضحنا من قبل أن موسى وهارون عليهما السلام رسولان برسالة واحدة ، وأن الوَحْى قد جاء للاثنين برسالة واحدة.

فالحق سبحانه ساعة يختار نبيّاً رسولاً ، فإنما يختاره بتكوينٍ وفطرةٍ تؤهّله لحَمْل الرسالة والنطق بمرادات الله تعالى .

وإذا كان الخَلْق قد صنعوا آلات ذاتية الحركة من مواد جامدة لا فكر لها

---

(١) تبوءا: اتخذا واجعلا. قبلة: مصلى تصلون فيه لتأمنوا من الخوف. وكان فرعون قد منعهم من الصلاة. أقيموا الصلاة: أتموها . وبشر المؤمنين: بالنصر والجنة. [تفسير الجلالين: ص ١٨٦].
وذكر ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٢٨، ٤٢٩) : أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوّءا أى: يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً، واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى: ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .. (٨٧) ﴾ فعن ابن عباس: قال: أمروا أن يتخذوها مساجد. وعن إبراهيم النخعى قال: كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم، وكذا قال غير واحد من علماء التفسير، وكان هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ ..(١٥٣) ﴾ [البقرة]. وقال سعيد بن جبير فى تفسير هذه الآية: (قبلة) أى: يقابل بعضها بعضاً. [من تفسير ابن كثير . . بتصرف].

ولا رَوِيّة [1] ، مثل الساعة التى تُؤذِّن ، أو المذياع الذى يذيع فى توقيت محدد ، إذا كان البشر قد صنعوا ذلك فما بالنا بالله سبحانه الخالق لكل الخلق والكون ومرسل الرسل؟

إنه سبْحانه وتعالى يختار رسله بحيث يسمح تكوين الرسول أن يؤدى المهمة الموكولة إليه فى أى ظرف من الظروف.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس]

يبيِّن لنا أن الوحى شمل كلاً من موسى وهارون عليهما السلام ، بحيث إذا جاء موقف من المواقف يقتضى أن يتكلم فيه موسى ، فهارون أيضاً يمكن أن يتكلم فى نفس الأمر؛ لأن الشحنة الإيمانية واحدة ، والمنهج واحد .

وقد حدث ذلك بعد أن غرق فرعون وقومه ، وخلا لهم الجو ، فجاء لهم الأمر أن يستقروا فى مصر ، وأن يكون لهم فيها بيوت.

ولكن لنا أن نسأل:

هل فرعون هذا هو شخص غرق وانتهى؟

لا .. إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو تصنيف لوظيفة ، وكان لقب كل حاكم لمصر قديماً هو «فرعون» ؛ لذلك لا داعى أن نشغل أنفسنا: هل هو تحتمس الأول ؟ أو رمسيس؟ أو ما إلى ذلك؟ فهب أن فرعون المعنيَّ هنا قد غرق ، ألا يعنى ذلك مجىء فرعون جديد ؟

نحن نعلم من التاريخ أن الأسر الحاكمة توالت ، وكانوا فراعنة ، وكان منهم من يضطهد المؤمنين ، ولا بد أن يكون خليفة الفرعون أشد ضراوةً وأكثر شحنةً ضد هؤلاء القوم .

---

(١) الروية: النظر والتفكير فى الأمور، وهى خلاف البديهة [المعجم الوسيط: مادة (ر و ى)].

وقول الحق سبحانه وتعالى فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا [١] لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا .. (٨٧) ﴾ [يونس]

نجد فيه كلمة « مصر » [٢] وهى إذا أطلقت يُفهم منها أنها « الإقليم » .

ونحن هنا فى بلدنا جعلنا كلمة « مصر » علماً على الإقليم الممتد من البحر المتوسط إلى حدود السودان ، أى : وادى النيل .

ومرة أخرى جعلنا من « مصر » اسماً لعاصمة وادى النيل .

ونحن نقول أيضاً عن محطة القطارات فى القاهرة : « محطة مصر » .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ .. أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا (٨٧) ﴾ [يونس]

نفهم منه أن التبوُّء هو اتخاذ مكان يعتبر مباءةً [٣] ؛ أى : مرجعاً يبوء الإنسان إليه .

التبوُّء - إذن - هو التوطن فى مكان ما ، والإنسان إذا اتخذ مكاناً كوطن له فهو يعود إليه إن ذهب إلى أى بلد لفترة .

(١) تبوأ: نزل وسكن.

(٢) ورد اسم «مصر» فى القرآن الكريم أربع مرات علماً على مصر فرعون فى قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا .. (٨٧) ﴾ [يونس] . وفى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ .. (٢١) ﴾ [يوسف] . وفى قوله تعالى: ﴿ .. وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يوسف] . وفى قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ .. (٥١) ﴾ [الزخرف]. أما قوله تعالى: ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ .. (٦١) ﴾ [البقرة] فقد وقعت فيها كلمة مصر منونة، دلالة على أنه ليس المقصود بها مصر فرعون العلم الأعجمى الذى يُمنع من الصرف والتنوين، فهى مصر من الأمصار أى : بلد من البلاد .

(٣) المباءة: المكان الذى ينزل به الإنسان ويسكن فيه. [لسان العرب: مادة (ب و أ) - بتصرف].

ويعتبر الخروج من الوطن مجرد رحلة تقتضى العودة ، وكذلك البيت بالنسبة للإنسان ؛ فالواحد منا يطوف طوال النهار فى الحقل أو المصنع أو المكتب ، وبعد ذلك يعود إلى البيت للبيتوتة [1].

والبيوت التى أوصى الله سبحانه وتعالى بإقامتها لقوم موسى وهارون - عليهما السلام - كان لها شرط هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ..(٨٧) ﴾ [يونس]

والقبلة هى المتجَه الذى نصلى إليه .

ومثال ذلك : المسجد ، وهو قبلة مَنْ هو خارجه ، وساعة ينادى المؤذن للصلاة يكون المسجد هو قبلتنا التى نذهب إليها ، وحين ندخل المسجد نتجه داخله إلى القبلة ، واتجاهنا إلى القبلة هو الذى يتحكم فى وضعنا الصفِّى .

والأمر هنا من الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ..(٨٧) ﴾ [يونس]

فإقامة البيوت هنا مشروطة بأن يجعلوا بها قبلة لإقامة الصلاة بعيداً عن أعين الخصوم الذين يضطهدونهم ، شأنهم شأن المسلمين الأوائل حينما كان الإسلام - فى أوليته - ضعيفاً بمكة ، وكان المسلمون حين ذاك يصلون فى قلب البيوت ، وهذا هو سر عدم الجهر بالصلاة نهاراً ، وعدم الجهر يفيد فى ألا ينتبه الخصوم إلى مكان المصلين .

وأما الجهر بالصلاة ليلاً وفجراً ، فقد كان المقصود به أن يعلمهم كيفية قراءة القرآن .

---

(١) البيتوتة : مصدر للفعل بات يبيت ، حيث إن البيت هو محل البيات والمبيت . [لسان العرب : مادة (ب ى ت) - بتصرف].

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ..(٨٧) ﴾ [يونس]

وقد يكون المقصود بذلك أن تكون البيوت متقابلة.

وإلى يومنا هذا أنت إن نظرت إلى ساحات [1] اليهود فى أى بلد من بلاد الدنيا تجد أنهم يقطنون حيّاً واحداً، ويرفضون أن يذوبوا فى الأحياء الأخرى..

ففى كل بلد لهم حى يسكنون فيه، ويسمى باسم «حى اليهود». وكانت لهم فى مصر «حارات» كل منها تسمى باسم «حارة اليهود».

وقد شاء الحق - سبحانه وتعالى - ذلك وقال فى كتابه العزيز:

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ .. (٦١) ﴾ [البقرة]

وهم يحتمون بتواجدهم معاً، فإن حدث أمر من الأمور يفزعهم؛ يصبح من السهل عليهم أن يلتقوا.

أو ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ..(٨٧) ﴾ [يونس]

أى: أن يكون تخطيط الأماكن والشوارع التى تُبنى عليها البيوت فى اتجاه القبلة.

وأى خطأ معمارى مثل الذى يوجد فى تربيعة بناء مسجد الإمام الحسين بالقاهرة، هذا الخطأ يوجب الاتجاه إلى اليمين قليلاً مما يسبب بعض

(١) الساحات: جمع ساحة وهى الناحية من البيوت. وهى أيضاً فضاء يكون بين بيوت الحى. وساحة الدار: باحتها. [اللسان مادة: س وح] ومنه قوله تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات] أى: بالمحلة أو الديار التى يسكنونها.

الارتباك للمصلين؛ لأن الانحراف قليلاً إلى اليمين فى أثناء الصلاة يقتضى أن يقصر كل صف خلف الصف الآخر.

وحين نصلى فى المسجد الحرام بمكة ، نجد بعضاً من المصلين يريدون مساواة الصفوف ، وأن تكون الصفوف مستقيمة ، فنجد من ينبه إلى أن الصف يعتدل بمقدار أطول أضلاع الكعبة،ثم ينحنى الصف.

وكذلك فى الأدوار العليا التى أقيمت بالمسجد الحرام نجد الصفوف منحنية متجهة إلى الكعبة.

ولذلك أقول دائماً حين أصلى بالمسجد الحرام: إن معنى قول الإمام: «سووا صفوفكم» أى: اجعلوا مناكبكم [1] فى مناكب بعضكم البعض ، أما خارج الكعبة فيكفى أن نتجه إلى الجهة التى فيها الكعبة ، ونحن خارج الكعبة لا نصلى لعين الكعبة ، ولكننا نصلى تجاه الكعبة؛ لأننا لو كنا نصلى إلى عين الكعبة لما زاد طول الصف فى أى مسجد عن اثنى عشر متراً وربع المتر ، وهو أطول أضلاع الكعبة.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً [2] .. (٨٧) ﴾ [يونس]

أى: خططوا فى إقامة البيوت أن تكون على القبلة ، وبعض الناس يحاولون ذلك ، لكن تخطيط الشوارع والأحياء لا يساعد على ذلك.

ثم يقول الحق سبحانه:

---

(١) المناكب: جمع منكب ، وهو مجتمع عظم العضد والكتف. [لسان العرب: مادة (ن ك ب)].

(٢) القبلة : الوجهة . قال تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة] ، وهى الجهة التى نتجه إليها فى صلاتنا . ومعنى الآية هنا أن يبنوا بيوتهم ، مواجهة للقبلة . أو : اجعلوها قبلة للناس يتجهون إليها لنيل الخير .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ .. (٨٧) ﴾ [يونس]

وهذا الأمر نفهم منه أن الصلاة فيها استدامة الولاء [1] لله تعالى ، فنحن نشهد ألا إله إلا الله مرة واحدة فى العمر ، ونُزكِّى - إن كان عندنا مال - مرة واحدة فى السنة ، ونصوم - إن لم نكن مرضى - شهراً واحداً هو شهر رمضان ، ونحج - إن استطعنا - مرة واحدة فى العمر.

ويبقى ركن الصلاة ، وهو يتكرر كل يوم خمس مرات ، وإن شاء الإنسان فَلْيزِد ، وكأن الحق سبحانه وتعالى هنا ينبه إلى عماد الدين وهى الصلاة.

ولكن مَن الذى اختار المكان فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؟ هل هو موسى وأخوه هارون ؟ أم أن الخطاب لكل القوم ؟

نلحظ هنا أن الأمر بالتبوّء هو لموسى وهارون - عليهما السلام - أما الأمر بالجعل فهو مطلوب من موسى وهارون والأتباع ؛ لذلك جاء الجعل هنا بصيغة الجمع.

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾ [يونس]

وفى هذا تنبيه وإشارة إلى أن موسى هو الأصل فى الرسالة ؛ لذلك جاء له الأمر بأن يحمل البشارة للمؤمنين.

ونلحظ هنا فى هذه الآية أن الحق سبحانه جاء بالتثنية فى التبوء ، وجاء بالجمع فى جعل البيوت ، ثم جاء بالمفرد فى نهاية الآية لينبهنا إلى أن موسى - عليه السلام - هو الأصل فى الرسالة إلى بنى إسرائيل.

---

(١) الولاء : الحب والنصرة . يقول سبحانه : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤) ﴾ [الأنفال] .

والبشرى على الأعمال الصالحة تعنى: التبشير بالجنة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ(1) عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ(2) عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟(3) ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾

والزينة: هى الأمر الزائد عن ضروريات الحياة ومقوماتها الأولى، فاستبقاء الحياة يكون بالمأكل لأى غذاء يسدُّ الجوع، وبالمشرب الذى يروى العطش.

أما إن كان الطعام منوَّعاً فهذا من ترف الحياة، ومن ترف الحياة الملابس التى لا تستر العورة فقط، بل بالزى الذى يتميز بجودة النسج والتصميم والتفصيل.

وكذلك من ترف الحياة المكان الذى ينام فيه الإنسان، بحيث يتم تأثيثه

---

(١) اطمس على أموالهم: قال ابن عباس ومجاهد: أى: أهلكها. وقال الضحاك وآخرون: جعلها الله حجارة منقوشة.

(٢) واشدد على قلوبهم: اطبع عليها. وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه، على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجىء منهم شىء. [ذكره ابن كثير فى تفسيره: ٢/ ٤٢٩].

(٣) رأى: نظر بعينه كأبصر. ورأى بفكره وقلبه بمعنى: علم. ورأى: اعتقد. ورأى فى نومه رؤيا: حلم. والرؤيا: الحلم فى النوم. ورأى: هنا هى البصرية. أى: حتى يروا العذاب بأعينهم ويعاينوه معاينة.

بفاخر الرياش [1] ، ولكن الضرورة في النوم يكفي فيها مكان على الأرض ، وأي فراش يقي من برودة الأرض أو حرارتها.

إذن : فالزائد عن الضرورات هو زينة الحياة ، والزينة تأتي من الأموال، والرصيد الأصيل في الأموال هو الذهب ، ثم تأخذ الفضة المرتبة الثانية.

ومن مقومات الاقتصاد أن الذهب يعتبر قيمة الرصيد لغنى أية دولة ، مهما اكتشفوا من أحجار أغلى من الذهب.

وهذه الأحجار الكريمة - كالماس مثلاً - إن كُسرت أو خُدشت تقل قيمتها ، لكن الذهب مهما تفتَّت فأنت تعيد صَهْرَه ، فتستخلَص ذهباً مُجمَّعاً.

وكان الفراعنة الأقدمون يحكمون مصر حتى منابع النيل ، وكانوا يسخِّرون الناس في كل الأعمال ، حتى استخراج الذهب سواء من المناجم أو من غربلة رمال بعض الجبال لاستخلاص الذهب منها .

وأنت قد تستطيع استخلاص الذهب من أماكن معينة ، ولكن الفرق دائماً إنما يكون في القيمة الاقتصادية لاستخراج الذهب ، فحين يكون المنجم وفير العطاء ، فيه كثير من عروق الذهب ، هنا يصبح استخراج الذهب مسألة مربحة اقتصادياً .

أما إن كانت التكلفة أعلى من القيمة الاقتصادية للذهب المستخرج ، فلا أحد يستخرج هذا الذهب.

---

(١) الرياش والريش: الخصب، والمعاش، والمال، والأثاث واللباس الحسن الفاخر. قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف].

وأنت إن نظرت إلى زينة الفراعنة تجد قناع «توت عنخ آمون» آية فى الجمال ، وكذلك كانت قصورهم فى قمة الرفاهية ، ويكفى أن ترى الألوان التى صنعت منها دهانات الحوائط فى تلك الأيام؛ لتعرف دقة الصنعة ومدى الترف ، الذى هو أكثر بكثير من الضرورات.

وفى هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ .. (٨٨) ﴾ [يونس]

وهم لم يَضلُّوا فقط بل أرادوا أن يُضلّوا غيرهم ؛ لذلك تحملوا وِزْر ضلالهم ، ووِزر إضلال غيرهم.

فهل أعطاهم الله سبحانه المال والزينة للضلال والإضلال ؟

لا ، فليس ذلك علة العطاء، ولكن هناك لام العاقبة ، مثلما تعطى أنت ابنك عشرة جنيهات وتقول له : افعل بها ما تريد ، وأرجو أن تتصرف فيها تصرفاً يعود عليك بالخير. وقد ينزل هذا الابن ليشترى شيئاً غير مفيد ولا يشترى - مثلاً - كتباً تفيده.

هنا أنت أعطيت هذا الابن قوة شرائية لكنه لم يحسن التصرف فيها ، وغاية الاختيار هَدَتْه إلى اللعب. وهذا ما يسمى لام العاقبة ، ولام العاقبة لا يكون المقصود بها سبب الفعل ، ولكنها تأتى لبيان عاقبة الفعل[1].

وحين أراد الحق سبحانه وتعالى أن ينجى موسى - عليه السلام - فى طفولته من القتل أوحى إلى أم موسى - عليهما السلام - بقوله تعالى:

---

(١) أى: أن فرعون لم تكن علة التقاطه لموسى أن يكون عدواً له بل ليتخذه ولداً ، وأضافت امرأته أن يكون قرة عين لها ولفرعون، ولكن كانت العاقبة غير ذلك ، أى: أن ما حدث كان عكس ما كان يريده فرعون.

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ [١] وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي..(٧)﴾ [القصص]

ولا توجد أم تُقبل على تنفيذ مثل هذا الأمر ؛ لأنه موت محقق؛ لأن الابن إن خُطف أو فُقد فهذا كله موت مظنون ، أما إلقاؤه فى الماء فليس فيه موت مظَنون ، بلَ موت مؤكد ، إن لم يُنجِّه الله تعالى .

ولكن أم موسى - لإيمانها بالله - فعلت ما أوحى به الله - سبحانه وتعالى - لها ؛ لأن الوارد من الله تعالى لا يجد فى الفطرة منازعاً له.

أما نزغات الشيطان فهى تجد ألف منازع لها فى النفس ، وكذلك هواجس النفس .

ولذلك نفَّذت أم موسى ما أوحى الله تعالى به إليها ، وإن كان مخالفاً للعقل والمنطق.

وحين التقطه آل فرعون ، وقد كانوا يقتلون الأطفال [٢] ، وألقى الحق سبحانه وتعالى محبة موسى فى قلوبهم ، قال :

﴿..وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي (٣٩)﴾ [طه]

فهم ساعة رؤيتهم لموسى - عليه السلام - وهو طفل ، أحبُّوه فلم يقتلوه ، وهكذا نفذت مشيئة الله تعالى ووعده لأمه :

﴿.. إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص]

أى: أن لموسى - عليه السلام - مهمة مسبقة أرادها له الحق سبحانه .

---

(١) اليم: الماء الكثير المجتمع . والمراد به: نهر النيل فى مصر .

(٢) كان فرعون وزبانيته يذبحون أبناء بنى إسرائيل ويستحيون نساءهم بعد أن سمع فرعون النبوءة التى قيلت عن أن ولداً من بنى إسرائيل سيقضى على فرعون. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)﴾ [القصص] وقال تعالى: ﴿.. وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)﴾ [القصص].

ولذلك نجد أن هناك أوامر متتابعة جاء بها القرآن الكريم في مسألة إلقاء أم موسى لابنها ، فقال الحق سبحانه :

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ [1] فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ [2] ..(٣٩)﴾ [طه]

وكلها أوامر من الحق سبحانه ، فتراه زوجة فرعون فتقول لزوجها :

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ [3] لِّي وَلَكَ ..(٩)﴾ [القصص]

فهل كان فرعون يعلم أن هذا الطفل الذى التقطه سيكون عدواً له ؟

لا ، لقد التقطه وأعطاه حياة الترف ؛ ليكون قُرَّة عين له ، وهذه علة الالتقاط ، ولكن العاقبة انتهت إلى أن يكون عدواً ؛ ولو كانت العلة هى العداوة لما التقطه فرعون أو لقتله لحظة الالتقاط .

ولذلك يترك الحق سبحانه وتعالى فى كونه أشياء تكسر مكر البشر ؛ فأخذه فرعون وربَّاه ، وكانت العاقبة غير ما كان يتوقع فرعون .

وقول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصددها : ﴿لِيُضِلُّوا﴾ نفهم منه أن - سبحانه وتعالى - لم يُعْطِهم المال ليضلوا ، ولكنهم هم الذين اختاروا الضلال .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى الكثير من الناس مالاً وجاهاً وأرادوا به الخير ، وهكذا نرى اختيار الإنسان ، إن له أن يضل أو يهتدى .

وقد قال موسى عليه السلام تنفيساً عن نفسه :

---

(١) التابوت : الصندوق الذى وضعت فيه أم موسى ابنها قبل إلقائه فى اليم ؛ ليحفظه من الماء .

(٢) الساحل : شاطىء النهر القريب من قصر فرعون .

(٣) قرة عين : مسرة وفرح . [كلمات القرآن : للشيخ حسنين محمد مخلوف] .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس]

ومعنى الطمس أى: إخفاء المعالم؛ مثل قول الحق سبحانه:

﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ [1] وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا .. (٤٧) ﴾ [النساء]

ومعنى الطمس هنا: إخفاء معالم تلك الوجوه ؛ فتكون قطعة واحدة بلا جبهة أو حواجب أو عينين أو أنف أو شفاه أو ذقن.

إذن: فالطمس هو إهلاك الصورة التى بها الشيء. ودعوة موسى - عليه السلام - هنا:

﴿ اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس]

أى: امسخها.

وقال بعض الرواة [2] أنها مُسخت ، فمن كان يملك بعضاً من سبائك الذهب وجدها حجارة ، ومن كان يملك أحجاراً كريمة كالماس وجدها زجاجاً.

أو أن ﴿ اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس]

أى: أذهبهما ؛ لأن الأموال كانت وسيلة إضلال.

---

(١) وردت مادة «الطمس» بالقرآن الكريم فى خمسة مواضع ، هى قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ . (٦٦) ﴾ [يس] ، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) ﴾ [القمر] ، وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) ﴾ [المرسلات] ، وقوله تعالى: ﴿ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا .. (٤٧) ﴾ [النساء] ، وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس].

(٢) قاله ابن عباس ومحمد بن كعب القرظى: صارت أموالهم ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأثلاثاً وأنصافاً، ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم ينتفع به أحد بعد.

وقوله عليه السلام بعد ذلك :

﴿ .. وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يونس]

أى: أحْكِمْ يا رب الأربطة على تلك القلوب ؛ فلا يخرج ما فيها من كفر ، ولا يدَخل ما هو خارجها من الإيمان؛ لأن هؤلاء قد افتروا افتراءً عظيماً ، وأن تظل الأربطة على قلوبهم؛ حتى يروا العذاب الأليم.

ولماذا دعا موسى - عليه السلام - على آل فرعون هذا الدعاء ، ولم يَدْعُ مثلما دعا سيدنا محمد ﷺ : «اللهم اهْدِ قومى فإنهم لا يعلمون» ؟

والإجابة: لا بد أن الحق سبحانه وتعالى قد أطلعه على أن هؤلاء قوم لن تفلح فيهم دعوة الإيمان.

وكان خوف موسى - عليه السلام - لا من ضلال قوم فرعون ، ولكن من استمرار إضلالهم لغيرهم.

إذن: فقد دعا عليهم موسى - عليه السلام - بما جاء فى هذه الآية :

﴿ ..رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يونس]

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ..﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر]

وهكذا يتبين لنا الفارق بين إيمان الإلجاء والقصر [(١)] وبين إيمان الاختيار [(٢)].

---

(١) القصر والقسر: الإجبار على كره. ومنه: قصرت نفسى على الشىء إذا حبستها عليه وألزمتها إياه. انظر [لسان العرب مادة: قصر ، قسر].

(٢) قال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] وقال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان]

فحين يأتى الرسول داعياً إلى الإيمان يصبح من حق السامع لدعوته أن يؤمن أو أن يكفر ؛ لأن الله تعالى قد خلق الإنسان وله حق الاختيار ، أما إيمان الإلجاء والقصر فهو لا ينفع الإنسان.

ومثال ذلك : فرعون ، فساعة أن جاءه العذاب أعلن الإيمان [1] . فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ..حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس]

وإذا كان موسى - عليه السلام - قد دعا على قوم فرعون ، فقد سبقه نوح عليه السلام فى مثل هذا الدعاء مما أورده القرآن فى قوله :

﴿ ..رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً [2] (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً (٢٧) ﴾ [نوح]

واستجاب الحق سبحانه لدعوة موسى عليه السلام :

(١) قال تعالى : ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس] . قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل : هو من قول جبريل أو ميكائيل عليهما السلام . ففرعون الذى قال : ﴿ .. أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤) ﴾ [النازعات] وقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى.. (٣٨) ﴾ [القصص] جاء الآن عندما عاين الموت وآية الله على صدق موسى فنطق بالإيمان ، ورب العزة سبحانه يقول : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) ﴾ [الأنعام] .

(٢) دياراً : أحداً . أى : استئصال كل نسمة كافرة من قوم نوح ، حتى طال هذا ولده من صلبه ، وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٢٧) حديث ابن عباس ، وعزاه لابن أبى حاتم أن رسول الله ﷺ قال : «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم امرأة ، لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل ، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها ، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها ، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها ، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة» . قال ابن كثير : هذا حديث غريب ، ورجاله ثقات .

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

ويلاحظ أن الذى دعا هو موسى عليه السلام ، ولكن قوله سبحانه : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. ﴿٨٩﴾ ﴾ يدل على أن هارون - عليه السلام - قد دعا مع موسى .

وقد قلنا من قبل : إننا إن نظرنا إلى الأصالة فى الرسالة لوجدنا موسى - عليه السلام - هو الأصيل فيها ، وجاء هارون ليشد عضده[1] ، وإن نظرنا إلى طبيعة الاثنين فكل منهما رسول ، والاثنان لهما رسالة واحدة .

وما دام الحق سبحانه قد أرسل الاثنين لمهمة واحدة ، فإن انفعل واحد منهما لشىء فلا بد أن ينفعل الآخر لنفس الشىء ؛ لذلك فلا يوجد ما يمنع أن هارون ساعة سمع أخاه داعياً بمثل هذا الدعاء ، قد دعا هو أيضاً بالدعاء نفسه ، أو أنه - أى : هارون - قد دعا بهذا الدعاء سراً .

والدعاء معناه : أنك تفزع إلى من يقدر على تحقيق ما لا تقدر عليه ، فأنت لا تدعو إلا فى أمر عَزَّتْ عليك أسبابه ؛ فتقول : إن لى رباً أومن به ، وهو يقدر على الأسباب لأنه خالق الأسباب ، وقادر على أن يعطى بلا أسباب ، والمؤمن الحق يستقبل الأحداث ، لا بأسبابه ، ولكن بقدرة مَنْ آمن به ، وهو المسبِّب الأعلى سبحانه .

ولذلك تجد موسى عليه السلام ومعه قومه حين وصلوا إلى شاطىء البحر ، وكان من خلفهم قوم فرعون يطاردونهم ، فقال قوم موسى :

---

(١) العضد من الإنسان وغيره : الساعد ، وهو ما بين المرفق إلى الكتف ، والمراد بالعضد هنا : العون والمساعدة . قال تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص] .

﴿ ..إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء]

فَرَدَّ موسى عليه السلام:

﴿ .. كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

أى: لا ترتِّبوا الأمر بترتيب البشر ؛ لأن معى رب البشر ، فجاءه الإنقاذ:

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ [1] (٦٣) ﴾ [الشعراء]

إذن: فالدعاء إنما يكون فزعاً إلى من يقدر على أمر لا تقدر عليه.

والموضوع الذى كان يشغل موسى وهارون عليهما السلام هو بقاء آل فرعون على ضلالهم وإصرارهم على إضلال غيرهم ، فلا بد أن يدعو كل منهما نفس الدعاء ، ومثل هذا نجده فى غير الرسل ونسميه «التخاطر» ، أى: التقاء الخواطر فى لحظة واحدة.

ومثال ذلك فى التاريخ الإسلامى ، لحظة أن كان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه مشغولاً بالتفكير فى جيش المسلمين المقاتل فى إحدى المعارك ، وكان عمر فى المدينة يخطب على المنبر ، فإذا به يقول فجأة : «يا سارية [2] الجبل» وهى كلمة لا موضع لها فى منطق الخطبة ، ولكن كان فكره مشغولاً بالقائد الذى يحارب ، وسمع القائد - وهو على البعد - الأمر ؛ فانحاز إلى الجبل.

(١) الفرق: الجزء. والطود: الجبل الكبير. [تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٣٦)].

(٢) هو سارية بن زنيم الدئلى. أمّره عمر بن الخطاب على جيش وسيّره إلى فارس سنة ٢٣ هـ ، فوقع فى خاطر عمر وهو يخطب يوم الجمعة أن الجيش المذكور لاقى العدو وهم فى بطن واد قد هموا بالهزيمة وبالقرب منهم جبل فقال فى أثناء خطبته «يا سارية: الجبل ، الجبل» ورفع صوته فألقاه الله فى سمع سارية فانحاز بالناس إلى الجبل ، وقاتلوا العدو من جانب واحد ، ففتح الله عليهم وانتصروا. [الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى: ٢/ ٥٢ ، ٥٣].

ويقال فى هذه المسألة : إن الخاطر قد شغل مع الخاطر ، مثلما تطلب أحداً فى الهاتف فيرد عليك الشخص الذى تريد الكلام معه قائلاً : لقد كنت على وشك أن أتصل بك هاتفياً ، وهذا يعنى أن الخاطرين قد انضبطا معاً.

وإذا كان هذا ما يحدث فى حياتنا العادية ، فما بالنا بما يحدث فى الأمور الصفائية ؛ وفى أرقى درجاتها وهى النبوة ؟

أو أن الذى دعا هو موسى وما كان هارون إلا مؤمِّناً [1] ، والمؤمِّن هو أحد الداعيين ، وما دام الحق سبحانه قد قَبِل دعوة موسى عليه السلام ، فقد قَبِل أيضاً دعوة المؤمِّن معه.

ويظن بعض الناس أن إجابة الدعوة هى تحقيق المطلوب فور الدعاء ، ولكن الحقيقة أن إجابة الدعوة هى موافقة على الطلب ، أما ميعاد إنجاز الطلب ، فقد يتأجل بعض الوقت ، مثلما حدث مع دعوة موسى عليه السلام على فرعون وملئه ، فحين دعا موسى ، وأمَّن هارون ، جاءت إجابة الدعاء : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. (٨٩) ﴾ بعد أربعين عاماً ، ويحقق الله سبحانه الطمس على المال.

فالسماء ليست موظفة عند من يدعو ، وتقبل أى دعاء ، ولكن قبول الدعوة يقتضى تحديد الميعاد الذى تنفذ فيه.

وهذه أمور من مشيئة الله سبحانه ؛ فالحق سبحانه وتعالى منزَّه عن أن يكون منفِّذاً لدعاء ما ، ولكنه هو الذى بيده مقاليد كل أمر ، فإذا ما أجيبت دعوة ما ، فهو سبحانه بمشيئته يضع تنفيذ الدعوة فى الميعاد الملائم ؛ لأنها لو أجيبت على الفور فقد تضر.

---

(١) التأمين : هو قولهم آمين وراء الداعى . ومنه التأمين فى الصلاة وراء الإمام.

والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ وَيَدْعُ الإنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً [1] (١١) ﴾ [الإسراء]

لذلك يحدد الحق سبحانه ميعاد تطبيق الدعوة فى مجال التنفيذ والواقع.

وهو سبحانه وتعالى يقول:

﴿ .. سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُون [2] (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

والإنسان يعرف أنه قد يكون قد دعا بأشياء، فحقق الله سبحانه الدعاء وكان شراً، وكم من شىء يدعو به الإنسان ولم يحققه الله تعالى وكان عدم تحقيقه خيراً.

إذن: فالقدرة العليا رقيبة علينا، وتعلم ما فى صالحنا؛ لأننا لسنا آلهة تأمر بتنفيذ الدعوات، بل فوقنا الحكيم الأعلى سبحانه.

ولذلك نقول فى بيان قول الحق سبحانه:

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم [3] بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ [4] .. (١١) ﴾ [يونس]

---

(١) عجولاً: صيغة مبالغة من العجل والعجلة وهو السرعة. والمراد: أن الإنسان مجبول على حب الخير، وعلى العجلة فى طلبه لنفسه، ويلح فى الدعاء، حتى لو كان الأمر شراً وهو يظن بجهله أنه خير. قال تعالى: ﴿ خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ .. (٣٧) ﴾ [الأنبياء]. وقال تعالى: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل].

(٢، ٣) عجل يعجل - عجلاً وعجلة. واستعجل استعجالاً. قال تعالى: ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ .. (١٥٠) ﴾ [الأعراف] وقال: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) ﴾ [طه] وعجل الأمر: طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة. وعجل الأمر: سبقه. [القاموس القويم].

(٤) الأجل: المدة من الزمن، والمراد: العمر.

لأن الإنسان قد يدعو بالشر على نفسه [1]، ألا تسمع أمّاً تدعو على ابنها أو ابنتها رغم حبها لهما ، فلو استجاب الله لدعائها على أولادها الذين تحبهم أليس فى ذلك شر بالنسبة للأم .

والولد قد يقول لأمه مغاضباً : يا رب تحدث لى حادثة ؛ حتى تستريحى منى . فهَبْ أن الله استجاب لهذا الدعاء ، أيرضى ذلك من دعا على نفسه أو يرضى أمه ؟

طبعاً لا ؛ فإذا كان الله سبحانه قد أبطأ عليك بدعاء الشر فهذا خير لك ، فعليك أن تأخذ إبطاء الله سبحانه عليك بدعاء الخير على أنه خير لك .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يقول لموسى وهارون عليهما السلام :

﴿ .. قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾

[يونس]

أى : ابقيا على الطريق السوى ، ولا تُدْخِلا نفسيكما فيما لا علم لكما به . أليس الحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ

---

(١) ثبت فى صحيح مسلم النهى عن الدعاء على النفس والأولاد والأموال ، فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : سرنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة بطن بواط وهو يطلب المجدى بن عمرو الجهنى ، وكان الناضح يعتقبه منا الخمسة والستة والسبعة ، فدارت عقبة رجل من الأنصار على ناضح له فأناخه فركبه ثم بعثه فتلدن عليه بعض التلدن فقال له : شأ لعنك الله . فقال ﷺ : «من هذا اللاعن بعيره» ؟ قال : أنا يا رسول الله . قال : «انزل عنه فلا تصحبنا بملعون ، لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم» أخرجه مسلم (٣٠٠٩) .

فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ [١] أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾

[هود]

أى: كُنْ مؤدَّباً مع ربك حين تدعو وتنفَّس عن نفسك ، ودَعْ لحكمة الحكيم الإجابة أو عدمها ، وقد تكون الإجابة فورية أو مؤجَّلة إلى حين أوانها ، وكلاهما خير .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ [٢] (٩٠) ﴾

قال الحق سبحانه :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ .. (٩٠) ﴾ لأن الاجتياز لم يكن بأسباب بشرية ، بل بفعل يخرج عن أسباب البشر ، فلو أن موسى عليه السلام قد حفر نفقاً تحت الماء ، أو لو كان قد ركب سفناً هو وقومه لكان لهم مشاركة

(١) الوعظ : النصح بالطاعة والعمل الصالح الإرشاد إلى الخير . قال ابن سيده : هو تذكيرك للإنسان بما يُلَيِّن قلبه من ثواب وعقاب . [ذكره ابن منظور فى اللسان مادة : وعظ] . قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٦٦) : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ .. (٤٦) ﴾ [هود] . أى : إنى أنهاك عن هذا السؤال وأحذرك لئلا تكون من الجاهلين . أى: الآثمين . قال ابن العربى : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين .

(٢) أتبعهم: اتبع أثرهم ؛ ليدركهم. وكان موسى وقومه بنو إسرائيل فى خروجهم ستمائة ألف وعشرين ألفاً، وتبعهم فرعون مصبحاً فى ألفى ألف وستمائة ألف. بغياً وعدواً: أى: فى حال بغى وظلم واعتداء. وقال المفسرون: بغياً: طلباً للاستعلاء بغير حق فى القول ، «وعدواً» فى الفعل. أدركه الغرق: ناله ووصله. قال آمنت: أى: صدَّقت ، أو آمنت - والإيمان لا ينفع حينئذ ، والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس. [ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٠٤ ، ٣٣٠٥) - بتصرف].

فى اجتياز البحر ، لكن المجاوزة كانت بأسباب غير ملحوظة بالنسبة للبشر ، فالحق سبحانه هو الذى أوحى لموسى :

﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ..﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء]

ومياه البحر كأية مياه أخرى تخضع لقانون السيولة ، والاستطراق [1] هو وسيلة السيولة ، وهى عكس التجمد الذى يتسم بالتحيز.

والاستطراق هو الذى قامت عليه أساليب نقل المياه من صهاريج المياه التى تكون فى الأغلب أعلى من طول أى منزل ، ويتم ضخ المياه إليها ؛ لتتوزع من بعد ذلك حسب نظرية الأوانى المستطرقة على المنازل ، أما إذا كانت هناك بناية أعلى طولاً من الصهريج ، هنا يقوم سكان المبنى بتركيب مضخة لرفع المياه إلى الأدوار العالية.

وإذا كان قانون البحر هو السيولة والاستطراق ، فكيف يتم قطع هذا الاستطراق؟

يقول الحق سبحانه :

﴿..فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء]

فكيف تحول الماء إلى جبال يفصل بينها سراديب وطرق يسير فيها موسى عليه السلام وقومه؟

كيف يسير موسى وقومه مطمئنين ؟

لا بد أنها معية الله سبحانه التى تحميه ، وهى تفسير لقول الحق سبحانه :

﴿.. إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء]

---

(١) الاستطراق : عدة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال ، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أفقية ، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أفقى واحد فى جميع الأنابيب. [المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية].

ورغم ذلك يتبعهم فرعون وجنوده لعله يدركهم ، وأراد سيدنا موسى - عليه السلام - بمجرد نجاحه فى العبور هو وقومه أن يضرب البحر بعصاه ؛ ليعود إلى قانون السيولة ، ولو فعل ذلك لما سمح لفرعون وجنوده أن يسيروا فى الممرات التى بين المياه التى تحولت إلى جبال ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - يريد غير ذلك ، فقد أراد الحق سبحانه أن ينجى ويهلك بالشيء الواحد ، فأوحى لموسى عليه السلام:

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا [1] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾ [الدخان]

أى: اترك البحر على حاله ؛ فينخدع فرعون وجنوده ، وما إن ينزل آخر جندى منهم إلى الممر بين جبال الماء ؛ سيعود البحر إلى حالة السيولة فيغرق فرعون وجنوده ، وينجو موسى وقومه.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ .. (٩٠) ﴾ [يونس]

فهل كان هذا الإتباع دليل إرادة الشر ؟

أكان من الممكن أن تكون نية الفرعون أن يدعو موسى وقومه إلى العودة إلى مصر ليستقروا فيها؟

لا ، لم تكن هذه هى نية الفرعون ؛ لذلك قال الحق سبحانه عن هذا الإتباع: ﴿ بَغْيًا وَعَدْوًا .. (٩٠) ﴾ [يونس]

أى: أنه اتباع رغبة فى الانتقام والإذلال والعدوان .

ويصور القرآن الكريم لحظة غرق فرعون بقوله:

---

(١) قال الأزهرى: رهواً ساكناً من نعت موسى ، أى: على هَيْنَتِكَ. قال: وأجود منه أن تجعل رهواً من نعت البحر ، وذلك أنه قام فرْقاه ساكنين فقال لموسى: دع البَحر قائماً ماؤه ساكناً واعبر أنت البحر. [ذكره ابن منظور فى اللسان ، مادة: رها] فقوله تعالى : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا .. (٢٤) ﴾ [الدخان] أى : ساكن الأمواج ليغتروا فينزلوا فيه .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ ..(٩٠) ﴾ [يونس]

والإدراك: قصد للمدرك أن يلحق بالشيء ، والغرق معنى ، فكيف يتحول المعنى إلى شيء يلاحق الفرعون ؟

نعم ، فكأن الغرق جندى من الجنود ، وله عقل ينفعل ؛ فيجرى إلى الأحداث :

﴿ ..حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ[1] (٩٠) ﴾ [يونس]

والإيمان إذا أطلق فهو الإيمان بالقوة العليا ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى قد قال:

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا.. (١٤) ﴾ [الحجرات]

لأن الإيمان يتطلب انقياد القلب ، والإسلام يقتضى اتباع أركان الإسلام ، فالإيمان كما قال رسول الله ﷺ : « قل آمنت بالله ثم استقم »[2]. وفى هذا القول ذكر محدد بأن الإيمان إنما يكون لله الأعلى.

لكن لو قلت - مثلاً: «آمنت أنك رجل طيب» فهذا إيمان له متعلق ، أما إذا ذُكر الإيمان بإطلاق فهو ينصرف إلى الإيمان بالله تعالى ؛ ولذلك قال الله سبحانه للأعراب:

﴿ وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ..(١٤) ﴾ [الحجرات]

---

(١) وأنا من المسلمين ، أى: من الموحدين المستسلمين بالانقياد والطاعة. وهو قول متأخر جداً جاء بعد فوات الأوان.

(٢) عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: «قل آمنت بالله ثم استقم». أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٨) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٨٥).

وهنا يأتى القول على لسان فرعون:

﴿ . .آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس]

والخلاف هنا كان بين الفرعون كجهة كفر ، وبين موسى وهارون وقومهما كجهة إيمان ، وأعلن فرعون إيمانه ، وقال أيضاً :

﴿ . .وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس]

ولم يقبل الله ذلك منه بدليل قول الحق سبحانه:

﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾[1]

وهذا يعنى: أتقول إنك آمنت الآن وإنك من المسلمين. إن قولك هذا مردود ؛ لأنه جاء فى غير وقته ، فهناك فرق بين إيمان الإجْبار وإيمان الاختيار ، أتقول الآن آمنت وأنت قد عصيت من قبل ، وكنت تفسد فى الأرض.

وكان من الممكن أن يقبل الله سبحانه منه إيمانه وهو فى نجوة[2] بعيدة عن الشر الذى حاق[3] به.

---

(١) قيل: هو من قول الله تعالى. وقيل: هو من قول جبريل. وقيل: ميكائيل ، أو غيرهما من الملائكة – عليهم السلام – وقيل: هو من قول فرعون فى نفسه ، ولم يكن ثَمَّ قول باللسان ، بل وقع ذلك فى قلبه فقال فى نفسه ما قال حيث لم تنفعه الندامة. ونظيره: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ . .(٩) ﴾ [الإنسان] أثنى عليهم الرب سبحانه بما فى ضميرهم ، لا لأنهم قالوا ذلك بلفظهم. والكلام هنا هو كلام القلب. [ذكره القرطبى فى تفسيره ٤/ ٣٣٠٦] – بتصرف.

(٢) النجوة: ما ارتفع من الأرض.

(٣) حاق به الشيء يحيق حيقاً: نزل به ، وأحاط به. وقيل: الحيق فى اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عاقبة مكروه فَعَلَه. قال تعالى: ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) ﴾ [غافر] وقال تعالى: ﴿ . .إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) ﴾ [الأحقاف].

فالحق سبحانه لا يقبل إيمان أحد بلغت روحه الحلقوم ، فهذا إيمان إجبار ، لا إيمان اختيار.

ولو كان المطلوب إيمان الإجبار لأجبر الحق سبحانه الخلق كلهم على أن يؤمنوا ، ولما استطاع أحد أن يكفر بالله تعالى ، وأمامنا الكون كله خاضع لإمرة الله - سبحانه وتعالى - ولا يتأبى فيه أحد على الله تعالى.

وقدرة الحق - عز وجل - المطلقة قادرة على إجبار البشر على الإيمان ، لكنها تثبت طلاقة القدرة ، ولا تثبت المحبوبية للمعبود.

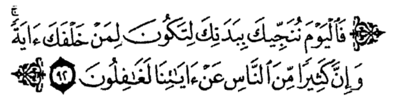
وهذه المحبوبية للمعبود لا تثبت إلا إذا كان لك خيار فى أن تؤمن أو لا تؤمن. والله سبحانه يريد إيمان الاختيار [(١)].

إذن: فالمردود من فرعون ليس القول ، ولكن زمن القول.

ويقال: إنها رُدَّتْ ولم تُقبل - رغم أنه قالها ثلاث مرات - لأن قوم موسى فى ذلك الوقت كانوا قد دخلوا فى مرحلة التجسيم لذات الله وادعوا - معاذ الله - أن الله - تعالى الله عما يقولون - جلس على صخرة وأنزل رجْليه فى حوض ماء ، وكان يلعب مع الحوت .. إلى آخر الخرافاتَ التى ابتدعها بنو إسرائيل .

وحين أعلن فرعون أنه آمن بالإله الذى آمنت به بنو إسرائيل ، فهذا يعنى أنه لم يؤمن بالإله الحق سبحانه.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:



(١) يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩)﴾ [يونس].

ونحن نعرف أن الإنسان مكوَّن من بدن ، وهو الهيكل المادى المصوَّر على تلك الصورة التى نعرفها ، وهناك الروح التى فى البدن ، وبها تكون الحركة والحياة.

وساعة نقول : «بدن» ، فافهم أنها مجردة عن الروح ، مثلما نقول: جسد . وإذا أطلقت كلمة «جسد» فمعناها الهيكل المادى المجرد من الروح.

والحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا .. (٣٤) ﴾ [ص]

وكان سيدنا سليمان - عليه السلام - يستمتع بما آتاه الله سبحانه من الملك ما لا ينبغى لأحد من بعده ، وسخَّر له الجن والرياح وعلّمه كل اللغات ، وكان صاحب الأوامر والنواهى والهيمنة ، ثم وجد نفسه قاعداً على كرسيه بلا حراك وبلا روح ، ويقدر عليه أى واحد من الرعية ، ثم أعاد الله له روحه إلى جسده ، وهو ما يقوله الحق سبحانه:

﴿ ..ثُمَّ أَنَابَ [1] (٣٤) ﴾ [ص]

أى: أنه أفاق لنفسه ، فعلم أن كل ما يملكه هو أمر مُفاضٌ عليه ، لا أمر نابع من ذاته.

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصددها الآن يقول الحق سبحانه:

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً [2] ..(٩٢) ﴾ [يونس]

(١) أناب: رجع إلى الله تعالى بالتوبة. [كلمات القرآن: للشيخ حسنين محمد مخلوف].

(٢) ننجيك: نخرجك من البحر. ببدنك: بجسدك الذى لا روح فيه. لتكون لمن خلفك: بعدك. آية: عبرة؛ فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك. وعن ابن عباس أن بعض بنى إسرائيل شكوا فى موته فأخرج لهم ليروه. [تفسير الجلالين: ص ١٨٧]. وقد قرأ اليزيدى وابن السميقع «ننحّيك» بالحاء، أى: تكون على ناحية من البحر ليروك.

وبالله ، لو لم يأمر الحق البحر بأن يلفظ جثمان فرعون ، أما كان من الجائز أنَ يقولوا: إنه إله ، وإنه سيرجع مرة أخرى ؟

ولكن الحق سبحانه قد شاء أن يلفظ البحر جثمانه كما يلفظ جيفة أى حيوان غارق ؛ حتى لا يكون هناك شك فى أن هذا الفرعون قد غرق ، وحتى ينظر من بقى من قومه إلى حقيقته ، فيعرفوا أنه مجرد بشر ، ويصبح عبرة للجميع ، بعد أن كان جباراً مسرفاً طاغية يقول لهم :

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى..(٣٨)﴾ [القصص]

وبعض من باحثى التاريخ يقول: إن فرعون المقصود هو «تحتمس» ، وإنهم حلَّلوا بعضاً من جثمانه ، فوجدوا به آثار مياه مالحة.

ونحن نقول: إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو توصيف لوظيفة ، ولعل أجساد الفراعين المحنطة تقول لنا: إن علة حفظ الأبدان هى عبرة ؛ وليتعظ كل إنسان ويرى كيف انهارت الحضارات ، وكيف بقيت تلك الأبدان آية نعتبر بها.

وقد تعرض القرآن لمسألة الفرعون ، فقال الحق سبحانه :

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ [1] (١٠)﴾ [الفجر]

ويقول سبحانه فى نفس السورة عن كل جبار مفسد :

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ [2] (١٤)﴾ [الفجر]

---

(١) قيل فى معنى ذى الأوتاد: لأن فرعون كان يعذب الناس بأربعة أوتاد [مختصر تفسير الطبرى: ص ٥١٣]. وذكر فى تفسير الجلالين (ص ٣٩٨) أن فرعون كان يَتدُ لكل من يغضب عليه أربعة أوتاد يشد إليها يديه ورجليه ويعذبه. وفى [كلمات القرآن للشيخ حسنَين محمد مخلوف] الأوتاد: الجنود أو المبانى القوية.

(٢) إن ربك لبالمرصاد: يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها. [كلمات القرآن].

ونلحظ أن كلام الحق سبحانه عن فرعون فى سورة الفجر كان كلاماً يضمُّ إلى جانب حضارة الفراعنة حضارات أخرى قديمة ، مثل حضارة عاد وحضارة ثمود .

وكذلك تكلم الحق سبحانه عن الفرعون فى أثناء لقطات قصة موسى عليه السلام ، ولكن الكلام يختلف فى قصة يوسف عليه السلام ، فلا تأتى وظيفة الفرعون ، بل يحدثنا الحق سبحانه عن وظائف أخرى ، هى وظيفة «عزيز مصر» - أى : رئيس وزرائها - ويحدثنا الله سبحانه عن ملك مصر بقوله :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ .. (٥٠) ﴾ [يوسف]

ولم يُكْتَشَف الفارق بين وظيفة «الفرعون» ووظيفة «الملك» فى التاريخ المصرى إلا بعد أن جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر وفك «شامبليون» رموز اللغة الهيروغليفية من خلال نقوش حجر «رشيد» ، فعرفنا أن حكام مصر القديمة كانوا يسمون « الفراعنة» إلا فى فترة كانت فيها مصر تحت حكم «ملوك الرعاة» أو «الهكسوس» الذين أغاروا على مصر ، وحكموها حكماً ملكياً وقضوا على حكم الفراعنة ، ثم عاد الفراعنة إلى حكم مصر بعد أن خلصوها من سيطرة «الهكسوس».

وهكذا نجد أن إشارة القرآن فى قصة يوسف - عليه السلام - كانت إلى الملك ، ولم يأت فيها بذكر فرعون ، وهذا دليل على أن القرآن قد سبق بعلمه أى اكتشاف ، وكلما جاء اكتشاف جديد أو ابتكار حقيقى ، نجده يؤيد كتاب الله .

ويُنهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ .. وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ [1] (٩٢) ﴾ [يونس]

(١) وإن كثيراً من الناس : أى : أهل مكة . عن آياتنا غافلون : لا يعتبرون بها . [تفسير الجلالين ص ١٨٧].

وهذا القول يوضح أن هناك من يغفل عن الآيات ، وهناك من لا يغفل عنها ، و ينظر إلى تلك الآيات ويتأملها ويتدبرها ، ويتساءل عن جدوى كل شيء ، فيصل إلى ابتكارات واختراعات ينتفع بها الإنسان، أُذن بميلادها عند البحث عنها ؛ لتستبين عظمة الله في خلقه .

وحين ينظر الإنسان في تلك الابتكارات سيجدها وليدة أفكار مَنْ نظروا بإمعان ، وامتلكوا قدرة الاستنباط ، ولو لم يغفل الناس عن النظر في آيات الكون ، والسموات والأرض ، لزادت الابتكارات والاختراعات ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ [1] فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وحين ننظر إلى مكتشف قانون الجاذبية «نيوتن» الذى رأى ثمرة تفاح تسقط من شجرتها ، نجد أن هناك عشرات الآلاف أو الملايين من البشر شاهدوا من قبله مشهد سقوط ثمرة من على شجرة ، ولكن نيوتن وحده هو الذى تفكر وتدبر ما يحدث أمامه إلى أن اهتدى إلى اكتشاف قانون الجاذبية .

وجاء من بعد نيوتن من بنى سفن الفضاء التى تستفيد من هذا القانون وغيره .

وكذلك نجد من صَمَّم الغواصات ، والبواخر العملاقة التى تشبه المدن العائمة ، هؤلاء اعتمدوا على من اكتشف قانون «الطفو» وقاعدة «أرشميدس» الذى لاحظ أنه كلما غطس شيءٌ فى المياه ، ارتفع الماء بنفس حجم الشيء الغاطس فيه .

---

(١) كأين من آية : كم من آية - كثير من الآيات . [كلمات القرآن : للشيخ حسنين محمد مخلوف] .

كل هؤلاء اكتشفوا - ولم يخلقوا - أسراراً كانت موجودة فى الكون ، وهم تميَّزوا بالانتباه لها.

وكذلك العالم الذى اكتشف «البنسلين» قد لاحظ أن أصيصاً [1] من المواد العضوية كانت تنزل منه قطرات من الماء العفن ، ورأى الحشرات التى تقترب من هذا الماء تموت ، فأخذ عينة من هذا العفن وأخذ يُجرى عليها بعض التجارب فى معمله إلى أن اكتشف «البنسلين».

وقول الحق سبحانه:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)﴾ [يوسف]

فكأنهم لو لم يعرضوا لاستنبطوا من آيات الكون الشىء الكثير.

وكذلك القصص التى تأتى فى القرآن ، إنما جاءت ليعتبر الناس ويتأملوا ، فحين يرسل الله رسولاً مؤيَّداً بمعجزة منه لا يقدر عليها البشر ؛ فعلى الناس أن يسلّموا ويقولوا: «آمنا» ، لا أن يظلوا فى حالة إعادة للتجارب السابقة ؛ لأن ارتقاءات البشر فى الأمور المادية قد تواصلت ؛ لأن كل جيل من العلماء يأخذ نتائج العلم التى توصل إليها مَنْ سبقوه ، فلماذا لا يحدث هذا فى الأمور العقدية ؟

ولو أن الناس بدأوا من حيث انتهى غيرهم ؛ لوجدنا الكل مؤمناً بالله تعالى ، ولأخذ كل مولود الأمر من حيث انتهى أبوه ، ولَوَصَل خير آدم

(١) الأص (بفتح الهمزة ، وبكسرها ، وبضمها): الأصل. والأصيص: أصل الدَّن (إناء) أى: أسفله ويقال: هو كهيئة الجر له عروتان يُحمل فيه الطين. وفى الصحاح: الأصيص ما تكسر من الآنية ، وهو نصف الجر أو الخابية تزرع فيه الرياحين. [لسان العرب: مادة (أ ص ص)]. وتطلق هذه الكلمة على أوان من الفخار تصنع خصيصاً لزراعة الأزهار والنباتات.

إلى كل من وُلِدَ بعد ذلك ، لكن آفة البشر أن الإنسان يريد أن يجرب بنفسه .

ونحن نجد ذلك فى أمور ضارة مثل : الخمر ، نجدها ضارة لكل من يقرب منها ، فإذا حرَّمها الدين وجدنا من يتساءل : لماذا تُحرَّم ؟

وكذلك التدخين ؛ نجد من يجربه رغم أن التجارب السابقة أثبتت أضراره البالغة ، ولو أخذ كل إنسان تجارب السابقين عليه ؛ فهو يصل عمره بعمر الآخرين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٖ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١) ٩٣ ﴾

وكلمة «تبوأ» تعنى إقامة مباءة أى : البيوت التى يكون فيها السكن الخاص ، وإذا أطلقت كلمة «مبوأ» فهى تعنى الإقليم أو الوطن .

والوطن أنت تتحرك فيه وكذلك غيرك ، أما البيت فهو للإنسان وأسرته كسكن خاص .

أما الثرى فقد يكون له جناح خاص فى البيت ، وقد يخصص الثريُّ فى منزله جناحاً لنفسه ، وآخر لولده وثالثاً لابنته .

أما غالبية الناس فكل أسرة تسكن فى «شقة» قد تتكون من غرفة أو اثنتين أو ثلاثة حسب إمكانات الأسرة .

---

(١) بوأنا : أنزلنا . مبوأ صدق : منزل كرامة وهو مصر والشام . فما اختلفوا : بأن آمن بعضهم وكفر بعضهم . [تفسير الجلالين : ص ١٨٧ - بتصرف] .

إذن: فيوجد فرق بين تبوُّء البيوت وتبوء المواطن ، فتبوُّء المواطن هو الوطن.

وسبق أن قال الحق سبحانه لموسى وهارون عليهما السلام:

﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا .. (٨٧) ﴾ [يونس]

هذا فى التبوء الخاص ، أما فى التبوء العام فهو يحتاج إلى قدرة الحق تعالى ، وهو سبحانه يقول هنا:

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ .. (٩٣) ﴾ [يونس]

والحق سبحانه أتاح لهم ذلك فى زمن موسى - عليه السلام - وأتاح لهم السكن فى مصر والشام ، وهو سبحانه القائل:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ[1] بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ..(١) ﴾ [الإسراء]

وما دام الحق سبحانه قد بارك حوله فلا بد أن فيه خيراً كثيراً ، ولا بد أن تكون الأرض التى حوله مُبوَّأ صدق.

وكلمة «الصدق» تعنى جماع الخير والبر ؛ ولذلك نجد الرسول ﷺ حينما سئل: أيكون المؤمن جباناً ؟ قال: «نعم» . وحين سئل : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ قال: «نعم» . وحين سئل: أيكون المؤمن كذاباً ؟ قال: «لا»[2] .

---

(١) سبحان الذى أسرى بعبده: تنزيهاً وتبرئة لله سبحانه وتعالى مما يقول فيه المشركون . والإسراء والسُّرى: السير فى الليل. المسجد الأقصى: بيت المقدس. الذى باركنا حوله: لسكانه فى معايشهم وأقواتهم. [مختصر تفسير الطبرى : ص ٣١٣].

(٢) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً .

ولذلك فأنت تجد فى الإسلام عقوبة على الزنا ، وعقوبة تقام على السارق [(١)] ، أما الكذب فهو خصلة لا يقربها المسلم ؛ لأن عليه أن يكون صادقاً. وكل خصال الخير هى مُبوأ الصدق.

ولذلك نجد قول الحق سبحانه:

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ [(٢)] ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء]

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ [(٣)] .. ﴿٢﴾ ﴾ [يونس]

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ [(٤)] ﴿٨٤﴾ ﴾ [الشعراء]

أى: اجعل لى ذكرى حسنة فلا يقال فلان كان كاذباً ، وأما قدم الصدق فهى سوابق الخير التى يسعى إليها ؛ ولذلك كان الجزاء على الصدق هو ما يقول عنه الحق سبحانه:

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ [(٥)] ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر]

---

(١) قرر الكتاب والسنة عقوبات محددة لجرائم معينة هى جرائم الحدود ، وهى: الزنا ، والقذف ، والسرقة ، والسُّكْر ، والمحاربة ، والردة ، والبغى ؛ وذلك لتحقيق صيانة المجتمع من نواحى: الدين ، العقل ، المال ، العرض ، النفس. ولكل جريمة من هذه الجرائم شروط يجب توافرها ليتم تنفيذ العقوبة الخاصة بها. انظر تفصيل هذا فى كتب الفقه (أبواب الحدود).

(٢) وقل رب أدخلنى مدخل صدق ، أى: أدخلنى المدينة إدخالاً مرضياً لا أرى فيه ما أكره. وأخرجنى: من مكة مخرج صدق: إخراجاً لا ألتفت بقلبى إليها. [تفسير الجلالين: ص ٢٥١].

(٣) قدم صدق: سابقة فضل ، ومنزلة رفيعة. [كلمات القرآن: للشيخ حسنين محمد مخلوف].

(٤) لسان صدق: ثناء حسناً وذكراً جميلاً. [كلمات القرآن].

(٥) مقعد صدق: مكان مرْضى. [كلمات القرآن]. عند مليك: ذى مُلك. مقتدر: على كل ما يشاء ، لا إله إلا هو. [مختصر تفسير الطبرى: ص ٦٠٧].

وهو مقعد عند مليك لا يبخل ، ولا يجلس فى رحابه إلا من يحبه ، ولا يضن بخيره على من هم فى رحابه .

ومقعد الصدق هو جزاء لمن استجاب له ربه فأدخله مدخل صدق ، وأخرجه مخرج صدق ، وجعل له لسان صدق ، وقدم صدق .

وبعد أن بوأ الحق سبحانه بنى إسرائيل مُبوأ صدق ، فى مصر والشام ، وبعد أن قال لهم :

﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ [1] .. (٦١) ﴾ [البقرة]

أى : أن الحق سبحانه حقق قوله :

﴿ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ .. (٩٣) ﴾ [يونس]

وأنجاهم من فرعون ، وكان من المفترض أن تستقيم أمورهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ .. (٩٣) ﴾ [يونس]

والمقصود بذلك هو معرفتهم بعلامات الرسول الخاتم محمد ﷺ ، ومنهم من ترقب مجىء النبى ﷺ ليؤمن به ، ومنهم من تمادى فى الطغيان ؛ لذلك قطَّعهم الله - سبحانه - فى الأرض أمماً .

وحين ننظر إلى دقة التعبير القرآنى نجده يحدد مسألة التقطيع هذه ، فهم فى كل أمة يمثلون قطعة ، أى : أنه سبحانه لم يُذبْهم فى الشعوب . بل لهم فى كل بلد ذهبوا إليه مكانٌ خاصٌ بهم ، ولا يذوبون فى غيرهم .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ [2] لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

---

(١) اهبطوا : انزلوا . مصراً : من الأمصار ، أى : بلداً من البلاد .

(٢) من بعده : أى من بعد إغراق فرعون .

وقد يقول أحد السطحيين: وهل هناك سكن فى غير الأرض ؟

ونقول: لنا أن نلحظ أن الحق سبحانه لم يحدد لهم فى أية بقعة من الأرض يسكنون ، فكأن الحق سبحانه قد بيَّن ما أصدره من حكم عليهم بالتقطيع فى الأرض أمماً ؛ فهو سبحانه القائل:

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا [(١)] .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

وإذا كنا نراهم فى أيامنا هذه وقد صار لهم وطن ، فاعلم أن الحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) ﴾ [الإسراء]

وقد قال فى آخر سورة الإسراء:

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا [(٢)] (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

والمجىء بهم لفيفاً إنما يعنى أن يجمعهم فى وطن قومى لتأتى لهم الضربة القاصمة التى ذكرها الحق سبحانه فى قوله :

﴿ ..فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا [(٣)] (٧) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أى: فرقناهم فى الأرض فرقاً . [تفسير الجلالين: ص ١٤٦].

(٢) لفيفاً: جميعاً.

(٣) أى: إذا أفسدتم الكرَّة الآخرة وجاء أعداؤكم ليسوءوا وجوهكم ، أى: يهينوكم ويقهروكم ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ..(٧) ﴾ أى: بيت المقدس ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ..(٧) ﴾ أى : فى التى جاسوا فيها خلال الديار ﴿ .. وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) ﴾ أى: يدمروا ويخربوا ما ظهروا عليه تدميراً. بتصرف من تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦) وقد ذكر ابن كثير قول قتادة: قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحى محمداً ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون ، وهذا لا ينفى أن يحدث عدة مرات ، ولذلك قال رب العزة: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ..(٨) ﴾ [الإسراء].

لأننا لن نستطيع أن نحاربهم فى كل بلد من البلاد التى قطّعهم الله فيها ، لكنهم حين يجتمعون فى مكان واحد، إنما يسهل أن ينزل عليهم قضاء الله.

وحين ننظر إلى رحلتهم نجد أن «يثرب» كانت المكان الذى اتسع لهم بعد اضطهادات المجتمعات التى دخلوا إليها ، وحين اجتمعوا فى يثرب صار لهم الجاه ؛ لأنهم أهل علم ، وأهل اقتصاد ، وأهل حرب.

وهم قد اجتمعوا فى المدينة ؛ لأن المخلصين من أهل الكتاب أخبروهم أن هذه المدينة هى المهجر لنبى ورسول يأتى من العرب فى آخر الزمان ؛ فمكثوا فيها انتظاراً له ، وكانوا يقولون لكفار قريش: «لقد أظل زمان يأتى فيه نبى نتبعه ، ونقتلكم فيه قَتل عاد وإرم »[1] .

وكان من المفروض أن يؤمنوا برسالته ﷺ ، لكنه ما إن أطل رسول الله ﷺ بنور رسالته حتى أنكروه خوفاً على سلطتهم الزمنية.

وهو ما تقول عنه الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ..(٩٣) ﴾ [يونس]

أى: أن علمهم بمجىء الرسول ﷺ هو مصدر اختلافهم ، فمنهم من سمعوا إشارات عنه ﷺ وعرفوا علاماته ﷺ ؛ فآمنوا به ، ومنهم من لم يؤمن به.

(١) قال الحق سبحانه: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة] وعن أشياخ من الأنصار قالوا: كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون: إن نبياً سيبعث الآن نتبعه ، قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به. ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق.

وهم لم يختلفوا من قبل وكانوا متفقين ، وتوعَّدوا المشركين من قريش. وما إن أهلَّ الرسول ﷺ وعلمت به «الأوس» و«الخزرج» أنه رسول من الله تعالى قد ظهر بمكة ، فقالت الأوس والخزرج: إنه النبى الذى توعَّدتنا به يهود ، فهيا بنا لنذهب ونسبقهم إليه قبل أن يسبقونا ، فيقتلونا به.

فكأن اليهود هم الذين تسببوا فى هجرة النبى ﷺ إلى المدينة ؛ لأن الأوس والخزرج سبقوهم إليه ؛وهذا لنعلم كيف ينصر الله تعالى دينه بأعدائه.

ولذلك نجد أنهم فى اختلافهم يأتى عبد الله بن سلام [1] إلى رسول الله ﷺ ويقول: إن اليهود قوم بُهْتٌ ، وإذا أنا آمنت بك يا رسول الله سيقولون فىَّ ما يسىء إلىَّ ؛ لذلك فقبل أن أعلن إسلامى اسألهم عنِّى .

وكان ابن سلام فى ذلك يسلك سلوكاً يتناسب مع كونه يهودياً ، ولما اجتمع معشر اليهود ، سألهم النبى ﷺ وقال: ما تقولون فى ابن سلام ؟

قالوا: حَبْرُنا وشيخنا وهو الورع فينا ، وبعد أن أثنوا عليه ثناء عظيماً ، قال ابن سلام: يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

وهنا بدأ اليهود يكيلون له السِّباب ، فقال ابن سلام: ألم أقُلْ لك يا

(١) هو: عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى ، أبو يوسف ، أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، كان اسمه الحصين وسماه النبى ﷺ عبد الله ، شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية. ولما كانت الفتنة بين على ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب ، واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هـ (الأعلام - للزركلى ٤/ ٩٠).

رسول الله إنهم قوم بُهْت[1] ؟

إذن : فمعنى قوله سبحانه :

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ .. (٩٣) ﴾ [يونس]

أى : أن أناساً منهم بقوا على الباطل ، وأناساً منهم آمنوا بالرسول الحق ﷺ .

وينهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) ﴾ [يونس]

أى : أن الله سبحانه وتعالى سوف يقضى بين من جاءوا فى صف الإيمان ، وبين مَنْ بَقَوْا على اليهودية المتعصبة ضد الإيمان .

ونحن نلحظ أن كلمة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ توضح أن الضمير عام ، لهؤلاء ولأولئك .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى يقضى يوم القيامة بين المؤمنين والكافرين ، ويقضى أيضاً بين الكافرين ، فمنهم من كان ظالماً لكافر ،

---

(١) عن أنس بن مالك أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبى ﷺ المدينة ، فأتاه يسأله عن أشياء فقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى : ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؛ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال : أخبرنى به جبريل آنفاً . قال ابن سلام : ذاك عدو اليهود من الملائكة . قال : أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد . قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . قال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت ، فاسألهم عنِّى قبل أن يعلموا بإسلامى . فجاءت اليهود ، فقال النبى ﷺ : أى رجل عبد الله بن سلام فيكم؟ قالوا : خيرنا وابن خيرنا . وأفضلنا وابن أفضلنا . فقال النبى ﷺ : أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك . فأعاد عليهم ؛ فقالوا مثل ذلك . فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قالوا : شرنا وابن شرنا ، وتنقَّصوه ، قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٨) وأحمد فى مسنده (٣/ ١٠٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) .

ومنهم من كان مختلساً أو مرتشياً ، ومنهم من عمل على غير مقتضى دينه ؛ لذلك يقضى الله سبحانه بينهم.

والآية تفيد العموم فى القضاء ماضياً وحاضراً ومستقبلاً بين كل مؤمن وكافر ، وبين كل تائب وعاصٍ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ[1] مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ[2] ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ[3] ﴿٩٤﴾ ﴾

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ .

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ قد قال من البداية إنه لا يشك فى رسالته ، وحين وعده أهله بالسيادة قال:

«والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك

(١) المخاطب بهذه الآية محمد ﷺ والمراد به غيره ، وكذلك الآية بعدها: ﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ﴿٩٥﴾ ﴾[يونس] ، وقد تأول بعض العلماء الشك هنا بأنه ضيق الصدر ، أى : إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر ، واسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك صبر الأنبياء من قبلك على أذى قومهم وكيف عاقبة أمرهم . [تفسير القرطبى ٤/ ٣٣١٠] .

(٢) فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك: من أهل التوراة والإنجيل ، كعبد الله بن سلام - وقيل: إن رسول الله ﷺ - لما نزلت هذه الآية - قال: «ما أشك ولا أسأل». وقد علم الله ذلك منه ، ومخرج هذا القول ، كقول الرجل لابنه : إن كنت ابنى فبرنى - من البر - أى: كن باراً بى. وهو لا يشك فى أنه ابنه . من الممترين: الشاكّين. [مختصر تفسير الطبرى: ص ٢٤١].

(٣) امترى فى الشىء : شك فيه ولم يستيقن . وتمارى القوم به : تجادلوا . وتمارى فى الشىء : تشكك فيه . قال تعالى : ﴿ فبأى آلاء ربك تتمارى ﴿٥٥﴾ ﴾ [النجم] أى: تشكك ، ويتضمن معنى التكذيب . [القاموس القويم] وراجع : لسان العرب مادة [مرى] .

هـذا الأمـر حتى يُظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته »[١].

نقول: إن الحق سبحانه وتعالى يضمر خطاب الأمة في خطاب رسوله ﷺ ؛ لأن الأتباع حين يقرأون ويسمعون الخطاب وهو موجَّه بهذا الأسلوب إلى الرسول ﷺ فهم لن يستنكفوا[٢] عن أيِّ أمر يصدر إليهم.

ومثال ذلك: لو أن قائداً يصدر أمراً لاثنين من مساعديه اللذين يقودان مجموعتين من المقاتلين ، فيقول القائد الأعلى لكل منهما: إياك أن تفعل كذا أو تصنع كذا. والقائد الأعلى بتعليماته لا يقصد المساعدين له ، ولكنه يقصد كل مرءوسيهم من الجند.

وجاء الأمر هنا لرسول الله ﷺ ؛ لتفهم أمته أن الرسول ﷺ ما كان ليتأبَّى على أمر من أوامر الله ، بل هو ﷺ ينفِّذ كل ما يؤمر به بدقة[٣] ؛ وذلك من باب خطاب الأمة في شخصية رسولها ﷺ .

وقول الحق سبحانه:

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ..(٩٤) ﴾ [يونس]

---

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٢٦٦) معزواً لابن إسحاق ، أن قريشاً قالوا لأبي طالب: يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شَتْم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعَيْب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا بن أخي ، إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، فأبْقِ عليَّ وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق. فقال له رسول الله ﷺ هذه المقالة.

(٢) الاستنكاف: الامتناع تكبراً وأنفة. ومنه قوله تعالى: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢)﴾ [النساء].

(٣) ومصداق ذلك قوله سبحانه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ .. (١٥)﴾ [الشورى].

هذا القـول دليل على أن الذين عندهم علم بالكتـاب من السـابقـين على رسول الله ﷺ ، يعرفون الحقائق الواضحة عن رسالته ﷺ .

وإن الذين يكـابرون ويكفرون برسـول الله ﷺ ورسـالتـه إنـمـا يعـرفـونه كما يعرفون أبناءهم .

وقد قال عبد الله بن سلام : «لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد»[1] .

إذن : فـالحق عندهم واضح مكتـوبٌ فى التـوراة[2] من بشـارة به ﷺ ، وهذا يثبت أنك يا محمد صادق فى دعوتك ، بشهادة هؤلاء .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿ .. لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) ﴾ [يونس]

والحـق القـادم من الله تعـالى ثـابت لا يتغـير ؛ لأنه واقـع ، والـواقـع لا يتعـدد ، بل يأتى على صورة واحـدة .

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ١٩٤) أن عمر بن الخطاب سأل عبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه .

(٢) يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

وعن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو ، كان يقول : إن هذه الآية التى فى القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) ﴾ [الأحزاب] هى فى التوراة : يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك : المتوكل ، لست بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن نقبضه حتى نقيم به الملة العوجاء حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعيناً عمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غلفاً . أخرجه البخارى فى كتاب التفسير (٨/ ٥٨٥ فتح) والبيهقى فى الدلائل (١/ ٣٧٥) .

أما الكذب فيأتى على صور متعددة .

ولذلك فمهمة المحقِّق الدقيق أن يقلّب أوجه الشهادات التى تقال أمامه فى النيابة أو القضاء ؛ حتى يأتى حكمه مصيباً لا مدخل فيه لتناقض ، ولا يعتمد على تخيُّل أو أكاذيب .

وقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ ..(٩٤) ﴾ [يونس]

إنما يدل على أن الذين قرأوا الكتاب قد عرفوا أنك رسول الله حقّاً ، ومنهم من ترك معسكر اليهودية ، وجاء إلى معسكر الإيمان بك ؛ لأن الحق الذى جاء لا دخل للبشرية فيه ، بل جاء من ربك :

﴿ ..فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) ﴾ [يونس]

ومجىء الخطاب بهذا الشكل ، هو كما قلت موجَّه إلى الأمَّة المؤمنة فى شخص الرسول ﷺ .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ [1] ..(٦٥) ﴾ [الزمر]

هذا القول نزل على رسول الله ﷺ ، ومن غير المعقول أن يشرك النبى ﷺ ، وكل الآيات التى تحمل معانى التوجيه فى الأمور المنزَّه عنها رسول الله ﷺ خاصَّة بأمته .

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

(١) أى : لئن أشركت بالله أحداً ؛ ليبطلن عملك . [مختصر تفسير الطبرى : ص ٥٢٧] بتصرف . وحبوط الأعمال بطلانها وفسادها رغم تحصيلها . وأصله إذا حبطت الماشية . أى : تأكل فتكثر حتى تنتفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها [انظر اللسان مادة : حبط] .

﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) ﴾ [يونس]

والقول الحكيم ساعة يوجِّه إلى الخير قد يأتى بمقابله من الشر ؛ لتتضح الأشياء بالمقارنة.

ونحن فى حياتنا اليومية نجد الأب يقول لابنه: اجتهد فى دروسك، واستمع إلى مدرِّسيك جيّداً حتى تنجح، فلا تكن مثل فلان الذى رسب، والوالد فى هذه الحالة يأتى بالإغراء الخيِّر، ويصاحبه بمقابله، وهو التحذير من الشر.

وقد قال الشاعر:

فالوَجْهُ مثلُ الصُّبحِ مُبْيَضٌّ ... والشَّعْرُ مثلُ الليلِ مُسْوَدُّ

ضِدَّانِ لمَّا استجمعا حَسُنَا ... والضِّدُّ يُظْهِر حُسْنَهُ الضِّدُّ(1)

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) ﴾

وآيات الله سبحانه كما نعرفها متعددة ؛ إما آيات كونية وهى الأصل فى المعتقد الأول بأن خالقها هو الخالق الأعلى سبحانه، وتُلْفت هذه الآيات إلى بديع صُنْعه سبحانه، ودقة تكوين خلقه، وشمول قدرته.

وكذلك يُقصد بالآيات ؛ المعجزات المنزلة على الرسل - عليهم السلام - لتظهر صدق كل رسول فى البلاغ عن الله تعالى.

(1) الأضداد: فى ظهورها تظهر ميزات ما فيها، فنحن لا نعرف قيمة الحق إلاَّ إذا تذوَّقنا مرارة الباطل، ولا نعرف قيمة النهار إلا إذا عشنا الليل فى إظلامه، ولا نعرف جمال العدل إلا إذا اكتوينا بنار المظالم.

وآيات القرآن الكريم التى تحمل منهج الله .

وهم كانوا يُكذِّبون بكل الآيات .

والخطاب فى هذه الآية هو خطاب للنبى ﷺ ، وجاء معطوفاً على ما فى الآية السابقة ، حيث يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [يونس]

وكل ما يرد من مثل هذا القول لا يصح أن نفهم منه أن رسول الله ﷺ من الممكن أن يشك ، أو من المحتمل أن يكون من الذين كذَّبوا بآيات الله - سبحانه وتعالى - ولكن إيراد مثل هذا الأمر ، هو إيراد لدفع خواطر البشرية ، أيّاً كانت تلك الخواطر ، فإذا وجدنا الخطاب المراد به رسول الله ﷺ فى التنزيل ، فغاية المراد اعتدال موازين الفهم فى أمّته تعليماً وتوجيهاً؛ لأن المنهج مُنزّل عليه لتبليغه لأمته فهو شهيد على الأمم [1] .

وإذا كانت الآية التي سبقت توضح : إن كنت فى شك فاسأل ، فهو سبحانه يعطيه السؤال ؛ ليستمع منه إلى الجواب ، وليُسْمعه لكل الأمة ؛ الجواب القائل : أنا لا أشك ولا أسأل ، وحسبى ما أنزل الله سبحانه علىَّ .

ألم يَردْ فى القرآن الكريم أن الحق سبحانه وتعالى يقول للملائكة يوم القيامة بمحضر من عبدوا الملائكة ، ويشير إلى هؤلاء الذين عبدوا الملائكة ومخاطباً ملائكته :

﴿ .. أَهَـٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سبأ]

ونحن نعلم أن الملائكة :

﴿ ..لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم]

---

(١) وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ..﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة] .

والحق سبحانه يعلم مسبقاً جواب الملائكة ، وهم يقولون:

﴿ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ..(٤١) ﴾ [سبأ]

ولكنه سبحانه وتعالى أراد أن يُسْمِع من فى الحشر كلهم جواب الملائكة وهم يستنكرون أن يعبدهم أحد من الخلق ، فهؤلاء الخلق إنما عبدوا الجن.

إذن: فالسؤال جاء ؛ ليبين الرد عليه ، مثلما يرد عيسى عليه السلام حين يُعبد من بعض قومه ، ويسأله سبحانه عن ذلك:

﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ..(١١٦) ﴾ [المائدة]

فيأتى الجواب:

﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ..(١١٦) ﴾ [المائدة]

إذن: فالمراد أن يقول الرسول ﷺ: أنا لا أشك ولا أسأل.

والشك [١] - كما نعلم - معناه: تساوى كفة النفى وكفة الإثبات ، فإن رجحت واحدة منهما فهذا ظن ، وتكون المرجوحة وَهْماً وافتراء وكذباً.

وكلمة «الشك» مأخوذة من مسألة حسية ، فنحن نرى الصيادين وهم يصعون كل سمكة بعد اصطيادها فى خيط يسمى «المشكاك».

وكذلك نرى من يقوم بـ(لضْم) العقود ، وهو يشك الحبة فى الخيط [٢].

من هذا نأخذ أن الشك معناه: ضَمٌّ شىء إلى شىء ، ومنه الشكائك [٣] ، وهى البيوت المنتظمة بجانب بعضها البعض .

---

(١) الشك: حالة نفسية يتردد معها الذهن بين الإثبات والنفى ، ويتوقف عن الحكم. [المعجم الوسيط].

(٢) شك الشىء واشتكه: ضم أجزاءه. [المعجم الوسيط: مادة (ش ك ك)].

(٣) الشكائك: جمع شكيكة ، وهى مجموعة أشياء شُكَّ - أى ضُمَّ - بعضها إلى بعض. [المعجم الوسيط: مادة (ش ك ك)].

ومنه «شاك السلاح[1]» أي: الذي ضَمَّ نفسه إلى الدرع.

فالشك هو ضم شيء إلى شيء، وفي النسب تضم النفي والإثبات معاً؛ لأنك غير قادر على أن ترجِّح أحدهما.

وكل خطاب في الشك يأتي على هذا اللون.

والآية التي نحن بصددها تقول:

﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ هو نفسه آية من الآيات، وهكذا نرى أن الخطاب مُوجَّه لأمته، فمن المستحيل أن يكون الرسول ﷺ من المكذِّبين لآيات الله - سبحانه وتعالى - لأن التكذيب بآيات الله تعالى يعني: إخراج الصدق إلى الكذب، وإخراج الواقع إلى غير الواقع.

والذين كذبوا بالآيات إما أنهم لا يؤمنون بإله، أو يؤمنون بإله ولا يؤمنون برسول، أو يؤمنون بإله ويؤمنون برسول ولا يؤمنون بما أنزل على الرسول ﷺ.

والذي يؤيد هذا وجود آية في آخر السورة يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ[2] اللَّهِ .. (١٠٤) ﴾ [يونس]

---

(١) الشَّكة: ما يحمل أو يلبس من السلاح. [المعجم الوسيط: مادة (ش ك ك)].

(٢) دون: نقيض فوق، وتكون ظرفاً، وتأتي بمعنى أمام، وبمعنى وراء، وبمعنى غير، وبمعنى قرب أو جهة، وبمعنى قبل، وبمعنى أقل. والتمييز بين هذه المعاني يكون بالقرائن. وهي في الآية ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾ [يونس] بمعنى (غير). [القاموس القويم] بتصرف.

فكأن الخطاب المقصود منه الأمة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ(1) عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

وهذا القول يوضح لنا أن الحق سبحانه وتعالى قد علم عِلْماً أزلياً بأنهم لن يُوجِّهوا اختيارهم للإيمان.

فحكمه هنا لا ينفى عنهم مسئولية الاختيار، ولكنه علم الله الأزلى بما سوف يفعلون، ثم جاءوا إلى الاختيار فتحقق علم الله سبحانه وتعالى بهم من سلوكهم.

وحُكْمه سبحانه مبنيٌّ على الاختيار، وهو حكم تقديرى.

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى- حين يأتى وزير الزراعة، ويعلن أننا قدَّرنا محصول القطن هذا العام، بحساب مساحة الأراضى المنزرعة قطناً، وبالمتوسط المتوقع لكل فدان، وقد يصيب الحكم، وقد يخيب نتيجة العوامل والظروف الأخرى المحيطة بزراعة القطن، فمن المحتمل أن يُصاب القطن بآفة من الآفات، مثل: دودة اللوزة، أو دودة الورقة.

إذن: ففى المجال البشرى قد يصيب التقدير وقد يخطىء؛ لأن الإنسان يُقدِّر بغير علم مُطْلق، بل بعلم نسبى.

أما تقدير الحق سبحانه فهو تقدير أزلى، وحين يُقدّر الحق سبحانه فلا بد من وقوع ما قدَّره.

(1) حقت: وجبت عليهم كلمة ربك بالعذاب [تفسير الجلالين: ص ١٨٧].

ولذلك يجب أن نفرق بين قضاء حكم لازم قهرى ليس للإنسان فيه تصرف، وبين قدر قد قُدِّر من الله تعالى أن يفعله الإنسان باختياره ، وهذه هى عظمة علم الغيب.

ومثال ذلك: هو سلوك أبى لهب [١] ، فقد نزل فيه قرآن يُتلَى:

﴿ تَبَّتْ [٢] يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ ﴾

[المسد]

وقد نزلت السورة وأبو لهب على قيد الحياة ؛ لأن الحق سبحانه قد علم أزلاً أن خواطر أبى لهب لن تدفعه إلى الإيمان ، ولو أن أبا لهب امتلك ذرة من ذكاء لجاء لرسول الله ﷺ وقال: أنت قلت عنِّى إننى سأصْلَى [٣] النار ، لكن ها أنذا أعلن أننى أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله .

لكن ذلك الذكاء لم يكن يملكه أبو لهب ، فقد علم الله أزلاً أن خواطره لن تدفعه إلى الإسلام ، مثلما دفعت حمزة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ وعمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص. وكان إسلام هؤلاء رغم وقوفهم ضد النبى ﷺ أمراً وارداً.

وقد يُقدِّر البشر التقدير ، لكن هذا التقدير إنما يتم حسب المعلومات

---

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة ، وإنما سمى أبا لهب لاحمرار وجهه وإشراقه كأنه اللهب.

وسبب نزول السورة التى ذُكر فيها ، أن النبى ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: يا صباحاه. فاجتمعت إليه قريشٌ فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ، أكنتم تصدقونى؟ قالوا: نعم. قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد. فقال أبو لهب : تبّاً لك ، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ ﴾ إلى آخرها. أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٨) عن ابن عباس.

(٢) تبت: هلكت أو خسرت أو خابت. [كلمات القرآن: للشيخ حسنين محمد مخلوف].

(٣) وهو قوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ ﴾[المسد] أى: سيُشوى بنار جهنم.

المتاحة لهم ، ولا يملك إنسان علماً كونيّاً أزليّاً بتقديراته ، فعلمه محدود ، وقد يأتى الأمر على غير ما يُقدِّر ؛ لأن الإنسان لا يملك ما يقدر .

ولا يقولنَّ أحدٌ : إن الله يعاقب بعد أن قدَّر مسبقاً ؛ لأن تقدير الحق سبحانه نابع من علمه الأزلى ، وهم كانوا يتمتعون بحق الاختيار . والله سبحانه هو القائل :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا [1] إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) ﴾ [التوبة]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [2] (٩٧) ﴾

إذن : فمجيء الآيات وتكرارها لن يفيدهم فى الاتجاه إلى الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيتوجهون باختيارهم إلى الكفر ؛ فقد قالوا - من قبل - ما أورده الحق سبحانه فى كتابه العزيز :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا [3] (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ

---

(١) الرجس : القَذَر والنتن حسياً ومعنوياً ويطلق على ما يُستقبح فى الشرع . والرجس والرجز معناهما واحد ويطلق الرجس على العذاب لأنه سبب عنه . قال تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ .. (٧١) ﴾ [الأعراف] أى : عذاب بسبب الرجس الذى اقترفوه [القاموس القويم] بتصرف .

(٢) ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم : فلا ينفعهم حينئذ . [تفسير الجلالين : ص ١٨٧].

(٣) الينبوع : العين التى لا ينضب ماؤها .

كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا [١] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً [٢] (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ [٣] أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً [٤] (٩٣) ﴾ [الإسراء]

وكأن الحق سبحانه يأمر رسوله أن يقول موضحاً: لستُ أنا الذى يُنزل الآيات ، بل الآيات من عند الله تعالى ، ثم يأتى القرآن بالسبب الذى لم تنزل به تلك الآيات التى طلبوها ، فيقول سبحانه:

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ..(٥٩) ﴾ [الإسراء]

إذن: فقد نزلت آيات كثيرة لمن سبق فى المعاندة والمعارضة ، ويقابل قضية عرض الإيمان عليه بكفر يملأ قلبه.

فإن كان هناك من يبحث عن الإيمان فليدخل على بحث الإيمان بدون مُعتقد سابق ، ولينظر إلى المسألة ، وما يسمح به قلبه فليُدخله فيه ؛ وبهذا الاختيار القلبى غير المشروط بمعتقد سابق هو قمة القبول .

وقد قال الحق سبحانه فى الآيات السابقة كلاماً فى الوحدانية ، وكلاماً فى الآيات المعجزات ، وكلاماً فى صدق النبوة ، وكلاماً عن القيامة ،

(١) كسفاً: قطعاً. والكسف: السحاب المقطع قطعاً ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. (٤٨) ﴾ [الروم].

(٢) قبيلاً: متقابلين. والمراد رؤيتهم عياناً.

(٣) الزخرف هنا: هو الذهب. والزخرف: الزينة ، وقد يقصد به التمويه والتزوير وتزيين الكذب ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ..(١١٢) ﴾ [الأنعام].

(٤) ينبوعاً: عيناً تنبع لنا بالماء ببلدنا هذا. جنة: بستان. فتفجر الأنهار: بأرضنا هذه التى نحن بها. خلالها: يعنى: خلال النخيل والكروم. وخلالها: بينها فى أصولها. تفجيراً: سيلاً يسيل بينها. كسفاً: قطعاً. قبيلاً: مقابلة أو جميعاً ، فنعاينهم معاينة. زخرف: ذهب. ترقى: تصعد فى درج إلى السماء. [مختصر تفسير الطبرى: ص ٣٢٤ ، ٣٢٥] بتصرف.

وقصَّ لنا سبحانه بعضاً من قصص مواكب الرسل ، من نوح عليه السلام ، ثم فصَّل قليلاً فى قصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتى من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام.

ونحن نلحظ أن الحق سبحانه جاء بقصة نوح عليه السلام فى إطناب [1] ، ثم جاء بخبر عن رسل لم يَقُلْ لنا عنهم شيئاً ، ثم جاء بقصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتى من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام ، فالسورة تضم ثلاثاً من الرسالات: رسالة نوح ، ورسالة موسى وهارون ، ورسالة يونس ، وهو الرسول الذى سُمِّيت السورة باسمه.

ولسائل أن يقول: ولماذا جاء بهؤلاء الثلاثة فى هذه السورة ؟

وأقول: لقد تعبنا كثيراً ، ومعنا كثير من المفسرين حتى نتلمَّس الحكمة فى ذلك ، ولماذا لم تأت فى السورة قصة هود ، وثمود ، وشعيب ، وكان لا بد أن تكون هناك حكمة من ذلك .

هذه الحكمة فيما تجلى لنا أن الحق سبحانه وتعالى يعرض موكب الرسالة وموكب المعارضين لكل رسول ، والنتيجة التى انتهى إليها أمر الأعداء ، وكذلك النتيجة التى انتهى إليها أمر الرسول ومَنْ آمن به.

ونجد الذين ذكرهم الله سبحانه هنا قد أهلكوا إهلاكاً متحداً بنوع واحد فى الجميع ، فإهلاك قوم نوح كان بالغرق ، وكذلك الإهلاك لقوم فرعون كان بالغرق ، وكذلك كانت قصة سيدنا يونس لها علاقة بالبحر ، فقد ابتلعه الحوت وجرى فى البحر.

(١) الإطناب والمساواة والإيجاز من فنون البلاغة فالإطناب : شرح بإفاضة . والمساواة : مساواة اللفظ للمعنى . والإيجاز : اللفظ القليل للمعنى الكبير ولكل مقام مقاله . [شرح دلائل الإعجاز] بتصرف .

إذن: فمَنْ ذُكر هنا من الرسل كان له علاقة بالماء ، أما بقية الموكب الرسالى فلم تكن لهم علاقة بالماء.

ونحن نعرف أن الماء به الحياة ، وبه الإهلاك ؛ لأن واهب الحياة يهب الحياة بالشيء ، ويُهلك بالشيء نفسه. وكأن الحق سبحانه يبيِّن لنا الحكمة: أنا أهلكتُ بالغرق هناك ، ونجَّيْتُ من الغرق هنا.

إذن: فطلاقة القدرة الإلهية هى المستولية على هذه السورة ، كما تظهر طلاقة القدرة فى مجالات أخرى ، وبألوان أخرى[1].

وسُمِّيت هذه السورة باسم يونس ؛ لأن الحق سبحانه أرسله إلى أكثر من مائة ألف[2] ، وهم الأمة الوحيدة فى هذا المجال التى استثناها الحق سبحانه من الإهلاك ، فقد أغرق قوم نوح ، وأغرق قوم فرعون ؛ فكلاهما قد كذَّب الرسل ، ولكن قوم يونس أول ما رأوا البأس[3] آمنوا فأنجاهم الله سبحانه.

وسُمِّيت السورة باسم من نجا ؛ لأنه عاد إلى الحق سبحانه قبل أن يعاين العذاب ، ولكنهم رأوا فقط بشائر العذاب ، فنجَّوا أنفسهم بالإيمان.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

---

(١) من طلاقة القدرة توظيف الشيء فى ضده مثل النار ، فوظيفتها الإحراق ولكنها كانت على سيدنا إبراهيم برداً وسلاماً . والماء به الحياة وفيه الغرق ، وبه النجاة ؛ فقد نجى الله سبحانه موسى عليه السلام وأغرق به فرعون.

(٢) يقول سبحانه: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الصافات] وهم من قرية «نينوى» جهة الموصل بالعراق الحالية.

(٣) البأس: العذاب. يقول تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا.. ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأنعام] ، ويقول: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأعراف]. والبأس: شدة الحرب ، يقول تعالى: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة] . والبأس: القوة. يقول تعالى عن قوم بلقيس ملكة سبأ حين شاورتهم فى أمر سليمان: ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ..﴿٣٣﴾ ﴾ [النمل].

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ (١) (٢)

وهكذا يبيِّن لنا الحق سبحانه أن هناك كثيراً من القرى لم تؤمن إلا وقت العذاب ، فلم ينفع أيّاً منهم هذا الإيمان ، ولكن قوم يونس قبل أن تأتى بشائر العذاب والبأس أعلنوا الإيمان فَقَبِل الحق سبحانه إيمانهم ؛ لأنه سبحانه لا يظلم عباده.

فمَنْ وصل إلى العذاب ، وأعلن الإيمان من قلب العذاب لا يُقبَلُ منه ، ومن أحس واستشفَّ بواكير العذاب وآمن فالحق سبحانه وتعالى يقبله.

وكلمة «لولا» إذا سمعتها فمثلها مثل «لوما» ، وإذا دخلت «لولا» على جملة اسمية فلها حكم يختلف عن حكمها لو دخلت على جملة فعلية ، فحين تدخل على جملة اسمية مثل: «لولا زيد عندك لأتيتك» تفيد أن امتناع المجيء هو بسبب وجود زيد ، لكنها إن دخلت على جملة فعلية فيقال عنها: «أداة تحضيض وحَثّ» مثل قول الحق سبحانه:

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ .. ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة]

---

(١) لولا : حرف شرط لا يعمل ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط ، وجملة الشرط (اسمية) ويحذف الخبر وجوباً إذا كان كوناً عاماً وإذا وليها مضمر يكون ضمير رفع منفصل [القاموس القويم] .

(٢) ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ : يقول عز وجل: لم تكن قرية آمنت فنفعها الإيمان إذا نزل بهم بأس الله ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ قيل: إنهم لما أظلهم العذاب ، وظنوا أنه قد دنا منهم ، وفقدوا يونس ، قذف الله فى قلوبهم التوبة ، وفرَّقوا بين كل أنثى وولدها ، وعَجُّوا - أى: رفعوا صوتهم بالتلبية - إلى الله أربعين ليلة ؛ فلما عرف صدق توبتهم كشف عنهم العذاب. ﴿ .. وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ : لم نعاجلهم بالعقوبة ، واستمتعوا بآجالهم فى الدنيا ، إلى حين مماتهم ووقت فناء أعمارهم. [مختصر تفسير الطبرى: ص ٢٤١ ، ٢٤٢].

أى: أنه كان يجب أن ينفر من كل طائفة عدد ليتدارسوا أمور الدين.

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا:

﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ..(٩٨) ﴾ [يونس]

أى: أنه لو أن هناك قرية آمنت قبل أن ينزل بها العذاب لأنجيناها كما أنجينا قوم يونس، أو كنا نحب أن يحدث الإيمان من قرية قبل أن يأتيها العذاب.

إذن: فقوم يونس هنا مُسْتثنون؛ لأنهم آمنوا قبل أن يأتيهم العذاب.

وهناك آية أخرى تتعلق بهذه القصة، يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ [1] (١٤٤) ﴾ [الصافات]

أى: أن الذى منع يونس عليه السلام أن يظل فى بطن الحوت إلى يوم البعث هو التسبيح.

وهنا يبيِّن الحق سبحانه الاستثناء الذى حدث لقوم يونس حين يقول:

﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

---

(١) المسبحون: هم المصلّون لله تعالى، قبل البلاء والعقوبة التي نزلت به. وقيل: المسبحون: هم الذاكرون، بقوله كثيراً فى بطن الحوت: ﴿ .. لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء].
﴿ .. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]: لصار بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة. [مختصر تفسير الطبرى، وتفسير الجلالين].

أى: أن الإيمان نفع قرية قوم يونس قبل أن يقع بهم العذاب.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿.. لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن كلمة «قرية» تعنى: مكاناً مُهيّأً، أهله متوطنون فيه، فإذا ما مَرَّ عليهم زائر فى أى وقت وجد عندهم قِرىً[1] أى: وجبة طعام.

ونحن نجد من يقول عن الموطن كثير السكان كلمة «بلد»، وهؤلاء من يملكون طعاماً دائماً، أما من يكونون قلة قليلة فى موطن ففى الغالب ليس عندهم من الطعام إلا القليل الذى يكفيهم ويكفى الزائر لمرة واحدة.

وتسمى مكة المكرمة «أم القرى»[2]؛ لأن كل القرى تزورها.

وقرية قوم يونس اسمها «نينوى» قد حكى عنها النبى ﷺ فى قصة الذهاب للطائف، وهى قرية العبد الصالح يونس بن مَتَّى[3]، وهى فى

---

(١) القرى: هو طعام الضَّيفان. والقرية فى اللغة: المصر أو البلد الكبير مثل: مصر، مكة، الطائف، نينوى، وغيرها مما أشار إليه القرآن، فقد وردت كلمة «القرية» فيه بهذا المعنى (٣٧ مرة) غير المثنى منها (١) والجمع (١٩) مرة.

(٢) قال عنها الحق سبحانه: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا..﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام]، ويقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا..﴿٧﴾﴾ [الشورى].

(٣) وذلك أن رسول الله ﷺ قابل غلاماً نصرانياً لعتبة وشيبة ابنى ربيعة يقال له عداس، فعندما هَمَّ رسول الله ﷺ بالأكل من عنب بستانهما قال: باسم الله. ثم أكل، فنظر عداس فى وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال له ﷺ: ومن أهل أىّ البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟ قال: نصرانى، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى. فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: ذاك أخى، كان نبياً وأنا نبى، فأكبّ عداس على رسول الله ﷺ يُقبِّل رأسه ويديه وقدميه. أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٤٢١/٢).

العراق ناحية الموصل ، ويونس هو من قال عنه الله سبحانه :

﴿وَذَا النُّونِ [1] إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا ..﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء]

وكلمة «مغاضب» غير كلمة «غاضب» ، فالغاضب هو الذى يغضب دون أن يُغضبه أحد ، لكن المغاضب هو من أغضبه غيره.

وكذلك كلمة «هجر» ، ومهاجر ، فالمهاجر هو من أجبره أناس على أن يهاجر ، لكن من هجر هو من ذهب طواعية بعيداً.

والمغاضبة - إذن - تكون من جهتين ، وتسمى «مفاعلة».

والحق سبحانه يقول:

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء]

وسُمِّى سيدنا يونس عليه السلام بذى النون ؛ لأن اسمه اقترن بالحوت الذى ابتلعه.

وكلنا نعرف القصة ، حينما دعا قومه إلى الإيمان وكفروا به فى البداية ؛ لأن الرسول حين يجىء إنما يجىء ليقوِّم الحياة الفاسدة ؛ فيضطهده من يعيشون على الفساد ؛ لأنهم يريدون الاحتفاظ بالجبروت الذى يسمح لهم بالسرقة والاختلاس وإرواء أهواء النفس ، فلما فعلوا ذلك مع سيدنا يونس - عليه السلام - خرج مغاضباً ، أى: أنهم أغضبوه.

والمغاضبة - كما قلنا - من المفاعلة وتحتاج إلى عنصرين ، مثلما أوضحنا أن الهجرة أيضاً مفاعلة ؛ لأن الرسول ﷺ لم يهجر مكة ، بل ألجأه قومه إلى أن يهاجر ، فكان لهم مدخل فى الفعل.

---

(١) النون: الحوت. و(ذو ، ذا ، ذى) بمعنى: صاحب . أى: صاحب الحوت ، وهو يونس عليه السلام.

وأبو الطيب المتنبى [(١)] يقول فى هذا المعنى:

إذَا ترحَّلت عن قومٍ وقد قَدروا   ألاَّ تُغادرِهم فَالرَّاحِلون هُمُ

أى: إن كنت تعيش مع قوم ، وأردت أن تفارقهم وقد قدروا أن تعيش معهم ، فالذى رحل حقيقة هم هؤلاء القوم.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد خروج يونس مغاضباً:

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ..(٨٧)﴾ [الأنبياء]

أى: أنه رجَّح أن الحق سبحانه لن يُضيِّق عليه الأرض الواسعة ، وسيهيىء له مكاناً آخر غير مكان المائة الألف أو يزيدون الذين بعثه الله تعالى إليهم.

وكان من المفروض أن يتحمل الأذى الصادر منهم تجاهه ، لكن هذا الظن - والظن ترجيح حكم - يدلنا على أن معارضة دعوته كانت شديدة تُحْفِظ [(٢)] وتملأ القلب بالألم والتعب..

وكان عليه أن يُوطِّن نفسه على مواجهة مشقات الدعوة.

والقرية التى أرسل إليها يونس عليه السلام هى قرية «نينوى» ، وهى التى جاء ذكرها فى أثناء حوار بين النبى ﷺ والغلام النصرانى «عداس» الذى قابله ﷺ فى طريق عودته من الطائف.

---

(١) هو: أحمد بن الحسين المتنبى ، شاعر حكيم ، ولد بالكوفة عام ٣٠٣ هـ ، ونشأ بالشام ، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس . توفى مقتولاً بالنعمانية ببغداد عام ٣٥٤ هـ عن ٥١ عاماً (الأعلام للزركلى ١/ ١١٥).

(٢) تحفظ: تغضب. والحفيظة: الغضب. ويقال: إن الحفائظ تذهب الأحقاد: أى: إذا رأيت حميمك يُظلم حميت له ، وإن كان عليه فى قلبك حقد. [اللسان مادة حفظ].

وكان النبى ﷺ قد ذهب إلى الطائف ليطلب من أهلها النصرة بعد أن آذاه قومه فى مكة فلم يجد النصير [١]، وجلس النبى ﷺ قريباً من حائط بستان.

فلما رآه صاحبا البستان - عتبة وشيبة ابنا ربيعة - وما لقى من السفهاء؛ تحركت له رحمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً، يقال له عَدَّاس، فقالا له: خُذْ قطْفاً من هذا العنب، فضعه فى هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجَل، فقل له يأكل منه، ففعل عَدَّاس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ ثم قال له: كُلْ، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده، قال: باسم الله، ثم أكل، فنظر عداس فى وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: «ومنْ أهل أىِّ البلاد أنت يا عدَّاس، وما دينك؟». قال: نصرانى، وأنا رجَل من أهل نينوى؛ فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس ابن مَتَّى»؛ فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متَّى؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذاك أخى، كان نبياً وأنا نبى». فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يُقَبِّل رأسه ويديه وقدميه.

ولما سأل صاحبا البستان عدَّاساً عن صنيعه هذا. قال لهما: لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبى [٢].

---

(١) لما يئس رسول الله ﷺ من قومه بمكة الذين آذوه وآذوا المسلمين لجأ إلى «الطائف» يطلب نصرة «ثقيف» وكلمهم وعرض عليهم الإسلام، فما كان منهم إلا أن رفضوا الأمر، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجأوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة. ورجع عنه سفهاء ثقيف، فعمد إلى ظل شجرة عنب فجلس فيه. وهنا دعا رسول الله ﷺ ربه قائلاً: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك، أو يحل علىَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك». [السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٤١٩، ٤٢٠].. بتصرف.

(٢) انظر: تفصيل هذه القصة فى السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤١٩ - ٤٢١).

ونحن نعلم أن العبد الصالح - يونس عليه السلام - قد تأثر وحزن وغضب من عدم استجابة قومه لرسالته الإيمانية ، إلى أن رأوا غَيْماً يملأ السماء وعواصف ، وألقى الله تعالى فى خواطرهم أن هذه العواصف هى بداية عذاب الله لهم [1] ؛ فَهُرعوا إلى ذوى الرأى فيهم ، فأشاروا عليهم بأن هذه هى بوادر العذاب ، وقالوا لهم : عليكم بإرضاء يونس ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أرسله ، فآمنوا به ليكشف عنكم الغُمَّة .

وهُرع الناس إلى الإيمان بالحى الذى لا يموت ، الحيُّ حين لا حيَّ ، والقيوم والمُحيى والمميت .

وذهب قوم يونس عليه السلام لاسترضائه ؛ وحين رضى عنهم بدأوا ينظرون فى المظالم التى ارتكبوها ، حتى إن الرجل منهم كان ينقض ويهدم جدار بيته ؛ لأن فيه حجراً قد اختلسه من جار له [2] .

وكشف الله سبحانه وتعالى عنهم العذاب ، وهنا يقول سبحانه :

﴿ .. كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [3] وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس]

ومن لوازم قصة يونس عليه السلام ، ليست المغاضبة فقط ، بل قصته مع الحوت ، فقد كان عليه السلام بعد مغاضبته لقومه قد ركب سفينة ،

(١) وهذا يتوافق مع ما قاله الزجاج : «إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب ، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان» واختاره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣١٢) .

(٢) نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣١٢) من قول ابن مسعود .

(٣) اختلف المفسرون ، هل كشف عنهم العذاب الأخروى مع الدنيوى ، أم كشف عنهم العذاب فى الدنيا فقط ؟ على قولين :

* الأول : إنما كان ذلك فى الحياة الدنيا ، على ظاهر الآية الكريمة .

* والثانى : كشف العذاب فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ؛ لقول الله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات] فأطلق عليهم الإيمان ؛ والإيمان منقذ من العذاب الأخروى ، وهذا هو الظاهر ، و الله أعلم . [ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٣٣)] .

فلعبت بها الأمواج فاضطربت اضطراباً شديداً ، وأشرفت على الغرق بركابها ؛ فألقوا الأمتعة فى البحر ؛ لتخفَّ بهم السفينة ؛ فاستمر اضطرابها ، فاقترعوا على أن يلقوا إلى البحر مَن تقع عليه القرعة ، فوقعت القرعة على نبى الله يونس عليه السلام.

مثلما نركب مصعداً ، فنجد الضوء الأحمر وقد أضاء إنذاراً لنا بأن الحمولة زائدة ، وأن المصعد لن يعمل فيخرج منه واحد أو أكثر حتى يتبقى العدد المسموح به ، وعادة يكون الخارج من أحسن الموجودين خُلقاً ، لأنهم أرادوا تسهيل أعمال الآخرين.

كذلك كان الأمر مع السفينة التى ركبها يونس عليه السلام ، كادت أن تغرق ، فاقترعوا ، وصار على يونس أن ينزل إلى البحر.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ [1] (١٤١) ﴾ [الصافات]

ونزل يونس عليه السلام إلى البحر فالتقمه [2] الحوت وابتلعه.

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن وجود سيدنا يونس عليه السلام فى بطن الحوت:

﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه:

---

(١) ساهم: قارع ، أى: اشترك فى الاقتراع. المدحضين: المغلوبين إذ وقع الاقتراع عليه. [ابن كثير ٤/ ٢٠ - بتصرف].

(٢) التقمه: ابتلعه فى سرعة. قال سبحانه: ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) ﴾ [الصافات] ، والمليم: هو مَنْ أتى ذنباً يُلام عليه.

﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..(٩٨) ﴾ [يونس]

وعذاب الخزى فى الحياة الدنيا يمكن أن تراه مُجسَّداً فيمن افترى وتكبَّر على الناس ، ثم يراه الناس فى هوان ومذلة ، هذا هو عذاب الخزى فى الدنيا ، ولا بد أن عذاب الآخرة أخْزَى وأشَدُّ.

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ ..وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

أى: أنهم نَجَواْ من الهلاك بالعذاب إلى أن انتهت آجالهم بالموت الطبيعى.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ[1] حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾

والحق سبحانه وتعالى يبيِّن لنا أنه إن قامت معركة بين نبى مرسل ومعه المؤمنون به ، وبين من كفروا به ، فلا بد أن يُنزل الحق سبحانه العذاب بمن كفروا .

---

(١) تُكره الناس: تلزمهم وتلجئهم. أى: ليس ذلك عليك يا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بل الله تعالى يُضل من يشاء ويهدى من يشاء. كما قال تعالى فى ذلك: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) ﴾ [هود]. وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ .. (٢٧٢) ﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [القصص]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله سبحانه هو الفعال لما يريد ، الهادى من يشاء ، المضل لمن يشاء ؛ لعلمه وحكمته وعدله - سبحانه. [تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٣٣] بتصرف.

وإياك أن تفهم أن الحق سبحانه يحتاج إلى عبادة الناس ؛ لأن الله عَزَّ وجل قديم أزلىٌّ بكل صفات الكمال فيه قبل أنْ يخلق الخلق ، وبكماله خلق الخلق ، وقوته سبحانه وتعالى فى ذاته ، وهو خالق من قبل أن يخلق الخلق ، ورازق قبل أن يخلق الرزق والمرزوق ، والخلق من آثار صفات الكمال فيه ، وهو الذى أوجد كل شىء من عدم.

ولذلك يُسمّون صفاته سبحانه وتعالى صفات الذات ؛ لأنها موجودة فيه من قبل أن يوجد متعلقها.

فحين تقول: حىٌّ ، ومُحْيِ ، فليس معنى ذلك أن الله تعالى موصوف بـ «مُحْيٍ» بعد أن وجد مَنْ يحييه ، لا ، إنه مُحيٍ ، وبهذه الصفة أحيا.

ولله المثل الأعلى ، وهو سبحانه مُنزَّه عن كل تشبيه: قد نرى المصوِّر أو الرسام الذى صنع لوحة جميلة ، هنا نرى أثر موهبة الرسم التى مارسها ، واللوحة ليست إلا أثراً لهذه الموهبة.

الحق سبحانه وتعالى - إذن - له كل صفات الكمال قبل أن يخلق الخلق ، وبصفات الكمال خَلَق الخَلْق.

فإياك أن تفهم أن هناك أمراً قد جَدَّ على الله تعالى ، فلا شىء يجدُّ على الحق سبحانه ، وهو سبحانه لا ينتفع من خلقه بل هو الذى ينفعهم.

ونحن نعلم أن الإيمان مطلوب من الإنسان ، وهو الجنس الظاهر لنا ونحن منه ، ومطلوب من جنس آخر أخبرنا عنه الله - تبارك وتعالى - وهو الجن [1]

---

(١) وذلك فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات].

وأما بقية الكون فمُسبِّح [1] مؤمن بالله تعالى ، والكون عوالم لا حصر لها ، ولكلٍّ نظام لا يحيد عنه.

ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يُدخل الثقلين - الإنس والجن - فى نظام التسخير ما عَزَّ عليه ذلك ، لكن هذا التسخير يثبت له القدرة ولا يثبت له المحبوبية.

ولذلك ترك الحق سبحانه الإنسان مختاراً ليؤمن أو لا يؤمن ، وهذا ما يثبت له المحبوبية إن جئته مؤمناً ، وهذا يختلف عن إيمان القَسْر والقهر ، فالإيمان المطلوب من الإنسان أو الجن هو إيمان الاختيار.

وأما إيمان القسر والقهر ، فكل ما فى الكون من عوالم مؤمن بالحق سبحانه ، مُسبِّح له.

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

وهذا ليس تسبيح [2] دلالة ورمز ، بل هو تسبيح حقيقى ، بدليل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

فإن فقَّهك الله تعالى فى لغاتهم لعلمت تسبيح الكائنات ، بدليل أنه

---

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]. ويقول تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) ﴾ [الحشر].

(٢) تسبيح الدلالة والرمز نلحظه يقيناً فى حركة الجماد وحركة ونمو وتنفس النبات ، وحركة ونمو وتنفس وغريزة الحيوان ، وحركة ونمو وتنفس وتعقل الإنسان ؛ فكل حركة لها محرك ، وفى الحركة تسبيح ، وفوق ذلك نجد للأرض والسماء بكاء فى قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾ [الدخان] ، والبكاء يصدر عن عاطفة والعاطفة تصدر عن علم ، وهذه المراتب تسبيح بحقيقة لا يدركها عقل وقد يحسُّها قلب.

عَلَّم سليمان عليه السلام منطق الطير [(١)] ، وسمع النملة تقول:

﴿ ..يَـٰٓأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [النمل]

والهدهد قال لسليمان عليه السلام ما رآه عن بلقيس ملكة سبأ:

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النمل]

إذن: فكل ما في الكون مُسبِّح لله تعالى ، يسير على منهجه سبحانه ما عدا المختار من الثقلين: الإنسان والجان ؛ لأن كلاً منهما فيه عقلٌ ، وله مَيْزة الاختيار بين البدائل.

ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أن خلق للإنسان الاختيار حتى يذهب المؤمن إليه اختياراً ، ولو شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجبر الإنسان على الإيمان لَفعلَ.

أقول ذلك حتى لا يقولن أحد: ولماذا كل هذه المسائل من خَلْق وإرسال رُسل ، وتكذيب أناس ، ثم إهلاك المكذِّبين ؟

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس]

---

(١) فربُّ العزة سبحانه يقول عن سليمان عليه السلام: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل].

إذن: فالحق سبحانه خلق الإنسان وسخَّر له كل الأجناس ، ولم يجبره على الإيمان ، بل يقول سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ [١] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

وكان رسول الله ﷺ مُحبّاً مخلصاً لقومه وعشيرته ، وذاق حلاوة الإيمان ، وحزن لأنهم لم يؤمنوا ، فينبهه الحق سبحانه وتعالى أن عليه مهمة البلاغ فقط ، فلا يكلّف نفسه شَططاً [٢].

والحق سبحانه وتعالى شاء أن يجعل للإنسان حقَّ الاختيار وسخَّر له الكون ، ومن الناس من يؤمن ، ومن الناس من يكفر ، بل ومن المؤمنين من يطيع مرة ، ويعصى أخرى ، وهذه هى مشيئة الحق ليتوازن الكون ، فكل صفة خيِّرة إنْ وجد من يعارض فيها فهذا ما شاءه الله سبحانه وتعالى للإنسان ، فلا تحزن يا رسول الله ؛ فالحق سبحانه وتعالى شاء ذلك.

وإنْ غضب واحد من أن الآخرين لم يعترفوا بصفاته الطيبة نقول له: إن الحق سبحانه هو خالق الكون وهو الرازق ، قد كفروا به وألحدوا ، وجعلوا له شركاء ، فتَخلَّقوا بأخلاق الله ؟

ولذلك قال الحق سبحانه:

---

(١) باخع : أى: مهلك نفسك ، أى: مما تحرص وتحزن عليهم لعدم إيمانهم. وهذه تسلية من الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ فى عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار. كما قال تعالى : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ .. (٨) ﴾ [فاطر]. وكقوله سبحانه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ .. (٦) ﴾ [الكهف].
قال مجاهد وعكرمة وآخرون: باخع نفسك: أى: قاتل نفسك. وقد قال الشاعر:
ألا أيهذا الباخعُ الحزْنُ نفْسه ... لشىء نحتْه عن يديه المقَادرُ
[ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٣١)] بتصرف.

(٢) الشطط: الجور ومجاوزة القَدْر فى كل شىء ، والمقصود : لا تظلم نفسك ، ولا تتجاوز الحد فى الحزن عليهم. ومنه قوله تعالى عن الخصمين اللذين طلبا حكم داود بينهما ، فقالا له : ﴿ .. فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) ﴾ [ص].

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس]

إنه سبحانه وتعالى يريد إيمان المحبة وإيمان الاختيار .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ[1] عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

هكذا يُبيِّن لنا الحق سبحانه أن أحداً لا يؤمن إلا بإذن من الله تعالى ؛ لأن معنى أن تؤمن أن يكون إيمانك إيمان فطرة نتيجة تفكُّر فى سماء ذات أبراج[2] ، وأرض ذات فجَاج[3] ، وبحار تَزْخر[4] ، ورياح تَصْفر ، كل ذلك يدل على وجود الخَالق سبحانه.

لكن أتَركَ الله سبحانه وتعالى الناس للفطرة ؟

(١) الرجس : الخبال والضلال . [ابن كثير ٢/ ٤٣٣]. قال الزجاج : الرجس فى اللغة اسم لكل ما استقذر من عمل ، فبالغ الله تعالى فى ذم هذه الأشياء وسمَّاها رجساً . وللرجس معان أخرى ، فهو العذاب كالرِّجز ، وهو المأثم وهو الشك فى مثل قوله تعالى : ﴿ ..إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

(٢) الأبراج : جمع برج . وهى منازل الأفلاك فى السماء أو هى الكواكب . وقيل : هى النجوم . [انظر لسان العرب : مادة برج].

(٣) فجاج : جمع فج . وهو الطريق الواسع بين جبلين . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [نوح] . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنبياء] . وقال تعالى فى صيغة المفرد : ﴿ .. وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحج].

(٤) بحار تزخر : أى : كثر ماؤها وارتفعت أمواجها . وزخر القوم : جاشوا لنفير أو حرب . [لسان العرب ، مادة : زخر] وهذه الجمل من خطبة خطبها قُس بن ساعدة الإيادى فى الجاهلية ، كان أولها : « أيها الناس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت» انظر : البيان والتبيين - للجاحظ (١/ ٣٠٨).

لا ، بل أرسل سبحانه لهم الرسل ليذكّروهم بالآيات الموجودة فى الكون ، ولينتبه الغافل ؛ لأنه سبحانه لا يريد أن يأخذ الناس على حين غفلة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ..لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) ﴾ [الأنعام]

لذلك ينبههم الحق سبحانه بأن هناك أشياء كان يجب أن تُذكر ، وكأن الحق سبحانه يُبيِّن لنا : إياكم أن تفهموا أن أحداً يخرج عن مُلكى إلا بإرادتى ، فأنا بخلقى له مختاراً سمحت له أن يكفر أو يؤمن ، وسمحت له أن يطيع أو أن يعصى .

كل ذلك من أجل أن يثبت لى صفة المحبوبية .

لذلك فلا أحد يؤمن إلا بإذن الله سبحانه وتعالى ، ولا أحد يكفر إلا بإذنه سبحانه ؛ لأن مَنْ خلقه مختاراً عَلمَ برضاء منه بما يكون من المخلوق ، فالكافر لم يكفر قهراً ، والمؤمن لم يؤمن قهراً من الله سبحانه .

وساعةَ يأتى الرسول ليعرض قضية الإيمان ، يتذكر الإنسان إيمان الفطرة ويقول : لقد جاء هذا الرسول بهذا المنهج ليعدِّل لى حياتى ، فلا بد أن أرْهِفَ[1] له السمع .

وساعة يُقْبل العبد على الله تعالى ، فسبحانه يأذن له أن يدخل إلى حظيرة الإيمان .

إن العبد منَّا إذا ما ذهب للقاء عبد مثله له سيادة وجاه ، ويدرك العبد صاحب السيادة والجاه - بفضل من الله - السبب الذى جاء من أجله العبد الآخر ؛ فيقول صاحب السيادة لمعاونيه : لا تُدْخلوه. وهو يقول ذلك ؛

(١) إرهاف السمع : الإنصات الشديد. والرهافة فى اللغة : الرقة واللطف. [اللسان : مادة رهف].

لأن الله سبحانه أطلعه على ما فى قلب العبد الآخر من غلٍّ ومن حقدٍ ومن نفاق.

أما إذا دقَّ بابه عبد آخر ، فتجده يأمر معاونيه أنْ يُدخلوه وأن يفسحوا له ؛ لأنه علم بما فى قلبه من محبة ورغبة فى صدْق اللقاء والمودة.

إذا كان هذا يحدث بين العباد ، وهم كلهم أغيار ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى؟

والله سبحانه هو القائل فى حديث قدسى : «من ذكرنى فى نفسه ذكرتُه فى ملأ خير منه».

ما بالنا بالعبد إذا دخل على الإيمان بالله غير مشحون بعقيدة عدا الله.

إذن : أقْبِلْ على الله سبحانه وعلى ذكر الله ، وأنت إنْ ذكرت الله فى نفسك ، فالله يذكرك فى نفسه ، وإن ذكرته فى ملأ ذكرك فى ملأ خير منه ، فالملأ الذى ستذكره فيه ملأ خَطَّاءٌ ، والله سبحانه سيذكرك فى ملأ طاهر.

ويقول الحق سبحانه فى ذات الحديث القدسى [1] : «إنْ تقرَّب إلىَّ شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً».

والذراع أطول من الشِّبر.

ويقول : «وإن أتانى يمشى أتيته هرولة».

فالمشى قد يُتعب العبد ، لذلك يُسرع إليه الحق عز وجل ، وهو سبحانه بكل ربوبيته ما إنْ يعلمْ أن عبداً قد صفا قلبه من خصومة الله تعالى فى

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) ، وتمامه : «أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حيث يذكرنى ، والله ، لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة ، من تقرب إلىَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومَنْ تقرب إلىَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإذا أقبل إلىَّ يمشى أقبلت إليه أهرول».

شىء ، حتى يفتح أمامه أبواب محبته سبحانه ، فيحبِّب فيه خلقه ، ويجعل له مدخل صدق فى كل أمر ومخرج صدق من كل ضيق، وهو الحق القائل :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

ونلحظ أن الحق سبحانه يؤكد فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها أنه لو شاء لآمن مَنْ فى الأرض جميعاً ؛ ليبيِّن لنا أنه حتى إبليس الذى دخل فى جدالٍ مع الله ، لو شاء الحق سبحانه لآمن إبليس.

وجاء الحق سبحانه بهذا التأكيد ؛ لِيُحْكِمَ الأمرَ حول كل خَلْقه ومخلوقاته ، فلا يشذ منهم أحد.

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ .. أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس]

أراد الحق سبحانه أن يُنبِّه رسوله ﷺ وكل المؤمنين أنه :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة]

لأن مطلوبات الدين ليست هى المطلوبات الظاهرة فقط التى تقع عليها العين ، فهناك مطلوبات أخرى مستترة ، فَهَبْ أنك أكرهت قالباً أتستطيع أن تُكرِه قلباً ؟

والحق سبحانه وتعالى يريد قلوباً لا قوالب [1] .

وهكذا لا يصلح الإكراه فى قضية الدين ، ولكن على الإنسان ألاَّ يسحب الإكراه إلى غير موضعه أو مجاله ؛ لأنك قد تجد مسلماً

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٤) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٨٥ ، ٥٣٩) وابن ماجه فى سننه (٤١٤٣) ، واللفظ لمسلم. والقلوب لها الوجدان والاختيار والحب والكره ، والقوالب مادة تسير حسب الإدراك الذى انفعل بوجدان ، ووجدان وضع أمامه البدائل ليختار ، ويُسمَّى (النزوع) .

لا يصلّى فينهره صديقه ، فيردّ : لا إكراه فى الدين . وهذا استخدام غير صحيح واستدلال خاطىء ؛ لأن الإكراه فى الدين إنما يكون ممنوعاً فى القضية العقدية الأولى .

ولكن مَنْ أعلن أنه مسلم ، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فهذا إعلان بالالتزام بكل أحكام الإسلام ، وهو محسوب على الإسلام ، فإنْ أخلّ بحكمٍ من أحكام الإسلام فلا بد من محاسبته .

ولا إكراه فى الدين ، فيما يخصُّ القضية العقدية الأولى ، وأنت حُرٌّ فى أن تدخل إلى الإسلام أو لا تدخل ، فإنْ دخلت الإسلام فأنت ملتزم بأحكام الإسلام ؛ لأنك آمنت به وصرْتَ محسوباً عليه ، واحفظ حدود الإسلام ولا تكسرها ؛ لأنك على سبيل المثال - لا قدر الله - إن سرقت ؛ تُقطع يدك ، وإنْ زنيت تُرجَم أو تُجلد [1] ، وإنْ شربت الخمر تُجلد ؛ لأنك قبلتَ قواعد الإسلام وشريعته .

وإنْ رأى واحدٌ مسلماً يسرق ، فلا يقولن إن الإسلام يُسرِّق ، ولكن إن رآه يُعاقَب ، فهو يعرف أن الإسلام يعاقب مَنْ يجرم .

إذن : فـ ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ..(٢٥٦)﴾ [البقرة]

تخص المنع عن الإكراه على أصل الدين ، ولكن بعد أن تؤمن فأنت ملتزم بفرعيات الدين ، وتعاقب إنْ خرجتَ على الحدود .

والرسول ﷺ يقول : «مَثَلُ القائم على حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا [2] على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ،

---

(١) للزنا فى شريعة الإسلام عقوبتان : الرجم ، أو الجلد . أما الرجم فيعاقب به الزانى المحصن الذى قد أحصن بالزواج . أما الجلد مائة فهو لغير المتزوج أو لم يسبق له الزواج ، فيجلد مائة جلدة تطبيقاً لقول الله عز وجل : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [النور] .

(٢) استهموا : اقترعوا .

فكان الذين فى أسفلها إذا استَقَواْ من الماء مرُّوا على مَنْ فوقهم فقالوا : لو أنَّا خرقنا فى نصيبنا خُرْقاً ولم نُؤذ مَنْ فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعاً»[١] .

إذن : فالالتزام بفروع الدين أمر واجب ممن دخل الدين دون إكراه ، وإنْ خدش حكماً من الأحكام يُعاقب .

وهناك ما هو أشدُّ من ذلك ، وهو حكم مَنْ ارتد عن الإسلام ، وهو القتل[٢] .

وقد يقول قائل : إن هذا الأمر يمثل الوحشية . فنقول له : إن من التزم بالدين ، إنما قد علم بداية أنه إنْ آمن ثم ارتد ، فسوف يُقتَل ؛ ولذلك فليس له أن يدخل إلى الإسلام إلا بيقين الإيمان .

وهذا الشرط للدين ؛ لا على الدين . فلا تدخل على الدين إلا وأنت متيقِّن أن أوامر الدين فوق شهواتك ، واعلمْ أنك إنْ دخلتَ على الدين ثم تَخلَّيْتَ عنه فسوف تُقْتَل ، وفى هذا تصعيب لأمر دخول الدين ، فلا يدخله أحد إلا وهو واثق من يقينه الإيمانى ، وهذا أمر محسوب للدين لا ضد الدين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾ [يونس]

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٩٣) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٦٨) والترمذى فى سننه (٢١٧٣) وقال : حسن صحيح .

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «مَنْ بدَّل دينه فاقتلوه» . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٩٢٢) وأحمد فى مسنده (١/ ٢١٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٢٣) وابن ماجه فى سننه (٢٥٣٥) .
– وقد قال رسول الله ﷺ فى حديث آخر عن ابن مسعود : «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنِّى رسول الله بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والمفارق لدينه التارك للجماعة» أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦) .

والرجس : هو العذاب ، وهو الذنب ، ويجعله الحق سبحانه وتعالى على الذين لا يعقلون ؛ لأن قضية الدين إذا طُرِحَتْ على العقل بدون هَوىً ؛ لا بُدَّ أن ينتهى العقل إلى الإيمان .

ولذلك تجد القمم الفكرية حين يدرسون الدين ؛ فهم يتجهون إلى الإسلام ؛ لأنه هو الدين الذى يشفى الغُلَّة [1] ، أما الذين أخذوا الدين كميراث عن الآباء ، فهم يظلون على حالهم .

وبعض القمم الفكرية فى العالم التى اتجهت إلى اعتناق الإسلام ، لم تتجه إليه بسبب رؤيتهم لسلوك المسلمين ؛ لأن سلوك المنسوبين للإسلام فى زماننا قد ابتعد عن الدين .

ولذلك فقد اتجهت تلك القمم الفكرية للإسلام إلى دراسة مبادىء الإسلام ، وفرّقوا بين مبادىء الدين ، وبين المنتمين للدين ، وهذا إنصاف فى البحث العقلى ؛ لأن الدين حين يُجرِّم عملاً ، فليس فى ذلك التجريم إذْنٌ من الدين بحدوث مثل هذا الفعل المجرم ، بدليل تقدير العقاب حسب خطورة الجريمة .

فالحق سبحانه قد قال :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ..(٣٨) ﴾ [المائدة]

إنه الإذن باحتمال ارتكاب السرقة ، وكذلك الأمر بالنسبة للزنا [2] ،

(١) الغلة فى اللغة : شدة العطش ، فاستعير لما يتلهف الإنسان لمعرفته ودرسه كالظمآن يطلب الماء .

(٢) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) ﴾ [الإسراء] . ويقول سبحانه : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾ [النور] .

وغير ذلك من الجرائم التى جعل لها الحق سبحانه عقوبات تتناسب مع الضرر الواقع على النفس أو المجتمع من وقوعها ، فإذا رأيت مسلماً يسرق ، فتذكَّر العقاب الذى أوقعه الإسلام على السارق ، وإنْ رأيتَ مسلماً يزنى ، فَتذكَّر العقوبة التى حددها الحق سبحانه للزانى.

وهكذا الحال فى جميع الجرائم.

وكبار المفكرين العالميين الذين يتجهون إلى الإسلام إنما يدرسون مبادىء الدين مفصولة عن سلوك المسلمين المعاصرين ، الذين ابتعدوا عن مبادىء الدين الحنيف.

وها هو ذا «چينو» المفكر الفرنسى يقول : « الحمد لله الذى هدانى للإسلام قبل أن أعرف المسلمين ، فلو كنتُ قد عرفتُ المسلمين قبل الإسلام لكان هناك احتمال لزلزلة فى النفس تجعلنى أتردد فى الدخول إلى هذا الدين الرفيع المقام».

إذن : فإعمال العقل الراقى لا بد أن يؤدى إلى الإسلام لأنه فطرة الله ، والإسلام يُنمِّيها ، ويرتقى بها ، والعقل هو مَنَاطُ التكليف.

والرجس والذنب والعذاب كله إنما يقع على الذين لا يُعْملون عقولهم ، وإعمال العقل المتعقل للقيم ينفى الرجس ؛ لأنهم سيُقبلونَ على التدين بإذن الله تعالى لهم أن يدخلوا على الإيمان به.

وإذا سألنى سائل : ما هو العقل ؟ وما هو مَنَاطُ التكليف ؟

نجد أن كلمة «عقل» مأخوذة من عقَال البعير ، وهو ما يُشَدُّ على رُكْبته حتى لا ينهض ، ويظل ساكناً ، وحين يريد صاحبه أن يُنهضه فهو يفكُّ العقال.

وأهل الخليج يضعون على رؤوسهم غطاء للرأس (غُتْرة) ويثبتونه بنسيج مغزول على هيئة حلقتين ، ويسمون هاتين الحلقتين «العقال» ؛ لأنه يمنع غطاء الرأس من أن يحركه الهواء ، أو يُطيِّره.

إذن : فالعقل أراده الله سبحانه لنا ليحجزنا عن الانطلاق والفوضى فى تحقيق شهوات النفس ؛ لأنه سبحانه قد خلق النفس البشرية ، ويعلم أنها تحب الشهوات العاجلة ، فأراد سبحانه للإنسان أن يكبح جماح تلك الشهوات بالعقل.

فحين يفكر الإنسان فى تحقيق الشهوة العاجلة ، يجد عقله وهو يهمس له : إنك ستستمتع بالشهوة العاجلة دقائق ، وأنت قد تأخذها من غيرك ؛ من محارمه أو من ماله ، فهل تسمح لغيرك أن يأخذ شهوته العاجلة منك؟

إذن : عليك أن تعلم أن العقل إنما أراده الله سبحانه لك ليعقلك عن الحركة التى فيها هَوى ، وتحقق بها شهوة ليست لك ، ومغبَّتها [1] متعبة.

ويخطىء مَنْ يظن أن العقل يفتح الباب أمام الانطلاق اللا مسئول باسم الحرية ، ونقول لمن يظن مثل هذا الظن : إن العقل هو مَنَاطُ التكليف ، وهو الذى يوضِّح لك آفاق المسئولية فى كل سلوك.

ومن عدالة الحق سبحانه أنه لم يكلِّف المجنون ؛ لأن حكم المجنون على الأشياء والأفعال هو حكم غير طبيعى ؛ لأنه يفتقد آلة الاختيار بين البدائل.

وكذلك لم يكلف الله سبحانه مَنْ لم ينضج بالبلوغ ؛ لأنه غير مُسْتوفٍ للمَلَكات ، ولم تستوِ لديه القدرة على إنجاب مثيل له.

وقد ضربنا من قبل المثل بالثمرة ، وقلنا : إنه لا يقال إن الثمرة نضجت وصار طَعْمها مقبولاً مستساغاً إلا إذا أصبحت البذرة التى فيها قادرة على

(١) غِبّ الأمر مَغَبَّتُهُ : عاقبته وآخره. [لسان العرب : مادة (غ ب ب)].

أن تنبت منها شجرة إن زرعناها فى الأرض.

وأنت مثلاً حين تقطع البطيخة ، وتجد لُبَّها أبيض اللون فأنت لا تأكلها، وتحرص على أن تأكل البطيخة ذات البذر الذى صار أسود اللون ؛ لأنه دليل نُضْج البطيخة ، وأنت حين تأخذ هذا اللبَّ وتزرعه ينتج لك بطيخاً.

إذن : فاكتمال الإنسان بالبلوغ يتيح لعقله أن يَزِنَ السلوك قبل الإقدام عليه ، والتكليف إنما يكون للعاقل البالغ غير المكرَه بقوةٍ تقهره على أن يفعل ما لا يعقله.

أما قبل البلوغ فالتكليف ليس من الله ، بل من الأسرة ، لتدربه على الطاعة.

ورسول الله ﷺ يقول لنا : «مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين ، وفرِّقوا بينهم فى المضاجع [1]» [2].

وهنا نجد أن الذى يأمر هو الأب وليس الله ، والذى يعاقب هو الأب ، وليس الله ، وما إن يصل الابن إلى مرحلة البلوغ يبدأ تكليفه من الله .

أما إذا جاء مَنْ يُكْرهه على أن يرتكب معصية بقوة تفوق قوته كأن يمسك (مسدساً) ويقولَ له : إن لم تشرب الخمر أطلقتُ عليك النار ، فهنا يرفع عنه التكليف.

ورسول الله ﷺ يقول فى الحديث الشريف : «إن الله تجاوز عن أمتى : الخطأ ، والنسيان ، وما استُكرهوا عليه» [3].

---

(١) المضاجع : أماكن النوم سواء أكانت فُرُشاً أو غيرها.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٨٧) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٣) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٠٤٥) والدار قطنى فى سننه (٤/ ١٧٠) والحاكم فى المستدرك (٢/ ١٩٨) وصححه على شرط الشيخين ، عن ابن عباس ، ولكن إسناد ابن ماجه منقطع.

فالعقل - إذن - هو مناط التكليف ، وعمله أن يختار بين البدائل فى كل شىء ، ففى الطعام مثلاً نجد مَنْ يهوى وضع (الشطة) فوق الطعام ؛ لأنها تفتح شهيته للطعام ، وبعد أن يأكل نجده صارخاً من الحموضة ، ويطلب المهضِّمات ، وقد لا تفلح معه ، بل وقد تُفسد له الغشاء المخاطى الموجود على جدار المعدة لحمايتها ؛ فَرُبَّ أَكْلة منعتْ أكلات ؛ ولذلك نجد عقله يقول له : احذر من هذا اللون من المشهيات ؛ لأنه ضارٌّ بك.

وهكذا نجد العقل هو الذى يوضح للإنسان نتائج كل فعل ، وهو الذى يدفع إلى التأنى والإجادة فى العمل ؛ ليكون ناتج العمل مفيداً لك ولغيرك باستمرار ، ولم يأتِ العقل للإنسان ليستمرئ به الخطأ والخطايا.

وهكذا نجد أن العقل يدرك ويختار السلوك الملائم لكل موقف ، بل إن العقل يدعو الإنسان إلى الإيمان حتى فى مرحلة ما قبل التكليف ، فحين يتأمل الإنسان بعقله هذا الكون لا بُدَّ أن يقوده التأمل إلى الاعتراف بجميل صنيع الخالق سبحانه وتعالى.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ[1] ﴿١٠١﴾ ﴾

وهنا يُحدِّثنا الحق سبحانه عن عالم المُلْك الذى تراه ، ولا يتكلم عن عالم الملكوت الذى يغيب عنك ، وكأنك إن اقتنعت بعالم الملك ، وقلت :

(١) قل انظروا ماذا فى السموات والأرض: أمر للكفار بالنظر والاعتبار فى المصنوعات الدالة على الصانع والقادر على الكمال، والآيات هنا بمعنى: الأدلة والبراهين على ألوهية الله ووحدانيته، والآية تفيد عموم النظر فى ملكوت الله لكل مَنْ أراد أن يتذكر أو يتدبر . والنذر: الرسل، جمع نذير، وهو الرسول ﷺ. عن قوم يؤمنون: أى: عمَّن سبق له فى علم الله سبحانه أنه لا يؤمن. [تفسير القرطبى : ٤/ ٣٣١٤] - بتصرف.

إن لهذا العالم خالقاً إلهاً قادراً قوياً ، وتؤمن به ؛ هنا تهبُّ عليك نفحات الغيب ؛ لتصل إلى عالم الملكوت ؛ لأنك اكتشفت فى داخلك أمانتك مع نفسك ، وأعلنت إيمانك بالخالق سبحانه ، ورأيت جميل صُنْعه فى السماء والكواكب ، وأعجبْتَ بدقة نظام سَيْر تلك الكواكب .

وترى التوقيت الدقيق لظهور الشمس والقمر ومواعيد الخسوف الكلى أو الجزئى ، وتُبهر بدقة المنظِّم الخالق سبحانه وتعالى ، ولن تجد زحام مرور بين الكواكب يعطل القمر أو يعطل الأرض ، ولن يتوقف كوكب ما لنفاد وقوده ، بل كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [1] ﴿٤٠﴾﴾ [يس]

ونحن فى حياتنا حين نرى دقة الصنعة بكثير فيما هو أقل من السماء والشمس والقمر ، فنحن نكرِّم الصانع ، وقد أكرمت البشرية مصمِّم التلغراف ، ومصمم جهاز التليفزيون ، فما بالنا بخالق الكون كله سبحانه .

ويكفى أن نعلم أن الشمس تبعد عنا مسافة ثمانى دقائق ضوئية ، والثانية الضوئية تساوى ثلاثمائة ألف كيلو متر ، وهى شمس واحدة تراها ، غير آلاف الشموس الأخرى فى المجرَّات الأولى ، وكل مجرَّة فيها ملايين من المجموعات الشمسية ، ويكفى أن تعلم أن الحق سبحانه قد أقسم

---

(١) لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر : قال الثورى : أى : لا يدرك هذا ضوء هذا ، ولا هذا ضوء هذا. وقال عكرمة : يعنى أن لكل منهما سلطاناً ، فلا ينبغى للشمس أن تطلع بالليل . ولا الليل سابق النهار : قال مجاهد : يطلبان حثيثين يُسلخ أحدهما من الآخر ، والمعنى فى هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخٍ ؛ لأنهما مسخران دائبان والفلك : جمع أفلاك ، وهى المدارات فى السماء التى تدور فيها النجومُ والكواكب ؛ فكأنها تسبح فى الفضاء . [تفسير ابن كثير : ٣/ ٥٧٣] بتصرف . « وهذا دليل على تقدير العزيز العليم » .

بالشمس [١]، وقال عن كوكب الشِّعْرى :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ [٢] (٤٩) ﴾ [النجم]

لأن كوكب الشعرى أكبر من الشمس.

وحين تتأمل السموات والأرض تجد فى الأرض جبالاً شامخة ، وتمر عليها فتُدْهش من دقة التكوين ودقة التماسك ، وتجد فى داخلها نفائس ومعادن بدرجات متفاوتة ، وقد تجد أسطح الجبال مُكوَّنة من مواد خصبة بشكل هشٍّ ، فإذا ما نزل عليها المطر ، فهو يصحبها معه إلى الأرض ؛ لأنها تكون مجرد ذرات كذرات برادة الحديد ، وتتخلل الأرض التى شقَّقتها حرارة الشمس.

والمثل الواضح على ذلك هو ما كان يحمله النيل من غرْيَن [٣] فى أثناء الفيضان إلى الدلتا قبل بناء السد العالى ، وكانت مياه النيل فى أيام الفيضان تشبه مادة «الطحينة» من فرط امتزاجها بذرات الغرْين ، وفى مثل هذا الغرين يوجد الخِصْب الذى نأخذ منه الأقوات [٤].

ولو أن الجبال كلها كانت هشَّة التكوين ، لأزالها المطر مرة واحدة ، وجعلها مجرد مسافة نصف متر مضاف لسطح الأرض ، ولاختفى الخصب من الأرض بعد سنوات ، لكن شاء الحق سبحانه أن يجعل الجبال

(١) قال الحق سبحانه فى سورة الشمس: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) ﴾ [الشمس]. وقد ذكر الله عز وجل الشمس فى كتابه العزيز (٣٢) مرة، بل إنه سبحانه جعل سورة كاملة باسم هذا النجم.

(٢) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم عن (الشعرى) إنه هو النجم الوقاد الذى يقال له مرزم الجوزاء، وكانت طائفة من العرب يعبدونه فى الجاهلية. [تفسير ابن كثير: ٤/ ٢٥٩].

(٣) الغرين: ما بقى فى أسفل الحوض والغدير من الماء أو الطين، وقيل: هو الطين الذى يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً أو يابساً، وكذلك (الغريل). قال الأصمعى: الغرين أن يجىء السيل فيثبت على الأرض، فإذا جفَّ رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق. [لسان العرب: مادة (غ ر ن)].

(٤) أقوات: جمع قوت، وهو الرزق، ويطلق لفظ قوت على كل ما يُقتات به من رزق الله سبحانه وتعالى.

متماسكة ، وجعل سطحها فقط هو الهش لينزل المطر فى كل عام مرة ؛ ليحمل الخصب إلى الأرض.

ومَنْ يتأمل هندسة التكوين فى الاقتيات يجد الجبال مخازن للقوت.

فالبشر يحتاجون إلى الحديد ليصنعوا منه ما يفيدهم ، سواء أكان آلات لحرث الأرض ، أو أى آلات أخرى تساعد فى تجميل الحياة ، وتجد الحديد مخزوناً فى الجبال.

وكذلك نجد المواد الأخرى مثل الفوسفات أو المنجنيز ، أو الرخام ، أو الفيروز أو الغازات .

إذن : فالمطمور [١] فى الجبال إما للاقتيات ، أو وسيلة إلى الاقتيات ، أو وسيلة للتَّرف فوق الاقتيات.

وحين ينزل المطر فوق الجبال فهو يأخذ الخصْب من الطبقة الهشَّة [٢] على سطح الجبال وتبقى المواد الأخرى كثروات للنَاس ، ففى إفريقيا مثلاً توجد مناجم للفحم والماس ، وفى بلاد أخرى تجد عودَ الطيب ، وهو عبارة عن جذور أشجار.

وأنت لو شققت الأرض كقطاع من محيط الأرض إلى المركز تجد الأرض الخصبة مع الصحراء ، مع المياه ، مع الجبال ، متساوية فى الخير مع القطاع المقابل للقطاع الأول.

---

(١) طمر الشىء: خبأه . ومطمور: اسم مفعول من طمر، وطمر: إذا تغيَّب واستخفى، والمراد: خيرات الله المختفية داخل الأرض تنتظر إذن الله تعالى لها بالظهور.

(٢) والشىء الهش الغير متماسك ، وهشم الشىء اليابس [illegible] تعالى : ﴿ .. كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ (٣١) [القمر] أى : كالحطب والخشب المحطم فى يد المحتظر . أى : صانع الحظيرة [القاموس القويم صـ ٣٠٣ باختصار] .

وقد تختلف نوعيات العطاء من موقع إلى آخر على الأرض ، فأنت لو حسبت مثلاً ما أعطاه المطر للنيل من خصْب الجبال من يوم أن خلق الله - عز وجل - النيل فى أرض وادى النيل فى إفَريقيا ، وحسبت ما أعطاه النفط (البترول) فى صحراء الإمارات مثلاً ، ستجد أن عطاء النيل يتساوى مع عطاء البترول ، رغم أن اكتشاف البترول قد تَمَّ حديثاً .

وكل قُوت محسوب من مخازن القوت ، وكل قوت له زمن ، فهناك زمن للفحم ، وزمنٌ للبترول ، كل ذلك بنظام هندسى أنشأه الحكيم الأعلى سبحانه .

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : ﴿يَعْقِلُونَ﴾ فى مجال النظر فى السموات وفى الأرض ، فهذه دعوة لتأمل عجائب السموات والأرض .

ومن تلك العجائب أن الجبال الشاهقة لها قمة ، ولها قاعدة ، مثلها مثل الهرم ، وتجد الوديان على العكس من الجبال ؛ لأن الوادى يكون بين جبلين ، وتجد رأس الوادى فى أسفله ، ورأس الجبل فى قمته .

وحين ينزل المطر فهو يمرُّ برأس الجبل الضيق ؛ ليصل إلى أسفل قاع الوادى الضيق ، وكلما نزل المطر فهو يأخذ من سطح الجبل ؛ ليملأ مساحة الوادى المتسعة ، وكلما ازداد الخلق ، زاد الله سبحانه رقعة الاقتيات .

ومثال ذلك تجده فى الغرْيَن القادم من منابع النيل ؛ ليأتى إلى وادى النيل والدلتا ، وكانت هذه الدلتا من قبل مجرد مستنقعات مالحة ، وشاء لها الحق سبحانه أن تتحول إلى أرض خصبة .

وحين نتأمل ذلك نرى أن كل شىء فى الكون قد أوجده الحق سبحانه بحساب .

والذى يفسد الكون هو أننا لا نقوم بتكثير ما تكاثر ، بل ننتظر إلى أن تزدحم الأرض بمن عليها ، ثم نفكر فى استصلاح أراضٍ جديدة ، وكان يجب أن نفعل ذلك من قبل .

وكلما نزل المطر على الجبال فهى تتخلخل وتظهر ما فيها من معادن ، يكتشفها الإنسان ويُعْمِل عقله فى استخدامها.

والمؤمن حين يرى ذلك يزداد إيماناً ، وكلما طبَّق المؤمن حُكْماً تكليفياً مأموراً به ، يجد نور الإيمان وهو يشرق فى قلبه.

وليُجرِّب أى مسلم هذه التجربة [1] ، فليجرب أن يعيش أسبوعاً فى ضوء منهج الله سبحانه وتعالى ، ثم يَزِنْ نفسه ويُقيِّمها ليعرف الفارق بين أول الأسبوع وآخر الأسبوع ، سيكتشف فى هذا الأسبوع أنه يصلى فى مواقيت الصلاة ، وسيجد أنه يعرق فى عمله ليكسب حلالاً ، وسيجد أنه يصرف ماله فى حلال.

زِنْ نفسك يقيناً فى آخر الأسبوع ستجد أن نفسك قد شفَّت شفافية رائعةَ ؛ لتجد ضوء ونور الإيمان وهو يصنع انسجاماً بينك وبين الكون كله فى أبسط التفاصيل وأعقدها أيضاً.

ومثال ذلك : إنك قد تجد الرجل من هؤلاء الذين أسبغ عليهم تطبيقُ منهج الله الشفافيةَ تسأله زوجته : ماذا نطبخ اليوم ؟ فيقول لها : فَلْنقْضِ اليوم بما بقى من طعام أمس ، ثم يُفَاجأ بقريب له يزوره من الريف ، وقدَ جاءه ومعه الخير .

لقد وصل الرجل إلى درجة من الشفافية تجعله منسجماً مع الكون كله ، فيصله رزق الله تعالى له من أىٍّ مكان.

وتجد الشفافية أيضاً فى أعقد الأمور ، ألم يَقُلْ يعقوب عليه السلام :

﴿إِنِّى لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ..(٩٤)﴾ [يوسف]

(١) هذه تجربة التريض الإيمانى : فالمسلم الذى تخلى عن المعاصى وتحلى بالطاعات تجلى الله عليه بالفيوضات والنفحات .

وكان إخوة يوسف - عليه السلام - ما زالوا على أبواب مصر خارجين منها للقاء أبيهم ، حاملين قميصَ يوسف ، الذى أوصاهم يوسف بإلقائه على وجه أبيه ليرتد إليه بصره (١) .

لقد جاءت ريح يوسف عليه السلام لأبيه يعقوب ؛ لأن يعقوب عليه السلام قد عاش فى انسجام مع الكون ، ولا توجد مُضَارة بينه وبين الكون .

والمثال الحىّ لذلك هو فرح الكون لمجىء رسول الله ﷺ ، يوم مولده ، لقد فرح الكون بمقدم الرسول ﷺ ؛ لأن الكون عابد مُسبِّح لله سبحانه ، فحين يأتى مَنْ يدعو العباد إلى التوحيد لا بُدَّ أن يفرح الكون ، أما مَنْ يَعْصِ الله تعالى ، فالكون كله يكرهه ويلعنه ، ويتلاعن الاثنان .

وقد فرح الكون بمجىء الرسول الذى أراد الله سبحانه أن تنزل عليه الرسالة الإلهية ليعتدل ميزان الإنسان مع الكون .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٠١) ﴾ [يونس]

والكون كله أمامهم ، فلماذا لا ينظرون ؟ إنهم يبصُرون ولا يستبصرون ، مثل الذى يسمع ولا يسمع ؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

---

(١) وذلك أن يوسف عليه السلام بعد ما تعرَّف عليه إخوته قال لهم : ﴿ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) ﴾ [يوسف] أى : لولا أن تتهمونى بفساد الرأى والخرف .

﴿.. وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ[١] عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١)﴾ [يونس]

إذن : فعدم إيمانهم أفقدهم البصيرة والتأمل.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ[٢] (١٠٢)﴾

وهؤلاء الذين لا يؤمنون يظلون فى طغيانهم يعمهون[٣] ، وكأنهم ينتظرون أن تتكرر معهم أحداث الذين سبقوا ولم يؤمنوا ، لقد جاءهم الرسول ببيان ككل المكذِّبين السابقين.

ونحن نعلم أن اليوم[٤] هو وحدة من وحدات الزمن ، وبعده الأسبوع ، وبعد الأسبوع نجد الشهر ، ثم نجد السنة ، وكلما ارتقى الإنسان قسَّم اليوم إلى ساعات ، وقسَّم الساعات إلى دقائق ، وقسَّم الدقائق إلى ثوان.

وكلما تقدمت الأحداث فى الزمن نجد المقاييس تزداد دقة ، واليوم - كما قلنا - جعله الله سبحانه وتعالى وحدة من وحدات الزمن ، وهو مُكوَّن من ليل ونهار.

---

(١) النذر : جمع نذير ، وهو الرسول بحججه وآياته وبراهينه.

(٢) خلوا : مضوا وسبقوا. أى : فما ينتظرون بكفرهم إلا مثل ما وقع للأمم التى سبقتهم من العذاب والعقاب. [تفسير الجلالين ص ١٨٨].

(٣) يعمهون : يتحيَّرون ويترددون فى الضلال. قال ابن الأثير : العَمَهُ فى البصيرة كالعمى فى البصر. [لسان العرب : مادة (ع م هـ)].

(٤) اليوم : فى علم الفلك هو مقدار دوران الأرض حول محورها مرة ، ومدته أربع وعشرون ساعة وجمعه أيام. وأيام العرب : وقائعهم. وأيام الله : أيام جلت فيها نعمه وعذابه. القاموس القويم صـ ٣٧٤.

ولكن قد يُذكر اليوم ويُراد به ما حدث فيه من أحداث مُلْفتة ، مثلما نقول : «يوم ذى قَرَد»[١] و«يوم حنين»[٢] و«يوم أحُد».

إذن : فقد يكون المقصود باليوم الحدث البارز الذى حدث فيه ، وحين ننظر فى التاريخ ، ونجد كتاباً اسمه «تاريخ أيام العرب» ، فنجد «يوم بُعَاث»[٣] و«يوم أوطاس»[٤] وكل يوم يمثل حرباً.

إذن : فاليوم ظرف زمنى ، ولكن قد يُقصَد به الحدث الذى كان فى مثل هذا اليوم.

ومثال ذلك أنك قد تجد من أهل الزمن المعاصر مَنْ عاش فى أزمنة سابقة فيتذكر الأيام الخوالى ويقول : كانت الأسعار قديماً منخفضة ، وكان كل شىء مُتوفراً ، فيسمع مَنْ يرد عليه قائلاً : لقد كانت أياماً ، أى : أنها أيام حدث الرخاء فيها.

إذن : فقد يُنسَب اليوم إلى الحدث الذى وقع فيه.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا . . (١٠٢) ﴾ [يونس]

---

(١) ذو قرد : مكان به ماء من أرض نجد ، على مسافة يوم من المدينة ، مما يلى بلاد غطفان . ذهب أكثر كتب السيرة إلى أنها كانت قبل الحديبية ، أما البخارى فى صحيحه فقد ذهب إلى أنها قبل خيبر بثلاث سنين ، وذكرها بعد الحديبية . انظر : سيرة ابن هشام (٣/ ٢٨١) ودلائل النبوة (٤/ ١٧٨ - ١٩٣).

(٢) كان فى السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة ، وقد قال سبحانه فيه : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ﴾ [التوبة].

(٣) يوم بُعَاث : هو يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج ، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلى أبو أسيد بن حضير ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى ، فقُتلا جميعاً . (سيرة ابن هشام ٢/ ٥٥٥).

(٤) يوم أوطاس هو نفسه يوم حنين ، وكان فى سنة ثمان للهجرة بعد فتح مكة . وأوطاس : واد فى ديار هوازن ، كانت فيه وقعة حنين.

والذين خلوا منهم قوم نوح عليه السلام وقد أغرقهم الله سبحانه ، وقوم فرعون الذين أغرقهم الله تعالى أيضاً.

والله سبحانه هو القائل :

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا [1] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

وهذه أيام حدثت فيها أحداث يعلمونها ، فهل هم ينتظرون أياماً مثل هذه ؟

بالطبع ما كان يصحُّ لهم أن يستمرئوا الكفر ، حتى لا تتكرر معهم مآسٍ كالتى حدثت لمن سبقهم إلى الكفر.

ونحن نجد فى العامية المثل الفطرى الذى ينطق بإيمان الفطرة ، فتسمع من يقول : «لك يوم يا ظالم» أى : أن اليوم الذى ينتقم فيه الله تعالى من الظالم يصبح يوماً مشهوراً ؛ لأن الظالم إنما يفترى على خلق الله ؛ لذلك يأتى له الحق سبحانه بحدث ضخم يصيبه فيه الله تعالى ويذيقه مجموع ما ظلم الناسَ به.

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ﴾ [يونس]

---

(١) الحصب : كل ما يلقى فى النار ، لتُسعَّر به . قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ .. (٩٨) ﴾ [الأنبياء] ، وحصبه : قذفه بالحصى ، قال تعالى : ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا .. (١٧) ﴾ [الملك] أى : إعصاراً شديداً يقذفكم بالحصى ، فيهلككم ، والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك.

وقوله هنا : ﴿فَانتَظِرُوا﴾ فيه تهديد ، وقوله : ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢)﴾ فيه بشارة ؛ لأن الرسول ﷺ سينتظر هذا اليوم ليرى عذابهم ، أما هو ﷺ فسوف يتحقق له النصر فى هذا اليوم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ[1] الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾

والحق سبحانه قد أنجى - منْ قَبْل - رُسله ومَنْ آمنوا بهم ، لتبقى معالم للحق والخير.

ومن ضمن معالم الخير والحق لا بد أن تظل معالم الشر ، لأنه لولا مجىء الشر بالأحداث التى تعَضُّ الناس لما استشرف الناس إلى الخير.

ونحن نقول دائماً : إن الألم الذى يصيب المريض هو جندى من جنود العافية ؛ لأنه ينبه الإنسان إلى أن هناك خللاً يجب أن يبحث له عن تشخيص عند الطبيب ، وأن يجد علاجاً له.

والألم يوجد فى ساعات اليقظة والوعى ، ولكنه يختفى فى أثناء النوم ، وفى النوم رَدْع ذاتىٌّ للألم.

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ [يونس]

هذا القول يقرر البقاء لعناصر الخير فى الدنيا.

---

(١) أى : أن الله سبحانه قد نجَّى رسله السابقين والذين آمنوا معهم من العذاب، وسينجى النبى ﷺ وأصحابه والمؤمنين به حين تعذيب الكفار والمشركين. [تفسير الجلالين ص ١٨٨ - بتصرف].

وكلما زاد الناس فى الإلحاد زاد الله تعالى فى المدد ، ففى أىِّ بلد يُفْترى فيها على الإيمان ويُظْلم المؤمنون ، ويكثر الطغاة ؛ تجد فيها بعض الناس منقطعين إلى الله تعالى ، لتفهُّم حقيقة القيم ، وحين تضيق الدنيا بالظلمة والطغاة تجدهم يذهبون إلى هؤلاء المنقطعين لله ، ويسألونهم أن يدعوا لهم.

وقد ألزم الحق - سبحانه وتعالى - هنا نفسه بأن يُنجى المؤمنين فى قوله سبحانه : ﴿ .. كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

والشَّكُّ [١] معناه : وضَعْ أمرين فى كِفَّتين متساويتين.

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ بأن يعرض على الكافرين قضية الدين ، وأن يضعوها فى كفة ، ويضعوا فى الكفة المقابلة ما يؤمنون به.

ويترك لهم الحكم فى هذا الأمر.

هم - إذن - فى شك : هل هذا الدين صحيح أم فاسد ؟

وعَرْض الرسول ﷺ لأمر الدين للحكم عليه ، يعنى : أن أمر الدين ملحوظ أيضاً عند أىِّ كافر ، وهو ينتبه أحياناً إلى قيمة الدين.

---

(١) الشك : نقيض اليقين ، وجمعه : شكوك . قال تعالى : ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ..(١٠)﴾ [إبراهيم]. [لسان العرب : مادة (ش ك ك)].

فــإن كنتم فى شكٍّ من الدين الذى أنزلَ على رســول الله ﷺ ، وهل ينتصر الرسول ﷺ ومَنْ معه عليهم ، أم تكون لهم الغلبة ؟

وحين يعرض الرسول ﷺ أمر الدين عليهم ، ويترك لهم الحكم ، فهذه ثقة منه ﷺ بأن قضايا دينه إنْ نظر إليها الإنسان ليحكم فيها ، فلا بد أن يلتجىء الإنسان إلى الإيمان .

ويحسم الحق سبحانه وتعالى أمر قضية الشرك به ، ويستمر أمره إلى الرسول ﷺ أن يقول :

﴿فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ ..(١٠٤)﴾ [يونس]

أى : أنه ﷺ لا يمكن أن يعبد الشركاء وأن يعبد الله ؛ لأنه لن يعبد إلا الله ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ (١٠٤)﴾ .

ثم جاء سبحانه بالدليل الذى لا مراء [1] فيه ، الدليل القوى ، وهو أن الحق سبحانه وتعالى وحده هو المستحق للعبادة ؛ لأنه ﴿الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ﴾ [2] ، و لا يوجد مَنْ يقدر أو يتأبى على قَدَر الله سبحانه حين يُميته .

وهنا قضيتان :

الأولى : قضية العبادة فى قوله سبحانه : ﴿فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ .. (١٠٤)﴾ [يونس]

---

(١) المراء ، والمماراة ، والتمارى ، والامتراء : الجدال والشك . قال تعالى : ﴿ ..فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢)﴾ [الكهف] . وقال تعالى : ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢)﴾ [النجم] . وكذلك المرية (بكسر الميم ، وبضمها) ، قال تعالى : ﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ .. (٥٥)﴾ [الحج] [لسان العرب : مادة (م ر ى)] بتصرف .

(٢) يتوفاكم : يميتكم ويقبض أرواحكم . وهو من توفية العدد ، أى : يقبض أرواحكم أجمعين ، فلا ينقص واحد منكم . ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ..(٤٢)﴾ [الزمر] أى : يستوفى مُدد آجالهم فى الدنيا . [اللسان : مادة وفى] .

وكان لا بُدَّ أن يأتى أمر المسألتين معاً : مسألة عدم عبادة الرسول لمن هم من دون الله ، ومسألة تخصيص الله تعالى وحده بالعبادة .

والفصل واضح بما يُحدِّد قطع العلاقات بين معسكر الإيمان ومعسكر الشرك ، كما أورده الحق سبحانه فى قوله :

﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون]

والذين يقولون : إن فى سورة (الكافرون) [١] تكراراً لا يلتفتون إلى أن هذا الأمر تأكيد لقطع العلاقات ؛ ليستمر هذا القطع فى كل الزمن ، فهو ليس قطعاً مؤقَّتاً للعلاقات [٢] .

وهذا أول قَطْع للعلاقات فى الإسلام ، بصورة حاسمة ليست فيها أية فرصة للتفاهم أو للمساومة ، ويظل كل معسكر على حاله .

---

(١) نزلت سورة الكافرون فى رهط من قريش قالوا : يا محمد ، هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره . فأنزل الله تعالى : ﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾ إلى آخر السورة ، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش ، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا منه عند ذلك . [أسباب النزول - للواحدى ص ٢٦١] .

(٢) أقوال مُفسِّرى وعلماء سلفنا الصالح تتلاقى كلها فيما قاله فضيلة الشيخ هنا . فقال البعض منهم البخارى وغيره أن المراد بـ ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون] فى الماضى و﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥﴾ [الكافرون] فى المستقبل . وقال البعض الآخر : إن هذا تأكيد محض . وهناك قول آخر نصره الإمام ابن تيميه ، وهو أن المراد بقوله : ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون] نفى الفعل لأنها جملة فعلية ﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾ [الكافرون] نفى قبوله لذلك بالكلية ؛ لأن النفى بالجملة الاسمية آكد ، فكأنه نفى الفعل وكونه قابلاً لذلك ، ومعناه نفى الوقوع ، ونفى الإمكان الشرعى أيضاً . انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦١) .

يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة النصر :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ [النصر]

هنا يتأكد الأمر ، فبعد أن قطع الرسول ﷺ العلاقات مع معسكر الشرك ، جاء نصر الله سبحانه وتعالى وفَتْحه ، فَهُرِع الناس من معسكر الشرك إلى معسكر الإيمان [1] .

هم - إذن - الذين جاءوا إلى الإيمان . . هذه هى **القضية الأولى** :

﴿ فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ .. (١٠٤) ﴾ [يونس]

وهم كانوا يعبدون الأصنام المصنوعة من الحجارة.

وأنت إذا نظرتَ إلى الأجناس فى الوجود ، فأكرمها هو الإنسان الذى سخَّر له الحق سبحانه بقية الأجناس لتكون فى خدمته.

والجنس الأقل من الإنسان هو الحيوان.

ثم يأتى الجنس الأقل مرتبةً من الإنسان والحيوان ، وهو النبات .

ثم يأتى الجماد كأدنى الأجناس مرتبةً ، وهم قد اتخذوا من أدنى الأجناس آلهة ، وهذه هى قمة الخيبة.

وتأتى **القضية الثانية** فى قول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) كان بين سورتى «الكافرون» ، و«النصر» ما يزيد على ١٥ سنة ، فسورة الكافرون نزلت فى بداية الدعوة ومحاولة قريش إثناء رسول الله ﷺ عن الاستمرار فى دعوته ، ثم حدثت المفاصلة ، ثم الهجرة ، ثم الغزوات ، إلى أن تَمَّ نصر الله بفتح مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، فكانت سورة النصر . وهذا يؤكد ما قاله فضيلة الشيخ من امتداد القطع مع معسكر الشرك ؛ ليشمل الزمن كله بالنسبة لقضية الإيمان ماضياً وحاضراً ومستقبلاً .

﴿ ..وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾ فإذا كان رسول الله ﷺ قد رفض العبادة لمن هُمْ دون الله سبحانه ، فمعنى ذلك أنه لن يعبد سوى الله تعالى .

وليس هذا موقفاً سلبياً ، بل هو قمة الإيجاب ؛ لأن العبادة تقتضى استقبال منهج الله بأن يطيع أوامره ، ويجتنب نواهيه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا[1] وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) ﴾

وما دام الخطاب مُوجَّهاً لرسول الله ﷺ ، فهو ككل خطاب مِنَ الحقِّ سبحانه لرسوله ﷺ ، إنما ينطوى على الأمر لكل مؤمن .

وإذا ما عبد المؤمن الله سبحانه فهو يستقبل أحكامه ؛ ولذلك يأتى الأمر هنا بألا يلتفت وجه الإنسان المؤمن إلى غير الله تعالى، فيقول الحق سبحانه :

﴿ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ..(١٠٥) ﴾ [يونس]

فلا يلتفت فى العبادة يميناً أو يساراً ، فما دام المؤمن يعبد الله ولا يعبد غيره ، فليعلم المؤمن أن هناك - أيضاً - شركاً خفياً[2] ، كأن يعبد الإنسان مَنْ هم أقوى أو أغنى منه ، وغير ذلك من الأشخاص التى يُفتن بها الإنسان .

---

(١) حنيفاً : مائلاً عن كل طرق ومناهج الضلال ، إلى طريق الحق وحده .

(٢) الشرك الخفى : هو الرياء وطلب السمعة والصيت . فعن شداد بن أوس قال قال ﷺ : «إن أخوف ما أتخوَّف على أمتى الإشراك بالله . أما إنى لست أقول : يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً . ولكن أعمالاً لغير الله ، وشهوة خفية» أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢٠٥) .

ونحن عرفنا من قبل قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا [١] مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ [٢] إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا .. (١٢٥) ﴾ [النساء]

والحنف [٣] أصله ميل فى الساق ، وتجد البعض من الناس حين يسيرون تظهر سيقانهم متباعدة ، وأقدامهم مُلْتفَّة ، هذا اعوجاج فى التكوين.

أما المقصود هنا بكلمة (حنيفاً) أى : معوج عن الطريق المعوج ، أى : أنه يسير باستقامة.

ولكن : لماذا يأتى مثل هذا التعبير ؟

لأن الدين لا يجيء برسول جديد ومعجزة جديدة ، إلا إذا كان الفساد قد عَمَّ ؛ فيأتى الذين ؛ ليدعو الناس إلى الميل عن هذا الفساد. وفى هذا اعتدال لسلوك الأفراد والمجتمع.

ويحذرنا رسول الله ﷺ من أن نقع فى الشرك الخفى بعد الإيمان بالله تعالى.

---

(١) الدين : الطاعة والانقياد والشريعة والجزاء ، والعقيدة والمنهج والصراط المستقيم [القاموس القويم - باختصار صـ ٢٣٩].

(٢) الملة (بكسر الميم ، وتضعيف اللام) : الشريعة ، والدين. قال تعالى : ﴿ .. إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) ﴾ [يوسف]. وقال تعالى : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ .. (٧٨) ﴾ [الحج]. [لسان العرب : مادة : م ل ل]. . بتصرف.

(٣) الحنف فى القدمين : إقبال كل واحدة منهما على الأخرى بإبهامها. ورجل أحنف ، وامرأة حنفاء ، وبه سُمِّى «الأحنف بن قيس» ، واسمه «صخر» ؛ لحنف كان فى رجْله. قال الجوهرى : الحنف : الاعوجاج فى الرِّجْل. وقال أبو عمرو : الحنيف هو المائل من خير إلى شر ، أو من شر إلى خير. وحنف عن الشيء وتحنف : مال. والحنيف : المسلم الذى يتحنف عن الأديان ، أى : يميل إلى الحق ، وقيل : هو الذى يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا .. (٦٧) ﴾ [آل عمران]. وقيل : الحنيف هو الذى يميل عن الضلال ، ويبعد عنه ليتجه إلى الحق ، وقد صارت هذه الكلمة علماً على المسلمين. [لسان العرب : مادة (ح ن ف) - بتصرف].

ويأتى الكلام عن هذا الشرك الثانى فى قول الحق سبحانه :

﴿ ..ولا تكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) ﴾ [يونس]

وهذا الشرك الثانى هو أقل مرحلة من شرك العبادة ، ولكن أن تجعل لإنسان أو لأىِّ شىء مع الله عملاً.

فإن رأيت - مثلاً - للطبيب أو للدواء عملاً ، فَقُلْ لنفسك : إن الطبيب هو مَنْ يصف الدواء كمعالج ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى يشفى ، بدليل أن الطبيب قد يخطىء مرة ، ويأمر بدواء تحدث منه مضاعفات ضارة للمريض.

وعلى المؤمن ألا يُفتنَ فى أىِّ سبب من الأسباب.

ونذكر مثالاً آخر لذلك ، وهو أن بلداً من البلاد ذات الرقعة الزراعية المتسعة أعلنت فى أحد الأعوام أنها زرعت مساحة كبيرة من الأراضى بالقمح بما يكفى كل سكان الكرة الأرضية ، ونبتت السنابل وأينعتْ ، ثم جاءتها ريح عاصف أفسدت محصول القمح ، فاضطرت تلك الدولة أن تستورد قمحها من دول أخرى.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠٦) ﴾

والمشرك من هؤلاء لحظة أنْ عبدَ الصنم ودعاه من دون الله تعالى ، فهل استجاب له ؟ وحين عبده هل قال الصنم له : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ؟

إن الأصنام التى اتخذها المشركون آلهة لم يكُنْ لها منهج ، ولا أحد منها

ينفع أو يضر ، وحين يجيء النفع لا يعرف الصنم كيف يمنعه ، وحين يجيء الضُّر لا يقدر الصنم أن يدفعه.

إذن : فمَنْ يدعو من دون الله - سبحانه وتعالى - هو دعاء لمن لا ينفع ولا يضر.

ومَنْ يفعل ذلك يكون من الظالمين ؛ لأن الظلم هو إعطاء حقٍّ لغير ذى حق ، سواء أكان فى القمة ، أو فى غير القمة[1].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

هذا كلام الربوبية المستغنية عن الخلق ، فالله سبحانه وتعالى خلق الناس ، ودعاهم إلى الإيمان به ، وأن يحبوه ؛ لأنه يحبهم ، ويعطيهم ، ولا يأخذ منهم ؛ لأنه فى غنىً عن كل خلقه.

ويأتى الكلام عن الضُّر هنا بالمسِّ ، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ .. ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن هناك «مساً» و«لمساً» و«إصابة».

وقوله سبحانه هنا عن الضر يشير إلى مجرد المسِّ ، أى : الضر البسيط ، ولا تَقُلْ : إن الضر ما دام صغيراً فالخلق يقدرون عليه ، فلا أحد

---

(١) أى : سواء كان ظلماً فى القمة - أى : بالإشراك بالله - أو ظلماً فى غير القمة بظلم العباد بأخْذ حقوقهم والتعدِّى عليهم.

يقدر على الضر أو النفع ، قَلَّ الضر أم كَبُرَ ، وكَثُر النفع أو قَلَّ ، إلا بإذن من الله تعالى.

والحق سبحانه وتعالى يذكر الضر هنا بالمسّ ، أى : أهون الالتصاقات ، ولا يكشفه إلا الله سبحانه وتعالى.

ومن عظمته - جَلَّ وعلا - أنه ذكر مع المس بالضر ، الكشفَ عنه ، وهذه هى الرحمة.

ثم يأتى سبحانه بالمقابل ، وهو «الخير» ، وحين يتحدث عنه الحق سبحانه ، يؤكد أنه لا يرده.

ونحن نجد كلمة ﴿يُصِيبُ﴾ فى وَصْف مجىء الخير للإنسان ، فالحق سبحانه يصيب به من يشاء مِنْ عباده.

وينُهى الحق سبحانه وتعالى الآية بهذه النهاية الجميلة فى قوله تعالى :

﴿.. وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)﴾ [يونس]

وهكذا تتضح لنا صورة جلال الخير المتجلى على العباد ، ففى الشر جاء به مسّاً ، ويكشفه ، وفى الخير يصيب به العباد ، ولا يمنعه.

والله تعالى هو الغفور الرحيم ؛ لأنه سبحانه لو عامل الناس - حتى المؤمنين منهم - بما يفعلون لعاقبهم ، ولكنه سبحانه غفور ورحيم ؛ لأن رحمته سبقت غضبه [1] ؛ ولذلك نجده سبحانه فى آيات النعمة يقول :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا [2] .. (١٨)﴾ [النحل]

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى» أخرجه البخارى فى صحيحه (٣١٩٤) ومسلم (٢٧٥١).

(٢) الإحصاء : العد والحصر.

وجاء الحق سبحانه بالشكِّ ، فقال ﴿إن﴾ ولم يقل : «إذا تعدون نعمة الله» ؛ لأن هذا أمر لن يحدث ، كما أن الإقبال على العَدِّ هو مظنَّة أنه يمكن أن يحصى ؛ فقد تُعدُّ النقود ، وقد يَعدّ الناظر طلاب المدرسة ، لكن أحداً لا يستطيع أن يعُدّ أو يُحصى حبَّات الرمال مثلاً.

وقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا.. (١٨)﴾ [النحل]

وهذا شَكٌّ فى أن تعدوا نعمة الله .

ومن العجيب أن العدَّ يقتضى التجمع ، والجمع لأشياء كثيرة ، ولكنه سبحانه جاء هنا بكلمة مفردة هى ﴿نِعْمَةَ﴾ ولم يقل : «نِعَم» فكأن كل نعمة واحدة مطمور فيها نِعَمٌ شتَّى.

إذن : فلن نستطيع أن نعدَّ النِّعَم المطمورة فى نعمة واحدة.

وجاء الحق سبحانه بذكر عَدِّ النعم فى آيتين :

الآية الأولى تقول :

﴿..وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ[1] (٣٤)﴾ [إبراهيم]

والآية الثانية تقول :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

---

(١) ظلوم : صيغة مبالغة من (الظلم) ، أى : كثير الظلم لنفسه أو لغيره ، أو لهما معاً.
وكفَّار : صيغة مبالغة من (الكفر) ، أى : شديد الكفر ، والكفر فى اللغة : الستر ، من ستر الشىء إذا أخفاه . فكأن الإنسان بعدم شكر الله على النعمة يكون قد كفرها . أى : سترها وأخفاها ولم يؤدِّ حقها من الذكر والشكر .

وصَدْر الآيتين واحد ، ولكن عَجُزَ كل منهما مختلف ، ففى الآية الأولى :﴿ .. إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

وفى الآية الثانية :﴿ .. إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل]

لأن النعمة لها مُنْعِم ؛ ومُنْعَم عليه ، والمنعَم عليه - بذنوبه - لا يستحق النعمة ؛ لأنه ظلوم وكفار. ولكن المنعم سبحانه وتعالى غفور ورحيم ، ففى آية جاء مَلْحظ المنعِم ، وفى آية أخرى جاء ملحظ المنعَم عليه.

ومن ناحية المنعَم عليه نجده ظَلُوماً كفَّاراً ؛ لأنه يأخذ النعمة ، ولا يشكر الله عليها.

ألم تَقُلْ السماء : يارب! ائذن لى أن أسقط كِسَفاً على ابن آدم ؛ فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكرك.

وقالت الأرض : ائذن لى أن أنخسف بابن آدم ؛ فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكرك.

وقالت الجبال: ائذن لى أن أسقط على ابن آدم.

وقال البحر : ائذن لى أن أغرق ابن آدم الذى طَعِم خيرك ، ومنع شُكْرك.

هذا هو الكون الغيور على الله تعالى يريد أن يعاقب الإنسان ، لكن الله سبحانه رب الجميع يقول: « دعونى وعبادى ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم».

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ[1] ﴿١٠٨﴾ ﴾

إذن: فالحق سبحانه لم يُقصِّر مع الخلق، فقد خلق لكم العقول، وكان يكفى أن تفكّروا بها لتؤمنوا من غير مجيء رسول، وكان على هذه العقول أن تفكر فى القوىّ الذى خلق الكون كله، بل هى التى تسعى لتطلب أن يرسل لها القوىّ رسولاً بما يطلبه سبحانه من عباده، فإذا ما جاء رسول ليخبرهم أنه رسول من الله ويحمل البلاغ منه، كان يجب أن تستشرف آذانهم لما يقول.

إذن: كان على العباد أن يهتدوا بعقولهم؛ ولذلك نجد أن الفلاسفة حين بحثوا عن المعرفة، قالوا: إن هناك «فلسفة مادية» تحاول أن تتعرف على مادية الكون، وهناك «فلسفة ميتافيزيقية»[2] تبحث عما وراء المادة.

فَمَنْ أعلمَ الفلاسفة - إذن - أن هناك شيئاً وراء المادة.

وكأن العقل المجرد ساعةَ يرى نُظُم الكون الدقيقة كان يجب أن يقول: إن وراء الكون الواضح المُحَسِّ قوة خفية.

ولم يذهب الفلاسفة إلى البحث فيما وراء المادة، إلا لأنهم أخذوا من

---

(١) الوكيل: الكفيل الموكل بأرزاق الناس وأمورهم، والحفيظ الذى يحفظ أعمال الناس. قال سبحانه: ﴿ ..وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنعام]، وقد نفى الله سبحانه هذا عن نبيه ورسوله محمد ﷺ.

(٢) الفلسفة: لفظ يونانى ومعناه البحث عن الحقيقة. والميتافيزيقا: ما وراء الطبيعة والكون. أى: الغيبيات التى لا تخضع لقوانين المادة.

المادة أن وراءها شيئاً مستوراً.

والمستور الذى وراء المادة هو الذى يعلن عن نفسه ، فهو أمر لا نعرفه بالعقل.

وقديماً ضربنا مثلاً فى ذلك ، وقلنا: هَبْ أننا جالسون فى حجرة ، ودقَّ جرس الباب ، فعلم كل مَنْ فى الحجرة أن طارقاً بالباب ، ولم يختلف أحد منهم على تلك الحقيقة.

وهذا ما قاله الفلاسفة حين أقرُّوا بوجود قوة وراء المادة ، ولكنهم تجاوزوا مهمتهم ، وأرادوا أن يُعرِّفونا ماهية أو حقيقة هذه القوة ، ولم يلتفتوا إلى الحقيقة البديهية التى تؤكد أن هذه القوة لا يمكن أن تُعْرَف بالعقل ؛ لأننا ما دُمْنا قد عرفنا أن بالباب طارقاً يدق ؛ فنحن لا نقول من هو ، ولا نترك المسألةَ للظن ، بل نتركه هو الذى يحدد لنا مَنْ هو ، وماذا يطلب؟ لأن عليه هو أن يخبر عن نفسه.

اطلبوا منه أن يعلن عن اسمه وصفاته ، وهذه مسائل لا يمكن أن نعرفها بالعقل.

إذن: فخطأ الفلاسفة أنهم لم يقفوا عند تعقُّل أن هناك قوة من وراء المادة ، وأرادوا أن ينتقلوا من التعقُّل إلى التصور ، والتصورات لا تأتى بالعقل ، بل بالإخبار.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ .. (١٠٨) ﴾ [يونس]

والحق - كما نعلم - هو الشىء الثابت الذى لا يتغير أبداً ، وأن يأتى

الحق من الربِّ الذى يتولى التربية بعد أن خلق من عدم وأمدَّ من عُدْم[1] ، ولا يكلفنا بتكاليف الإيمان إلا بعد البلوغ ، وخلق الكون كله ، وجعلنا خلفاء فيه .

هو - إذن - مأمون علينا ، فإذا جاء الحق منه سبحانه وتعالى ، فلماذا لا نجعل المنهج من ضمن التربية ؟

لماذا أخذنا تربية المأكل والملبس وسيادة الأجناس ؟

كان يجب - إذن - أن نأخذ من المربِّى - سبحانه وتعالى - المنهج الذى ندير به حركة الحياة ؛ فلا نفسدها .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ جَاءَكُمُ الْحَقُّ[2] مِن رَّبِّكُمْ .. ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يونس]

فمعنى ذلك أنه لا عُذْر لأحد أن يقول : «لم يُبلغْنى أحدٌ بمراد الله » ، فقد ترك الحق سبحانه العقول لتتعقل ، لا أن تتصور .

وجاء التصورُ للبلاغ عن الله تعالى ، حين أرسل الحق سبحانه رسولاً يقول : أنا رسول من الله ، وهو القوة التى خلقت الكون ، وكان علينا أن نقول للرسول بعد أن تَصْدُق معجزته : أهلاً ، فأنت مَنْ كنا نبحث عنه ، فَقُلْ لنا : ماذا تريد القوة العليا أن تبلغنا به ؟

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

---

(١) العَدَم والعُدْم والعُدُم : فقدان الشىء وذهابه . ومثله فى ضبط حروف الكلمة : الرُّشْد والرَّشَد - الحُزْن والحَزَن . ومثله قوله تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة] . وقوله تعالى : ﴿ .. رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الكهف] .

(٢) الحق : الأمر الثابت ضد الباطل ، والحق من أسماء الله الحسنى ، والحق القرآن ، والحق العدل والصدق والحكمة والبعث وكمال الأمر ، والحق الواقع الثابت الذى لا خلاف فيه ، قال تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يونس] ، والحق ما وجب عليك لغيرك [القاموس القويم بتصرف صـ ١٦٤ ، ١٦٥] .

﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ..(١٠٨) ﴾ [يونس]

لأن حصيلة هدايته لا تعود على مَنْ خلقه وهداه ، بل تعود عليه هو نفسه انسجاماً مع الكون ، وإصلاحاً لذات النفس ، وراحة بال ، واطمئناناً ، وانتباهاً لتعمير الكون بما لا يفسد فيه ، وهذا الحال عكس ما يعيشه مَنْ ضل عن الهداية .

ويقول الحق سبحانه عن هذا الصنف من الناس :

﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ..(١٠٨) ﴾ [يونس]

وكلمة ﴿ضَلَّ﴾ تدل على أن الإنسان الذى يضل كانت به بداية هداية ، لكنه ضَلَّ عنها .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) ﴾ [يونس]

وأنت لا توكِّل إنساناً إلا لأن وقتك لا يسع ، وكذلك قدرتك وعلمك وحركتك ، وهنا يُبلغ الرسول القوم : أنا لا أقدر أن أدفع عنكم الضلال ، أو أجبركم على الهداية ؛ لأنى لست وكيلاً عليكم ، بل علىَّ فقط مهمة البلاغ [1] عن الله سبحانه وتعالى ، وهذا البلاغ إن استمعتم إليه بخلاء القلب من غيره ، تهتدوا .

وإذا اهتديتم ؛ فالخير لكم ؛ لأن الجزاء سيكون خلوداً فى نعيم تأخذونه مقابل تطبيق المنهج الذى ضيَّق على شهوات النفس ، ولكنه يهدى حياة نعيم لا يفوته الإنسان ، ولا تفوت النعم فيه الإنسان .

---

(١) وقد ورد تأكيد هذا فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ ..(٤٨) ﴾ [الشورى] . وقال تعالى : ﴿ ..وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٥٤) ﴾ [النور] . فكل المطلوب من الرسول هو إبلاغ رسالته ، وأن يكون هذا البلاغ مبيناً جلياً واضحاً .

وإذا كان الإنسان منَّا يقبل أن يتعب ؛ ليتعلَّم حرفة أو عملاً أو صنعة أو مهنة ؛ ليكسب الإنسان من إتقان هذا العمل بقية عمره.

أليس على هذا الإنسان أن يُقبل على العبادة التى تصلح باله ، وتسرع به إلى الغاية انسجاماً مع النفس ، ومع المجتمع ، وتقويماً وتهذيباً لشهوات النفس ، وينال من بعد ذلك خلود النعيم فى الآخرة.

أما من يستكثر على نفسه الجدَّ والاجتهاد فى تحصيل العلم ، أو تعلُّم مهنة أو حرفة ، فهو يحيا فى ضيق وعدم ارتقاء ، فهو لا يبذل جهداً فى التعلّم.

ونرى مَنْ يتعلم ويبذل الجهد ، وهو يرتقى فى المستوى الاجتماعى والاقتصادى ؛ ليصل إلى درجة الدكتوراة - مثلاً - أو التخصص الدقيق الذى يأتى له بسَعة الرزق.

وكلما كانت الثمرة التى يريدها الإنسان أينع [1] وأطول عمراً كانت الخدمة من أجلها أطول.

وقارن بين خدمتك لدينك فى الدنيا بما ينتظرك من نعيم الآخرة ؛ وسوف تجد المسافة بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة شاسعاً ، ولا مقارنة.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَن ضَلَّ [2] فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۝١٠٨ ﴾ [يونس]

---

(١) أينع: أكثر نُضْجاً. واليَنْع: النضج. ومنه قوله تعالى: ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۝٩٩ ﴾ [الأنعام].

(٢) ضَلَّ الكافر: غاب عن الحجة المقنعة ، وعدل عن الطريق المستقيم ، ولم يعرف الحق. والضلال: النسيان والضياع. وضلَّ الشىء: خفى وغاب فهو فعل لازم ، وضل المسافر الطريق مُتعدٍّ: لم يعرفه. [القاموس القويم صـ ٣٩٤ - بتصرف].

تجد فيه كلمة ﴿عَلَيْهَا﴾ وهى تفيد الاستعلاء على النفس ، أى : أنك بالضلال - والعياذ بالله - تستعلى على نفسك ، وتركب رأسك إلى الهاوية .

وفى المقابل تجد قول الحق سبحانه :

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ .. ﴿١٠٨﴾﴾ [يونس]

وتجد «اللام» هنا تفيد المِلْك ؛ لذلك يقال : «فلان له» و«فلان عليه» .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه فى ختام سورة يونس :

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

وإذا كان الحق سبحانه قد أورد على لسان رسوله ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ..﴿١٠٨﴾﴾ [يونس]

فهذا يعنى البلاغ بمنهج الله - تعالى- النظرى ، ولا بُدَّ أن يثق الناس فى المنهج ، بأن يكون الرسول هو أول المنفذين للمنهج ، لأنه - معاذ الله - لو غشَّ الناس جميعاً لما غشَّ نفسه .

إذن : فبعد البلاغ [1] عن الحق سبحانه ، وتعريف الناس بأن الهداية

---

(١) البلاغ : اسم مصدر بمعنى الكفاية أو الإبلاغ أو التبليغ . قال تعالى : ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ..﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم] وقال تعالى : ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء] أى : فيما ذُكر من الأخبار والمواعظ .

ومبلغ الشىء : حدّه ونهايته التى يصل إليها ، أو مقداره الذى ينتهى به . قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ .. ﴿٣٠﴾﴾ [النجم] [القاموس القويم - بتصرف ١/ ٨٣ ، ٨٤] .

لا يعود نفعها على الحق ، بل هى للإنسان ، فيملك نفسه ؛ ويملك زمام حياته ، فيسير براحة البال فى الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وأن الضلال لا يعود إلا باستعلاء الإنسان على نفسه ؛ ليركبها إلى موارد التهلكة.

والرسول ﷺ ليس وكيلاً عنكم ، يأتى لكم بالخير حين لا تعملون خيراً ، ولا يصرف عنكم الشر وأنتم تعملون ما يستوجب الشر.

ولذلك كان على رسول الله ﷺ أن يكون هو النموذج والأسوة :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ [1] حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ [2] وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) ﴾ [الأحزاب]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٠٩) ﴾ [يونس]

أى : عليك أن تكون الأسوة ، وحين تتَّبع ما يُوحَى إليك ؛ ستجد عقبات ممن يعيشون على الفساد ، ولا يرضيهم أن يوجد الإصلاح ، فَوطِّن العزم على أن تتبع ما يوحى إليك ، وأن تصبر.

---

(١) الأسوة : القدوة ، والمثل الأعلى الذى يُقتدى به . ورسول الله ﷺ هو أسوتنا وقدوتنا . وقد قال سبحانه عن إبراهيم عليه السلام أيضاً : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٤) ﴾ [الممتحنة] ثم قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ .. (٦) ﴾ [الممتحنة].

(٢) ورد الرجاء فى القرآن على معان عدة :

- منها : الطلب والأمل فى تحقق شىء ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ .. (٢١٨) ﴾ [البقرة] . وقوله تعالى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا .. (٦٠) ﴾ [النور].

- منها : الخوف ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) ﴾ [يونس].

ومجيء الأمر بالصبر دليل على أن هناك عقبات كثيرة ، وعليك أن تصبر وتعطى النموذج لغيرك [(١)] ، والثقة فى أنه لو لم يكن هناك خير فى اتباع المنهج لما صبرت عليه ؛ حتى يأتى حكم الله ﴿ .. وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس]

وليس هناك أعدل ولا أحكم من الله سبحانه وتعالى.

وهذه السورة التى تُخْتَم بهذه الآية الكريمة ، تعرضت لقضية الإيمان بالله ، قمة فى عقيدة لإله واحد يجب أن نأخذ البلاغ منه سبحانه ؛ لأنه الرب الذى خلق من عَدَم ، وأمدَّ من عُدْم ، ولم يكلِّفنا إلا بعد مرور سنوات الطفولة وإلى البلوغ ؛ حتى يتأكد أن المكلَّف يستحق أن يُكلَّف بعد أن انتفع بخيرات الوجود كله ، وتثبَّت من صدق الربوبية.

ومعنى الربوبية هو التربية ، وأن يتولى المربِّى المربَّى إلى أن يبلغ حَدَّ الكمال المرجوّ منه.

وقد صدقتْ هذه القضية فى الكون.

إذن: نستمع إلى الرب - سبحانه وتعالى - الذى خلق ، حين يُبيِّن لنا مهمتنا فى الحياة بمنهج تستقيم به حركة الحياة ، ويستقيم أمر الإنسان مع الغاية التى يعرفها قبل أن يخطو أى خطوة.

ومن المحال أن يخلق الله - سبحانه وتعالى - المخلوق ثم يُضيِّعه ، بل لا بد أن يضع له قانون صيانة نفسه [(٢)] ؛ لأن كل صنعة إنما يضع قانونها

---

(١) يقول سبحانه : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ..﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحقاف]. فالصبر هو اقتداء بالرسل الأعلام ، الذين صبروا على إيذاء أقوامهم صبراً تعجز عنه قدرات البشر ، مثل : نوح وموسى وعيسى وإبراهيم ومحمد ﷺ.

(٢) يقول تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ [القيامة]. قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٤٥٢) : «الآية تعمُّ الحالين . أى: ليس يترك فى هذه الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يترك فى قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهى فى الدنيا ، محشور إلى الله فى الدار الآخرة».

ويحدد الغاية لها مَنْ صنعها ، فإذا ما خالفنا ذلك نكون قد أحَلْنا [١] وغيَّرنا الأمور ، وأدخلنا العالم فى متاهات ، وصار لكل امرىء غاية ، ولكل امرىء منهج ، ولكل عقل فكر ، ولَصار الكون متضارباً ؛ لأن الأهواء ستتضارب ، فتضعف قوة الأفراد ؛ لأن الصراع بين الأنداد [٢] يُضعِف قوة الفرد عن معالجة الأمر الذى يجب أن يعالجه .

فأراد الله - سبحانه وتعالى - توحيداً [٣] فى العقيدة ، وتوحيداً فى المنهج .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا مثلاً تطبيقياً فى مواكب الرسالات ، فذكر لنا فى هذه السورة قصة نوح - عليه السلام - وقصة موسى وهارون - عليهما السلام - وذكر بينهما القصص الأخرى .

ثم ذكر قضية يونس عليه السلام .

ثم ختم السورة بقوله سبحانه :

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٠٩) ﴾ [يونس]

بلاغاً عن الله تعالى .

وما دُمْتَ تبلّغ ، وأمتك أمة محسوبة - إلى قيام الساعة - أنها وارثة

---

(١) أحلنا الأمور : حوّلناها وبدلناها لغير ما وضعت له . وفى اللسان : كل شىء تغير عن الاستواء إلى العوَج فقد حال واستحال . ويقال : حال الرجل يحول مثل تحوّل من موضع إلى موضع . (مادة : حوَل) .

(٢) الأنداد : الأمثال والنظراء .

(٣) الرسالات فى جوهرها تسير بالتوحيد وعليه وبه ، يقول الحق سبحانه : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى] .

النبوة ، ولم تَعُدْ هناك نبوة بعدك يا محمد ﷺ تسليماً كثيراً.

وأراد الحق سبحانه لأمتك أن يحملوا الدعوة للمنهج الذى نزل إليك.

إذن: فرسول الله ﷺ سيكون شهيداً بأنه قد بلّغ ، ويجب أن تكون أمته شهيدة بأنها بلغت ، وأوصلت رسالة الله إلى الدنيا [1] ، وهذا شرف مهمة أمة محمد ﷺ .

ولم يكن لأمة غيرها مثل هذا الشرف ؛ فقد كان الأمر قبل رسول الله ﷺ أن دعوة أيِّ رسول تفتُر ، وتبهت تكاليفه [2] ، ويغفل عنها الناس ، فيرسل الله - سبحانه وتعالى - رسولاً ، ولكن الأمر اختلف بعد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، فلم تَعُدْ هناك نبوة ، ولا رسالة ، ولكن صار هناك مَنْ يحملون منهج الله تعالى.

والرسول ﷺ هو الأسوة ؟ لأنه مُبلغ منهج الله ، وهو أسوة فى تطبيق قانون صيانة الإنسان وحركته ، ونموذج تطبيقى حتى لا يكلف الناس فوق ما تطيقه إنسانيتهم ؛ ولذلك كان يُصِر على أنه بشر ، وأوضح القرآن الكريم ذلك بلا أدنى غموض:

﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ..(٦) ﴾ [فصلت]

---

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ..(١٤٣) ﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾ [الحج].

(٢) أى: يطول عليهم الزمن فتُنسى رسالة الرسول، ويقع فيها التحريف والتبديل والتغيير، وقد حدث أكثر هذا مع بنى إسرائيل.

ليؤكد صدق الأسوة ؛ لأنه ﷺ لو لم يكن بشراً وطلب من الناس أن يفعلوا مثله لقالوا : لن نستطيع لأنك لست مثلنا .

ولذلك نلحظ أن القرآن يؤكد على بشرية رسول الله ﷺ ، ولكنه ﷺ يزيد عن البشر باصطفاء الله سبحانه له ؛ ليكون رسولاً يُوحَى إليه ، فمهمته الرسالية الأولى أن يُبلغ هذا الوحى ، والمهمة الثانية أن يؤكد بسلوكه أنه مقتنع بهذا الوحى ويُطبِّقه على نفسه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ [1] .. (٢١) ﴾ [الأحزاب]

وكان رسول الله ﷺ من ناحية الثراء أقلَّ الناس مالاً ، وهو غير متكبر ، ولا جبَّار ، وهو كنموذج سلوكى تتوازن فيه وبه كل الفضائل ؛ فلم يطلب لنفسه شيئاً ، بل إنه منع أقاربه وأهله من حقوق أقرها لغيرهم من المسلمين ، فأقاربه لم يُعطهم الحق فى أن يرثوا شيئاً مما يملكه بعد وفاته وقد حرمهم ؛ ليكونَ كل عمل صادر منه ﷺ أو ممن ينتسبون بالقرابة إليه هو عمل خالص لوجه الله تعالى .

وهذا السلوك هو عكس سلوك الرئاسات البشرية ، أو السلطات الزمنية ، فهذه الرئاسات أو تلك السلطات تفيض أول ما تفيض على نفسها بالخير ، ثم تفيضه على الدوائر القريبة منها حسب أقطار القرب ؛ فالقريب جداً يأخذ أولاً وكثيراً ، ومَنْ يبعد فى القرابة يأخذ الأقل حسب درجة بُعْده .

---

(١) الأسوة والإسوة : القدوة . ويقال : ائتس به ، أى : اقتد به وكُنْ مثله . قال الليث : فلان يأتسى بفلان ، أى : يرضى لنفسه ما رضيه ويقتدى به . وقال الهروى : تأسَّى به : اتبع فعله واقتدى به . [لسان العرب : مادة (أ س ا)].

لكن الذى فى دائرة القرابة مع رسول الله ﷺ لا يأخذ حتى ما يأخذه الفقير فى أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وكأن الله سبحانه وتعالى يدلنا بذلك على أنه من العيب أن يكون الإنسان منسوباً لآل بيت النبوة ، ويكون موضعاً لأخذ الزكاة.

إذن: فالاتِّباع الذى أمر الله تعالى به ، هو اتباع الوحى بلاغاً ، واتباع ما يُوحَى به تطبيقاً ، وسيتطلب هذا مواجهة متاعب كثيرة ، وسيلقى عقبات من الجبابرة المتفعين بالفساد فى الأرض ، فلا بُدَّ أن يصادموا هذه الدعوات ؛ ليحافظوا على سلطتهم الزمنية ، فيأمر الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بأن يصبر ، وفى الأمر بالصبر إشارة إلى أن الرسول ﷺ مُقْبِل على عقبات فَلْيُعِدّ نفسه لتحمُّل هذه العقبات بالصبر [1].

وفى آية أخرى يأمره الحق سبحانه وتعالى أن يصبر ويصابر هو والمؤمنون.. يقول سبحانه:

﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا [2].. (٢٠٠)﴾ [آل عمران]

أى: إن صبرت ، فقد يصبر خَصْمك أيضاً ، وهنا عليك أن تصابره ، وكلمة «اصبر» توضح أن دعاة منهج الحق سبحانه لا بد أن يتعرضوا لمتاعب ، وإلا ما كانت هناك ضرورة لأن يجىء ، فلو كان العالم مستقيم الحركة ، فما ضرورة المنهج إذن ؟

---

(١) وقد كان الحق سبحانه يُعدُّ نبيه ﷺ لهذا ، من نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)﴾ [الأنعام].

(٢) اصبروا على الطاعات والمصائب ، واصبروا عن المعاصى. وصابروا الكفار فلا يكونوا أشد صبراً منكم. ورابطوا أى: جاهدوا وأقيموا عليه واستمروا فيه. [تفسير الجلالين: ص٦٤]. وصيغة «صَابَر» من «فَاعَلَ» تدل على شدة الفعل والمبالغة فيه ، أى: شدة الصبر والتحمُّل. و الاستمرار عليه حتى الوصول للهدف.

ولكن المنهج قد جاء ؛ لأن الفساد قد عَمَّ الكون ، ويحتاج إلى إصلاح ، وإلى مواجهة المفسدين ، وهذا ما يرهق الداعين إلى الله تعالى ، وليُوطِّن كل داعية نفسه على ذلك ، ما دام قد قام ليدعو إلى منهج الحق سبحانه وتعالى.

وكل داع إلى الله لا يصيبه أذى ، فهذا يُنقص من حظه فى ميراث النبوة ؛ لأن الذى يأتى له الأذى هو الذى يأخذ حظاً من ميراث النبوة ، فالأذى لا يجىء إلا بمقدار خطورة الداعى إلى الله سبحانه على الفساد والمفسدين ، وهم الذين يتجمعون ضده.

ورسول الله ﷺ يقول: «نضَّر [(١)] الله امرأ سمع مقالتى فوعاها [(٢)] وحفظها وبلَّغها ، فرُبَّ حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه» [(٣)].

إذن: فنحن أمة محمد ﷺ قد ورثنا منه البلاغ ، وورثنا منه الأسوة الحسنة:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) ﴾ [الأحزاب]

إذن: فقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٠٩) ﴾ [يونس]

هو دليل على أن الوحى بصدد الإنزال ؛ لأن الوحى لم ينزل بالقرآن

---

(١) النضارة: إشراق الوجه ونوره.

(٢) وعاها: حفظها ، فكان كالوعاء يعى ما يوضع فيه ، وإن لم يدرك تفاصيل ما وعاه.

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٥٨) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٧/ ٣٣١) من حديث عبد الله بن مسعود.

دَفْعة واحدة ، فقد كان الوحى ينزل على رسول الله ﷺ طوال حياته [(١)].

وهكذا تكون حياة رسول الله ﷺ هى مقام الاستقبال للوحى.

وقول الحق سبحانه:

﴿وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ..(١٠٩)﴾ [يونس]

يوضح لنا أنه سبحانه قد وضع حداً تؤمل فيه أن الأمر لن يظل صبراً ، وأن القضية ستُحسم من قريب بحكم من الله تعالى.

وكلمة ﴿يَحْكُمَ﴾ توضح أن هناك فريقين ؛ كُلٌّ يدَّعى أنه على حق ، ثم يأتى مَنْ يفصل فى القضية ، والحجة إما الإقرار أو الشهود ، وبطبيعة الحال لن يُقرَّ الكفار بكفرهم ، والشهود قد يكونون عُدولاً ، أو يكونون ممن يُدارونَ فسْقهم فى ظاهر العدالة. فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الحاكم ، فهو لا يَحتاج إلى شهود ؛ لأنه خير الشاهدين ، والله سبحانه لا يحكم فقط دون قدرة إنفاذ الحكم ، لا بل هو يحكم وينفذ.

إذن: فهو سبحانه قد شهد وحكم ونفَّذ ، ولا توجد قوة تقف أمام قدرة الله تعالى ، أو تقف أمام حكم الله عز وجل.

ونحن فى زماننا نرى القُوى وهى تختلف ، فنجد القوىَّ من الدول وقد تسلَّط على الضعيف ، فيلجأ الضعيف إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، ويصدر كل منهما قرارات ، وحتى لو افترضنا عدالة الحكم ، فأين قوة التنفيذ ؟ إنها غير موجودة.

---

(١) أى: كان ينزل مُنجّماً على حسب الأحوال والوقائع ، وهذا جعل القرآن بالنسبة لأصحاب رسول الله ﷺ غَضّاً رطباً ، لأنه ينزل بما يناسب حالهم. ومعلوم أن القرآن له تنزُّل آخر ، حيث نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا. راجع الإتقان فى علوم القرآن (١/ ١١٦).

ولكن قدرة الحق الأعلى سبحانه هى قدرة خير الحاكمين ، لأنه هو سبحانه الذى يشهد ، وهو سبحانه لا يحتاج إلى مَنْ يُدلِّس عليه فى الشهادة ؛ لأنك إن عمَّيت على قضاء الأرض ، فلن تُعمِّى على قضاء السماء [1] .

وبعد ذلك يحكم الحق سبحانه حُكْماً لا هوى فيه ؛ لأن آفة الأحكام أن يدخلها الهوى فتميل ، والحق سبحانه لا هوى له ؛ لأنه لا مصلحة له عند العباد ، فهو الخالق عز وجل ، ولن يأخذ مصلحة من مخلوق [2] .

ويطمئننا الحق سبحانه على أن رسوله ﷺ أيضاً لا ينطق عن الهوى .

فيقول رب العزة سبحانه :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ [3] ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم]

---

(١) عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ «أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر ، وإنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣) .

(٢) يقول سبحانه : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحج] . فالله تعالى هو الغنى عما سواه ، وقد كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا الهدايا والضحايا لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ونضحوا عليها من دمائها . فبيَّن عز وجل أن ما يناله الله منهم هو التقوى وإخلاص القلب لله . (تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٤ بتصرف) .

(٣) الهوى : هوى النفس ، وإرادتها ومحبتها الشيء ، قال تعالى : ﴿ .. وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النازعات] أى : منعها عن المعاصى والشهوات ، وإذا تكلم بالهوى مطلقاً لم يكن إلا مذموماً حتى يُنعت بما يخرجه عن معناه كقولهم : هوى حسن ، أو هوى موافق للصواب . أما المراد به فى الآية فهو الهوى المذموم . قال تعالى : ﴿ .. فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ﴿١٣٥﴾ ﴾ [النساء] . وقال تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص] . وقال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الفرقان] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص] . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [المائدة] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴿١١٩﴾ ﴾ [الأنعام] . [لسان العرب : مادة (هـ و ى) - بتصرف] .

أى: اطمئنوا إلى حكمه ؛ لأنه لا ينطق عن هوى فليس فى نفسه ما يريد تحقيقه إلا دعوة الخلق إلى حُسْن عبادة الخالق سبحانه.

وقد يقول قائل: ولكن الحق - عز وجل - عدَّل للرسول بعضاً من الأحكام.

ونقول: لقد كان رسول الله ﷺ يجتهد ببشريته فيما لم يُنزل الله فيه حُكْماً ، وحين يُنزل الله حُكْماً ، فهو ﷺ ينزل على أمر الله تعالى ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحكم حتى فيما اجتهد فيه عن هوى ، بل حكم بما رآه عدلاً ، وحين يُنزل الحق سبحانه وتعالى حُكْماً مغايراً فهو يبلغ المسلمين ويُعدِّل من الحكم.

إذن: فالتعديل للحكم هو قمة الأمانة مع البلاغ عن الله سبحانه وتعالى ، ورسول الله ﷺ قد أقبل على الحكم فى أمر لم ينزل فيه حكم من الله ، فهو قد حكم بما عنده من الرأى ، فيبلغ ﷺ الحكم من الله ، والذى عدَّل له ليس مساوياً له بل هو خالقه.

ثم إن الذى أخبرنا أن الله سبحانه قد عدَّل له هو النبى ﷺ ، فهل يوجد مَنْ يُضعف مركز كلمته ، ويبلغ أن الحكم الذى صدر منه قد عُدِّل له ؟

ولكن رسول الله ﷺ الذى استقبل الوحى تحلّى بأمانة البلاغ عن الله ، وهو الذى نقل لنا عتاب ربه له[1].

---

(١) عاتبه ربه فى شأن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى الذى جاءه يسعى ليتعلم منه ، فتلهَّى عنه رسول الله ﷺ بدعوة زعماء قريش للإيمان ، فنزلت سورة عبس: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ① أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ④ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ⑥ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ⑩﴾ [عبس]. وعاتبه أيضاً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ①﴾ [التحريم].

وهذه قمة الصدق فى البلاغ عن الله ، وكان اجتهاد رسول الله ﷺ محصوراً فى الأمور التى لم يصدر فيها حكم من الله ، وكان فى ذلك أسوة حسنة لنا لنتجرأ ونجتهد.

وقد بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن فقال : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله . قال : فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ . قال : فإن لم يكن فى سنة رسول الله ﷺ ؟ قال : أجتهد رأيى لا آلو[1] . قال : وضرب رسول الله ﷺ صدرى ثم قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ﷺ لما يُرضى رسول الله ﷺ[2] .

والحق سبحانه وتعالى خير الحاكمين ؛ لأنه الشاهد الذى يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور[3] ، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية[4] ، ولا هوى له ، وهو الذى يصدر الحكم بمطلق عدله وبفضله ، وهو القادر على إنفاذ ما يحكم به ، ولا توجد قوة تجُير عليه ، ولا يوجد حاكم بقادر

---

(١) لا آلو : لا أقصِّر فى اجتهادى وبحثى المسألة . ومنه قولهم : فلان لا يألو خيراً . أى : لا يدعه ولا يزال يفصله . ويقول سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً .. (١١٨) ﴾ [آل عمران] أى : لا يقصرون فى فسادكم .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢) وأبو داود فى سننه (٣٥٩٢) والترمذى (١٣٢٧) وقال : ليس إسناده عندى بمتصل . لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٣) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) ﴾ [غافر] . فالله عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تنطوى عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر . قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم ، وفيهم المرأة الحسناء ، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غضَّ بصره عنها ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا فطنوا غضَّ ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٧٥).

(٤) يقول عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) ﴾ [الرعد].

على كل هذا إلا الله سبحانه.

وشاء الحق - عز وجل - أن يكرِّم المؤمنين الذين يحكمون بين الناس بأن جعل ذاته ضمنية بتفوق الخيرية على الحاكمين.

وواقع الأمر أن هناك بشراً يحكمون غيرهم، ولكن الحق سبحانه حكم بأنه خيرهم، فمن الحاكمين مَنْ قد يُدلس [1] عليه غيره، ومن الممكن أن يدخل الهوى فى أحكام هؤلاء الحاكمين، لكنه سبحانه لا تَخْفى عليه خافية، ولا يمكن أن يدخل الهوى إلى حكمه، وأحكامه نافذة بطلاقة قدرته سبحانه؛ لذلك فهو خير الحاكمين إطلاقاً.

وإذا سمعت جمعاً يدخل الله ذاته مع خلقه فيه؛ فاعلم أن ذلك إيذان بأن تأخذ من واقع ما تشهد حقيقة مَنْ لا تشهد؛ فالحق سبحانه يقول:

﴿..فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]

ويقول تعالى:

﴿..وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)﴾ [الجمعة]

ويقول تعالى:

﴿..رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩)﴾ [الأنبياء]

ويقول تعالى:

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨)﴾ [التين]

وكلما وجدت جَمْعاً أدخل الله ذاته مع عباده ممن لهم هذا الوصف، فهذا يَدلُّك على أن الموصوفين معه لهم تلك الصفات المذكورة، ولكنه

(١) التدليس: الإخفاء والمخادعة بعدم تبيين العيب فى الشىء. ومنه التدليس فى الإسناد بأن يُحدِّث المحدِّث عن شيخه الأكبر بما لم يسمعه منه، بل سمعه ممن هو دونه فى المرتبة.

سبحانه وتعالى أزلىٌّ مُطْلق الصفات ، وهم أحداث [١] وأغيار تنتابهم القوة والتغيُّر والضعف.

وتجد الله سبحانه وتعالى وهو يَصِفُ نفسه بأنه :

﴿ ..أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ⑭ ﴾ [المؤمنون]

وكلنا نعلم أن الله سبحانه هو خالق كل شيء من عدم ، ولكن هناك من الخلق مَنْ يخلق شيئاً من موجود ؛ ولذلك فالله سبحانه وتعالى هو أحسن الخالقين.

والحق سبحانه يصف نفسه بأنه :

﴿ .. خَيْرُ الرَّازِقِينَ ⑪ ﴾ [الجمعة]

والرزق هو ما به يُنتفع ، وقد يأتى لك ولىٌّ أمرك بالمأكل والمشرب والملبس ، ويعطيك ما تنتفع به ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الرزق فى الكون كله.

ويقول الحق سبحانه واصفاً نفسه :

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ⑤④ ﴾ [آل عمران]

والإنسان حين يمكر قد يُدارِى مسألة ، ويغفل عن ركن فيها ، لكن الله تعالى لا يغفل عن شىء.

إذن : فالخيرية فى الحكم لها نصيب من طلاقة قدرة الله تعالى ، ونحن عرفنا أن الرسول ﷺ حين حكم فى بعض الأحكام وعدَّلها له الله سبحانه وتعالى ، لم يكن لله تعالى حكم قبل أن يحكم رسول الله ﷺ.

---

(١) الأحداث : جمع حادث ، وهو ما يكون مسبوقاً بالعدم ، ويسمى حدوثاً زمانياً ، وقد يُعبَّر عن الحدوث بالحاجة إلى الغير ، ويسمى حدوثاً ذاتياً. (التعريفات للجرجانى - ص ٧١).

ومثال ذلك: قصة زيد بن حارثة [(١)] ، وكان مولى أو عبداً لخديجة بنت خويلد [(٢)] رضى الله عنها ، ووهبته لسيدنا رسول الله ﷺ ، ثم علم أهله الذين كانوا يبحثون عنه أنه فى مكة ، وكان قد خُطف صغيراً من بلده وبيع فى مكة ، كعادة العرب فى الجاهلية مع الرقيق [(٣)] ، فلما علموا بذلك ذهبوا إلى رسول الله ﷺ ليستردوا ابنهم ، فقال لهم رسول الله : « والله إنى لأخَيِّره ، فإن اختاركم فخذوه ، وإن اختارنى فهو لى». فاختار زيد أن يبقى مع رسول الله ﷺ.

ولم يكن رسول الله بعد ذلك ليفرِّط فيه ؛ فأعطاه شرف البنوَّة ، فأسماه زيد بن محمد [(٤)] .

---

(١) زيد بن حارثة بن شراحيل ، صحابى ، من أقدمهم إسلاماً ، كان ﷺ لا يبعثه فى سرية إلا أمَّره عليها ، وجعل له الإمارة فى مؤتة ، فاستشهد فيها عام ٨ هـ (الأعلام ٣/ ٥٧).

(٢) هى : زوج رسول الله ﷺ تزوجها قبل البعثة بـ ١٥ عاماً ، وأول مَنْ صدَّقتْ ببعثته ﷺ ، كانت مُوسرةً ، تَاجَر رسول الله بمالها ، وكانت خير معين له فى رسالته . توفيت سنة عشر من البعثة بعد خروج بنى هاشم من الشِّعب . راجع الإصابة فى تمييز الصحابة (٨/ ٦٠ - ٦٢) .

(٣) الرقيق : العبيد ، وقد سُمِّى العبيد رقيقاً لأنهم يرقون لمالكهم ويذلون ويخضعون . [راجع اللسان مادة رقق] وقال الجرجانى فى التعريفات (ص ٩٩) : «الرق فى اللغة : الضعف . ومنه رقة القلب ، وفى عُرْف الفقهاء عبارة عن عجز حكمى شرع فى الأصل جزاء عن الكفر . أما إنه عَجْز فلأنه لا يملك ما يملكه الحر من الشهادة والقضاء وغيرهما ، وأما إنه حكمى فلأن العبد قد يكون أقوى فى الأعمال من الحرّ حسّاً».

(٤) وذلك أن حَارثة بن شراحيل جاء هو وأخوه كعب عم زيد إلى رسول الله ﷺ بمكة ، وذلك قبل الإسلام ، فقالا له : يا بن عبد المطلب ، يا بن سيد قومه ، أنتم جيران الله ، وتفكون العانى (الأسير) ، وتطعمون الجائع ، وقد جئناك فى ابننا عبدك ، فتحسن إلينا فى فدائه ، فقال : أو غير ذلك؟ فقالا : وما هو؟ فقال : أدعوه وأخيِّره ، فإن اختاركما فذاك ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحداً ، فقالا له : قد زدت على النصف ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فلما جاء قال : من هذان؟ فقال : هذا أبى حارثة بن شراحيل ، وهذا عمى كعب بن شراحيل ، فقال : قد خيرتك إن شئت ذهبت معهما ، وإن شئت أقمت معى ، فقال : بل أقيم معك . فقال له أبوه : يا زيد ، أتختار العبودية على أبيك وأمك وبلدك وقومك؟ فقال : إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ، وما أنا بالذى أفارقه أبداً ، فعند ذلك أخذ رسول الله ﷺ بيده ، وقام به إلى الملأ من قريش فقال : اشهدوا أن هذا ابنى وارثاً وموروثاً . فطابت نفس أبيه عند ذلك ، وكان يُدْعى زيد بن محمد ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ..(٥)﴾ [الأحزاب].

وهكذا رأى النبى ﷺ فى التبنِّى وسيلة تكريم ، ولكن الله عز وجل يريد أمراً غير هذا ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٤٠)﴾ [الأحزاب]

لأن الأبوة بالتبنِّى قد تُحدث خَلْطاً فى الأنساب ، فالابن بالتبنى له حق الزواج من ابنة مَنْ تبنَّاه ، فكيف نمنع عنه هذا الحق ، والابن بالتبنى قد تحرم عليه زوجة مَنْ تبناه إن رحل عنها أو طلقها.

لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يحفظ للأنساب حقوقها ومسئولياتها ، فقال سبحانه :

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ..(٤٠)﴾ [الأحزاب]

ومهمته ﷺ كرسول من الله بالنسبة لكم أفضل من الأبوة لكم.

وقال الحق سبحانه فى تعديل حكم التبنى :

﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ[1] عِندَ اللَّهِ ..(٥)﴾ [الأحزاب]

وهذا رَدٌّ لحكم من رسول الله بتكريم لرسول الله ، فما صنعه محمد ﷺ عَدْلٌ وقسْط بعُرْف البشر ، لكن حكم الله سبحانه وتعالى هو الأقسط والأعدلَ ، فينتهى بذلك نسب زيد من محمد ، ويعود إلى نسبه الفعلى «زيد بن حارثة» .

---

(١) القسط : العدل والحق ، ومنه قوله تعالى : ﴿..وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)﴾ [المائدة]. أما القاسطون فهم الجائرون ، قال تعالى : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (١٥)﴾ [الجن].

وحتى لا يؤثر هذا الأمر فى نفس زيد ، نجد الحق سبحانه وتعالى يكرمه تكريماً لم يُكرِّمه لصحابى غيره ، فهو الصحابى الوحيد الذى ذُكر اسمه بالشخص والعَلَم فى القرآن ، فقال الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا [1] زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

وصار اسم «زيد» كلمة فى القرآن تُتْلَى ويُجْهَر بها فى الصلاة ، فإذا كان قد نفى عنه النسب إلى محمد ﷺ فقد أعطاه ذكْراً ثانياً خالداً فى القرآن المحفوظ ، ومنحه بذلك شرفاً كبيراً .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ..وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾ [يونس]

يفيد أن حكم الله تعالى أعمُّ من أن يكون حكماً فى الدنيا أو الآخرة فقط ، فحكم الله سبحانه فى الدنيا نَصْرٌ لدين الله ، ومَنْ مات من المؤمنين أو الكفار لهم حكم آخر .

وختم الله تعالى سورة يونس بهذا الحكم ، وأهدى الله سبحانه كل مؤمن بيونس - كنبى من أنبياء الله تعالى - قضية عندما ذهب مغاضباً ، قال فيه الحق سبحانه :

﴿ وَذَا النُّونِ [2] إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

وأهداه الحق سبحانه وساماً بقوله :

---

(١) الوطر : قال الليث : الوطر كل حاجة كان لصاحبها فيها همة ، فهى وطره . وجمع الوطر : أوطار . وقال الزجاج : الوطر والأرب فى اللغة بمعنى واحد . وقال الخليل بن أحمد : الوطر كل حاجة يكون لك فيها همة ، فإذا بلغها البالغ قيل : قضى وطره وأربه . [لسان العرب : مادة (و ط ر)] .

(٢) النون : الحوت . وذو النون : لقب يونس بن متى عليه السلام . أى : صاحب الحوت ، وهو الحوت الذى ابتلع يونس عليه السلام بعد إلقائه فى البحر .

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ [1] ..(٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وأشركنا الحق سبحانه وتعالى فى هذا الوسام بقوله تعالى:

﴿ ..وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وهكذا أسدى [2] إلينا سيدنا يونس جميلاً كبيراً، حين هداه الله إلى قوله:

﴿ .. لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

واستجاب الله تعالى لدعائه ، وأنجاه من الغَمِّ ، وهو أعنف جنود الله ؛ لأن الشىء الذى يضايقك هو الذى لا تستطيع له دَفْعاً.

ولذلك يقال: إن العدو كلما لَطُفَ [3] عَنُفَ ؛ لأن العدو إن كان ضخم الحجم ، تكون الوقاية منه أسهل من العدو الصغير سريع الحركة ، فإن كان العدو ضخماً ، فالإنسان يرى ضخامته من على البُعْد ، فيجرى منه الإنسان أو يختبىء ، لكن إن كان العدو ثعباناً رفيعاً - مثلاً - فقد لا يراه الإنسان ، وقد لا يستطيع الفرار منه ، وإنْ كان ميكروباً أو فيروساً لا يُرى بالعين المجرَّدة ؛ فهو أعنفُ قدرةً وقوةً فى مهاجمة الإنسان.

إذن: كل مُتْعب فى الدنيا من الممكن أن تحتاط منه إلا ما يتلصَّص عليك بدقَّة ولُطْف ؛ فإنك لا تعرف مدخله.

ونحن نسمع أن فلاناً قد أصيب بمرض ما ، لأنه أخذ عدوى من فيروس ما ، هذا الإنسان لا يعرف متى اخترق الفيروس جسده ، لكنه فوجىء

---

(١) غم الشىء يغمه غماً : أخفاه وغطّاه وستره .
وغمّه الأمر : أحزنه .
قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ .. (٨٨) ﴾ [الأنبياء]
والغمة : التباس الأمر وعدم وضوحه ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً .. (٧١) ﴾ [يونس]
[القاموس القويم - ٢ / صـ ٦٠ ، ٦١ بتصرف]
(٢) أسدى : أعطى ، وأهدى . [لسان العرب : مادة (س د ى)].
(٣) لطف الشىء يلطف : صَغُر . [لسان العرب : مادة (ل ط ف)].

بأعراض المرض تظهر عليه بعد كمون [١] الفيروس فى جسده لأسبوعين ، وهكذا نجد أن العدو كلما لَطُفَ عَنُفَ.

والغمُّ من أشد وأقسى أنواع البلاء ، وكلنا نعرف قصة الإمام على - كرَّم الله وجهه - وهو المشهور بالفُتْيا [٢] ، وكان الناس يستفتونه فيما يعجزون عن العثور على حل له ، واجتمع بعض من الناس وقالوا: نريد أن نجمع بعض الأشياء الصعبة ونسأله عنها لنختبره ، فلما اجتمعوا قالوا لعلىٍّ كرم الله وجهه: نريد أن نستعرض كون الله تعالى ، فقد جلسنا معاً لنعرف أقوى ما خلق الله ، واختلفنا فقال كل واحد اسم القوة على حَسْب ما يراها.

لم يتروَّ على بن أبى طالب ، ولم يَقُلْ كلاماً مَسْروداً [٣] بحيث إن وقف ، لا يطالبه أحد بزيادة ، بل حدَّد من الجملة الأولى عدد القوى حسب ترتيبها وقوتها ، حتى تطابق العدد على المعدود ، وهذا دليل على أنه مُسْتحضرٌ للقضية استحضار الواثق. وفرد أصابع يديه وقال:

أشدُّ جنود الله عشرة: الجبال الرواسى ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض

---

(١) الكمون: الاختفاء والاستتار. ومنه: الكمين فى الحرب. وحزن مكْتمِن فى القلب: مُختف. [اللسان: مادة كمن].

(٢) الفتيا: تبيين المشكل من الأحكام ، أصله من الفتى ، وهو الشاب الحدث (الحديث السنّ) الذى شبَّ وقوى ، فكأنه يقوِّى ما أشكل ببيانه فيشب ويصير فَتيّاً قوياً. وأفتى المفتى إذا أحدث حكماً. وأفتاه فى الأمَر: أبانه له. وأفتى الرجل فى المسألة. واستفتيته فيها فأفتانى إفتاء. قال تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ..﴿١١﴾﴾ [الصافات] وقال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ ..﴿١٧٦﴾﴾ [النساء] أى: يسألونك. وقال تعالى: ﴿.. قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف] ، وقال تعالى عن بلقيس ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ..﴿٣٢﴾﴾ [النمل]. [لسان العرب: مادة (ف ت ى)] - بتصرف.

(٣) الكلام المسرود: الكلام المتتابع ، بعضه إثر بعض ، بحيث لا يدرك السامع أوله من آخره ، فلا يستطيع أن يستدرك شيئاً على المتكلم ، أو يحفظ منه شيئاً.

يحمل الماء ، والريح تقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح ، يستتر بالثوب أو الشيء ويمضى لحاجته ، والسُّكْر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُّكْر ، والهمُّ يغلب النوم ، فأشد جنود الله - سبحانه - الهَمُّ.

هكذا قال سيدنا على بن أبى طالب ، فالهمُّ والغمُّ من أشد جنود الله تعالى ، وكان سيدنا يونس عليه السلام سبباً فى أن قدَّم الله سبحانه لكل مؤمن به إلى أن تقوم الساعة مَنْجًى من الهمِّ والغمِّ بالدعاء الذى ألهمه ليونس عليه السلام فى قوله تعالى:

﴿ ..لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وهكذا تعدَّتْ «النجاة من الغم» من الخصوصية إلى العمومية ، وقد أخذها جعفر الصادق - رضى الله عنه - وجعل منها «تذكرة طبية» للمؤمن حتى يستقبل أحداث الحياة كلها ، فى كل جوانبها المفزعة ؛ لأن الإنسان يهدده الخوف مما يعلم .

أما الهم فلا يعرف الإنسان فيه سبب الخطر ، ولا يعلم الإنسان مكر الناس به ؛ لأن الإنسان لا يعلم ماذا بَيَّتوا له .

وشغل الإنسان بأمر الدنيا وأن يكون منعَّماً ومرفَّهاً فى كل أمور الحياة ، يجعله عُرْضة للهموم .

وكان سيدنا جعفر الصادق [1] له بصر وبصيرة بآيات القرآن ومتعلقاتها ، فقال : «عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الحق سبحانه :

﴿ ..حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران]

---

(١) هو : جعفر بن محمد بن على بن الحسين ، أبو عبد الله ، كان مشغولاً بالعبادة عن حب الرياسة ، روى عنه شعبة والثورى ومالك . توفى بالمدينة عام ١٤٨ هـ .

ولا يتُعجب لمن يخيفه شيء إلا إذا كان عند المتعجب شيء يزيل الخوف.

فمن عنده صداع يمكنه أن يعالجه بالأسبرين ، أما الخوف فقد وصف سيدنا جعفر دواءه ، بقول الله سبحانه:

﴿ ..حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران]

فذلك هو الدرع من كل خوف.

ويقدم جعفر الصادق لنا السبب فيقول: لأن الله سبحانه قال عقبها:

﴿فَانقَلَبُوا [1] بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ..(١٧٤)﴾

[آل عمران]

أي: أن سيدنا جعفراً جاء بالحيثية من نفس القرآن ، وأضاف جعفر الصادق: «وعجبت لمن اغتمَّ – وهو الموضوع الذى نبحثه الآن – ولم يفزع إلى قول الله سبحانه:

﴿ ..لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

فإني سمعت الله تعالى بعقبها يقول :

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وعجبت لمن مُكر به كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه:

﴿ .. وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) ﴾ [غافر]

لأني سمعت الله تعالى بعقبها يقول:

---

(١) انقلبوا: رجعوا. أي: أنهم لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمَّهم وردَّ عنهم بأس من أرادوا كيدهم، فرجعوا إلى بلدهم بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء مما أضمر لهم عدوهم. (ابن كثير ٢/ ٤٣١).

﴿ فَوَقَاهُ [1] اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ [2] بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر]

وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه:

﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ..﴿٣٩﴾ ﴾ [الكهف]

لأنى سمعت الله تعالى بعقبها يقول:

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الكهف]

وهكذا وجد جعفر الصادق رضى الله عنه فى كتاب الله أربع آيات لأربع حالات نفسية تصيب البشر ، وجاء مع كل حالة دليلها من القرآن الكريم.

وقول الحق سبحانه وتعالى فى آخر سورة يونس:

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس]

مناسب لقوله سبحانه فى الآية الأولى من السورة التى تليها:

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود]

لأن الوحى كتاب أحكمت آياته حقاً وصدقاً.

---

(١) وقاه الله وَقْياً ووقاية وواقية: صانه. ووقيت الشىء إذا صنته وسترته عن الأذى. ووقاه ما يكره: حماه منه. وقال تعالى: ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ ..﴿١١﴾ ﴾ [الإنسان] وقال تعالى: ﴿ ..وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴿٩﴾ ﴾ [غافر] [لسان العرب: مادة (و ق ى)].

(٢) حاق: أحاط. والحوق: الإحاطة بالشىء والإطار المحيط به المستدير حوله. قال الليث: الحيق ما حاق بالإنسان من مكر أو سوء عمل يعمله ؛ فينزل ذلك به. وقيل: الحيق فى اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عاقبةُ مكروه فَعَلَه. وقال الزجاج: حاق بهم العذاب أى: أحاط بهم جزاء ما كانوا يستهزئون ، كما تقولُ: أحاط بفلان عمله وأهلكه كَسْبه ، أى: أهلكه جزاء كسبه. قال تعالى: ﴿ ..فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [غافر]. وقال تعالى: ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر]. [لسان العرب: مادة (ح و ق ، ح ى ق)].


سُورَةُ هُودٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ سورة هود [1] بقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾

وتبدأ الآية بحروف توقيفية مقطعة من الحروف التى تبدأ بها بعض سور القرآن الكريم ، أى: أن كل حرف من تلك الحروف يُنطَق بمفرده ، والحرف - كما نعلم - له اسم ، وله مسمى ، ونحن حين نكتب أو نتكلم نكتب أو ننطق بمسمى الحرف لا باسمه.

ولكن بعض سور القرآن الكريم تبدأ بحروف نقرأها باسم الحرف ، وما عداها يُنطق فيها بمسميات الحرف.

وإن أردنا معرفة الفارق بينهما ، فنحن نقرأ فى أول سورة البقرة ونقول:

(١) سورة هود هى السورة الحادية عشرة فى ترتيب سور القرآن ، وهى سورة مكية فى قول الحسن وعكرمة وغيرهما. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية ، وهى قوله تعالى: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار ..﴿١١٤﴾﴾ [هود]. وعدد آياتها (١٢٣) آية.

سميت باسم نبى الله هود عليه السلام ، الذى أرسل إلى قوم ثمود ، ذكر فيها اسم النبى هود ٥ مرات. وذكر فى سورة الشعراء آية ١٢٤ ، وفى الأعراف آية ٦٥.

قال عنها رسول الله ﷺ: «شيبتنى هود وأخواتها: الواقعة ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت» أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ٣٥٨).

قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله فى «نوادر الأصول»: فالفزع يورث الشيب ، وذلك أن الفزع يذهل النفس فينشف رطوبة الجسد وتحت كل شعرة منبع ، ومنه يعرق ، فإذا نشّف الفزع رطوبته يبست المنابع فيبس الشعر فابيضّ ، كما ترى الزرع الأخضر بسقائه ، فإذا ذهب سقاؤه يبس فابيضّ.

فالنفس تذهل بوعيد الله ، وأهوال ما جاء به الخبر عن الله ، فتذبل ، وينشف ماءها ذلك الوعيد والهول الذى جاء به ، فمنه تشيب.

وسورة هود ، فيها ذكر الأمم ، وما حلّ بهم من عاجل بأس الله تعالى ، فأهل اليقين إذا تلوها تراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطش بأعدائه ، فلو ماتوا من الفزع لحقّ لهم ، ولكن الله تبارك وتعالى اسمه يلطف بهم فى تلك الأحايين حتى يقرءوا كلامه. نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣١٩).

«ألف. لام. ميم» رغم أنها مكتوبة : ﴿الٓمٓ ①﴾ [1] [البقرة]

إذن: فنحن ننطقها بمسميات الحروف عكس قراءتنا لقول الحق سبحانه:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ [2] لَكَ صَدْرَكَ ①﴾ [الشرح]

ونحن ننطقها بأسماء الحروف. . لماذا ؟

لأن الرسول ﷺ سمعها هكذا من جبريل عليه السلام ، والقرآن أصله سماع ، وأنت لا تقرأ قرآناً إلا إذا سمعت قرآناً ؛ لتعرف كيف تقرأ الحروف المقطعة بأسماء الحروف ، وتقرأ بقية الآيات بمسميات الحروف.

وكنا قديماً قبل أن نحفظ القرآن «نصحح» اللوح ، أى: أن يقرأ الفقيه أولاً ليُعلمنا كيف نقرأ قبل أن نحفظ.

والذى يُتعب الناس أنهم يريدون أن يقرأوا القرآن الكريم دون أن يجلسوا إلى فقيه أو دون أن يستمعوا إلى قارىء للقرآن.

ونقول لهم: إن القرآن ليس كتاباً عادياً نقرأه ، إن القرآن كتاب له خاصية مميزة ، فَصُور الحروف تختلف ، فمرة ننطق اسم الحرف ، ومرة نقرأ مسمى الحرف.

وقول الحق سبحانه: ﴿الٓمٓ﴾ فى أول سورة هود ؛ يجعلنا نلحظ أنه من العجيب فى فواتح السور - التى بدأت بهذه الحروف - أن القرآن مبنىٌّ على الوصل دائماً ، فأنت لا تأتى إلى آخر الآية وتقف ، لا ، بل كل القرآن وَصْل ، مثلما نقرأ قول الله سبحانه:

---

(١) ﴿الٓمٓ﴾ ذكرت فى افتتاح ست سور هى : البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة . وتحسب آية مستقلة .

(٢) أى : وسَّعناه معنوياً ، وأزلنا عنه الضِّيق والهم . والمراد : أرضيناك وسررناك . أو هو شق الصدر فعلاً حسياً . أو هما معاً . [القاموس القويم] .

﴿مُدْهَامَّتَانِ (١) ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ (٢) رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٣) ﴿٦٦﴾﴾ [الرحمن]

وإن كان هناك فاصل بين كل آية وغيرها ، إلا أن الآيات كلها مبنية على الوصل.

وفى آخر سورة يونس يقول الحق سبحانه:

﴿.. وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس]

فلو لم تكن موصولة لنطقت الحرف الأخير مبنياً على السكون ، ولكنك تقرأه منصوباً بالفتحة. وهى موصولة بما بعدها (بسم الله الرحمن الرحيم).

ومن العجيب أن فواتح السور مع أنها مكونة من حروف مبنية على الوصل إلا أننا نقرأ كل حرف موقوفاً ، فلا نقول: «ألفٌ لامٌ ميمٌ» بل نقول: «ألفْ لامْ ميمْ».

وكذلك نقرأ فى أول سورة مريم «كافْ هاءْ ياءْ عينْ صادْ» ، ولا نقرأ الحروف بتشكيلها الإعرابى ، وهذا يدل على أن لها حكمة لا نعرفها.

وفى القرآن الكريم آيات بُدئت بحرف واحد مثل قول الحق سبحانه:

﴿صَ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ [ص]

وقول الحق سبحانه:

---

(١) مدهامتان : سوداوان من شدة خضرتهما وكثرة الظلال وهذا كناية عن النعيم التام (وهو وصف للجنتين اللتين ورد ذكرهما فى قول الله تعالى فى آية : ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [الرحمن] .

(٢) الآلاء : النعم ، مفردها : إلىً أو ألى (بكسر الهمزة ، وبفتحها) قال تعالى : ﴿.. فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف] ، وقال تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [النجم] . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٣) نضاختان : فوارتان بالماء لا ينقطعان . ويخرج ماؤهما غزيراً ، ونضّاخة : صيغة مبالغة تدل على الكثرة . [تفسير الجلالين : ص ٤٧٠] و[القاموس القويم] بتصرف .

﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ ﴾ [ق]

وقول الحق سبحانه :

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ[1] ۝١ ﴾ [القلم]

ونلحظ أن الحرف في هذه السور ليس آية ، ولكنك تقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ حمٓ ۝١ ﴾[2] [الشورى]

وهى آية ، وكذلك تقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ عٓسٓقٓ ۝٢ ﴾ [الشورى] كآية مع أنها حروف مقطعة ، وتقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ﴾ [مريم] كآية بمفردها .

وتقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ طه ۝١ ﴾ [طه] كآية بمفردها .

وكذلك تقرأ قول الحق : ﴿ يسٓ ۝١ ﴾ [يس] كآية بأكملها .

وتجد أيضاً : ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ ﴾ [الأعراف] كآية .

و﴿ طسٓمٓ ۝١ ﴾ [الشعراء ، والقصص] كآية .

وتجد أيضاً ﴿ الٓمٓر .. ۝١ ﴾ [الرعد] ملتحمة بما بعدها في آية واحدة .

وتقرأ في أول سورة النمل : ﴿ طسٓ ۝١ ﴾ ملتحمة بما بعدها في آية واحدة .

---

(١) يسطرون : يكتبون . من سطر الكتاب أى : جعله سطوراً.

(٢) ﴿حم﴾ : ذكرت فى افتتاح سبع سور هى : غافر ، وفصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والأحقاف. وتحسب آية مستقلة - والله أعلم بمعناها . [القاموس القويم] . وتسمى الحواميم.

إذن: فالمسألة لا نسق لها ، ومعنى ذلك أن لكل موقف وكل حرف حكمة ، والحكمة نجدها حين نتأمل العالم المادى فى الحياة ، فنفطن إلى عبَر الله سبحانه وتعالى فى آيات الكون المحسَّة ، ويجد الدليل على صدق الله تعالى فيما لم نعلم.

ومثال ذلك: حين ينزل الإنسان فى فندق راق فهو يجد لكل غرفة مفتاحاً ، وهذا المفتاح لا يفتح إلا باب غرفة واحدة ، ولكن فى كل طابق من طوابق الفندق هناك مفتاح مع المسئول عن الطابق يسمى «سيد المفاتيح» وهو يفتح كل غرف الطابق ، وقد صنعوا ذلك ؛ حتى لا يفتح كل نزيل غرفة الآخر.

ومع التقدم العلمى جعلوا الآن لكل غرفة بطاقة الكترونية ، ما إن يُدخلها الإنسان من فتحة معينة من باب الغرفة حتى ينفتح الباب ، وكل غرفة لها بطاقة معينة ، وأيضاً يوجد مع مسئول الطابق فى الفندق بطاقة واحدة ، تفتح كل غرف الطابق.

وأنت حين تقرأ فواتح السور فافهم أن كل آية لها مفتاح ، وكل حرف فى هذه الفواتح قد يشبه المفتاح ، وإن لم يكن معك المفتاح ذو الأسنان التى تفتح باب الغرفة ؛ فلن تنفتح لك السورة.

إذن: فكتاب الله له مفاتيح ، ونحن نقرأ حروفاً مُقطَّعة على أنها آية ، أو نقرأها كجزء من آية .

وتقول من قبل القراءة : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»[1] لتخلص نفسك من الأغيار المناقضة لمنهج قائل القرآن ، ثم تضع البطاقة الخاصة مثل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [البقرة]

---

(١) قال عز وجل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝٩٨﴾ [النحل] ، عن عطاء قال: الاستعاذة واجبة لكل قراءة فى الصلاة أو غيرها . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ١٦٥) طبعة دار الفكر ، وعزاه لعبد الرزاق فى المصنف وابن المنذر.

فينفتح لك باب القراءة.

وهكذا نعرف أن هناك مفتاحاً ، وأن هناك فاتحاً.

وخذ فواتح السور على أنها مفاتيح ، وكل مفتاح له شكل ونحت معين ، إن نقلته لسورة أخرى فهو لا يفتحها.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿الٓر﴾ وهى مكونة من ثلاثة حروف ، مثل ﴿الٓمٓ﴾ ، وقد وردت فى خمس سور من القرآن الكريم هى: يونس ، وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، والحجر.

ولكن ﴿الٓمٓ﴾ تقرأ كآية ، ولكنها هنا فى مقدمة سورة «هود» جزء من آية رغم أنك تقرأها مثلها مثل سورة يونس ، وسورة هود ، وسورة يوسف وسورة إبراهيم ، و تقرأها كآية.

وأيضاً (الٓمٓصٓ) هى أربعة حروف تقرأها آية فى سورة الأعراف ، وهناك أربعة حروف فى أول سورة الرعد ، وتقرأها كجزء من آية فى سورة الأعراف.

إذن: فليس هناك قانون لهذه الحروف التى فى أوائل السور ، بل كل حرف له خصوصية لم تتكشف كل أسرارها بعد [(١)] ، لهذا ذهب بعض المفسرين إلى قولهم « الله أعلم بمراده» .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ۝١﴾ [هود]

---

(١) قال السيوطى فى «الإتقان فى علوم القرآن» (٣/ ٢١) : «المختار فيها أنها من الأسرار التى لا يعلمها إلا الله تعالى. عن عامر الشعبى: أنه سئل عن فواتح السور. فقال: إن لكل كتاب سراً ، وإن سر هذا القرآن فواتح السور».

قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٧) : «مجموع الحروف المذكورة فى أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً وهى: أ ل م ص ر ك هـ ى ع ط س ح ق ن - يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر».

والله سبحانه يقول مرة عن القرآن أنه : ﴿كِتَابٌ﴾ ومرة يقول :

﴿قُرْآنٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس]

والقرآن يُقرأ ، والكتاب يُكتب ، وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليدلَّك على أن الحافظ للقرآن مكانان : صدور ، وسطور . فإن ضَلَّ الصدر ، تذكر السطر .

ولذلك حين أراد المسلمون الأوائل جمع القرآن [1] ، ومطابقة ما فى الصدور على ما فى السطور ، وضعوا أسساً لتلك العملية الدقيقة ، من أهمها ضرورة وجود شاهدين على كل آية ، ووقفوا عند آخر آيتين فى سورة التوبة [2] ، ولم يجدوا إلا شاهداً واحداً هو «خزيمة» ، وصدَّقوا «خزيمة» وكتبوا الآيتين عنه ؛ لأن رسول الله ﷺ كان قد منحه وساماً ، حين قال عنه : «من شهد له خزيمة فهو حسبه» [3] .

إذن : فإطلاق صفة الكتاب على القرآن ، سببها أنه مكتوب ، وهو قرآن ؛ لأنه مقروء .

ولم تكن الكتابة فى الأزمنة القديمة مسألة سهلة ، فلم يكن يُكتب إلا النفيس من الأعمال ، أو لأن القرآن كتاب ؛ لأنه فى الأصل مكتوب فى اللوح المحفوظ .

---

(١) المقصود به هنا جمع القرآن على عهد أبى بكر رضى الله عنه ، بعد أن اشتد القتل بقراء القرآن فى الغزوات ، فأشار عليه عمر بجمع القرآن ، فأرسل إلى زيد بن ثابت رضى الله عنه وقال له : إنك شاب عاقل ، لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه . فأخذ زيد يجمعه من العسب (هو سعف النخيل) واللخاف (حجارة بيض عريضة رقاق) وصدور الرجال . انظر الإتقان فى علوم القرآن (١/ ١٦٥) .

(٢) هاتان الآيتان هما : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة] .

(٣) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ١٨) والطبرانى فى معجمه الكبير (٤/ ١٠١) من حديث خزيمة بن ثابت . قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٢٠) : « رجاله كلهم ثقات» .

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى واصفاً القرآن :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ..(١) ﴾ [هود]

ومادة الحاء والكاف والميم [1] تدل على أمر مُحسٍّ وهو إتقان البناء ، بحيث يمنع عنه الفساد ؛ فلا خلل فيه ، ولا تناقض ، ولا تعارض ولا انهيار.

ولا بد من توازن هندسى لكل فتحة فى البناء ؛ حتى لا تكون الفتحات التى فى البناء متوازية على خط واحد ، فتحدث شروخ فى الجدران أو انهيار البناء كله. هذا هو إحكام البناء فى عالم المحسَّات.

وشاء الحق سبحانه أن يصف القرآن ، وهو الجامع لكل المنهج بأنه :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ..(١) ﴾ [هود]

فخذوا من هذا الإحكام [2] ما يمنع فسادكم ؛ لأن القرآن جاء على هيئة تمنع الفساد فيه ، وعقد منع الفساد يكون الإصلاح والصلاح .

ولو نظرتَ إلى أن القرآن الكريم فى اللوح المحفوظ ستجده قد نزل جملة واحدة ، من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، وجاء الوحى بعد ذلك حسب الأحداث التى تتطلب الأحكام ، وقد نثر الحق سبحانه فى القرآن أحكاماً وفصولاً ونجوماً.

---

(١) أحكم الأمر : أتقنه. قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ..(٥٢) ﴾ [الحج] ، أى : يبينها ويجعلها متقنة مقنعة محكمة ، وآيات محكمة : متقنة مقنعة واضحة ، وقيل : محكمة غير منسوخة أو محكمة غير متشابهة فلا تحتاج إلى تأويل ، قال تعالى : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ..(٧) ﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ ..(٢٠) ﴾ [محمد] . أى : متقنة. [القاموس القويم].

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٢٠) : «أحسن ما قيل فى معنى : ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ..(١) ﴾ [هود] قول قتادة ، أى : جعلت محكمة كلها لا خلل فيها ولا باطل ، والإحكام منع القول من الفساد ، أى : نظمت نظماً محكماً ، لا يلحقها تناقض ولا خلل».

إذن: فالقرآن قد أحكم أولاً ، ثم فُصِّل [1].

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ .. (١) ﴾ [هود]

والفواصل الكبيرة فى القرآن هى السور ، والفواصل الصغيرة هى الآيات ، وأراد المسلمون أن يشجعوا حفظ القرآن ، فقسموه إلى ثلاثين جزءاً ، وكل جزء قسموه إلى حزبين ، وكل حزب قسموه إلى أربعة أرباع ، لكن التفصيل الذى جاء لنا من القرآن أنه سور ، وكل سورة هى مجموعة من الآيات.

وقد يكون المعنى أن القرآن قد أحْكِمَ وفُصِّل ؛ لأنه نزل منهجاً جامعاً من الله سبحانه وتعالى.

وحين تنظر إليه تجده مُنوَّعاً ، فمرة يتكلم فى العقيدة وقمتها ، ومرة يتكلم فى النبوة وموكبها الرسالى ، والمعجزات ، ومرة يتكلم فى الأحكام ، ومرة يتكلم فى القصص ، والأخلاقيات ، والكونيات. ومرة يتكلم فى علم الفرائض [2].

إذن: فهو مفصل فى اللفظ أو فى المعنى ، وهو يتناول معانى كثيرة ، وكل معنى تتطلبه العقيدة ، قمة فى الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويتناول الجزئيات حتى أدق التفاصيل.

أو أحكم نزولاً ؛ لأنه قد نزل مرة واحدة إلى السماء الدنيا ، ثم فُصِّل حسب الحَوادث ، وهذا أدْعَى إلى أن تتعلق النفس بكل نجم من نجوم القرآن حين ينزل وقت طلبه.

---

(١) فصَّل الشيء: جعله أقساماً متميزة واضحة ، قال تعالى: ﴿ .. وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢) ﴾ [الإسراء] ، وقال تعالى: ﴿ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ .. (١٣٣) ﴾ [الأعراف] أى: معجزات مبينات واضحات ، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ .. (٥٢) ﴾ [الأعراف].

(٢) الفرائض المعنى بها علم المواريث ، أخذاً مما فرضه الله لكل واحد من أصحاب الفروض.

وأنت حين تُعد لنفسك صيدلية صغيرة فى البيت ، قد تأتى فيها بكل الأدوية ، لكن إنَ أصابك صداع ، فقد تفتش عن أقراص «الأسبرين» فلا تجدها. أما إذا أرسلت إلى الصيدلية الكبيرة ، فسوف تجد «الأسبرين» حين تحتاجه.

وكذلك حين تكون ظمآن ، قد تفتح ثلاجة بيتك فلا تجد زجاجة الماء رغم أنها أمامك ، وذلك بسبب لهفة العطش.

إذن : فنزول القرآن منجماً شاءه الحق - سبحانه - لتنتعش النفس الإنسانية وهى تعشق استقبال القرآن.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ [1] لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ [2] وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (١٠٦) ﴾

[الإسراء]

وقد جاء فى القرآن على لسان الكافرين :

---

(١) قرئت هذه الكلمة بقراءتين : فرَقناه ، فرَّقناه (بتشديد الراء) - فعلى القراءة الأولى فمعناه : فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ فى ثلاث وعشرين سنة ، قاله عكرمة عن ابن عباس.

- وعلى القراءة الثانية فمعناه : أنزلناه آية آية مبيناً مفسراً، قاله ابن عباس أيضاً. ولهذا قال : ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ .. (١٠٦) ﴾ أى : لتبلغه الناس وتتلوه عليهم : ﴿ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ أى : مهل. ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ أى : شيئاً بعد شىء . تفسير ابن كثير (٣/ ٦٨).

(٢) مكث : أقام فى مكانه ، وتفيد التأنى وعدم العجلة . وقوله تعالى : ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ .. (١٠٦) ﴾ [الإسراء] أى : على مهل وتأن بغير عجلة فى أزمنة متطاولة. وقال تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ .. (٢٢) ﴾ [النمل] أى : استمر الهدهد فى غيبته مدة لكنها غير طويلة. وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ .. (١٧) ﴾ [الرعد] أى : يبقى مدة طويلة فيها فيزيدها خصباً. وقال تعالى : ﴿ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. (١٠) ﴾ [طه] أى : أقيموا فى مكانكم منتظرين. [القاموس القويم].

﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .. (٣٢)﴾ [الفرقان]

فيكون الرد من الحق سبحانه :

﴿ ..كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢)﴾ [الفرقان]

ولو كان القرآن قد نزل مرة واحدة على رسول الله ﷺ لما التفت الناس إلى كل ما جاء فيه ، ولكن شاء الحق سبحانه وتعالى أن ينزل القرآن مُنجَّماً [١] على الرسول ﷺ ، ليكون فى كل نجم تثبيت لرسول الله ﷺ فى المواقف المختلفة ، والرسول ﷺ وكذلك أمته من بعده فى حاجة إلى تثبيتات متعددة حسب الأحداث التى تعترضهم، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ..كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً [٢] (٣٢)﴾ [الفرقان]

فساعة أن يسمع المؤمنون نجماً من نجوم القرآن ، يكونون أقدر على استيعابه وحفظه وتطبيق الأحكام التى جاءت فيه .

ولم يُنزل الحق سبحانه آية واحدة ، بل أنزل آيات ، بدليل أنهم إن جاءوا بحكم ما ، فهو سبحانه وتعالى ينزل الحق فى هذا الحكم وأكثر تفصيلاً ؛ ولذلك يقول سبحانه :

﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣)﴾ [الفرقان]

ولو نزل القرآن جملة واحدة ، فكيف يعالج أسئلتهم التى

---

(١) منجماً : مفرقاً ؛ لأن القرآن أنزل إلى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم أنزل على النبى ﷺ آية آية ، وكان بين أول ما نزل منه وآخره عشرون سنة . [لسان العرب ، مادة : نجم] فنزول القرآن كان منجماً حسب مقتضى حال الدعوة ، فالآيات المكية تناولت العقيدة وتقويم العادات ، وإعلاء القيم والتمهيد لعبادة الله ، والآيات المدنية تناولت العبادات والمعاملات لإقامة صرح العدالة فى المجتمع .

(٢) رتلناه ترتيلاً : أنزلناه مرتلاً منسقاً مجوداً حسن التأليف [القاموس القويم] قال ابن منظور فى اللسان : «أى : أنزلناه على الترتيل ، وهو ضد العجلة والتمكث فيه » .

جاءت فى القرآن: ﴿يسألونك عن﴾ [1].

ويضرب الله مثلاً بالبعوضة ، فيتساءلون ساخرين: كيف يضرب الله مثلاً بالبعوضة ؟

فينزل قول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ..(٢٦)﴾ [البقرة]

ولو كانوا عقلاء لتساءلوا: كيف ركَّب الحق سبحانه فى هذا الكائن الضئيل - البعوضة [2] - كل أجزاء الكائن الحى ؛ من محلٍّ الغذاء إلى قدرة الهضم ، إلى محل التنفس ، إلى محل الدم ، إلى محل الأعصاب .

وكان يجب أن يأخذوا من هذا الخلق دلائل العظمة ؛ لأن عظمة الصنعة تكون فى أمرين : إما ضخامة الشىء المصنوع ، وإما أن يكون الشىء المصنوع تحت إدراك الحس .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - أن الفنيين حين صنعوا ساعة «بج بن» التفت الناس إلى ضخامة تلك الساعة ، ودقة أدائها ، وحين صنع الفنيون فى «سويسرا» ساعة دقيقة وصغيرة جداً فى حجمها ، زاد إعجاب الناس بدقة الصنعة .

وهكذا نجد أن القدرة تتجلى فى صناعة الشىء الكبير فى الحجم ، أو صناعة الشىء الدقيق جداً ؛ فما بالنا بخالق الكون كله ، بأكبر ما فيه وأصغر ما فيه .

---

(١) قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩)﴾ [البقرة] . وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ .. (٢١٧)﴾ [البقرة] .
وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ..(٢١٩)﴾ [البقرة].
وقد وردت فى القرآن ١٥ آية تبدأ بـ(يسألونك).

(٢) البعوضة : حشرة صغيرة طائرة لها جناحان دقيقان ، وخرطوم تستقى به الدم ، فهى حشرة لاسعة ضارة ، وهى أنواع كثيرة جداً ، منه ما ينقل أمراضاً مهلكة .

والحق سبحانه وتعالى يضرب المثل بالذبابة فيقول:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ..(٧٣) ﴾ [الحج]

فلو اجتمع الخلق المشركون أو المتجبرون وسألوا أصنامهم أن يخلقوا لهم ذبابة ، أو حتى لو حاولوا هم خَلْق ذبابة لما استطاعوا ، ولا يقتصر الأمر على ذلك العجز فقط ، بل يتعداه إلى عجز آخر :

﴿ ..وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ [١] وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

فإن جاءت ذبابة على أى طعام ، وأخذت بعضاً من الطعام ، فهل يستطيع أحد أن يستخلص من الذبابة ما أخذته؟

لا ، وكذلك نرى ضعف الاثنين: الطالب والمطلوب.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ [٢] حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) ﴾ [هود]

فالإحكام [٣] لا يتناقض مع التفصيل ؛ لأن الحق سبحانه هو الذى

---

(١) الطالب: اسم فاعل. والمطلوب: اسم مفعول. أى: ضعف الإنسان الطالب ، وضعف الذباب المطلوب [القاموس القويم] قال ابن عباس: الطالب الصنم ، والمطلوب الذباب. وقال السدى وغيره: الطالب العابد والمطلوب الصنم. [لسان العرب - مادة: طلب].

(٢) لدن: ظرف مكان أو زمان بمعنى (عند) مبنى على السكون وإذا أضيف إلى ياء المتكلم فصلت بينهما نون الوقاية وأدغمت فى نونها مثل قوله: ﴿ .. قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) ﴾ [الكهف] وجاءت مضافة إلى ضمير المخاطب مثل: ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً .. (٨) ﴾ [آل عمران] وإلى ضمير المتكلمين «نا». قال تعالى: ﴿ ..وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾ [الكهف]. وتضاف إلى ضمير الغائب كقوله: ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ ..(٢) ﴾ [الكهف] [القاموس القويم].

(٣) الإحكام والحكمة فى الشىء قدرة تحمل أسرار فيها حكمة الخلق والإبداع ، والتفصيل الوزن وإقامة العدل ، فالإحكام أساس ، والتفصيل بناء ، وهما متلازمان تلازم الحكم مع خبرة الإطلاق .

أحكم ، وهو سبحانه الذى فصَّل ، وهو سبحانه حكيم بما يناسب الإحكام ، وهو سبحانه خبير بما يناسب التفصيل ، بطلاقة غير متناهية .

وهو سبحانه حكيم يخلق الشيء مُحْكماً لا يتطرق إليه فساد ، وهو سبحانه خبير عنده علم بخفايا الأمور .

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى :

﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ [1] الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾ [الأنعام]

فالله سبحانه لا تدركه عين ، وعينه - سبحانه وتعالى - لا تغفل عن أدق شيء وأخفى نية .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) ﴾ [هود]

يبيِّن لنا أن القرآن كلام الله القدير الذى بُنى على الإحكام ، ونزل مُحْكماً جملة واحدة ، ثم جاءت الأحداث المناسبة لينزل من السماء الدنيا نجوماً مفصلة تناسب كل حدث .

وإحكام الكتاب ثم تفصيله له غاية ، هى الغاية من المنهج كله ، ويبيِّنها الحق سبحانه فى الآية التالية :

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) ﴾

إذن : فقد أحكمت آيات الكتاب وفصِّلت لغاية هى : ألا نعبد إلا الله .

والعبادة هى طاعة العابد للمعبود فيما أمر ، وفيما نهى .

---

(١) اللطيف : صفة من صفات الله واسم من أسمائه ، ومعناه : الرفيق بعباده . قال ابن الأثير : اللطيف هو الذى اجتمع له الرفق فى الفعل والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدرها له من خلقه . [اللسان مادة : لطف] .

وهكذا نجد أن العبادة تقتضى وجود معبود له أمر وله نهى ، والمعبود الذى لا أمر له ولا نهى لا يستحق العبادة ، فهل مَنْ عَبَدَ الصنم تلقَّى منه أمراً أو نهياً ؟

وهل مَنْ عَبَدَ الشمس تلقَّى منها أمراً أو نهياً ؟

إذن: فكلمة العبادة لكل ما هو غير الله هى عبادة باطلة ؛ لأن مثل تلك المعبودات لا أمر لها ولا نهى ، وفوق ذلك لا جزاء عندها على العمل الموافق لها أو المخالف لها.

والعبادة بدون منهج «افعل» و«لا تفعل» لا وجود لها ، وعبادة لا جزاء عليها ليست عبادة.

وهنا يجب أن نلحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ..(٢)﴾ [هود]

غير قوله سبحانه:

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ..(٧٢)﴾ [المائدة]

ولو أن الرسل تأتى الناس وهم غير ملتفتين إلى قوة يعبدونها ويقدسونها لكان على الرسل أن يقولوا للناس: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ..(٥٩)﴾ [الأعراف]

ولكن هنا يقول الحق سبحانه :﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. (٢)﴾ [هود]

فكأنه سبحانه يواجه قوماً لهم عبادة متوجهة إلى غير من يستحق العبادة ؛ فيريد سبحانه أولاً أن يُنهى هذه المسألة ، ثم يثبت العبادة لله.

إذن: فهنا نفى وإثبات ، مثل قولنا: «أشهد ألا إله إلا الله » ، هنا ننفى أولاً أن هناك إلهاً غير الله ، ونثبت الألوهية لله سبحانه.

وأنت لا تشهد هذه الشهادة إلا إذا وُجِد قوم يشهدون أن هناك إلهاً غير

الله تعالى ، ولو كانوا يشهدون بألوهية الإله الواحد الأحد سبحانه ؛ لكان الذهن خالياً من ضرورة أن نقول هذه الشهادة [١] .

ولكن قول الحق سبحانه : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. ② ﴾ [هود]

معناه النفى أولاً للباطل ، وإذا نُفى الباطل لا بد أن يأتى إثبات الحق ، حتى يكون كل شىء قائماً على أساسٍ سليم .

ولذلك يقال : «درء [٢] المفسدة مقدَّم دائماً على جلب المنفعة» فالبداية ألا تعبد الأصنام ، ثم وجِّه العبادة إلى الله سبحانه .

وما دامت العبادة هى طاعة الأمر ، وطاعة النهى ، فهى - إذن - تشمل كل ما ورد فيه أمر ، وكل ما ورد فيه نهى .

وإنْ نظرت إلى الأوامر والنواهى لوجدتها تستوعب كل أقضية الحياة من قمة الشهادة بأن لا إله إلا الله ، إلى إماطة [٣] الأذى عن الطريق [٤] .

وكل حركة تتطلبها الحياة لإبقاء الصالح على صلاحه أو زيادة الصالح ليكون أصلح ، فهذه عبادة .

---

(١) لأن الشهادة تكون فى قضية وعلى قضية ، فالذى يشهد أن لا إله إلا الله : فقد نفى الألوهية لغير الله ، وأثبتها له ؛ لأن المقام يقتضى ذلك ، فهذا إحكام فى المبنى والمعنى ، فقوله تعالى : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. ② ﴾ [هود] فقد قصر العبادة لله ، أما الشهادة على القضية فالكون بما فيه ومن فيه يثبت ألوهية الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى بيده الملك ، وهو على كل شىء قدير .

(٢) درء : دفع وإبعاد . قال تعالى : ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ..⑧ ﴾ [النور] أى : ويدفع عنها عذاب الحد أن تشهد هذه الشهادات ، وبقية الحكم فى سورة النور فى الآيتين رقمى (٨ ، ٩) . [القاموس القويم] .

(٣) إماطة الأذى عن الطريق : تنحيته وإبعاده عن طريق الناس حتى لا يؤذيهم . والأذى قد يكون أحجاراً أو أى شىء قد يؤذى الناس ويعوق سيرهم فى الطريق .

(٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون شعبة - فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان» . أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٥) كتاب الإيمان ، وكذا أخرجه البخارى فى صحيحه (٩) دون : أفضلها ، وأدناها .

إذن: فالإسلام لا يعرف ما يقال عنه «أعمال دنيئة» ، و«أعمال شريفة» ، ولكنه يعرف أن هناك عاملاً دنيئاً وعاملاً شريفاً.

وكل عامل يعمل عملاً تتطلبه الحياة بقاء للصالح أو ترقية لصلاحه وعدم الإفساد ، فهذا عامل شريف ؛وقيمة كل امرىء فيما يحسنه.

وهكذا نجد أن كلمة العبادة تستوعب كل أقضية الحياة ؛ لأن هناك أمراً بما يجب أن يكون،وهناك نهياً عما يجب ألا يكون،وما لم يرد فيه نهى لك الخيار فى أن تفعله أو لا تفعله،فإذا نظرت إلى نسبة ما تؤمر به،ونظرت إلى ما تُنهى عنه بالنسبة لأعمال الحياة،لوجدت أنها نسبة لا تتجاوز خمسة فى المائة من كل أعمال الحياة،ولكنها الأساس الذى تقوم عليه كل أوجه الحياة.

ولذلك قال رسول الله ﷺ : « بُنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان »[1].

وأعداء الإسلام يحاولون أن يحددوا الدين فى هذه الأركان الخمسة ، ولكن هذه الأركان هى الأعمدة التى تقوم عليها عمارة الإسلام.

وأركان الإسلام هى إعلان استدامة الولاء لله تعالى ، وكل أمر من أمور الحياة هو مطلوب للدين ؛ لأنه يصلح الحياة.

وهكذا نجد أن العلم بالدين ضرورة لكل إنسان على الأرض ، أما العلوم الأخرى فهى مطلوبة لمن يتخصص فيها ويرتقى بها ليفيد الناس كلهم ، وكلما كان المتفوق من المسلمين كان ذلك تدعيماً لرفعة الإسلام.

إذن: فالقاسم المشترك فى الحياة هو العلم بالدين ، ولكن يجب أن نفهم هذه القضية على قدرها ، فلا يأتى إنسان لا يعرف صحيح الدين ليتكلم،

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ، ومسلم (١٦) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

والعَوْل [١] ، والرد [٢] ؛ لأن المسلم قد تمر حياته كلها ولا يحتاج رأياً فى قضية التوريث ، أو أن يتعرف على المستحقين للميراث وأنصبتهم ، وغير ذلك .

وإن تعرَّض المسلم لقضية مثل هذه ، نقول له : أنت إذا تعرضت لقضية مثل هذه فاذهب إلى المختصين بهذا العلم ، وهم أهل الفقه والفتوى ، لأنك حين تتعرض لقضية صحية تذهب إلى الطبيب ، وحين تتعرض إلى قضية هندسية تذهب إلى المهندس ، وإن تعرضت لعملية محاسبية تذهب إلى المحاسب ، فإن تعرضت إلى أى أمر دينى ، فأنت تسأل عنه أهل الذكر [٣] .

وأنت إذا نظرت إلى العبادة ، تجد أنها تتطلب كل حركة فى الحياة ، وسبق أن ضربت لذلك مثلاً وقلت : هَبْ أن إنساناً يصلى ، ولا يفعل شيئاً فى الحياة غير الصلاة ، فمن أين له أن يشترى ثوباً يستر به عورته ما دام لا يعمل عملاً آخر غير الصلاة ، وهو إن أراد أن يشترى ثوباً ، فلا بد له من عمل يأخذ مقابله أجراً ، ويشترى الثوب من تاجر التجزئة ، الذى اشترى الأثواب من تاجر الجملة ، وتاجر الجملة اشتراها من المصنع ،

---

(١) العول فى اللغة : الارتفاع . وعند الفقهاء : زيادة فى سهام ذوى الفروض ، ونقصان من مقادير أنصبتهم فى الإرث . وهى مسألة تظهر عند حساب الأنصبة ، فيضطر مقسم التركة إلى الزيادة فى جانب والنقصان فى جانب .

(٢) الرد : أى : رد ما فضل من التركة إلى أصحاب الفروض بنسبة فروضهم ، عند عدم استحقاق الغير ، ويتحقق ذلك بأركان ثلاثة :

١- وجود صاحب الفرض .

٢- بقاء فائض من التركة .

٣- عدم العاصب .

راجع تفصيلات هذه المسائل وتطبيقاتها فى كتاب (فقه السنة) للشيخ سيد سابق ، وغيره من كتب الفقه .

(٣) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ .. فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ⑦ ﴾ [الأنبياء] .

فى الدين ؛ لأن العلم بالدين يقتضى اللجوء إلى أهل الذكر .

فإن قيل: الدين للجميع ، نقول: صدقت بمعنى التدين للجميع ، أما العلم بالدين فله الدراسة المتفقهة [١] .

وأهل الذكر أيضاً فى العلوم الأخرى يقضون السنوات لتنمية دراساتهم ، كما فى الطب أو الهندسة أو غيرهما ، وكذلك الأعمال المهنية تأخذ من الذى يتخصص فيها وقتاً وتتطلب جهداً ، فما بالنا بالذى يُصلح أسس إقامة الناس فى الحياة ، وهو التفقه فى الدين .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة]

فنحن لا نطلب من كل مسلم - مثلاً - أن يدرس المواريث ليعرف العَصَبة [٢] وأصحاب الفروض [٣] ، وأولى الأرحام [٤] ،

---

(١) الفقه : الفهم ، وفقه يفقه فهو فقيه : صار عالماً فاهماً . والفقه فى الاصطلاح : علم أحكام العبادات والمعاملات وهو فرع من فروع المعارف الدينية . قال تعالى : ﴿ .. فَمَالِ هَـٰؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) ﴾ [النساء] . وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ .. (١٢٢) ﴾ [التوبة] أى : ليدرسوا أحكام الدين وليتعلموها . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٢) العصبة : هم بنو الرجل وقرابته لأبيه . والمقصود بهم فى المواريث الذين يصرف لهم باقى التركة بعد أن يأخذ أصحاب الفروض أنصباءهم المقدرة لهم . وأمثلتهم الأخ والعم ، والأب إذا بقى شىء بعد تقسيم التركة يأخذه بالتعصيب بجانب الفرض الذى فرضه الله له .

(٣) أصحاب الفروض هم الذين لهم فرض - أى : نصيب - وهم اثنا عشر : أربعة من الذكور ، وهم : الأب والجد الصحيح وإن علا ، والأخ لأم ، والزوج . وثمان من الإناث ، وهن : الزوجة ، والبنت ، والأخت الشقيقة ، والأخت لأب ، والأخت لأم ، وبنت الابن ، والأم ، والجدة الصحيحة وإن علت ، ولكل منهم نصيب مقدر ذكره القرآن الكريم .

(٤) أولو الأرحام هم كل قريب ليس بذى فرض ولا عصبة . ذهب مالك والشافعى إلى عدم توريثهم ، ويكون المال لبيت المال ، وذهب أبو حنيفة وأحمد إلى توريثهم ، فى حالة عدم وجود أصحاب الفروض والعصبات .

والمصنع قام بتفصيل الثياب بعد أن نسجها مصنع آخر ، والمصنع الآخر نسج الثياب من غزل القطن أو الصوف. والقطن جاء من الزراعة ، والصوف جاء من جز [١] شعر الأغنام.

وهكذا تجد أن مجرد الوقوف أمام خالقك لتصلى يقتضى أن تكون مستور العورة فى صلاتك ، هذا الستر يتطلب منك أن تتفاعل مع الحياة بالعمل .

وانظر لنفسك واسألها: ماذا أفطرتَ اليوم ؟

وأقلُّ إجابة هى: أفطرت برغيف وقليل من الملح ، وستجد أنك اشتريت الرغيف من البقال ، وجاء البقال بالرغيف من المخبز ، والمخبز جاء بالدقيق من المطحن ، والمطحن أنتج الدقيق بعد طحن الغلال التى جاءت من الحقل . وكذلك تمت صناعة آلات الطحن فى مصانع أخرى قد تكون أجنبية.

وهكذا تمت صناعة الرغيف بسلسلة هائلة من العمليات ، فهناك الفلاح الذى حرث ، وهناك مصمم آلة الطحن الذى درس الهندسة ، وهناك عالم « الچيولوچيا » الذى درس طبقات الأرض ليستخرج الحديد الخام من باطنها ، وهناك مصنع الحديد الذى صهر الحديد الخام ؛ ليستخلص منه الحديد النقى الصالح للتصنيع .

وهكذا تجد أن كل حركة فى الحياة قد خدمت قضية دينك ، وخدمت وقوفك أمام خالقك لتصلى ، فلا تقل: «سأنقطع للعبادة» بمعنى أن تقصر حياتك على الصلاة فقط ، لأن كل حركة تصلح فى الحياة هى عبادة ، وإن أردت ألا تعمل فى الحياة ، فلا تنتفع بحركة عامل فى الحياة. وإذا لم تنتفع بحركة أى عامل فى الحياة ، فلن تقدر أن تصلى ، ولن تقدر أن يكون لك قوة لتصلى.

---

(١) جز الشعر والصوف: قطعه.

إذن: فالعبادة هى كل حركة تتطلبها الحياة فى ضوء «افعل» و «لا تفعل»[1].

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ[2] وَبَشِيرٌ[3] (٢)﴾ [هود]

والنذير[4]: هو من يُخبر بشرٍّ زمنه لم يجىء، لتكون هناك فرصة لتلافى العمل الذى يُوقع فى الشر، والبشير هو من يبشِّر بخير سيأتى إن سلك الإنسان الطريق إلى ذلك الخير.

إذن: الإنذار والبشارة هى أخبار تتعلق بأمر لم يجىء.

وفى الإنذار تخويف ونوع من التعليم، وأنت حين تريد أن تجعل ابنك مُجداً فى دراسته؛ تقول له: إن لم تذاكر فسوف تكون كابن فلان الذى أصبح صعلوكاً تافهاً فى الحياة.

---

(١) افعل: أمر من الآمر وهو الله. ولا تفعل: نهى من الله. والأمر يعطى الفرض والسنة والمستحب. والنهى يعطى الحرام، والمكروه المسكوت عنه مباح، هذا هو التكليف الشرعى، وهو مبدأ الاختيار، وهذا التكليف الشرعى يندرج تحته الأمر بفعل الخير، سواء كان تعبدياً أو معاشياً، ومن هنا تعتدل موازين العدل الاجتماعى.

(٢) النذير: الذى ينذر الكافرين والمشركين والعصاة بعذاب الله. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً.. (١١٩)﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ.. (٢١٣)﴾ [البقرة].

(٣) البشير: الذى يبشر القوم بالخبر السار، وهو هنا بمعنى الرسول الذى يبشر المؤمنين بثواب الله وجنته ونعيمه جزاءً على إيمانهم وعبادتهم. قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً (٩٧)﴾ [مريم]. أى: قوماً شديدى الخصومة. وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ.. (٢٥)﴾ [البقرة]. [القاموس القويم - بتصرف].

(٤) النذير: الإنذار والمنذر، وجمعه نذر. قال تعالى: ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ.. (١٩)﴾ [المائدة] والنذير هنا: هو الرسول المنذر بالعذاب، وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦)﴾ [القمر] يحتمل إنذاراتى، ويحتمل نتائج إنذاراتى، أى عقوباتى التى أنذروا بها، وحذفت ياء المتكلم تخفيفاً. راجع القاموس القويم صـ٢٥٨، ٢٥٩ جـ٢

إذن: فـأنت تنذر ابنك ؛ ليـتـلافى من الآن العـمـل الذى يؤدى بـه إلى الفشل الدراسى.

وكذلك يبشـر الإنسان ابنه أو أى إنسان آخـر بالخير الذى ينتظره حـين يسلك الطريق القويم.

إذن: فالعبادة هى كل حركة من حـركات الحيـاة ما دام الإنسـان مُتَّـبـعاً ما جاء بالمنهج الحق فى ضوء «افعل» و «لا تفعل» ، وما لم يرد فيه «افعل» و «لا تفعل» فهو مباح.

وعلى الإنسان المسلم أن يُبصِّر نفسه ، ومن حوله بأن تنفيذ أى فعل فى ضوء «افعل» هو العمل المباح ، وأن يمتنع عن أى فعل فى ضـوء «لا تفعل» مـا دام الحق سبحـانه وتعـالى قد نـهى عن مـثل هذا الفـعل ، وعلى المسلم تحرِّى الدقة فى مدلول كل سلوك.

ونحن نعلم أن التكليفـات الإيمانية قـد تكون شـاقة على النفس ، ومن اللازم أن نبيِّن للإنسان أن المشقة على النفس ستأتى له بخير كبير.

ومثال ذلك: حين نجد الفلاح وهو يحمل السماد العضوى من حظيرة البهائم ؛ ليضعه على ظهر الحمار ويذهب به إلى الحقل ؛ ليخلطه بالتربة ، وهو يعمل هذا العمل بما فيه من مشقة انتظاراً ليوم الحصاد.

ويبيِّن الحق - سبحـانه وتعـالى - هنا على لسـان رسوله أن الأمـر بعدم عبادة أى كـائن غير الله ، هو أمر من الله سبحـانه ، وأن الرسول ﷺ هو نذير وبشير من الله.

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. ②﴾ [هود]

فيه نفى لعبادة غير الله ، وإثبات لعبودية الله تعالى.

وهذا يتوافق ويتسق مع الإنذار والبشارة [١] ؛ لأن عبادة غير الله تقتضى نذيراً ، وعبادة الله فى الإسلام تقتضى بشيراً.

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو خالق الإنسان ويعلم ضعف الإنسان ، ومعنى هذا الضعف أنه قد يستولى عليه النفع العاجل ، فيُذهبه عن خير آجلٍ أطول منه ، فيقع فى بعض من غفلات النفس.

لذلك بيَّن الحق سبحانه أن من وقع فى بعض غفلات النفس عليه أن يستغفر الله ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يبخل برحمته على أحد من خلقه.

وإن طلب العبد المذنب مغفرة الله ، فسبحانه قد شرع التوبة ، وهى الرجوع عن المعصية إلى طاعة الله تعالى.

ولا يقع عبد فى معصية إلا لأنه تأبَّى على منهج ربه ، فإذا ما تاب واستغفر ، فهو يعود إلى منهج الله سبحانه ، ويعمل على ألا يقع فى ذنب جديد.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا [٢] حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾

(١) البشرى والبشارة : ما يُعطى للمبشر بالخير السَّار . والبشير الذى يبشر القوم بالأخبار المحبوبة ، والرسول بشير ؛ لأنه يبشر المؤمنين بالجنة وبثواب الله . يقول الحق : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الفتح] ، ويقول الحق : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأحزاب] القاموس القويم باختصار .

(٢) المتاع : يطلق على الكثير والقليل باعتباره مصدراً ، ويُجمع على أمتعة باعتبار ما يُنتفع به وما يُتمتع به . قال تعالى : ﴿ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد] أى : وصنع أشياء يُنتفع بها . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزخرف] . أى : أطلت مدة انتفاعهم بالحياة ونعمها ، ومتَّعه ومتَّعه بمعنى واحد . وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الواقعة] أى : متاعاً للمسافرين التاركين ديارهم خاوية . أو متاعاً للجائعين . (انظر : ابن كثير ٤/ ٢٩٧).

وهكذا يبيِّن الحق سبحانه أن على العبد أن يستغفر من ذنوبه السابقة التى وقع فيها ، وأن يتوب من الآن ، وأن يرجع إلى منهج الله تعالى ، لينال الفضل من الحق سبحانه.

المطلوب - إذن - من العبد أن يستغفر الله تعالى ، وأن يتوب إليه.

هذا هو مطلوب الله من العاصى ؛ لأن درء [1] المفسدة مقدَّم على جلب [2] المصلحة ، وحين يعجل العبد بالتوبة إلى الله تعالى فهو يعلم أن ذنباً قد وقع وتحقق منه ، وعليه ألا يؤجل التوبة إلى زمنٍ قادم ؛ لأنه لا يعلم إن كان سيبقى حياً أم لا.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٣) ﴾ [هود]

والحق سبحانه يُجمل قضية اتباع منهجه فى قوله تعالى :

﴿ .. فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه]

وقال فى موضع آخر:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً .. (٩٧) ﴾ [النحل]

فالحياة الطيبة فى الدنيا وعدم الضلال والشقاء متحققان لمن اتبع منهج الله تعالى.

---

(١) الدرء : الدفع والإبعاد.

(٢) الجَلْب : سَوْق الشىء من موضع إلى آخر. وجَلَب الشىء : طلبه وكسبه. [لسان العرب : مادة (ج ل ب)].

وظن بعض العلماء أن هذا القول يناقض فى ظاهره قول النبى ﷺ بأن «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[1]. و«إن أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل[2] فالأمثل»[3].

وقال بعض العلماء : فكيف نقول: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا .. (٣)﴾ [هود]

هنا نقول: ما معنى المتاع ؟

المتاع : هو ما تستمتع به وتستقبله بسرور وانبساط .

ويعلم المؤمن أن كل مصيبة فى الدنيا إنما يجزيه الله عليها حسن الجزاء ، ويستقبل هذا المؤمن قضاء الله تعالى بنفس راضية ؛ لأن ما يصيبه قد كتبه الله عليه ، وسوف يوافيه بما هو خير منه .

وهناك بعض من المؤمنين قد يطلبون زيادة الابتلاء .

إذن : فالمؤمن كل أمره خير ؛ وإياك أن تنظر إلى من أصابته الحياة بأية مصيبة على أنه مصاب حقاً ؛ لأن المصاب حقاً هو من حُرِم من الثواب .

ونحن نجد فى القرآن قصة العبد الصالح الذى قتل غلاماً كان أبواه

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٥٦) وابن ماجه فى سننه (٤١١٣) من حديث أبى هريرة . قال النووى فى شرح مسلم (١٨/ ٣٠٥) : «معناه : أن كل مؤمن مسجون ممنوع فى الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة مكلف بفعل الطاعات الشاقة ، فإذا مات استراح من هذا ، وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من النقصان . وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل فى الدنيا مع قلته وتكديره بالمنغصات ، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد» .

(٢) الأمثل فالأمثل : أى الأشرف فالأشرف ، والأعلى فالأعلى فى الرتبة والمنزلة . يقال : هذا أمثل من هذا ، أى : أفضل وأدنى إلى الخير . وأماثل الناس : خيارهم . [لسان العرب - مادة : مثل] .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ١٧٢) والترمذى فى سننه (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد ابن أبى وقاص . قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وتمام الحديث : «ويُبتلى الرجل على حسب دينه ، وما زال البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض ، ليس عليه خطيئة» .

مؤمنين ، فخشى العبد الصالح أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، فهذا الولد كان فتنة ، ولعله كان سيدفع أبويه إلى كل محرم ، ويأتى لهما بالشقاء [(١)] .

إذن: فالمؤمن الحق هو الذى يستحضر ثواب المصيبة لحظة وقوعها.

ومنَّا من قرأ قصة المؤمن الصالح الذى سار فى الطريق من المدينة إلى دمشق ، فأصيبت رجْله بجرح وتلوث هذا الجرح ، وامتلأ بالصديد مما يقال عنه فى الاصطلاَح الحديث «غرغرينة» وقرر الأطباء أن تُقطع رجله ، وحاولوا أن يعطوه «مُرَقِّداً» أى: مادة تُخدِّره ، وتغيب به عن الوعى ؛ ليتحمل ألم بتر الساق ، فرفض العبد الصالح وقال:

إنى لا أحب أن أغفل عن ربى طرفة عين.

ومثل هذا العبد يعطيه الله سبحانه وتعالى طاقة على تحمُّل الألم ؛ لأنه يستحضر دائماً وجوده فى معية الله ، ومفاضٌ عليه من قدرة الله وقوته سبحانه.

وحينما قطع الأطباء رجله ، وأرادوا أن يكفنوها وأن يدفنوها ، فطلب أن يراها قبل أن يفعلوا ذلك ، وأمسكها ليقول: اللهم إن كنت قد ابتليت فى عضو ، فإنى قد عوفيت فى أعضاء.

إذن: فصاحب المصيبة حين يستحضر الجزاء عليها ، إنما يحيا فى متعة ،

---

(١) يقول رب العزة سبحانه فى سورة الكهف عن موسى عليه السلام والعبد الصالح الذى صحبه موسى ليتعلم منه: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥)﴾ [الكهف]. ويقول سبحانه على لسان العبد الصالح: ﴿..سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١)﴾ [الكهف].

ولذلك لا تتعجب حين يحمد أناس خالقهم على المصائب ؛ لأن الحمد يكون على النعمة ، والمصيبة [1] قد تأتى للإنسان بنعمة أوسع مما أفقدته.

ولذلك نجد اثنين من العارفين بالله وقد أراد أن يتعالم كل منهما على الآخر ؛ فقال واحد منهما:

كيف حالكم فى بلادكم أيها الفقراء ؟

- والمقصود بالفقراء هم العُبَّاد الزاهدون ويعطون أغلب الوقت لعبادة الله تعالى - فقال العبد الثانى:

حالنا فى بلادنا إنْ أعطينا شكرنا ، وإنْ حُرمنا صبرنا.

فضحك العبد الأول وقال:

هذا حال الكلاب فى «بلخ» [2] أى: أن الكلب إن أعطيته يهز ذيله ، وإن منعه أحد فهو يصبر.

وسأل العبد الثانى العبد الأول:

وكيف حالكم أنتم ؟

فقال: نحن إن أعطينا آثرنا [3] ، وإن حُرِمنا شكرنا.

إذن: فكل مؤمن يعيش فى منهج الله سبحانه وتعالى فهو يستحضر فى كل أمر مؤلم وفى كل أمر متعب ، أن له جزاءً على ما ناله من التعب ؛ ثواباً عظيماً خالداً من الله سبحانه وتعالى .

---

(١) قال الشيخ : « ذل البلاء خير من عزة النعماء »

(٢) بلخ: مدينة من مدن خراسان من بلاد ما وراء النهر.

(٣) أى: إن نالنا العطاء فإننا نؤثر غيرنا به. أى: نفضلهم على أنفسنا.

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا ..(٣) ﴾ [هود]

والحسن هنا له مقاييس ، يُقاس بها اعتبار الغاية ؛ فحين تضم الغاية إلى الفعل تعرف معنى الحسن.

ومثال ذلك : هو التلميذ الذى لا يترك كتبه ، بل حين يأتى وقت الطعام ، فهو يأكل وعيناه لا تفارقان الكتاب.

هذا التلميذ يستحضر متعة النجاح وحُسْنه ونعيم التفوق ، وهو تلميذ يشعر بالغاية وقت أداء الفعل.

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ .. (٣) ﴾ [هود]

أى : يؤتى كل ذى فضل مجزول [1] لمن لا فضل له ، فكأن الحق سبحانه ينمِّى الفضل للعبد.

ومثال ذلك : الفلاح الذى يأخذ من مخزن غلاله إردباً من القمح ليبذره فى الأرض ؛ ليزيده الله سبحانه وتعالى بزراعة هذا الإردب ، ويصبح الناتج خمسة عشر إردباً .

والفضل هو الأجر الزائد عن مساويه ، فمثلاً هناك فضل المال قد يكون عندك ، أى : زائد عن حاجتك ، وغيرك لا يملك مالاً يكفيه ، فإن تفضلت ببعض من الزائد عندك ، وأعطيته لمن لا مال عنده فأنت تستثمر هذا العطاء عند الله سبحانه وتعالى.

والحق سبحانه وتعالى قد يعطيك قوة، فتعطى ما يزيد منها لعبد ضعيف.

(١) الجزل : الكثير العظيم من كل شىء ، والجزل الكريم المعطاء [المعجم الوسيط : مادة (ج ز ل)].

وقد يكون الحق سبحانه قد أسبغ [١] عليك فضلاً من الحلم ، فتعطى منه لمن أصابه السفه وضيق الخلق.

إذن : فكل ما يوجد عند الإنسان من خصلة طيبة ليست عند غيره من الناس ، ويفيضها عليهم ، فهى تزيد عنده لأنها تربو [٢] عند الله ، وإن لم يُفضْها على الغير فهى تنقص.

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ [٣] (٣٩) ﴾ [الروم]

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ .. (٣) ﴾ [هود]

وبعض من أهل المعرفة يفهم هذا القول الكريم بأن الإنسان الذى يفيض على غيره مما آتاه الله ، يعطيه الحق سبحانه بالزيادة ما يعوضه عن الذى نقص ، أو أنه سبحانه وتعالى يعطى كل صاحب فضلٍ فضل ربه ، وفضل الله تعالى فوق كل فضل.

---

(١) أسبغ : أنعم وأجزل العطاء. وسبوغ الشيء : تمامه واتساعه. [المعجم الوسيط : مادة (س ب غ) بتصرف]. وقال تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. (٢٠) ﴾ [لقمان].

(٢) ربا الشيء، يربو : زاد ونما. وأربيته : نميته.

(٣) أضعف الرجل : نما ماله وزاد واتسع ، فصار أضعافاً. واسم الفاعل مُضعف : ﴿ .. فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) ﴾ [الروم] أى : الذين يأخذون ثواب أعمالهم أضعافاً مضاعفة. قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية (٣/ ٤٣٤) : «أى : من أعطى عطية يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدى لهم، فهذا لا ثواب له عند الله. بهذا فسره ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب القرظى والشعبى، وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه، إلا أنه قد نُهى عنه رسول الله ﷺ خاصة، قاله الضحاك واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) ﴾ [المدثر]. أى : لا تعط العطاء تريد أكثر منه. وقال ابن عباس : الربا رباءان : فربا لا يصح ، يعنى : ربا البيع ، وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها وأضعافها ثم تلا هذه الآية ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ .. (٣٩) ﴾ [الروم] وإنما الثواب عند الله فى الزكاة.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ..وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ③ ﴾ [هود]

فإن أعرضوا عنك فأبلغهم أنك تخاف عليهم من عذاب اليوم الآخر ، ويُوصف العذاب مرة بأنه كبير ، ويوصف مرة بأنه عظيم ، ويوصف مرة بأنه مهين ؛ لأنه عذاب لا ينتهى ويتنوع حسب ما يناسب المعذب ، فضلاً عن أن العذاب الذى يوجد فى دنيا الأغيار هو عذاب يجرى فى ظل المظنة بأنه سينقضى ، أما عذاب اليوم الآخر فهو لا ينقضى بالنسبة للمشركين بالله أبداً.

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ④ ﴾

أى : إلى الله مرجعكم [1] فى الإيجاد والإمداد ، والبداية والنهاية ، وبداية النهاية التى لا انتهاء معها وهى الآخرة ، فيثيب المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسىء على إساءته ، فيؤتى سبحانه لكل ذى عمل صالح فى الدنيا أجره ، وثوابه فى الآخرة.

ومن كثرت حسناته على سيئاته دخل الجنة ، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار.

وفى الدنيا من زادت حسناته على سيئاته وعاش بين القبض والبسط.

والقبض والبسط هو إقبال على الله بتوبة وباعتراف بالذنب ، والإقرار بالذنب هو بداية التوبة.

---

(١) المرجع : الرجوع ، أو اسم زمان ، أو اسم مكان ، يقول الحق : ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [آل عمران] أى : رجوعكم ، أو زمن رجوعكم ، أو مكان الرجوع ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [يونس] .

ومن كثرت سيئاته على حسناته كان فى ضنك [1] العيش وقلق النفس.

ويؤتى الحق سبحانه كل ذى فضل فضله، فمن عمل لله عز وجل؛ وفقه الله فيما يستقبل على طاعته، والذين أعرضوا يُخاف عليهم من عذاب يوم كبير.

﴿ ..وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ④ ﴾ [هود]

لأنه سبحانه القادر على الإيجاد وعلى الإمداد، وعلى البداية والنهاية المحدودة، وبداية الخلود إما إلى جنة وإما إلى نار، فهو القادر على كل شىء.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ [2] صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا [3] مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ [4] يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [5] ⑤ ﴾

(١) الضنك: ضيق العيش. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ..(١٢٤)﴾ [طه] قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٦٨): «فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو فى قلق وحيرة وشك، فلا يزال فى ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة».

(٢) يثنون صدورهم: يطوونها على عداوة المسلمين، ويُكنُّون لهم البغض والكراهية.

(٣) الاستخفاء: طلب الخفاء والاختفاء. ومن جهلهم يريدون الاستخفاء من الله تعالى، وهو سبحانه لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ⑤﴾ [آل عمران]. وقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ⑤④﴾ [الأحزاب].

(٤) يستغشون ثيابهم: يتغطون بها مبالغة فى الاستخفاء. [كلمات القرآن].

(٥) ذكر الواحدى فى «أسباب النزول» (ص ١٥٣) أن هذه الآية نزلت فى الأخنس بن شريق، وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنظر، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب، ويطوى بقلبه ما يكره.
وقال الكلبى: كان يجالس النبى ﷺ يظهر له أمراً يسره، ويضمر فى قلبه خلاف ما يظهر.

وإذا وجدت «ألا» في أول الكلام فأنت تعلم أنها للتنبيه ، ومعنى التنبيه أنه أمر يوقظ لك السامع إن كان غافلاً ؛ لأنك تحب ألا تفوته كلمة من الكلام الذى تقوله .

وحين تنبهه بغير أداء الأسلوب الذى تريده منه ، هنا يكون التنبيه قد أخذ حقه ، ومن بعد ذلك يجيء الكلام الذى تقوله ، وقد تهيَّأ ذهن السامع لاستقبال ما تقول .

فـ «ألا» - إذن - هى أداة تنبيه ؛ لأن الكلام ستار بين المتكلم والمخاطب ، والمخاطب لا يعرف الموضوع الذى ستكلمه فيه ، والمتكلم هو الذى يملك زمام الموقف ، وهو يهيئ ذهنه لترتيب ما يقول من كلمات ، أما المستمع فسوف يفاجأ بالموضوع ؛ وحتى لا يفاجأ ولا تضيع منه الفرصة ليلتقط كلمات المتكلم من أولها ، فهو ينبهه بأداة تنبيه ليستمع [1] .

ويقول الحق سبحانه هنا :

﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ .. ⑤ ﴾ [هود]

ويقال : ثنيت الشيء أى : طويته ، وجعلته جزئين متصلين فوق بعضهما البعض .

وحين يثنى الإنسان صدره ، فهو يثنيه إلى الأمام ناحية بطنه ، ويدارى بذلك وجهه ، والغرض هنا من مداراة الوجه هو إخفاء الملامح ؛ لأن

(١) وردت ألا فى القرآن على أوجه :

الأول : التنبيه ، فتدل على تحقق ما بعدها ، وتدخل على الجملتين الاسمية والفعلية ، نحو ﴿ .. أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ⑬ ﴾ [البقرة] ، ﴿ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ .. ⑧ ﴾ [هود] .

الثانى والثالث : التحضيض والعرض ، ومعناهما طلب الشيء ، لكن الأول طلب بحثٍّ ، والثانى طلب بلين ، وتختص فيهما بالدخول على الجملة الفعلية نحو : ﴿ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ .. ⑬ ﴾ [التوبة] ، ﴿ .. أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ㉒ ﴾ [النور] .

انفعال مواجيد [1] النفس البشرية ينضح على الوجوه .

وهم كارهون للرسول ﷺ ، وحاقدون عليه ؛ ولا يريدون أن يلحظ الرسول ﷺ ما على ملامحهم من انفعالات تفضح مواجيدهم الكارهة .

ومثل ذلك جاء من قوم نوح عليه السلام ، حين قال الحق سبحانه على لسان نوح :

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا [2] ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾ [نوح]

ومن البداهة أن نعرف أن الإصبع لا تدخل كلها إلى الأذن ، إنما الأنملة [3] تسد فقط فتحة السمع ، وعدَّل القرآن الكريم ذلك بمبالغة تكشف موقف نوح - عليه السلام - ، فكل منهم أراد أن يُدخل إصبعه فى أذنه حتى لا يسمع أى دعوة ، وهذا دليل كراهية ، وهذه شهادة ضدهم ؛ لأنهم يفهمون أنهم لو سمعوا فقد تميل قلوبهم لما يقال .

ولذلك نجد القرآن الكريم وهو ينقل لنا ما قاله مشركو مكة لبعضهم البعض :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا [4] فِيهِ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت]

فكأنهم تواصوا بالتشويش على القرآن ، ثقة منهم فى أن القرآن

(١) مواجيد : مفرد موجدة . وقد وجد فلان وجداً : حزن أو غضب . والمراد : انفعالات النفس البشرية . [المعجم الوسيط : مادة (و ج د)] بتصرف .

(٢) استغشوا ثيابهم : تغطوا بها كي لا يروا نوحاً ولا يسمعوا كلامه . قاله ابن عباس . ذكره السيوطى فى (الدر المنثور) (٨/ ٢٨٩) طبعة دار الفكر .

(٣) الأنملة : عقدة الإصبع أو سلاماها . وهى أيضاً : المفصل الأعلى من الإصبع الذى فيه الظفر . والجمع : أنامل . [المعجم الوسيط مادة (ن م ل)] .

(٤) اللغو : ما لا يعتد به من كلام وغيره، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع . [المعجم الوسيط] . والغوا فيه : ائتوا باللغو والباطل عند قراءته [كلمات القرآن] . قال ابن عباس : بالتصفير والتخليط على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن . ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٣٢١) وعزاه لابن أبى حاتم .

لو تناهىٰ [1] إلى الأذن فقد يؤثر فى نفسية السامع ؛ لأن النفس البشرية أغيار ، وقد تأتى للنفس ما يجعلها تميل دون أن يشعر صاحبها.

ولو كان هذا القرآن باطلاً ، فلماذا خافوا من سماعه ؟

ولكنه الغباء فى العناد والكفر.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ..(٥) ﴾ [هود]

وهم قد استغشوا ثيابهم ليغطوا وجوههم ؛ مداراة للانفعالات التى تحملها هذه الوجوه [2] ، وهى انفعالات كراهية ، أو أنها قد تكون انفعالات أخرى ، فساعة يسمع واحد منهم القرآن قد ينفعل لما يسمع ، ولا يريد أن يُظهر الانفعال.

إذن: فالانفعال قد يكون قسرياً [3] ، وكان كفار قريش رغم كيدهم وحربهم لرسول الله ﷺ ، يتسللون ناحية بيت النبى ﷺ ليسمعوا القرآن ، وكانوا يضبطون بعضهم البعض هنالك ، ويدّعى كل منهم أنه إنما مرَّ على بيت النبى ﷺ مصادفة [4].

وفى ذلك يقول الشاعر:

---

(١) تناهى: بلغ ووصل. الإنهاء: الإبلاغ. أنهيت إليه الخبر: أبلغته له. (لسان العرب - مادة: نهى).

(٢) قال قتادة: أخفى ما يكون العبد إذا حنى ظهره، واستغشى ثوبه، وأضمر فى نفسه همَّه. ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٢٤).

(٣) قسرياً: أى خارجاً عن إرادة الإنسان.

(٤) وذلك أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلى من الليل فى بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. فجمعهم الطريق، فتلاوموا. وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. . وهكذا إلى ليلة ثالثة حتى قال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا. (سيرة ابن هشام ١/ ٣١٥).

اذكُروهُمْ وقد تسلَّل كلٌّ   بعدَ ما انفضَّ مجلسُ السُّمَّار[1]
اختلاساً يسْعَى لحجرة طَهَ   لسَماع التنزيلِ فى الأسْحَار[2]
عُذْرهم حُسْنُهُ فلمّا تَراءَوْا   عَلَّلوهـا ببَارز الأعْذَار

وجاء الحق سبحانه وتعالى هنا فى نفس الآية بـ «ألا» فى قوله:

﴿ ..أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ ﴾ [هود]

فهم إن داروا على محمد ﷺ ، فهل هم قادرون على المداراة على رب محمد ؟ والذى لا يدركه بصر محمد فربُّ محمد سيُعلمه به.

وما دام الحق سبحانه يعلم ما يسرون ، فمن باب أولى أنه سبحانه وتعالى يعلم ما يعلنون.

والحق سبحانه وتعالى غيب ، وربما ظن ظان أنه قد يفلت منه شىء ، ولكن الحق سبحانه يُحصى ولا يُحصَى عليه ، فإن ظن ظان أن الحق سبحانه يعلم الغيب فقط ؛ لأنه غيب ، فهذا ظن خاطىء ؛ لأنه يعلم السر والعلن ، فهو عليم بذات الصدور ، وكلمة «عليم» صيغة مبالغة[3] ، وهى ذات فى كنهها العلم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ .. عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[4] ۝ ﴾ [هود]

---

(١) السمار: هم الناس يسمرون بالليل، ويكون عادة فى ضوء القمر.

(٢) الأسحار: جمع سحر، وهو الثلث الأخير من الليل إلى مطلع الفجر. قال تعالى: ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾ [الذاريات].

(٣) عليم: صيغة مبالغة من العلم، أى: بالغ العلم لا حدَّ لعلمه سبحانه.

(٤) الصدر: مقدم كل شىء وأوله، وصدر الإنسان معروف، وبداخله أضلاعه وقلبه ورئتاه. وفى الصدر تظهر آثار الانفعال انقباضاً فى الحزن وانشراحاً فى السرور، قال الحق سبحانه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح] وقال: ﴿ ..إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١١٩﴾ [آل عمران] أى: بالأسرار المصاحبة للصدور [القاموس القويم باختصار].

نجد فيه كلمة ﴿ذَاتِ﴾ وهى تفيد الصحبة ، و(ذَاتِ الصُّدُورِ) أى : الأمور المصاحبة للصدور .

ونحن نعلم أن الصدر محل القلب ، ومحل الرئة ، والقلب محل المعتقدات التى انتُهى إليها ، وصارت حقائق ثابتة ، وعليها تدور حركة الحياة .

ويُقصد بـ ﴿ذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى : المعانى التى لا تفارق الصدور ، فهى صاحبات دائمة الوجود فى تلك الصدور ، سواء أكانت حقداً أو كراهية ، أو هى الأحاسيس التى لا تظهر فى الحركة العادية ، سواء أكانت نية حسنة أو نية سيئة .

وكل الأمور التى يسمونها ذات الصدور ، أى : صاحبات الصدور ، وهى القلوب ، وكأن الجِرْم [1] نفسه وهو القلب معلوم للحق سبحانه وتعالى ، فخواطره من باب أولى معلومة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ [2] فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا [3] كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾

---

(١) جرم كل شىء : جسمه . والمقصود القلب البشرى نفسه .

(٢) الدابة : اسم فاعل ، وغلب على غير العاقل ، ويستوى فيه المذكر والمؤنث ، وقد يشمل العاقل وغيره ، كقوله تعالى : ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ .. ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة] تشمل الإنسان وغيره ، وكذلك قوله : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الشورى] ، الدابة تشمل الكائنات الحية فى الأرض والسماء ، وفيها دليل على أن فى السماء كائنات حية وعاقلة .

أما قوله تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ .. ﴿٦٠﴾﴾ [العنكبوت] ، الدابة هنا كل حيوان ما عدا الإنسان بدليل (وإياكم) .

(٣) مستقرها : موضع استقرارها فى الأصلاب أو فى الأرحام ونحوها . ومستودعها : موضع استيداعها فى الأرحام ونحوها ، أو فى الأصلاب . [كلمات القرآن] للشيخ حسنين محمد مخلوف .

وحين يذكر القرآن الكريم لقطة توضح صفة ما ، فهو يأتى بما يتعلق بهذه الصفة ، وما دام الحق سبحانه عليماً بذات الصدور ، فهذا علم بالأمور السلبية غير الواضحة ، والحق سبحانه يعلم الإيجابيات أيضاً ، فهو يعلم النية الحسنة أيضاً ، ولكن الكلام هنا يخص جماعة يثنون صدورهم.

وجاء فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها،وبيَّن أنه عليم بكل شىء.

وقال سبحانه :

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا.. (٦) ﴾ [هود]

والدابة: كل ما يدب على الأرض ، وتستخدم فى العرف الخاص للدلالة على أى كائن يدب على الأرض غير الإنسان.

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ..(٣٨) ﴾ [الأنعام]

وذكر الحق سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام أنه شُغل - حينما كُلِّف - بخواطر عن أهله ، وتساءل: كيف أذهب لأداء الرِّسالة وأترك أهلى؟

فأوحى له الله سبحانه أن يضرب حجراً فانفلق الحجر عن صخرة ، فأمره الحق سبحانه أن يضرب الصخرة ، فضربها فانفلقت ليخرج له حجر ، فضرب الحجر فانشق له عن دودة تلوك [1] شيئاً كأنما تتغذى به ، فقال: إن الذى رزق هذه فى ظلمات تلك الأحجار كلها لن ينسى أهلى على ظهر

(١) لاك الشىء يلوكه لوكاً: مضغه. [اللسان: مادة (ل و ك)].

الأرض . ومضى موسى عليه السلام إلى رسالته .

وهذا أمر طبيعى ؛ لأن الحق سبحانه خالق كل الخلق ، ولا بد أن يضمن له استبقاء حياة واستبقاء نوع ؛ فاستبقاء الحياة بالقوت [1] ، واستبقاء النوع بالزواج والمصاهرة .

إذن : فمن ضمن ترتيبات الخلق أن يوفر الحق سبحانه وتعالى استبقاء الحياة بالقوت ، واستبقاء النوع بالتزاوج .

ولذلك نقول دائماً : يجب أن نفرق بين عطاء الإله وعطاء الرب ، فالإله سبحانه هو رب الجميع ، لكنه إله من آمن به .

وما دام الحق سبحانه هو رب الجميع ، فالجميع مسئولون منه ؛ فالشمس تشرق على المؤمن وعلى الكافر ، وقد يستخرج الكافر من الشمس طاقة شمسية وينتفع بها ، فلماذا لا يأخذ المؤمن بالأسباب ؟

والهواء موجود للمؤمن وللكافر ؛ لأنه عطاء ربوبية ، فإن استفاد الكافر من الهواء ودرسه ، واستخدم خواصه أكثر من المؤمن ؛ فعلى المؤمن أن يجدَّ ويكدَّ فى الأخذ بالأسباب .

إذن : فهناك عطاء للربوبية يشترك فيه الجميع ، لكن عطاء الألوهية إنما يكون فى العبادة ، وهو يُخرجك عن مراداتك إلى مرادات ربك ، فحين تطلب منك شهواتك أن تفعل أمراً فيقول لك المنهج : لا . [2]

(١) القوت : ما يمسك الرمق من الرزق . وفى الصحاح : هو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام . [لسان العرب : مادة (ق و ت)] .

(٢) وأصحاب المنهج الذين قاموا به وعليه ، يقول الله فى حقهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝﴾ [فصلت]

وفى هذا تحكم منك فى الشهوات ، وارتقاء فى الاختيارات ، أما فى الأمور الحياتية الدنيا ، فعطاء الربوبية لكل كائن ليستبقى حياته .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا [1] .. (٦) ﴾ [هود]

وكلمة «على» تفيد أن الرزق حق للدابة ، لكنها لم تفرضه هى على الله سبحانه وتعالى ، ولكنه سبحانه قد ألزم نفسه بهذا الحق .

ويقول سبحانه :

﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا .. (٦) ﴾ [هود]

ولأنه سبحانه هو الذى يرزق الدابة فهو يعلم مستقرها وأين تعيش ؛ ليوصل إليها هذا الرزق .

والمستقر : هو مكان الاستقرار ، والمستودع : هو مكان الوديعة .

والحق سبحانه يُعْلمنا بذلك ليطمئن كل إنسان أن رزقه يعرف عنوانه ، والإنسان لا يعلم عنوان الرزق .

فالرزق يأتى لك من حيث لا تحتسب ، لكن السعى إلى الرزق شىء آخر ؛ فقد تسعى إلى رزق ليس لك ، بل هو رزق لغيرك .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٢٤) : «الرزق حقيقته ما يتغذى به الحى ، ويكون فيه بقاء روحه ونماء جسده ، ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك ، لأن البهائم ترزق وليس يصح وصفها بأنها مالكة لعلفها ، وهكذا الأطفال ترزق اللبن ، ولا يقال : إن اللبن الذى فى الثدى ملك للطفل .
وقال تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ .. (٢٢) ﴾ [الذاريات] وليس لنا فى السماء ملك ، ولأن الرزق لو كان ملكا لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره ، وذلك محال ، لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه» .

فمثلاً: أنت قد تزرع أرضك قمحاً فيأتى لك سفر للخارج ، وتترك قمحك ؛ ليأكله غيرك ، وتأكل أنت من قمح غيرك.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ .. وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٦ ﴾ [هود]

أى: أن كل أمر مكتوب ، وهناك فرق بين أن تفعل ما تريد ، ولكن لا يحكم إرادتك مكتوب ؛ فما يأتى على بالك تفعله، وبين أن تفعل أمراً قد وضعت خطواته فى خطة واضحة مكتوبة ، ثم تأتى أفعالك وفقاً لما كتبته.

ومن عظمة الخالق سبحانه أنه كتب كل شىء ، ثم يأتى كل ما فى الحياة وفق ما كتب.

والدليل على ذلك - على سبيل المثال - أن الله سبحانه كان يوحى إلى رسوله بالسورة من القرآن الكريم ، وبعد ذلك يُسرِّى [1] عن رسول الله ﷺ الوحى ، فيتلو السورة على أصحابه ، فمن يستطيع الكتابة فهو يكتب ، ومن يحفظ فهو يحفظ.

ثم يأتى الرسول ﷺ إلى الصلاة ، فيقرأ السورة كما كُتبَتْ ، ويأتى كل نجم من القرآن فى مكانه الذى قاله النبى ﷺ لصحابته ، فكيف كان يحدث ذلك ؟

لقد حدث ذلك بما جاء به الحق سبحانه ، وأبلغه لرسوله ﷺ:

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝٦ ﴾ [الأعلى]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

---

(١) التسرية: انكشاف الوحى عنه ﷺ ، بما فيه من شدة تؤدى إلى أن يتصبب رسول الله ﷺ عرقاً.

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ(١) عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ(٢) أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

وقد تعرض القرآن الكريم لمسألة خلق الأرض والسماء أكثر من مرة.

وقلنا من قبل: إن الحق سبحانه وتعالى قد شاء أن يخلق الأرض والسموات فى ستة أيام من أيام الدنيا ، وكان من الممكن أن يخلقها فى أقل من طرفة عين بكلمة «كن» وعرفنا أن هناك فارقاً بين إيجاد الشىء ، وطرح مكونات إيجاد الشىء.

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يريد الإنسان صنع «الزبادى» ، فهو يضع جزءاً من مادة الزبادى - وتسمى «خميرة» - فى كمية مناسبة من اللبن الدافىء ، وهذه العملية لا تستغرق من الإنسان إلا دقائق ، ثم يترك اللبن المخلوط بخميرة الزبادى ، وبعد مضى أربع وعشرين ساعة يتحول اللبن المخلوط بالخميرة إلى زبادى بالفعل.

وهذا يحدث بالنسبة لأفعال البشر ، فهى أفعال تحتاج إلى علاج ، ولكن أفعال الخالق سبحانه وتعالى لا علاج فيها ؛ لأنها كلها تأتى بكلمة «كن».

أو كما قال بعض العلماء: إن الله شاء أن يجعل خلق الأرض والسموات فى ستة أيام ، وقد أخذ بعض المستشرقين من هذه الآية ، ومن

(١) العرش في اللغة: سرير الملك. وقد سمى سبحانه سرير ملكة سبأ بالعرش، فقال سبحانه: ﴿ .. وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل] . وعرش البارى سبحانه لا يُحَدُّ، ذكره رب العزة فى كتابه (٢١ مرة) مضافاً إليه سبحانه.

(٢) ليبلوكم : ليختبركم ، وهو أعلم بأمركم .
أحسن عملاً : أطوع لله وأروع عن محارمه . [كلمات القرآن] .

آيات أخرى مجالاً لمحاولة النيل من القرآن الكريم ، وأن يدَّعوا أن فيه تعارضاً ، فالحق سبحانه وتعالى هنا يقول :

﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٧) ﴾ [هود]

وجاءوا إلى آية التفصيل وجمعوا ما فيها من أيام ، وقالوا : إنها ثمانية أيام ، وهى قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا (١) ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ (٢) مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا (٣) فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ (٤) فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ (٥) سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ .. (١٢) ﴾ [فصلت]

---

(١) الند : المثل والنظير . وجمعه : أنداد . وقال تعالى : ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا .. (٢٢) ﴾ [البقرة] أى : أمثالاً شركاء . تعالى الله عما يقولون [القاموس القويم] بتصرف .

(٢) رسا الشىء يرسو رسواً : ثبت ورسخ ، وأرساه : جعله ثابتاً راسخاً ، وأرسى السفينة : ثبتها على الشاطىء فلا تسير . والمراد بالرواسى : الجبال لأنها تثبت الأرض حتى تستقر ولا تميل . قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ .. (١٥) ﴾ [النحل] وقال تعالى : ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) ﴾ [النازعات] . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٣) الأقوات : جمع قوت . وهو ما يمسك الرمق من الرزق . وفى الصحاح للجوهرى : هو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام . [اللسان - مادة : قوت] .

(٤) ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ .. (١١) ﴾ [فصلت] . الدخان : بخار الماء المتصاعد منها حين خلقت الأرض . ذكره ابن كثير فى تفسيره [٤/ ٩٣] .

(٥) فقضاهن : خلقهن . فالقضاء هنا بمعنى الخلق . وهى من الكلمات التى تأتى على وجوه كثيرة من المعانى ، ومن معانيها :

الفراغ : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ .. (٢٠٠) ﴾ [البقرة] .

الأمر : ﴿ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا .. (١١٧) ﴾ [البقرة] .

العهد : ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ .. (٤٤) ﴾ [القصص] .

الوصية : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٢٣) ﴾ [الإسراء] .

وهنا قال بعض المستشرقين: لو كانت هذه هى قصة الخلق للأرض والسموات لطابقت آية الإجمال آية التفصيل.

وقال أحدهم : لنفرض أن عندى عشرة أرادب من القمح ، وأعطيت فلاناً خمسة أرادب وفلاناً ثلاثة أرادب ، وفلاناً أعطيته إردبين ، وبذلك ينفد [(١)] ما عندى ؛ لأن التفصيل مطابق للإجمال.

وادَّعى هذا البعض من المستشرقين أن التفصيل لا يتساوى مع الإجمال. ولم يفطنوا إلى أن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى ، وهو يكلم أناساً لهم ملكة أداء وبيان وبلاغة وفصاحة ؛ وقد فهم هؤلاء ما لم يفهمه المستشرقون .

هم فهموا ، كأهل فصاحة ، أن الحق - سبحانه وتعالى - قد خلق الأرض فى يومين ، ثم جعل فيها رواسى وبارك فيها ، إما فى الأرض أو فى الجبال ، وقدَّر فيها أقواتها ، وكل ذلك تتمة للحديث عن الأرض.

ومثال ذلك: حين أسافر إلى الإسكندرية فأنا أصل إلى مدينة طنطا فى ساعة - مثلاً - وإلى الإسكندرية فى ساعتين ، أى: أن ساعة السفر التى وصلت فيها إلى طنطا هى من ضمن ساعتى السفر إلى الإسكندرية .

وكذلك خلق الأرض والرواسى وتقدير القوت ، كل ذلك فى أربعة أيام [(٢)]

---

(١) نفد - ينفد نفداً ونفاداً: فنى وذهب وانقطع ولم يبق ، من النفاد ، وهو الانتهاء. وقال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. ﴿٩٦﴾﴾ [النحل] .

(٢) اليوم : فى علم الفلك الحديث مقدار دوران الأرض حول محورها مرة ، ومدته أربع وعشرون ساعة تقريباً ، وجمعه أيام . وأيام العرب : وقائعهم الحربية . وأيام الله أيام حَلَّتْ فيها نِقَم الله وعذابه على الأمم الماضية العاصية ، وأيامه التى أنعم فيها على أمم مطيعة صالحة .

ويوم الدين : يوم القيامة . ويوم حنين : حدثت فيه موقعة حنين . واليوم عند الله مقداره يختلف عن اليوم عندنا فأحياناً يكون ألف سنة ، ولكل نجم يومه ، ولكل كوكب يومه . قال تعالى : ﴿ .. وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج] . وقد يكون المقدار خمسين ألف سنة ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ .. فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج] ، وبهذا التقدير نفهم معنى قوله تعالى فى خلق السموات والأرض : ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ .. ﴿١٢﴾﴾ [فصلت] فالله أعلم بمقدار هذين اليومين . [القاموس القويم - بتصرف]

متضمنة يَوْمَيْ خَلْق الأرض[1] ، ثم جاء خلق السماء فى يومين.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ..(٧) ﴾ [هود]

كل هذه المسائل الغيبية لها حجة أساسية ، وهى أن الذى أخبر بها هو الصادق ، فلا أحد يشك أن الأرض والسموات مخلوقة ، ولا أحد يشك فى أن السموات والأرض أكبر خلقاً من خلق الناس ، وليس هناك أحد من البشر ادَّعى أنه خلق الأرض أو خلق السموات.

وكل المخترعات البشرية نعرف أصحابها ، مثل: المصباح الكهربى ، والهاتف ، والميكروفون ، والتليفزيون ، والسيارة ، وغيرها.

ولكن حين نجىء إلى السموات والأرض لا نجد أحداً قد ادعى أنه قد خلقها.

وقد أبلغنا الحق سبحانه أنه هو الذى خلقها ، وهى لمن ادّعاها إلى أن يظهر مُعارض ، ولن يظهر هذا المعارض أبداً.

وكل هذا الخلق من أجل البلاء:

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ[2] أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ..(٧) ﴾ [هود]

---

(١) ولذلك قال أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن» ص ٣٧٣: «يوما خلق الأرض من جملة الأربعة بعدهما ، والمعنى فى تتمة أربعة أيام ، وهى مع يومى خلق السموات ستة أيام. يوم الأحد والاثنين لخلق الأرض ، ويوم الثلاثاء والأربعاء للجعل المذكور فى الآية وما بعده ، ويوم الخميس والجمعة لخلق السموات».

(٢) بلوت الشىء - أبلوه بلواً وبلاء: امتحنته واختبرته ، قال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ..(٣٥) ﴾ [الأنبياء] أى: نختبركم بالشر والنعم ، أو بالخير والنعم ؛ لنعلم مدى صبركم أو شكركم ومدى إيمانكم أو كفركم. وقوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ..(٣٠) ﴾ [يونس] أى: تعرف حقيقة عملها الذى قدمته كما يعرف المختبر الشىء الذى يختبره. وقوله تعالى: ﴿ .. وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾ [محمد]. أى: نعرف صدقها من كذبها. ومن أغراض البلاء والابتلاء إظهار حقيقة العمل والتمييز بين العمل الحسن وغيره ؛ تمهيداً للثواب أو العقاب. [القاموس القويم] بتصرف.

أى: ليختبركم أيكم أحسن عملاً [1] ، ولكن من الذى يحدد العمل ؟

إنه الله سبحانه وتعالىٰ.

وهل الحق سبحانه فى حاجة إلى أن يختبر مخلوقاته ؟

لا ، فالله سبحانه يعلم أزلاً كل ما يأتى من الخلق ، ولكنه سبحانه أراد بالاختبار أن يطابق ما يأتى منهم على ما علمه أزلاً ؛ حجة عليهم.

وهكذا فاختبار الحق سبحانه لنا اختبار الحجة علينا.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ ..وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑦ ﴾ [هود]

وهنا يصور الحق - سبحانه وتعالى - تكذيب المعاندين لرسول الله ﷺ ، فهم يلقون بالألفاظ على عواهنها [2] من قبل أن تمر على تفكيرهم.

فلو أنهم قد مروا بهذه الكلمات على تفكيرهم ؛ لاستحال منطقياً أن يقولوها.

والرسول ﷺ يخبرهم ببلاغ الحق سبحانه وتعالى لهم بأنهم مبعوثون من بعد الموت.

---

(١) عن عبد الله بن عمر أن النبى ﷺ تلا: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .. ⑦﴾ [هود]. قال: «أيكم أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأسرع فى طاعة الله» أورده القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٢٧) والسيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٤٠٤) وعزاه لابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والحاكم فى التاريخ وابن مردويه بنحوه.

(٢) ألقى الكلام على عواهنه: لم يتدبره، وقيل: هو إذا لم يهتم أصاب أم أخطأ، وقيل: إذا تهاون به. وقال ابن الأثير: العواهن أن تأخذ غير الطريق فى السير أو الكلام، جمع عاهنة. وعهن الشىء: أى: أرسل الكلام على ما حضر منه وعجل، من خطأ وصواب. أى: عدم التفكير فى الكلام قبل التلفظ به وإلقاؤه على علاّته. [اللسان: مادة (ع هـ ن)] بتصرف.

وهذا كلام إخبارى بأنهم إن ماتوا - وهم سيموتون لا محالة - سيبعثهم الله سبحانه ، فما كان منهم إلا أن قالوا:

﴿ .. إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑦ ﴾ [هود]

والخبر الذى يقوله لهم هو خبر ، فما موقع السحر منه ؟ إنهم يعلمون أنه ﷺ لم يقل ذلك إلا من نص القرآن الكريم ، وهم يقولون عن القرآن الكريم إنه سحر ، فكأن النص نفسه من السحر الذى حكموا به على القرآن.

وأوضحنا من قبل أن إبطال قضية السحر فى القرآن الكريم دليله منطقى مع القول ؛ لأنهم إن كانوا قد ادعوا أن رسول الله ﷺ أو أن محمداً - فى عرفهم - قد سحر القوم الذين اتبعوه.

فالساحر له تأثير على المسحور ، والمسحور لا دخل له فى عملية السحر ، فإذا كان محمد قد سحر القوم الذين اتبعوه ، فلماذا لم يسحر هؤلاء المنكرين لرسالته ؛ بنفس الطريقة التى سحر بها غيرهم ؟

وحيث إنهم قد بقوا على ما هم عليه من عناد لرسول الله ﷺ ، فهذا دليل على أن المسألة ليست سحراً ، ولو كان الأمر كذلك لسحرهم جميعاً.

وقولهم: ﴿ .. إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑦ ﴾ [هود]

يدل على أنه سحر محيط ، لا سحر لأناس خاصين ، فكلمة ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ تعنى: سحراً محيطاً بكل من يريد سحره.

وبقاء واحد على الكفر دون إيمان برسول الله يدل على أن المسألة ليست سحراً.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ(١) مَّعْدُودَةٍ(٢) لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ(٣) ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ(٤) بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ ﴾

وساعة تجد ﴿لَئِنْ﴾ فافهم اللام الأولى التى بعد «و» إنما جاءت ؛ لتدل على أن الكلام فيه قسم مؤكد ، وإن كان محذوفاً ، واكتفى باللام عن القسم ، وتقديره: «والله لئن».

والقسم يأتى لتأكيد المقسم عليه بالمقسم به ، وتأكيد المقسم عليه إنما يأتى لأن هناك من يشك فيه .

فأنت لا تُقسم لإنسان تلقاه وتقول له : والله لقد كنت عند فلان بالأمس . .

(١) الأمة : اسم مشترك ، يقال على ثمانية أوجه :
١ – فالأمة تكون الجماعة ، كقوله : ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ . . ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] .
٢ – والأمة : أتباع الأنبياء عليهم السلام .
٣ – والأمة : الرجل الجامع للخير الذى يُقتدى به ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا . . ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل] .
٤ – والأمة : الدين والملة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ . . ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزخرف] .
٥ – والأمة : الحين والزمان ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ . . ﴿٨﴾ ﴾ [هود] .
٦ – والأمة : القامة ، وهو طول الإنسان وارتفاعه .
٧ – والأمة : الرجل المنفرد بدينه وحده ولا يشركه فيه أحد . قال النبى ﷺ : «يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده» .
٨ – والأمة : الأم . يقال : هذه أمة زيد ، يعنى : أم زيد .
[راجع تفسير القرطبى (٤/ ٣٣٢٧) ، ولسان العرب] .

(٢) أمة معدودة : إلى أمد معدود أى : أجل محدد . والأمة فى هذا الموضع : الأجل والحين . وقال تعالى فى سورة يوسف : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ . . ﴿٤٥﴾ ﴾ [يوسف] .

(٣) يحبسه : يمنعه .

(٤) حاق بهم : نزل بهم ، وأحاط بهم . وقال تعالى : ﴿ . . وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر] . [مختصر تفسير الطبرى] بتصرف .

إذن: فالقسم يأتى لشك طرأ [(١)] عند السامع ، وأنت لا تقسم ابتداء.

ويأتى القسم على مقدار مراتب الشك ، وتأكيداً بأدواته .

والقرآن الكريم يقول هنا:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ . . (٨) ﴾ [هود]

فالواو هنا هى واو القسم ، وهنا أيضاً شرط ، والقسم يحتاج لجواب ، والشرط أيضاً يحتاج إلى جواب.

وإذا اجتمع الشرط والقسم فبلاغة الأسلوب تكتفى بجواب واحد ، مثلما نقول: «والله إن فعلت كذا لأفعلن معك كذا».

وهكذا يُغْنى جواب القسم عن جواب الشرط. والمتقدم سواء أكان قسماً أو شرطاً هو الذى يغنى جوابه عن الآخر.

مثلما نقول: «والله إن جاء فلان لأكرمته» ، فالقسم هنا متقدم ، وأغنى جوابه عن جواب الشرط. وإن قلت: إن جاءك فلان والله لتكرمه ، فهنا الشرط هو المتقدم.

والاثنان متحدان ، لكن غاية ما هناك أن القسم تأكيد والشرط تأسيس ، فإذا تقدم ذو خبر على الاثنين - على الشرط وعلى القسم - نأتى بجواب الشرط فوراً ، مثلما نقول: «زيد والله إن جاءك أكرمه» ؛ لأن الشرط كما قلنا تأسيس ، والقسم تأكيد، ويرجح هنا الشرط ، لأن التأسيس أولى من التأكيد.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ . . (٨) ﴾ [هود]

(١) طرأ الشك: حدث ووقع فى عقل السامع مما يستدعى من المتكلم أن يقسم على ما يقول ليصدقه سامعه.

والجواب هنا للقسم ، وهو يغنى عن جواب الشرط.

أى: أن العذاب يُؤخَّر .

وقد أوعد الحق - سبحانه - الكافرين بمحمد ﷺ بأن يعذبهم ، وكان العذاب للأمم السابقة هو عذاب استئصال ، منهم من أرسل الله سبحانه عليه عاصفة ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من أغرقه ، ومنهم من خسف [1] به الأرض.

فكأن مهمة الرسل السابقين أن يبلغوا الدعوة ، ثم تتولى السماء تأديب الكافرين بالرسالات.

ولكن الحق سبحانه وتعالى قد شاء أن يفضِّل أمة محمد ﷺ على الأمم كلها ، وأن تعذِّب الكافرين فى المعارك.

وحين يتوعدهم الرسول ﷺ بعذاب ، فللعذاب ميلاد ، وقد يُؤخَّر ليرى المحيطون بالكافرين الضلال والفساد ، فإذا ما وقع عذاب الله سبحانه على هؤلاء الكافرين ، فلن يحزن عليهم أحد.

وهكذا أراد الله سبحانه الإمهال والإملاء [2] ليكون لهما معنى واضح فى الحياة ، والإملاء للظالم [3] ؛ لتزداد مظالمه زيادة تجعل الأمة التى يعيش فيها

---

(١) قال عز وجل: ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت] ، أما الذين عُذِّبوا بالحاصب - وهى الريح العاتية الشديدة البرد الحاملة لحصباء الأرض- فهم قوم عاد.

أما ثمود فقد أخذتهم الصيحة ، وأما من عوقب بالخسف فهو قارون، وأما من عوقب بالغرق فهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما.

(٢) الإملاء: الإرجاء والإمهال. قال تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) ﴾ [الأعراف]. [المعجم الوسيط] بتصرف.

(٣) عن أبى موسى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: « إن الله عز وجل ليُملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يُفْلته . ثم قرأ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾ [هود] أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣) البر والصلة.

تكره ظلمه ، فإذا وقع عليه عذاب ، لا يعطف عليه أحد.

ونحن نعلم أن النفس البشرية بنت المشهد ، فحين يُقتل واحد وتمر سنوات على قضيته ، ثم يصدر الحكم بإعدامه ، فالناس تنسى لذعة القتل الأول ، وتعطف على القاتل حين يصدر الحكم بإعدامه.

ولذلك أقول دائماً:

إن من دواعي استمرار الجرائم إبطاءات المحاكمة ، تلك الإبطاءات التي تجعل عواطف الناس مع المجرم ؛ لأن مشهد المقتول أولاً قد انتهى من ذاكرتهم.

ولكن لو استحضر الناس - وقت العقوبة - ظرف الجريمة ؛ لَفرِحوا بالحكم على القاتل بالقتل.

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - حينما يريد أن يعذب أحداً يقول:

﴿ ..وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ [1] مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور]

وذلك ليتم التعذيب أمام المجتمع الذي شقي بإفساده وشقي بمظالمهم ، فمن يُعتدَى على عرضه ، ويرى عذاب المعتدي فهو يُشْفي.

وهنا يبيِّن الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : لقد توعدتهم بالعذاب. ونحن نبطن العذاب بالإمهال لهم ، ولكنهم جعلوا من ذلك مناط السخرية والاستهزاء والتهكم ، وتساءلوا: أين هو العذاب ؟

ونحن نجد القرآن يقول على ألسنتهم :

---

(١) طائفة: جماعة. قيل: ثلاثة. وقيل: أربعة، عدد شهود الزنا. والمراد بالعذاب في هذه الآية الكريمة هو حد الزنا لغير المحصن. وتمام الآية ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور]. [تفسير الجلالين] بتصرف.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا [١] قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦)﴾ [ص]

والقط: هو جزاء العمل، وهو مأخوذ من القط أى: القطع.

والعذاب إنما يتناسب مع الجرم، فإن كانت الجريمة كبيرة فالعذاب كبير، وإن كانت الجريمة صغيرة فالعذاب يكون محدوداً، فكان العذاب موافقاً للجريمة.

ومن العجيب أن منهم من قال:

﴿..اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

وجاء على ألسنتهم ما أورده القرآن الكريم فى قولهم:

﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا [٢] .. (٩٢)﴾ [الإسراء]

ولاشك أن الإنسان لا يتمنى ولا يرجو أن يقع عليه العذاب، ولكنهم قالوا ذلك تحديا وسخرية واستهزاءً.

وشاء الحق سبحانه وتعالى ألا يعذب الكافرين المعاصرين لرسول الله ﷺ مثلما عذب الكافرين الذين عاصروا الرسالات السابقة؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ .. (٣٣)﴾ [الأنفال]

فضلاً عن أن هناك أناساً منهم ستروا إيمانهم؛ لأنهم لا يملكون القوة

---

(١) قطنا: أى: نصيبنا من العذاب الذى أوعدته. [كلمات القرآن للشيخ حسنين محمد مخلوف]. وقط الشىء وقطَّطه: قطعه. [المعجم الوسيط].

(٢) كسفاً: قطعاً. [مختصر تفسير الطبرى] و[كلمات القرآن].

والكسفة (بكسر الكاف وسكون السين وفتح الفاء): القطعة من الشىء. والجمع: كِسْف، وكِسَف. وقد قرئت كسفاً بفتح السين، وقرئت بتسكينها. [المعجم الوسيط: مادة (ك س ف)].

التى تمكنهم من مجابهة [1] الكافرين ، ولا يملكون القوة ليرحلوا إلى دار الإيمان بالهجرة ، وحتمت عليهم ظروفهم أن يعيشوا مع الكافرين .

وهناك فى سورة الفتح ما يوضح ذلك ، حين قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا [2] أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ [3] فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ [4] بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا [5] لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

أى : لو تميَّز الكافرون عن المؤمنين لسلّط الحق سبحانه العذاب الأليم على الكافرين ، لكن لو دخل المسلمون بجيشهم الذى كان فى الحديبية على مكة ، ودارت هناك معركة ، فهذه المعركة ستصيب كل أهل مكة ، وفيهم المؤمنون المنثورون بين الكافرين ، وهم غير متحيزين فى جهة بحيث يوجه المسلمون الضربة للجانب الكافر .

إذن : فلو ضرب المسلمون المقاتلون ، لضربوا بعضاً من المؤمنين [6] ،

---

(١) المجابهة : أى : المواجهة والرد على الخصوم . وقد جبهه : أى : صك جبهته ، أو قابله بما يكره ، أو ردَّه عن حاجته . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٢) الهدى : البُدن التى ساقها الرسول ﷺ لتنحر عند الحرم ، وهو من مناسك الحج . ومعكوفاً : محبوساً وممنوعاً عن الوصول إلى مكان النحر وهو الحرم . [تفسير الجلالين وكلمات القرآن] بتصرف .

(٣) تطئوهم : تهلكوهم مع الكفار .

(٤) معرَّة : مكروه ومشقة أو سُبَّة .

(٥) تزيَّلوا : تميزوا من الكفار فى مكة . [كلمات القرآن] للشيخ مخلوف .

(٦) لذلك قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤) ﴾ [النساء] .

ومن أسباب نزول هذه الآية أن المقداد بن الأسود قتل أعرابياً قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، فقال له رسول الله ﷺ : «كان رجل مؤمن يخفى إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه ، فقتلته ، وكذلك كنت تخفى إيمانك بمكة قبل» أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ٩٤) وعزاه للبزار . وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٢/ ٦٣٣) للدارقطنى فى الأفراد والطبرانى من حديث ابن عباس .

وهذا ما لا يريده الحق سبحانه وتعالى.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ..(٨) ﴾ [هود]

والأمة: هى الطائفة أو الجماعة من جنس واحد، مثل أمة الإنس، وأمة الجن، وأمة النمل.. وغير ذلك من خلق الله.

والحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا [1] فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) ﴾ [الأنعام]

والأمة: طائفة يجمعها نظام واحد وقانون واحد، وأفرادها متساوون فى كل شىء، فتكون كل واحدة من هذه الأمم أمة. وهناك الأمة: الطائفة من الزمن. مثل قول الحق سبحانه:

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ [2] بَعْدَ أُمَّةٍ ..(٤٥) ﴾ [يوسف]

أى: أن هذا الذى تذكر بعد فترة من الزمن، وقد تكون الفترة المسماة «أمة»، هى الزمن الذى يتحمل جيلاً من الأجيال.

الأمة - إذن - هى جماعة وطائفة لها جنس يجمعها، ولها تميزات أفرادية، وهى تلتقى فى معنى عام.

---

(١) ما فرطنا: أى: أن الجميع علمهم عند الله، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتدبيره سواء أكان برياً أو بحرياً. قاله ابن كثير فى تفسيره (٢/ ١٣١).

(٢) ادكر: أصلها اذتكر. على وزن افتعل، قلبت تاء الافتعال دالاً وذال الفعل دالاً، وأدغمت الدالان. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾ [القمر].

فأمة الإنسان هى حيوان ناطق مفكر ، وهناك قدر عام يجمع كل إنسان ، ولكن هناك تفاوتات فى المواهب.

ولا توجد نفس بشرية واحدة تملك موهبة الهندسة والطب والتجارة والصيدلة والمحاسبة ؛ لأن كل حرفة من تلك الحرف تحتاج إلى دراسة.

ولا يملك إنسان من العمر ما يتيح له التخصص فى كل تلك المجالات ؛ ولذلك يتخصص كل فرد فى مجال ؛ ليخدم غيره فيه ، وغيره يتخصص فى مجال آخر ويخدم الباقين ، وهكذا .

وفى هذا تكافل اجتماعى ، يشعر فيه كل فرد بأنه يحتاج للآخرين ، وأنه لا يستطيع أن يحيا مستقلاً بذاته عن كل الخلق.

ولو عرف واحد كل الحرف التى فى الدنيا ، من طب وهندسة وقضاء ، وسباكة ، ونجارة ، وزراعة ، وغيرها فلن يسأل عن الباقين ؟

لذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن تلتحم المجتمعات ضرورة وقسراً ، لا تفضُّلاً من أحد على أحد.

والذى يكنس الشارع أو يعمل فى تنظيف الصرف الصحى لا يفعل ذلك تفضُّلاً ، بل يفعل ذلك احتياجاً ؛ لأنه يحتاج إلى العمل والرزق ؛ لأن جسمه يحتاج إلى الطعام ، وإلى الستر بالملابس ، وأولاده يطلبون الطعام والمأوى والملبس ، ولولا ذلك لما عمل فى تلك المهنة.

وإذا أخلص فى عمله فالله سبحانه يحببه فيها ، وإن ارتقت أحواله ، يظل فى هذا العمل ؛ لأنه عشق إتقان مهنته.

ولقد رأيت رجلاً كان يعمل فى هذه المهنة ، ويحمل الأقذار على كتفه ، وحين وسَّع الله عليه ، اشترى عربة يجرها حمار ليحمل فيها ما ينزحه من تلك المجارى.

وحين وسَّع الله عليه أكثر ؛ اشترى سيارة فيها ماكينة شفط للقاذورات ، وصار يجلس على الكرسى ، ويدير «موتور» نزح المجارى لداخل خزان السيارة المخصص لذلك.

إذن: فارتباطات المجتمع لا بد أن تنشأ عن حاجة ، لا عن تفضُّل ؛ لأن التفضل ليس فيه إلزام بالعمل ، لكن الحاجة هى التى فيها إلزام بالعمل ؛ لتسير حركة الحياة .

ومن يعشق عمله على أى وضع كان ، يوفقه الله تعالى فيه أكثر ؛ لأنه احترم قدر الله تعالى فى نفسه ، ولم يستنكف [1] ، ويعطيه الله سبحانه كل الخير من هذا العمل ، بقدر حبه للعمل وإخلاصه فيه .

وإن نظرت إلى العظماء فى كل مهنة مهما صغرت ، فستجد أن تاريخهم بدأ بقبولهم لقدر الله سبحانه وتعالى فيهم.

ونحن نعلم أن قيمة كل امرىء فيما يحسنه ؛ ولذلك تجد الأمة مكونة من مواهب متكاملة لا متكررة ، حتى يحتاج كل إنسان إلى عمل غيره.

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا [2] .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

---

(١) الاستنكاف: الاستكبار والامتناع وأن تأخذه الأنفة من فعل الشيء. ومنه قوله تعالى: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢)﴾ [النساء] .

(٢) سخرياً: مسخَّراً فى العمل، مستخدماً فيه. [كلمات القرآن] أى: يستخدم بعضهم بعضاً فى الأعمال المختلفة حسب إجادة كل منهم لها. وقد جعل الله تعالى ذلك سبباً للمعاش فى الدنيا؛ ليترابط الناس ويتآلفوا، ولا ينعزل كل منهم بعيداً عن الآخرين فتفسد الحياة.

لأن أحداً لا يسخِّر الآخر لعمل إلا إذا كان المسخَّر فى حاجة إلى هذا العمل .

ولذلك تجد من يطرق بابك ويسأل: ألا تحتاج إلى سائق ؟ ألا تحتاج إلى خادم ؟

وصاحب الحاجة هو الذى يعرض نفسه ؛ لعله يجد العمل الذى يتقنه.

ولذلك يجب ألا يتصور أهل أى إنسان أنه حين يخدم فى أى حرفة من الحرف أنه يخدم المخدوم ، لا . . إنه يخدم حاجة نفسه.

وهكذا تترابط الأمة ارتباط حاجات ، لا ارتباط تفضل.

وقد قال الحق سبحانه وتعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً [1] .. (١٢٠) ﴾ [النحل]

لأن هناك مواهب متعددة قد اجتمعت فيه ، وهى مواهب لا تجتمع إلا فى أمة من الناس.

وكلمة « أمة» تطلق على الزمن ، وتطلق على الجماعة من كل جنس ، وتطلق على الرجل الجامع لكل خصال الخير.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ [2] .. (٨) ﴾ [هود]

وعادة ما تأتى كلمة ﴿مَّعْدُودَةٍ﴾ لتفيد القلة ؛ مثل قول الحق سبحانه:

---

(١) سئل عبد الله بن مسعود عن الأمة القانت فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ .. (١٢٠) ﴾ [النحل] قال: الأمة معلم الخير ، والقانت: المطيع لله . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٩٠).

(٢) أمة معدودة: طائفة من الأيام قليلة . [كلمات القرآن].

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ [1] (٢٠)﴾ [يوسف]

وما دام الثمن بَخْساً فلا بد أن تكون الدراهم معدودة.

والسبب فى فهمنا لكلمة ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ أنها تفيد القلة ، هو أننا لا نُقبل على عَدِّ شىء إلا مظنة أننا قادرون على عَدِّه ؛ لأنه قليل ، لكن مالا نُقبل على عدِّه فهو الكثير.

ومثال ذلك: أن أحداً لم يعد الرمل ، أو النجوم.

ولذلك جاء قول الحق سبحانه:

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ..(٣٤)﴾ [إبراهيم]

و«إن» – كما نعلم – تأتى للشك ، ونعم الله سبحانه ليست مظنة الحصر.

ورغم أن البشرية قد تقدمت فى علوم الإحصاء فهل تفرَّغ أحد ليُحصى نعم الله ؟

طبعاً لا . . وبطبيعة الحال يمكن إحصاء السكان والعاملين فى أى مجال أو تخصص.

وقديماً [2] كان القائمون على فتح صناديق النذور ليحسبوا ما فيها ، فيضعوا الورق من فئة المائة جنيه معاً ، والورق من فئة العشرة جنيهات

(١) شروه: باعوه. قيل: هم السيارة (القافلة) تبايعوا يوسف – عليه السلام – بثمن بخس: قليل. وقيل: حرام؛ لأنه كان حراماً عليهم لا يحل لهم أكل ثمنه. وكانوا فيه من الزاهدين: قيل: هم السيارة كانوا فيه زاهدين، لا يعلمون كرامته على الله تعالى ونبوته. [مختصر تفسير الطبرى].

وذكر الجلالان فى تفسيرهما أن «بخس» أى: ناقص. وأن الدراهم المعدودة عشرون أو اثنان وعشرون درهماً. وأن إخوته هم الذين كانوا فيه من الزاهدين، فجاء به السيارة الذين اشتروه إلى مصر ، فباعه الذى اشتراه بعشرين ديناراً وزوجى نعل وثوبين. [تفسير الجلالين] بتصرف.

(٢) ذكر فضيلة الإمام هذا العمل ؛ لأنه عرض عليه يوم أنْ كان وكيلاً للدعوة بوزارة الأوقاف .

معـاً ، وكـذلك بقيـة الفئـات من الأوراق الـمـاليـة ، إلى أن يصلوا إلى القروش ، فيقوموا بوزن كيلو جرام منها ، ويحسبوا كم قرشاً فى الكيلو جرام ، ويزنوا بعد ذلك بقية القروش ؛ ليحسبوا المجموع على حساب عدد القروش التى حصروها فى الكيلو جرام الأول.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ .. ۝٨ ﴾ [هود]

كأنهم يتساءلون سخرية واستهزاء: لماذا يتأخر العذاب الذى توعَّدهم به رسول الله ﷺ ؛ لأن الإنسان لا يتشوق إلى ما يؤلمه ، ولا يقال مثل هذا الكلام إلا على سبيل التهكم.

ويأتى الرد عليهم بأداة التنبيه ، وهى «ألا» أى: تَنَبَّهوا إلى هذا الرد.

ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا[1] عَنْهُمْ .. ۝٨ ﴾ [هود]

وهذا تأكيد أن العذاب سيأتى ، ولكن العباد دائماً يعجلون.

والله سبحانه لا يعجل بعجلة العباد ؛ حتى تبلغ الأمور ما أراد ، وكل أمر له وقت وله ميلاد ، وسيأتيهم ما كانوا يستعجلون ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ .. وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨ ﴾ [هود]

وقد جـاء تأكيد وصول العـذاب إليهم بأشيـاء: أولها: «ألا» وهى أداة تنبيه ، وكذلك قـوله سبحـانه وتعـالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ ، وهذا خبر بأن العذاب آت لا محالة ؛ لأن الذى يخبر به هو الله سبحانه وتعالى.

---

(١) ليس مصروفاً: ليس مدفوعاً. [تفسير الجلالين].

وأيضاً فهذا العذاب : ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ..(٨)﴾ [هود]

أى : أنه عذاب مستمر.

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿..وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨)﴾ [هود]

يعنى : أنه حل بهم ونزل عليهم ، ووقع لهم العذاب الذى استهزأوا به من قبل.

ونحن نعلم أن كلمة (حاق) فعل ماض ، والكلام على أمر مستعجل ، ويُعبَّر عن الأمر المستعجل بالمضارع ؛ لأنَّ الفعل المضارع يدل على الحال أو الاستقبال ، فكيف يستعجلون أمراً ، ويأتى التعبير عنه بالفعل الماضى [(1)] ؟

ولكن القائل هنا هو الله الحق سبحانه وتعالى ، والكلام مأخوذ بقانون المتكلم ، وكل فعل يُنسَب إلى قوة فاعله ، والله سبحانه هو قوة القوى.

وقال الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر من القرآن :

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ..(١)﴾ [النحل]

وكلمة «أتى» فى عرفنا اللغوى فعل ماض ، أى : أن الكلام جاء من المتكلم بعد وقوع النسبة خارجاً ، مثلما نقول : «نجح محمد» فهذا يعنى أن النجاح قد حدث بالفعل.

---

(١) هنا التعبير بالماضى عن المضارع يصدر من مالك الزمن والمكان والحركة ؛ لتحقق الوقوع ، وقد يُعبَّر بالمضارع عن الماضى لتخفيف الحدث ، كما فى قوله تعالى عن مقالة إبراهيم لابنه إسماعيل : ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ .. (١٠٢)﴾ [الصافات] ، ومثل الأول قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١)﴾ [النحل]

وحين يقول الله سبحانه: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ نفهم أن ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ نسبة كلامية سبقتها نسبة واقعية.

وقوله سبحانه بعد ذلك: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يدل على أن الأمر لم يقع، ولكن المتكلم هنا هو الله سبحانه وتعالى.

والمعنى أن الأمر واقع لا محالة؛ ذلك لأن كل فعل إنما ينسب لقوة الفاعل.

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - أنك قد ترغب فى أن تنقل حقيبة ضخمة وثقيلة، فيقول ابنك الشاب: دعنى أحملها لك، وهو يقول ذلك لأنه قادر على أن يحملها فى زمن يناسب قوته.

وإن جاءك ابنك الصغير وقال: سأحملها أنا. فهو لن يحمل الحقيبة إلا فى مقدار زمن يناسب قوته، وهى قوة ضعيفة.

إذن: ففى المجال البشرى أنت تحكم على الماضى، وقد يكون الحكم صادقاً أو كاذباً، ولكنك بالنسبة لأمر مستقبل، لا تستطيع أن تحكم عليه؛ لأنك لا تملك من المستقبل شيئاً.

أما إذا كان قائل الكلام قادراً على إنفاذ ما يقوله الآن فى المستقبل، ولا عائق يعوقه، فاعلم أن الأمر قادم لا محالة.

وهنا نجد الإخبار من الله سبحانه وتعالى، ولا شىء فى الكون يتأبَّى[1] على الله سبحانه.

ومادام الحق سبحانه قد قال إنه أمرٌ قد أتى، فهو آت لا محالة.

---

(١) أبى الشىء: يأباه من باب فرح - إباءً وإباءةً: وأبى الشىء يأبيه - من باب ضرب - امتنع عنه وكرهه ولم يرضه. قال الحق سبحانه: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ .. (٣٤)﴾ [البقرة] وقوله: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا .. (٧٢)﴾ [الأحزاب] وقوله: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ .. (٣٢)﴾ [التوبة] وتأبى يمتنع. القاموس القويم بتصرف.

ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَحَاقَ بِهِم .. (٨) ﴾ [هود]

مع أن السياق فى العرف البشرى أن يقال: وسيحيق بهم ما كانوا به يستهزئون ؛ لأنهم كانوا يستعجلون العذاب.

وجاء قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَحَاقَ﴾ لأن الأمر بالنسبة له سبحانه لن يحول بينه وبين وقوعه أى عائق.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ[1] كَفُورٌ (٩) ﴾

وهنا أيضاً تبدأ الآية الكريمة بقوله سبحانه: ﴿ولَئِنْ﴾ وهذا يعنى أن اللام قد سبقت لتدل على القسم ، وكأنه يقول: لئن أذقنا الإنسان رحمة ، ثم نزعناها منه لوقع فى اليأس.

وهنا أيضاً قسم وشرط ، والقسم متقدم ، فالجواب يكون للقسم.

وكلمة ﴿أَذَقْنَا﴾ توضح أن الإذاقة محلها الأول الفم ، ومعناها: تناول الشيء لإدراك طعمه: حلو أو مر ، لاذع أو غير لاذع ، قلوى أم حامض.

ومن العجيب فى دقة التكوين الإنسانى أن كل منطقة فى اللسان لها طعم تنفعل له ، فطرف اللسان ينفعل لطعم معين ، ووسط اللسان ينفعل لطعم آخر ، وجوانب اللسان تنفعل لطعم ثالث ، وهكذا.

---

(١) يئوس: صيغة مبالغة من اليأس. أى: يظل يائساً قانطاً من رحمة الله وخيره. وكفور: صيغة مبالغة من الكفر أى: قليل الشكر على النعم ، وكفران النعم هو جَحْدها وعدم شكر الله عليها. [مختصر تفسير الطبرى] بتصرف.

كل ذلك فى عضو واحد شاء له الحق سبحانه هذه الدقة فى التركيب.

وكل «حلمة» من مكوِّنات اللسان لها شىء تحس به ؛ ولذلك نجد الإنسان يذوق الطعام ، فيقول: إن هذا الطعام ينقصه الملح ، أو يذوق الحلوى - مثل الكنافة - فيقول: إن السكر المحلاة به مضبوط.

وكذلك حرارة الجسم ، يقيس الإنسان حرارته ، فإن وجدها سبعة وثلاثين درجة ونصف الدرجة ؛ فيقول: إنها حرارة طبيعية. وإن نقصت حرارة الإنسان عن ذلك يقال: إنه مصاب بالهبوط. وإن ارتفعت يقال: مصاب بالحمى.

وهذا قياس للحرارة بالجملة لجسم الإنسان ، ولها المنافذ الخاصة بها. ولكن كل عضو فى الجسم تلزمه درجة حرارة خاصة به ليؤدى عمله .

فالكبد إن قلَّت درجة حرارته عن أربعين درجة لا يؤدى مهمته. وجسم الإنسان فيه جوارح متعددة ؛ وحرارة العين مثلاً تسع درجات ؛ لأنها لو زادت حرارتها عن ذلك لانفجرت العين ، وحرارة الأذن ثمانى درجات.

وأنت لا تستطيع أن تأتى بأشياء مختلفة الحرارة وتضعها مع بعضها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء ذلك بالنسبة للجسم الإنسانى.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ ..(٩) ﴾ [هود]

والذوق هو للإدراك [١] ، لا للأكل ، فأنت حين تشترى فاكهة يقول لك البائع: «تفضَّل ذُقْ» فتأخذ واحدة منها لتستطيب طعمها.

(١) الإدراك يكون بالحواس ، وبالإدراك يحصل الانفعال الوجدانى ، وعن طريق الوجدان يكون الاختيار ، فالذوق هو تناول الشىء لإدراك طعمه فيحصل الاختيار .

فالذوق - إذن - هو تناول الشيء لإدراك طعمه.

والنعمة [1] حين يشاء الحق سبحانه وتعالى أن تصيب الإنسان ، ثم تُنزَع منه ، هنا يصاب الإنسان بالقلق أو الحزن أو الهلع ، أو اليأس.

والنعمة مهما قلَّت فالإنسان يستطيبها ، وإن نُزعت منه فهو يئوس كفور.

واليأس : هو قطع الأمل من حدوث شيء ، ولأن الإنسان لا يملك التخيل ، ولو كان يقدر عليه لما يئس.

والمؤمن لا ييأس أبداً ؛ لأن الله سبحانه هو القائل :

﴿ .. إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ [2] اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ [يوسف]

اليأس - إذن - هو أن تقطع الأمل من أمر مراد لك ، ولا تملك الوسائل لتحققه.

والذى ييأس هو الذى ليس له إله يركن إليه ؛ لأن الله تعالى هو الركن الرشيد الشديد ، والمؤمن إن فقد شيئاً يقول: «إن الله سيُعوِّضنى خيراً منه».

أما الذى لا إيمان له بإله فهو يقول: «إن هذه الصدفة قد لا تتكرر مرة أخرى».

---

(١) نَعِم يَنْعَم فهو ناعم ، من باب فرح ، ويأتى من باب كرُم ، نعمةً ونَعْمة بفتح النون وكسرها . ونعيماً كان فى رغد من العيش ، وفى تمتع به . والنعيم ما يتلذذ به من مأكل وملبس وصحة ، يقول الحق : ﴿ .. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) ﴾ [يونس] أى : التى فيها كل نعيم . والنعمة بالفتح : النعيم ، وتطلق على ما يتمتع به الإنسان من وسائل الرفاهية . يقول الحق : ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ .. (١١) ﴾ [المزمل] فى الدنيا ، والنعمة بكسر النون . مصدر بمعنى النعيم . وتطلق على المتاع والخير الذى يتمتع به الإنسان يقول الحق : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (١٨) ﴾ [النحل] القاموس القويم . بتصرف .

(٢) روح الله : رحمته وفرجه ، ولطفه بالعباد بإزالة كربهم . [كلمات القرآن] بتصرف . واليأس هو انقطاع الأمل ، ولا ينقطع أمل الإنسان فى الله سبحانه وتعالى إلا إذا كان كافراً.

فالإنسان الذى يُسْرَق منه جنيه قد يحزن ، ولكن إذا ما كان عنده فى المنزل عشرة جنيهات فهو يحزن قليلاً على الجنيه المفقود.

والإنسان لا ييأس إلا عند عدم يقينه بمصدر يرد عليه ما يريده ، ولكن حين يؤمن بمصدر يرد عليه ما يريده فلا تجده يائساً قانطاً.

والمؤمن يعلم أن النعمة لها واهب ، إن جاءت شكر الله عليها ، وإن سُلبت منه ، فهو يعلم أن الحق سبحانه قد سلبها لحكمة [1].

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ..﴿٩﴾ ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن الإنسان مقصود به كل أبناء آدم - عليه السلام - وهم كثيرون ، منهم المؤمن ، ومنهم الكافر.

وهنا تأتى كلمة «الإنسان» على إطلاقها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يستثنى المؤمن فى موضع آخر حين يقول الحق سبحانه:

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ [2] ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا ..﴿٣﴾ ﴾ [العصر]

و«الإنسان» مفرد يدل على الإنسان فى كل مدلولاته ، ويستثنى من نوع الإنسان من آمن به ..

فإن رأيت كلمة إنسان فاعلم أن المراد بالإنسان أفراد الإنسان كلهم.

---

(١) عن صهيب الرومى قال قال رسول الله ﷺ : «عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٩٩).

(٢) الخسر : الهلاك والنقصان.

والإنسان لو عزل نفسه عن منهج الله تعالى فهو فى خسران إلا إذا اتبع منهج الله ، فالمنهج يحميه من الزلل ، وتسير غرائزه إلى ما أراد الحق سبحانه لها .

فقد خلق الحق سبحانه الغرائز لمهام أساسية ، فغريزة الجوع تجعل الإنسان يطلب الطعام ، والعطش أراده الله سبحانه وتعالى لينتبه الإنسان إلى طلب الارتواء بالماء.

وغريزة بقاء النوع تدفع الإنسان للزواج ، وغريزة حب الاستطلاع هى التى تدفع الإنسان إلى كشف المخترعات.

والحق سبحانه وتعالى هو القائل عن الساهين عن استكشاف آيات الله تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ[1] فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف]

والباحث العلمى التجريبى المعملى ينظر فى ظواهر الكون ليستطلع أسرار الكون.

وهناك فارق بين حب الاستطلاع لاكتشاف أسرار الكون ، وحب الاستطلاع لأخبار الناس.

إن حب الاستطلاع عموماً هو مدار التقاءات الكون ، ولكن الدين والخلق هو الذى يوجه حب الاستطلاع.

---

(١) وكأين: بمعنى «وكَمْ». وآية هنا: عبرة وحجة ، كالشمس والقمر وغيرهما من آيات الله سبحانه وتعالى، يرونها ويعاينونها ولا يتفكرون فيها. [مختصر تفسير الطبرى].
وقد أخرج أبو الشيخ الأصبهانى عن الضحاك فى تفسير معنى الآية: يعنى شمسها وقمرها ونجومها وسحابها. وفى الأرض، ما فيها من الخلق والأنهار والجبال والمدائن والقصور. ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٤/٥٩٣).

إذن: فالقرائن لها مهمة يجب ألاّ تنفلت إلى غيرها ، والدين قد جاء ليعلى من الغرائز ويوجهها إلى مهامها.

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا [1] .. ⑫﴾ [الحجرات]

أى: لا تتبعوا العورات [2]؛ لأننا لو أبحنا لواحد أن يتتبع عورات الناس ؛ لأبحنا لكل الآخرين أن يتتبعوا عوراته.

وحين منع الحق - سبحانه وتعالى - الإنسان من تتبُّع عورات غيره ، فهو قد حماه من تتبع عوراته .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ..⑨﴾ [هود]

وكلمة «النزع» تفيد أن الإنسان حريص على ما وهبه له الله تعالى من خير وصحة وعافية ويُسْر . وحين تؤخذ منه النعمة فهو يقاوم .

والنزع يعنى: استمساك المنزوع منه بالشىء المنزوع.

ولذلك يقول الحق سبحانه فى سورة آل عمران:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. ㉖﴾ [آل عمران]

---

(١) لا تجسسوا: أى: لا تتجسسوا، حذف منه إحدى التاءين - لغرض بلاغى - والمراد: عدم تتبع عورات الناس ومعايبهم بالبحث عنها. [تفسير الجلالين] بتصرف.

(٢) العورة : ما يستره الإنسان من جسمه حياءً . والعورة : الخلل والعيب . والبيت عورة : أى فيه خلل وقوله : ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ .. ⑬﴾ [الأحزاب] أى : فيها خلل يخشى أن يدخل الأعداء منه ، وذلك ليرجعوا عن الجهاد . القاموس القويم باختصار .

كأن الموجود فى الملك يتشبث به جداً.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا (١) مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ ﴾[هود]

وفى نفس السورة يأتى الاستثناء، فيقول الحق سبحانه:

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [هود]

وسنأتى لها بالخواطر من بعد ذلك.

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - فى المقابل لمن نُزعَتْ منه الرحمة واليئوس الكفور:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ (٢) بَعْدَ ضَرَّاءَ (٣) مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ (٤) عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ (٥) فَخُورٌ (٦) ﴿١٠﴾ ﴾

وهنا نجد الضراء هى الموجودة، والنعماء هى التى تطرأ، عكس الحالة الأولى، حيث كانت الرحمة - من خير ويسر - هى الموجودة.

---

(١) المقصود الرحمة التى أنعم الله بها عليه.

(٢) النعماء: أثر النعمة على بدن وحياة الإنسان، فتكون ملازمة له.

(٣) الضراء: أثر الفقر والشدة. وقال تعالى: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنعام]. ومسته: أصابته. [تفسير الجلالين ومختصر تفسير الطبرى] بتصرف.

(٤) السيئات: المصائب والشدائد والعسر.

(٥) فرح: صيغة مبالغة من الفرح، وهو البطر بالنعمة [كلمات القرآن].

(٦) فخور: صيغة مبالغة من الفخر، أى: كثير الفخر بما نال من الناس، وفخور على الناس بما أوتى، وغير شاكر لله تعالى على نعمه. [مختصر تفسير الطبرى، وتفسير الجلالين] بتصرف.

فالنزع فى الأولى طرأ على رحمة موجودة ، والنعماء طرأت على ضرَّاء موجودة .

وهناك فرق بين نعماء ونعمة ، وضراء وضر ؛ فالضر هو الشىء الذى يؤلم النفس ، والنعمة هى الشىء الذى تتنعم به النفس.

لكن التنعُّم والألم قد يكونان فى النفس ، ولا ينضح أى منهما على الإنسان ، فإن نضح على الإنسان أثر النعمة يقال فيها «نعماء» ، وإن نضح عليه أثر من الضر يقال : «ضراء».

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّى ..(١٠) ﴾ [هود]

ولا يفطن من يقول ذلك إلى المُذْهِب الذى أذهبَ السيئات ؛ لأن السيئة لا تذهب وحدها .

ولو كان القائل مؤمناً لقال: رفع الله عنى السيئات.

لكنه غير مؤمن ؛ ولذلك يغرق فى فرح كاذب وفخر لا أساس له.

ويصفه الحق سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ .. إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) ﴾ [هود]

وكأن الفرح بالنعمة أذهله [1] عن المنعم ، وعمن نزع منه السيئة.

وأما الفخر ، فنحن نعلم أن الفخر هو الاعتداد بالمناقب [2]، وقد تجد

---

(١) الذهول عن الشىء: أن يشغلك عنه أمر آخر. ذهل عن الشىء: تركه على عمد أو غفل عنه أو نسيه لشغل. [اللسان، مادة : ذهل].

(٢) مناقب : جمع منقبة ، وهى كرم الفعل . وكريم المناقب : حَسَن الخلق كريم الفعال . [اللسان] بتصرف.

إنساناً يتفاخر على إنسان آخر بأن يذكر له مناقب وأمجاداً لا يملكها الآخر.

ونحن نعلم أن التميز لفرد ما يوجد فى المجتمع ، ولكن أدب الإيمان يفرض ألا يفخر الإنسان بالتميز.

ولذلك نجد النبى ﷺ يقول: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر »[1].

وفى إحدى المعارك نجده ﷺ يقول:

«أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب [2]».

وقد اضطر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك ؛ لأن الكافرين فى تلك المعركة ظنوا أنهم حاصروه هو ومن معه وأنه سوف يهرب ، لكنه ﷺ بشجاعته أعلن:

«أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب» [3] وكان أقرب المسلمين إلى مكان الأعداء الكافرين وفى مواجهتهم.

ونحن نجد المتصارعين أو المتنافسين ، واحدهم يدخل على الآخر بصوت ضخم ليهز ثقة الطرف الآخر بنفسه.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٧٨) والبيهقى فى دلائل النبوة (٥/ ٤٧٦) من حديث أبى هريرة. وعند الحاكم فى مستدركه (٢/ ٦٠٤) وصححه من حديث جابر بن عبد الله بلفظ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» دون ذكر يوم القيامة.

(٢) نسب رسول الله ﷺ نفسه إلى جده عبد المطلب، لا إلى أبيه عبد الله، فقد كان عبد المطلب مشهوراً شهرة ظاهرة شائعة، وكان سيد أهل مكة، وكان مشتهراً عندهم أن عبد المطلب بُشِّر بالنبى ﷺ ، وأنه سيظهر، وسيكون شأنه عظيماً، فأراد النبى ﷺ تذكيرهم بذلك وتنبيههم بأنه ﷺ لا بد من ظهوره على الأعداء، وأن العاقبة له لتقوى نفوسهم. نقله النووى فى شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ٣٦٠).

(٣) وذلك أن رجلاً سأل البراء بن عازب: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال البراء: ولكن رسول الله ﷺ لم يفر، وكانت هوازن يومئذ رماة، وإنَّا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، وهو يقول: «أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب».

أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٦) كتاب الجهاد، والبخارى فى صحيحه (٤٣١٧) من حديث البراء بن عازب.

والفخور إنسان غائب بحجاب الغفلة عن واهب المناقب التى يتفاخر بها ، ولو كان مستحضراً لجلال الواهب لتضاءل أمامه ، ولو اتجهت بصيرة المتكبر والفخور إلى الحق سبحانه وتعالى لتضاءل أمامه ، ولردَّ كل شىء إلى الواهب.

ومثال ذلك فى القرآن الكريم هو قول الحق سبحانه على لسان صاحب موسى عليهما السلام:

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ [1] عَنْ أَمْرِى .. (٨٢) ﴾ [الكهف]

وهذا سلوك العابد المتواضع .

أما حال الفخورين اللاهين عن الحق سبحانه وتعالى ، فقد صوره القرآن فى قول قارون:

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ [2] عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. (٧٨) ﴾ [القصص]

وكان مصيره هو القول الحق:

﴿ فَخَسَفْنَا [3] بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص]

ولذلك قلنا: إنك تحصِّن كل نعمة عندك بقولك عند رؤيتها: «بسم الله ما شاء الله» ؛ لتتذكر أن هذه النعمة لم تأت بجهدك فقط ، ولكنها جاءت لك أولاً بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، وذلك لتبقى عين الواهب حارسة للنعمة التى عندك .

---

(١) المقصود ما فعله الخضر عليه السلام من: خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار الذى كان سينهار.

(٢) أوتيته: أى: اكتسبته. يقصد المال الذى رزقه الله إياه، ولكن قارون ادَّعى أن علمه هو الذى جلب له المال، فكفر بنعمة الله عليه، فاستحق عقاب الله.

(٣) الخسف: خسف الله الأرض: جعلها تهبط وتغور يقول الحق: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص] وخسف القمر: نقص نوره، وخسوف الشمس يقع فى أواخر الشهر العربى فى أيام المحاق، وسببه توسط القمر بين الأرض والشمس، فيحجب القمر الشمس، فإن كان الحجب كلياً كان خسوفاً، وإن كان جزئياً كان كسوفاً. وجاء فى اللسان الخسف: سؤوخ الأرض بما عليها أى: ابتلاعها ما فوقها. وخسف الله به الأرض أى: أغابه فيها. القاموس القويم باختصار.

أما حين تنسى الواهب فلن يحفظ تلك النعمة لك.

ونحن نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع الفرح المنبعث عن انشراح الصدر والسرور بنعمة الله بل طلبه منا فى قوله سبحانه:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ..(٥٨) ﴾ [يونس]

ولكن الحق سبحانه يطلب من المؤمن أن لا يكون الفرح المنبعث لأتفه الأسباب، والملازم له، وإلا كان من الفرحين الذين ذمهم الله تعالى [1].

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) ﴾

وكلمة ﴿صَبَرُوا﴾ [2] هنا موافقة للأمرين اللذين سبقا فى الآيتين السابقتين، فهناك نزع الرحمة، وكذلك هناك «نعماء» من بعد «ضرّاء»، وكلا الموقفين يحتاج للصبر؛ لأن كلاًّ منا مقدور للأحداث التى تمر به، وعليه أن يصبر لملحظية حكمة القادر سبحانه.

وبدأ الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بالاستثناء، فقال جل وعلا:

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا .. (١١) ﴾ [هود]

---

(١) فقال عن قوم موسى أنهم قالوا لقارون: ﴿ .. لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص] أى: الأشرين البطرين الذين لا يعترفون بنعمة الله عليهم. وقال تعالى: ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. (٢٣) ﴾ [الحديد].

(٢) والذين صبروا ماضياً، وصابروا حالاً ومستقبلاً هم أهل الفلاح مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [آل عمران]

ولولا هذا الاستثناء لكان الكل - كل البشر - ينطبق عليهم الحكم الصادر في الآيتين السابقتين ، حكم باليأس والكفر ، أو الفرح والفخر دون تذكُّر واهب النعم سبحانه.

ولكن هذا الاستثناء قد جاء ليُطمئن الذين صبروا على ما قد يصيبهم في أمر الدعوة ، أو ما يصيبهم في ذواتهم ؛ لا من الكافرين ؛ لكن بتقدير العزيز العليم .

أو أنهم صبروا عن عمل إخوانهم المؤمنين .

إذن : فالصبر معناه حدُّ النفس بحيث ترضى عن أمر مكروه نزل بها [1] .

والأمر المكروه له مصادر عدة ، منها :

* أمر لا غريم [2] لك فيه كالمرض مثلاً .

* أو أن يكون لك غريم في الأمر ؛ كأن يُسرق منك متاع ، أو يُعتدى عليك ، وفي هذه الحالة تنشغل برغبة الانتقام ، وتتأجج نفسك برغبة النيل من هذا الغريم ، أكثر مما تتأجج في حالة عدم وجود الغريم ، فحين يمرض الإنسان فلا غريم له .

وفي حالة الرغبة في الانتقام فالصبر يختلف عن الصبر في حالة عدم وجود الغريم .

ولذلك عرض الحق سبحانه وتعالى لتأتِّي الصبر حسب هذه المراحل ، فسيدنا لقمان يقول لابنه :

---

(١) ويكون الصبر مطلوباً أيضاً عند امتناع النعمة امتحاناً لإيمان المؤمن فعن أبي سعيد الخدري أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفد ما عنده ، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده : «ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبَّر يصبِّره الله ، وما أُعْطِي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر» متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٧٠) ومسلم في صحيحه (١٠٥٣) كتاب الزكاة.

(٢) الغريم : الدائن ، والمدين . والجمع : غرماء . والمراد بالغريم هنا : الخصم أو العدو . [اللسان ، والمعجم الوسيط] بتصرف .

﴿ .. وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [1] ⁽١٧⁾ ﴾ [لقمان]

وفى موضع آخر يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ⁽٤٣⁾ ﴾ [الشورى]

وفى هذه الآية «لام» التوكيد لتؤكد أن هذا الأمر يحتاج إلى عزم قوى ؛ لأن لى فيها غريماً يثير غضبى .

فساعة أرى من ضربنى أو أهاننى أو سرقنى أو أساء إلىَّ إساءة بالغة ، فالأمر هنا يحتاج صبراً وقوة وعزيمة .

أما فى الحالة الأولى - حالة عدم وجود غريم - فالحق سبحانه يكتفى فقط بالقول الكريم:

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ .. ⁽١٧⁾ ﴾ [لقمان]

ولكنه سبحانه أضاف فى الآية الأخرى «اللام» لتأكيد العزم ، وليضيف سبحانه فى حالة وجود غريم طلب الغفران ، فيقول سبحانه:

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ⁽٤٣⁾ ﴾ [الشورى]

وهكذا نجد المستثنى ، وهم الصابرون على ألوانهم المختلفة .

وهنا يقول سبحانه :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ⁽١١⁾ ﴾ [هود]

وما دام هنا صبر ، فالصبر لا يكون إلا على إيذاء . ولكن إياك أن يكون الإيذاء من خصمك فى الإيمان ، أو من خصمك فى ما دون الإيمان ،

---

(١) والصبر : إما صبر على المأمورات أو صبر على المحذورات ، أو صبر على المقدرات ، فمن توافرت فيه هذه المقامات كان من أهل العزم . وعزم الأمور معزوماتها التى يعزم عليها لوجوبها . [تفسير الجلالين] .

صارفاً لك عن نشاطك فى طاعة الله سبحانه ؛ لأن الصبر لا يعنى أن تكبت غضبك وتعذب نفسك بهذا الكبت بما يصرفك عن مهامك فى الحياة ، بل يسمح لك الحق سبحانه أن تتخلص من غلِّك وحقدك ، بمعايشة الإيمان الذى يُخفف من غَلْواء الغضب.

ولكسر حدة الغل أباح لك الحق سبحانه وتعالى أن تعتدى على من اعتدى عليك بمثل ما اعتدى ؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يريد لك أن تظل فى حالة غليان بالغضب أو القهر بما يمنعك من العمل ، بل يريد الحق سبحانه أن تتوجه بطاقاتك إلى أداء عملك.

ولذلك لا يلزمك الحق سبحانه إلا بحكم العدل فيقول عز وجل:

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ..(١٩٤) ﴾ [البقرة]

ولكن هناك القادر على التحكم فى نفسه ، ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ [(١)] ..(١٣٤) ﴾ [آل عمران]

ومعنى كظم الغيظ: أن الغيظ موجود ، لكن صاحبه لا يتحرك بنزوع انتقامى ، مثلما تقول: «كظمت القرْبة» لأن حامل القربة لو لم يكظم الماء فيها ، لتفلَّت الماء منها ، أى: أنه يَحبس الماء فيها.

وكظم الغيظ درجة ومنزلة ، قد لا تكون إيجابية ؛ لأن الغيظ ما زال موجوداً ؛ ولذلك تأتى مرحلة أرقى ، وتتمثل فى قول الحق سبحانه:

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ..(١٣٤) ﴾ [آل عمران]

---

(١) الكاظمين الغيظ: الحابسين غيظهم فى قلوبهم. [كلمات القرآن].
وعن معاذ بن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «من كظم غيظاً، وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله سبحانه وتعالى على رءوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما شاء» أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٤٠) وأبو داود فى سننه (٤٧٧٧) والترمذى فى سننه (٢٠٢١ ، ٢٤٩٣) وقال: حسن غريب.

أى : أن تُخرج الغيظ من قلبك وتتسامح.

إذن : فأنت هنا أمام مراحل ثلاث :

أن تردَّ الاعتداء عليك بمثله ، والمثليَّة فى رد الاعتداء أمر لا يمكن أن يتحقق ، فمن صفعك صفعة ، كيف تستطيع أن تضبط كمية الألم فى الصفعة التى تردها إليه ؟

إن المتحكم فى ردِّ الاعتداء هو الغضب ، والغضب لا يقيس الاعتداء بمثله ، فلا يتحقق العدل المطلوب ؛ لهذا يكون الصبر خيراً مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ .. وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾ [النحل]

فإن أزدتَ من قوة صفعتك تكون معتدياً.

ولعلنا نذكر مسرحية «تاجر البندقية» لشكسبير ، وبطلها هذا التاجر اليهودى الذى أقرض رجلاً مالاً ، وكان صَكُّ القرض يفرض أن يقتطع اليهودى رطلاً [1] من لحم المقترض إن تأخر فى السداد.

وتأخَّر المقترض فى السداد ، وأراد المرابى اليهودى أن يقتطع رطلاً من لحم المقترض ، وعُرِض الأمر على القاضى ، وكان القاضى رجلاً حكيماً ، وأراد أن يصدر حكَماً يتلمس فيه العدالة ، فقال القاضى : لا مانع أن تأخذ رطلاً من لحم الرجل ؛ هات السكين ، واقطع رطلاً واحداً بلا زيادة أو نقصان ؛ لأننا سنأخذ مقابل تلك الزيادة من لحمك أنت وبنفس السكين ، وكذلك إن قطعت من اللحم ما يقل عن الرطل ، فسنقطع الناقص لك من لحمك أنت عقاباً لك .

---

(١) الرطل : معيار يوزن به أو يكال ، يختلف باختلاف البلاد ، وهو فى مصر اثنتا عشرة أوقية ، والأوقية اثنا عشر درهماً. والجمع : أرطال. [المعجم الوسيط].

وتردَّد المرابى اليهودى ؛ لأن الجزار - أىَّ جزار - لا يمكن أن يضبط يده ليقطع رطلاً مكتمل الوزن ، بل يقطع أحياناً ما يزيد عن الوزن المطلوب ، ويقطع أحياناً ما يقل عن الوزن المطلوب ، ثم يكمل أو ينقص الوزن حسب كل حالة .

وانسحب المرابى اليهودى وتنازل عن دعواه ، والذى دفعه إلى ذلك هو عدم قدرته على أخذ المثل ، فلو كان قد ارتقى قليلاً فى مشاعره لما وصل إلى هذا الحكم .

والحق سبحانه وتعالى يحضنا [1] على أن نرد العدوان بمثله ، وإن أردنا الارتقاء فلنكظم الغيظ ، وإن أردنا الارتقاء أكثر فلنخرج الغيظ من القلب ولنكن من العافين عن الناس [2] ؛ لننال محبة الله تعالى ؛ لأنه سبحانه يقول :

﴿ ..وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾
[آل عمران]

وفى هذا يرتقى المؤمن بمنهج الله سبحانه ، فيجعل المعتدَى عليه هو الذى يُحسن .

وحين تريد أن تفسر حب الله سبحانه للمحسنين فلسفيّاً أو منطقيّاً أو اقتصاديّاً ، ستجد القضية صحيحة ، والله سبحانه وتعالى يقول :

---

(١) الحض : الحث والتشجيع على فعل شىء . [اللسان] بتصرف ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) ﴾ [الحاقة] .

(٢) عن أبى بن كعب أن رسول الله ﷺ قال : «من سره أن يشرف له البنيان ، وتُرفع له الدرجات ، فليعفُ عمن ظلمه ، ويعط من حرمه ، ويصل من قطعه» أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٢٩٥) عن أبى بن كعب وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » قال الذهبى : « فيه أبو أمية ضعفه الدارقطنى وإسحاق لم يدرك عبادة » .

﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا [1] أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ [2] .. (٢٢) ﴾ [النور]

فإن أساء [3] أخوك إليك سيئة ، فإما أن ترد بالمثل ، أو تكظم الغيظ أو ترقى إلى العفو ، وبذلك تكون من المحسنين ؛ لأنك إذا كنت قد ارتكبت سيئة ، وعلمت أن الله سبحانه وتعالى يغفرها لك ، ألا تشعر بالسرور ؟

إذن : فما دُمْت تريد أن يغفر الله تعالى لك السيئة عنده ، فلماذا لا تعفو عن سيئة أخيك فى حقك ؟

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢) ﴾ [النور]

وقد جاء الحق سبحانه هنا من ناحية النفس ، فجعل عفو العبد عن سيئة العبد بحسنة ، فلعفو العبد ثمن عند الله تعالى ؛ لأن العبد سيأخذ مغفرة الله تعالى ، وفوق ذلك فأنت تترك عقاب المسيء والانتقام منه لربك ، وعند التسليم له راحة .

---

(١) صفح عن رجل : أعرض عنه أو عفا عنه ولم يؤاخذه بذنبه . قال تعالى : ﴿ .. وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) ﴾ [التغابن] . وقال تعالى : ﴿ .. وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) ﴾ [الحجر] . [اللسان] بتصرف .

(٢) تمام الآية : ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾ [النور] .

وقد نزلت هذه الآية فى شأن أبى بكر الصديق الذى حلف أن لا يعطى ابن خالته مسطح بن أثاثة ما كان يعطيه من قبل من النفقة بسبب ما تكلم به فى حق عائشة مع من تكلم ، وهو ما يسمى بحادثة الإفك . فأنزل سبحانه الآية ، فقال أبو بكر : والله إنى أحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مسطح النفقة التى كانت عليه وقال : لا أنزعها منه أبداً . راجع تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٥) وأسباب النزول للواحدى (ص١٨٥) ط . المكتبة الثقافية .

(٣) أساء إساءة : فعل السوء ضد أحسن ، وأساء العمل لم يحسنه ، والمسيء اسم فاعل من أساء ، والسيء القبيح ، والمنكر ، والسيئة : مؤنث السيء بمعنى القبيح . والسَّوءة : ما يقبح إظهاره وينبغى ستره « القاموس القويم » باختصار .

ولو اقتصصتَ أنت ممن أساء إليك ، فقصاصك علىَ قدر قوتك ، أما إن تركته إلى قدرة الله تعالى، فهذا أصعب وأشق؛ لأنك تركته إلى قوة القوى.

وهكذا ينال العافى عن المسىء مرتبة راقية ؛ لأنه جعل الله - سبحانه وتعالى - فى جانبه .

وهناك من يقول: كيف يأمر الدين الناس بأن يحسنوا لمن أساء إليهم ؟ ويعلل ذلك بأنه أمر ضد النفس.

ونقول : إن الإحسان إلى المسىء هو مرحلة ارتقاء ، وليست تكليفاً [(١)] أصيلاً ؛ لأن الحق سبحانه قد أباح أن نرد العدوان بمثله ، ثم حثَّ المؤمن على أن يكظم غيظه ، أو يرتقى إلى العفو وأن يصل إلى الإحسان ، وكل هذه ارتقاءات اليقين بالله سبحانه وتعالى .

وانظر إلى نفسك - ولله المثل الأعلى ومنزَّه سبحانه عن كل مَثلٍ - إنْ أردت أن تطبق الأمر على ذاتك حين تجد ولداً من أولادك قد اعتدىً على أخيه ، فقلبك وعواطفك وتلطفاتك تكون مع المعتدَى عليه.

ومن يقول: كيف يكلّفنى الشرع بأن أحسن إلى من أساء إلىَّ ؟

نقول له: تذكَّرْ قول الحسن البصرى رضى الله عنه [(٢)]: «أفلا أحْسِنُ لمن جعل الله فى جانبى » .

ولو طبَّق العالم هذه القاعدة بيقينٍ وإخلاصٍ لصارت الحياة على الأرض جنة معجَّلة ، التسامح ، قوامها القربُ ، ومنهجُها الحب .

---

(١) لأن التكليف إلزام ، والعفو من الفضل ، وفى التعامل بالفضل ارتقاء .

(٢) هو : الحسن بن يسار البصرى، أبو سعيد، تابعى، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة فى زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء النساك. ولد بالمدينة ٢١ هـ ، وشبَّ فى كنف على بن أبى طالب، كان يدخل على الولاة يأمرهم وينهاهم ، سكن البصرة وتوفى بها عام ١١٠ هـ عن ٩٠ عاماً.

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) ﴾ [هود]

وإن تساءل أحد : ولماذا ينالون المغفرة ؟

نقول : لأنهم صبروا وغفروا ؛ لذلك يهديهم الله تعالى مغفرة من عنده ، لأنه صبر على الإساءة ، وغفر لمن أساء ، فلا بد أن يُثيبه الله تعالى ، لا بالمغفرة فقط ، ولكن بالأجر الكبير أيضاً.[1]

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ[2] (١٢) ﴾

وهنا نجد الحق سبحانه يأتى بصيغة الاستفهام فى قوله تعالى :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٢) ﴾ [هود]

وهو استفهام فى معرض النهى .

ولله المثل الأعلى - أنت قد تقول لابنك لتحثَّه على الاجتهاد : «لعلَّك

(١) ومغفرة الله فى مقابل صبر العبد وغفرانه لإساءة المسىء محدودة بحدود طاقة البشر ، أما غفران الله ففيه شمول الكريم وعفو الحكيم ؛ لأن عفوه مصحوب بالأجر ، والأجر كبير من أكبر وهو الله سبحانه .

(٢) وكيل : قائم به حافظ له[كلمات القرآن]. والوكيل : الحافظ الأمين والناصر المعين . قال تعالى : ﴿ .. وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران] . وقال تعالى : ﴿ .. قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦) ﴾ [الأنعام] أى : حافظ .

سُررت من فشل فلان» وفَحْوَى [١] هذا الخطاب ، استفهام فى معرض النهى ، وهو استفهام يحمل الرجاء .

وهنا تجد أن الراجى هو ربك - سبحانه وتعالى- الذى أرسلك بالدعوة .

ولذلك يأتى قول الحق سبحانه مُبيِّناً : لا يضيق صدرك يا رسول الله من هؤلاء المتعنتين ، الذين يريدون أن يخرجوك عن مقامك الذى تلحُّ دائمًا فى التأكيد عليه ، فأنت تؤكد لهم دائماً أنك بشرٌ [٢] ، وكان المفروض فيهم أن تكون مطلوباتهم منك على مقدار ماأقررت على نفسك ، فأنت لم تَقُلْ أبداً عن نفسك إنك إله ، ليطلبوا منك آيات تُخالف النواميس [٣] ، بل أنت مُبلِّغ عن الله تعالى .

وإياك أن يضيق صدرك فلا تُبلغهم شيئاً مما أنزلَ إليك ؛ لأن البلاغَ هو الحُجَّة عليهم ، فلو ضاق صدرُك منهم ، وأنقَصتَ البلاغ الموكَّل إليك ؛ لأنهم كلما أبلغوا بآية كذَّبوها ، فاعلمْ أنَّ الله سبحانه وتعالى سوف يزيد عقابهم بقدر ما كذَّبوا .

---

(١) فحوى القول : مضمونه ومرماه الذى يتجه إليه القائل . والجمع : فحاوٍ ، وفحاوى . [المعجم الوسيط] .

(٢) أكد رسول الله ﷺ على هذا المعنى فى أحاديث شريفة كثيرة جداً :
- منها حديث رافع بن خديج قال : قدم نبى الله ﷺ بالمدينة ، وهم يأبرون النخل ، يقولون يلقحون النخل ، فقال : ما تصنعون ؟ قالوا : كنا نصنعه . قال : لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً فتركوه ، فنفضت . قال : فذكروا ذلك له ، فقال : «إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى ، فإنما أنا بشر» . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٦٢) كتاب الفضائل .
- وعن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : « إنما أنا بشر ، أرضى كما يرضى البشر ، وأغضب كما يغضب البشر ، فأيما أحد دعوت عليه من أمتى بدعوة ليس لها بأهل ، أن يجعلها له طهوراً وزكاة وقربة يقرِّبه بها منه يوم القيامة » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٠٣) .

(٣) النواميس : القوانين الإلهية التى يخضع لها الكون .

وكلمة «ضائق»[١] اسم فاعل ، ويعنى أن الموصوف به لن يظل محتفظاً بهذه الصفة لتكون لازمة له ، ولكنها تعبِّر عن مرحلة من المراحل ، مثلما نقول : «فلان تَاجر» أى : أنه قادر على القيام بأعمال التجارة مرَّة واحدة - أو قليلاً - ولا يحترف هذا العمل .

وكذلك كلمة«ضائق» وهى تعبِّر فى مرحلة لا أكثر منْ فَرْط ما قابلوا الرسول ﷺ من إنكار ، وما طالبوا به من أشياء تخرج عَن نطاق إنسانيته ، فقد طالبوا هنا أن ينزل عليه كَنْزٌ .

وقد جاء الحق سبحانه بذكر مسألة الكنز ؛ ليدلنا على مدى ماعندهم من قيم الحياة ، فقيمة القيم عندهم تركَّزتْ فى المال ؛ ولذلك تمنَّوا لو أن هذا القرآن قد نزل على واحد من الأثرياء ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ[٢] (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : فلم يكن اعتراضهم على القرآن ، بل على مَنْ نزل عليه القرآن . وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، طلبوا أن ينزل إليه كَنْزٌ ، وقد ظنوا أن الثراء سيلهيه هو ومَنْ معه عن الدعوة إلى الله تعالى

---

(١) الضيق (بالكسر والفتح للضاد وسكون الباء) ضد السَّعَة ، فى الماديات والمعنويات .
واسم الفاعل ضائق ، قال تعالى : ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ .. (١٢) ﴾ [هود] وقوله : ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا .. (٧٧) ﴾ [هود] . أى : وجد ضيقاً فى صدره ، ومنه : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) ﴾ [الحجر] ، وقوله : ﴿ ..وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) ﴾ [النحل] وقرئ بفتح الضاد وبكسرها . والمعنى : ولا يضيق صدرك بسبب مكرهم . (القاموس القويم باختصار) .

(٢) المراد بالقريتين : مكة والطائف . وقد اختلف العلماء فى تحديد اسم الرجل العظيم المقصود . فمن مكة : الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة . ومن الطائف : عروة بن مسعود أو عمير بن عبد يا ليل . قال ابن كثير فى تفسيره (٤ / ١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

ونسوا أنهم قد عرضوا الثروة عليه من قبل [1] .

وهكذا وضح لمن عرض عليه هذا الأمر أن مسألة الكنز لا تشغله ﷺ .

والكَنْزُ [2] - لغويّاً - هو الشيء المجتمع ، فإن كانت الماشية - مثلاً - مليئة باللحم يقال لها : « مُكْتَنِزَةٌ لحماً » ولكن كلمة « الكنز » أطلقت على الشيء الذى هو ثمن لأى شيء ، وهو الذهب .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ..﴿٣٤﴾ ﴾ [التوبة]

---

(١) ذلك أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً قال يوماً وهو جالس فى نادى قريش ، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ؟ فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قُم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال : يا بن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من السِّطة (الشرف) فى العشيرة والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبْتَ به آلهتهم ودينهم وكفَّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلّكَ تقبل منها بعضها . فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع . قال : يا بن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به مُلْكاً ملكناك علينا . . . حتى إذا فرغ عتبة ، قال له ﷺ : « أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع منى . قال : أفعل ، فقال : ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [فصلت] . ثم مضى ﷺ فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه . فلما عاد إلى قومه قال لهم : خَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعتُ منه نبأ عظيم ، فإن تُصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه مُلككم ، وعزّه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . [من سيرة النبى لابن هشام ١ / ٢٩٣ ، ٢٩٤ - بتصرف] .

(٢) كنز المال يكنزه كنْزاً : جمعه وادَّخره . قال تعالى : ﴿ .. هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة] وقال تعالى : ﴿ .. وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [التوبة] والضمير راجع إلى الفضة لقربها فى الذكر ، ولأنها أقل قيمة ، فمَنْ يبخل بها يبخل بالذهب من باب أولى . [القاموس القويم] .

ونحن نعلم أن هناك فارقاً بين الرزق المباشر والرزق غير المباشر ، فالرزق الغير مباشر هو ما تنتفع به ، طعاماً أو شراباً ، وهناك شيء يأتى لك بالرزق الغير مباشر ؛ لكنه لا يُغنى عن الرزق المباشر المستمر [(١)] .

فلو أن إنساناً فى صحراء ومعه قناطير [(٢)] مقنطرة من الذهب ، ولا يجد طعاماً ولا شربة ماء ، ماذا يفعل له الذهب ؟ ولو عرض عليه إنسانٌ آخر رغيف خبز وشربة ماء مقابل كل ما يملك من ذهب لوافق على الفور . وهنا لا يكون التقييم أن قنطار الذهب مقابل الرغيف وشربة الماء ، ولكن قنطار الذهب هنا مقابل استمرار الحياة وضرورة الحاجة .

إذن : معنى كلمة "كنز" هو نقد من الذهب والفضة مجتمعاً ، ويقال عنه بالعامية عندنا فى مصر : «نقود تحت البلاطة» ، ولكن إذا أدَّى صاحب هذا النقد حقَّ الله تعالى فيما ادَّخره ، لا يُعتبر كَنْزاً ؛ لأن الشرط فى الكَنْز أن يكون مَخفياً ، والزكاة التى تُخرَج من المال المدَّخر توضح للمجتمع أن صاحب المال لا يُخفى ما عنده .

ولذلك لا يُسمَّى الكَنْزُ إلاَّ للشيء المجتمع وممنوع منه حق الله تعالى ، فإنْ أدِّى حقُّ الله سبحانه فقد رُفعَتْ عنه الكَنزية ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ .. وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) ﴾ [التوبة]

---

(١) الرزق المباشر ما تقتضى به الحوائج بسيولة الاستمرار ، والغير مباشر تقتضى به الحوائج بصعوبة الحاجة والضرورة .

(٢) قناطير : جمع قنطار ، وهو معيار مختلف المقدار عند الناس ، وهو بمصر فى زماننا مائة رطل ، وهو ٤٤,٩٢٨ من الكيلو جرامات . وقد يقصد بالقنطار : المال الكثير . [المعجم الوسيط] .

ومن هذا القول الكريم نفهم أن مَنْ يملك مالاً ويؤدِّى حقَّ الله فيه ، لا يُعتبر كَنْزاً [١] ، وحين تُنقص الزكاةُ المالَ فى ظاهر الأمر ، فهى تدفع الإنسان إلى أن يُحْسن استثمَار هذا المال ؛حتى لا يفقده على مدار أربعين عاماً ، بحكم أن زَكاة المال هى اثنان ونصف فى المائة ؛ولذلك يحاول صاحب المال أن يُثمِّره ، وهو بذلك يُهيِّىء فرصة لغير واجدٍ وقادرٍ لأن يعمل ، وبذلك تقلُّ البطالة .

وقد تكون أنت صاحب المال ؛ لكنك لا تفهم أسرار التجارة والصناعة ، فتشارك مَنْ يفهم فى التجارة أو الصناعة ، وبذلك تفتح أبواب فرص عمل لمن لا عمل له وقادر على إدارة العمل .

هذه هى إرادة الحق سبحانه وتعالى فى أن يجعل من تكامل المواهب نماءً وزيادة ، تكامل مواهب الوَجْد - النقود - ومواهب الجَهْد ، وبين الوجد والجهد تنشأ الحركة ، ويتفق صاحب المال مع صاحب الجهد على نسب الربح حسب العرض والطلب ؛ لأن كل تبادل إنما يخضع لهذا الأمر - العرض والطلب - لأن مثل هذا التعاون بين الواجد والقادر ينتج سلعة ، والسلعة لا هَوًى لها ، ولكن من يملك السلعة ومن يشترى السلعة لهما هوى ، فمالكُ السلعة يرغب فى البيع بأعلى سعر ، ومن يرغب فى شراء السلعة يريدها بأقل سعر ، لكن السلعة نفسها لا هوى لها .

وما دام العرض والطلب هو الذى يتحكَّم فى السلع ، فهذا توازن

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤ / ٣٠٥١) : « اختلف العلماء فى المال الذى أديت زكاته هل يُسمَّى كنزاً أم لا ، فقال قوم : نعم . ورواه أبو الضحى عن جعدة بن هبيرة عن على رضى الله عنه ، قال على : أربعة آلاف فما دونها نفقة ، وما كثر فهو كنز وإن أدِّيت زكاته ، ولا يصح .
وقال ابن عمر : ما أدِّى زكاته فليس بكنز ، وإن كان تحت سبع أرضين ، وكل ما لم تُؤدَّ زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض . ومثله عن جابر ، وهو الصحيح » .

فى ميزان الاقتصاد .[١]

وعلى سبيل المثال : إن عُرضت اللحوم بسعر مرتفع ، فكبرياء الذات فى النفس البشرية تدفع غير القادر لأن يقول : إن تناول اللحم يرهقنى صحيّاً . ويتجه إلى الأطعمة الأخرى التى يقدر على ثمنها ؛ لأن السلعة هى التى تتحكم ، أما إذا تدخل أحدٌ فى تسعير السلع ، بأن اكتنز المال ، ولم يخرجه للسوق لاستثماره ، حينئذ تختفى قدرة الحركة لصاحب المال ، ولا يجد صاحب الموهبة مجالاً لإتقان صنعته .

وقول الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية :

﴿ لَوْلا[٢] أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ .. (١٢) ﴾ [هود]

فكلمة «لولا» - كما نعلم - للتمنى ، وهم تمنوا الكنز أولاً ، ثم طلبوا مجىء مَلَك ، وكيف ينزل المَلَك ؟ أينزل على خِلقته أم على غير خِلْقته بأن يتجسد على هيئة رجل ؟

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً .. (٩) ﴾ [الأنعام]

(١) قصد فى أمره يقصد كضرب قصداً : اعتدل فيه وسلك مسلكاً وسطاً ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ .. (١٩) ﴾ [لقمان] أى : اعتدل وتوسط فيه وقال : ﴿ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ .. (٣٢) ﴾ [لقمان] أى : معتدل غير منحرف يقول الحق : ﴿ .. مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ (٦٦) ﴾ [المائدة] والاقتصاد الآن أصبح علماً له مناهجه ، وهو فن إدارة المال ، ولا يخرج التعريف الحديث عن ما ذهبت إليه اللغة ، وأشار إليه القرآن الكريم (القاموس القويم بزيادة اقتضاها المقام) .

(٢) لولا : حرف شرط لا يعمل ، ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط . وقد تستعمل كأداة عرض وتخصيص مثل (هلاَّ) فتختص بالدخول على الفعل المضارع فى مثل قوله تعالى : ﴿ .. لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) ﴾ [النمل] وتدخل على الفعل الماضى الذى فى تأويل المضارع مثل قوله تعالى : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ .. (١٢) ﴾ [هود] أى : لولا ينزل عليه كنز . وقوله تعالى : ﴿ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] أى : لولا تؤخرنى . [القاموس القويم] بتصرف .

وإن نزل المَلَك على هيئة رجل فكيف يتعرَّفون إلى أصله كمَلَك ؟ وهذا غباء فى الطلب .

وأيضاً قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء]

ولو أنزله الحق سبحانه مَلَكاً فسوف يكون من نفس طبيعتهم البشرية ، وسوف يلتقى بهم ويتكلم معهم ، ولن يستطيعوا تمييزه عن بقية الناس وسوف يُكذِّبونه أيضاً .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه رَدًّا لهم عن هذا الطلب : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ[1] .. (١٢) ﴾ [هود]

وهذا الكلام موجَّه من الله سبحانه للرسول ﷺ ليُلقِّنه الحجة التى يرد بها عليهم ، وقد قال لهم الرسول ﷺ عن نفسه إنه نذير وبشير ، وقد طلب غيركم الآيات ، وحين جاءت الآيات التى طلبوها لم يؤمنوا ، بل ظلُّوا على تكذيبهم ؛ فنكَّل الحق سبحانه بهم[2] .

إذن : فالعناد بالكفر لا ينقلب إلى إيمان بمجرد نزول الآيات ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ..(٥٩) ﴾ [الإسراء]

---

(١) النذير : الرسول المُنذر بالعذاب . قال تعالى : ﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ..(٦٣) ﴾ [الأعراف] .

(٢) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ﴾ [الأنعام] .

أى : أن الآيات التى طلبها الكافرون لم يأت بها الله سبحانه ؛ لأن الأولين قد كذَّبوا بها ؛ ولذلك يبلغ الحق سبحانه رسوله ﷺ هنا بقوله :

﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ..(١٢) ﴾ [هود]

وهو ﷺ قد نزل عليه القرآن بالنذارة والبشارة [1] .

ويُنهى الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله :

﴿ .. وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) ﴾ [هود]

وأنت حين توكِّل إنساناً فى البيع والشراء والهِبَة والنَّقْل ، وله حرية التصرف فى كل ما يخصك ، وترقب سلوكه وتصرُّفه ، فإنْ أعجبك ظللتَ على تمسكك بتوكيله عنك ، وإن لم يعجبك تصرُّفه فأنت تُلْغى الوكالة ، هذا فى المجال البشرى ، أما وكالة الله سبحانه وتعالى على الخَلْق [2] فهى باقية أبداً ، وإن أبى الكافرون منهم .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ [3] قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) ﴾

وفى قول الحق سبحانه وتعالى هنا بيان للَوْن آخر من مصادمة الكافرين لمنهج رسول الله ﷺ والإيمان به ، فقالوا : إنَّ محمداً قد افترى القرآن .

---

(١) يقول رب العزة سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً .. (١١٩) ﴾ [البقرة]

(٢) الوكيل : الحافظ الأمين والناصر والمعين . قال تعالى : ﴿ .. وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران] ، فوكالة الله على خلقه أى : رعايتهم بالرزق والحفظ والنصرة .

(٣) الافتراء : اختلاق الكذب . ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ..(١٣) ﴾ [هود] أى : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ .. (١٣) ﴾ [هود] أى : مكذوبات كما تدَّعون . [القاموس القويم] .

والافتراء : هو الكذب المتعمَّد ، ومعنى الكذب المتعمد أنه كلام يخالف واقعاً فى الكون .

فإذا كان الواقع نَفْياً وأنت قلت قضيةَ إثبات ؛ تكون قد خالفت الواقع ، كأن يُوجد فى الكون شرٌّ ما ثم تقول أنت : لا يوجد شرٌّ فى هذا المكان، وهكذا يكون الواقع إيجاباً والكلام نفْياً .

وكذلك أن يكون فى الواقع نَفْىٌ وفى الكلام إيجابٌ ، فهذا أيضاً كذبٌ ؛ لأن الصدق هو أن تتوافق القضية الكلامية مع الواقع الكونى ، فإن اختلفتْ مع الواقع الكونى صار الكلام كذباً .

والكذب نوعان : نوع متعمد ، ونوع غير متعمد . والكذب خرق واقع واختلاق غير موجود . ويقال : خرقت الشىء أى : أنك أتيت لواقع وبدَّلت فيه .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَخَرَقُوا [1] لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ..(١٠٠) ﴾ [الأنعام]

ويقول أيضاً الحق سبحانه :

﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا [2] .. (١٧) ﴾ [العنكبوت]

أى : تأتون بشىء من عدم ، وهو من عندكم فقط .

ويقول الله سبحانه تعالى :

---

(١) خرق الأمر أو الكلام : كذبه واخترعه . قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (١٠٠) ﴾ [الأنعام] أى : نسبوا له بنين وبنات كذباً واختراعاً بغير علم . [المعجم الوسيط] .

(٢) الإفك : الكذب والافتراء الباطل . وقال تعالى : ﴿ .. وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) ﴾ [الأحقاف] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ..(١١) ﴾ [النور] .

﴿ .. وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ [1] (١١٦) ﴾ [الأنعام]

وحين اتهموا محمداً ﷺ بهتاناً بأنه افترى القرآن جاء الرد من القرآن الكريم بمنتهى البساطة ، فأنتم - معشر العرب - أهل فصاحة وبلاغة ، وقد جاء القرآن الكريم من جنس ونوع نُبوغكم ، وما دمتم قد قُلْتم : إن محمداً قد افترى القرآن ، وأن آيات القرآن ليست من عند الله، فلماذا لا تفترون مثله ؟

وما دام الافتراء أمراً سهلاً بالنسبة لكم ، فلماذا لا تأتون بمثل القرآن ولو بعشْر سور منه ؟ وأنتم قد عشْتم مع محمد منذ صغَره ، ولم يكن له شعْر ، ولا نثر ، ولا خطابة ، ولا علاقة له برياضَاتكم اللغوية ، ولم يزاول الشعر أو الخطابة ، ولم يشترك فى أسواق البلاغة والشعر التى كانت تُعقد فى الجاهلية مثل سوق عكاظ .

وإذا كان مَنْ لا رياضة له على الكلام ولا على البلاغة ، قد جاء بهذا القرآن ؛ فَلْيكُنْ لديكم - وأنتم أهل قُدْرة ودُرْبة ورياضة على البلاغة أن تأتوا ببعض من مثله ، وإن كان قد افترى القرآن فلماذا لا تفترون مثله ؟

وأنتم تعرفون المعارضات التى تُقام فى أسواق البلاغة عندكم ، حين يقول شاعر قصيدة ، فيدخل معه شاعر آخر فى مباراة ليلقى قصيدة أفضل من قصيدة الشاعر الأول ، ثم تُعقد لجان تحكيم تُبيِّن مظاهر الحُسْن ومظاهر السوء فى أى قصيدة .

ولو كان محمدٌ ﷺ قد افترى القرآن -كما تقولون- فأين أنتم؟ ألم تعرفوه منذ طفولته ؟ ولذلك يأمر الحق سبحانه رسول الله ﷺ أن يقول :

---

(١) يخرصون : يكذبون . ويستعمل الخرْص فى القرآن بمعنى الكذب أو الظن الخاطىء . قال تعالى : ﴿ .. وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١١٦) ﴾ [الأنعام] أى : يكذبون أو يُخمِّنون ويظنون ولا يعلمون حقيقة الأمر على سبيل اليقين . [القاموس القويم - ١/ ١٩١]

﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ [١] فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ⟨١٦⟩﴾ [يونس]

فهل أثِرَ عن محمد ﷺ أنه قال شعراً أو ألقى خطبة أو تبارى [٢] في عكاظ [٣] أو المربد أو ذي المجاز [٤] أو المَجَنَّة [٥]، وتلك هي أسواق البلاغة ومهرجاناتها في تلك الأيام ؟

هو لم يذهب إلى تلك الأماكن منافساً أو قائلاً .

إذن : أفليسَ الذين تنافسوا هناك أقدر منه على الافتراء ؟ ألم يكن امرؤ القيس شاعراً فَحْلاً ؟ لقد كان ، وكان له نظير يعارضه .

وكذلك كان عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حِلِّزة اليشْكُري ، كما جاء في عصور تالية آخرون مثل: جرير والفرزدق .

إذن: فأنتم تعرفون مَنْ يقولون الشعر ومَنْ يعارضونهم من أمثالهم من الشعراء .

إذن : فهاتوا مَنْ يفتري مثل سور القرآن ، فإنْ لم تفتروا ، فمعنى ذلك أن القرآن ليس افتراء .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

---

(١) لبث : أقام واستقر . وقال تعالى عن يونس عليه السلام : ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ⟨١٤٣⟩ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ⟨١٤٤⟩﴾ [الصافات] . وقال سبحانه عن نوح عليه السلام : ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ..⟨١٤⟩﴾ [العنكبوت] . وقال تعالى : ﴿.. فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ⟨٤٠⟩﴾ [طه] .

(٢) التباري : التنافس والتسابق .

(٣) سوق عكاظ : سوق بقرب مكة ، كان العرب يجتمعون بها كل سنة ، فيقيمون شهراً يبتاعون ويتفاخرون ويتناشدون ، وسميت عكاظًا لهذا ، ويقال : تعاكظ القوم : تعاركوا وتفاخروا [انظر لسان العرب - مادة عكظ]

(٤) ذو المجاز : موضع بمنىً - وقيل عند عرفات - كان يُقَام فيه سوق في الجاهلية . [اللسان مادة : جوز]

(٥) المجنة : موضع على بُعْد أميال من مكة ، كان بها سوق من أسواق العرب .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ..(١٣) ﴾ [هود]

فهل كانوا قادرين على قبول التحدى ، بأنْ يأتُوا بعشر سُوَر من مثل القرآن الكريم فى البيان الآسر [١] وقوة الفصاحة وأسرار المعانى ؟

لقد تحدَّاهم بأن يأتوا - أولاً - بمثل القرآن [٢] ، فلم يستطيعوا ، ثم تحدَّاهم بأن يأتوا بعشر سور ، فلم يستطيعوا ، وتحدَّاهم بأن يأتوا بسورة [٣] ، ثم تحدَّى أن يأتوا ولو بحديث مثله ، فلم يستطيعوا .

وهنا جاء الحق سبحانه بالمرحلة الثانية من التحدى ، وهو أنْ يأتوا بعَشْر سُور ، ولم يكتف الحق سبحانه بذلك ، بل طالبهم أن يَدْعُوا مَجْمَعاً من البُلَغَاء ، فقال سبحانه :

﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ..(١٣) ﴾ [هود]

أى : هاتوا كلَّ شركائكم وكل البُلغاء ، من دون الله تعالى .

الحق سبحانه وتعالى هنا يقطع عليهم فرصة الادّعاء عليه سبحانه حتى لا يقولوا : سوف ندعو الله ؛ ولذلك طالبهم الحق سبحانه أن يُجنِّبوه ﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) ﴾ [هود]

أى : إن كنتم صادقين فى أن محمداً ﷺ قد افترى القرآن [٤] ، وبما أنكم

---

(١) الآسر : الذى يأخذ بألباب الناس وعقولهم .

(٢) وذلك فى قول الله سبحانه : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨) ﴾ [الإسراء] أى : مُعينًا .

(٣) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [البقرة] . ويقول سبحانه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) ﴾ [يونس] .

(٤) القرآن : يطلق على كتاب الله المعجز ، المكتوب فى المصاحف ، الذى نزل على رسول الله ﷺ ، ويطلق مجازاً مرسلاً علاقته الجزئية على الصلاة ، كقوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ .. (٧٨) ﴾ [الإسراء] أى : صلاة الفجر (القاموس القويم باختصار) .

أهل ريادة فى الفصاحة فَلْتفتروا عَشْر سُوَرٍ من مثل القرآن ، أنتم ومَنْ تستطيعون دعوتهم من الشركاء .

لذلك كان الرد الحكيم من الله فى قول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

والخطاب هنا موجَّه إلى الذين ادَّعوا أنَّ رسول الله ﷺ قد افترى القرآن ، أو أن الخطاب مُوجَّه لرسول الله ﷺ ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال فى الآية السابقة :

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ [1] وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [هود]

أى : إن لم يردُّوا على التحدى ، فليعلموا وليتيقَّنوا أن هذا القرآن هو من عند الله تعالى ، بشهادة الخصوم منهم .[2]

ولماذا عدَّل الحق سبحانه هنا الخطاب ، وقال :

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ [3] .. ﴿١٤﴾ ﴾ [هود]

---

(١) مفتريات : مختلقات مكذوبات كما تدَّعون .

(٢) وعن القرآن قال عتبة بن ربيعة لقومه بعد حوار طويل مع رسول الله ﷺ لإثنائه عن المضىّ فى دعوته : « خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعتُ منه نبأ عظيم » [سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٤] .

(٣) قال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [هود] ولم يَقُلْ : لك . قيل : هو على تحويل المخاطبة من الإفراد إلى الجمع تعظيماً وتفخيماً ، وقد يخاطب الرئيس بما يُخاطب به الجماعة .

وقيل : الضمير فى « لكم » وفى « فاعلموا » للجميع ، أى : فليعلم الجميع : ﴿ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [هود] قاله مجاهد . وقيل : الضمير فى « لكم » ، وفى « فاعلموا » للمشركين ، والمعنى : فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المعاونة ، ولا تهيأت لكم المعارضة : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [هود] . [قاله القرطبى فى تفسيره : ٤ / ٣٣٣١] .

أى : من تدعونهم ، ثم قال سبحانه :

﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [هود]

وقد قال الحق سبحانه ذلك ؛ لأن الرسول ﷺ مُطالَبٌ بالبلاغ وما بلغه الرسول ﷺ للمؤمنين مطلوب منه أن يُبلغوه ، وإنْ لم يستجيبوا للرسول ﷺ أو للمؤمنين ، ولم يأتِ أحد مع مَنْ يتهم القرآن بأنه مُفترًى من محمدٍ .

وقد يكون هؤلاء الموهوبون خائفين من التحدى ؛ لأنهم عرفوا أن القرآن حق ، وإن جاءوا ليفتروا مثله فلن يستطيعوا ، ولذلك فاعلموا - يا مَنْ لا تؤمنون بالقرآن - أن القرآن : ﴿ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [هود]

إذن : فالخطاب يكون - مرَّة - موجَّهاً للنبى ﷺ ولأمته .

ولذلك عَدَلَ الحق سبحانه عن ضمير الإفراد إلى ضمير الجمع فى قوله تعالى :

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [هود]

أى : ازدادوا علماً أيها المؤمنون بأن القرآن أنما نزل من عند الله.

والعِلْم - كما نعلم - مراحل ثلاث : علم يقين ، وعين يقين ، وحق يقين[1] .

أو أن الخطاب مُوجَّه للكافرين الذين طلب القرآن منهم أن يَدْعُوا من يستطيعون دعاءه ليعاونهم فى معارضة القرآن : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [هود]

وأعلى مراتب العِلْم عند الحق سبحانه الذى يعلم كل العلم أزلاً ، وهو غير علمنا نحن ، الذى يتغير حسب ما يتيح لنا الله سبحانه أن نعلم ، فأنت قد تكون عالماً بشىء وتجهل أشياء ، أوعلمتَ شيئاً وغابتْ عنك أشياء .

(١) هذا التقسيم ذهب إليه أهل الحقيقة والمعارف من وحى التريض العلمى والروحى والمشهدى .

ولذلك تجد الأطباء ، وأصحاب الصناعات الدقيقة وغيرهم من الباحثين والعلماء يستدرك بعضهم البعض ، فحين يذهب مريض لطبيب مثلاً ويصف له دواءً لا يستجيب له ، فيذهب المريض إلى طبيب آخر ، فيستدرك على الطبيب الأول ، فيصف دواء ، وقد لا يستجيب له المريض مرة ثانية ، وهنا يجتمع الأطباء على هيئة «مجمع طبى» يُقرّر ما يصلح أو لا يصلح للمريض .

ويستدرك كلٌّ منهم على الآخر إلى أن يصلوا إلى قرار ، والذى يستدرك هو الأعلم ؛ لأن الطبيب الأول كتب الدواء الذى أرهق المريض أو لم يَستجبْ له ، وهو قد حكم بما عنده من عِلْم ، كذلك بقية الباحثين والعلماء .

وما دام فوق كل ذى علمٍ عليمٌ ؛ فالطبيب الثانى يستدرك على الطبيب الأول . . وهكذا .

ولكن أيوجد أحدٌ يستدرك على الله سبحانه وتعالى ؟ لا يوجد .

وما دام القرآن الكريم قد جاء بعلم الله تعالى ، فلا علم لبشر يمكن أن يأتى بمثل هذا القرآن :

﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ . . (١٤) ﴾ [هود]

وجاء الحق سبحانه هنا بأنه لا إله إلا هو ؛ حتى لا يدَّعى أحدٌ أن هناك إلهاً آخر غير الله.

وذكر الله سبحانه هنا أن هذا القرآن قد نزل فى دائرة :

﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ . . (١٤) ﴾ [هود]

وما دام الحق سبحانه قد حكم بذلك فلنثق بهذا الحكم .

مثال ذلك : هو حكم الحق سبحانه على أبى لهب[١] وعلى امرأته[٢] بأنهما سيدخلان النار[٣] فهل كان من الممكن أن يعلن أبو لهب إسلامه ، ولو نفاقاً ؟ طبعاً لا ؛ لأن الذى خلقَه علم كيف يتصرف أبو لهب .

لذلك نجد بعد سورة المسد[٤] التى قررت دخول أبى لهب النار ، قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ [الإخلاص]

أى : أن الحق سبحانه ما دام قد أصدر حكمه بأن أبا لهب سيدخل وزوجه النار ، فلن يقدر أحد على أن يُغيِّر من حكمه سبحانه ، فلا إله إلا هو .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ .. فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٤ ﴾ [هود]

وهذا استفهام ، أى : طلب للفهم ، ولكن ليس كل استفهام طلباً للفهم ، فهذا الاستفهام هنا صادر عن إرادة حقيقية قادرة على فرض الإسلام على من يستفهم منهم .

---

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة سمى أبا لهب لشدة احمرار وجهه كأنه اللهب .

(٢) كانت امرأته من سادات نساء قريش ، وهى أم جميل ، واسمها أروى بنت حرب بن أمية ، وهى أخت أبى سفيان ، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده .

(٣) وذلك فى قول الله عز وجل عن أبى لهب وامرأته فى سورة المسد : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ ﴾ [المسد] .

وسبب نزول هذه السورة كما أخرج البخارى فى صحيحه (٤٩٧١) : عن ابن عباس أن النبى ﷺ خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل ، فنادى "يا صباحاه" فاجتمعت إليه قريش ، فقال : أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونى ؟ قالوا : نعم . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ تباً لك . فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾ [المسد] إلى آخرها .

(٤) مسد الحبل [كنصر] مسداً : أجاد فَتْله . والمسد الليف قال تعالى : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ [المسد] أى : من ليف خشن . « القاموس القويم » .

ولكنه سبحانه شاء أن يأتى هذا الاستفهام على لسان رسوله ليقابله جواب ، ولو لم يكن السائل واثقاً أنه لا يوجد إلا الإسلام لما قالها ، ولو لم يكن السائل واثقاً أنه لا جواب إلا أن يُسْلِم السامع ، ما جعل جواب السامع حجة على السامع .

وقائل هذا الكلام هو الخالق سبحانه ، ولله المثل الأعلى ، وهو سبحانه مُنزَّه عن كل مثل ، تجد إنساناً يحكى لك أمراً بتفاصيله ، ثم يسألك : هل أنا صادق فيما قلت لك؟ . . وهو يأتى بهذا الاستفهام ؛ لأنه واثق من أنك ستقول له : نعم ، أنت صادق .

وإذا نظرنا فى آية تحريم الخمر والميسر - على سبيل المثال - نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ [1] أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ [2] (٩١) ﴾

[المائدة]

---

(١) الشيطان كل عاد متمرد من الإنس أو من الجن ، والشيطان من الجن مخلوق خبيث خلق من النار ، وهو عدو للإنسان يُغريه بالشر ، إلا من حفظه الله بالإيمان . يقول الحق : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) ﴾ [الحجر] ، وكذلك كل من التجأ إلى الله ، فالله حافظه من كيد الشيطان . [القاموس القويم - بتصرف]

(٢) أخرج ابن جرير فى تفسيره عن أبى بريدة عن أبيه قال : بينا نحن قعود على شراب لنا ، ونحن على رملة ، ونحن على ثلاثة أو أربعة ، وعندنا باطية لنا ، ونحن نشرب الخمر حلاً ، إذ قمت حتى آتى رسول الله ﷺ فأسلّم عليه ، إذ نزل تحريم الخمر : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) ﴾[المائدة] فجئت إلى أصحابى فقرأت عليهم إلى قوله : (فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ) قال : وبعض القوم شَرْبَتُه فى يده ، قد ضرب بعضها ، وبقى بعض فى الإناء ، فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجَّام ، ثم صَبُّوا ما فى باطيتهم فقالوا : انتهينا ربنا . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢ / ٩٥) .

وكأن هذا الاستفهام يحمل صيغة الأمر بأن: انتهوا من الخمر والميسر، واخجلوا مما تفعلون.

إذن: فقول الحق سبحانه فى آخر الآية الكريمة:

﴿ .. فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ يعنى: أسلموا، واتركوا اللجاجة [1] بأن القرآن قد جاء من عند محمد، أو أنه افتراه، بل هو من عند الله سبحانه الذى لا إله إلا هو.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ [2] ﴿١٥﴾ ﴾

وكان الكافرون [3] قد تكلموا بما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم وقالوا:

﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [هود]

---

(١) اللجاجة: اختلاط الأصوات وارتفاعها. والمقصود التشويش على القرآن بادعاءات باطلة.

(٢) بخسه حقه: نقصه حقه ولم يُوفِّه إياه، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف]. والثمن البخس: القليل الناقص عن مثله، ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف].

(٣) اختلف العلماء فى تأويل هذه الآية، فقيل: نزلت فى الكفار، قاله الضحاك، واختاره النحاس، بدليل الآية التى بعدها: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [هود]، أى: من أتى منهم بصلة رحم أو صدقة فكافئه بها فى الدنيا، بصحة الجسم، وكثرة الرزق. لكن لا حسنة له فى الآخرة.

وقيل: المراد بالآية المؤمنون، أى: من أراد بعمله ثواب الدنيا عُجِّل له الثواب ولم يُنقص شيئاً فى الدنيا، وله فى الآخرة العذاب لأنه جرَّد قصده للدنيا. وقيل: هو لأهل الرياء، وفى الخبر أنه يقال لأهل الرياء: «صمتم وصلّيتم وتصدقتم وجاهدتم وقرأتم ليقال ذلك فقد قيل ذلك» ثم قال: «إن هؤلاء أول من تُسعر بهم النار».

وقيل: الآية عامة فى كل من ينوى بعمله غير الله تعالى، كان معه أصل إيمان أو لم يكن. [تفسير القرطبى ٤ / ٣٣٣١]

فهم - إذن - مشغولون بنعيم الدنيا وزينتها.

والحياة تتطلب المقومات الطبيعية للوجود، من ستر عورة، وأكل لقمة وبيت يقى الإنسان ويؤويه. أما الزينة فأمرها مختلف، فبدلاً من أن يرتدى الإنسان ما يستر العورة، يطلب لنفسه الصوف الناعم شتاء، والحرير الأملس صيفاً، وبدلاً من أن يطلب حجرة متواضعة تقيه من البرد أو الحر، يطلب لنفسه قصراً.

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ (١) مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ (٢) وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ (٣) .. (١٤)﴾ [آل عمران]

وكل هذه أشياء تدخل فى متاع الحياة الدنيا، ويقول الحق سبحانه:

﴿.. ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (٤) (١٤)﴾ [آل عمران]

إذن: ما معنى كلمة «زينة»؟

معنى كلمة «زينة» أنها حُسْنٌ أو تحسين طارىء على الذات، وهناك فرق بين الحسن الذاتى والحسن الطارىء من الغير.

---

(١) القناطير: جمع قنطار وهو معيار مختلف المقدار عند الناس، وهو بمصر فى زماننا: مائة رطل، وهو ٤٤,٩٢٨ من الكيلوجرامات، وقد يقصد بها المال الكثير - كما فى الآية الكريمة. وقال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ .. (٧٥)﴾ [آل عمران].

والقناطير المقنطرة: أى: المضاعفة، أو المُحْكمة المحصَّنة. [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف. والمعجم الوسيط].

(٢) الخيل المسومة: أى: المرسَلَة للرعى، أو المعلَّمة بعلامات. [القاموس القويم].

(٣) الأنعام: الإبل والبقر والضأن والمَعْز.

والحرث: المزروعات. [كلمات القرآن].

(٤) المآب: المرجع. وحسن المآب: أى: المرجع الحسن. [كلمات القرآن].

والمرأة - على سبيل المثال - حين تتزين فهى تلبس الثياب الجميلة الملفتة ، وتتحلّى بالذهب البرّاق ، فهو المعدن الذى يأخذ نفاسته [١] من كثرة تلألئه الذى يخطف الأبصار ، ولا تفعل ذلك بمغالاة إلا التى تشك فى جمالها .

أما المرأة الجميلة بطبيعتها ، فهى ترفض أن تتزين ؛ ولذلك يسمونها فى اللغة : «الغانية» [٢] ، أى : التى استغنت بجمالها الطبيعى عن الزينة ، ولا تحتاج إلى مداراة كبَر أذنيها بقُرْط [٣] ضخم ، ولا تحتاج إلى مداراة رقبتها بعقد ضخم ، ولا تحاول أن تدارى معصمها الريان بسوار [٤] ، وترفض أن تُخفِى جمال أصابعها بالخواتم .

وحين تُبالغ المرأة فى ذلك التزيُّن فهى تعطى الانطباع المقابل .

وقد يكون المثل الذى أضربه الآن بعيداً عن هذا المجال ، لكنه يوضح كيف يعطى الشىء المبالَغ فيه المقابل له .

وفى ذلك يقول المتنبى [٥] :

الطِّيبُ أنت إذَا أصَابكَ طيبهُ والماءُ أنتَ إذا اغتسلتَ الغاسلُ

---

(١) نَفُسَ الشىء نفاسة : كان عظيم القيمة فهو نفيس . وقيل : منه التنافس ، كل يريد أن يكون أنفس من غيره ، أو يحرز ما هو أنفس وأعظم قيمة . قال تعالى : ﴿ .. وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) ﴾ [المطففين] أى : فليتسابقوا لإحرازه لأنفسهم .

(٢) الغانية من النساء : التى غنيت بالزوج . وهى أيضاً التى غنيت بحُسْنها وجمالها عن الحَلْى . وقيل : هى التى تُطلَب ولا تَطْلُب . وقيل : الغانية الجارية الحسناء ، ذات زوج كانت أو غير ذات زوج . سميت غانية لأنها غنيت بحُسنها عن الزينة . [لسان العرب - مادة : غنى]

(٣) القُرْط : ما يُعلَّق فى شحمة الأذن من دُرٍّ أو ذهب أو فضة أو نحوها . والجمع : أقراط ، وقروط . . . [المعجم الوسيط] .

(٤) السِّوار : حلية من الذهب مستديرة كالحلقة تُلبس فى المعصم . والجمع : أسْورة ، وأساور . [المعجم الوسيط] .

(٥) هو : أحمد بن الحسين ، شاعر حكيم ، ولد بالكوفة فى محلة تسمى « كندة» عام ٣٠٣ هـ ، نشأ بالشام ، ادعى النبوة فى بادية السماوة (بين الكوفة والشام) . ولذلك سمى بالمتنبى ، ثم رجع عن دعواه بعد أسره ، توفى عام ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً .

وهو هنا يقـول : إن الطيب إذا مـا أصـاب ذلك الإنسـان الموصـوف ، فـالطيب هو الذى يتطيَّب ، كـمـا أن الماء هو الذى يُغْسَل إذا مـا لمس هذا الإنسان ، وكذلك تأبى المرأة الجميلة أن تُزيِّن نَحْرَها [١] بقلادة [٢] ؛ لأن نحرها بدون قلادة يكون أكثر جمالاً .

ويقال عن مثل هذه المرأة «غانية» ؛ لأنها استغنتْ بجمالها .

ويقال عن جمال نساء الحضر : إنه جمال مصنوع بمساحيق ، وكأن تلك المساحيق مثبتة على الوجه بمعجون كمعجون دهانات الحوائط ، وكأن كل واحدة تفعل ذلك قد جاءت بسكين من سكاكين المعجون لتملأ الشقوق المجعدة فى وجهها .

ولحظة أن يسيح هذا المعجون ترتبك ، ويختل مشهد وجهها بخليط الألوان ؛ ولذلك يقال :

حُسْنُ الحضَارةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ وفى البدَاوةِ حُسْنٌ غيرُ مَجْلوبِ

إذن : فالزينة هى تحسين الشىء بغيره ، والشىء الحسن يستغنى عن الزينة .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ [٣] (١٥) ﴾ [هود]

أى : إن كفرتم بالله فهو سبحانه لا يضن عليكم فى أن يعطيكم مقومات

(١) النَّحْر : أعلى الصدر ، وهو موضع القلادة .

(٢) القلادة : كل ما يوضع حول الرقبة من عقود وحَلْى وذهب وغيره ، وسُمِّيت الأضاحى قلائد مجازاً مرسلاً علاقته الملازمة ؛ لأن الذبائح كانت تُعلَّم بقلادات فى أعناقها . قال تعالى : ﴿ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ .. (٢) ﴾ [المائدة] . أى : الأضاحى ذوات القلائد .

(٣) البَخْسُ : الإنقاص . وبَخَسَه حقَّه بخسًا : نقصه حقَّه ولم يُوفِّه . قال تعالى : ﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ..(٨٥) ﴾ [الأعراف] [القاموس القويم] .

الحياة وزينتها؛ لأنه رب ، وهو الذى خلقكم واستدعاكم إلى الوجود ، وقد ألزم الحق سبحانه نفسه أن يعطيكم ما تريدون من مقومات الحياة وزينتها ؛ لأنه سبحانه هو القادر على أن يوفِّى بما وعد.

وهو سبحانه يقول هنا:

﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ .. ⑮ ﴾ [هود]

أى: أنهم إن أخذوا بالأسباب فالحق سبحانه يُلزم نفسه بإعطاء الشىء كاملاً غير منقوص.

وهم فى هذه الدار الدنيا لا يُبْخَسون فى حقوقهم ، فمن يتقن عمله يأخذ ثمرة عمله.

وهذا القول الكريم يحُلُّ لنا إشكالاً كبيراً نعانى منه ، فهناك مَنْ يقول : إن هؤلاء المسلمين الذين يقولون : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ويقيمون الصلاة ، ويبنون المساجد ، بينما هُمْ قومٌ متخلّفون ومتأخّرون عن رَكْب الحضارة ، بينما نجد الكافرين وهم يَرْفُلُون[1] فى نعيم الحَضَارة .

ونقول : إن لله تعالى عطاءَ ربوبية للأسباب ، فمن أحسنَ الأسباب حتى لو كان كافراً ، فالأسباب تعطيه ، ولكن ليس له فى الآخرة من نصيب ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا[2] ㉓ ﴾ [الفرقان]

والحق سبحانه يجزى الكافر الذى يعطى خيراً للناس بخير فى الدنيا ، ويجزى الصادق الذى لا يكذب من الكفار بصدق الآخرين معه فى الدنيا ، ويجزى من يمدُّ يده بالمساعدة من الكفار بمساعدة له فى الدنيا .

---

(١) رفل : جَرَّ ذيل ثوبه وتبختر فى مَشْيه . ويرفلون فى النعيم : أى : يعيشون فى رفاهية فرحين بما لديهم من نعيم . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٢) الهباء المنثور : الغبار المتطاير فى الجو . وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا .. ㉓ ﴾ [الفرقان] أى : كل عمل عملوه كالهباء المنثور ، لا يُعتدُّ به ، ولا قيمة له . [القاموس القويم] .

وكلها أعمال مطلوبة فى الدِّين ، ولكنَّ الكافر قد يفعلها ، فيردُّ الله سبحانه وتعالى له ما فعل فى الدنيا ، وإنْ كان قد فعل ذلك ليُقَال : إن فلانًا عَمِلَ كذا ، أو فلانًا كان شَهْمًا فى كذا ، فيُقَال له : « عملْتَ ليُقَال وقد قيل »[1] .

وإذا كان الكافرون يأخذون بالأسباب ؛ فالحق سبحانه يعطيهم ثمرة ما أخذوا به من الأسباب .

ويجب أن نقول لمن يتهم المسلمين بالتخلُّف :

لقد كان المسلمون فى أوائل عهدهم متقدمين ، وكانوا سادة حين طبَّقوا دينهم ، ظاهرًا وباطنًا ، شكلاً ومضموناً .

وعلى ذلك فالتخلُّف ليس لازمًا ولا ملازمًا للإسلام ، وإنما جاء التخلُّف لأننا تركنا روح الإسلام وتطبيقه .

وإنْ عقدنا مقارنة بين حال أوربا حينما كانت الكنيسة هى المسيطرة ، كنا نجد كل صاحب نشاط عقلى مُبْدِع ينال القتل عقوبة على الإبداع ، وكانت تسمى تلك الأيام فى أوربا « العصور المظلمة » .

وحينما جاءت الحروب الصليبية وعرفت أوربا قوة الإسلام

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها . قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن ، فأتى به ، فعرَّفه نعمه فعرفها . قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : تعلمت القرآن وعلَّمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت . ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء ، فقد قيل ، ثم أمِر به فسُحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد . فقد قيل ، ثم أمِر به فسُحب على وجهه ثم ألقى فى النار . [أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) كتاب الإمارة] .

والمسلمين ، ودحرهم [١] المسلمون ، بدأوا فى محاولة الخروج على سلطان البابا والكنيسة ، وعندما فعلوا ذلك تَقَدَّموا .

هم - إذن - عندما تركوا سلطان البابا تقدموا ، ونحن حين تركنا العمل بتعاليم الإسلام تخلَّفنا .

إذن : فأىُّ الجَرْعَتَيْن خير ؟

إن واقع الحياة قد أثبت تقدُّم المسلمين حين أخذوا بتعاليم الإسلام ، وتخلفوا حين تركوها .

وهكذا . . فمعيار التقدُّم هو الأخْذ بالأسباب ، فمن أخذ بالأسباب وهو مؤمن نال حُسْن خير الدنيا وحُسْن ثواب الآخرة ، ومَنْ لم يؤمن وأخذ بالأسباب نال خير الدنيا ولم يَنَلْ ثواب الآخرة .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ [٢] بِقِيعَةٍ [٣] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ . . (٣٩) ﴾ [النور]

---

(١) دَحَرَهُ يَدْحَرُهُ دَحْراً ودُحوراً : دفعه وطرده وأبعده مُهانًا . ودحره فى الحرب : هزمه . قال تعالى : ﴿ . . وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) ﴾ [الصافات] [القاموس القويم] .

(٢) السراب : ما تراه فى نصف النهار فى الأرض الفضاء كأنه ماء وليس بماء . ويقول الله تعالى : ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) ﴾ [النبأ] أى : صارت لا حقيقة لها ، أى : تشبه السراب فى أنها لا حقيقة لها ، أو كالأرض المسطوحة التى يظهر فيها السراب . [القاموس القويم] .

(٣) القاع والقيعة : ما استوى من الأرض وانخفض عما يحيط به من الجبال والأكمات . قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) ﴾ [طه]

قاعاً صفصفاً : مكاناً منخفضاً مستوياً معتدلاً ، لا ارتفاع فيه ولا اعوجاج . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ . . (٣٩) ﴾ [النور] أى : بمكان منخفض مُسْتوٍ مما يظهر فيه السراب عادة . [القاموس القويم] .

وهكذا يُفاجأ بالإله الذى كذَّب به .

والحق سبحانه يقول :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ [1] لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

إذنْ : فمن أراد الدنيا وزينتها ، فالحق الأعلى سبحانه يوفِّيه حسابه ولا يبخسه من حقه شيئًا ، فحاتم الطائى - على سبيل المثال - أخذ صفة الكرم ، وعنترة أخذ صفة الشجاعة ، وكل إنسان أحسن عملاً أخذ أجره ، ولكن عطاء الآخرة هو لمن عمل عمله لوجه الله تعالى ، وآمن به .

وحتى الذين دخلوا الإسلام نفاقًا وحاربوا مع المسلمين ، أخذوا نصيبهم من الغنائم ، ولكن ليس لهم فى الآخرة من نصيب .

إذن : فالوفاء يعنى وجود عَقْد ، وما دام هناك عقد بين العامل والعمل ، وأتقن العاملُ العملَ فلا بد أن يأخذ أجره دون بَخْس ؛ لأن البَخْسَ هو إنقاصُ الحق .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ [2] مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٦) ﴾

---

(١) عصفت الريح ، تعصف عَصْفًا وعُصوفاً : اشتد هبوبها ، والريح عاصف وعاصفة فهى تُذكَّر وتُؤنَّث ، والريح العاصفة أحياناً تدمِّر كل شيء تمر عليه . قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً .. (٨١) ﴾ [الأنبياء] وقال تعالى : ﴿ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ .. (٢٢) ﴾ [يونس] وقال تعالى : ﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) ﴾ [المرسلات] هى الرياح الشديدة . [القاموس القويم] .

(٢) حبط العمل : بطل ولم يحقق ثمرته . وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ .. (٥) ﴾ [المائدة] ، وأحبط الله عمله : أبطله وضيَّعه هباءً . قال تعالى : ﴿ .. فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) ﴾ [محمد] [القاموس القويم] .

إذن : فالنار مثوى هؤلاء الذين عملوا من أجل الدنيا دون إيمان بالله ، فقد أخذوا حسابهم فى الدنيا ، أما عملهم فقد حبط فى الآخرة ، والحَبَط هو انتفاخ الماشية حين تأكل شيئًا أخضر لم ينضج بعد ، ويقال فى الريف عن ذلك : « انتفخت البهيمة » أى : أن هناك غازات فى بطنها ، وقد يظنها الجاهل سِمْنةً ، لكن هذا الانتفاخ يزول بزوال سببه .

وعمل الكافرين إنما يحبط فى الآخرة ؛ لأنه باطل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ[1] مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

والبيِّنة[2] هى بصيرة الفطرة السليمة التى تُلْفت الإنسان إلى وجود واجب الوجود ، وتوضِّح للإنسان أن هذا الكون الجمَيل البديع لا بُدَّ له من واجد.

وهكذا تكون الهداية بالبصيرة والفطرة .

---

(١) المرية : الجدل والشك وكذلك التمارى والامتراء والمراء والمماراة . قال تعالى : ﴿ فلا تُمارِ فيهمْ إلاَّ مراءً ظاهراً .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الكهف] ، وقال تعالى : ﴿ فلا تكُوننَّ من المُمتَرين ﴿١٤٧﴾ ﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿ فبأيِّ آلاء ربِّكَ تتمارىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النجم] [القاموس القويم] بتصرف .

(٢) بان الشيء يبين بياناً : ظهر واتضح ، فهو بيِّنٌ وهى بيِّنةٌ أى : ظاهر ، وظاهرة . ويستعمل البيِّن والبيِّنة بمعنى المُظهر والمُظهرة ، والموضِّح والموضِّحة . قال تعالى : ﴿ كم آتيناهم منْ آية بيِّنة .. ﴿٢١١﴾ ﴾ [البقرة] أى : واضحة لا شك فيها ، أو هى مُبيِّنة للحق مُؤيِّدة له ، مُظْهرة لأمره ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ لولا يأتون عليْهم بسُلْطان بيِّن .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الكهف] أى: ظاهر واضح أو مُوضح مُظهر للحق [القاموس القويم].

والعربى القديم حين سار فى الصحراء ووجد بَعْراً مُلْقًى فى الصحراء ، ورأى أثر قدم ، فقال : «البَعْرة [١] تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، وسماء ذات أبراج [٢] وأرض ذات فجاج [٣] وبحار ذات أمواج ، أفلا يدل كُلٌّ ذلك على اللطيف الخبير ؟ » [٤] .

وهكذا اهتدى الرجل بالفطرة ، وهى بيِّنة من الله .

وقد أودع الله سبحانه فى كل إنسان فطرة ، وبهذه الفطرة [٥] شهدنا فى عالم الذَّرِّ .

وفى ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

إذن : فالبيِّنة هى إيمان الفطرة المركوز فى ذرات الأشياء .

وقد تُضبِّب [٦] الشهوات هذا الإيمان ، فلا يحمل نفسه على المنهج فيرسل الحق سبحانه رحمة منه رسلاً تذكِّرنا بالبينات الأولى ، وتدلنا على العلل

(١) البعرة : واحدة البعر ، وهو رجيع (روث) ذوات الخُفِّ والظلف من الحيوانات .

(٢) الأبراج : جمع بُرْج ، وهى منازل الأفلاك فى السماء أو هى الكواكب . وقيل : هى النجوم . [لسان العرب . مادة : برج] .

(٣) الفجاج : جمع فج . وهو الطريق الواسع بين جبلين . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) ﴾ [نوح] . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) ﴾ [الأنبياء] .

(٤) هذه العبارات من خطبة خطبها قُسٌّ بن ساعدة الإيادى فى الجاهلية . كان أولها : أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ماهو آت آت . انظر البيان والتبيين للجاحظ (١/ ٣٠٨) .

(٥) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٣٣) والطيالسى (٢٤٣٣) ، والترمذى (٢١٣٨) .

(٦) الضَّب والتضبيب : تغطية الشىء ودخول بعضه فى بعض . والضبابة : سحابة تُغشِّى الأرض كالدخان وقيل : الضباب والضبابة : ندىً كالغبار يُغشِّى الأرض بالغدوات [لسان العرب - مادة : ضبب] .

والأحكام حتى تنضمَّ البينة من الرسل على البينة من الفطرية فى الكائن .

وهكذا يبيِّن الحق سبحانه وتعالى مناط[١] الاقتناع بدين الله ، فقد يكون هذا الأمر مجهولاً للخلق ، فيريد سبحانه أن يبيِّن لنا أن هذا الجهل هو جهل غير طبيعى ؛ لأن الفطرة السليمة تهتدى قبل أن يجىء رسولٌ يُلْفتنا إلى القوة العليا التى تدبِّر حركة هذا الكون .

وقد ضربت من قبل مثلاً لذلك بمن سقطتْ به طائرة فى الصحراء ، لا ماء فيها ولا طعام ولا أنيس ولا مأوى ، ثم غلبه النوم فنام ، وحين استيقظ وجد مائدة منصوبة عليها أطايب الطعام وأطيب الشراب ، ووجد صواناً[٢] منصوباً ليأوى إليه ؛ فلا بد لهذا الإنسان أن يدور بفكره سؤالٌ : من صنع هذا ؟

وهو سيسأل نفسه هذا السؤال قبل أن يستمتع بشىء من هذا ، خصوصاً وأنه لم يجد أحداً يقول له : أنت فى ضيافتى .

إذنْ : فلا بد أن يفكر بعقله .

وكذلك الإنسان الذى طرأ على الوجود ، وما ادَّعى واحدٌ من خَلْق الله تعالى أنه خلق هذا الوجود ، وما ادَّعى أحدٌ أنه خلق السموات والأرض ، وما ادَّعى أحدٌ أنه سخَّر كلَّ ما فى الكون لخدمة الإنسان[٣] .

وكان من الواجب على الإنسان قبل أن ينعم بهذا ، أن يفكر : من الذى صنع له كل ذلك ؟ فإذا جاء رسول من جنس الإنسان ليقول له : أنا جئت لأحل لك اللغز المطلوب لك .

---

(١) مناط الشىء : كل ماتعلَّق به من أمور . ونيطَ به الشىء : وُصِلَ به . [اللسان : مادة (ن و ط) بتصرف]

(٢) الصوان : الوعاء الذى تُصان فيه الثياب ، أو توضع فيه الأطعمة . انظر [اللسان - مادة صون] .

(٣) يقول تعالى فى سورة النحل : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النحل] .

هنا كان على الإنسان أن يرهف سمعه لذلك الرسول ؛ لأنه قد جاء ليحلَّ للإنسان أمراً يشغل باله .

ومن لطف الله سبحانه بنا أنه لم يطلب منا مقدَّماً أن نفكر فى ذلك ، بل تركنا فترة طويلة بلا تكليف فى هذه الدنيا ، لينعم الإنسان بخير ربه ، وبعد ذلك إذا ما جاء اكتمال الرشد ونضج ، ولم يكن مكرهاً ؛ فالحق سبحانه وتعالى يكلفه بتكاليف الإيمان .

ولا بد للإنسان أن يتساءل : فكل شىء - مهما كان تافهاً - لا بد له من صانع ، والمصباح الذى يضىء دائرة قطرها ٢٠ متراً ، عرفنا صانعه ، ودرسنا المعامل التى أنجزته ، والإمكانات التى تم استخدامها ، والمواد التى صنع منها ، أفلا نعرف تاريخ هذه الشمس ، ومن جعلها لا تحتاج إلى صيانة ولا إلى وقود ولا إلى قطع غيار ، وتنير نصف الكرة الأرضية ؟

هذه مسألة كان يجب أن نبحثها ؛ لنرى آفاق تلك البينة ، بينة نور وقوة وفطرة ، يهبها الله للإنسان المفكر ؛ ليهتدى إلى أن وراء هذا الكون خالقاً مدبراً .

فإذا ما جاء إنسان مثله ليقول له : إن خالق الدنيا هو الله تعالى ، وهو سبحانه يطلب منك كذا وكذا ، كان أمراً منطقياً وطبيعياً أن نسمع لهذا الإنسان ونطابق ما يقول على إحساس الفطرة ورؤية البينات .

إذن : فنحن نصل إلى المجهول أولاً بالفطرة ، وقد نصل بالبديهة التى لا تشوبها[1] أدنى شبهة ، فأنت حين ترى دخاناً تعتقد بالبديهة أن هناك ناراً ، وحين تسير فى الصحراء وترى خضرة ؛ ألا تعتقد أن هناك مياهاً ترويها ؟

---

(١) أى : لا تختلط به شبهة ، أى : الفكر البعيد عن الأهواء .

والشوب : ما اختلط بغيره من الأشياء ، وبخاصة السوائل ، قال تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الصافات] . ويقال : سقاه الذوب بالشوب : العسل بما يشاب به من ماء أو لبن . [المعجم الوسيط] .

هذه - إذن - أمور تعرفها بالبديهة ، ولا تحتاج إلى بحث أو جهد.

وهناك أمور قد تتطلب منك جهداً عقلياً تبحث به عما بعد المقدمات ، مثل الجهد العقلي الذى استدل به العربى على أن هناك إلهاً خالقاً يُدير هذا الكون ، فاستدل من البعرة على وجود البعير [1] ، وأن أثر القدم يدل على المسير ، واستنتج من ذلك أن الكواكب ذات الأبراج ، والأرض ذات الفجاج ، والبحار ذات الأمواج ، كلها أمور تدل على وجود اللطيف الخبير.

كل هذه الأمور لم يقدر العقل إلا على الحكم عليها جملة ، وإن لم يعرف التفصيل.

لقد عرف العقل أن وراء هذا الكون خالقاً، صانعاً ، حكيماً، لكنه لم يعرف اسماً له ، وهذا أمر لا يعرفه الإنسان بالعقل ، ولا يعرف أيضاً ما هو المنهج المطلوب لهذا الخالق، وبماذا يجزى المطيع له، ولا بماذا يعاقب العاصى له.

إذن : لا بد من بلاغ عن الله تعالى يدل على القوة التى اقتنعت بها جملة.

والمفكرون بالعقل فى الكون يعلمون أن وراء هذا الكون خالقاً ، لكن لا يعرفون اسمه ، ولا مطلوبه.

إذن : فأنت لا تعرف اسم الله إلا منه ، عن طريق الوحى إلى رسوله ، ولا تعرف مطلوب الله إلا من الرسول الذى أنزل عليه البلاغ.

ومن رحمة الله بالإنسان أنه سبحانه قد أرسل رسولاً ، ومع هذا الرسول معجزة هى القرآن ؛ لأن العقل حتى حين يهتدى إلى قوة القادر الأعلى سبحانه ، فإنها ستظل بالنسبة له مبهمة ، وحين أنزل الحق سبحانه القرآن الكريم فقد أنزله رحمة بعباده وبينة لهم.

---

(١) البعرة : رجيع (روث) ذوات الخف وذوات الظلف من الحيوانات. والبعير : ما صلح للركوب والحمل من الإبل ، وذلك إذا استكمل أربع سنوات. ويقال للجمل والناقة : بعير. والجمع : أباعر ، وأباعير ، وبعران. [المعجم الوسيط].

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ (١) .. ﴿١٧﴾ ﴾ [هود]

فالقرآن حجة ونور ، وهو يهدى البصيرة الفطرية الموجودة فى الإنسان ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ .. ﴿١٧﴾ ﴾ وهو من أنزل عليه الوحى ، ويخبرنا عن الحق سبحانه وتعالى ما يوضح لنا أن الخالق الأعلى والقوة المطلقة هو الله سبحانه ، ويوضح لنا الشاهد مطلوب الله تعالى.

ونحن هنا أمام ثلاثة شهود:

الشاهد الأول: هو الحجة والبينة.

والشاهد الثانى: هو البرهان والبصيرة التى يهتدى إليها العقل ، والرسول هو من يبين لنا المنهج بعد الإجمال.

وهذا الرسول جاء من قبله كتاب موسى :

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً .. ﴿١٧﴾ ﴾ [هود]

وهذا هو **الشاهد الثالث.**

ومن لا يلتفت إلى المدلول بالأدلة الثلاثة مقصِّر ؛ فمن عنده تلك البينة ، ومن سمع الشاهد من الرسول ، والشاهد الذى قبله ،وهو كتاب موسى

---

(١) فى تأويل هذا الشاهد أقوال كثيرة ذكرها القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٣٤).
١- أنه محمد ﷺ.
٢- أنه جبريل عليه السلام.
٣- أنه على بن أبى طالب.
٤- القرآن فى نظمه وبلاغته ، والمعانى الكثيرة منه فى اللفظ الواحد.
٥- الإنجيل. فهو يتلو القرآن فى التصديق وإن كان قبله.
٦- العقل الذى يتلو معرفة الله التى أشرقت لها القلوب.
قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٤٠) بعد أن ذكر الأقوال الثلاثة الأولى: «الأول والثانى هو الحق، وكلاهما قريب فى المعنى؛ لأن كلاً من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغ رسالة الله تعالى، فجبريل إلى محمد ومحمد إلى الأمة، وقيل: هو على ، وهو ضعيف لا يثبت له قائل. المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة ، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة ، والفطرة تصدقها وتؤمن بها».

عليه السلام وشاهد [١] بعده إلى نفس قوم موسى لا بد أن يقوده ذلك إلى الإيمان.

وقول الحق سبحانه:

﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ .. ⑰ ﴾ [هود]

إشارة إلى من التفتوا إلى الأدلة: بينة، وشاهداً، وشاهداً من قبله.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ [٢] فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ..⑰ ﴾ [هود]

والكفر - كما علمنا - هو الستر، والكفر في ذاته دليل على الإيمان، فلا يكفر أحد بغير موجود.

فوجود المكفور به سابق على الكفر، والكفر طارئ عليه.

إذن: فالكفر طارئ على الإيمان؛ لأن الإيمان هو أصل الفطرة.

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ [٣] مَوْعِدُهُ ..⑰ ﴾ [هود]

وكلمة «أحزاب» جمع حزب. والحزب هو الجماعة الملتقية على مبدأ تتحمس لتنفيذه، مثل الأحزاب التي نراها في الحياة السياسية، وهي

---

(١) المقصود به هنا الإنجيل الذي أرسل به عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل.

(٢) الأحزاب: جمع حزب. وهو الجماعة من الناس اجتمعوا على أمر واحد سواء أكان خيراً أو شراً.
يقول تعالى عن حزب الخير: ﴿ .. أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ㉒ ﴾ [المجادلة].
وقال تعالى عن حزب الشر: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ⑲ ﴾ [المجادلة].
والمقصود بالأحزاب هنا أهل الملل كلها من غير ملة الإسلام. قاله القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٣٥).

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار». أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - حديث (٢٤٠).

أحزاب بشرية تتصارع فى المناهج والغايات ، وهم أحرار فى ذلك ؛ لأنهم يتصارعون بفكر البشر.

أما فى العقيدة الأولى ، فَمنَ المُخطِّط الأعلى ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، فالمنهج يأتى منه ؛ لأن هذا المنهج يوصل إليه ؛ لذلك قال الله سبحانه عمَّن يتبعون منهجه :

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ..(٢٢)﴾ [المجادلة]

أى : أنهم يدخلون فى حزب يختلف عن أحزاب البشر التى تختلف أو تتفق فى فكر البشر.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ..(١٧)﴾ [هود]

والمقصود بهم كفار قريش عبدة الأوثان ، والصابئة [1] واليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا برسالة رسول الله ﷺ ، وكل منهم جماعة تمثل حزباً ، ويقول عنهم الحق سبحانه :

﴿..كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣)﴾ [المؤمنون]

ومن يكفر من هؤلاء برسالة رسول الله وبرسول الله فالجزاء هو النار ، وبذلك بيَّن لنا الحق سبحانه أن هناك حزبين : حزب الله ، والأحزاب الأخرى ، وهما فريقان كلّ منهما مواجه للآخر.

ويقول الحق سبحانه لرسوله ، والمراد أيضاً أمة محمد ﷺ :

---

(١) الصابئون : يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام. وقيل : هم عبَّاد الملائكة ، أو عبَّاد الكواكب والنجوم ، أو عبَّاد النار. قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ .. (٦٢)﴾ [البقرة] فهم غير اليهود والنصارى [انظر : القاموس القويم ١/ ٣٦٥].

﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ [1] مِّنْهُ .. (١٧)﴾ [هود]

أي: لا تكن يا رسول الله في شك من ذلك؛ لأن رسالتك وبعثتك تقوم على أدلة البينة والفطرة والهدى والنور المطلوب من الله تعالى، والشاهد معك، كما شهد لك من جاء من قبلك أنك جئت بالمنهج الحق:

﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ..(١٧)﴾ [هود]

والحق - كما علمنا من قبل - هو الشيء الثابت الذي لا يعتريه تغيير، وهذا الحق لا يمكن أن يأتي إلا من إله لا تتغير أفعاله.

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿..وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١٧)﴾ [هود]

وهؤلاء لا يؤمنون عناداً؛ لأن الأدلة منصوبة بأقوى الحجج، ومَنْ يمتنع عليها هو مجرد معاند.

والحق سبحانه يقول في مثل هؤلاء المعاندين:

﴿وَجَحَدُوا [2] بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا [3] أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ..(١٤)﴾ [النمل]

أي: أنهم مع كفرهم يعلمون صدق الأدلة على رسالة رسول الله ﷺ، وعلى صدق بعثته، فيكون كفرهم حينئذ كفر عناد؛ لأن الأدلة منصوبة بأقوى الحجج، فيكون من يمتنع على الإيمان بهذه الأدلة إنساناً معانداً.

---

(١) مرية: الجدل والشك. وهناك قراءة بضم الميم. [القاموس القويم].

(٢) جحد الحق يجحده جحوداً: أنكره وهو يعلمه. وجحد النعمة: أنكرها ولم يشكرها. وجحد بالآية: كفر بها.
وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ..(٥٩)﴾ [هود] [القاموس القويم].

(٣) استيقن الأمر واستيقن به: مثل أيقنه وأيقن به، من اليقين وهو الشيء الثابت الواضح الذي لا شك فيه. واستيقنتها أنفسهم: أي: علمتها نفوسهم علماً واضحاً. [القاموس القويم].

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ[1] عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ[2] هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

هذه الآية تبدأ بخبر مؤكد فى صيغة استفهام ، حتى يأتى الإقرار من هؤلاء الذين افتروا على الله كذباً ، والإقرار سيد الأدلة.

والواحد من هؤلاء المفترين إذا سمع السؤال وأدار ذهنه فى الظالمين ، فلن يجد ظلماً أفدح ولا أسوأ من الذى يفترى على الله كذباً ، ويقر بذلك.

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يأتى هذا الخبر فى صيغة استفهام ، ليأتى الإقرار اعترافاً بهذا الظلم الفظيع.

وهؤلاء المكذبون يُعرَضون على الله مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [هود]

والعرض إظهار الشىء الخفى لنقف على حاله.

ومثال ذلك فى حياتنا: هو الاستعراض العسكرى حتى يبيِّن الجيش قوته أمام الخصوم ، وحتى تُبلغ الدولة غيرها من الدول بحجم قوتها.

---

(١) افترى القول: اختلقه واخترعه. وافترى عليه الكذب: اخترعه. ويقول تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس] أى: اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه.

(٢) الأشهاد: أى: الشهداء بالحق، وأشهاد: جمع شهيد، مثل أيتام جمع يتيم، والشهيد صفة مشبهة. [القاموس القويم]. وفى تعيين الأشهاد فى هذه الآية أقوال: الملائكة الحفظة - الأنبياء والرسل. وقال قتادة: الخلائق أجمع. قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٣٦).

وكذلك نجد الضابط يستعرض فرقته ليقف على حال أفرادها ، ويقيس درجة انضباط كل فرد فيها وحسن هندامه ، وقدرة الجنود على طاعة الأوامر .

ومثال آخر من حياتنا : فنحن نجد مدير المدرسة يستعرض تلاميذها لحظة إعلان نتائج الامتحان ، ويرى المدير والتلاميذ خزى المقصر منهم أو الذى لم يؤد واجبه بالتمام .

فما بالنا بالعرض على الله تعالى ، حين يرى المكذبون حالهم من الخزى ؟

ذلك أنهم سيفاجأون بوجود الله الذى أنكروه افتراءً ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ [1] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

فأىُّ خزى - إذن - سيشعرون به ؟ !

ويُظهر الحق سبحانه وتعالى ما كان مخفيًّا منهم حين يعرض الكل على الله تعالى مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا .. (٤٨) ﴾ [الكهف]

وكذلك يُعرضون على النار ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا [2] .. (٤٦) ﴾ [غافر]

---

(١) السراب : ما يُرى فى نصف النهار على الأرض الفضاء كأنه ماء ، وليس بماء . وهو ظاهرة متعلقة بخداع البصر . والقيعة : الأرض المستوية المنخفضة عما يحيط بها من مرتفعات وكذلك «القاع» . يقول تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) ﴾ [طه] [القاموس القويم] . والأرض الصفصف هى الأرض المستوية الملساء ، أى : إن الجبال تزول فلا يكون لها أثر ، ولا ترى فى مكانها ارتفاعاً ولا هبوطاً ولا عوجاً .

(٢) الغدو : الدخول فى أول النهار . والعشى : آخر النهار . وهذه الآية قيلت فى حق فرعون وآله . وتمامها : ﴿ .. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ [غافر] وهذه الآية أصل فى إثبات عذاب القبر عند أهل السنة . انظر : [تفسير ابن كثير ٤/ ٨١] .

وهكذا يظهر الخزى والخجل والمهانة على هؤلاء الذين افتروا على الله تعالى .

وهو سبحانه يعلم كل شىء أزلاً ، ولكنه سبحانه شاء بذلك أن يكشف الناس أمام بعضهم البعض ، وأمام أنفسهم ، حتى إذا ما رأى إنسان فى الجنة إنساناً فى النار ، فلا يستثير هذا المشهد شفقة المؤمن ؛ لأنه يعلم أن جزاء المفترى هو النار .

ويا ليت الأمر يقتصر على هذا الخزى ، بل هناك شهادة الأشهاد ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول فى نفس الآية :

﴿ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ .. (١٨) ﴾ [هود]

والأشهاد جمع له مفرد ، هو مرة «شاهد» ، مثل «صاحب» و«أصحاب» ، ومرة يكون المفرد «شهيد» مثل «شريف» و«أشراف» .

والأشهاد منهم الملائكة ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ مَا يَلْفِظُ [1] مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ [2] (١٨) ﴾ [ق]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ [3] (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) ﴾ [الانفطار]

---

(١) اللفظ : إخراج الشىء من الفم . والمراد به : التكلم . واللفظ : الرمى والإلقاء عامة . ومنه حديث ابن عمر أنه سئل عما لفظ البحر فنهى عنه . أراد ما يلقيه البحر من السمك إلى جانبه من غير اصطياد . [اللسان : مادة لفظ] .

(٢) الرقيب العتيد : الحاضر المستعد لإثبات ما يتكلم به الإنسان فى كتاب الحسنات والسيئات . [القاموس القويم] .

(٣) الحافظون : أى : الملائكة الرقباء والمحافظون عليكم . يقول تعالى : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) ﴾ [الطارق] أى : ملك حافظ لها رقيب عليها . ويقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً .. (٦١) ﴾ [الأنعام] أى : ملائكة يحفظونكم ويراقبون أعمالكم . [القاموس القويم] .

أو شهود من الأنبياء الذين بلغوهم منهج الله ؛ لأن الحق سبحانه يقول:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا [1] (٤١) ﴾ [النساء]

وأيضاً الشهيد على هؤلاء هو المؤمن من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، فيبلِّغها إلى غيره ، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

وكلمة «الشهادة» تعنى: تسجيل ما فعلوا ، وتسجل أيضاً أنهم بُلِّغوا المنهج وعاندوه وخرجوا عليه ، فارتكبوا الجريمة التى تقتضى العقاب ، لأن العقوبة لا تكون إلا بجريمة ، ولا تجريم إلا بنص ، ولا نص إلا بإعلام.

ولذلك نجد القوانين التى تصدر من الدولة تحمل دائماً عبارة «يُعمل بالقانون من تاريخ نشره فى الجريدة الرسمية».

إذن: فعمل الأشهاد أن يعلنوا أن الذين أنكروا الرسالة والرسول قد بُلِّغوا المنهج ، وبُلِّغوا أن إنكار هذا المنهج وإنكار هذا الرسول هو الجريمة الكبرى ، وأن عقوبة هذا الإنكار هى الخلود فى النار.

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو العدل نفسه ؛ لذلك فلا عقاب إلا بالتأكد من وقوع الجريمة ، لذلك لا بد من شهادات متعددة ، ولذلك يأتى الشاهد

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال: قال لى رسول الله ﷺ: اقرأ عليَّ القرآن. قال: فقلت يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل. قال: إنى أشتهى أن أسمعه من غيرى، فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) ﴾ [النساء] . رفعت رأسى أو غمزنى رجل إلى جنبى، فرفعت رأسى فرأيت دموعه تسيل . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٠٠) والبخارى فى صحيحه (٥٠٥٥).

من الملائكة ، وهو من جنس غير جنس المعروضين ، ويأتى الشاهد من الأنبياء وهو من جنس البشر إلا أنه معصوم.

وكذلك يأتى الشاهد من الإخوة المؤمنين الذين يشهدون أنهم قد بُلِّغوا منهج الإيمان ، ثم تأتى شهادة هى سيدة الشهادات كلها ، وهى شهادة الأبعاض على الكل.

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ [1] (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾ [فصلت]

فالجوارح تنطق لتقيم الحجة على أولئك المذنبين.

وسؤال المذنبين عن كيفية وقوع النطق لا لزوم له ؛ لذلك نجد السؤال هنا «لِمَ» ؛ لأن الجوارح كانت هى أدوات المذنبين فى ارتكاب الجرائم ؛ لأن اليَد هى التى امتدت لتسرق ، واللسان هو الذى نطق قول الزور ، والقلب هو الذى حقد ، والساق هى التى مشت إلى المعصية.

والإنسان - كما نعلم - مركَّب من جوارح ، وهذه الجوارح لها أجهزة تكوِّن الكل الإنسانى ، ومدير كل الجسم هو العقل ، فهو الذى يأمر اليد لتمتد وتسرق ، أو تمتد لتربت على اليتيم ؛ والعين تأخذ أوامرها من العقل ، فإما أن يأمرها بأن تنظر إلى جمال الكون ، وتعتبر بما تراه من أحداث ، أو يأمرها بأن تنظر إلى الحرام.

(١) يُوزعون : يُمنعون عن التفرق ويُجمعون فى مكان واحد . والوزع : الكف والمنع . يقال : وزعت الجيش إذا حبست أولهم على آخرهم ، فيمتنع عليهم التفرق والانتشار . [انظر : لسان العرب - مادة : وزع].

إذن: الجوارح خادمة مطيعة مُسخَّرة لذلك الإنسان وإرادته ، لكن الأمر يختلف في الآخرة ، حيث لا أمر لأحد إلا الله .

والحق سبحانه القائل :

﴿ .. لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

فالجوارح تقول يوم القيامة لأصحابها: كنا نفعل ما تأمروننا به من المعاصي رغمًا عنا ؛ لأننا كنا مُسخَّرين لكم في الدنيا ، والآن انحلَّتْ إرادتكم عنا فقلنا ما أجبرتمونا على فعله .

وهكذا تعترف الأشهاد ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) ﴾ [هود]

وما داموا قد كذبوا على ربهم ، فالمكذوب عليه هو الله ، ولا بد أن يطردهم من الرحمة ، وهم قد ارتكبوا قمة الظلم وهو الشرك به والإلحاد[١] وإنكار الرسول ﷺ والرسالة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا[٢] وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (١٩) ﴾

---

(١) الملحد: العادل المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه . يقال: قد ألحد في الدين أي: حاد عنه . والإلحاد الظلم في الحرم، وهو أيضاً الشك في الله، والميل عن الإيمان به . [انظر: لسان العرب - مادة لحد] .

(٢) عوج: مال وانحنى ولم يكن معتدلاً . وعاج عوجاً (بفتح العين والواو)، وعوجاً (بكسر العين وفتح الواو) . قال تعالى: ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ..(٢٨) ﴾ [الزمر] أي: قرآناً مستقيماً في مبادئه وأحكامه . وقال تعالى: ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ..(١٩) ﴾ [هود] أي: أن الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله يريدون سبيل الله معوجة . [القاموس القويم] .

وهنا يحدثنا القرآن عن هؤلاء الذين كفروا بالله وآياته ورسوله ﷺ ، ولم يكتفوا بكفرهم ، بل تمادوا وأرادوا أن يصدوا غيرهم عن الإيمان.

وبذلك تعدَّوا في الجريمة ، فبعد أن أجرموا في ذواتهم ؛ أرادوا لغيرهم أن يُجرم.

وسبق أن أنزل الحق سبحانه خطاباً خاصّاً بأهل الكتاب ، الذين سبق لهم الإيمان برسول سابق على رسول الله ﷺ ، ولكن أعماهم الطمع في السلطة الزمنية فطمسوا الآيات المبشرة برسول الله في كتبهم ، وهم بذلك إنما صدُّوا عن سبيل الله ، وأرادوا أن تسير الحياة معوجَّة.

يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) ﴾ [آل عمران]

وقد أرسل الحق سبحانه رسوله ﷺ ليعدل المُعوجَّ من أمور المنهج. والعوج هو عدم الاستقامة والسوائية ، وقد يكون في القيم ، وهي ما قد خفي في المعنويات ، فتقول : أخلاق فلان فيها عوج ، وأمانة فلان فيها عوج.

ويقول الحق سبحانه :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا [1] (١) ﴾ [الكهف]

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الله سبحانه :

﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا .. (١٩) ﴾ [هود]

---

(١) ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ : أي : أنه قرآن مستقيم سليم في أحكامه ومبادئه ولا اعوجاج فيه. [القاموس القويم] بتصرف.

أما فى الأمور المحسة فلا يقال: «عوَج» ، بل يقال: «عَوَج» ، فأنت إذا رأيت شيئاً معوجاً فى الأمور المحسة تقول: عَوَج [1].

لكننا نقرأ فى القرآن قول الحق سبحانه:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا [2] (١٠٦) لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا [3] (١٠٧) ﴾ [طه]

وقد أوردها الحق سبحانه هنا بهذا الشكل لدقة الأداء القرآنى ؛ لأن هناك عوجاً حسياً يحسه الإنسان ، مثلما يسير الإنسان فى الصحراء ؛ فيجد الطريق منبسطاً ثم يرتفع إلى ربوة ثم ينبسط مرة أخرى ، ثم يقف فى الطريق جبل ، ثم ينزل إلى واد ، وأى إنسان يرى مثل هذا الطريق يجد فيه عوجاً.

أما إذا كنت ترى الأرض مبسوطة مسطوحة كالأرض الزراعية ، فقد تظن أنها أرض مستوية ، ولكنها ليست كذلك ؛ بدليل أن الفلاح حين يغمر الأرض بالمياه ، يجد بقعة من الأرض قد غرقت بالماء ، وقطعة أخرى من نفس الأرض لم تمسها المياه ، وبذلك نعرف أن الأرض فيها عوج لحظة أن جاء الماء ، والماء - كما نعلم - هو ميزان كل الأشياء المسطوحة.

---

(١) قال ابن منظور فى اللسان (مادة عوج) : «هو بفتح العين مختص بكل شخص مرئى كالأجسام، وبالكسر بما ليس بمرئى كالرأى والقول، وقيل: الكسر يقال فيهما معاً، والأول أكثر».

(٢) ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ : القاع : الأرض المستوية المنخفضة عما حولها. والصفصف: الأرض الملساء المستوية. أى: أن الجبال تزول، فلا يكون لها أثر. [القاموس القويم].

وذكر ابن كثير فى تفسيره أن الله تعالى يُذهب الجبال عن أماكنها ويمحقها ويُسيرها تسييراً، فيجعلها - أى: الأرض - قاعاً صفصفاً، أى: بساطاً واحداً، والقاع هو المستوى من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى استواء الأرض يومئذ، وقيل: الذى لا نبات فيه والأول أولى وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم ولهذا قال: ﴿لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾ أى: لا ترى فى الأرض يومئذ وادياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً. قاله ابن عباس وعكرمة وآخرون. (ابن كثير ٣/ ١٦٥).

(٣) ﴿لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا (١٠٧)﴾ [طه] أى: أنها ملساء مستوية، لا انحراف فيها يمنة ولا يسرة ، فلا ميل فيها مطلقاً ولا انخفاض فيها ولا ارتفاع. [القاموس القويم].

ولذلك حين نريد أن نحكم استواء جدار أو أرض ، فنحن نأتى بميزان الماء ؛ لأنه يمنع حدوث أى عوج مهما بلغ هذا العوج من اللطف والدقة التى قد لا تراها العين المجردة.

وفى يوم القيامة يأتى أصحاب العوج فى العقيدة ، ويصورهم الحق سبحانه فى قوله :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ [(١)] لَهُ وَخَشَعَت الأَصْوَاتُ [(٢)] لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا (١٠٨) ﴾ [طه]

هم - إذن - يصطفُّون بلا اعوجاج ، كما يصطف المجرمون تبعاً لأوامر من يقودهم إلى السجن ، فى ذلة وصَغَار [(٣)] ولا ينطقون إلا همساً.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) ﴾ [هود]

والسبب فى صَدِّهم عن سبيل الله أنهم يريدون الحال مُعْوجاً ومائلاً ، وأن يُنفِّروا الناس من الإيمان ليضمنوا لأنفسهم السلطة الزمنية ويفسدون فى الأرض ؛ لأن مجىء الإصلاح بالإيمان أمر يزعجهم تماماً ، ويسلب منهم ما ينتفعون به بالفساد.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ ﴾ أى : يوم القيامة الذى يرون فيه هذه الأحوال والأهوال فيستجيبون مسارعين إلى الداعى حيثما أمروا بادروا إليه ، ولو كان هذا فى الدنيا لكان أنفع لهم . وقال قتادة : لا عوج له أى : لا يميلون عنه وخشعت : سكنت . [تفسير ابن كثير : ٣/ ١٦٥].

(٢) خشعت الأصوات : خفتت وهدأت ، كناية عن شدة الرهبة والخوف يوم القيامة . [القاموس القويم - ١/ ١٩٤]

(٣) الصغار (بفتح الصاد المشددة) : الخضوع فى ذل ومهانة . [لسان العرب - مادة : صغر]

﴿أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ(١) فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

والإعجاز هو الامتناع ، وأعجزت فلاناً ، أى : برهنت على أنه ممتنع عن الأمر وغير قادر عليه .

وقد تجلَّى الإعجاز - على سبيل المثال - فى عجز هؤلاء الذين أنكروا أن القرآن معجزة أن يأتى بآية من مثله .

والمعجز فى الأرض هو من لا تقدر عليه .

ويبيِّن لنا الحق سبحانه فى هذه الآية أن هؤلاء الكافرين لا يُعجزون الله فى الأرض ، بدليل أن هناك نماذج من أمم قد سبقت وكفرت ، فمنهم من أخذته الريح ، ومنهم من خسف الله بهم الأرض ، ومنهم من غرق ، وإذا انتقلوا إلى الآخرة فليس لهم ولى أو نصير من دون الله ؛ لأن الولى هو القريب منك ، ولا يقرب منك إلا من تحبه ، ومن ترجو خيره .

فإذا قَرُب منك إنسان له مواهب فوق مواهبك ، نضح عليك من مواهبه ، وإذا كان من يقرب منك قوياً وأنت ضعيف ، ففى قوته سياج لك ، وإن كان غنياً ، فغناه ينضح عليك ، وإن كان عالماً أفادك بعلمه ، وإن كان حليماً أفادك بحلمه لحظة غضبك ، وكل صاحب موهبة تعلو موهبتك وأنت قريب منه ، فسوف يفيدك من موهبته .

---

(١) أعجزه : جعله عاجزاً عن نيله وأفلت منه ، فلم يقدر عليه . قال تعالى : ﴿ .. إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنفال] أى : لا يعجزون الله إدراكهم وتعذيبهم وأخذهم بذنوبهم ، فلن يفلتوا . وقال تعالى : ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [النور] . [القاموس القويم - ٢/ ٧]

والولى هو النصير أيضاً ؛ لأنك أول ما تستصرخ سيأتى لك القريب منك .

وهؤلاء الذين يصدُّون عن سبيل الله لن يجدوا وليّاً ولا نصيراً فى الآخرة - وإن وجدوه فى الدنيا - لأن كل إنسان فى الآخرة سيكون مشغولاً بنفسه :

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ[1] كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج]

ويقول الحق سبحانه :

﴿يَٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ[2] عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. ۝٣٣﴾ [لقمان]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس]

إذن : فهؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله لا يُعجزون الله فى الأرض ، ولا يجدون الولى أو النصير فى الآخرة ، بل :

﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ .. ۝٢٠﴾ [هود]

---

(١) تذهل : تغفل عما ترضعه ، كناية عن شدة الهول والفزع . والذهول عن الشيء : تركه عن عمد أو الغفلة عنه ونسيانه لشغل . [لسان العرب - مادة : ذهل] .

(٢) جاز : اسم فاعل من الفعل جزى . وجزى عنه : قضى الحق نيابة عنه أو كفى بدلاً منه فى أمر . وقال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا .. ۝٤٨﴾ [البقرة] .
أى : لا تغنى ولا تقضى . والمراد بقوله تعالى : ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. ۝٣٣﴾ [لقمان] . أى : أن كلاً منهما غير دافع عن الآخر شيئاً من العذاب [القاموس القويم] بتصرف .

ونحن نفهم الضِّعْفَ على أنه الشيء يصير مرتين ، ونظن أن فى ذلك قوة ، ونقول : لا ؛ لأن الذى يأتى ليسند الشيء الأول ويشفع له ، كان الأول بالنسبة له ضعيف.

إذن: فالمُضَاعفة هى التى تظهر ضعف الشيء الذى يحتاج إلى ما يدعمه.

ومُضَاعفة العذاب أمر منطقى لهؤلاء الذين أرادوا الأمر عوجاً ، وصدوا عن سبيل الله تعالى ، وأرادوا بذلك إضلال غيرهم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ .. (٢٠) ﴾ [هود]

لا يتناقض مع قوله الحق:

﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ [1] .. (١٦٤) ﴾ [الأنعام]

لأن هؤلاء الذين صدوا عن سبيل الله ليس لهم وزر واحد ، بل لهم وزران: وزر الضلال فى ذواتهم ، ووزر الإضلال لغيرهم.

وهناك آية تقول:

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا [2] (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ .. (٦٩) ﴾ [الفرقان]

أى: أن مَنْ يفعل ذلك يَلْقَ مضاعفة للعذاب.. لماذا ؟

---

(١) وزر الشيء يزره وزراً: حمله. ويأتى فى الأحمال الثقيلة ، ويستعار للذنوب. والمراد بقوله تعالى: ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. (١٦٤) ﴾ [الأنعام]. أى : لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى. [القاموس القويم].

(٢) ومن يفعل ذلك يلق أثاماً: أى: أن من يفعل تلك الذنوب والآثام ينل جزاء إثمه ويعاقب عليه. والإثم: فِعْل ما نهى الله تعالى عنه. [القاموس القويم].

لأنه كان أسوة لغيره فى أن يرتكب نفس الجرم.

والحق سبحانه وتعالى لا يريد للذنوب أن تنتشر ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يحض على أن يرى المؤمنون من ارتكب الجُرْم لحظةَ العقاب ، مثلما يقول سبحانه فى الزنا:

﴿ .. وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ [1] مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾ [النور]

وحين يرى المؤمنون وقوع العقوبة على جريمة ما ، ففى ذلك تحذير من ارتكاب الجُرْم ، وحدٌ من وقوع الجرائم.

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يضاعف العذاب لأولئك الذين صَدُّوا عن سبيل الله ، وأرادوا إضلال غيرهم ، فارتكبوا جريمتين:

أولاهما: ضلالهم.

والثانية: إضلالهم لغيرهم.

ولذلك تجد بعضاً من الذين أضلُّوا يقولون يوم القيامة:

﴿ .. رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ ۝٢٩ ﴾ [فصلت]

ويقولون أيضاً:

﴿ .. رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا [2] فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا ۝٦٧ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨ ﴾ [الأحزاب]

---

(١) طائفة: جماعة أو فرقة من الناس. ذهب الإمام مالك إلى أن الطائفة أربعة نفر فصاعداً لأنه لا يكفى شهادة فى الزنا إلا أربعة شهداء فصاعداً. وبه قال الشافعى وقال ربيعة: خمسة. وقال الحسن البصرى: عشرة. انظر [ابن كثير (٣/ ٢٦٢)].

(٢) السادات والكبراء: قال طاوس: السادات هم أشراف القوم وعظماؤهم. والكبراء: هم العلماء. قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥١٩) وعزاه لابن أبى حاتم.

إذن: فالدعوة إلى الانحراف إضلال ، وعمل الشيء بالانحراف إضلال ؛ لأنه أسوة أمام الغير.

ومضاعفة العذاب لا تعنى الإحراق مرة واحدة فى النار ؛ لأن الحق سبحانه لو تركنا للنار لتحرقنا مرة واحدة لانتهى الإيلام ؛ ولذلك أراد الحق سبحانه أن يكون هناك عذاب بعد عذاب.

يقول الحق سبحانه:

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ [1] جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ.. (٥٦) ﴾ [النساء]

فهو عذاب على الدوام.

أو أن العذاب الذى يضاعف له لون آخر ، فهناك عذاب للكفر ، وهناك عذاب للإفساد.

يقول الحق سبحانه:

﴿ .. زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) ﴾ [النحل]

فالعذاب على الكفر لا يلغى العذاب على المعاصى التى يرتكبها الكافر [2].

فإذا كانت الشاة القرناء يُقتصُّ للشاة الجلحاء منها [3] ، أى: أن الشاة التى لها قرون وتنطح الشاة التى لا قرون لها ، فيوم القيامة يتم القصاص

(١) نضج اللحم: لينه وصلاحيته لأن يؤكل. والمراد: احترقت جلودهم.

(٢) لأنه لم يؤمن بالدين الذى يجب أن يؤمن به ، لهذا لم ينجُ من العذاب ، ويعذب أيضاً لمخالفته لمنهج الله إن كان مؤمناً برسول ، أو لم يؤمن بالرسل ولكن كان مخالفاً للفطرة.

(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٨٢) كتاب البر والصلة. والجلحاء: هى الشاة ذهب شعر مقدم رأسها ، وهى هنا بمنزلة الجماء التى لا قرن لها.

منها ، رغم أنه لا حساب للحيوانات ؛ لأنها لا تملك الاختيار ، ولكنها سوف تُستخدم كوسيلة إيضاح لميزان العدالة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ .. يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ[1] وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) ﴾ [هود]

أى : ما كانوا يستطيعون الاستفادة من السمع رغم وجود آلة السمع ، فلم يستمعوا لبلاغ الرسول ﷺ ، ولا استطاعوا الاستفادة من أبصارهم ليروا آيات الله سبحانه وتعالى فى الكون ، فكأنهم صُمٌّ عُمْىٌ ، أو يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع والإبصار .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ[2] .. (٣٨) ﴾ [مريم]

أى : أن سمعهم وأبصارهم ستكون سليمة وجيدة فى الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) ﴾

---

(١) السمع : حس الأذن ، ويطلق على الأذن ، وعلى الآذان ، بلفظه لأنه مصدر . وقال تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ .. (٧) ﴾ [البقرة] أى : ختم على آذانهم فلا تسمع ، والمراد : أنهم يسمعون ولا يفهمون . [القاموس القويم] .

(٢) أسمع بهم وأبصر : فعل تعجب من « سمع » ومن «بصر» أى : ما أدق سمعهم وبصرهم ، وما أعجب شأنهم يوم القيامة ، إذ يرى كل أعماله فى الدنيا ، ويسمع كل ما قاله فى لحظات ليشهد على نفسه . [القاموس القويم] .

إذن : فهم خسروا أنفسهم ؛ لأنهم بظلم النفس وإعطائها شهوة عاجلة زمنها قليل ، أخذوا عذاباً آجلاً زمنه خالد.

وفى هذا ظلم للنفس ، وهذه قمة الخيبة ، وهذا يدل على اختلال الموازين.

وأنت قد تظلم غيرك فتأخذ من عنده بعضاً من الخير لتستفيد به ، وبذلك تظلم الغير لصالح نفسك.

وظلم النفس يعنى أنك تعطيها متعة عاجلة وتغفل عنها عذاباً آجلاً ، والمتعة العاجلة لها مدة محدودة ، أما العذاب فلا مدة تحدده.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. وَضَلَّ[1] عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) ﴾ [هود]

أى : لم يهتد إليهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله ، ولو كان لهؤلاء الذين عبدوهم قوة يوم القيامة ؛ لهرعوا إليهم ليستنقذوهم من العذاب ، ولكنهم بلا حول ولا قوة ؛ لأن الحق سبحانه قد حكم على هؤلاء الكافرين ، وقال :

﴿ .. وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٧٤) ﴾ [التوبة]

وكذلك هؤلاء الآلهة المعبودة من دون الله تعالى ، أو شركاء مع الله ، لا يهتدون إليهم ، حتى بفرض قدرتهم على النصرة ، فتلك الآلهة أو الشركاء لا يهتدون إليهم ، ولا يعرفون لهم مكاناً.

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم .. (٢١) ﴾ [هود]

أى : غاب وتاه عنهم.

---

(١) ضل الكافر : غاب عن الحجة المقنعة ، وعدل عن الطريق المستقيم ولم يعرف الحق.
والضلال : النسيان والضياع ؛ وضل الشيء : خفى وغاب ، فهو فعل لازم.
وضل المسافر الطريق : لم يعرفه فهو مُتعدٍّ [القاموس القويم - بتصرف]

وقوله سبحانه: ﴿ .. مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) ﴾ [هود]

أى: ما كانوا يدَّعونه كذباً.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ لَا جَرَمَ[1] أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) ﴾

واختلف العلماء فى معنى كلمة ﴿لا جَرَمَ﴾، والمعنى العام حين تسمع كلمة ﴿لا جَرَمَ﴾ أى: حق وثابت، أو لا بد من حصول شىء محدد.

وحين يقول الحق سبحانه:

﴿لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ..(٦٢)﴾ [النحل]

أى: حَقٌّ وثبت أن لهم النار؛ نتيجة ما فعلوا من أعمال، وتلك الأعمال مقدمة بين يدى عذابهم، فحين نسمع ﴿لا جَرَمَ﴾ ومعها العمل الذى ارتكبوه، تثق فى أنه يحق على الله - سبحانه - أن يعذبهم.

وقال بعض العلماء[2]: إن معنى: ﴿لا جَرَمَ﴾ حق وثبت.

وقال آخرون[3]: إن معنى ﴿لا جَرَمَ﴾ هو لا بد ولا مفر.

---

(١) لا جرم: لا محالة ولا بد، وتحولت إلى معنى القسم فصارت بمنزلة قولنا: حَقّاً. وهى هنا بمعنى «حقّاً». وقد وردت فى القرآن فى خمسة مواضع:

الأول: سورة هود - آية ٢٢ وهى التى بصدد تفسيرها هنا.

الثانى: ﴿لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)﴾ [النحل].

الثالث: ﴿ .. لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢)﴾ [النحل].

الرابع: ﴿لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩)﴾ [النحل].

الخامس: ﴿لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ .. (٤٣)﴾ [غافر].

(٢) قاله الخليل بن أحمد الفراهيدى، وسيبويه. فـ«لا» و«جرم» عندهما كلمة واحدة، و«أن» عندهما فى موضع رفع. وهذا قول الفراء ومحمد بن يزيد. انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣٣٣٨).

(٣) قال المهدوى: وعن الخليل أيضاً أن معناها لا بد ولا محالة. وهو قول الفراء أيضاً. ذكره الثعلبى. انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣٣٣٨).

والمعنيان ملتقيان لأن انتفاء البُدّية [١] يدل على أنها ثابتة .

وكان يجب على العلماء أن يبحثوا فى مادة الكلمة ، ومادة الكلمة هى «الجرم» ، والجرم : هو القطع [٢] ، ويقال : جرم يده ، أى : قطع يده .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ (٢٢) ﴾ [هود]

أى : لا قَطْع لقول الله فيهم بأن لهم النار ، ولا شىء يحول دون ذلك أبداً ، ولا بد أن ينالوا هذا الوعيد ؛ وهكذا التقى المعنى بـ «لا بد» .

إذن : فساعة تسمع كلمة «لا جرم» ، أى : ثبت ، أو لا بد من حدوث الوعيد .

وأيضاً تجد كلمة «الجريمة» مأخوذه من «الجرم» ، وهى قطع ناموس مستقيم ، فحين نقرر ألا يسرق أحد من أحد شيئاً ، فهذا ناموس مستقيم ، فإن سرق واحد من آخر ، فهو قد قطع الأمن والسلام للناس ، وأىُّ جريمة هى قَطْع للمألوف الذى يحيا عليه الناس .

وأيضاً يقال : جرم [٣] الشىء أى : اكتسب شرَّه ، ومنه الجريمة ، ولذلك يقال : من الناس من هو «جارم» وهى اسم فاعل من الفعل : «جرم» ، مثل كلمة «كاتب» من الفعل «كتب» و«مجروم عليه» وهى اسم مفعول ، مثلها مثل «مكتوب» .

فإن أخذت الجريمة من قطع الأمر السائد فى النظام ، فهؤلاء الذين افتروا على الله وظلموا وصدوا عن سبيل الله ، فلا جريمة فى أن يعذبهم الله بالنار .

---

(١) البد : النصيب من كل شىء . ولا بد منه : لا مفر . [المعجم الوسيط] .

(٢) الجرمة : ما قطع من البسر (التمر) . [المعجم الوسيط] .

(٣) جرم الشىء ، جرماً : قطعه وغلب على فعل الشر . يقال : جرم أذنب وجنى جناية ، وجرم المال : كسبه من أى وجه . وجرمه : حمله على فعل شر أو ذنب أو جرم . قال تعالى : ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا .. (٨) ﴾ [المائدة] أى : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل .

ومثل هذه العقوبة ليست جريمة ؛ لأن العقوبة على الجريمة ليست جريمة ، بل هى مَنْع للجريمة [(١)] .

وهكذا تلتقى المعانى كلها ، فحين نقول: ﴿لا جَرَمَ﴾ فذلك يعنى أنه لا جريمة فى الجزاء ؛ لأن الجريمة هى الآثام العظيمة التى ارتكبوها .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ..(٤٠)﴾ [الشورى]

وقد سمَّاها الحق سيئة ؛ لأنها تسىء إلى المجتمع ، أو تسىء إلى الفرد نفسه .

ولهذا يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦)﴾ [النحل]

وهكذا نجد أن هناك معانى متعددة لتأويل قول الحق سبحانه : ﴿لا جَرَمَ﴾ ، فهى تعنى: لا قطع لقول الله فى أن المشركين سيدخلون النار ، أو لا بد أن يدخلوا النار ، أو حق وثبت أن يدخلوا النار ، أو لا جريمة من الحق سبحانه عليهم أن يفعل بهم هكذا ؛ لأنهم هم الذين فعلوا ما يستحق عقابهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ (٢٢)﴾ [هود]

وكلمة (الأخسرون) جمع «أخسر» [(٢)] وهى أفعل تفضيل لخاسر ، وخاسر اسم فاعل مأخوذ من الخسارة .

---

(١) ولذلك قال سبحانه : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾ [البقرة] قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٢١١) : « إذا علم القاتل أنه يُقتل انكف عن صنيعه ، فكان فى ذلك حياة للنفوس . قال أبو العالية : جعل الله القصاص حياة ، فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يُقْتَل» .

(٢) أخسر : صيغة أفعل التفضيل ، وتفيد المبالغة فى المعنى ، أى : أكثر وأشد خسارة . [راجع : لسان العرب - مادة : خسر]

والخسارة فى أمور الدنيا أن تكون المبادلة إجحافاً[1] لواحد ، كأن يشترى شيئاً بخمسة قروش وكان يجب أن يبيعها بأكثر من خمسة قروش ، لكنه باعها بثلاثة قروش فقط ، فبعد أن كان يرغب فى الزيادة ، باع الشىء بما ينقص عن قيمته الأصلية.

ومن يفعل ذلك يسمى «خاسر» ، والخسارة فى الدنيا موقوتة بالدنيا ، ومن يخسر فى صفقة قد يربح فى صفقة أخرى.

ولنفترض أنه قد خسر فى كل صفقات الدنيا ، فما أقصر وقت الدنيا ! لأن كل ما ينتهى فهو قصير ، لكن خسارة الآخرة لا نهاية لها.

ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم[2] بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ[3] ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ [الكهف]

وهكذا وصفهم الحق سبحانه مرة بأنهم الأخسرون ، ومرة يقول سبحانه واصفاً الحكم عليهم:

﴿..أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥)﴾ [الزمر]

---

(١) الجحف والمجاحفة: أخذ الشىء واجترافه. والجحف: شدة الجرف. والإجحاف: الظلم الشديد. [انظر: لسان العرب: مادة جحف].

(٢) أنبأه بالشىء ، ونبأه به: أخبره به وذكر له قصته. والنبأ: الخبر ، أو الخبر ذو الشأن والقصة ذات البال. والإنباء أيضاً: التحديث ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١)﴾ [الحجر]. أى: حدِّثهم. [القاموس القويم ٢/ ٢٥٠]

(٣) الآية عامة فى كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبول وهو مخطىء وعمله مردود ، فتجدهم يعتقدون أنهم على شىء وأنهم مقبولون محبوبون ، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور]. [تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٧] بتصرف.

وهو خسران محيط يستوعب كل الأمكنة.

وشاء الحق سبحانه بعد ذلك أن يأتي بالمقابل لهؤلاء ، وفي ذلك فيض من الإيناسات المعنوية ؛ لأن النفس حين ترى حكماً على شيء تأنس أن تأخذ الحكم المقابل على الشيء المقابل.

فحين يسمع الإنسان قول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ [1] لَفِي نَعِيمٍ (١٣) ﴾ [الانفطار]

فلا بد أن يأتي إلى الذهن تساؤل عن مصير الفُجَّار ، فيقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ [2] لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الأنفطار]

وهذا التقابل يعطي بسطة النفس الأولى وقبضة النفس الثانية ، وبين البسطة والقبضة توجد الموعظة ، ويوجد الاعتبار.

ويأتي الحق سبحانه هنا بالمقابل للمشركين الذين صدوا عن سبيل الله ، فصاروا إلى النار ، والمقابل هم المؤمنون أصحاب العمل الصالح.

فيقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوا [3] إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٣) ﴾

---

(١) الأبرار: جمع بَرّ ، وهو الرجل الصادق الصالح صاحب الطاعة والإحسان. والبار: هو الذي يبر والديه فيحسن إليهما. [لسان العرب - مادة: برر] بتصرف.

(٢) الفجار: جمع فاجر ، وهو المنبعث في المعاصي ، غير مكترث ولا مبال ، وهو أيضاً من بالغ في العصيان وجهر به. [القاموس القويم ٢/ ٧٣] بتصرف.

(٣) أخبتوا إلى ربهم: تواضعوا وخشعوا وساروا في الطريق المستقيم المطمئن الواسع. وقال تعالى: ﴿ .. وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) ﴾ [الحج]. أي: الخاشعين. والخبت: المكان الواسع المطمئن من الأرض. [القاموس القويم].

الإيمان - كما نعلم - أمر عقدى [١]، يعلن فيه الإنسان إيمانه بإله واحد موجود ، ويلتزم بالمنهج الذى أنزله الله سبحانه وتعالى على الرسول ﷺ ، ومن آمن بالله تعالى ولم يعمل العمل الصالح يتلقَّ العقاب ؛ لأن فائدة الإيمان إنما تتحقق بالعمل الصالح.

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول لنا:

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا [٢] وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤) ﴾
[الحجرات]

أى: اتبعتم ظاهر الإسلام.

وهكذا نعرف أنه يوجد مُتيقِّن بصحة واعتقاد بأن الإله الواحد الأحد موجود ، وأن الرسول ﷺ مُبلِّغ عن الله عز وجل ؛ لكن العمل الذى يقوم به الإنسان هو الفيصل بين مرتبة المؤمن ، ومرتبة المعلم.

فالذى يُحسن العمل هو مؤمن ، أما من يؤدى العمل بتكاسل واتِّباع لظواهر الدين ، فهو المسلم ، وكلاهما يختلف عن المنافق الذى يدَّعى الحماس إلى أداء العبادات ، لكنه يمكر ويبيِّت [٣] العداء للإسلام الذى لا يؤمن به.

وكان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ أسبق الناس إلى صفوف الصلاة ، وكانوا مع هذا يكتمون الكيد ويدبرون المؤامرات ضد النبى ﷺ.

---

(١) قال ابن منظور فى اللسان (مادة عقد) : «اعتقد كذا بقلبه ، وليس له معقود ، أى: عقد رأى. وفى الحديث: أن رجلاً كان يبايع وفى عقدته ضعف ، أى: فى رأيه ونظره فى مصالح نفسه». فالإيمان أمر يعتقده القلب.

(٢) الإيمان هو اعتقاد القلب الجازم الذى لا يداخله شك بالأمور الغيبية من إيمان بالله واليوم الآخر والكتب والرسل مما لا يراه الناس ، أما الإسلام فهو الالتزام الظاهرى بأحكام الدين من صلاة وصيام وغيرهما وإن لم يكن فى القلب إيمان. فالإيمان وحسنه أمر يعلمه الله من قلب كل عبد.

(٣) بيَّت أمراً: دبَّره فى خفاء ، كأنه دبَّره فى الليل ليخفيه. يقول تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (٨١) ﴾ [النساء]. [القاموس القويم - ١/ ٨٩]

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ..(٢٣) ﴾ [هود]

هذا القول يبيِّن لنا أن معيار الإيمان إنما يعتمد على التوحيد ، وإتقان أداء ما يتطلبه منهج الله سبحانه ، وأن يكون كل ذلك بإخبات وخضوع ، ولذلك يقال : رُبَّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً ، خير من عبادة أورثت عزّاً واستكباراً .

أى : أن المؤمن عليه ألا يأخذ العبادة وسيلة للاستكبار [١] .

وكلمة ﴿أَخْبَتُوا﴾ أى : خضعوا خشية لله تعالى ، فهم لا يؤدون فروض الإيمان لمجرد رغبتهم فى ألاَّ يعاقبهم الله ، لا بل يؤدون فروض الإيمان والعمل الصالح خشية لله .

وأصل الكلمة من «الخبت» وهى الأرض السهلة المطمئنة المتواضعة ، وكذلك الخبت فى الإيمان .

ويصف الحق سبحانه أهل الإيمان المخبتين بأنهم :

﴿ .. أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) ﴾ [هود]

أى : الملازمون لها ، وخلودهم فى الجنة يعنى أنهم يقيمون فى النعيم أبداً ، ونعيم الجنة مقيم ودائم ، على عكس نعيم الدنيا الذى قد يفوته الإنسان بالموت ، أو يفوت النعيم الإنسان بالسلب [٢] ؛ لأن الإنسان فى الدنيا عرضة للأغيار ، أما فى الآخرة ، فأهل الإيمان أصحاب العمل الصالح المخبتون لربهم ، فهم أهل النعيم المقيم أبداً .

---

(١) الاستكبار : التعاظم والتجبر على الناس وظلمهم بغير الحق ، وصيغة استفعل تشعر بتكلف وادعاء الشىء ، فالمستكبر يدعى أو يظن فى نفسه أنه كبير .

(٢) السلب : هو سلب النعمة من الإنسان .

وهكذا عرض الحق سبحانه حال الفريقين: الفريق الذى ظلم نفسه بافتراء الكذب على الله ، وصدوا عن سبيل الله ، وابتغوا الأمر عوجاً ، هؤلاء لن يُعجزوا [1] الله ، وليس لهم أولياء يحمونهم من العذاب المضاعف.

وهم الذين خسروا أنفسهم ، ولن يجدوا عوناً من الآلهة التى عبدوها من دون الله، ولا شىء بقادر على أن يفصل بينهم وبين العذاب، وهم الأخسرون.

أما الفريق الثانى فهم الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة بخشوع وخشية ومحبة لله سبحانه وتعالى ، وهم أصحاب الجنة الخالدون فيها.

إذن: فلكل فريق مسلكه وغايته .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

والفريقان هما من تحدثنا عنهما من قبل.

وكلمة «الفريق» تعنى: جماعة يلتقون عند غاية وهدف واحد ، مثلما نقول: فريق كرة القدم أو غيره من الفرق ، فهى جماعات ، وكل جماعة منها لها هدف يجمعها.

ونحن نجد الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ ..فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ [2] ﴿٧﴾ ﴾ [الشورى]

---

(١) أعجزه: جعله عاجزاً عن نيله ، وأفلت منه فلم يقدر عليه . قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنفال] أى: لا يعجزون الله إدراكهم وتعذيبهم وأخذهم بذنوبهم فلن يفلتوا.

(٢) السعير: النار المشتعلة المتقدة المتوهجة. يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ ﴾ [التكوير] أى: أوقدت بشدة. ويراد بالسعير: نار جهنم. ويقول تعالى: ﴿ ..مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [الإسراء] أى: زدناهم ناراً هائجة موقدة مشتعلة.

وكلمة ﴿الْفَرِيقَيْنِ﴾ جاءت فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ لأن كل فرقة تضم جماعة مختلفة عن الجماعة الأخرى ، ولهؤلاء متعصبون ، وللآخرين متعصبون.

ويضرب الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية المثل بسَيِّدَى الحواس الإدراكية فى الإنسان ، وهما السمع والبصر ، فهما المصدران الأساسيان عند الإنسان لأخذ المعلومات ، إما مسموعة ، أو مرئية ، ثم تتكون لدى الإنسان قدرة الاستنباط [1] والتوليد مما سمعه بالأذن ورآه بالعين.

ولذلك قال لنا الحق سبحانه :

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

إذن : فما دام الحق سبحانه قد جعل السمع والأبصار والأفئدة مصادر تأتى منها ثمرة ، هى المعلومات وتمحيصها [2] ، فالحق سبحانه يستحق الشكر [3] عليها.

ونحن نعلم أن الطفرات [4] الحضارية وارتقاءات العلم ، إنما تأتى بمن سمع ومن رأى ، ثم جاءت من الاستنباط أفكار تطبيقية تفيد البشرية.

---

(١) الاستنباط : استخراج الماء من باطن الأرض. ومن المجاز : استنبط الرأى الصحيح : استخرجه ببحثه وفكره كمن يستخرج ماء من البئر. يقول تعالى : ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ..(٨٣)﴾ [النساء].

(٢) تمحيص الشىء : اختباره وفحصه بدقة. [المعجم الوسيط] بتصرف.
وقال تعالى : ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)﴾ [آل عمران]. أى : يطهرهم ويخلصهم من العيوب ومن المنافقين ويقضى على الكافرين . وقال تعالى : ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ..(١٥٤)﴾ [آل عمران] أى : يطهر الإيمان الذى فى قلوبهم من الوساوس والشكوك. [القاموس القويم].

(٣) الشكر : مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية ، فيثنى على المنعم بلسانه ، ويذيب نفسه فى طاعته ويعتقد أنه موليها.

(٤) طفرات : جمع طفرة ، وهى وثبة فى ارتفاع. وقد طفر يطفر : وثب فى ارتفاع. [انظر لسان العرب].

ومثال ذلك : هو من رأى إناء طعام وله غطاء ، وكان بالإناء ماء يغلى ، فارتفع الغطاء عن الإناء .

هذا الإنسان اكتشف طاقة البخار ، واستنبط أن البخار يحتاج حيِّزاً أكبر من حيز السائل الموجود فى الإناء ؛ لذلك ارتفع الغطاء عن الإناء ، وارتقى هذا الاكتشاف ليطور كثيراً من أوجه الحياة .

ولو أن كل إنسان وقف عند ما يسمعه أو يراه ولم يستنبط منه شيئاً لما تطورت الحياة بكل تلك الارتقاءات الحضارية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٤) ﴾ [هود]

ولن يشك كل من الأعمى أو الأصم أن من يرى أو من يسمع هو خير منه ، ولا يمكن أن يستوى الأعمى بالبصير ، أو الأصم بمن يسمع .

وهكذا جاء الحق سبحانه وتعالى بالأشياء المتناقضة ، ليحكم الإنسان السامع أو القارىء لهذه الآية ، وليفصل بحكم يُذكِّره بالفارق بين الذى يرى ومن هو أعمى ، وكذلك بين من يسمع ومن هو أصم ، ومن الطبيعى ألا يستويان .

لذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ أى : ألا تعتبرون بوجود هذه الأشياء .

ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد قال لنا :

﴿ ..فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج]

أى: أن الإنسان قد يكون مبصراً ،أو له أذن تسمع ، لكنه لا يستخدم حاسة الإبصار أو حاسة السمع فيما خلقت من أجله فى التقاط مجاهيل الأشياء.

وبعد أن بيَّن الحق سبحانه وَصْفَ كل طرف وصراعه مع الآخر ، واختلاف كل منهما فى الغاية ، والصراع الذى بينهما تشرحه قصص الرسل عليهم السلام.

ويقول الحق سبحانه فى بعض من مواضع القرآن الكريم ، وفى كل موضع لقطات من قصة أى رسول ، واللقطة التى توجد فى سورة قد تختلف عن اللقطة التى فى سورة أخرى.

ومثال ذلك: أن الحق سبحانه قد تكلم فى سورة يونس عن نوح وموسى وهارون ويونس عليهم السلام ، وهنا - فى سورة هود - تأتى مرة أخرى قصة نوح عليه السلام ، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ[1] مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

والآية توضِّح مسألة إرسال نوح عليه السلام كرسول لقومه ، وعلى نوح الرسول أن يمارس مهمته وهى البلاغ ، فيقول :

﴿ ..إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [هود]

ونحن نلحظ أن همزة (إن) فى إحدى قراءَتَى الآية تكون مكسورة، وفى قراءة أخرى تكون مفتوحة [2]،أما فى القَراءة بالكسر فتعنى أن نوحاً عليه

(١) نذير: الرسول المنذر بالعذاب. وأنذره: حذره ، وأنذره شيئاً: أعلمه إياه وعرفه به وبما يترتب عليه من ضرر فى مدة تكفى للتحفظ منه. أى: خوَّفه منه ليبتعد عنه. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ..﴿٤٠﴾﴾ [النبأ] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا ..﴿٣٦﴾﴾ [القمر]. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الحج]. [القاموس القويم ٢/ ٢٥٨] بتصرف.

(٢) قراءة الفتح قرأها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى. قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٤٠) أى: أرسلناه بأنى لكم نذير مبين.

السلام قد جاء بالرسالة فبلغ قومه وقال:

﴿ .. إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [هود]

وأما في القراءة الأخرى بالفتح فتعني أن الرسالة هي:

﴿ ..أَنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [هود]

فكأن القراءة الأولى تعني الرواية عن قصة البلاغ ، والقراءة الثانية تحدد مضمون الرسالة : ﴿ .. أَنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [هود]

والقراءة الأولى فيها حذف القول ، وحذف القول كثير في القرآن ، مثل قوله تعالى:

﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم (١) مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ..﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد]

وهذا يعني أن الملائكة يدخلون على المؤمنين في الجنة من كل باب (٢) ، وساعة الدخول يقول الملائكة :

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ..﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد]

---

(١) الضمير في (عليهم) عائد على أولي الألباب الذين وصفهم ربهم بصفات استحقوا بها دخول جنات عدن. قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الرعد].

(٢) للجنة أبواب ، عدَّها بعض العلماء ثمانية أبواب ، استدلالاً بحديث رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ الوضوء - ثم يقول: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٤) من حديث عقبة بن عامر.

وقول نوح عليه السلام : ﴿ .. إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) ﴾ [هود]

نعلم منه أن النذير - كما قلنا من قبل - هو من يخبر بشرٍّ لم يأت وقته بعد ، حتى يستعد السامع لملاقاته ، وما دام أن نبى الله نوحاً قد جاء نذيراً ، فالسياق مستمر ؛ لأن الحق سبحانه قال فى الآية التى قبلها :

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ..(٢٤) ﴾ [هود]

أى : أن هناك فريقاً عاصياً وكافراً وله نذير ، أما الفريق الآخر فله بشير ، يخبر بخير قادم ليستعد السامع أيضاً لاستقباله بنفس مطمئنة .

والفريق الكافر الذى يستحق الإنذار ، يأتى لهم الحق سبحانه بنص الإنذار فى قوله تعالى : (١)

﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) ﴾

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام محسوب على قومه ، وهم محسوبون عليه ؛ ولذلك نجده خائفاً عليهم ؛ لأن الرباط الذى يربطه بهم رباط جامع قوى .

وكذلك نجد الحق سبحانه يُحنِّن قلوب المرسل إليهم لعلهم يحسنون استقبال الرسول .

ومثال ذلك : قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ..(٦٥) ﴾ [الأعراف]

ولأن الرسول أخ لهم فلن يغشَّهم أو يخدعهم .

---

(١) وذلك أنهم كانوا يعبدون مع الله سبحانه أصناماً ، وهى التى ورد ذكرها فى سورة نوح - آية ٢٣ ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) ﴾ [نوح] وهم أسماء رجال صالحين ، لما ماتوا عمل الناس على هيئتهم أصناماً تذكرهم بأعمالهم ، ثم تقادم الزمن فأصبحوا يعبدونها من دون الله . [انظر : تفسير ابن كثير ٤/٤٢٦]

واستقبل الملأ من قوم نوح الأمر بما يقوله الحق سبحانه عنهم:

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ[1] ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا[2] بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾

والملأ - كما نعلم - هم وجوه القوم، وهم السادة الذين يملأون العيون مهابة، ويتصدرون أى مجلس

وهناك مثل شعبى فى بلادنا يوضح ذلك المعنى حين نقول: «فلان يملأ العين».

أى: أن العين حين تنظر إليه لا تكون فارغة، فلا جزء فى العين يرى غيره.

ويقال أيضاً: «فلان قَيْد النواظر» أى: أنه إذا ظهر تقيَّدت به كل النواظر، فلا تلتفت إلى سواه، ولا يمكن أن يكون كذلك إلا إذا كانت فيه مزايا تجذب العيون إليه بحيث لا تتحول عنه.

والمراد بذلك هو الحاشية المقربة، أو الدائرة الأولى التى حول المركز، فَحَوْل كل مركز هناك دوائر، والملأ هم الدائرة الأولى، ثم تليهم دائرة ثانية، ثم ثالثة وهكذا، والارتباك إنما ينشأ حين يكون للدائرة أكثر من مركز، فتتشتت الدوائر.

وردَّ الذين يكوِّنون الملأ على سيدنا نوح قائلين:

---

(١) الملأ: أشراف القوم أو جميعهم.

(٢) الذين هم أراذلنا: أى: أفقرنا وأحقر الناس فى نظرنا.
بادى الرأى: ظاهره الذى لا روية فيه، أى: رأى سطحى غير متعمق.
وقرىء «باديءَ الرأى»: أى: بدء الرأى وأوله من غير روية أيضاً [القاموس القويم].

﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا ..(٢٧)﴾ [هود]

أى: أنه لا توجد لك ميزة تجعلك متفوقاً علينا ، فما الذى سوَّدك[1] علينا لتكون أنت الرسول ؟

وقولهم هذا دليل غباء ؛ لأن الرسول ما دام قد جاء من البشر ، فسلوكه يكون أسوة ، وقوله يصلح للاتباع ، ولو كان الرسول من غير البشر لكان من حق القوم أن يعترضوا ؛ لأنهم لن يستطيعوا اتخاذ المَلاك[2] أسوة لهم .

ولذلك بيَّن الحق سبحانه هذه المسألة فى قوله تعالى :

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً (٩٤)﴾ [الإسراء]

وجاء الرد منه سبحانه بأن قُلْ لهم :

﴿..لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾ [الإسراء]

إذن : فالرسول إنما يجىء مُبلِّغ منهج وأسوة[3] سلوك ، فإذا لم يكن من جنس البشر ، فالأسوة لن تصلح ، ولن يستطيع إلا البلاغ فقط .

---

(١) سودك علينا : جعل لك السيادة والرياسة علينا فتأمرنا وتنهانا .

(٢) إذ كيف يتخذون الملاك أسوة لهم ، وهو من جنس غير جنسهم . وله أحكام وقدرات تختلف عن قدراتهم ، فلا يصلح الاحتجاج بأفعال الملائكة على غيرهم من الأجناس . ولذلك عندما قال مشركو مكة : ﴿..لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ قيل لهم : ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام] . [بتصرف من تفسير ابن كثير ٢/ ١٢٤]

(٣) الأسوة : القدوة . والمراد بها هنا : القدوة الحسنة التى ينبغى على الجميع الاقتداء بها . قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ..(٢١)﴾ [الأحزاب] .

ومثال ذلك : أنت حين ترى الأسد فى أى حديقة من حدائق الحيوان ، يصول ويجول ، ويأكل اللحم النَّىء المقدم له من الحارس ، أتحدثك نفسك أن تفعل مثله؟ . . طبعاً لا ، لكنك إن رأيت فارساً على جواد ومعه سيفه ، فنفسك قد تحدثك أن تكون مثله .

وهكذا نجد أن الأسوة تتطلب اتحاد الجنس ؛ ولذلك قلنا : إن الأسوة هى الدليل على إبطال من يدَّعى الألوهية لعزير [1] أو لعيسى عليهما السلام .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان الملأ الكافر من قوم نوح :

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا . . (٢٧) ﴾ [هود]

والأراذل [2] جمع «أرذل» ، مثل قولنا : «أفاضل قوم» ، وهى جمع «أفضل» .

والأرذل هو الخسيس الدنىء فى أعين الناس . ورذال المال أى : رديئه . ورذال كل شىء هو نفايته .

ونرى فى الريف أثناء مواسم جمع «القطن» عملية «فرز» القطن ، يقوم بها صغار البنين والبنات ، فيفصلون القطن النظيف ، عن اللوز الذى لم يتفتح

---

(١) عزير : هو رجل صالح من بنى إسرائيل جعله اليهود ابناً لله وعبدوه لعلمه بالتوراة وحفظه لها كما فى الكتب حرفاً بحرف [القاموس القويم ٢/ ١٨] ، و [تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤٨] ، وهو الذى ورد ذكره فى سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾ [البقرة] .

(٢) رَذُلَ الشىء ، رَذالة ورُذُلة : صار خسيساً رديئاً ، فهو رَذْلٌ .

والأرذل : اسم تفضيل يفيد المبالغة فى الصفة . وقال تعالى فى سورة النحل : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ . . (٧٠) ﴾ [النحل] أى : إلى الهرم والعجز . وقال تعالى : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) ﴾ [الشعراء] ، أى : أخسُّ الناس ، فى نظرنا . وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا . . (٢٧) ﴾ [هود] . أى : أفقرنا وأحقر الناس فى نظرنا . [القاموس القويم] .

بالشكل المناسب ؛ لأن اللوزة المصابة عادة ما تعانى من ضمور ، ولم تنضج النضج الصحيح.

وكذلك يفعل الفلاحون فى موسم جمع «البلح» ، فيفصلون البلح الجيد عن البلح المعيب.

إذن : فرذال كل شىء هو نفايته.

وقد قال الملأ من الكفار من قوم نوح :

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا . .(٢٧) ﴾ [هود]

أى : أنهم وصفوا من آمنوا بنوح عليه السلام بأنهم نفاية المجتمع.

وجاء الحق على ألسنتهم بقولهم فى موضع آخر :

﴿ . .وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (١١١) ﴾ [الشعراء]

ولم يَنْفِ نوح عليه السلام ذلك ؛ لأن الذين اتبعوه قد يكونون من الضعاف ، وهم ضحايا الإفساد ؛ لأن القوى فى المجتمع لا يقربه أحد ؛ ولذلك فإنه لا يعانى من ضغوط المفسدين ، أما الضعاف فهم الذين يعانون من المفسدين ؛ فما إن يظهر المُخلِّص لهم من المفسدين فلا بد أن يتمسكوا به.

ولكن ذلك لا يعنى أن الإيمان لا يلمس قلوب الأقوياء ، بدليل أن البعض من سادة وأغنياء مكة استجابوا للدعوة المحمدية مثل : أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، رضى الله عنهم.

ولكن الغالب فى دعوات الإصلاح أنه يستجيب لها المطحونون بالفساد ، هؤلاء الذين يشعرون بالغليان فى مراجل [1] الألم بسبب الفساد ، وما إن

(١) المراجل : جمع مرجل ، وهو كل ما طبخ فيه من قدر وغيرها. وقيل : هو القدر المصنوع من النحاس خاصة. [انظر : اللسان ، مادة : رجل].

يظهر داعية إلى الإصلاح ويريد أن يزحزح الفساد ، فيلتفُّون حوله ويتعاطفون معه ، وإن كانوا غير عبيد ، لكن محكومين بالغير ، فهم يؤمنون علناً برجل الإصلاح ، وإن كانوا عبيداً مملوكين للسادة ؛ فهم يؤمنون خفية ، ويتحمل القوى منهم الاضطهاد والتعذيب.

إذن: فكل رسول يأتى إنما يأتى فى زمن فساد ، وهذا الفساد ينتفع به بعض الناس ؛ وطغيان يعانى منه الكثيرون الواقع عليهم الفساد والطغيان.

ويأتى الرسول وكأنه ثورة على الطغيان والفساد ؛ لذلك يتمسك به الضعفاء ويفرحون به ، وتلتف قلوبهم حوله.

أما المنتفعون بالفساد فيقولون: إن أتباعك هم أراذلنا. وكأن هذا القول طَعْن فى الرسول ، لكنهم أغبياء ؛ لأن هذا القول دليل على ضرورة مجىء الرسول ؛ ليخلص هؤلاء الضعاف ، ويجىء الرسول ليقود غضبة على فساد الأرض ، ولينهى هذا الفساد.

وهى غضبة تختلف عن غضبة الثائر العادى من الناس ، فالثائر من الناس يرى من يصفق له من المطحونين بالفساد.

لكن آفة [1] الثائر من البشر شىء واحد ، هى أنه يريد أن يستمر ثائراً ، ولكن الثائر الحق هو الذى يثور ليهدم الفساد ، ثم يهدأ ليبنى الأمجاد ، فلا يسلط السيف على الكل ، ولا يفضِّل قوماً على قوم ، ولا يدلل مَنْ طُغِى عليهم ، ويظلم مَنْ طغوا.

بل عليه أن يحكم بين الناس بالعدل والرحمة ؛ لتستقيم الأمور ، وتذهب الأحقاد ، ويعلم الناس كلهم أن الثائر ما جاء ضد طائفة بعينها ، وإنما جاء ضد ظلم طائفة لغيرها ، فإذا أخذ من الظالم وأعطى المظلوم ؛ فليجعل الاثنين سواء أمام عينيه.

---

(١) آفة الشىء: الخطأ الذى فيه ، أو نقصه ، أو عيبه. [راجع: لسان العرب – مادة أوف]

ومن هنا يجىء الهدوء والاستقرار فى المجتمع .

إذن : فقد كان قول الكافرين من ملأ قوم نوح :

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا . . (٢٧) ﴾ [هود]

هو قول يؤكد وجود الفساد فى هذا المجتمع ، وأن الضعاف المطحونين من الفساد قد اتبعوا نوحاً عليه السلام .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ بَادِىَ الرَّأْىِ . . (٢٧) ﴾ [هود]

والبادى هو الظاهر ؛ ضد المستتر .

وهناك قراءة أخرى [1] هى ﴿ بَادِىءَ الرَّأْىِ . . ﴾ .

أى : بعد بدء الرأى .

والآية هنا تقول :

﴿ بَادِىَ الرَّأْىِ . . (٢٧) ﴾ [هود]

أى : ظاهر الأمر ، فساعة ما يُـلْـقى إلى الإنسان أىُّ شىء فهو ينظر له نظرة سطحية ، ثم يفكر بإمعان فى هذا الشىء .

وساعة يسمع الإنسان دعوى أو قضية ، فعليه ألا يحكم عليها بظاهر الأمر ، بل لا بد أن يبحث القضية أو الدعوى بتروٍّ وهدوء .

وهم قد قالوا لنوح عليه السلام : أنت بشر مثلنا ، وقد اتبعك أراذلنا ؛ لأنهم نظروا إلى دعوتك نظرة ظاهرية ، ولو تعقَّبوا دعوتك وتأمَّلوها ونظروا فى عواقبها بتدبُّر لما آمنوا بها .

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٤٢) : «يجوز أن يكون «بادى الرأى» من بدأ يبدأ وحذف الهمزة . وحقق أبو عمرو الهمزة فقرأ «بادىء الرأى» أى أول الرأى ، أى : اتبعوك حين ابتدءوا ينظرون ، ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك ، ولا يختلف المعنى ها هنا بالهمز وترك الهمز» .

ويكشف الحق سبحانه هذا الغباء فيهم ، فقول الملأ بأن الضعفاء كان يجب عليهم أن يتدبروا الأمر ويتمعنوا فى دعوة نوح قبل الإيمان به ، ينقضه إصرار الضعفاء على الإيمان ؛ لأنه يؤكد أن جوهر الحكم عندهم جوهر سليم ؛ لأن الواحد من هؤلاء الضعفاء لا يقيس الأمر بمقياس من يملك المال ، ولا بمقياس من يملك الجاه ، ولا بمقياس من له سيادة ، بل قاس الضعيف من هؤلاء الأمر بالقلب ، الذى تعقَّل وتبصَّر ، وباللسان الذى أعلن الإيمان ؛ لأن الإنسان بأصغريه : قلبه ولسانه [1] .

إذن : فهذا الملأ الكافر من قوم نوح - عليه السلام - قد حكم بأن الضعاف أراذل بالمقاييس الهابطة ، لا بالمقاييس الصحيحة .

ولو امتنع هؤلاء الذين يُقال عنهم «أراذل» عن خدمة من يقال لهم «سادة» لذاق السادة الأمرَّين ، فهم الذين يقدِّمون الخدمة ، ولو لم يصنع النجار أثاث البيت لما كانت هناك بيوت مؤثثة .

ولو امتنع العمال عن الحفر والبناء لما كانت هناك قصور مشيدة .

ولو امتنع الطاهى عن طهى الطعام لما كانت هناك موائد ممتدة ، وكل خدمات هؤلاء الضعاف تصب عند الغنى أو صاحب المال أو صاحب الجاه .

وهكذا نرى أن الكون يحتاج إلى من يملك الثروة - ولو عن طريق الميراث - ليصرف على من يحتاجه المجتمع أيضاً ، وهم الضعاف الذين يعطون الخير من كدِّهم وإنتاجهم .

إذن : فالضعفاء هم تتمة السيادة .

---

(١) هذا من أمثال العرب : المرء بأصغريه ، وأصغراه قلبه ولسانه . قال ابن منظور فى لسان العرب : «معناه : أن المرء يعلو الأمور ، ويضبطها بجنانه ولسانه» .

وحين نمعن النظر لوجدنا أن سيادة الثَّرىِّ أو صاحب الجاه إنما تأتى نتيجة لمجهودات من يقال عنهم: إنهم أراذل.

ولو أنهم تخلَّوا عن الثرى أو صاحب الجاه ، لما استطاع أن يكون سيداً.

ويذكر لنا الحق سبحانه بقية ما قاله الملأ الكافر من قوم نوح:

﴿ ..وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود]

وهم - بهذا القول - قد أنكروا أن سيادتكم إنما نشأت بجهد من قالوا عنهم إنهم أراذل ، وأنكروا فضل هؤلاء الناس.

ويُلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى الآفة التى تنتاب بعض المجتمعات حين يذكر لنا ما قاله الكافرون:

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ [1] عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا [2] ..﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف]

إذن : فالحق سبحانه هو الذى قسم المعيشة ، وآفة الحكم أن ننظر إلى المرفوع على أنه الغنى ، لا ، فليس المرفوع هو الغنى ، بل هو كل ذى موهبة ليست فى سواه.

وما دام مرفوعاً فى مجال فهو سيخدم غيره فيه ، وغيره سيخدمونه فيما رُفعوا فيه ؛ لأن المسألة أساسها التكامل.

---

(١) المقصود بالقريتين: مكة والطائف. وقد اختلف العلماء فى المقصود بالرجلين ، ذكر ابن كثير هذا الاختلاف ، ثم قال: «الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان» تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٧).

(٢) سخرياً: أى : يُسخِّر بعضهم بعضاً فى الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا وهذا إلى هذا. قاله السدى وغيره. (تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٧) ونقل ابن منظور فى اللسان: «سخريّا: عبيداً وإماء وأجراء».

راجعه على الأصل وخرَّج أحاديثه صاحب الفضيلة الشيخ / محمد السنراوى المستشار بالأزهر والأستاذ / عادل أبو المعاطى.

فهرس آيات المجلد العاشر

سـورة يونس	الصفحة
الآية : ٧٨	٦١٣٥
الآية : ٧٩	٦١٤٢
الآية : ٨٠	٦١٤٢
الآية : ٨١	٦١٤٥
الآية : ٨٢	٦١٤٦
الآية : ٨٣	٦١٤٧
الآية : ٨٤	٦١٥١
الآية : ٨٥	٦١٥٤
الآية : ٨٦	٦١٥٦
الآية : ٨٧	٦١٥٨
الآية : ٨٨	٦١٦٥
الآية : ٨٩	٦١٧٣
الآية : ٩٠	٦١٧٨
الآية : ٩١	٦١٨٢
الآية : ٩٢	٦١٨٣
الآية : ٩٣	٦١٨٩
الآية : ٩٤	٦١٩٧
الآية : ٩٥	٦٢٠١
الآية : ٩٦	٦٢٠٥
الآية : ٩٧	٦٢٠٧
الآية : ٩٨	٦٢١١

سـورة يونس	الصفحة
الآية : ٩٩	٦٢١٩
الآية : ١٠٠	٦٢٢٤
الآية : ١٠١	٦٢٣٤
الآية : ١٠٢	٦٢٤١
الآية : ١٠٣	٦٢٤٤
الآية : ١٠٤	٦٢٤٥
الآية : ١٠٥	٦٢٤٩
الآية : ١٠٦	٦٢٥١
الآية : ١٠٧	٦٢٥٢
الآية : ١٠٨	٦٢٥٦
الآية : ١٠٩	٦٢٦١

سـورة هـود	الصفحة
الآية : ١	٦٢٨٥
الآية : ٢	٦٢٩٨
الآية : ٣	٦٣٠٧
الآية : ٤	٦٣١٤
الآية : ٥	٦٣١٥
الآية : ٦	٦٣٢٠
الآية : ٧	٦٣٢٥
الآية : ٨	٦٣٣١
الآية : ٩	٦٣٤٥

سـورة هـود	الصفحة
الآية : ١٠	٦٣٥١
الآية : ١١	٦٣٥٥
الآية : ١٢	٦٣٦٣
الآية : ١٣	٦٣٧١
الآية : ١٤	٦٣٧٦
الآية : ١٥	٦٣٨١
الآية : ١٦	٦٣٨٨
الآية : ١٧	٦٣٨٩
الآية : ١٨	٦٣٩٨
الآية : ١٩	٦٤٠٣
الآية : ٢٠	٦٤٠٧
الآية : ٢١	٦٤١٢
الآية : ٢٢	٦٤١٤
الآية : ٢٣	٦٤١٨
الآية : ٢٤	٦٤٢١
الآية : ٢٥	٦٤٢٤
الآية : ٢٦	٦٤٢٦
الآية : ٢٧	٦٤٢٧

طبعت بمطابع دار اخبار اليوم
٦ اكتوبر